

المجتمع في مصر الإسلامية

من الفتح العربي إلى العصر الفاطمي

الجزء الأول

هويدا عبد العظيم رمضان

تقديم

د. عبد العظيم رمضان



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٤

الإخراج الفنى والتنفيذ :

صبره عبده الواجد

إهداء

لوالدى وأستاذى الدكتور عبد العظيم رمضان
ولأستاذتى الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف
إعترافا بالفضل وتقديرا لدورهما فى تكوينى الفكرى و العلمى .

تقديم

بقلم د. عبد الحليم رمضان

ربما كان من غير المؤلف أن يكتب أستاذ فى التاريخ الحديث والمعاصر مثلى تقديماً لكتاب فى التاريخ الإسلامى! ولكن الغرابة تزول إذا عرفت الأسباب. وأول هذه الأسباب هو أنه على الرغم من كونى أستاذاً للتاريخ المعاصر، إلا أنى لست غريباً عن التاريخ الإسلامى . ففى عام ١٩٨٠ - ١٩٨١ حين كنت أستاذاً زائراً فى جامعة لندن ، وكنت فى الوقت نفسه أغذى بعض الصحف العربية بمقالاتى، طلبت منى جريدة «العرب» التى تصدر بلندن أن أعد لها دراسة تصدر فى حلقات اسبوعية عن العلاقات بين العرب وأوروبا، وقد استجبت لهذه الدعوة، ورأيت أن أبدأ بها منذ ظهور الاسلام حتى انتهاء الحروب الصليبية، وهو ماتم بالفعل، واستمر نشر حلقات هذه الدراسة عاماً وثلاثة أشهر، ثم أصدرتها فى كتاب بعد عودتى الى مصر تحت عنوان «الصراع بين العرب وأوروبا من ظهور الاسلام الى انتهاء الحروب الصليبية».

وقد كان السبب فى قبولى القيام بدراسة فى التاريخ الاسلامى على الرغم من كونى أستاذاً للتاريخ الحديث والمعاصر، هو إيمانى بأن منهج البحث التاريخى هو منهج واحد فى تعرضه لجميع العصور التاريخية. فهذا المنهج يقوم على أساس واحد هو استرداد الحدث التاريخى من الماضى كما كان، أو قريباً مما كان، ويستوى فى ذلك أن يكون هذا الحدث فى العصر الاسلامى أو الحديث أو المعاصر. أما بالنسبة للشكل الاكاديمى للدراسة التاريخية فهو شكل واحد، كما أن كيفية الوصول الى الحقيقة التاريخية هى كيفية واحدة فى كل العصور، يتعلمها طلبة قسم التاريخ فى الجامعات تحت اسم «منهج البحث التاريخى» وهو منهج جمع بقايا الحدث التاريخى - أى مصادره ووثائقه - ونقد هذه المصادر والوثائق نقداً علمياً تاريخياً، ثم إعادة تصوير الحدث التاريخى - أو إعادة تركيب صورة هذا الحدث - وفقاً للثقافة المؤرخ ومكانه الجغرافى وأيديولوجيته.

وهذا - تماما - هو ما حدث فى دراستى عن « تاريخ الصراع بين العرب وأوروبا من ظهور الاسلام حتى انتهاء الحروب الصليبية»، الذى طبعته دار المعارف فى يناير ١٩٨٣، أى منذ عشر سنوات تقريبا.

وقد شجعنى ذلك على تقبل فكرة أن تخصص ابنتى هويدا فى التاريخ الاسلامى عند تعيينها معيدة فى قسم التاريخ بكلية بنات عين شمس، على الرغم من أنه كان من اليسير تحويلها الى فرع التاريخ الحديث.

وكنت فى ذلك متأثرا بقولة فيلسوف التاريخ الشهير كروتشه Croce إن التاريخ كله تاريخ معاصر.

فالتاريخ ليس استعادة رفات الأحداث من الماضى، وإنما إحيائها وبعثها من مرقدها. والمؤرخ لا يجب أن يكتفى بمجرد فهم مادته التاريخية، وإنما يتجاوب معها الى حد أن تعيش معه فى ذاته حتى يستطيع أن يبيت فيها الحياة من روحه.

وقد كان هذا هو ما اهتمت بزعه فى ذهن ابنتى هويدا حتى لا تفهم أن الكتابة التاريخية هي مجرد قص ولصق للمادة التاريخية المجمعة، وإنما التفاعل مع الأحداث، والعيش فى محيطها، وتمثلها. كما اهتمت بزعم حقيقة أخرى فى ذهنها، وهى أن الدراسة التاريخية هى بحث دؤوب عن الحقيقة، واستخراجها من أكوام الأساطير والأكاذيب والافتراءات.

على أنه كان على أيضا أن أقنعها بأن التاريخ لا يتحرك عشوائيا أو بمحض الصدفة، وإنما هو يتحرك وفقا لقوانين صارمة توجب حدوث الحدث التاريخى إذا توافرت شروطه، وأنه لا يمكن تفسير الحدث التاريخى بنفسه وإنما تفسيره فى ضوء بنائه التحتى المتمثل فى علاقات الانتاج، وأهمها علاقة الملكية، وبالتالي فمن الضرورى دراسة واستيعاب علاقات الملكية أولا إذا أريد تفسير الإدارة والقوانين والشرائع والفنون والآداب والعادات والتقاليد تفسيراً علمياً.

كان دورى - اذن - فى بناء هويدا العلمى هو بناؤها فكريا وأيديولوجيا ومنهجيا . أما البناء العلمى المتخصص فقد كان على يد أستاذة من أعظم

أساتذة التاريخ الاسلامى فى مصر، وهى الأستاذة الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف، التى أشرفت عليها أثناء إعداد رسالتها للماجستير - وهى الرسالة التى بين يدى القاريء - ووالتها بتوجيهاتها وإرشاداتها التى كان لها أهمية خاصة، نظرا لأن الدكتورة سيدة كاشف متخصصة فى الفترة الزمنية التى تعالج فيها هويدا موضوع المجتمع فى مصر الاسلامية.

ولقد عن لى أن عنوان الرسالة ينبغي أن يكون : «المجتمع المصرى فى صدر الاسلام»، ثم اقتنعت بأن مثل هذا العنوان لن يكون معبرا تماما عن الواقع الاجتماعى لمصر فى تلك الفترة، فلم يكن مجتمعا مصرىا بحثا كما هو الحال فى المجتمع المعاصر، وإنما كان مجتمعا مختلطا تعيش فيه عناصر غير مصرية الى جانب العناصر المصرية، وبالتالي فإن عنوان : «المجتمع فى مصر الاسلامية» أكثر علمية وبقّة.

على أن حجم الرسالة التى كان يزيد يوما بعد يوم أقلقنى ، خصوصا بعد أن أخذت السنوات تمضى دون أن تنتهى هويدا من رسالتها، حتى بلغت خمس سنوات تقريبا! وكانت هويدا تتذرع بأنه عليها أن تقرأ كل سطر فى المؤلفات الاسلامية القديمة، التى لم يتبع مؤلفوها طرق البحث العلمى الحديثة، وتختلط فيها المعلومات على نحو لا يتيسر معه فرزها، كما افترقت الى الكشافات التى تذلل مهمة الباحث - وهى مهمة شاقة تتطلب وقتا طويلا.

وقد خشيت أن تكون هذه الزيادة فى التفصيل وجمع المعلومات على حساب التحليل الذى هو مهمة الباحث الحق. ولكن هويدا ردت بأن الرسالة قامت أساسا على التحليل، فكيف يكون التفصيل على حساب التحليل؟ لقد قامت الرسالة على المنهج الجدلى الذى يفسر الظواهر التاريخية بعلاقات الانتاج المتمثلة فى علاقات الملكية، وبالتالي فإن كل تفصيل فى الدراسة هو تفصيل يستوجب التحليل ولا يمكن الاستغناء عنه.

ومع ذلك كان على انتظار رأى اللجنة العلمية التى أسند إليها مناقشة الرسالة، والتى كانت مكونة من أكبر أساتذة التاريخ الاسلامى فى مصر، وهم : الأستاذة الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف، والأستاذ الدكتور حسن حبشى، والأستاذة الدكتورة زبيدة عطا.

وقد جاء رأيهم معززا لرأى هويدا ، اذ أجمعوا على أن الرسالة على النحو الذى أعدت به تعتبر عدة رسائل مجمعة وليست رسالة واحدة، وأن كل فصل فيها كان يمكن تقديمه كرسالة منفصلة. وكان رأى البعض أنه لو كان قانون الجامعات يسمح بما تسمح به بعض الجامعات فى أوروبا لاستحقت الرسالة درجة الدكتوراه بدلا من درجة الماجستير. ومن هنا جاء اجماع الأساتذة على منح هويدا درجة الماجستير بتقدير « ممتاز ».

هذه هى الأسباب التى دعتنى الى كتابة هذا التقديم لهذا العمل العلمى، وفى الوقت نفسه تقديم هويدا كمؤرخة جديدة أنبتتها هذه التربة المعطاءة.. تربة مصر العظيمة التى علمت البشرية منذ آلاف السنين عندما كان العالم يسبح فى بحر من ظلام الجهل، وأقامت على ضفاف النيل حضارة مازالت تبهر العالم المتحضر. والله الموفق.

مصر الجديدة فى ٢٧/١١/١٩٩٣

أ. د . عبد العظيم رمضان

تقديم المؤلف

تعالج هذه الرسالة مرحلة ربما كانت أهم مراحل التحول فى تاريخ مصر الطويل ، وهى مرحلة التحول من الحكم البيزنطى إلى الحكم العربى ، ومن الدين المسيحى إلى الدين الإسلامى ، ومن اللغة القبطية - اليونانية إلى اللغة العربية ، ومن الثقافة اليونانية إلى الثقافة العربية ، ومن الشريعة والقوانين المسيحية إلى الشرائع والقوانين الإسلامية ، ومن العادات والتقاليد القبطية إلى العادات والتقاليد العربية - الإسلامية ، ومن الفنون القبطية إلى الفنون الإسلامية . وفى عبارة وجيزة من الحضارة القبطية - الاغريقية إلى الحضارة الإسلامية العربية .

فلم يحدث فى تاريخ مصر الطويل أن تم التحول فيها بهذا الشكل الشامل الذى غطى كل تفصيلىة من تفاصيل الحياة الاجتماعية ، فقد تحول المجتمع المصرى برمته تحولا حاسما ونهائيا ، وحتى يومنا هذا ، من المرحلة القبطية إلى المرحلة الإسلامية .

إن هذه الرسالة تتبع بدقة مرحلة التحول الهائلة هذه ، وتتناول كل جانب من جوانبها وترسم صورة متكاملة بقدر الإمكان للمجتمع الجديد الذى ظهر على أنقاض المجتمع القديم .

ولتحقيق هذا الغرض ، كان من الضروري للباحثة أن تمهد لذلك بفصل تمهيدى ترسم فيه صورة تفصيلية للمجتمع المصرى قبل الفتح العربى ، صورة تشمل أوضاعه الاقتصادية ، وعلاقاته الانتاجية ، وتكويناته الاجتماعية ، وثقافته ، وشرائعه ، حتى يمكن متابعة كل ما حدث من تحول فى هذا المجتمع نقله إلى الصورة الإسلامية التى استقر عليها .

وربما كان هذا الفصل التمهيدى مما يميز هذه الدراسة عن الدراسات القيمة التى سبقتها ، والتى ركزت من البداية على المرحلة الإسلامية .

كذلك كان من الضرورى تحديد المنهج العلمى الذى تتم فى إطاره هذه الدراسة ، وهو المنهج الذى يربط الظواهر بأسبابها .

ولما كان من المعروف أن نوعية علاقات الملكية هى الأساس الذى يبنى عليه البناء الحضارى المتمثل فى التنظيم السياسية والإدارية والقانونية والفنية والأدبية وغيرها ، فقد كان هذا هو المنهج الذى اتبعته فى هذه الدراسة ، فقد قسمت الدراسة إلى خمسة أبواب ترتبط ببعضها البعض ، إرتباط الظاهرة بأسبابها :

الباب الأول ، وهو النظام الاقتصادى ، والباب الثانى عن نظام الحكم ، والباب الثالث عن التكوين الاجتماعى للمجتمع المصرى ، والباب الرابع عن الحياة العقلية فى المجتمع المصرى ، والباب الخامس عن حركة البناء والتشييد فى المجتمع المصرى .

وبالنسبة للبَاب الأول ، وهو عن النظام الاقتصادى ، فقد قسمته إلى ثلاثة فصول ، الفصل الأول :

تناولت فيه الملكية العقارية فى مصر ، وقد مهدت له ببحث عن أنواع الأراضى فى الدولة الإسلامية ، ثم طبيعة الفتح العربى لمصر ، نظرا لأهميتها فى تحديد نوعية علاقات الملكية فى مصر ، ثم أنواع الأراضى فى مصر بعد الفتح ، وأشكال الحياة العقارية التى تناولنا منها : الاقطاع ، والأحباس أو الأوقاف ، ونظام القبالات .

وفى الفصل الثانى ، تناولت نظام جباية الخراج والجزية فى مصر ، وتعرضت فيه لخلط المصادر العربية بين معنى كل من الخراج والجزية ، وتحدثت عن المقصود بمصطلح خراج مصر ، وقيمة هذا الخراج ، وطريقة إرساله إلى الخليفة .

وقد خصصت فصلا ثالثا فى هذا الباب تناولت فيه طبقة الفلاحين ، وطبقة الصناع ، وطبقة التجار .

أما الباب الثانى وهو عن نظام الحكم فى المجتمع المصرى، فقد قسمته الى ثلاثة فصول، تناولت فى الفصل الأول النظام الادارى، وتحدثت فيه عن طبيعة النظام الادارى الذى وضعه العرب للمجتمع المصرى ، والمناصب الرئيسية التى تولاها العرب وهى : منصب الوالى ، وصاحب الخراج، وصاحب البريد، والمحاسب، وصاحب الشرطة.

أما الفصل الثانى فتناولت فيه النظام الحربى، وقد تعرضت فيه للجيش من حيث قوته وعدده وحامية الاسكندرية، وديوان الجند، ونظام التجنيد. كما تعرضت ثانيا للأسطول من حيث نشأته على يد العرب ، وتصنيعه، ونظام تشغيل الاقباط على السفن، واهتممت بالاسطول فى الدولتين الطولونية والاخشيديية.

أما الفصل الثالث من نظام الحكم، فقد تحدثت فيه عن النظام القضائى، وتناولت فيه أنواع المحاكم، من حيث المحاكم العادية، ومحاكم النظر فى المظالم، ومحاكم أهل النمة، وقضاء الجند، كما تعرضت للشهود، وأماكن انعقاد المحاكم، وإنشاء سجل للقضايا، ورواتب القضاة، كما خصصت جزءا من هذا الفصل لنظام السجون فى الدولة الاسلامية عامة، وفى الدولتين الطولونية والاخشيديية بصفة خاصة.

أما الباب الثالث ، وهو التكوين الاجتماعى للمجتمع المصرى، فقد قسمته الى ثلاثة فصول، تناولت فى الفصل الأول تعريف المجتمع المصرى ،

وعوامل اضطباغ المجتمع المصرى بالصبغة العربية، فتحدثت أولا عن هجرة القبائل العربية، وبداية نزوحها إلى مصر ، ومناطق سكناها ، والعوامل التى أدت إلى هجرتها ، وأسباب اختلاطها بالمصريين ، والأعمال التى اشتغل بها العرب فى مصر . كما تناولت أيضا ثورات العرب ، وأسماء القبائل العربية التى هاجرت إلى مصر ، حسب مناطق سكناها .

كذلك تحدثت عن عاملى انتشار اللغة العربية ، وانتشار الدين الإسلامى فى صيغ المجتمع بالصبغة العربية .

أما الفصل الثانى ، فقد تحدثت فيه عن المرأة ودورها فى المجتمع المصرى ، على الرغم من أن المصادر العربية كانت ضئيلة فى الكلام عن هذا الدور ، خاصة فى الفترة الخاضعة للبحث .

أما الفصل الثالث ، فقد تناولت فيه العادات والتقاليد فى المجتمع المصرى ، وما طرأ عليها من تحول وفقا لانتقال المجتمع المصرى إلى الإسلام والعروبة ، وتحدثت عن الأعياد الدينية للقبط والمسلمين واليهود والأعياد القومية ، كما تحدثت عن إحتفالات الزواج ، والألعاب ، والملابس ، والأطعمة والأشربة ، والقرافة والجناز .

أما الباب الرابع ، وهو عن الحياة العقلية فى المجتمع المصرى ، فقد قسمته إلى فصلين : الفصل الأول عن الحركة العلمية والأدبية ، وقد تعرضت فيه لتأثير الفتح العربى على الحركة الفكرية فى مصر ، والقوى الاجتماعية التى أسهمت فى الحركة العلمية ، واهتممت بتوضيح مدى تأثير المركز الفكرى للأسكندرية بالفتح العربى وتحدثت عن المراكز الجديدة للحركة الثقافية والعلمية التى أشعلت مصباح الحضارة الاسلامية ، والتى حلت محل الحضارة اليونانية المسيحية ، وتناولت ثلاثة مراكز : المركز الأول ، وهو الجوامع والمساجد والزوايا ، والمركز الثانى ، وهو مجالس الوزراء والعلماء ،

والمركز الثالث ، وهو المراكز الثقافية العامة مثل سوق الوراقين . وتحديث عن أبرز الشخصيات ، وأهم الأعمال العلمية والفكرية والثقافية التي ظهرت في تلك الفترة الخاضعة للبحث .

أما الفصل الثانى فقد خصصته للكلام عن الفنون . فلقد كان تغير الفن في مصر ضرورة تحتمها طبيعة النظام العريى الجديد الذى يدين بالديانة الإسلامية ، فظهر فيها مايعرف بالفن الإسلامى . وقد قسمت تاريخ الفن في مصر في الفترة الخاضعة للبحث إلى مرحلتين : المرحلة الأولى ، من الفتح العريى إلى العصر الطولونى ، والمرحلة الثانية ، من العصر الطولونى إلى العصر الفاطمى ، وتناولت فيها التغيرات التى طرأت على زخارف النسيج ، وعلى زخارف الخشب ، وعلى التصوير ، وعلى عمارة المساجد .

أما الباب الخامس ، وهو عن البناء والتشييد في المجتمع المصرى ، فقد قسمته الى ثلاثة فصول : الفصل الأول : العمائر المدنية ، وقد تناولت فيها العواصم والمدن والجواسق والمارستانات ، والحمامات ، والعيون والقناطر وغيرها .

أما الفصل الثانى فتناولت فيه العمائر الدينية ، وتحديث فيه عن الجوامع والمساجد والكنائس والمصليات والرباطات .

أما الفصل الثالث فتناولت فيه العمائر التجارية ، وقد تحديثت فيه عن القيساريات والفنادق .

وقد تمثلت أكبر صعوبة في هذا البحث في اعتماده بصفة أساسية على المصادر الأصلية في كتب المؤرخين القدامى . فبالإضافة الى ندرة هذه المصادر التى تتحدث عن الحياة الاجتماعية في هذه الفترة المبكرة من تاريخ مصر ، فإن هذه المصادر فى الأساس تتراكم فيها المعلومات بشكل غير مفروز ، وعلى الرغم من أن بعض المحققين قد قدموا فيها كشافات إلا أنها

غير كافية ، كما أن هناك معلومات هامة للغاية وردت فى سياق وقائع لا تمت لها بصلة ، الأمر الذى تطلب منى قراءة هذه المصادر صفحة صفحة ، وجملة جملة ، وكلمة كلمة ، حتى لا تفوتنى معلومة هامة يفيد منها هذا البحث . يضاف إلى هذه الصعوبة بعد الفترة الزمنية بين أقرب كتاب من هذه الكتب عن هذه الفترة ، والأحداث التى وقعت فيها ، فقد كان أقرب كتاب إليها هو كتاب : « فتوح مصر وأخبارها » لابن عبد الحكم الذى يبعد عنها بحوالى قرنين .

وهذا يدعونى إلى الاعتراف بكل صدق وأمانة بجميل أستاذتى الجليلة الفاضلة الأستاذة الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف ، أستاذة كرسى التاريخ الإسلامى والوسيط ، فقد كان من العسير إلى أبعد الحدود المضى فى هذا البحث ، لولا أن مهدت لى الطريق بأعمالها القيمة ، وبحوثها التى غطت مساحات كبيرة من هذه الفترة ، وعلى رأسها : « مصر فى فجر الإسلام » ، « مصر فى عصر الولاة » ، و« مصر فى عصر الاخشيديين » ، و« عبد العزيز بن مروان » ، و« أحمد بن طولون » ، و« مصر الإسلامية وأهل الذمة » ، و« مصادر التاريخ الإسلامى ومناهج البحث فيه » . هذا فضلا عن البحوث القيمة التى نشرت فى المجلات العلمية المختلفة وعلى رأسها : « دراسات فى المجتمع الإسلامى قبل العصر الفاطمى » ، و« الأرض والفلاح فى مصر الإسلامية » ، و« تعريب مجتمع الاسكندرية » ، و« دراسات فى النقود الإسلامية » ، و« العرب والبحار » ، و« تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية لساويرس بن المقفع وأهميته لدراسة التاريخ القومى » .

يضاف إلى هذه الأعمال المكتوبة النصائح الثمينة التى لم تدخر وسعا فى تزويدى بها على طول الدراسة والتى كانت خير هدى لى فى عملى فى إعادة تكوين الصورة التاريخية للتحوّل الكبير الذى طرأ على المجتمع المصرى فى تلك الفترة ، وما زودتنى به من كتب ومصادر من مكتبتها الخاصة .

وفوق ذلك كله ، ما حبتنى به من عطف وود وحب كان له الأثر الأكبر
فى إقبالى على البحث رغم مشاقه .

كذلك أقدم خالص الشكر والتقدير لأستاذى الجليل الأستاذ الدكتور
حسن حبشى ، أستاذ كرسى التاريخ الإسلامى والوسيط بكلية الآداب
جامعة عين شمس ، وأستاذتى الفاضلة الأستاذة الدكتورة زبيدة محمد عطا ،
أستاذة تاريخ العصور الوسطى ورئيسة قسم التاريخ بكلية الآداب جامعة
المنيا - لما تفضلا به من فحص هذه الرسالة ومناقشتها مناقشة علمية مع
أستاذتى الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف ، ومنحى درجة الماجستير بتقدير
« ممتاز » .

وأود أن أقول إنه عند إعدادى هذه الرسالة للطبع فى كتاب ، ونظرا
لضخامة حجمها الذى وصل إلى ٧٦٦ صفحة ، كان على تخفيف حجمها :
إما عن طريق إختصار المادة العلمية للرسالة ، وإما عن طريق حذف
حواشيها . وقد رأيت أنه ليس من حقى اختصار المادة العلمية ، لما فى ذلك
من إجحاف بحق القارئ، فى الحصول على المادة العلمية كاملة كما وردت
فى الرسالة الأصلية ، وفى الوقت نفسه رأيت أن حذف الحواشى بأكملها
يحرّم القارئ من الاطلاع على الايضاحات والشروح التى فسرت بها ما
ورد فى المتن . وأخيراً لجأت إلى حل وسط يتمثل فى الإبقاء على جميع
الحواشى التى تتضمن معلومة جديدة أو إضافة أو توضيحاً ، مما يهم
القارئ الإطلاع عليه ويعتبر استكمالاً لما ورد فى المتن ، وحذفت الحواشى
التي تشير إلى المصادر والمراجع التي لا تهم سوى القارئ المتخصص جداً،
إكتفاء بثبوتها فى النسخة الأصلية للرسالة .

وأرجو أن أكون قد وفقت فيما قصدت إليه من إلقاء مزيد من الضوء
على جوانب هذه المرحلة من تاريخ مصر ، والله ولى التوفيق .

عرض لأهم المصادر والمراجع

ربما كان أهم ما يأتى فى مقدمة هذه المصادر ، مجموعة أوراق البردى العربية التى نشر نصوصها وعلق عليها الدكتور أدولف جرومان ، وتقع فى ستة أجزاء .

ولهذه الأوراق أهمية كبيرة فى دراسة الحياة الاجتماعية والاقتصادية والمالية ، وقد استفدت منها فى بحثى فى الحياة الاجتماعية ، خاصة الأوراق التى تتعلق بعقود الزواج ، فقد أوضحت لى الكثير من عادات وتقاليد الزواج فى الفترة الخاضعة للبحث . كما أفادتنى فى الموضوع الخاص بالأرض والفلاح ، فعن طريقها توصلت إلى قيمة أجرة الزراع وشروط دفع الخراج ، هذا إلى جانب أسماء بعض الموظفين الإداريين الذين تتعلق وظيفتهم بالزراعة والاشراف على الأراضى الزراعية .

ويعتبر كتاب « فتوح مصر وأخبارها » لابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم المتوفى عام ٢٥٧هـ / ٨٧٠ م) من أنفس المصادر لتاريخ مصر الإسلامية ، ولا ترجع أهميته فقط إلى أنه من أقدم المصادر التى وصلت إلينا عن تاريخ مصر الإسلامية ، وقد نقل عنه الكثير من كتاب الإسلام ومؤرخيه ، وإنما ترجع أيضا إلى أن مؤلفه مصرى ولد وعاش بمصر ، ودرس مجتمعاتها وتقاليدها ، وهو سليل أسرة من الفقهاء والمحدثين كما ذكرت فى الفصل الخاص بالحركة العلمية فى مصر .

وقد كان كتاب ابن عبد الحكم خير عون لى فى تزويدى بأخبار الفتح الإسلامى لمصر ، وما تخلل هذا الفتح من سفارات ومفاوضات بين العرب

والروم ، تلقى الكثير من الضوء على سياسة العرب الدينية ، والنظام الذى كانوا يتبعونه فى فتح البلاد وإدارتها ، ثم الآراء التى قيلت عن طبيعة الفتح العربى لمصر ، وهل فتحت صلحا أو عنوة ؟ كما أفادنى هذا الكتاب فى الموضوع الخاص بخطط القبائل العربية فى مصر ، حيث عنى بإيراد القبائل العربية التى نزلت مصر ، ومناطق سكنها ، وخططها ، سواء كانت فى الفسطاط أو فى الجيزة أو فى الأسكندرية ، كما أشار أيضا إلى حركة الارتباع .

وقد استعنت به فى الفصل الخاص بجباية الخراج والجزية ، فكتاب ابن عبد الحكم يقدم لنا بحثا هاما عن الجزية وأحكامها ، وكيف طبقت على مصر ، وعن الخراج وجبايته ، كما أشار إلى الرسائل المتبادلة بين عمرو بن العاص والخليفة عمر بن الخطاب فى هذا الشأن . كذلك أفادنى فى الموضوع الخاص بالجيش فى مصر وتحديد طبيعة مهام رجال الجيش من العرب الذين كان يقتصر عملهم فى بداية الأمر على الجندية دون الأعمال الأخرى . ولم تقتصر أهمية هذا الكتاب على ذلك فقط ، وإنما أفدت منه كذلك فى الموضوع الخاص بالقضاة فى مصر ، حيث أمدنى بأسماء الكثيرين منهم .

كذلك استعنت به فى الموضوع الخاص بالحركة العلمية ، وتراجم بعض الشخصيات ، حيث أورد عددا هاما من أسماء الصحابة الذين دخلوا مصر ، وروى المصريون عنهم الكثير من الأحاديث .

ويلى كتاب ابن عبد الحكم فى الأهمية للرسالة كتاب « الولاة وكتاب القضاة » للكندى (أبو عمر محمد بن يوسف الكندى المصرى المتوفى عام ٣٥٠ هـ / ٦٩١ م) .

وكتاب الولاة يتناول ذكر الولاة الذين تعاقبوا على حكم مصر من الفتح حتى وفاة محمد بن طفج الاخشيدي عام ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م ويلى ذلك ذيل للكتاب يصل أخبار الدولة الاخشيديية بايجاز إلى مجيئ الفاطميين إلى

مصر ، مع ذكر طرف من أعمالهم وحروبهم ، وبمعنى آخر فھر يعنى بالتاريخ الادارى لمصر . ولذلك فقد اعتمدت عليه اعتماداً كلياً خاصة فى النظام الادارى بمصر ، وما يتعلق بوظيفة الوالى وصاحب الخراج ، والمحاسب ، وصاحب البريد .

كذلك أفادنى فى الموضوع الخاص بالحركة العلمية فى مصر ، حيث أمدنى بأسماء الشعراء فى مصر الإسلامية منذ الفتح العربى ، كما ورد فيه العديد من أشعارهم التى قيلت فى مناسبات مختلفة .

أما كتاب القضاة فقد اعتمدت عليه اعتماداً كلياً كذلك فى الموضوع الخاص بالقضاة فى مصر ، فهو يتناول تاريخ القضاة الذين تولوا قضاء مصر منذ الفتح إلى عام ٢٤٦ هـ / ٨٦٠ م ويليه ذيلين أولهما منسوب لأبى الحسن أحمد بن عبد الرحمن بن برد ويصل تاريخ القضاة إلى ولاية أبى الحسن على ابن النعمان فى عام ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م ، والثانى لكاتب مجهول ويلخص ذكر القضاة من عام ٣٤٧ هـ / ٩٥٨ م إلى عام ٤٢٣ هـ / ١٠٣١ م . ولم يكن الكندى هو صاحب الفضل فى معالجة هذا الموضوع فقد سبقه ابن عبد الحكم كما ذكرت آنفاً ، إلا أن أهمية كتاب القضاة للكندى تكمن فى إحتوائه على تفاصيل أحوال القضاة وبعض القضايا والأحكام ، مما أفادنى كثيراً فى تناولى لهذا الموضوع .

ومن الكتب الهامة كتاب «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» للمقرئزى (تقى الدين أبو العباس أحمد بن على المتوفى عام ٨٤٥ هـ / ١٤٤١م) وقد استفدت من هذا الكتاب فى عدة مواضيع من البحث ، فقد أفادنى فى الموضوع الخاص بالعادات والتقاليد المتعلقة بالأعياد ، خاصة أعياد القبط واليهود ، وكذلك المتعلقة بالزواج ، خاصة زواج اليهود .

كما أفادنى فى الموضوع الخاص بالبناء والتشييد ، سواء بناء الفسطاط ، أو العسكر أو القطائع . وفى بناء الكنائس فى الفترة الخاضعة للبحث .

واستعنت به فى الموضوع الخاص بالصناعة ، وخاصة صناعة المنسوجات ، وذلك بما أورده عن المدن الصناعية والتجارية ، فأعطانى معلومات وافية فيما يتعلق بالصناعات فى هذه البلاد أو بالزراعات أو بالعادات والتقاليد فيها .

كما أفرد فى كتابه صفحات عديدة لتاريخ الدولة الطولونية والأخشيديّة جمع فيها تاريخها السياسى والاجتماعى والحضارى .

ومن كتب المقرئى أيضا التى استفدت منها كتابه «البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب» ، وذلك فى الموضوع الخاص بالقبائل التى نزلت مصر ومناطق سكناها .

ومن الكتب التى أفادتنى خاصة فى الموضوعات التى تتعلق بالدولة الطولونية ، كتاب «سيرة أحمد بن طولون» للبلوى (أبو محمد عبد الله بن محمد المدينى توفى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى) . فقد استفدت منه بصفة خاصة فى الحديث عن كتاب الدولة الطولونية ، فى الموضوع الخاص بالحركة العلمية . كما أفادنى فى موضوع البناء والتشييد ، خاصة ما يتعلق بالأبنية فى الدولة الطولونية ، وما أنفق عليها ، هذا إلى جانب ذكره للكثير من العادات والتقاليد التى كانت سائدة فى ذلك العصر . وكان من أهم الموضوعات التى اعتمدت عليه فيها هى وصفه لجنازة أحمد بن طولون .

كذلك من الكتب التى استعنت بها كتاب «فضائل مصر» للكندى (عمر ابن محمد بن يوسف الكندى توفى بعد عام ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م) وأهمية هذا الكتاب أنه يعتبر من أقدم المصادر العربية التى خصصت لوصف مصر وما خصها الله سبحانه وتعالى به من الفضائل ، وقد نقلت عنه معظم المصادر العربية ، كما تكمن أهميته فى أنه من المصادر التى كتبت فى أثناء الفترة الخاضعة للبحث ، فقد كتب فى زمن كافور (٣٥٥ - ٣٥٧ هـ / ٩٦٥ - ٩٦٧ م) الذى طلب من ابن الكندى تأليفه .

ومن الكتب كذلك التى استعنت بها فى دراستى كتاب : «المغرب فى
حلى المغرب» لابن سعيد (على بن موسى بن سعيد المغربى المتوفى عام ٦٧٣
هـ / ١٢٧٤ م) الجزء الأول القسم الخاص بمصر ، تحقيق الدكتور زكى
محمد حسن والدكتورة سيده اسماعيل كاشف والدكتور شوقى ضيف .

وقد أفادنى فى ذكره سيرة أحمد بن طولون ، خاصة وأن ابن سعيد
نقل هذه السيرة عن ابن الداية ، كما أفادنى بصفة خاصة فى الموضوعات
التي تتعلق بتاريخ الدولة الاخشيدية ، فهو من أوائل المصادر العربية التي
وصلت إلينا وتحدثت عن سيرة محمد بن طغج الاخشيد بشيء من التفصيل
وكان قد نقلها عن ابن زولاق .

كذلك استعنت به فى الموضوع الخاص بالحركة العلمية ، وخاصة عن
الشعراء فى مصر ، فقد ذكر تراجم لبعضهم .

أما بالنسبة لذكره تراجم بعض القضاة الذين تولوا منصب القضاء فى
مصر ، فقد كانت هذه التراجم منقولة عن الكندى كما أشار هو بنفسه عن
ذلك ، لذلك لم أستفد منها كثيرا .

ومن الكتب التى أفادتني كذلك كتاب «النجوم الزاهرة فى ملوك مصر
والقاهرة» لأبى المحاسن (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى
توفى عام ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) وهذا الكتاب يتناول ذكر من ولى مصر من
الملوك والسلاطين من عام ٢٠ هـ / ٦٤٠ م إلى عام ٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ م مع
ذكر الحوادث الهامة التى وقعت فى كل سنة ، فهو يعنى بالتاريخ الإدارى
والاجتماعى والسياسى لمصر ، ويبدو أن مؤلفه قد سار على نهج الكندى فى
تأليفه لكتابه «الولاة» لذلك فقد أفادنى فى النظام الإدارى سواء ما يتعلق
بالوظائف الخاصة بالوالى ، أو صاحب الشرطة ، أو غيرهما ، كما أفادنى
فى ذكره لبعض عادات وتقاليده المجتمع المصرى فى الفترة الخاضعة للبحث،
وفى الموضوع الخاص بالبناء والتشييد . وأهمية هذا الكتاب تكمن فى
حرصه فى نهاية كل سنة على ذكر أمر النيل فيها من حيث الزيادة

والنقصان لذلك فقد أفادنى كذلك فى الموضوع الخاص بالزراعة ومقاييس النيل .

ومن الكتب الهامة التى تناولت حياة مصر السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، كتاب « حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة » للسيوطى (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر المتوفى عام ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) وقد استعنت به عند الكلام عن الزراعة فى مصر ، من حيث أنواع المزروعات ، والاهتمام بالاصلاحات الزراعية ، ومقاييس النيل .

كذلك أفادنى فى الموضوع الخاص بالصناعات فى مصر ، واستعنت به عند تناولى للعناصر الدينية كالجوامع ، فقد أشار فى كتابه إلى جامع عمرو ، وجامع ابن طولون . إلا أن أهميته تكمن - فى رأى - فى محاولته حصر العلماء فى شتى التخصصات ، فقد ذكر كل تخصص على حده مثل : المحدثين ، والفقهاء ، وتقسيمه للفقهاء إلى شافعية ، ومالكية ، وحنفية ، وغيرهم ، كذلك ذكره أئمة القراء ، وأئمة النحو واللغة ، والأطباء ، والمنجمين ، والوعاظ ، والقصاص ، والزهاد ، والمؤرخين كما أشار إلى الشعراء والأدباء.

ومن الكتب التى زودتنى بمعلومات وافية فى بحثى كتاب « المقدمة » لابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد بن خلدون توفى عام ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م) فقد أفادنى فى الحركة العلمية ، خاصة فى تعريف العلوم سواء فى الدراسات الدينية أو الدراسات الفلسفية ، كما استعنت به فى الموضوع الخاص بالقضاة ، والحسبة ، والنظام الحربى .

كذلك أفدت من كتاب « تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية » لساويرس بن المقفع (الذى عاش حتى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى / أواخر العاشر الميلادى) وهو من الكتب الهامة التى تناولت الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية التى حدثت فى مصر ، من خلال تراجم

لبطاركة الكنيسة المصرية . وقد أشار الى العلاقة بين المسلمين والمسيحيين في مصر ، وتسامح بعض الولاة والخلفاء ، وتشدد بعضهم .

وقد أفادنى فى الموضوع المتعلق بالنظام الادارى ، خاصة عن أحمد بن المدير صاحب خراج مصر ، فقد أورد قيمة الجزية فى زمنه ، وتشدده فى جمعها ، ومعاملته القاسية للأقباط ، وكانت له رواية مخالفة للمصادر فى الأسلوب الذى اتبع مع أحمد بن المدير عندما سجن ، وتحدث عن أحمد بن طولون ، ومعاملته للرهبان ، وإعفائه لهم من الجزية ، وصداقته لبعضهم .

كذلك أفادنى فى النظام الادارى . فقد أورد أسماء بعض الموظفين من الأقباط الذين تولوا الوظائف فى الفترة الخاضعة للبحث . واستعنت به فى النظام الحربى فقد أورد نصا فى غاية الأهمية عن نظام تشغيل الأقباط على السفن ، مما يوحى بالحالة المتردية التى كانوا عليها فى ذلك الوقت .

وبالإضافة إلى المصادر السابقة كتاب « المذمة فى استعمال أهل الذمة » لابن النقاش (أبو إمامه محمد بن على المتوفى عام ٧٦٣ هـ / ١٣٦١ م) وقد استعنت به فى موضوع النظام الادارى ، خاصة فيما يتعلق بتعيين أهل الذمة فى الوظائف . فالكتاب يعرض مواقف بعض الخلفاء والسلاطين والملوك من استخدام أهل الذمة فى الوظائف .

وكانت فكرة كتابة هذا الكتاب قد نشأت من أسئلة وجهت إلى ابن النقاش من بعض معاصريه عن فتوى استخدام أهل الذمة فى الوظائف الادارية ، فبدأ كتابه بذكر الآيات القرآنية ، وتلاها بالأحاديث النبوية التى تحرم استخدامهم ، ثم أخذ فى عرض مواقف بعض الخلفاء والسلاطين والملوك من استخدام أهل الذمة .

ومن الكتب التى أفادتنى كذلك كتاب « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » لابن دقماق (ابراهيم بن محمد بن أيمن العلانى المتوفى عام ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م) خاصة فى الموضوع الخاص بالبناء والتشييد ، فهذا الكتاب فى نظرنا هو موسوعة عامة دقيقة لجغرافية مدينة الفسطاط ، منذ بنائها ، وذكر

خطط القبائل بها ، فهو يذكر كل الأبنية والدور والحارات والشوارع والأزقة الممكن ذكرها ، مع تحديد أماكنها بدقة ، هذا إلى جانب ذكر الجوامع . وكان له الفضل الأكبر فى تحديد الزيادات التى طرأت على جامع عمرو بن العاص، مع ذكر الوالى الذى تمت الزيادات فى ولايته ، كما أفادنى فى العمائر التجارية كالفنادق والقيساريات ، كذلك أفادنى فى موضوع التجارة بذكره للأسواق فى مصر .

ومن الكتب التى استعنت بها كتاب « قوانين الدواوين » لابن ممتى (الأسعد بن ممتى المتوفى عام ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م) فقد اعتمدت عليه اعتمادا كليا فى موضوع الزراعة ، وخاصة فيما يتعلق بأهم المحصولات الزراعية ، وأوقات غرسها ، وحصادها ، وأنواع الأراضى الزراعية ، وتعريفاتها ، ومساحتها ، ومقدار زيادة النيل ونقصانه .

كما استفدت منه فى تعريف بعض الوظائف الادارية التى تتعلق بالزراعة فى الفترة الخاضعة للبحث .

ومن كتب الفقه التى اعتمدت عليها وأفادتنى كتاب « الأحكام السلطانية والولايات الدينية » للماوردى (أبو الحسن على بن محمد حبيب البصرى البغدادى المتوفى عام ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م) وقد استفدت به فى الموضوع الخاص بالاقطاع ، كما أفادنى فى الموضوع الخاص بالجزية والخراج ، كذلك استعنت فى الموضوع الخاص بوظيفة المحتسب ، وفى النظام الحربى ، وخاصة ديوان الجند ، واستعنت به كذلك فى النظام القضائى وولاية المظالم.

هذا إلى جانب كتب الفقه الأخرى مثل : كتاب « الخراج » للقاضى أبو يوسف (يعقوب بن إبراهيم المتوفى عام ١٨٢ هـ / ٧٩٨ م) ، وكتاب « الخراج » ليحيى بن آدم المتوفى عام ٢٠٣ هـ / ٨١٨ م ، وكتاب « الأموال » لأبى عبيد (القاسم بن سلام المتوفى عام ٢٢٤ هـ / ٨٢٨ م) ، وكتاب « الاستخراج لأحكام الخراج » للحافظ بن رجب الحنبلى المتوفى عام ٧٩٥ هـ / ١٣٩٢ م .

ومن الكتب التى أفادتنى كذلك كتب الحسبة مثل : كتاب « نهاية الرتبة فى طلب الحسبة » للشيزرى (عبد الرحمن بن نصر المتوفى عام ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م) ، وكتاب « معالم القرية فى أحكام الحسبة » لابن الأخرى (محمد بن محمد بن أحمد القرشى المتوفى عام ٧٢٩ هـ / ١٣٢٨ م) ، وكتاب « نهاية الرتبة فى طلب الحسبة » لابن بسام المحتسب (محمد بن أحمد بن بسام عاش قبل عام ٨٤٤ هـ / ١٤٤٠ م) .

فقد استعنت بها فى الموضوع الخاص بوظيفة المحتسب من حيث تعريف طبيعة عمله ، والشروط التى يجب توافرها فيه ، واتخاذ مساعدين لمساعدته ، والشروط التى يجب توافرها فى هؤلاء المساعدين .

ومن كتب التراجم التى أفادتنى : كتاب « بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة » للسيوطى (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر المتوفى عام ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) وقد امتاز هذا الكتاب بأنه يعد أشمل كتاب يضم تراجم للنحويين واللغويين ، لذلك فقد أفادنى عند ذكر النحاة فى مصر .

كذلك كتاب « طبقات النحويين واللغويين » للزبيدي (أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي الاندلسى المتوفى عام ٣٧٩ هـ / ٩٨٩ م) فهو مصدر مهم لتراجم النحاة ، وكان مما سهل على الإفادة منه أنه أفرد تراجم نحاة كل بلد على حدة .

ومن كتب التراجم أيضا كتاب « الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب » لابن فرحون (القاضى برهان الدين بن فرحون المالكي المتوفى عام ٧٩٩ هـ / ١٣٩٦ م) وأهمية هذا الكتاب فى دراستى تكمن فى أنه أرخ لطبقات المالكية حتى عصر الموطف وأواخر القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى ، مما سهل على معرفتهم بسهولة .

كذلك كتاب « الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد » للأدوى (أبو الفضل كمال الدين جعفر بن ثعلب الشافعى المتوفى عام ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م) وأهمية هذا الكتاب فى دراستنا أن كاتبه مصرى وهو تراجم

خاصة بالعلماء فى صعيد مصر ، وهذا الكتاب يعتبر مصدرا للكثير من المصادر التى جاءت بعده .

هذا إلى جانب كتب الذهبى (شمس الدين أبى عبد الله بن محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى المتوفى عام ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م) فى ذكر وفيات الكبار من الخلفاء والقراء والزهاد والفقهاء والمحدثين والعلماء وغيرهم . وهذه الكتب هى : « كتاب تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعيان » ، وكتاب « العبر فى خبر من غير » ، وكتاب « تذكرة الحفاظ » ، وكتاب « معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار » .

ومن كتب الطبقات أيضا التى أفادتنى كتاب « الأغانى » للأصفهانى (أبو الفرج على بن الحسين بن محمد المتوفى عام ٣٥٦ هـ / ٩٦٦ م) ، فقد أفادنى إفادة بالغة خاصة فى الشعر وذكر أبيات من أشعارهم .

ومن كتب الطبقات التى حوت فى تراجمها أخبارا تخص الحياة الاجتماعية والعادات والتقاليد فى الفترة الخاضعة للبحث : كتاب « وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » لابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبو بكر المتوفى عام ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) ، وكتاب « معجم الأدباء » لياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى البغدادى المتوفى عام ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م) ، هذا بالإضافة إلى كتاب « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » لابن أبى أصيبعة (موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم المتوفى عام ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م) وقد استعنت به فى ذكر الأطباء بمصر وأخبارهم .

الدراسات :

تعتبر دراسات الأستاذة الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف الأساس الذى اعتمدت عليه فى كتابة هذه الرسالة ، لصلتها الوثيقة بموضوعها . وقد تعرضت لها فيما سبق .

ومن الدراسات التى أفادتني أيضا دراسات الأستاذ الدكتور زكى محمد حسن خاصة « الفن الاسلامى في مصر » ، و« فنون الاسلام » ، و« فى الفنون الاسلامية » ، و« كنوز الفاطميين » و البحث القيم « بعض التأثيرات القبطية فى الفنون الاسلامية » . وقد اعتمدت عليها اعتمادا كليا فى موضوع الفنون فى مصر ، والتغييرات التى طرأت عليها بعد الفتح العربى ، كذلك اعتمدت عليها فى موضوع الصناعات مثل : صناعة المنسوجات ، وصناعة الزجاج ، وصناعة الخشب ، وصناعة الخزف وغيرها .

ومن الدراسات التى استعنت بها كذلك دراسات الأستاذ الدكتور حسن ابراهيم حسن ، وخاصة « تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى » ويقع فى أربعة أجزاء ، ودراسة « النظم الاسلامية » (وهو تأليف مشترك مع آخرين) .

وقد استفدت بهذه الكتب فى الموضوع الخاص بالنظام القضائى ، والنظام الحريى ، والنظام الادارى ، كما استعنت بها فى الموضوع المتعلق بالأرض والفلاح فى مصر ، وطبقة الصناع ، وطبقة التجار .

ومن هذه الدراسات كذلك « تاريخ الحضارة الاسلامية فى العصور الوسطى » للدكتور عبد المنعم ماجد .

ويشمل النواحي الادارية والاجتماعية والاقتصادية والمالية والثقافية ، وقد أفدت منه فى النظام الادارى فى مصر ، وفى العادات والتقاليد ، وفى الحركة العلمية .

ومن هذه الدراسات التى أفدت منها « الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربى حتى آخر الدولة الفاطمية » للدكتور محمد كامل حسين ، فقد زودنى بمعلومات وافية عن الحركة العلمية والأدبية فى مصر .

ومن هذه الدراسات أيضا كتب الأستاذ محمد عبد الله عنان ، خاصة كتابه « مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية » الذى أفادنى عند تناولى

حركة البناء والتشييد فى المجتمع المصرى ، وكتاب « مورخو مصر الاسلامية ومصادر التاريخ المصرى » الذى أفادنى فى الحركة العلمية والأدبية بمصر وخاصة المتعلقة بالمؤرخين .

ومن الدراسات الهامة كتاب « الملكية العقارية فى مصر وتطورها التاريخى من عهد الفراعنة حتى الآن » للدكتور محمد كامل مرسى بك .

وقد أفادنى فى موضوع الملكية العقارية فى مصر منذ الفتح العربى ، وتطبيق مبادئ الشريعة الاسلامية على مصر ، وتقسيمات الملكية ، ونظام قبالات الاراضى .

ومن هذه الدراسات أيضا كتاب « النقود العربية والاسلامية وعلم النميات » للأب أنستاس الكرملى . وفى الحقيقة أن أهمية هذا الكتاب تتمثل فى تجميعه لكل ما كتبه المصادر الاسلامية والدراسات الحديثة عن النقود مثل : « رسالة فى النقود » للبلادرى (ت عام ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) ، وما ورد فى « المقدمة » لابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥) ، و « رسالة فى الدينار المسكوكة مما يضرب بالديار المصرية » للقلقشندي (ت عام ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) ، وكتاب « النقود القديمة الاسلامية » للمقرئى (ت عام ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م) ، وكتاب « تحرير الدرهم والمثقال والرطل والمكيال وبيان النقود المتداولة بمصر » لمصطفى الذهبى الشافعى ، وكتاب « النقود العربية » لعلى باشا مبارك .

كما تتمثل أهمية الكتاب فى التعليقات الإضافية على هذه الكتب .

ومن الدراسات التى استعنت بها أيضا كتاب « القبائل العربية فى مصر فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة » للدكتور عبد الله خورشيد . وهى من الدراسات الهامة التى حصرت أسماء القبائل العربية التى نزلت مصر ومناطق استيطانها ، وقد كان خير دليل لى فى مراجعة موضوع القبائل العربية ، كما اعتمدت عليه فى توضيح أسباب اختلاط القبائل العربية بالمصريين .

ومن الدراسات أيضا دراسة « الحرف والصناعات في مصر الإسلامية منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمي ٢٠ - ٥٦٧ هـ / ٦٤١ - ١١٧١ م » للدكتور السيد طه السيد أبو سديرة . فقد أفدت منه في موضوع الصناعة في مصر .

ومن الدراسات التي أفادتني دراسة « الحسبة في مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى نهاية العصر المملوكي » للدكتورة سهام مصطفى أبوزيد . وقد استعنت بها في الموضوع الخاص بوظيفة المحتسب في مصر .

كذلك دراسة « الشرطة في مصر الإسلامية » للدكتور أحمد عبد السلام ناصف . وقد استعنت بها خاصة عند الكلام عن وظيفة صاحب الشرطة في مصر .

ومن الكتب الهامة المترجمة التي استعنت بها كتاب « الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري » لادم متز وقد ترجمه إلى العربية الاستاذ الدكتور محمد عبد الهادي أبوريبة وهو في جزئين، ويتناول كافة النواحي الاقتصادية والمالية والاجتماعية والثقافية والادارية . وقد استعنت به في النظام القضائي ، والحركة العلمية في مصر ، كما استعنت به في موضوع العادات والتقاليد خاصة الأعياد ، كما أفادني في الموضوع الخاص بالتجارة .

كذلك كتاب « أهل الذمة في الاسلام » للدكتور أ . س . ترتون وقد ترجمه إلى العربية الأستاذ الدكتور حسن حبشي . وهو من الكتب التي تناولت الحياة الاقتصادية والمالية والاجتماعية والثقافية والادارية ، وقد أفادني افادة بالغة خاصة في النظام الاداري في المجتمع المصري ، حيث أمدني بأسماء عديدة لموظفين بيزنطيين ، كما أفادني في موضوع البناء والتشييد خاصة بناء الكنائس ، واختلاف الآراء حول قرارات بنائها وهدمها .

فصل تمهيدى :

المجتمع المصرى قبل الفتح العربى

• النظام الادارى فى الدولة الرومانية ثم البيزنطية .

• النظام الحربى .

• المجتمع المصرى فى العصر البيزنطى :

على الصعيد البشرى :

الرومان - الاغريق - اليهود - المصريين .

على الصعيد الطبقي :

طبقة ملاك الاراضى الزراعية .

طبقة الفلاحين .

طبقة الصناع .

طبقة التجار .

• الدين ونظام الرهبنة .

• الحياة الفكرية .

• الحياة الفنية .

• الحياة القضائية .

الفصل التمهيدي

المجتمع المصري قبل الفتح العربي

ريما كانت البداية الصحيحة لمعالجة موضوعنا هي الكلام عن نظام الحكم في مصر قبل الفتح العربي ، حتى يتسنى لنا تحديد الطبقات الاجتماعية التي كانت تحكم والطبقات التي لم تكن تحكم ، وحتى يتسنى لنا - فيما بعد - متابعة التغيير الذي طرأ على المجتمع المصري بعد الفتح العربي .

فمن المعروف أن الحكم في أى بلد من البلاد ، يكون عادة في يد الذين يملكون من أهل البلاد ولكن الأمر اختلف في مصر ، حيث وقع الحكم أولا في يد الغزاة الرومان ، الذين استطاعوا أن يشرعوا لمصر نظاما للحكم تكون لهم فيه اليد العليا ، واستطاعوا به أن يخضعوها لسيطرتهم .

نظام الحكم :

عندما فتح العرب مصر في عام ٢٠ هـ / ٦٤١ م ، كانت مصر تقع تحت سيادة الدولة البيزنطية ، فقد ضم الامبراطور اغسطس (اكتافيوس) Augustus (٣٠ ق . م - ١٤ م) مصر إلى الامبراطورية الرومانية في عام ٣٠ ق . م ، ورأى اغسطس أن يضع لحكم مصر نظاما خاصا لما تمتاز به سائر الولايات الرومانية الأخرى من مركزها الجغرافي الهام وثروتها الطائلة.

فعندما قسمت الولايات الرومانية عام ٢٧ ق . م إلى ولايات خاضعة للسناو ، وأخرى للامبراطور وقعت مصر ضمن الولايات الخاضعة للامبراطور ، واكتسبت مكانة ممتازة بين هذه الولايات ، فقد أقيم عليها

حاكم ذو مرتبة رفيعة يدعى Praefectus ، وتقرر ألا يتقلد رجال السناتو مناصب إدارية في مصر ، بل حظر عليهم زيارتها دون استئذان الامبراطور في ذلك .

على أن هذا الوضع تغير في العصر البيزنطي (٢٨٤ - ٦٤٠ م) ، فعندما أعاد دقلديانوس (Diocletianus) (٢٨٤ - ٣٠٥ م) تنظيم الولايات . ألغى التفرقة بين الولايات السناتورية والولايات الامبراطورية (وعلى هذا الأساس وقعت مصر في دوقية الشرق) ، كما فصل السلطة العسكرية عن المدنية ، وقسمت مصر الى ثلاثة أقسام هي :

وبالنسبة للولاية (Aegyptus Jovia - Aegyptus Herculia - thebais) والاولى (Aegyptus Jovia) ، فهي تشمل غرب الدلتا بما فيها الاسكندرية ، (وسميت كذلك لأنها كانت الولاية الاولى في مصر ، ولأن دقلديانوس اتخذ لنفسه لقب جوفوريوس Jovius لأنه بمثابة ممثل كبير الالهة على الأرض) .

وبالنسبة للولاية الثانية (Aegyptus Herculia) ، فهي تشمل شرق الدلتا ومصر الوسطى ، (وسميت الهرقلية نسبة الى اللقب الذي اتخذه شريك دقلديانوس في ادارة الولايات الغربية Maximian Herculus) .

أما الولاية الثالثة (Thebais) ، فهي تشمل الصعيد جنوبي اسيوط وقد وضع كل من القسمين الثاني والثالث تحت إمرة حاكم يحمل لقب (Praeses) ، ووضع القسم الاول الذي يشمل الاسكندرية تحت امره حاكم يحمل لقب (Praefectus Aegypti) أي حاكم مصر ، ويتمتع بسلطة أعلى من سلطة زميله الآخرين ، ولكنه يخضع مثلهما لسلطة كونت الشرق ، والتي كانت مصر تابعة لادارته ، وكان حكام مصر الثلاثة موظفين مدنيين .

وفي خلال القرن الرابع تكونت ولاية رابعة هي (Augustamnica) من الأقاليم الشرقية ، ثم أضيفت ليبيا إلى مصر ، فأصبحت الولايات خمساً ، وغير اسم الولايتين الأولى والثانية ، فعرفت الأولى باسم (Aegyptus) ، والثانية باسم (Arcadia) أما السلطة العسكرية ، فقد وضعت في يد قائد يسمى (dux Aegypti) أو « دوق مصر » .

وفى عام ٥٥٤ م حدث تغيير فى الادارة على جانب كبير من الأهمية ، عندما أصدر جستنيان Justinian (٥٢٧ - ٥٦٥ م) مرسومه الثالث عشر ، وفيه تمزقت وحدة مصر ، فلم يعد لحاكم مصر أى سيطرة على الولايات الأخرى التى وضعت كلها تحت الاشراف المباشر لحاكم عام الشرق ، وزود كل حاكم فى ولايته بسلطات عسكرية ومدنية ، وانقسمت مصر (فيما عدا ليبيا) منذ ذلك الحين إلى أربع ولايات متساوية فى المراكز وهى :

Aegyptus	وعلى رأسها دوق .
Augustamnica	وعلى رأسها دوق .
Arcadia	وعلى رأسها كونت .
thebais	ويديرها دوق .

وقسمت كل ولاية من هذه الولايات عدا (Arcadia) الى قسمين ، على رأس كل منهما مدير مدنى يسمى Praeses .

وهكذا حصل الدوق على سلطات واسعة فى إقليمه ، بجمعه بين السلطتين العسكرية والمدنية فى يده ، فأصبح بذلك الرئيس الأعلى للإدارة والقضاء والشرطة ، وأصبح - بالتالى - يمثل السلطة الامبراطورية أى أصبح نائبا للملك .

وكان من نتيجة وضع السلطة العسكرية والمدنية فى يد حاكم كل ولاية، أن زاد من تقسيم الدولة إداريا وعسكريا معا ، كما زاد من سلطان كبارالملاك الذين سيطروا على أقاليمهم سيطرة تامة ، ناهيك عن المنافسات الصغيرة التى نشأت بين هؤلاء الحكام . كما أن قوتهم العسكرية لم تكن قادرة على مواجهة أى خطر حقيقى من الخارج ، وإنما اقتصررت قوتها على القيام بأعمال البوليس ، أو قمع فتنة صغيرة محلية .

أيضا كان من نتائج تقسيم البلاد على هذا النحو ، وضعف الادارة المركزية بالتالى ، أن زاد شأن الكنيسة فأصبحت مالكة لمساحات كبيرة من الأراضى ، وذلك بفضل الهبات والأوقاف التى كانت تقدم لها، كما أصبح للكنيسة نشاط كبير فى مجال التجارة ، هذا الى جانب أنها كانت تمتلك مستشفيات لعلاج المرضى وبيوتا لإيواء الغرباء واللاجئين .

هذا - على كل حال - فيما يتصل بالنظام الادارى فى مصر قبل الفتح العربى.

أما بالنسبة للجيش ، فتشير المصادر الى وجود نوعين من القوات العسكرية ، النوع الأول ويتمثل فى الحاميات العسكرية الرومانية ، والنوع الثانى ويتمثل فى الجيش الاقليمى .

وفىما يتصل بالحاميات العسكرية ، فإن اشتداد الحاجة إلى الأمن كانت قد تطلبت إقامة حامية عسكرية رومانية فى مصر ، لهذا وضع أغسطس فى مصر ما لا يقل عن ثلاث فرق رومانية ، فضلا عن القوات المساعدة الملحق بها .

وفى عهد تيبيريوس Tiberius (١٤ — ٣٧ م) الذى خلف أغسطس فى الحكم ، سحب فرقة من الفرق الثلاث ، وذلك عندما وجد أن الحاجة ليست ملحة لمثل هذا الجيش الضخم .

أما فيما يتصل بالجيش الاقليمى ، ونقصه به الجيش الخاص بكل إقليم ، فقد جرى تجنيد هذا الجيش من سكان البلاد ، ونلاحظ أنه لم يكن يخضع لقيادة موحدة ، فكل دوق يتولى قيادة الجند المربطين بدوقيته ، وعليه أن يقاتل بمفرده ، فمثلا نجد أن دوق ليبيا لم يشترك فى القتال ضد المسلمين الا بعد أن استولوا على وادى النيل بأكمله ، وبعد أن تعرض لتهديدهم ، كذلك فعل دوق طيبة ، ولم يشترك فى الحرب ضد المسلمين إلا جنود دوقية مصر ، ودوقية أوجستامنيكا ، ثم اشترك بعد ذلك جند أركاديا .

وقد وصل حال هذا الجيش الى حد من الضعف لم يكن فى وسعه أن ينهض بأعباء الدفاع عن البلاد ، فقد اغفل التدريب والنظام العسكرى ، واشتغل كثير من الجند بالأعمال المدنية الى جانب مهنة الحرب ، وصاروا يستثمرون ما يملكون من منازل وأراضى .

المجتمع المصرى فى العصر البيزنطى :

لما كان من الثابت أن المجتمع المصرى قبل الفتح العربى لم يكن مجتمعا متجانسا بشريا ، وانما كان يتكون من عدة جنسيات مختلفة ، فربما كان المنهج العلمى السليم أن نتناول هذا المجتمع بالدراسة على صعيدين :

الصعيد الأول : هو الصعيد البشرى.

الصعيد الثانى : هو الصعيد الطبقي .

وبالنسبة للصعيد البشرى ، ووفقا لما ذكره الدكتور ابراهيم نصحى ، فان المجتمع المصرى فى ذلك الحين كان يتكون من العناصر الآتية :
الرومان - الاغريق - اليهود - المصريين .

وبالنسبة للرومان فقد كانوا يتكونون من رجال الحاميات والحكام ، ويتمتعون بمركز ممتاز فى المجتمع ، ولم يكونوا يخضعون إلا لكبار الحكام فى السلطة المركزية . على أنه يجب علينا أن نلاحظ أن غالبية المواطنين الرومانيين الذين تحدث عنهم الوثائق التاريخية ، لم يكونوا رومانيين أصليين ، وإنما كانوا من الاغريق أو المتأغريقين ، الذين اكتسبوا الحقوق المدنية الرومانية .

أما الاغريق فكانوا يكوّنون العنصر الذى يلى العنصر الرومانى فى الأهمية . لقد كان الرومان ينظرون الى الحضارة الاغريقية نظرة احترام ، ولذلك منحوا الاغريق مزايا خاصة ، فخصصت لهم الوظائف التى تلى الوظائف الرئيسية ، هذا الى جانب اشتغالهم بالتجارة والصناعة وامتلاك الاراضى ، وقد استطاعوا الحصول على الحقوق المدنية الرومانية عن طريق الالتحاق بالفرق الرومانية الاضافية فى الجيش . وكان من أهم المزايا التى حصلوا عليها هى إعفاءهم من ضريبة الرأس التى كانت ترمز للعبودية ، وابقاء اللغة الاغريقية لغة رسمية ، واقتصر استخدام اللغة اللاتينية على الجيش واللوائح المتعلقة بالقانون الرومانى .

أما اليهود فكانوا أقل منزلة من الاغريق ، رغم تمتعهم بنفس المزايا التى تمتعوا بها فى عهد البطالة ، وإن كانوا لم يمنحوا الحقوق المدنية فى الاسكندرية . وكانت الاسكندرية تمثل أكبر مركز لتجمع اليهود ، فقد كانوا يشتغلون بالتجارة بوجه خاص ، وكانت الاسكندرية من أكبر أسواق العالم .

أما المصريون فكانوا يمثلون الطبقة الدنيا فى المجتمع ، وقد فرض الرومان عليهم كافة أنواع الضرائب على أن زعماء الكنيسة المصريين كانوا يتمتعون بسلطان واسع ونفوذ كبير ، نظرا لوضعهم الدينى والاقتصادى كما سيأتى ذكره .

وقد برز من المصريين فئة عرفت باسم المصريين المتأغريقين ، وذلك لأنهم اختلطوا بالآغريق ، وحاكوهم فى لغتهم وملبسهم وأسمائهم ، وتميزوا على سائر المصريين بدفع ضريبة الرأس ، وقد امتلكوا الأراضى واشتغلوا بالحرف المختلفة .

هذا على كل حال فيما يتصل بالصعيد الأول ، وهو الصعيد البشرى . أما ما يتصل بالصعيد الثانى ، وهو الصعيد الطبقي ، فنلاحظ أن المجتمع قد انقسم من الناحية الطبقية الى أربع طبقات :

الطبقة الأولى : هى طبقة ملاك الأراضى الزراعية .

الطبقة الثانية : هى طبقة الفلاحين .

الطبقة الثالثة : هى طبقة الصناع .

الطبقة الرابعة : هى طبقة التجار .

وفىما يختص بالطبقة الأولى وهى طبقة ملاك الأراضى ، نلاحظ أنهم كانوا ينقسمون الى قسمين: كبار الملاك - وصغار الملاك .

وبالنسبة لكبار الملاك ، فيهمنا فى البداية أن نعرف كيف نشأت هذه الطبقة ؟

لقد كان الملك فى العصر البطلمى - وفقا لأيدرس بل - هو المالك الوحيد للأرض من الناحية النظرية الا أنه لم يستحوذ عليها كلها ، فقد كان جزء كبير من أبعاد الأراضى يظل تحت إشرافه الفعلى ، وتلك كانت الأراضى الملكية ، ولكن الى جانب هذا الجزء وجدت صورة من صور الملكية الخاصة بدأت منذ أيام البطالمة الأولى ، وازدادت وضوحا فى أواخر عهد البطالمة ، ومن هذا النوع ضياع المعابد التى كانت تسمى بالأراضى المقدسة. أما النوع الثانى ، فهى الاقطاعات التى منحت للجنود المقيمين فى مصر ، فى مقابل الانتظام فى سلك الخدمة العسكرية . وقد عرف هؤلاء باسم أرباب الاقطاعات ، وكانت هذه الاقطاعات تمنح مدى الحياة فقط ، ثم أصبح الاقطاع يؤول الى أكبر الأبناء بعد وفاة الأب ، فأصبحت هذه الاقطاعات وراثية ، واكتسبت بذلك مظهر الملكية الخاصة ، ولكنها لم تكن ملكية كاملة ،

أى أن إمتلاك حق التصرف فيها لم يكن كاملا ليشمل الهبة والتنازل والبيع.

وهناك نوع ثالث ، وهو الضياع الكبيرة التى منحت لكبار الموظفين والمقرين للملك ، وكانت تمنح مدى الحياة فقط ويستردها التاج عقب الوفاة . وأخيرا هناك نوع رابع ، يسمى أراضى الامتلاك الخاص ، وتتألف عادة من البساتين ومزارع الخضروات والنخيل والكروم ، وكانت تمنح لأصحابها - أغلب الظن - بموجب عقود إيجار طويلة الأجل أو عقود وراثية ، ورغم أن القانون كان يسمح بانتقال ملكية هذه الأراضى من شخص إلى آخر ، إلا أنه لا يرجح أن أصحابها قد امتلكوها امتلاكاً فعلياً فى أى فترة من خلال عهد البطالة ، ومعنى هذا أن أراضى الامتلاك الخاص لم تكن ملكية تامة بالمعنى المعروف .

وعندما انتقلت مصر الى العصر الرومانى ، بقيت الأراضى الملكية التى تولف معظم الأراضى الجيدة كما هى وينفس الاسم ، كما بقيت الأراضى المقدسة أيضا ، رغم أن جانباً كبيراً منها صادرتة الحكومة . أما أراضى الاقطاعات العسكرية ، التى أصبح أربابها وقتئذ يمتلكونها ملكية تامة ، فكانت لا تزال تولف قسماً منفصلاً ، ولو أن الحكومة أوقفت منحها للعسكريين .

أما أراضى الضياع الكبيرة ، التى منحت فى العصر البطلمى لكبار الموظفين والمقرين للملك ، فكانت تقابلها فى العصر الرومانى بعض الضياع الكبيرة التى منحها الأباطرة فى صدر العصر الرومانى لأعضاء من الأسرة المالكة ، أو لنبلأء من الرومان ومواطنى الأسكندرية ، ولكن ، عن طريق المصادرة وغيرها من الطرق أدمجت كثير من هذه الضياع فى أملاك الامبراطور الخاصة ، التى أصبحت منذ ذلك الحين (أى فى العصر الرومانى) تولف قسماً من الأراضى تسمى أراضى الضياع تحت إشراف ناظر خاصة الامبراطور .

وقد شجع الرومان ملكية الأراضى الخاصة ، وزادت مساحتها ، لأنهم كانوا يفضلون إرساء الجهاز المالى والإدارى على عاتق سكان يملكون عقارا

ثابتا يكفل اضطلاعهم بالمسئوليات ، ويضمن تحصيل التعويض منهم فى حالة حدوث عجز أو تقصير .

وكانت الحكومة الرومانية قد صادرت جانبا كبيرا من الأراضى ، وباعت بعضها بالمزاد ، بينما عرضت الأراضى المهجورة أو غير الجيدة للإيجار بشروط مرضية ، حتى تغرى الناس على إستئجارها واستصلاحها للزراعة .

ويتضح من ذلك أن الملكية الخاصة للأراضى ، ظهرت فى العصر الرومانى .

وسرعان ما ظهر نتيجة ذلك فى العصر البيزنطى ، حيث ساعد ذلك على زيادة عدد الضياع الكبيرة تدرجيا ، وظهور طبقة من كبار الملاك .

ويتضح من دراستنا لأوضاع هذه الضياع الكبيرة ، أنه كان هناك مصدران رئيسيان لزيادة مساحة هذه الأراضى ، وبمعنى آخر أن هذه الأراضى اتسعت على حساب نوعين من الأراضى : النوع أو المصدر الأول : هو أراضى الدولة ، والنوع أو المصدر الثانى : هو أراضى صغار الملاك .

وبالنسبة للمصدر الأول ، فقد اخذت هذه الملكيات الكبيرة تتسع على حسابها ، بسبب ما صادف الحكومة من عقبات أدت الى عجزها عن زراعتها ، كما يقول الدكتور السيد الباز العرينى .

أما المصدر الثانى لامتساع الملكيات الكبيرة وهو أراضى صغار الملاك ، فيرجع السبب فى ذلك أن كبار الملاك كانوا قد حصلوا قبل نهاية القرن الرابع الميلادى من الحكومة على حق جباية الضرائب المستحقة على ضياعهم الخاصة بأنفسهم ، ودفعها لخزانة الولاية مباشرة دون وساطة الجباة المحليين .

ولما كان الكثيرون من الملاك الصغار قد أعجزهم دفع ما عليهم من الضرائب للدولة ، فقد اضطروا الى الدخول فى حماية كبار الملاك ، على أساس التنازل لهم عن أرضهم والعمل فيها كمستأجرين ، وخدمتهم فى

مقابل تولى كبار الملاك دفع الضرائب ، وهكذا نرى أنه فى الوقت الذى كانت تزداد فيه مساحة الملكيات الكبيرة ، كانت تختفى تدريجيا الملكيات الصغيرة ويتحول الملاك الصغار الى مستأجرين مربوطين بالأرض لا يختلف وضعهم عن وضع الأقنان . ومع أن الحكومة لم تكن راضية تماما عن انتشار نظام الحماية ، الا انها سلمت بالأمر فى عام ٤١٥ م ، وأصدرت مرسوما باحتفاظ أصحاب الأراضى بمقتضى نظام الحماية بأراضيهم ، فى مقابل دفع الضرائب ، مع إلغاء لقب «حامى».

حتى اذا ما وصلنا الى القرن السادس ، كانت ظاهرة الاقطاعات الكبيرة قد استفحلت ، وأصبحت طبقة كبار الملاك على درجة عظيمة من القوة ، كما يدل على ذلك الحالة أوردها ايدرس بل ، وهى حالة عائلة أبيون Apion التى كانت تمتلك ضياعا فى أكسير ينخوس ، وكيونبوليتيس cynopolitês (قوص) ، وأرسينو يتيس Arsinoites (الفيوم) ، وقد انعكست ملكياتها الكبيرة وثروتها فى وضعها الاجتماعى واشتراكها فى السلطة والحكم ، فتولى أفرادها أرقى المناصب الادارية ، كما تولى أحدهم منصب القنصلية فى الامبراطورية ، وتشير المصادر الى أنها كانت تمتلك جيشا خاصا مؤلفا من الجنود المأجورين (البقلار) Buccellarii ، كما أنشأت سجوناً خاصة ونظاما للبريد ومستشفيات ، وحمامات شعبية ، كما شيدت كنائس وأديرة ، وكانت بلا شك تشرف على هذه المنشآت ، بل إنها كانت تملك أسطولا من المراكب النيلية ، وكان لديها عدد كبير من الموظفين والكتبة والمحاسبين ومحصى الضرائب ، وكانت لاتنفق ضرائبها لخزانة الولاية ، بل للاسكندرية مباشرة .

واذا أضفنا الى ذلك نظام الحماية الذى سبق لنا الكلام عنه ، والذى كان من نتيجته تحول الملاك الصغار إلى أقنان ، فنحن إذن أمام نظام يشبه النظام الاقطاعى فى أوربا ، وأمام أسرة تشبه الأسرة الاقطاعية ، وهذا ما يقوله الدكتور مصطفى العبادى .

على أن «ايدرس بل» يحدد لنا بدقة الفرق بين هذا النظام فى مصر والاقطاع فى الغرب ، فيذكر أن نظام الاقطاع فى الغرب ، كان نظاماً عسكرياً

فى جوهرة ، يحصل فىه الاقطاعى الصغير على أرضه طالما كان يؤدى الخدمات لسيدته فى الحرب ، بعكس ملكية الأراضى فى مصر التى لم تكن مشروطة بالخدمة العسكرية .

أيضا يرى أن الضياع فى الغرب كانت تتألف من أراضى متجاورة ، بعكس الضياع فى مصر التى كانت تتألف من أراضى متناثرة فى أنحاء البلاد ، فمثلا نجد أحيانا جزءاً من أراضى إحدى القرى تابعا لضيعة من هذه الضياع ، بينما نجد الجزء الآخر فى يد ملاك صغار غير ملزمين بتقديم خدمات لها . وأخيراً يرى أن الأمير الاقطاعى فى الغرب كان يعيش فى قصره وسط مزارعه ، بينما كان المالك الكبير فى مصر يقيم فى منزله أو قصره الكائن بعاصمة الاقليم . وينهى « بل » هذه المقارنة بقوله : « إن التشابه فى الوضع بين هؤلاء الملاك ، وبين أمراء الاقطاع فى الغرب ، يبرر أن نطلق عليهم إسم الملاك شبه الإقطاعيين » .

وفى رأينا أن وجود بعض سمات النظام الاقطاعى فى أوروبا فى مجتمع من المجتمعات ، وفى أى حقبة زمنية من الحقب ، لا يعنى أن هذا النظام هو نظام اقطاعى على النمط الغربى ، لأننا سوف نفتقد دائما فى هذا المجتمع الهرم الاقطاعى الذى فى قمته الملك ، وتحتة سلسلة طويلة من الاقطاعيين الذين يتدرجون نزولا فى الثروة والقوة والنفوذ ، وفى سفح هذا الهرم يوجد الأقنان هذا إلى جانب أنه لا يوجد لدينا أى دليل على أن هذه الأسرة وغيرها من الأسر ، قد حصلت على أراضيه فى شكل إقطاع من إقطاعى أكبر .

لكن يجب أن نلاحظ أن نمو هذه الملكيات الكبيرة ، لم يقض نهائيا على الملكيات الصغيرة فقد استمرت قرى تتمتع بحريتها ، ويمتلك أرضها صغار الملاك الذين حصلوا لأنفسهم - بمسئولية جماعية بينهم - على حق دفع ضرائبهم للدولة مباشرة ، وظلت هذه القرى موجودة حتى الفتح العربى لمصر .

أيضا عملت الكنيسة على إستغلال أموالها فى التجارة الخارجية ، وقد بلغ من ثراء الكنيسة أنها كانت تمتلك أسطولا تجاريا فى البحر المتوسط .

ومعنى هذا أن الكنيسة القبطية فى مصر كانت تحتل وضع الكنيسة فى أوربا كمالك كبير ، وقد انعكس وضعها الاقتصادى بالتالى على وضعها السياسى ، فاستطاعت الكنيسة أن تنافس كبار الملاك بما تمتلكه من ضيعات واسعة ، بل أصبح فى استطاعتها مقاومة أى جور من جانب الحكومة .

وقد انعكس هذا على نفوذ رئيس أساقفة الاسكندرية فى أواخر القرن الرابع الميلادى ، حيث اعترف له مجمع نيقية بحق السيادة الدينية ، فجعل له السلطة على أساقفة مصر وليبيا وبرقة ، وصار له ما لأسقف روما من الامتيازات والحقوق فى رئاسة الأساقفة .

والأكثر من ذلك أن الكنيسة كان لها قضاء خاص بها ، وكان يحق للمتخاصمين فى الأمور المدنية أن يلجأوا باختيارهم إلى تحكيم الأسقف ، وهكذا صار للأسقف الحق فى تنفيذ الأحكام .

أما بالنسبة لصغار الملاك ، فقد رأينا كيف زادت الأعباء المالية عليهم ، فى الوقت الذى استطاع فيه كبار الملاك بنفوذهم تخفيف ما هو مقرر من الضرائب على أراضيهم ، ونتيجة لذلك لم يجد صغار الملاك أمامهم إلا أحد طريقين :

إما أن يفروا من قراهم . ولكن الحكومة لم تنقص قيمة الضرائب المطلوبة من نواحى البلاد المختلفة ، بل أخذت قيمة هذه الضرائب تزداد على من بقوا فى بلادهم ، بنسبة الذين يفرون منها .

وإما - كما ذكرت سابقا - أن يطلبوا حماية أحد كبار الملاك فى نظير تنازلهم عن أراضيهم لهذا المالك أو السيد الكبير ، وهكذا تحول المالك الصغير من مالك حر إلى تابع .

وللتخلص من هذا الوضع السيئ ، سعت بعض القرى إلى أن تطلب من الامبراطور أن يمنحها حق الجباية الذاتية . على أن القرى كانت تفقد هذا الحق إذا عجزت عن تحصيل ضرائبها كاملة. هذا على كل حال فيما يتصل بطبقة ملاك الأراضى .

أما ما يتصل بطبقة الفلاحين ، فقد انقسمت هذه الطبقة إلى فئتين :
الفئة الأولى : مزارعو الضياع الكبيرة .
والفئة الثانية : المزارعون الأحرار ، وقد انقسمت هذه الفئة بدورها إلى نوعين :

ملاك ومستأجرين لدى ملاك متوسطين .
وبالنسبة لمزارعي الضياع ، فقد وصفهم « بل » بأرقاء الأرض . وقد بلغ من شدة ارتباطهم بالأرض أن أصبحوا من مقوماتها ، إذ استقروا فيها بنسائهم وأطفالهم وماشيتهم ومتاعهم ، ولم يكن بوسعهم أن يغادروها . ولعل هذا الوضع كان شبيها بأوضاع الأقنان في أوروبا في العصور الوسطى .

أما بالنسبة للمزارعين الأحرار بنوعهم ، فقد كان وضعهم أسوأ من وضع مزارعي الضياع الكبيرة ، فقد كانوا يدفعون ضرائبهم لمديري المقاطعات ، الذين كانوا يختارون من بين الأسر النبيلة مثل أسرة أبيون - التي تناولت أوضاعها سابقا - كما أن المالك الكبير كانت مصلحته تقتضى أن يحرص على العناية والاهتمام بمزارعيه ، بينما لم يلاقوا هم من أحد مثل هذه الرعاية ، وفي الوقت نفسه كانوا مربوطين بالأرض ، فقد منعوا من مبارحتها لصالح الدولة ، وحين ضاقت الدولة بقرار الفلاحين ، سواء الأجراء أو المزارعين من القرى هربا من ضريبة الرأس ، أصدرت القوانين التي تحرم إنتقال الفلاح من قريته ، وذلك حين تضمن الدولة جمع ضرائبها ، وبذلك فقد الفلاح حريته في الحركة والانتقال وإرتبط بالأرض .

أما الطبقة الثالثة فهي طبقة الصناع ، وكان المشتغلون بالصناعة في مصر هم - كما تروى المصادر التي بين أيدينا - من القبط ، الذين كان لهم الفضل في حفظ الصناعات في البلاد ، كما يذكر « بتر » .

وعلى أية حال ، فقد كانت الدولة تحدد عدد المشتغلين بكل حرفة في كل مدينة أو قرية على حسب ما تقتضيه حاجات البلاد ، وكان هؤلاء الصناع يحصلون على ترخيصات عمل من الدولة سواء كانوا أفراداً أو جماعات ،

كما كانت تتقاضى منهم الضرائب ، وكان فى وسع هؤلاء تأجير حق إحتكار تلك الصناعات لغيرهم .

ويلاحظ أن الدولة كانت قد تخلت عن أغلب الصناعات التى كانت تحتكرها دولة البطالة ، تشجيعا للمجهودات الخاصة .

وكانت الدولة تحدد قيمة الضريبة وفقا لنوع الصناعة من جانب ، والمكان الذى تزاوّل فيه من جانب آخر ، وكانت تقدر قيمتها سنويا .

وكان لهؤلاء الصناع نقابات ، وكانت هذه النقابات هى المسئولة عن سد حاجات الحكومة ، وعن تأدية الضرائب المفروضة على أعضائها الذين ارتكبوا مخالفات ولم يتموا أعمالهم .

وقد اشتغل هؤلاء الصناع فى كثير من الصناعات التى كانت تشتهر بها مصر ، ومنها صناعة المنسوجات ، وصناعة الزجاج ، وصناعة الورق ، وصناعة بناء السفن ، هذا إلى جانب صناعة العطور والتوابل .

وبالنسبة لصناع المنسوجات ، نلاحظ أن انتشار المسيحية بينهم ، قد أثر على طابع هذه الصناعة ، إذ اضطبغت بالصبغة المسيحية .

أما صناع الزجاج ، فيستدل من تأخر مستوى الزجاج المصرى الذى عثر عليه فى الحفائر الحديثة فى منطقة الفيوم ، على أن مستوى العاملين فى هذه الصناعة قد أخذ يتدهور .

وبالنسبة لصناع الورق ، فيبدو أن رواج صناعة الكتب من رق الجلد ، قد أثر على رواج صناعاتهم ، وإن استمر تصدير الورق بكميات كبيرة إلى الخارج كما كان الحال من قبل .

أما الطبقة الرابعة فهى طبقة التجار ، وقد كانت هذه الطبقة تتمركز فى الأسكندرية ، التى كانت تعتبر أكبر مركز تجارى فى العالم بأسره .

وتكونت هذه الطبقة خاصة من اليهود الذين اشتهروا باشتغالهم بالتجارة ، ومن الروم والأقباط وأيضا من عناصر أخرى مثل السوريين .

وفى عهد أغسطس ، كان لهذا الطبقة شأن عظيم ، كما زادت أموالهم زيادة ملحوظة ، وذلك عندما أعلن سياسة حرية الاقتصاد ، فقد سمحت هذه

السياسة لأثرياء التجار في مصر أن يستثمروا أموالهم في التجارة الشرقية على نحو لم يعرف من قبل .

ونتيجة لذلك زادت تجارة الشرق زيادة ملحوظة ، فكانت الأساطيل تعود من الهند وغيرها محملة بأغلى البضائع إلى مصر ، ثم توزع من مصر إلى سائر البلاد ، وهكذا تجنى مصر ضريبة مزدوجة على البضائع حين ترد إليها ، وحين تصدر منها .

وحدث انتعاش ملحوظ في التجارة ، يظهر من كثرة عدد السفن التي كانت تعمل في تجارة الهند الشرقية ، فقد بلغت أكثر من مائة وعشرين سفينة ، كما زاد حجم السفن ، وأصبحت المستخدمة في البحار الشرقية من أحجام أكبر وقدرة أكثر في سرعة الملاحة .

إلا أن هذه الرحلات كانت كثيرة التكاليف ، نظراً لانتشار القرصنة في هذه المناطق ، حتى إن السفن التجارية كانت تسير عادة في حراسة سفن مسلحة ، لذلك كان من الطبيعي أن يرفع التجار أسعارهم ليعوضوا تكاليفهم وخسائرهم .

وهكذا تمكن كثير من الرأسماليين في الإسكندرية ، من مضاعفة ثرواتهم ، خاصة إذا علمنا أن البضائع الشرقية كانت تباع في الغرب بمائة مثل ثمنها الأصلي .

ويكفي للدلالة على مابلغته هذه الطبقة من شأن عظيم ، أن نذكر أن بعضهم قد تمكن من الوصول إلى أرقى المناصب في القصر الإمبراطوري في روما ، كما أن أحدهم قد تمكن من أن يقود ثورة ناجحة في الإسكندرية تليداً لإحدى الملكات في القرن الثالث ، وأن هذا الشخص قد تمكن من تسليح جيش كامل من دخله من تجارة البردي والصمغ العربي .

وفي العصر البيزنطي يبدو أن تجار الإسكندرية قد نجحوا في المحافظة على مراكزهم على رأس التجارة العالمية ، فاستمر الاتصال مع الصومال وبلاد العرب والهند ، كما امتدت خطوط الملاحة من الإسكندرية إلى جميع الموانئ الرئيسية في البحر الأبيض المتوسط ، خاصة وأن الدولة قد تركت

هذه التجارة حرة فى أيدي الافراد ، باستثناء الجزية التى كان على مصر إرسالها الى القسطنطينية .

ويجب هنا أن نشير إلى أن صادرات مصر قد انقسمت الى نوعين: أحدهما للتجارة ، والآخر هو الضريبة النوعية التى كان على مصر أن تدفعها سنويا لروما ثم القسطنطينية فيما بعد ، وكان أهم مقوماتها القمح .

وبالنسبة للتجارة ، فقد كان التجار يقومون بتصدير القمح والكتان والبردى والعاج والعطور والتوابل ، أما الزجاج فلم يعد يصدر فى العصر البيزنطى ، وذلك لتدهور مستواه كما ذكرنا من قبل ، كما أن تجارة الورق قد تأثرت بالاقبال على استخدام رقوق الجلد ، وكان التجار فى مصر يستوردون المعادن (خاصة الفضة والصفير) والخمر والحريير والعطور والتوابل ، من أجل صناعتها محليا ، وإعادة تصديرها .

وفى مجال النشاط المالى ظهر ما يعرف بالقروض المالية من الخارج التى مارسها كبار الممولين ، وقد كان لهؤلاء الممولين مكاتب فى الإسكندرية ، حيث يستطيع المدين أن يدفع المبلغ المقرض بالإضافة الى الفا ئدة المقررة. ويدلل الدكتور مصطفى العبادى على ذلك بوثيقة بردية من القرن السادس الميلادى فيها ذكر لمصريين يتعاقدون على اقتراض مبلغ من المال فى القسطنطينية بفائدة ٨٪ ، ويرد الدين فى الإسكندرية ، ويرى أن هذا المكتب يقوم بوظيفتين ، الاولى عقد الصفقات التجارية ، والثانية القيام بأعمال البنوك الدولية ، فالمبلغ الذى سيدفعه المدين المصرى فى الإسكندرية لم يكن ليرسل الى القسطنطينية ، وانما كان يبقى فى الاسكندرية ليستغل فى عقد الصفقات التجارية .

واخيرا يجب الا نغفل نشاط الكنيسة فى مجال التجارة ، وخاصة التجارة الخارجية ، فقد كانت تمتلك أسطولا من السفن التجارية الذى يعمل لحسابها الخاص .

والسؤال الذى يفرض نفسه الان : هو هل يمكن أن نعتبر هذه الطبقة التجارية طبقة بورجوازية كتلك التى نشأت فى أوروبا ؟

للإجابة على هذا السؤال يجدر بنا أن نقوم بعمل مقارنة بين الطبقة التجارية التى نشأت فى مصر ، والطبقة البورجوازية التى نشأت فى أوربا .

نلاحظ فى البداية أن الطبقة البورجوازية فى أوربا قد ظهرت من بين أدنى الطبقات فى المجتمع الاقطاعى، أى من الاقنان الذين لم يكن فى حياتهم أى أرض يزرعونها ،فاضطروا للعمل كأجراء فى أوقات الحصاد، أو كمرتزقة فى الجيش ، كما اتجهوا الى التجارة لتفتح لهم بابا للربح .

أما فى مصر ، فان طبيعة موقعها الجغرافى جعلها أكبر مركز تجارى فى العالم ، لذلك نشأت هذه الطبقة نشأة طبيعية ، وتكونت من اليهود خاصة والروم والسوريين وغيرهم الى جانب الأقباط .

هذا إلى جانب أن النقابات الطائفية التى ظهرت فى أوربا نشأت لتخدم مصالح طبقتها ، أى لتؤمّن أعضاءها من حوادث الحريق وغرق السفن ونيرها من الكوارث ، كما كانت تفرض على أعضائها أن يمدوا يد المساعدة لزملائهم فى حالات المرض والكوارث والسجن .

وذلك بعكس النقابات فى مصر، فمثلا كانت نقابات الصناع - كما رأينا- مسئولة عن سد حاجات الحكومة من العمال ، وتأدية الضرائب المفروضة على أعضاء النقابات الذين ارتكبوا مخالفات ولم يتموا أعمالهم ، وبالتالي لم يكن لها نفس الدور الكبير الذى لعبته نقابات أوربا ، وذلك لأن هذه النقابات كانت جزءا من النظام ، وليست خارجة عليه كما هو الحال فى أوربا .

كذلك فقد ارتبط ظهور الطبقة البورجوازية فى أوربا بظهور المدن الجديدة ، بمعنى أن هذه الطبقة هى التى أنشأت المدن الجديدة.

بعكس الوضع فى مصر ، فان مركز مدينة الاسكندرية التجارى هو الذى أوجد هذه الطبقة بالفعل .

أيضا يجب الإشارة إلى أن ظهور الطبقة البورجوازية فى أوربا ، أدى إلى صراع تاريخى مع الطبقة الاقطاعية الحاكمة .

بعكس الوضع فى مصر ، فلم يحدث أى تصادم مع الطبقة الاقطاعية ، وذلك لاختلاف وضع الطبقة شبه الاقطاعية فى مصر عن وضعها فى أوربا ، فقد كانت فى أوربا هى التى تحكم ، ولكنها فى مصر كانت جزءا من الطبقة الحاكمة التى تتكون أساساً من الرومان .

كذلك فإن ظهور الطبقة البورجوازية فى أوربا أدى الى تناقض ومصادمات بينها وبين روعساء الأديرة والأساقفة ، لأن الكنيسة كانت جزءا من الطبقة الاقطاعية .

وذلك بعكس الوضع فى مصر ، التى لم يحدث بها أى تصادم بين هذه الطبقة والكنيسة ، بل نلاحظ أن الكنيسة كان لها نشاط كبير فى التجارة ، وتمتلك أسطولا من السفن التجارية الذى يعمل لحسابها الخاص .

وأخيرا يجب أن نشير إلى أن ظهور الطبقة البورجوازية الجديدة فى أوربا ، قد أدى الى تغير وجه الحياة فيها ، فقد أدى تغير علاقات الإنتاج إلى انهيار النظام الاقطاعى بكل سماته .

بعكس الوضع فى مصر ، فقد ظهرت الطبقة التجارية جنبا إلى جنب مع الطبقة شبه الاقطاعية ، وذلك لأنها كانت جزءا من النظام ، وليست انقلابا عليه كما ذكرنا .

وبعد هذه المقارنة ، يتضح لنا أن الطبقة التجارية التى نشأت فى مصر تختلف عن الطبقة البورجوازية التى نشأت فى أوربا . ومع ذلك نستطيع أن نطلق عليها اسم الطبقة البورجوازية من ناحية أنها طبقة تجارية، وكانت تعيش فى المدن .

وبعد هذا العرض للمجتمع المصرى وتركيباته الطبقيّة وعلاقاته الاقتصادية ، نرى أن المجتمع المصرى كان مجتمعا يخضع لنظام انتاجى لا هو نظام إقطاعى ولا هو نظام بورجوازى وإنما هو خليط .

تعرضنا فى الصفحات السابقة لطبقات المجتمع المصرى وعلاقات الملكية، ونتناول هنا انعكاسات ذلك على الحضارة أى على الدين واللغة والفكر والدستور .

الدين :

وبالنسبة للدين ، لما كانت الدولة البيزنطية تسيطر على مصر وبالتالي على علاقات الملكية ، وكان دين الدولة الرسمي فى بداية تاريخ هذه الدولة هو العقيدة الوثنية ، لذلك فإن إنتشار المسيحية فى مصر قد صاحب حركة اضطهاد واسعة للمسيحيين وخاصة فى عهد دقلديانوس (Diocletianus ٢٨٤ - ٣٠٥ م) . فقد أصبح المسيحيون يكونون عنصرا غريبا نافرا بين مواطنى الامبراطورية ، لذا كان من الضرورى أن تتخذ الاجراءات اللازمة لإدماجهم أو استئصالهم ، فكان هذا الاضطهاد هو أعنف اضطهاد تعرض له المسيحيون ، حتى إن الكنيسة القبطية فى مصر والحبشة لا زالت تورخ الأحداث بعصر دقلديانوس الذى تسميه عصر الشهداء .

على أن هذا الوضع لم يلبث أن تغير عندما اعترف الامبراطور قسطنطين الأول (Gonstantinus I ٣٢٣ - ٣٣٧ م) بالمسيحية دينا مسموحا به ضمن الديانات الأخرى فى الدولة الرومانية ، وبذلك تخلص المسيحيون فى مصر من الاضطهاد الدينى .

ولم يلبث التغيير الذى بدأه قسطنطين أن اكتمل فى عام ٣٨٠ م عندما اصدر الامبراطور ثيودوسيوس الأول (Theodosius ٣٧٩ - ٣٩٥ م) مرسوما باعتبار المسيحية هى الدين الرسمى الوحيد فى جميع أنحاء الامبراطورية الرومانية .

وبذلك أصبحت الوثنية دينا غير معترف به فى مصر ، وبالتالي بدأت مرحلة من الاضطهاد الدينى وقع فى هذه المرة على الوثنيين ، فقد أخذ المسيحيون يعملون على القضاء على الوثنيين ونشر دينهم بنفس القسوة التى حاول بها أنصار الوثنية القضاء على المسيحية .

على أن المسيحيين أنفسهم ما لبثوا أن وقعوا تحت اضطهاد دينى من نوع آخر ، ففي ذلك الحين كانوا قد دخلوا فى خلاف دينى حول تفسير طبيعة المسيح عليه السلام وصفته ، وذلك عندما دب الخلاف بين زعيمى المسيحيين فى مصر : اثنازيوس (Athanasius ٣٢٨ - ٣٧٣ م) ، وأريوس (Arius ت ٣٣٦ م) .

فقد كان من رأى أريوس الذى جهر به فى عام ٣١٨ م ، أن المسيح عليه السلام (الابن) له طبيعة مختلفة عن طبيعة الاله (الأب) ، باعتبار أن المسيح له بداية ، فى حين أن الاله ليس له بداية فهو قديم وأبدى .

وقد صدم هذا الرأي الكثير من رجال الكنيسة فى الاسكندرية ، الذين كانوا يعتقدون أن الابن مثل الأب قديم ودائم ، وأنهما من طبيعة واحدة ، وكان على رأسهم الأسقف اسكندر Alexandrus (٣١١ - ٣٢٨) ، أسقف كنيسة الاسكندرية ، الذى عقد مجمع فى الاسكندرية عام ٣١٩ من القساوسة فى مصر وليبيا ، وأصدروا استنكارا لعقيدة أريوس وأعلنوا حرمانه وأتباعه من الكنيسة .

وقد دعا الامبراطور قسطنطين Constantinus (٣٢٢ - ٣٣٧ م) إلى عقد مجمع دينى يشترك فيه أساقفة الكنائس المختلفة فى الشرق والغرب لوضع حد لهذه الانقسامات العقائدية ، وكان هذه المجمع هو مجمع نيقيا (Nikaia) الذى عقد فى عام ٣٢٥ م بأسيا الصغرى ، وقد اقترح فيه قسطنطين وصف العلاقة بين الأب والابن بأنهما من طبيعة واحدة ، وكان ذلك لكسبه ولاء الاكثرية التى رفضت عقيدة أريوس ، كما قرر المجلس حرمان أريوس من الكنيسة وطرده من مصر مع اثنين من أتباعه الذين ظلوا على عقيدته .

إلا أن قسطنطين وجد أن الأريوسية لم تمت بنفى زعيمها ، فأصدر عفواً عن أريوس ، وأمر بإعادته إلى منصبه فى الاسكندرية ولكن الأسقف اسكندر رفض إجابة طلب الامبراطور ، وبذلك بدأ الخلاف بين كنيسة الاسكندرية والقصر الامبراطورى .

وعندما تولى أثنازيوس الأسقفية خلفاً للأسقف اسكندر فى عام ٣٢٨م ، أصر أيضاً على رفض طلب الامبراطور بإعادة أريوس إلى كنيسة الاسكندرية ، مما دفع الامبراطور قسطنطين الى عقد مجمع دينى فى مدينة صور عام ٣٣٥ م لمحاكمة أثنازيوس ، وفيه قرر المجمع عزل أثنازيوس من منصبه ونفيه من مصر .

وهكذا تدخل قسطنطين ومن أتى بعده من الأباطرة فى هذه المنازعات الدينية ، وعقدوا من أجل ذلك المجمع الدينية .

ولم يلبث أن ظهر خلاف جديد بين كنيسة الاسكندرية والقسطنطينية منذ حوالى القرن الخامس الميلادى دار حول طبيعة المسيح من الناحيتين الالهية والبشرية ، عندما ذكر أسقف القسطنطينية فى عام ٤٢٨م وهو نسطور (Nestorius) (ت ٤٥١م) أن للمسيح طبيعة بشرية الى جانب طبيعته الالهية . فانقسمت الكنائس المختلفة إلى فريقين :

فريق يؤيد الدعوة النسطورية ، وهم أتباع مذهب الدوفيزيت (Duophysite) الذين نادوا بأن للمسيح طبيعتين ، طبيعة بشرية إلى جانب طبيعته الالهية .

وفريق يعارضها أشد المعارضة ، وقد تمثل هذا الفريق المعارض في مصر وسوريا وأرمينيا ، وهم أتباع مذهب المونوفيزيت (Monophysite) الذين نادوا بأن للمسيح طبيعة واحدة وهي الطبيعة الالهية .

وفى عهد الامبراطور مرقيان Marcian (٤٥٠ - ٤٥٧ م) بلغ الخلاف الدينى أقصاه بين كنيسة الاسكندرية والقسطنطينية ، عندما دعا إلى عقد مجمع دينى فى خلقدونية Chalkedon بأسيا الصغرى عام ٤٥١ م ، وأقر هذا المجمع مذهب الطبيعتين ، وقرر أن مذهب الطبيعة الواحدة كفر وخروج على الدين الصحيح ، كما قرر حرمان ديوسقورس Dioscorus (٤٤٤ - ٤٥١ م) بطرك الاسكندرية من الكنيسة .

وبالطبع لم يقبل ديوسقورس ولا مسيحيو مصر ما أقره مجمع خلقدونية ، مما أدى إلى انفصالهم عن كنيسة القسطنطينية ، وأطلقوا على أنفسهم « الأرثوذكسين » Orthodox أى أتباع الديانة الصحيحة ، كما عرفت كنيستهم باسم الكنيسة القبطية الأرثوذكسية أو فيما بعد بالكنيسة البعقوبية^(١) . أما أتباع الكنيسة البيزنطية فقد عرفوا بعد الفتح العربى باسم الملكانيين Melkites ، نسبة الى كلمة « ملك » وذلك لاتباعهم مذهب الامبراطور . على كل حال فباتباع كنيسة القسطنطينية وهى كنيسة الدولة البيزنطية صاحبة السيادة على مصر مذهب الطبيعتين ، واتباع الكنيسة المصرية المذهب المخالف لها وهو مذهب الطبيعة الواحدة ، عاد التناقض القديم الذى أدى فى البداية إلى اضطهاد الوثنيين للمسيحيين ، ثم اضطهاد المسيحيين للوثنيين فيما بعد ، فبدأت دورة جديدة من الاضطهاد الدينى اتخذت فى هذه المرة شكلا مذهبيا .

ولما تم تنصيب هرقل Heraclius (٦١٠ - ٦٤١ م) امبراطورا فى عام ٦١٠ م ، رأى أنه لابد من اعادة الوحدة إلى الكنيسة ، فعقد مجمعا دينيا وأصدر صورة توفيق Mono tha lma تقضى بان يمتنع الناس عن الكلام فى طبيعة المسيح وصفته وأن يعترفوا جميعا بان له ارادة واحدة .

(١) الكنيسة البعقوبية نسبة إلى يعقوب الدردسى (Jacob Baradeus) أسقف مدينة الرها المونوفيزيتي فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى ، الذى زار مصر ضمن بلاد الشرق التى زارها لتنظيم الكنائس المونوفيزيتية .

ولتنفيذ قراراته أرسل الامبراطور فى سنة ٦٣١م قيرس Cyrus إلى مصر وأعطاه كل السلطات التى تساعد فى تأدية مهمته ، سواء أكانت سلطات سياسية أم دينية .

وما أن قدم قيرس إلى الاسكندرية فى سنة ٦٣١م ، حتى بدأ الاضطهاد الأعظم ، فقد كان يعرض على الناس أحد أمرين إما الدخول فى الجماعة أو الاضطهاد .

وقبل وصول قيرس إلى الاسكندرية هرب البطرك القبطى بنيامين توقعاً لما سيحل به ويطانفته من الشدائد من جرأ فرض المذهب الجديد . وقد فاق اضطهاد قيرس للأقباط كل اضطهاد ، حتى تحول كثير ممن لم يستطيعوا الهرب إلى المذهب الجديد ومنهم بعض الاساقفة . ومن هنا فقد صحت مقولة « إن سيف قيرس قطع آخر ما كان يربط المصريين إلى الدولة البيزنطية » .

ويرى د . ابراهيم نصحي أن تدخل الأباطرة فى الشؤون الدينية واضطهادهم للمسيحيين فى مصر ، جعل رجال الدين ليسوا قادة دينيين فحسب ، بل أيضاً زعماء وطنيين فى مقاومة الأباطرة ، وبذلك اتخذت الخلافات الدينية طابعاً وطنياً .

ومما يدل على أن المسألة فى مصر تطورت إلى مسألة قومية أو امتزجت بها ما يذكره ساويرس عن رهبان أحد الأديرة بأنهم لم يحددوا عن المذهب الأرثوذكسى ، ولم يقبلوا المذهب الخلقدونى لأنهم مصريون .

على كل حال فإن هذا الصراع الدينى الطويل لم يكن ليتم لولا قوة الكنيسة القبطية فى مصر ، فقد عرفنا سابقاً أن الكنيسة القبطية كانت مالكة لمساحات كبيرة من الأراضى ، كما كانت تمتلك اسطولا تجارياً فى البحر الأبيض المتوسط ، وبالتالي استطاعت أن تنافس كبار الملاك بما تمتلكه من ضيعات واسعة ، وعرفنا أنه كان فى استطاعتها أن تقاوم أى جور من جانب الحكومة .

نظام الرهبنة :

وقد كانت الخلافات الدينية والمذهبية والاضطهاد الدينى فى مصر سبباً - كما تذكر جميع المراجع - فى نشأة نظام الرهبنة الذى يعتبر أهم نظام إستحدثته مصر فى الديانة المسيحية .

والرهبة تعنى الانعزال والانعزال فى الأماكن النائية ، وتدريب النفس على ترك متاع الدنيا ، وتطهير الروح واحتقار الجسد والاعراض عن شهواته، اعتقادا بأن ذلك يقرب الانسان الى ربه ، ويكفل له الخلاص والنجاة.

وكانت الرهبة بمعناها هذا معروفة فى العالم قبل ظهور المسيحية ، فقد مارسها البوذيون ، كما عرفها قدماء المصريين ، وايضا عرفت الديانة اليهودية الرهبة ، كما دعت الفلسفة الاقلاطونية الحديثة الى التقشف واذلال الجسد والزهد والبعد عن المجتمع .

واختلف الموء رخون فى أسباب نشأة الرهبة المسيحية فى مصر ، فرأى بعض الموء رخين أنها تأثرت بالبوذية ، ورأى البعض الآخر أنها تأثرت بالرهبة اليهودية ، ورأى فريق ثالث من الموء رخين أنها تأثرت بالفلسفة الاقلاطونية ، على أن البعض يرى أن أصول الرهبة وجدت فى الديانة المسيحية نفسها لأن الأناجيل دعت الى حياة التمسك .

وهكذا لم تكن فكرة الرهبة جديدة فى العالم القديم ، وانما الجديد هو انتشار هذه الرهبة فى مصر بالذات ، والجديد ايضا هو اتخاذ الرهبة شكلا تنظيميا ، وموء سسات وأديرة حتى أصبحت جزءا هاما من الديانة المسيحية .

وينسب كثير من الموء رخين انتشار الرهبة الى أسباب كثيرة بعضها اقتصادى مثل : سوء الأحوال الاقتصادية فى مصر فى القرن الرابع الميلادى وزيادة الضرائب ، وبعضها سياسى مثل : القانون الذى أصدره قسطنطين باعفاء الاعزب ومن لا أولاد له من الضرائب ، واعفاء الرهبان من الخدمة العسكرية ، وبعضها اجتماعى مثل الخلافات الأسرية وغيرها .

وفى رأينا أن انتشار الرهبة يرجع بالدرجة الاولى الى الاضطهاد الدينى الذى يدفع الموء الى الفرار بدينه والتقرب من الله ، ولم تكن الرهبة بمعناها الذى ذكرته سابقا من القرارات السهلة التى يتخذها الفرد ، فلو كانت سوء الأحوال الاقتصادية وزيادة الضرائب هى التى دفعت الفرد الى الرهبة لكان المسيحيون جميعا ترهبوا حتى يتخلصوا من عبء الضرائب ايضا ، يطبق ذلك بالنسبة لقانون قسطنطين . فالهرب سواء من الضرائب أو من الخدمة العسكرية لم يكن رهبة بالمعنى الصحيح ، وانما كان القصد منه الالتجاء الى الاماكن النائية للاختباء الموء قت ، فالرهبة تحتاج الى فرد يكون متدينا بطبعه ، غيور على دينه ، وملتزم به ، فاذا حدث الاضطهاد بسبب

هذا الدين الذى يدين به ، فانه يرفض الاستسلام ويفضل الهرب بهذا الدين، حتى يعبد الله فى حرية تامة .

ويحدد بعض المؤرخين بداية انسحاب المسيحيين الى الصحراء فى عهد الامبراطور ديكىوس Decius (٢٤٩ - ٢٥١ م) ، فقد أورد ديونيسيوس الأول Dionysius I بطرك الاسكندرية فى الخطاب الذى أرسله الى بطرك انطاكية فابىوس Fabius أن عددا كبيرا من المسيحيين قد فروا الى الصحراء والجبال بسبب الاضطهاد والتعذيب الذى تعرضوا له من قبل هذا الامبراطور ، وأنهم هاموا فى الصحراء ، كما وقع عدد كبير منهم فى قبضة الأعراب ، والذين عجزوا عن دفع الجزية تحولوا الى رقيق كما هلك منهم خلق كثير ، كما يذكر المؤرخون أيضا أن هذا الاضطهاد تكرر فى عهد الامبراطور فاليريان Valerian (٢٥٣ - ٢٦٠ م) فقد هجمت القوات الرومانية على منازل المسيحيين ، مما أدى الى هروب عدد كبير منهم الى الجبال ، الا أن هذه الحالات الخاصة بالهرب والاقامة فى الصحراء لايجوز تسميتها بداية لحياة الرهينة المصرية لأنها كانت مؤقتة . أما بداية قيام أول منشأة رهبانية فى مصر ، أو بمعنى آخر دير قبضى ، فكان فى سنة ٣٠٥ م ، وهو دير القديس انطونيوس .

وقد عرفت مصر نظامين من نظم الرهينة :

النظام الأول ويعرف بنظام الرهينة التوحى الذى وضع أسسه القديس انطونيوس Antonii الذى يعد رائد الرهبانية فى مصر وموه سسها الحقيقى، وكان هذا النظام يلزم الفرد منهم أن يعيش متوحدا تحتويه صومعة ، كانت أصلا قبر أو فجوة كهف .

أما النظام الثانى فيعرف بالنظام الديرانى ، وقد وضع أسسه القديس باخوم pachomius (٢٩٢ - ٣٤٦) ، الذى أسس فى عام ٣١٥ م تقريبا ديراً لجماعة الرهبان الذين التفوا حوله ، وذلك بالقرب من دندرة ، وكان هذا النوع الجماعى من حياة الزهد جديدا على عالم المسيحية ، وقد وضع القديس باخوم الأسس التى تقوم عليها العلاقات بين افراد الدير الباخومى ، والواجبات التى يلتزم بها كل منهم تجاه الآخرين .

ومما يذكر ان النظام الديرانى هو الذى نقله العالم المسيحى فى الشرق والغرب ، وحاول تطبيقه كل على النحو الذى يتلاءم وطبيعة المكان الذى يحيا فيه . الا أن الأديرة فى مصر قد اختلفت عن تلك التى نشأت خارجها . كما يذكر الدكتور رأفت عبد الحميد - فى عدة نواحى : أولها ويتعلق بالمكان الذى

أنشئت فيه ، فقد أقام الرهبان المصريون الأديرة فى جوف الصحراء بعيدا عن الناس أى منعزلين ، أما الأديرة التى فى الخارج فقد أقيمت قريبا من المدن أو على أطرافها أو على الطرق الموعدة إليها .

أما الثانى فيتعلق بالخدمات التى يقدمها الدير ، فقد انصرف الرهبان المصريون الى مباشرة أمور العقيدة وطقوسها ، واعتمدوا فى كثير من الأحيان على ما تمدهم به المناطق المجاورة ، بينما جعل رهبان الخارج من أديرتهم مؤسسات دينية تقدم الخدمات الاجتماعية والاقتصادية إلى جوار رسالتها الدينية إلى أهالى المنطقة التى يوجد فيها الدير .

أما الناحية الثالثة فتتعلق بصلة الدير بالعالم الخارجى ، فلم يكن للرهبان المصريون من علاقة خارج أسوار هذه الأديار الا بالكنيسة ، مما جعل نصيبهم من الثقافة والمعرفة قليلا بالنسبة لآخوانهم فى الأديرة الخارجية الذين كانوا على اتصال بالعالم الخارجى من حولهم ، وكانوا بالتالى أكثر تطورا من الناحية الفكرية .

كذلك يتميز الرهبان المصريون فى ذلك الوقت بأنهم كانوا يمثلون قوة ضخمة أو « جيشا » - على حد تعبير أحد المؤرخين - يقف فى مواجهة أى إجراء مجحف يصدره الأباطرة البيزنطيون ، ويحتمون فى ذلك بهذه الأديرة التى كانت تجمع فى شكلها العام صفتى الدير والقلعة ، فتحميها الأسوار العالية والبوابات الضخمة .

ونرى أن سبب هذه الفروق بين الأديرة المصرية والأديرة فى الخارج، ترجع إلى أن الأديرة المصرية نشأت خارج المجتمع نتيجة للاضطهاد الدينى ولقاومة هذا الاضطهاد الدينى، بينما نشأت الأديرة فى الخارج داخل المجتمع المسيحى وخدمة هذا المجتمع المسيحى.

الحياة العقلية :

بعد أن أنهينا من دراسة الحياة الدينية فى مصر، وتحول الكنيسة المصرية لتصبح القوة الوطنية الكبرى التى يلتف حولها الشعب ، تنتقل إلى دراسة الحياة العقلية فى مصر .

فقد كانت مصر قبل الفتح العربى تتكلم ثلاث لغات أساسية هى :

أولا : اللغة اليونانية : التى كانت اللغة الرسمية للحكومة منذ عهد البطالمة حتى الفتح العربى ، فعندما دخل الرومان مصر أبقوا على اللغة اليونانية لغة

رسمية ، تصدر بها كافة القرارات والقوانين والأوامر حتى بيانات
الامبراطور وخطاباته التي كانت تكتب أصلا باللاتينية كانت تترجم إلى
اليونانية عند نشرها في الاسكندرية .

ثانيا : اللغة اللاتينية : وقد أعلن دقلديانوس في اصلاحاته المعروفة
اعتبارها لغة رسمية حتى في الولايات التي كانت الاغريقية لا تزال تحتل
فيها هذه المكانة مثل مصر ، لكن التغيير لم يكن فعالا ، فقد ظلت اللغة
الاغريقية لغة رئيسية في المحاكم والادارات الحكومية وكانت تصدر بها
القرارات العامة ، لكن نلاحظ أن المحاضر الرسمية للقضايا أصبحت تصدر
في إطار لاتيني ، أى أن العنوان والتاريخ وموضوع القضية كانت تكتب
باللاتينية ، وأحيانا كانت ملاحظات الحاكم نفسه (Praefectus) تكتب بهذه
اللغة ، أما أقوال طرفي القضية والشهود والقضاة ، وكذلك رئيسهم في كثير
من الأحيان ، فظلت تكتب بالاغريقية .

ثالثا : اللغة القبطية : وهى لغة المصريين أهل البلاد ، واللغة القبطية هى
التعبير الكتابي عن اللغة المصرية من الحروف اليونانية ، وكانت اللغة
المصرية القديمة تكتب بالخط الديموطيقى المنحدر من الحروف الهيروغليفية ،
ولما كانت هذه الحروف مقيدة لحرية اللغة ، وكان تعلم الديموطيقية أمرا
عسيرا ، لذلك فقد اتخذوا الحروف اليونانية بديلا عن الديموطيقية لكتابة
لغتهم ، وأضافوا إليها ستة حروف من الكتابة الديموطيقية ، وهكذا ولدت
اللغة القبطية في القرن الثالث الميلادى . ومع ذلك فقد كان على المصريين
الذين يريدون تولى الأعمال الادارية في الحكومة ، أن يتقنوا اللغة اليونانية .

وعندما انتشرت الديانة المسيحية في مصر ، استخدم أقباط مصر
لغتهم أى اللغة القبطية في التبشير بهذه الديانة الجديدة مما أدى إلى زيادة
انتشار هذه اللغة ، وقد تزايد استعمال اللغة القبطية - كما يذكر أيدرس بل
- في القرن السابع ، خاصة في تحرير العقود القانونية وغيرها من الوثائق ،
مما يدل على أن اللغة الاغريقية كانت قد بدأت في الاندثار ، بل لقد وجد بين
أقطاب الكنيسة من كانوا يجهلون الاغريقية .

وقد أثرت الديانة المسيحية على الحياة العقلية في مصر تأثيرا كبيرا ،
فأصبحت معظم الكتابات كتابات دينية ، ومعظمها عن تراجم لحياة
القديسين أو سير الشهداء وقصص الأتقياء الصالحين ، وقد جرى التأليف

ففيها باللغة القبطية ، كما جرى ترجمة الانجيل إلى اللغة القبطية الذى يعتبر فى نظر الدكتور مصطفى العبادى من أعظم أعمال اللغة القبطية لأنها على حد قوله نقلت الانجيل إلى المصريين فى لغة مصرية وثوب مصرى .

وعندما انقسم المسيحيون فى القرن الرابع الميلادى إلى مذاهب وفرق ، وجدنا أتباع كل مذهب وفرقة يؤلفون ويكتبون فى الدعاية لوجهة نظرهم والدفاع عنها .

وقد استمرت الاسكندرية فى العصر البيزنطى مركزا للعلم والثقافة ، يقصد اليها الدارسون من شتى الأقطار .

وقد تمثلت الحياة الفكرية بالاسكندرية فى وجود مدرستين كبيرتين بها ، الاولى : وهى المدرسة اللاهوتية التى أسسها القديس مرقس ، وكانت تشغل فى أول الأمر بدرس وتدريس مبادئ الديانة المسيحية بنوع خاص على طريقة السؤال والجواب ، على أن نطاقها اتسع بعد ذلك ، وصارت تشغل بالعلوم والآداب والفلسفة ، وقد وجدت بين علمائها وعلماء المدرسة الرثية الأولى علاقات اتحاد متينة العرى حتى قال الامبراطور أديانوس : إن عباد سيرابيس بالاسكندرية مسيحيون ، كما أن أساقفة النصرانية يعبدون سيرابيس . وقد عظم شأن هذه المدرسة كثيرا ، وبلغت منزلة عالية من الرقى وبعد الصيت ، حتى إن منصب رئيسها لأهميته كان يلى المنصب البطريكى فى الرتبة ، وظل أساقفة وبابوات الكرسي الاسكندري زمنا طويلا فى أوائل النصرانية ، ينتخبون غالبا من بين رؤسائها ، وكان تلاميذها يدرسون على عيشة النسك والبتولة ، حتى تخرج منها أعظم بابوات الاسكندرية الذين اشتهروا بسعة العلم والاطلاع مثل : الكسندروس وأثناسيوس وديونيسيوس وكيرلس وديسقوروس .

وقد كان لهذه المدرسة العامل الأكبر فى نشر الدين المسيحى بالأقطار المصرية خاصة ، وفى تعميم نفوذ مدرسة الاسكندرية فى الشرق عامة . ولكن عندما حدث الانشقاق بسبب المجمع الخلقيدونى فى أواسط القرن الخامس ، بدأ نجم هذه المدرسة يافل ، اذ أخذت تضعف تدريجيا حتى اندرست معالمها .

أما المدرسة الثانية ، فهى المدرسة الفلسفية التى أسسها أمونيوس الصقاس حوالى عام ١٩٣م ، وخصصها لتعليم الفلسفة الافلاطونية

الجديدة، وهى خلاصة مذهبى افلاطون وارسطو ، وقد استمرت هذه المدرسة الى عام ٥٢٩ م .

والى جانب هاتين المدرستين وجدت أماكن أخرى للتعليم وهى :

١ - مدرسة الكنيسة ، وهى المدرسة الملحقه بالكنيسة .

٢ - مدرسة الدير : وقد كان لكل دير نوعان من المدارس . النوع الأول وهو المدارس التى يقيمها لتعليم رهبانه وتسليمهم التراث الرهبانى . أما النوع الثانى فهو المدارس التى يقيمها خارجه لتعليم أبناء الشعب .

٣ - الكتاب القبطى : وكان الكتاب إما أنه يكون تابعاً للكنيسة ، أو تابعاً للدير الذى قام بانشائه ، أو يكون تابعاً لأسقف الإبراشية .

أما عن نظام التعليم فى العصر القبطى فيذكر الدكتور سليمان نسيم أن التعليم فى العصر القبطى قد مر بمرحلتين :

المرحلة الأولى : مرحلة التعليم الأو كى .

وميدانها المدرسة الأولية الملحقه بالكنيسة أو بالدير القريب بديلا عن المعبد فى العصور المصرية القديمة ، والتى كان الطفل يلتحق بها عادة فى الخامسة من عمره ليدرس اللغة ، وتعاليم الكتاب المقدس ، ويستظهر بعض الزامير والالحان الكنسية ، أى أن تعليم أدوات المعرفة كان دائما يأتى فى مقدمة مناهج التعليم وهذا أمر طبيعى ، ولكن كانت تضاف اليها دراسة الرياضيات التقليدية والمعروفة لدى المصريين منذ الأزمنة القديمة وهى حسابات المساحات والموازين والمكاييل .

وحتى منتصف القرن الثانى الميلادى كانت اللغة الأساسية التى تعلم للأطفال هى اللغة اليونانية إلى أن وضع بنتينوس الأبجدية القبطية فى أواخر القرن الثانى الميلادى ، فأصبحت اللغة القبطية تعلم بالمرحلة الأولى ، وكان التعليم بهذه المرحلة مجانيا واجباريا ، وللجنسين دون تمييز ، ولما كانت المدرسة ملحقه بالكنيسة فاحتياجاتها تقوم بها الأسر المسيحية عن رغبة واختيار .

المرحلة الثانية : مرحلة التخصص .

وتقوم على أساس التلمذة لمعلم خاص إلى جانب الدراسة بالمدرسة اللاهوتية التى تعد طلابها لوظائف الكهنوت والشموسية ، على أن هذا

التخصص لم يمنع من وجود المدارس المدنية الحكومية التى تعد طلابها للخدمات المدنية المختلفة .

ثم وجدت مرحلة التعليم العالى فى العصر القبطى فى المدرسة اللاهوتية ، فقد نجح المفكرون والعلماء المسيحيون فى تطوير أساليب التعليم المسيحى ، والوصول ببحوثهم ودراساتهم إلى مستوى عال جدا ، يقف جنبا إلى جنب مع تعليم وآراء الفلاسفة الوثنيين . وبذلك لم تقل اسكندرية العصر المسيحى عن اسكندرية العصر الاغريقى . وكان أساتذة هذه المدرسة نموذجا للحياة المسيحية المتكاملة التى تجمع بين العلم والدين ، واتجهوا إلى أسلوب التلمذة على النمط نفسه الذى اتبعه السيد المسيح والآباء الرسل من بعده . وتدرجيا أصبحت المدرسة اللاهوتية بالاسكندرية ، بمن انضم إليها من أهل الفكر والفلسفة ، الذين كانوا أصلا وثنيين واعتنقوا المسيحية - عقل المسيحية للمفكر ، مما أتاح لبابواتها رئاسة المجامع المسكونية ، والتصدى بجدارة لمقاومة البدع والهرطقات .

أما عن مناهج هذه المدرسة فقد اشتملت على أصول العقيدة مع تفسيرها وشرحها ، كما وجه الاهتمام إلى تنمية قوى التفكير والملاحظة التى كانت وسيلتها الدراسات العلمية البحتة كالهندسة وعلم وظائف الأعضاء ، والفلك والفلسفة والشعر .

وقد أشار بثلر فى كتابه إلى وجود مكتبات خاصة بالاسكندرية يملكها أفراد ، فيقول نقلا عن كتاب لحنامسكوس : إن « كزماس » العالم كان يمتلك « خير مكتبة فى الاسكندرية ، وكان يعير من كتبها فى سخاء لمن يحب أن يقرأ ، وكان فقيرا فقرا شديدا ، فلم يكن فى بيته شئ من الأثاث إلا فراشه ومنضدة ، على أن الكتب كانت تملؤه ، وكان يبيع لكل من شاء أن يدخل مكتبته ، ومن أراد من القائمين كتابا طلبه وقرأه هناك » .

ومن المكتبات الخاصة كذلك مكتبة الدير ، فقد وجدت بكل دير فئة النساخ والكتاب ، وكانت تمثل عملا من أهم الأعمال داخل الدير إذ انحصرت مهمتهم فى كتابة الكتب ونسخ المخطوطات بمكتبة الدير ، ومن هذه المخطوطات : أسفار الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد ، وسير الآباء البطارقة ، وخطاباتهم الخاصة بالرد على البدع ، وترجمات حياة الشهداء وأعمالهم وقوانين الكنيسة ، والردود على الخلافات العقائدية واللاهوتية .

وكان الرهبان يقومون بنسخ كتبهم مستخدمين الزخارف المختلفة وخاصة التى على شكل صليب . و جدير بالذكر أنه كان لكل من المخطوطات الثمينة جراب إما من الجلد ، أو من الخشب ، أو من الفضة أو من الذهب .

وهكذا كانت الاسكندرية مقر الاداب فى العالم أجمع ، ومقصد طلاب العلم ، فكان يدرس بها التاريخ والفلسفة وفقه الدين والطب ، وإن كان أكثر العلم فيها خاصا بالدين . على أن اقبال أهل العلم فى الاسكندرية لم يكن على آداب الاغريق وفقه الدين وحدهما ، فقد كانت مشهورة بخدمتها لعلم الفلك بومهاره علماء الرياضة وعلم الحيل (الميكانيكا) ، وكان أكبر علماء الفلك هو (اسطفن الاسكندرى) وكان معروف أيضا بدرايته بعلم التنجيم .

ومن العلوم أيضا التى عرفت فى ذلك الوقت علم تقويم البلدان ، فقد زادت معرفة الناس بالبحار الشرقية بفضل رحلات الكشف التى قام بها (كزماس) المعروف بالبحار الهندى وكان تاجرا من أهل الاسكندرية قام برحلات علمية طويلة حول بلاد العرب والهند .

الحياة الفنية :

أما بالنسبة للحياة الفنية ، فقد تمثلت فى مجالات عديدة منها : النحت، والتصوير ، وفن البناء ، وفن المنسوجات .

وقد ظهر فى مصر البيزنطية فنا بيزنطيا ، ولكن بعد إنتشار الديانة المسيحية ، وفى القرن الرابع الميلادى بالتحديد ظهر ما يعرف بالفن القبطى الذى امتاز بالواقعية ، وصار بعد أن تخلص من الموشرات الهلينستية فنا مصريا خالصا ، استوحى فى رسومه وصوره من مصر الفرعونية إلى جانب الموضوعات الدينية المسيحية ، كما تأثر بالفن بالسورى والایرانى .

ففى مجال النحت : نجد أن الاسكندرية قد شهدت نشاطا فنيا خاصة بين القرنين الرابع والسادس الميلاديين - وقد تأثر فن النحت بالفن الهلنى ، كما تأثر بالفن القبطى فى تماثيل القديسين ، وهكذا أسهمت مصر فى نمو فن الايقونات .

أما فى مجال التصوير : فقد احتلت الاسكندرية فى هذا الفن مركز الصدارة . وبعد انتشار المسيحية أعتبر هذا الفن خاصة عند المسيحيين

الشرقيين هو فن الكنيسة الذى بدأ فى القرن الرابع الميلادى ، وقد نشأ هذا الفن لخدمة الكنيسة .

أما فن البناء : فقد كان ببناء مدينة الاسكندرية يأخذ بالألباب بعظمته ورونقه، وبعد انتشار المسيحية أنشئت الكنائس الفخمة . وكان فن التصوير يتبع فن البناء ، فقد كان يستخدم لتجميل الجدران فى داخل البناء .

أما فن المنسوجات : فقد كان هذا الفن يميل الى الاحتشام والبساطة وعدم التنوع ، لكن بعد انتشار المسيحية خاصة فى القرن السادس الميلادى صار متعدد الالوان ، وظهر فيه الفن المصرى المستمد من مصر الفرعونية ، كما جرى زخرفة المنسوجات بموضوعات دينية .

الحياة القضائية

أما بالنسبة للحياة القضائية :

ففى العصر الرومانى - كما يذكر الدكتور ابراهيم نصحى - كان الحاكم العام على رأس هذا النظام ، وكانت اختصاصاته لا تحد ، وكان يعقد محكمته فى الاسكندرية فى شهرى يونية ويولية للفصل فى قضايا مديريات غرب الدلتا ، وفى بلوزيم فى شهر يناير للفصل فى قضايا المديريات الشرقية وفى منف فى شهرى مارس وأبريل للفصل فى قضايا بقية المديريات .

وكانت محكمة الحاكم العام تتكون منه رئيسا ، ومن مساعدين له كانوا فى الولايات الأخرى يختارون من جنس المتخاصمين ، أما فى مصر - وعلى حد قول الدكتور ابراهيم نصحى - فلم نسمع عن محاكم تتألف من قضاة مصريين أو اغريق فقد كان الناس يحاكمون وفقاً للقانون الرومانى أو الاغريقى أو المصرى بحسب أجناسهم، فالأغريق كانوا يلجئون عادة إلى القواد الذين كانوا من جنسهم للفصل فى قضاياهم ، والمصريين كانوا يلجئون إلى شيوخهم ورجال الشرطة للفحص فى شكاويهم .

أما فى العصر البيزنطى ، خاصة بعد إصلاحات جستينيان التى عن طريقها زود كل حاكم فى ولايته بسلطات عسكرية ومدنية كما ذكرت سابقا ، فقد أصبح حاكم كل مقاطعة - باعتباره مسيطرا على شئونها المدنية - هو الرئيس الأعلى فى شئونها القضائية ، وهكذا حل روءساء المقاطعات مكان حاكم أقسام مصر .

وبالنسبة لأنواع المحاكم ، فقد وجد فى العصر البيزنطى إلى جانب المحاكم العادية ، محاكم أخرى خاصة للفصل فى القضايا التى تمس طبقات معينة مثل المحاكم العسكرية .

أيضا وجد نوع آخر من المحاكم وهو « محكمة الامبراطور » فقد كان من حق سكان مصر أن يرفعوا قضاياهم وشكاويهم مباشرة إلى محكمة الامبراطور بالقسطنطينية فى صورة ملتمس ، وكان الحكم يصدر فى هذه الحالة فى صورة أمر ، وقد استغل جستينيان هذه الفرصة حتى تظهر سلطته عند سكان مصر فى مظهر أعلى من سلطة كبار الملوك ، إلا أن اللجوء إلى محكمة الامبراطور كانت تتطلب نفقات باهظة فى السفر والاقامة ، فضلا عما اشتهر به هذا القضاء من بطء كما يقول الدكتور الباز العرينى فيذكر أن القضية التى رفعها أهل أفروديتو بشأن حق القرية فى الجباية الذاتية ، استغرق النظر فيها ما لا يقل عن خمسة عشر عاما .

ويانتشار المسيحية ظهر ما يعرف بالقضاء الكنسى زمن الامبراطور قسطنطين، ولم يكن هذا القضاء مقصورا على رجال الدين ، وذلك لعدم أحقية رجال الدين فى اللجوء إلى المحاكم المدنية إلا إذا كانت الدعوى جنائية - وإنما جاز للمتخاصمين فى الأمور المدنية أن يلجأوا باختيارهم إلى تحكيم الأسقف ، فقد كانت أحكامه معترف بها قانونا . وفى عصر هرقل (٦١٠ - ٦٤١ م) زادت سلطات رجال الدين القضائية ، فصار للأسقف الحق فى تنفيذ الأحكام ، هذا إلى جانب أنه لايجوز للمتهم اللجوء إلى القضاء المدني بعد أن اعتبرته الكنيسة مذنبا .

الباب الأول

النظام الاقتصادى

الفصل الأول : الملكية العقارية فى مصر

الفصل الثانى : النظام المالى فى مصر

الفصل الثالث : الأرض والفلاح - طبقة الصناع

طبقة التجار

الفصل الأول :

الملكية العقارية فى مصر

- أنواع الأراضى فى الدولة الإسلامية .
- طبيعة الفتح العربى لمصر .
- أنواع الأراضى فى مصر بعد الفتح العربى .
- أشكال الحياة العقارية فى مصر بعد الفتح العربى .
 - الاقطاع .
 - الاحتباس أو الأوقاف .
 - نظام القبالات .

الفصل الأول

الملكية العقارية فى مصر

بفتح عمرو بن العاص مصر فى خلافة عمر بن الخطاب عام ٢٠ هـ/٦٤١م ، انتقلت مصر من يد الدولة البيزنطية إلى يد العرب . وقد أدى هذا الانتقال إلى حدوث تغييرات فى النظام الاقتصادى ونظام الحكم فى مصر ، وأيضاً إلى حدوث تغييرات فى التركيب الطبقي للمجتمع المصرى ، حيث ظهرت طبقات جديدة على قمة هذا المجتمع ، واختفت طبقات أخرى ، مما أدى إلى تغير علاقات الملكية .

ومن المعروف أن علاقات الملكية هى الأساس الذى ينبنى عليه البناء الحضارى المتمثل فى النظم السياسية والادارية والقانونية والفنية والأدبية وغيرها ، ومن هنا فإن هذا يتطلب منا دراسة شكل ملكية الأراضى فى مصر بعد الفتح العربى ، ومعرفة ما اذا كانت ملكية تامة أم ملكية حق الانتفاع فقط ، أم تشمل النوعين . ولكن فى البداية وقبل أن نخصص الكلام عن مصر ، يجدر بنا أن نستعرض فى إيجاز أنواع الأراضى التى ظهرت فى الدولة الإسلامية بعد الفتوح العربية ثم الانتقال منها إلى مصر .

أنواع الأراضى فى الدولة الإسلامية :

يقول أبو عبيد فى أحكام فتوح الأراضى : «وجدنا الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده ، قد جاءت فى افتتاح الأرضين بثلاثة أحكام :

١- أرض أسلم عليها أهلها ، فهي لهم ملك أيانهم ، وهي أرض عشر لاشئ عليهم فيها غيره .

ويضيف أبو يوسف : « لا يخرجون عنها فيما بعد ، ويتوارثونها ، ويتبايعونها » .

٢ - وأرض افتتحت صلحا على خرج معلوم ، فهي على ماصولحوا عليه ، لا يلزمهم أكثر منه .

٣ - وأرض أخذت عنوة ، فهي التي اختلف فيها المسلمون ، فقال بعضهم :

أ - سبيلها سبيل الغنيمة ، فتخمس وتقسم ، فيكون أربعة أخماسها خطا بين الذين اقتنحوها خاصة ، ويكون الخمس الباقي لمن سمى الله تبارك وتعالى . (١)

ب - وقال بعضهم : بل حكمها والنظر فيها الى الامام ، إن رأى أن يجعلها غنيمة ، فيخمسها ويقسمها ، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر (٢) ، فذلك له وإن رأى أن يجعلها فيئا (٣) فلا يخمسها ولا يقسمها ، ولكن تكون موقوفة على المسلمين عامة مأ

(١) المقصود بأهل الخمس هم ما نزلت فيهم الآية الكريمة " وأعلموا أنما غنمتم من شئ فإن لله خمسة والمرسل ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم امنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شئ قدير " (سورة الانفال آية رقم ٤١)

فألخمس الذي لله عز وجل مردود من الله تعالى على الذين سمى الله (للمرسل ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) لا يوضع في غيرهم

(٢) خيبر : وهي ناحية علي ثمانية برد (١٢ ميلا تقريبا) من المدينة لمن يريد الشام . يطلق هذا الاسم على الولاية ، وتشتمل هذه الولاية على سبعة حصون ومزارع ونحل كثير . وأما لفظ خيبر فهو بلسان اليهود الحصن ، ولكن هذه البقعة تشتمل على هذه الحصون سميت خيابر . وقد فتحها رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنة سبع للهجرة عنوة .

(٣) الفئ . جمع أفياء وفقيوه . والفئ هو ما صولح عليه المسلمون من الجرية والخراج . بعكس الغنيمة وهي ما غلب عليه المسلمون بالقتال حتى يأخذوه عنوة . وبالنسبة لأوجه صرف أموال الفئ . فهي تصرف في مصالح المسلمين عامة ، وتعين ذلك بالاجتهاد ، فهي تصرف في أعطيات الجيش ، وأرزاق القضاة ، وكل العاملين في المصلحة العامة .

بقوا ، كما صنع عمر بالسواد ^(١) . فهذه أحكام الا راضى التى
تفتح فتحا " .

ويشير الماوردى فى كتابه الى وجود ثلاثة أنواع من الأراضى :

أولا : النوع الأول : وهو ما ملكت عنوة وقهرا .

وقد اختلف الفقهاء فى حكمها بعد استيلاء المسلمين عليها :

فيقول الشافعى ^(٢) : تكون غنيمة ، وبالتالي تقسم بين المسلمين ، الا
اذا رضوا بتركها فتوقف على مصالح المسلمين .

وقال مالك ^(٣) : تصير وقفا على المسلمين حين غنمت ، ولا يجوز
قسمها بين الغانمين .

(١) السواد : يراد به رستاق العراق ، وضياعها التى افتتحها المسلمون على عهد عمر من الخطاب رضى
الله عنه . سمي بذلك لسواده بالزروع والنبيل والأشجار ، وكانوا يسمون الأخضر سوادا ، والسواد
الأخضر . أما كتاب " المنجد " فيقول عن السواد : هو اسم الأرياف فى العراق ، أطلق سابقا على
السهول الواقعة بين نجلة والفرات ، وجاء أيضا مرادفا لكلمة العراق

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن إبريس الشافعى ، ولد سنة ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م بغزة أو بعسقلان أو اليمن أو
منى ، وبشا بمكة وحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين ، وثيقه على مسلم بن خالد الزنجى مفتى مكة ،
وأنن له فى الإفتاء وعمره خمس عشرة سنة ، ثم لازم مالكا بالمدينة وقدم بغداد سنة خمس وتسعين
ومائة ، فاجتمع عليه علماءها وأخذوا عنه ، وأقام بها جولين وصنف بها كتابه القديم ، ثم عاد الى
مكة ، ثم خرج الى بغداد سنة ثمان وتسعين ومائة فأقام بها شهرا ، ثم خرج الى مصر ، وصنف بها
كتبه الجديدة كالآم والأمالى الكبرى والأملاء الصغير ومختصر البيهقي ومختصر المرنى ومختصر
الربيع والرسالة والسنن ومات بمصر سنة ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م .
وانظر عنه فى الفصل الخاص بالحركة العلمية .

(٣) هو مالك بن أنس بن مالك بن عامر بن أبى عامر بن عمرو بن الحارث بن غيلان بن حشد بن عمرو بن
الحارث ، وهو ذو أصبح الحميرى ، أبو عبد الله المدنى إمام دار الهجرة فى زمانه . روى مالك عن غير
واحد من التابعين ، وحدث عنه خلق من الأئمة . قال البخارى : أصبح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن
عمر . وقال يحيى بن معين : كل من روى عنه مالك فهو ثقة ، الا أبا أمية . قال أبو مصعب . سمعت
مالكا يقول . ما أفتيت حتى شهد لى سبعون أنى أهل لذلك . وكان عظيم المحبة لرسول الله صلى الله
عليه وسلم ، مبالغا فى تعظيم حديثه حتى كان لا يركب فى المدينة مع ضيعه وكبر سنه ، ويقول . لا
أركب فى بلد فيها جد رسول الله صلى الله عليه وسلم مدفون . تولى بالمدينة عام ١٧٩ هـ / ٧٩٥ م
ودفن بالبقيع .

وانظر عنه فى الفصل الخاص بالحركة العلمية .

أما أبو حنيفة (١) فيقول : الامام فيها بالخيار

١ - إما أن يقسمها بين الغانمين فتكون أرضاً عشرية.

ب - أو يعيدها الى أيدي المشركين بخراج يضرب عليها ، فتكون أرض خراج ، ويكون المشركون فيها أهل ذمة .

ج - أو يقفها على كافة المسلمين ، وتصير هذه الأرض دار إسلام ، سواء سكنها المسلمون أو أعيد اليها المشركون .

ثانياً : النوع الثاني : ما ملك منهم عفوا لانجلائهم عنها خوفاً ، فتصير بالاستيلاء عليها وقفاً ، ويضرب عليها الخراج ، ويكون أجره لرقابها تؤخذ ممن عومل عليها من مسلم أو معاهد . ويجمع فيها المسلم بين العشر والخراج .

أما مالك فقد رفض اجتماع العشر والخراج فيها ، وقال : يسقط العشر بالخراج ، وتصير هذه الأرض دار اسلام ، ولا يجوز بيعها ولا رهنها .

ثالثاً : النوع الثالث : أن يستولى عليها صلحاً على أن تقر في أيديهم بخراج يؤدونه عنها . وتنقسم إلى قسمين:

القسم الأول : أن يصالحهم على أن ملك الأرض لنا ، فتصير بهذا الصلح وقفاً من دار الاسلام ، ولا يجوز بيعها ولا رهنها ، ويكون الخراج أجره لا يسقط عنهم باسلامهم ، فيؤخذ خراجها اذا انتقلت إلى غيرهم من المسلمين .

(١) هو الامام أبو حنيفة واسمه النعمان بن ثابت التيمي مولاهم الكوفي ، فقيه العراق ، وأحد أئمة الاسلام وأحد الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتنوعة ، وهو أقدمهم وفاة ، لاته أترك عصر الصحابة ، ورأى انس بن مالك ، قيل وغيره . وذكر بعضهم أنه روى عن سبعة من الصحابة ، كما روى جماعة من التابعين . قال يحيى بن معين : كان ثقة ، وكان من أهل الصدق ، ولم يتهم بالكذب . وقال سفيان الثوري وابن مبارك : كان أبو حنيفة أفقه أهل الأرض في زمانه . وقد ختم القرآن في الموضوع الذي توفي فيه سبعين ألف مرة ، وتولى في رجب سنة ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م .
وانظر عنه في الفصل الخاص بالحركة العلمية .

والقسم الثانى : أن يصلحوا على أن الأرض لهم ، ويُضرب عليها خراج يؤدونه عنها ، وهذا الخراج فى حكم الجزية ، متى أسلموا سقط عنهم ، ولا تصير أرضهم دار إسلام ، وتكون دار عهد ، ولهم بيعها ورهنها وإذا انتقلت إلى مسلم لم يؤخذ خراجها ، ولا تؤخذ جزية رقابهم لأنهم فى غير دار الاسلام .

أما أبو حنيفة فيقول : قد صارت دارهم بالصلح دار اسلام ، وصاروا به أهل ذمة ، فتؤخذ منهم جزية رقابهم .

طبيعة الفتح العربى لمصر :

ومن هذا العرض الموجز يتضح أن أنواع الأراضي - وبالتالي أشكال الملكية - كانت تتحدد بطبيعة الفتح وما إذا كان عتوة أو صلحا .

فما هى طبيعة الفتح العربى لمصر ؟ هل تم عتوة أو صلحا ؟

إن الاجابة على هذا السؤال ليست بالسهولة التى يتصورها البعض . فنلاحظ من دراستنا للمصادر العربية اختلاف الآراء حول طبيعة هذا الفتح ، فقد انقسم المؤرخون العرب إلى ثلاث فرق :

الفريق الأول : يرى أن مصر قد فتحت صلحا .

الفريق الثانى : يرى أن مصر قد فتحت صلحا ماعدا الاسكندرية وثلاث قرى هى : سلطيس (١) ، ومصيل (٢) ، وبلهيب (٣) .

(١) سلطيس : يضم أوله ، وسكون ثانيه ، وفتح الطاء ، وياء ساكنه ، وسين مهمله . من قرى مصر القديمة . وفى المعجم الجغرافى لمحمد رمزى باسم سنطيس ويقول عنها : إنها قرية قديمة ، اسمها الاصلى سلطيس ، وردت فى معجم البلدان بأنها من قرى مصر القديمة ، ذكرت فى فتوح مصر ، وفى قوانين ابن ممتى وفى تحفة الارشاد من أعمال خوف رمسيس ، وفى التحفة سنطيس من أعمال البحيرة .

(٢) وهذه القرية قد خربت ولا تزال اطلالها تعرف اليوم باسم كوم المدينة باراضى ناحية بشتاواى بمركز ابنى حمص غربى مدينة المحمودية .

(٣) بلهيب : بالفتح ثم السكون ، وكسر الهاء ، وياء ساكنة ، وياء موحدة . وقد ذكرها محمد رمزى فى قاموسه باسم بلهيت وهى منية الزناطرة بالبحيرة ، ومحلها اليوم مزارة التى بمركز المحمودية .

الفريق الثالث : يرى أن مصر قد فتحت عنوة .

وسنحاول هنا أن نعرض آراء كل فريق على حدة ، حتى نتبين اذا كانت مصر قد فتحت صلحا أم عنوة .

أولا : الفريق الذى يرى أن مصر كانت قد فتحت صلحا :

نذكر منهم عبد الملك بن مسلمة الذى نقل عن يحيى بن ميمون الحضرمى^(١) أنه قال : لما فتح عمرو بن العاص مصر ، صولح علي جميع من فيها من الرجال من القبط ممن راهق الحلم الى ما فوق ذلك ، ليس فيهم امرأة ولا صبي ولا شيخ - على دينارين دينارين ، فأحصوا لذلك فبلغت عدتهم ثمانية آلاف ألف . ومنهم هشام بن اسحاق العامرى^(٢) عن عبيد الله ابن أبى جعفر^(٣) ، فقد قال : " سألت شيخا من القدماء عن فتح مصر ، فقال : هاجرنا الى المدينة أيام عمر بن الخطاب وأنا محتلم ، فشهدت فتح مصر . قلت له : فان ناسا يذكرون أنه لم يكن لهم عهد . فقال : ما يبالي ألا يصلى من قال إنه ليس لهم عهد .

فقلت : فهل كان لهم كتاب ؟ قال : نعم ، كتب ثلاثة : كتاب عند طلما صاحب إخنأ^(٤) ، وكتاب عند قزمان

(١) هو يحيى بن ميمون الحضرمى المصرى أبو عمره القاضى . تولى قضاء مصر عام (١٠٥ - ١١٤ هـ / ٧٢٣ - ٧٣٢ م) .

وانظر عنه فى الموضوع الخاص بالتقضاة .

(٢) هشام بن اسحاق العامرى : ربما يكون هو هشام بن اسحاق بن عبد الله بن الحرث اللخنى ، عن أبيه وعنه حفيده اسماعيل بن ربيعة الثورى . قال : أبو حاتم : شيخ .

(٣) هو عبيد الله بن أبى جعفر الليثى مولاهم للمصرى الفقيه ، أحد العلماء والزهاد ، ولد سنة ٦٠ هـ / ٦٧٩ م . قال محمد بن سعد : كان ثقة ، فقيه فى زمانه . وقد قتل بمصر فى ذى الحجة سنة ١٣٢ هـ / ٧٤٩ م .

(٤) إخنأ : بالكسر ، ثم السكون ، والنون المقصورة . والبعض يقول : إخنو ، ويقع بالقرب من الاسكندرية ، وهى مدينة قديمة . وكان صاحبها يقال له أيام الفتوح طلما ، وكان عنده كتاب من عمرو بن العاص بالصلح على بلده ومصر جميعها ، فيما رواه بعضهم .

واسمها الصحيح - كما يقول محمد رمزى - اجنأ أو اجنوا Agnou وقد ذكر المقرئى أن هذه البلدة كانت من ثغور مصر القديمة الواقعة فى إقليم نستراوه على ساحل البحر الأبيض بين البرلس ورشيد . وقد انتشرت هذه القرية ، ومحلتها اليوم كوم مشعل الواقع على ساحل البحر الأبيض بين رشيد والبرلس بأراضى ناحية عزب الخليج بمركز قوة بمديرية الغربية .

صاحب رشيد ، وكتاب عند يحنس صاحب البرلس (١) . قلت : كيف كان صلحهم ؟ قال : دينارين على كل إنسان جزية ، وأرزاق المسلمين . قلت : فتعلم ما كان من الشروط ؟ قال : نعم ، ستة شروط : لا يخرجون من ديارهم ، ولا تنزع نساؤهم (وأضاف أبو عبيد : « ولا أبناؤهم ») ، ولا كفورهم (وفي كتاب أبو عبيد « كنوزهم ») ، ولا أراضيهم ، ولا يزداد عليهم . ونلاحظ أنه لم يذكر غير خمسة شروط ولكن المقرئ ذكر الشرط السادس وهو " ويدفع عنهم موضع الخوف من عدوهم " .

ومنهم كذلك عبد الملك بن صالح الذي نقل عن عبيد الله بن أبي جعفر عن رجل من كبراء الجند أنه قال : كتب معاوية بن أبي سفيان إلى وردان عامل خراج مصر (٤٣ هـ / ٦٦٣ م) : زد على كل رجل منهم قيراطا (٢) . فكتب وردان إلى معاوية : كيف تزيد عليهم ، وفي عهدهم أن لا يزداد عليهم شيء ؟ ويرجع سبب الخلاف بين وردان ومعاوية - وفقا لرأى أبو عبيد - إلى أن وردان كان يرى أن مصر قد فتحت صلحا " فكره الزيادة " ، في حين أن معاوية كان يرى أن مصر قد فتحت عنوة " فلهذا استجاز الزيادة " .

ثانيا : الفريق الذي يرى أن مصر فتحت صلحا ما عدا الاسكندرية وثلاث قرى :

نذكر منهم حسين بن شفى (٣) الذي قال : « لما فتح عمرو بن العاص الاسكندرية ، بقى من الأسارى بها ممن بلغ الخراج ، وأحصى يومئذ ستمائة ألف ، سوى النساء والصبيان ، فاختلف الناس على عمرو في قسمهم ،

(١) برلس : بفتحين ، وضم اللام وتشديدا . وهي بلدة على شاطئ نيل مصر ، قرب البحر من جهة الاسكندرية . وهي من الثغور المصرية القديمة الواقعة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط بين دمياط وورشيد ، وإليها تنسب بحيرة البرلس الواقعة الآن في شمال مديرية الغربية بالوجه البحرى وتعرف الآن باسم قرية البرج .

(٢) القيراط جمع قراريط . ووزنه عند الجوهريين : نصف دانق (الدانق سدس درهم) أى أربع حبات ، أو ٢٢ سنتي جرام . ويختلف وزنه بحسب البلاد ، فبمكة : ربع سلس دينار ، وبالعراق : نصف عشره والكلمة تعريب اليونانية Keration . ولا يتخذ القيراط فى عهدنا هذا إلا لوزن الماس واللؤلؤ وما أشبههما من الحجارة الكريمة .

(٣) هو الحسين بن شفى الأصبحى المصرى ، عن أبيه وعبد الله بن عمرو إن صح ، وعنه حيوة بن شريح ويحيى بن عمر الشيبانى . قال أبو يونس : توفى سنة تسع وعشرين ومائة .

فكان أكثر المسلمين يريد قسمتها ، فقال عمرو : لا أقدر على قسمها حتى أكتب إلى أمير المؤمنين . فكتب إليه يعلمه بفتحها وشأنها ، وأن المسلمين طلبوا قسمها ، فكتب إليه عمر رضى الله عنه : لا تقسمها ، وذرهـم يكون خراجهم فينـا للمسلمين وقوة لهم على جهاد عدوهم ، فأقرها عمرو ، وأحصى أهلها ، وفرض عليهم الخراج ، فكانت مصر كلها صلحا بفريضة دينارين دينارين ، إلا أنه يلزم بقدر ما يتوسع فيه من الأرض والزرع إلا الاسكندرية فانهم كانوا يؤدون الخراج والجزية على قدر ما يرى من وليهم ، لأن الاسكندرية فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد ، ولم يكن لهم صلح ولا ذمة .

ويقول ايضا عبد الملك بن صالح عن يزيد بن أبى حبيب : " إن المقوقس الذى كان على مصر - كان صالح عمرو بن العاص على أن يفرض على القبط دينارين دينارين ، فبلغ ذلك هرقل - صاحب الروم - فتسخطه أشد التسخط ، وبعث الجيوش ، فأغلقوا الاسكندرية ، وأذنوا عمرو بن العاص بالحرب ، فقاتلهم ، وكتب الى عمر بن الخطاب : أما بعد ، فإن الله تبارك وتعالى فتح علينا الاسكندرية عنوة قسرا بلا عهد ولا عقد . قال : فمصر كلها صلح فى قول يزيد بن أبى حبيب غير الاسكندرية (١) . قال : وبهذا القول كان يقول الليث بن سعد (٢) . "

(١) وانظر رأى يزيد هذا فى عدة مصادر عربية وهى : ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ، ٨٤ ؛ ابن السعيد : المغرب فى حلى المغرب ، ج ١ ، ص ٣٧ : الذهبى : تاريخ الاسلام (حواث وفيات ١١ - ٤٠ هـ) ، ص ١٩٨ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ١٠٠ ؛ ابن يقيم : الانتصار ، ج ٥ ، ص ١١٩ ؛ المقرئى : الخط ، ج ١ ، ص ٢٩٤ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٥ ؛ ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ١ (القسم الاول) ، ص ١٠٠ .

وانظر عن ترجمة يزيد بن أبى حبيب فى الفصل الخاص بالحركة العلمية (طليقات الفقهاء) .
(٢) هو الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمى أبو الحرث المصرى ، أحد الاعلام . ولد بقرقشنة سنة ٩٤ هـ / ٧١٢ م قال ابن سعد : كان ثقة ، كثير الحديث صحيحه ، وكان قد اشتغل بالفتوى فى زمانه بمصر . وقال يحيى بن بكير : ما رأيت أحدا أكمل من الليث ، كان فقيه النفس ، عربى اللسان ، يحسن القرآن والنحو ويحفظ الحديث والشعر . وقد أراـه المنصور لولاية مصر فلبى وتولى قضائها وتوفى سنة ١٧٥ هـ / ٧٩١ م .

وقال أيضا يحيى بن أيوب (١) : « فتح الله أرض مصر كلها بصلح غير الاسكندرية وثلاث قرىات ظاهروا الروم على المسلمين : سلطيس ، ومصيل ، وبلهيب » فانه كان للروم جمع فظاهروا الروم على المسلمين ، فلما ظهر عليها المسلمون استحلوها ، وقالوا : هؤلاء لنا فئ مع الاسكندرية . كتب عمرو بن العاص بذلك الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فكتب اليه عمر أن يجعل الاسكندرية وهؤلاء الثلاث قرىات ذمة للمسلمين ، ويضربون عليهم الخراج ، ويكون خراجهم وما صالح عليه القبط كله قوة للمسلمين ، لا يجعلون فينا ولا عبيدا .

ثالثا : الفريق الذى يرى أن مصر فتحت عنوة بلا عهد ولا صلح .

فمنهم سفيان بن وهب الخولاني (٢) الذى قال : لما فتحنا مصر بغير عهد ، قام الزبير بن العوام (٣) فقال : يا عمرو أقسمها . فقال عمرو بن العاص : لا أقسمها . فقال الزبير : والله لتقسمنها كما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر . فقال عمرو : والله لا أقسمها حتى أكتب بذلك إلى أمير المؤمنين . فكتب اليه عمر بن الخطاب : أقرها حتى تغزو منها جبل

(١) هو يحيى بن أيوب الغافقى المصرى ، روى عن بكير بن الأشج وجماعة ، وكان لا يحتج به . وقال الشئبى . ليس بالقوى . وقال الدارقطنى : فى بعض حديثه اضطراب . وقد ذكره ابن عدى فى كامله وقال : هو عندى صدوق . وتوفى سنة ١٦٣ هـ / ٧٧٩ م . وانظر عنه فى فصل الحركة العلمية (طبقات الفقهاء) .

(٢) هو سفيان بن وهب الخولاني ، يكنى أبا أيمن . وقد على النبى صلى الله عليه وسلم ، وحضر حجة الوداع ، وشهد فتح مصر وأفريقية ، وسكن المغرب . روى عنه أبو الخير مرثد بن عبد الله ، وأبو عثانة ، ومسلم بن يسار . توفى عام ٩١ هـ / ٧٠٩ م .

(٣) هو الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى القرشى الأسدى . يكنى أبا عبد الله . أسلم وهو ابن خمس عشرة سنة ، وكان إسلامه بعد أسى بكر رضى الله عنه بيسير ، كان رابعا أو خامسا فى الاسلام . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن لكل نبي حواريا ، وحوارى الزبير بن العوام . وكان الزبير أول من سل سيفا فى سبيل الله . وقد شهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحدا والخندق والحديبية وخبير والفتح وحنينا والطائف وشهد فتح مصر . وجعله عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى الستة أصحاب الشورى الذين ذكرهم للخلافة بعده ، وقال : هم الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض . وهو أحد العشرة المشهود له بالجنة . وكان قتله يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الأولى من سنة ٢٦ هـ / ٦٥٦ .

الحبلة (١) . قال عبد الملك فى حديثه : وإن الزبير صولج على شئ أرضى به .

كما روى عن الصلت بن أبى عاصم ، أنه قرأ كتاب عمر بن عبد العزيز إلى حيان بن سريج (عامله على خراج مصر عام ٩٩ هـ / ٧١٨ م) : «إن مصر فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد» .

وقد قال عبد الملك بن مسلمة عن داود بن عبد الله الحضرمى إن أبا حيان أيوب بن أبى العالية ، حدثه عن أبيه : «أنه سمع عمرو بن العاص يقول: لقد قعدت مقعدى هذا ، وما لأحد من قبط مصر على عهد ولا عقد الا أهل أنطابلس (٢) فإن لهم عهدا يوفى لهم به ... وزاد : إن شئت قتلت ، وإن شئت خمست ، وإن شئت بعث» .

وقد روى عن زيد بن أسلم (٣) أنه قال : كان تابوت لعمر بن الخطاب ، فيه كل عهد كان بينه وبين أحد ممن عاهده ، فلم يوجد فيه لأهل مصر عهد . كذلك روى عن عمرو بن شعيب (٤) عن أبيه عن جده أنه قال : «إن عمرو بن العاص كتب إلى عمر بن الخطاب فى رهبان يترهبون بمصر ، فيموت أحدهم وليس له وارث ، فكتب إليه عمر : إن من كان منهم له عقب فادفع ميراثه إلى عقبه ، ومن لم يكن له عقب فاجعل ماله فى بيت مال المسلمين ، فان ولاءه للمسلمين» .

وقد كتب حيان بن سريج إلى عمر بن عبد العزيز يسأله أن يجعل جزية موتى القبط على أحيائهم، فسأل عمر عراك بن مالك، فقال عراك: ما سمعت

(١) معنى ذلك أن تكون فينا موقرنا للمسلمين ما تناسلوا ، يرثه قرن بعد قرن ، فتكون قوة لهم على عدوهم .

(٢) أنطابلس : بعد الألف باء موحده مضمومة ، ولام مضمومة أيضا ، وسين مهملة ، ومعناها بالرومية خمس مدن ، وهى مدينة بى الاسكندرية وبرقة ، وقيل هى مدينة ناحية برقة .

(٣) هو زيد بن أسلم العلوى مولاهم الفقيه العابد . لقى ابن عمر وجماعة ، وكانت له حلقة للفتوى والعلم بالمدينة . قال أبو حازم الأعرح . لقد رأيت فى حلقة زيد بن أسلم أربعين فقيها . وله تفسير القرآن يرويه عنه ابنه عبد الرحمن . توفى عام ١٣٦ هـ / ٧٥٢ م .

(٤) وهو عمرو بن شعيب بن محمد عبد الله بن عمرو بن العاص السهمى أبو إبراهيم . روى عن زينب ربيعة النبى صلى الله عليه وسلم ، فهو تابعى وثقه يحيى بن معين وابن راهويه ، وهو حسن الحديث . توفى سنة ١١٨ هـ / ٧٣٦ م .

لهم بعهد ولا عقد، وإنما أخذوا عنوة بمنزلة العبيد. فكتب عمر إلى حيان بن سريج أن يجعل جزية موتى القبط على أحيائهم.

وقال يحيى بن عبد الله بن بكير (١) : «خرج أبو سلمة بن عبد الرحمن (٢) يريد الاسكندرية فى سفينة ، فاحتاج إلى رجل يقذف به (وفى المقريزى : احتاج إلى رجل يجذف) ، فسخر رجلا من القبط ، فكلم فى ذلك فقال: «انماهم بمنزلة العبيد إن احتجنا إليهم». وقد روى عن ابن الأثير أن ملوك بنى أمية كانوا يقولون: «إن مصر دخلت عنوة ، وأهلها عبيدنا ، نزيد عليهم كيف شئنا ، ولم يكن كذلك» .

وعن عبيد الله بن أبى جعفر أنه قال : «إن كاتب حيان حدث أنه احتج إلى خشب لصناعة الجزيرة ، فكتب حيان إلى عمر يذكر ذلك له ، وأنه وجد خشبا عند بعض أهل الذمة ، وأنه كره أن يأخذ منهم حتى يعلمه . فكتب إليه عمر خذها منهم بقيمة عدل ، فأنى لم أجد لأهل مصر عهدا أفى لهم به» .

وروى ابن عبد الحكم عن ابن شهاب (٣) أنه قال : «كان فتح مصر بعضها بعهد ونمة وبعضها عنوة فجعلها عمر بن الخطاب جميعها نمة ، وحملهم على ذلك» .

على هذا النحو ، اختلف المؤرخون فى طبيعة الفتح العربى لمصر ، واستند كل فريق إلى الأدلة القاطعة التى تؤيد وجهة نظره والتى تعارض وجهة نظر الفريق الآخر . فاذا ما حاولنا أن نصل إلى حل لهذه القضية ، نجد أمامنا مجموعة من الحقائق التى ارتبطت بفتح مصر .

(١) هو الحافظ أبو زكريا بن عبد الله بن بكير المخزومي مولاهم للمصرى . سمع مالكا والليث وحلقا كثيرا ، وصنف التصانيف ، وسمع الموطأ من مالك سبع عشرة مرة . قال ابن ناصر الدين : هو صاحب مالك والليث ، ثقة . وإن كان أبو حاتم والنسائي تكلما فيه ، فقد إحتج البخارى ومسلم فى صحيحيهما بما يرويه . وتوفى سنة ٢٣١ هـ / ٨٤٥ م.

(٢) هو أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى المدنى ، أحد الأئمة الكبار . قال الزهرى : أربعة وجدتهم بحورا : عروة وابن المسيب وأبو سلمة وعبيد الله . توفى سنة ٩٤ هـ / ٧١٢ م وقيل سنة ١٠٤ هـ / ٧٢٢ م .

(٣) ابن شهاب ورعا يكون هو أبو بكر ، محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهرى أحد الفقهاء والمحدثين ، وكان عمر بن عبد العزيز قد كتب إلى الأفاق : عليكم بأبن شهاب ، فانكم لاتجدون أحدا أعلم بالسنة الماضية منه . ولد عام ٥١ هـ / ٦٧١ م توفى عام ١٢٤ هـ / ٧٤١ م .

أولها : أن عمرو بن العاص عندما قدم إلى مصر ، دخل في حرب مع البيزنطيين وعلى رأسهم المقوقس ، في الفرما ^(١) وقد ظل بها حوالى شهر ، وفى بلبيس ^(٢) ، وفى أم دنين ^(٣) (أو المقس) ، ثم فى حصن بابليون ^(٤) ، الذى أقام المسلمون فيه محاصرين للروم حوالى سبعة أشهر حتى فتحوه .

(١) الفرما : وهى مدينة قديمة بين العريش والفسطاط قرب قطية (وهى قرية فى طريق مصر قرب الفرما) ، وشرقى تنيس (وهى جزيرة فى بحر مصر قريبة من البر ، ما بين الفرما ودمياط) ، على ساحل البحر على يمين القاصد لمصر ، وبينها وبين بحر القلزم المتصل ببحر الهند أربعة أيام ، وهو أقرب موضع بين البحرين بحر المغرب وبحر المشرق ، وهى كثيرة العجائب غريبة الآثار .
والفرما مدينة من أقدم الروابط المصرية بقرب الحدود المصرية لمصر ، وكانت فى زمن الفراعنة حصن مصر من جهة الشرق لأنها فى طريق المغيرين على مصر . إسمها المصرى القديم «برامن» أى مدينة الآلهة آمون ومنه إسمها العبرى «برمون» والقبطى «برما» ، ومن هذا أتى الاسم العربى وهو «الفرما» وسماها الروم «بيروز» ومعناها الوحلة لأنها كانت واقعة فى منطقة من الأوحال بسبب تغطية ماء البحر الأبيض لأراضى تلك المنطقة .

وقد اندثرت هذه المدينة ، وتعرف اليوم آثارها بتل الفرما على بعد ثلاثة كيلو مترات عن ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وعلى بعد ٢٢ كيلو متر شرقى محطة الطينة الواقعة على السكة الحديدية التى بين بورسعيد والاسماعيلية .

(٢) بلبيس : بكسر الباءين ، وسكون اللام ، وباء وسين مهملة . وهى مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام . وكانت بلبيس قاعدة الحوف الشرقى أيام العرب ، ثم قاعدة الأعمال الشرقية من أيام الدولة الفاطمية إلى آخر عهد الحكم الجركسى ، ثم قاعدة ولاية الشرقية إلى سنة ١٨٣٢ ، وفى تلك السنة أصدر محمد على باشا وإلى مصر أمرا بنقل ديوان المديرية والمصالح الأميرية الأخرى إلى مدينة الزقازيق لتوسطها بين بلاد المديرية ، وبذلك أصبحت بلبيس قاعدة لقسم بلبيس الذى أنشئ فيها بدلا من ديوان المديرية من تلك السنة ، وفى سنة ١٨٧١ سمي مركز بلبيس .

(٣) أم دنين : وهى قرية كانت بين القاهرة والنيل ، اختلطت بمنازل روض القاهرة ، وقد عرفت بهذا الاسم قبل الاسلام ، غير أنها عرفت بعد الاسلام باسم «المقس» لأن العامل على المكس كان يقعد عندها ، وقد قلب وسمى المقس .

وكانت هذه القرية ، وقت فتح العرب مصر ، تشغل المنطقة التى تحد اليوم من الغرب بميدان باب الحديد ، فشارع الملكة نازلى ، فشارع عماد الدين ، ومن الجنوب شارع قنطرة الدكة ، وشارع القبيلة ومن الشرق شارع الكنيسة المرقسية (الدرب الواسع سابقا) وسكة شق التعبان وحارة الحدرية ، ومن الشمال شارع بين الحارات إلى أن ينتهى الحد بميدان باب الحديد . ويدخل فى هذه المنطقة القسم البحرى من شارع إبراهيم باشا وفيه جامع أولاد عنان وهو فى مكان الجامع الذى أنشاه فى المقس الحاكم بأمر الله أبو المنصور على فى سنة ٣٩٢هـ باسم الجامع الأنور ويقال له جامع المقس أو الجامع المقسى أو جامع باب البحر . ولا يدخل فى حدود قرية أم دنين شارع كامل الذى كان جزءا من شارع إبراهيم ولا حنية الأزبكية .

(٤) بابليون : وهو اسم عام لديار مصر بلغة القدماء ، وقد اشتق اندريس عليه السلام اسمها من اسم أرض بابل ، مقام أم عليه السلام ، وكانت بابل تعنى الفرقة فسموها «بابليون» ومعناها الفرقة الطيبة . وقيل هو إسم لموضع الفسطاط خاصة .

وحصن بابليون هو الحصن الذى بناه الامبراطور تراجان (٩٨ - ١١٧)م وكان يسميه العرب قصر الشمع أو الحصن .

ثانيا : أنه عندما طلب المقوقس الصلح مع عمرو بن العاص ، كان على أساس أن للروم الخيار فى الصلح ، إلى أن يوافق كتاب ملكهم ، فان رضى تم ذلك ، وان سخط انتقض ما بينه وبين الروم ، وأما القبط فبغير خيار .

ثالثا : أنه عندما أرسل المقوقس نص الصلح إلى الامبراطور البيزنطى، أرسل إليه رسالة يعنفه فيها ويطلب منه مواصلة القتال ، فواصل عمرو القتال مع الروم حتى انتصر عليهم . ونلاحظ هنا أن المقوقس كان قد طلب من عمرو الصلح بمفرده ، ولم يواصل مع الروم القتال .

رابعا: ان المصادر العربية تشير إلى أن القبط كانوا خير أعوان للعرب فى القتال ، حتى إن أسقف الاسكندرية فى ذلك الوقت ، وهو بنيامين ، أرسل إلى القبط يخبرهم بقدوم عمرو بن العاص ، ويطلب منهم مساعدة العرب .

كما تشير المصادر أيضا إلى أن الصلح الذى تم بين الأقباط من جهة، وبين عمرو بن العاص من جهة أخرى لم ينقضه الأقباط كما نقض الروم الصلح مع عمرو بن العاص .

ومن هذه الحقائق نجد أن مصر لم تكن دولة ذات سيادة عند فتح العرب لها ، وانما كانت واقعة تحت سيطرة البيزنطيين ، وهو ما يعنى من الناحية الشرعية أن المصريين لم تكن لهم إرادة فى أمرهم ، وهو ما عبرت عنه هذه العبارة التى وردت فى الصلح بين المقوقس وعمرو «وأما القبط فبغير خيار» .

وفى ذلك يقول أبو عبيد إن قصة قبط مصر «شبيهة بقصة أهل السواد، إنما كانت الروم ظاهرة عليهم ، كظهور فارس على هؤلاء ، ولم تكن لهم منعة ولا عز ، فلما أجليت الروم صاروا فى أيدي المسلمين ، فلذلك اختلفت الروايات فيهم ، فقال بعضهم أخذوا عنوة ، وقال بعضهم صالحت عنهم الروم المسلمين صلحا ، وفى كل ذلك أحاديث» .

على أن المصادر العربية - كما رأينا - تشير كذلك إلى مساعدة الأقباط للعرب أثناء الحرب . غير أن «بتلر» يرى أن مساعدة المصريين للعرب

كانت مستحيلة قبل فتح حصن بابلليون ، وأنها حتى بعد فتح الحصن ، لم تكن إلا مساعدة قليلة لاتعدو بعض الأمور .

وفى الواقع أن مساعدة الأقباط للعرب كانت وضعا طبيعيا ، وذلك لأن الأقباط لم ينعموا بالحكم البيزنطى وإنما وقعوا تحت طائل من العذاب ، سواء كان بسبب اقتصادى وهى الضرائب الباهظة التى فرضت عليهم ، أو بسبب دينى وهو الاضطهاد الدينى الذى تعرضوا له ، لذلك قاموا بمساعدة العرب أملا فى وضع أفضل أو حتى إذا لم يكن أفضل ، فلن يكن أسوأ من الوضع الذى كانوا فيه بالفعل ، «لهذا لا نعجب إذا رحب المصريون بالعرب ، واعتبروهم منقذين لهم من حكم البيزنطيين الجائر» - كما تقول الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف .

كما تشير المصادر أيضا إلى إبرام صلح بين عمرو بن العاص وأهل مصر يذكر فيه «هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر» .

وهذا ماجعل المؤرخين يختلفون فى طبيعة الفتح ، فالذين اعتبروا أن الفتح كان صلحا ، كانوا يقصدون الصلح مع أهل مصر ، بل إنه عندما أرسل هرقل رسالة إلى المقوقس يعنفه فيها ويطلب منه مواصلة القتال طلب المقوقس من عمرو أن لاينقض القبط ، على اعتبار أن «النقض لم يأت من قبلهم» .

والذين اعتبروا أن الفتح كان عنوة ، كانوا يقصدون استيلاء العرب على مصر عنوة من يد البيزنطيين وقد كان من بين الذين اعتبروا أن فتح مصر كان عنوة ، يعقوب أرئين باشا ، الذى كتب يقول :

« إذا لم يكن فى إمكان المؤرخين مساعدتنا على حل هذه المسألة وإيضاحها ، فلم يبق علينا الا أن نستند على العادات والتقاليد ، علنا نقتبس منها نورا يهدينا فى ظلمات هذا المقام . فنرى أن أئمة المذاهب الأربعة متفقون على القول بأن الديار المصرية فتحت عنوة، ونرى أيضا أن الخطباء يرتقون منابر الصلاة يوم الجمعة فى كل جوامع مصر، متقلدين سيفا حقيقيا أو شبه سيف من خشب، فنستنتج من ذلك أن المسلمين فى كل

الأزمان اعتبروا أن الديار المصرية فتحت عنوة. أما في البلاد التي استولى عليها الاسلام بغير السيف ، فيرتقى الخطيب منبر الصلاة ، ويده مرفوعتان كمن يصلى ، وفي إحداهما ورقة أو نسخة من الكتاب ، دلالة على أن تلك البلاد انضمت إلى حكم الاسلام ، رغبة من أهلها في ذلك ، أو بعد معاهدة صلح ، أو اقتناعا بالبراهين الدينية .

أما الذين اعتبروا أن مصر فتحت صلحا ماعدا الاسكندرية وثلاث قرى ، فنجد أنه من الطبيعي أن تكون الاسكندرية قد فتحت عنوة (١) ، خاصة لأنها كانت عاصمة البيزنطيين ، وبالطبع كان بها نسبة كبيرة منهم ، سواء من المدنيين أو العسكريين . وهذا الكلام ينطبق أيضا على وضع القرى الثلاث ، فقد رأينا أنها كانت تضم عددا كبيرا من الروم . وقد قام الروم في كل من الاسكندرية والقرى الثلاث بمحاربة العرب ، ولذلك اعتبر العرب أن الاسكندرية والقرى الثلاث فتحت عنوة وليس صلحا .

ومن ذلك يتضح لنا أن فتح العرب لمصر كان عنوة وصلحا في نفس الوقت ، فهو عنوة من زاوية العلاقة بين العرب والبيزنطيين ، وهو صلح إذا نظر إليه من زاوية العلاقة بين العرب والاقباط ، وهذا مايتضح من نصوص

(١) فتحت الاسكندرية مرتين : المرة الأولى عام ٢٠ هـ / ٦٤١م وفيها عقدت معاهدة بين الطرفين عرفت باسم معاهدة بابليون الثانية وذلك لانعقادها في بابليون وتمييزا لها عن بابليون الأولى ، أو معاهدة الاسكندرية ، لأنها كانت خاصة بأهل الاسكندرية وحاميتها . وقد نصت هذه المعاهدة على عقد هدنة بين الروم والعرب مدتها أحد عشر شهرا تنتهى في سبتمبر سنة ٦٤٢م وأواخر سنة ٢١ هـ يكف في اثنتائها الروم والعرب عن القتال ، كما يتم خلالها جلاء جامية الروم عن الاسكندرية حاملين أمتعتهم وأموالهم . واشترط ألا يعود جيش رومى ثانية إلى الاسكندرية ، ولا يستولى المسلمون على كنائس المسيحيين أو يتدخلوا في أمورهم ، وأن يباح لليهود الإقامة في الاسكندرية . ولضمان نفاذ هذه الشروط نصت المعاهدة على أن يأخذ المسلمون مائة وخمسين من الجند وخمسين من غير الجند رهائن.

أما المرة الثانية فكانت عام ٢٥ هـ / ٦٤٥م . ففي هذه السنة أرسل الامبراطور قسطنطين الثانى (٦٤١ - ٦٦٨م / ٢١ - ٤٨ هـ) حفيد هرقل إلى الاسكندرية أسطولا كبيرا لإجلاء العرب عن مصر إجلاء تاما . وبالفعل نجح الجيش البيزنطى فى الاستيلاء على الاسكندرية ، ورحف من بعدها إلى مايلها من بلاد الوجه البحرى ، وتخرج مركز العرب فى مصر ، وكان وألها اذ ذاك هو عبد الله بن سعد بن أبى سرح من قبل الخليفة عثمان بن عفان . وقد بعث أهل مصر إلى عثمان يسألونه أن يرسل عمرا لمحاربة الروم لأن له معرفة وخبرة بحريهم . وقد تم إجلاء الروم عن مصر على يديه ، واستولى عمرو بن العاص فى هذه المرة على الاسكندرية عنوة

الصلح الذى تم بين كل من عمرو بن العاص والمقوقس من جانب ، والذى تم بينه وبين الأقباط من جانب آخر ، وهى على النحو الآتى :

أولا : نص الصلح الذى تم بين عمرو بن العاص والمقوقس :

يقول ابن عبد الحكم : إن العرب والروم «اجتمعوا على عهد بينهم ، واصطلحوا على أن يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط ديناران ديناران عن كل نفس، شريفهم ووضيعهم ممن بلغ الحلم منهم ، ليس على الشيخ الفانى ، ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم ، ولا على النساء شىء وعلى أن للمسلمين عليهم النزل لجماعتهم حيث نزلوا ، ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم ، وأن لهم أرضهم وأموالهم لايعرض لهم فى شىء منها . فشرط هذا كله على القبط خاصة ، وأحصوا عدد القبط يومئذ خاصة ممن بلغ منهم الجزية ، وفرض عليه الديناران ، رفع ذلك عرفاؤهم بالأيمن المؤكدة. فكان جميع من أحصى يومئذ بمصر أعلاها وأسفلها من جميع القبط فيما أحصوا ، وكتبوا ورفعوا أكثر من ستة آلاف ألف نفس ، فكانت فريضتهم يومئذ اثنتى عشر ألف دينار فى كل سنة .

ثم يقول ابن عبد الحكم : « وشرط المقوقس للروم أن يخيروا ، فمن أحب منهم أن يقيم على مثل هذا ، أقام على ذلك لازما له مفترضا عليه ، ممن أقام بالأسكندرية وما حولها من أرض مصر كلها . ومن أراد الخروج منها الى أرض الروم خرج ، وعلى أن للمقوقس الخيار فى الروم خاصة ، حتى يكتب الى ملك الروم ويعلمه ما فعل ، فان قبل ذلك ورضيه جاز عليهم ، وإلا كانوا جميعا على ماكانوا عليه . »

ثانيا : نص الصلح الذى تم بين عمرو بن العاص والأقباط ، وفيه يقول الطبرى :

وكان صلحهم على النحو التالى

«بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم ويحرمهم ، لايدخل عليهم شىء من

ذلك ولا ينتقض ، ولا يساكنهم النوب (النوبة) . وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على الصلح ، وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف ، وعليهم ما جنى لصوتهم (أى لصوصهم) فإن أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزاء بقدرهم وذمتنا ممن أبى بريئة ، وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك ، ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوب فله مثل مالهم وعليه مثل ما عليهم ، ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمته ، أو يخرج من سلطاننا . عليهم ما عليهم أ ثلاثا فى كل ثلث جباية ثلث ما عليهم ، على ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمته ورسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين . وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأسا وكذا وكذا فرسا ، على ألا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة .

شهد الزبير وعبد الله ومحمد ابنه ، وكتب وردان وحضر .

ثم أشار الطبرى الى رد فعل المصريين تجاه هذا الصلح بقوله : « فدخل فى ذلك أهل مصر كلهم ، وقبلوا الصلح » .

وقد أطلقت الدكتورة سيدة كاشف على هذا الصلح الذى تم بين عمرو ابن العاص والأقباط فى عام ٢٠ هـ / ٦٤١ م اسم « معاهدة بابليون الاولى » تمييزا لها عن معاهدة بابليون الثانية أو معاهدة الاسكندرية عام ٢٠ هـ / ٦٤١ م .

بعد أن انتهينا من معالجة هذه القضية التاريخية الهامة ، المتعلقة بطبيعة الفتح العربى لمصر ، فإن السؤال الذى يطرح نفسه : كيف انعكست طبيعة الفتح العربى على أوضاع الملكية فى مصر ؟

عندما تم لعمرو بن العاص فتح مصر ، طالبه العرب بتقسيمها ، إلا أنه عندما استطلع رأى الخليفة عمر بن الخطاب رفض وقال : « ولعمري لجزية قائمة تكون لنا ولن بعدنا من المسلمين أحب الى من فئ يقسم ، ثم كأنه لم يكن ، كما قال عمر بن الخطاب : : تريدون أن يأتى آخر الناس ليس لهم شئ » ؟ وقال أيضا : " لولا آخر الناس ما افتتحت قرية الا قسمتها " .

وأرسل الى عمرو بن العاص يقول : " لا تقسمها ، وذرههم يكون خراجهم فينا للمسلمين ، أو قوة لهم على جهاد عدوهم » ، « على أن تخيروا من فى أيديكم من سبيهم بين الاسلام وبين دين قومه ، فمن اختار منهم الاسلام فهو من المسلمين ، له مالهم وعليه ما عليهم ، ومن اختار دين قومه وضع عليه الجزية ما يوضع على أهل دينه (١) ، فأما من تفرق من سبيهم بأرض العرب فبلغ مكة والمدينة واليمن فإننا لا نقدر على ردهم ، ولا نحب أن نصالحه على أمر لا نفى له به . قال : فبعث عمرو الى صاحب الاسكندرية يعلمه الذى كتب به أمير المؤمنين . قال : فقال : قد فعلت .

قال : فجمعنا مافى أيدينا من السبايا ، واجتمعت النصارى ، فجعلنا نأتى بالرجل فى أيدينا ، ثم نخيره بين الإسلام وبين النصرانية ، فمن اختار الإسلام كبرنا تكبيره هى أشد من تكبيرنا حين تفتح القرية ، قال : ثم نحوزه الينا ، وإذا اختار النصرانية نخرت النصارى ، ثم حازوه اليهم ، ووضعنا عليه الجزية ، وجزعنا من ذلك جزعاً شديداً ، حتى كأنه رجل خرج منا اليهم . قال : فكان ذلك الدأب حتى فرغنا منهم » .

أنواع الأراضي فى مصر بعد الفتح العربى

على كل حال ، فقد كانت الأرض فى مصر قبل الفتح العربى تنقسم إلى ثلاثة أنواع :

النوع الأول : أراضى التاج البيزنطى ، وأراضى الاقطاعات العسكرية ، وأراضى الاقطاعات التى منحت للشخصيات الكبيرة المنتمية للحكم السابق .

النوع الثانى : الأراضى المقدسة سواء التى خصصت للكنائس أو التى خصصت للأديرة .

(١) وقد أشار ابن اياس فى كتابه الى الرسالة التى أرسلها عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص ، وإنها كانت على النحو الآتى : " من كان من القبط والروم ، فى أيديكم ، فخيروه بين الاسلام وبينه فإن أسلم فهو من المسلمين ، له مالهم ، وعليه ما عليهم ، وإن اختار دينه ، فابقوه على دينه ، وقرروا عليه فى كل سنة دينارين " .

النوع الثالث : الأراضى التى كانت مع الأقباط .

وبالنسبة للنوع الأول ، وهو أراضى البيزنطيين عامة ، فقد استولت عليها الخلافة على أساس أن أصحابها وقفوا بالسلاح فى وجه المسلمين ، كما استولت أيضا على الأراضى التى تركها أصحابها ، والأراضى الخراب . وتقول الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف : إن هذه الأراضى التابعة لحكومة العرب قد زادت تدريجيا بما أضيف إليها من الأراضى الموات أو الأراضى المهجورة أثناء الحكم العربى نفسه ، أو عن طريق الشراء ، أو بتجفيف المستنقعات مثل مستنقعات الدلتا والفيوم ، أو بمصادرة أراضى موظفين ماتوا بدون وارث ، أو موظفين فصلوا من وظائفهم لأسباب جعلت الدولة تصادر أراضهم .

أما بالنسبة للنوع الثانى ، وهو الأراضى المقدسة سواء التى خصصت للكنائس أو للأديرة ، فتذكر الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف : أنه فى إمارة عبد العزيز بن مروان على مصر (٦٥ - ٨٦ هـ / ٦٨٤ - ٧٠٥م) فرض الخراج على الأراضى التى تمتلكها الكنائس والأديرة ، أما قبل عام ٦٥ هـ فلم تتخذ حكومة العرب أى موقف تجاه الأديرة ، أو حتى تجاه لجوء الأقباط إلى هذه الأديرة كى يتخلصوا من الضرائب .

وبالنسبة للنوع الثالث : وهى الأراضى التى كانت مع الأقباط :

نجد أن هذه الأراضى ، كما تذكر الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف - كانت موزعة بين :

أصحاب الاقطاع ، وكبار الملاك ، وأصحاب الملكيات المتوسطة أو الصغيرة ، فضلا عن الأعداد الكبيرة التى تستأجر الأراضى الزراعية .

ولكن ماهو شكل الملكية العقارية فى الأراضى التى كانت فى يد الأقباط ؟ هل كان للمصريين حق الملكية التامة أو كان لهم فقط حق الانتفاع؟ نلاحظ أن المؤرخين المحدثين قد اختلفوا فى ذلك ، وانقسموا إلى فريقين :

الفريق الأول : ويرى أن الأقباط لم يكن لهم سوى حق الانتفاع فقط .

أما الفريق الثانى : فيرى أن الأقباط كان لهم حق الملكية التامة .

وبالنسبة للفريق الأول ، ومنهم محمد كامل مرسى ، فيبنى رأيه على أن الفاتحين العرب قد تركوا للمصريين حقوقهم التى كانت لهم فى ذلك الوقت .

ولما كان المصريون - فى رأيهم - لم يكونوا يتمتعون بالملكية التامة قبل الفتح ، فإن ترك العرب للمصريين حقوقهم التى كانت لهم قبل الفتح ، تعنى منحهم حق الانتفاع فقط .

وبالنسبة للفريق الثانى الذى يقول إن الملكية فى مصر كانت ملكية تامة ، ومنهم الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف ، فيبنى رأيه على أن المصريين قبل الفتح العربى كانوا يتمتعون بالملكية التامة ، وأنه وجدت ملكيات تامة زمن البطالمة وزادت تلك الملكيات فى عهد الرومان (وقد تعرضت لها فى الفصل الأول) ، لذلك فإن ترك العرب للمصريين حقوقهم التى كانت لهم قبل الفتح ، تعنى اعطائهم حق الملكية التامة .

وقد أكدت الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف رأيها بما أورده الأوراق البردية التى ترجع إلى عهد الولاة ، فهى تشير إلى أنه كان يحق لأهالى مصر التصرف فى الأراضى التى يملكونها بالبيع والشراء والتوريث والهبة ، وأن الخراج الذى فرضه العرب على أراضى المصريين ما هو إلا ضريبة عقارية على الأرض .

وفى رأينا أن اختلاف المؤرخين فى شكل الملكية العقارية فى مصر ، لا يرجع فقط إلى الاختلاف حول شكل الملكية العقارية فى مصر قبل الفتح ، بل يرجع أيضا إلى الاختلاف فى طبيعة الفتح العربى لمصر مما سبق ذكره ، وهو اختلاف لم يكن فقط بين المؤرخين ، وإنما بين الخلفاء وعمال الخراج فى مصر أيضا .

فقد ذكرت سابقا أن معاوية (٤٠ - ٦٠ هـ / ٦٦٠ - ٦٨٠ م) كتب إلى وردان عامل خراج مصر (٤٣ هـ / ٦٦٣ م) : زد على كل رجل منهم قيراطا .

فكتب وردان اليه : كيف تزيد عليهم وفي عهدهم أن لايزاد عليهم ؟
وقد رأى أبو عبيد أن سبب هذا الخلاف يرجع إلى أن وردان كان يرى
أن مصر قد فتحت صلحا ، فى حين أن معاوية كان يرى أن مصر قد فتحت
عنوة .

وقد انعكس هذا الخلاف على عمليات البيع والشراء للأراضى فى
مصر ، فنجد أن المصادر العربية تذكر أن مالك بن أنس كان ينكر على الليث
ابن سعد شراءه أرضا من مصر ، لأنها أرض خراج باعتبار أنها فتحت
عنوة، إلا أن أبا عبيد كان يرى أن الليث اشترى أرضا من مصر ، لانه كان
يعتبر أن مصر فتحت صلحا ، معتمدا فى ذلك على روايات يزيد بن أبى
حبيب الخاصة بفتح مصر صلحا .

وعلى كل حال ، فإن مصر عوملت معاملة البلاد المفتوحة صلحا (١)
كما تذكر معظم المصادر العربية ، فلم تقسم بين الفاتحين ، ولم يقفها الامام
على المسلمين ، وإنما تركها فى أيدي أصحابها وفرض عليهم الخراج ،
وكانت شروط الصلح التى ذكرتها سابقا - ستة شروط - كما أشارت إليها
المصادر العربية : لا يخرجون من ديارهم ، ولا تنزع نساؤهم ولا أبنائهم ،
ولا كنوزهم ، ولا أراضيتهم ، ولا يزداد عليهم ، ويدفع عنهم موضع الخوف من
عدوهم .

لذلك عندما طالب عقبة بن عامر معاوية بن سفيان أرضا ، قال له
مولى كان عنده : «أنظر ، أصلحك الله أرضا صالحة ، فقال عقبة : ليس لنا
ذلك»، ثم ذكر له شروط الصلح الستة ، وأنه شاهد على ذلك .

على كل حال ، فقد اتفق المؤرخون على أن أراضى مصر ، سواء كانت
قد فتحت عنوة أو صلحا هى أراضى خراجية .

(١) وقد رأى ابن معاتى أن مصر قد فتحت صلحا ، فهو يقول . «فقبل فتحت عنوة ، وقبل فتحت صلحا ،
والصحيح أن عمرو بن العاص صالح عليها ، واستأذن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه
فأمضى الصلح وأجابته إليه» .

فيقول محمد كامل مرسى : «إذا كانت مصر قد فتحت صلحا كما يذهب بعضهم ، فإن الامام لم يحتفظ فى الاتفاق المبرم بينه وبين أهل البلاد بملكية الأرض للمسلمين - فتصير من هذا الصلح وقفا من دار الإسلام ، ولا يجوز بيعها ولا رهنها - بل بالعكس أقر المصريين على أراضيهم مقررا ألا تنزع منهم أراضيهم ولا مساكنهم .. الخ . وإذا كانت البلاد قد فتحت عنوة ، فإن الأراضى تكون خراجية كذلك ، اذ بناء على رأى معظم من يذهب إلى ذلك ، لم يقسم الامام الأراضى بين الفاتحين ، بل تركها للأهالى» . (١) .

على أن هذا لم يمنع من وجود الأراضى العشرية فى مصر ، نتيجة لاستيلاء الدولة الحاكمة على أراضى البيزنطيين والأراضى التى تركها أهلها ، أو أراضى من قتل منهم فى الحرب ، وكل أرض لم يكن فيها أحد ، ولم يوضع عليها خراج ، بل إن هذه الأراضى التابعة للعرب قد زادت تدريجيا كما ذكرت سابقا .

ويقول يحيى بن آدم إن هذه الأراضى تكون للامام «إن شاء أقام فيها من يعمرها ويؤدى إلى بيت مال المسلمين عنها شيئا ، ويكون الفضلة له . وإن شاء أنفق عليها من بيت مال المسلمين ، واستأجر من يقوم فيها ، ويكون فضلها للمسلمين . وإن شاء أقطعها رجلا ممن له غناء عن المسلمين» . ويظهر من قول يحيى بن آدم أن هذه الأراضى كانت من حق الامام التصرف فيها كما يترأى له ، وتبعا للمصلحة العامة ، وكان يوضع عليها العشر باعتبار أنها أرض لم يوضع عليها الخراج .

وأرض العشر التى ظهرت فى مصر كانت - كما تقول الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف - إما عن طريق الاقطاع ، أو عن طريق الشراء من حكومة العرب ، أو عن طريق احتلال الأرض الموات .

وهذا كله يتطلب منا معرفة ماهو معنى الأراضى الخراجية والأراضى العشرية ، وهو ما نعالجه فى الصفحات القادمة .

(١) ويقول أبو يوسف فى ذلك: «وأيما دار من دور الاعاجم قد ظهر عليها الامام ، وتركها فى ايدي أهلها فهى أرض خراج ، وإن قسمها بين الذين غنموها فهى أرض عشر .. وكل أرض من أراضى الاعاجم صالح عليها أهلها وصاروا ذمة فهى أرض خراج» .

أولا : الأراضى الخراجية

يقصد بالأراضى الخراجية - وفقا لمحمد كامل مرسى - الأراضى التى تتوافر فيها الشروط الآتية :

أولا : أن تكون من الأراضى الواقعة فى غير بلاد العرب (جزيرة العرب) .

ثانيا : أن تكون من الأراضى التى فتحها المسلمون عنوة أو صلحا .

ثالثا : أن تكون مملوكة لأهالى البلاد الذين لم يعتنقوا الإسلام ، وأقروا فى حياتهم لها . أما ما أحياه المسلم من الأرض الميتة فقال أبو يوسف : إن كانت من حيز أرض العشر فهى عشرية ، وإن كانت من حيز أرض الخراج فهى خراجية .

وقال البعض : إن أحيائها بماء العشر فهى عشرية ، وإن أحيائها بماء الخراج فهى خراجية ^(١) . وأرض الموات التى أحيائها ذمى فهى خراجية ، وكذلك أرض الغنيمة التى رخصها الامام لذى كان يقاتل مع المسلمين .

وبالنسبة للضريبة المفروضة على أراضى الخراج فهى على نوعين :

النوع الأول : خراج المقاسمة ، وهى ضريبة تفرض على المحصول ، وبالتالى تشبه ضريبة العشور ، وإن كانت تزيد عنها فى المقدار ، لأن خراج المقاسمة يحدد وقت الفتح ، على أن لا يقل عن خمس المحصول ولا يزيد على نصفه .

النوع الثانى : خراج الوظيفة ، وهى ضريبة ثابتة تفرض على الأرض متى كانت صالحة للزراعة ، بصرف النظر عن كونها تزرع فعلا أو لا تزرع . ويجبى خراج الوظيفة عينا أو نقدا ، ويستحق مرة فى كل عام حتى ولو أنتجت الأرض محصولين فى العام الواحد ، وبذلك فهو يختلف عن الضرائب الأخرى التى تتجدد بتجدد المحصول فى العام الواحد .

(١) ماء العشر : هو ماء السماء والابار والعيون والانهار . اما ماء الخراج . فهو ماء الانهار الصغار التى حفرتها الاعاجم .

ويقول الحافظ بن رجب : إن الخراج إن وضع مقاسمة اعتبر بكمال الزرع وتصفيته ، وإن وضع على مساحة الأرض اعتبر بالسنة الهلالية ، أو على مساحة الزرع ، فقد قيل إنه يتبر بالسنة القمرية .

وقد أجمعت الآراء على كراهة شراء المسلم لأرض خراج ، فيقول أبو عبيد في ذلك : « فقد تتابعت الآثار بالكراهة بشراء أرض الخراج ، وإنما كرهها الكارهون من جهتين : إحداهما أنها فيء للمسلمين ، والأخرى أن الخراج صغار » .^(١)

وقد منع عمر شراء أرض أهل الذمة أو رقيبتهم على أساس أن شراء عبيدهم يلزمهم بدفع جزيتهم ، وشراء أرضهم يلزمهم بدفع خراجهم ، وبهذا يقبل على نفسه النذل والهوان بأن يصير من أهل الجزية والخراج ، فيقول أبو عبيد : « حدثنا إسماعيل بن إبراهيم عن عمر قال : لا تشتروا رقيق أهل الذمة فإنهم أهل خراج ، وأراضيهم فلا تبتاعوها ، ولا يقرن أحدكم بالصغار بعد ، إذ نجاه الله منه .

وقد ذكر بعضهم مأخذا آخر لكراهة شراء المسلم للأرض الخراجية ، وهو أنه يسقط خراجها ، فيسقط بذلك حق المسلمين .

غير أن يحيى بن آدم يقول في كتابه : إن الحسن بن صالح إذا كان قد كره شراء أرض الخراج التي أخذت عنوة فوضع عليها الخراج ، إلا أنه لم ير بأسا بشراء أرض أهل الصلح .

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن : ما هو حكم أرض الخراج التي يشتريها مسلم ؟ هل تتحول إلى أرض عشرية أو تظل أرضا خراجية ؟ وفي هذه الحالة هل يدفع المسلم عنها الخراج فقط أو يدفع العشر أيضا ؟

يذكر الدكتور محمد ضياء الدين الرئيس أنه في بداية الفتوحات العربية وفي خلافة بنى أمية ، كانت الأراضي الخراجية تتحول إلى أراض عشرية ، وذلك عن طريق بيعها أو غير ذلك ، حتى تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ / ٧١٧ - ٧١٩م) ، الذي منع ذلك التحويل ، فقد رأى أن

(١) صغار : أي ذل .

المسلم الذى يشتري أرض خراج، يدفع خراجها المفروض عليها إلى جانب العشر، على أساس أن الخراج أشبه بفريضة على الأرض لا تنافى مع إيجاب العشر الذى هو حق مقرر على المسلم فيما يخرج من أرضه من زرع أو ثمر ، فيقول أبو عبيد : «إن عمر بن عبد العزيز قال : من أخذ أرضا بجزيتها لم يمنعه أن يؤدى عشر مايزرع وإن أعطى الجزية» . وبعد موته رجعت الأوضاع إلى ماكانت عليه ، فاستمر التصرف فى الأراضى ، إلى أن جاء المنصور (١٣٦-١٥٨ هـ / ٧٥٣-٧٧٤ م) ، فأمر بإبطال ذلك التحويل ، وأن ترد الأراضى إلى أراضى خراجيه كما كانت ، وأن لايسمح بتحويل أراضى الخراج إلى أراضى عشرية ، وهذا الاجراء - كما يقول الدكتور محمد ضياء الدين الرئيس - كان من شأنه حتما أن يزيد من إيراد الدولة .

وفى رأينا أن شراء المسلم لأرض خراج (سواء كانت أرضا فتحت عنوة، أو فتحت صلحا على أن الأرض للعرب) ، ليس معناه شراء حق تمليك الأرض ، وإنما هو شراء حق الانتفاع فقط لأن هذه الأرض الخراجية ، ليست ملكا لأصحابها ، وإنما لهم حق الانتفاع فيها ، وبالتالي ليس لهم حق بيع ملكيتها الكاملة للمسلم الذى يشتريها منهم ، وطالما أن الشراء هنا هو شراء حق الانتفاع فقط ، فلا يمكن أن يدفع عنها العشر ، لأن العشر يدفع عن الأرض المملوكة ملكية تامة ، وإنما يدفع عنها الخراج فقط . (وسنتناول ذلك فى أرض العشر) .

على كل حال فإن هذا هو ما يتعلق بشراء المسلم أرض ذمى ، ولكن ماهو الوضع بالنسبة للذمى الذى يدخل فى دين الإسلام ، هل يظل يدفع الخراج على أرضه ، أو يدفع العشر بإعتباره مسلما؟ .

لقد اتفقت الآراء على أن هذا الوضع يتحدد بطبيعة الفتح ، وهل كان صلحا أو عنوة . فيذكر يحيى بن آدم أن الذمى الذى يسلم يظل يدفع الخراج عن أرضه التى فتحت عنوة ، ولكن ترفع عن رأسه الجزية . فقد جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول له : «إنى قد أسلمت ، فضع عن أرضى الجزية . قال : لا ، إن أرضك أخذت عنوة» .

والسبب فى ذلك أن أرض العنوة ليست ملكا لأهلها ، وليس للذمى حق بيعها ولا شرائها ، وبالتالي تظل أرض خراج .

وفى ذلك يقول مالك بن أنس : « إذا أسلم كافر من أهل العنوة ، أقرت أرضه فى يده يعمرها ويؤدى الخراج عنها ، ولا اختلاف فى ذلك » .

أما بالنسبة لأرض الصلح فيقول الحافظ بن رجب : إنه إذا أسلم أهلها يسقط عنهم الخراج. ولكن، من دراستنا - التى قدمناها - لأنواع الأراضى التى ظهرت بعد الفتوحات العربية ، يظهر أن أرض الصلح كانت تخضع لما صولحت عليه ، فإذا صولحت على أن تكون لأهلها ، كانت ملك أيانهم ، وإذا صولحت على أن تكون للعرب ، فالخراج يعتبر هنا أجرة لا يسقط بالاسلام ، أو هو كما يقول الدكتور محمد ضياء الدين الرئيس ضريبة لازمة على الأرض سواء كانت فى يد الذميين أو المسلمين .

ثانيا - الأراضى العشرية :

وتشمل الأراضى العشرية مايلى :

أولا : الأراضى الواقعة فى بلاد العرب ، سواء أملكها مسلمون أم غير مسلمين ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده ، لم يأخذوا من أرض العرب خراجا .

ويقول أبو يوسف: إن هذه البلاد هى : أرض الحجاز ، والمدينة ، ومكة، واليمن ، ولا يحل للامام أن يضع عليها خراج .
ثانيا : الأراضى التى أسلم أهلها طوعا .

ثالثا : الأراضى التى فتحت عنوة وقهرا ، وقسمت بين الغانمين المسلمين .
وقد سميت الأراضى العشرية بهذا الاسم ، لأنها تدفع عشر المحصول عينا .

كما أجمعت الآراء على أن أصحاب الأراضى العشرية لهم حق وضع اليد التام وحرية التصرف .

والسؤال هنا : هل تتحول أرض العشر إلى أرض خراج إذا اشتراها

ذمى ؟

لقد اختلف الفقهاء فى ذلك ، فيقول أبو حنيفة " «إذا اشترى الذمى أرض عشر تحولت إلى أرض خراج» . أما مالك بن أنس فيقول : «لا شىء عليه فيها ، لأن الصدقة إنما هى على المسلمين زكاة لأموالهم ، وطهرة لهم ، ولا صدقة على المشركين فى أراضيهم ومواشيهم ، وإنما الجزية على رؤوسهم ، صغاراً لهم ، وفى أموالهم إذا مروا بها فى تجارتهم » .

أما بالنسبة لعدم وضع الخراج ، فلأن الخراج - كما يقول أبو عبيد - يسقط عن الذمى إذا كان يملك رقبة الأرض .

وهذا رأى ، وهو عدم دفع الذمى عشراً أو خراجاً على أرض العشر التى يشتريها - يعد غير مقبول عقلاً ، لأنه معناه حرمان الدولة من عائداتها ، سواء كان ممثلاً فى شكل عشر أو فى شكل خراج . ولما كان الأصل فى منح الأرض فى شكل أرض عشرية ، أو فى شكل أرض خراجية ، هو استفادة الدولة من العشر أو من الخراج ، فإن شراء الذمى لأرض عشرية لا يعنى إعفاءه من دفع الضريبة التى عليها . وفى ذلك يقول أبو يوسف : إنه يجب «أن يوضع عليها العشر مضاعفاً ، فهو خراجها ، فإذا رجعت إلى مسلم بشراء ، أو أسلم النصرانى ، أعدتها إلى العشر الذى كان عليها فى الأصل» .

ورأيه هذا مبنى على أن أرض العرب هى أرض لا يوضع عليها خراج ، فماذا لو اشترى الذمى أرضاً من أرض العرب ؟ فهل لن يدفع عنها خراج لأنها ليست بأرض خراج ، ولن يدفع عنها عشر لأنه ذمى والعشر زكاة للمسلمين ، لذلك فمن رأيه أن تضاعف عليها الصدقة . وهذا رأى معقول ، لأنه إذا تركت الدولة الذميين يشترون الأراضي العشرية ، ولا يدفعون عنها خراجاً لأنها أرض عشر ولا عشراً لأنهم ذميين ، تكون قد حرمت خزائنها من دخل هذه الأراضي .

اشكال الحيازة العقارية فى مصر بعد الفتح العربى :

يمكن القول أن ملكية الدولة للأرض كانت هى الشكل السائد للملكية فى مصر . فعندما دخل العرب مصر استولوا على أراضي البيزنطيين ، إلى

جانب الأراضى التى تركها أهلها ، والأراضى الخراب ، وهذه الأراضى قرر
عمر ضمها الى بيت مال المسلمين ، فعرفت « بالصوافى » لأنه «
استصفاهها » أى جعلها خالصة لبيت المال ، وسميت أيضا « القطنع »
لأنها اقتطعت فيما بعد لمن يتعهدونها . وقد ذكرت سابقا كيف أن هذه
الأراضى قد زادت تدريجيا بما أضيف اليها من الأراضى الموات ، أو
الأراضى المهجورة ، أو عن طريق الشراء ، أو بتجفيف المستنقعات وغير
ذلك .

وقد أشرت الى أن هذه الأراضى كان من حق الامام التصرف فيها ،
فهو إما يقطعها ، أو يستأجر من يقوم بخدمتها لبيت مال المسلمين - كما
يذكر يحيى بن آدم . على أنه وجد الى جانب هذا الشكل من أشكال الملكية،
أشكال أخرى :

أهمها : أولا : الاقطاع :

ويختلف هذا الاقطاع عن نظام الاقطاع فى أوربا الذى نشأ بوصفه
اقطاعا حربيا ، هدفه رغبة الملك أو الأمير فى الحصول على عون حربى ممن
دونه من الأمراء والأشراف . فلم يدخل هذا النظام الاقطاعى الحربى فى
مصر إلا على يد الأيوبيين والمماليك - كما تذكر الدكتور سيدة اسماعيل
كاشف - وقد دخل بأسلوب آخر يتلخص فى انتفاع الجند بدخل الاقطاعات
المختلفة ، بغير منحهم الأراضى للإقامة فيها وزراعتها ، كما لم يوجد فى
الاقطاع الحربى بمصر حق الوراثة الذى كان يتمتع به أصحاب الاقطاع فى
أوربا .

وحتى يمكننا معرفة الفرق بين نظام الاقطاع الذى نشأ فى مصر ،
والنظام الاقطاعى فى أوربا ، فإننا سنورد هنا أحكامه فى الاسلام كما
أوردها الماوردى فى كتابه « الأحكام السلطانية » .

لقد قسم الاقطاع الى قسمين : القسم الأول ، وهو اقطاع تملك .

القسم الثانى ، وهو اقطاع استغلال .

أولاً : اقطاع تمليك

وفيه تنقسم الأرض المقطعة الى ثلاثة أقسام : موات - وعامر - ومعادن .

أما الموات فهو نوعان :

النوع الأول : وهو ما لم يزل مواتاً من قديم الدهر ، ولم يعمر إطلاقاً ، وليس ملكاً لأحد ، وهذا النوع يجوز للسلطان أن يقطعه من يحييه ومن يعمره (١) .

النوع الثاني : فهو ما كان عامراً فخرّب ، فصار مواتاً عاطلاً ، وينقسم هذا النوع إلى :

أولاً : ما كان جاهلياً كأرض عاد وثمود ، فهي كالموات التي لم يثبت فيها عمارة ، ويجوز اقطاعه .

ثانياً : ما كان إسلامياً جرى عليه ملك المسلمين ، ثم خرب حتى صار مواتاً عاطلاً ، فقد اختلف فيه الفقهاء :

فقال الشافعي : « إنه لا يملك بالإحياء سواء عرف أربابه أو لم يعرفوا » .

وقال مالك : « يملك بالإحياء سواء عرف أربابه أو لم يعرفوا » .

أما أبو حنيفة : فقد رأى أنه لو عرف أربابه لم يملك بالإحياء وإن لم يعرفوا ملكاً بالإحياء . وكان يرى أنه لا يجوز أن يملك بالإحياء من غير اقطاع فإن عرف أربابه لم يجز اقطاعه ، وكانوا أحق ببيعه وإحيائه ، وإن لم يعرف أربابه جاز اقطاعه ، وكان الاقطاع شرطاً في جواز إحيائه .

ويقول أبو حنيفة : إن الاقطاع ملكاً لمن خصه الإمام به إلا بعد إحيائه ، أما إذا لم يشرع في إحيائه فإنه يرى أنه إذا كان لعذر ظاهر ، أقر في يده إلى زوال عذره ، وإن كان غير معذور لا يعارض فيه قبل مضي ثلاث سنوات ، وإلا بطل حكم اقطاعه بعدها ، وذلك لأن عمر رضى الله عنه جعل

(١) وقد أشار يحيى بن آدم في كتابه «الخراج» إلى هذا الموضوع في فصل خاص به تحت عنوان «باب من أحيى أرضاً ميتة» .

أجل الاقطاع ثلاث سنين . أما الشافعى فله رأى آخر ، فهو يرى أن موقف عمر رضى الله عنه هنا ، يجوز أن يكون لسبب اقتضاه فى قضية معينة ، لأنه لا ضرورة لهذه المهلة ، وأنه اذا مضى عليه زمان يقدر على إحيائه فيه قيل له : إما أن تحييه فيقر فى يدك ، وإما أن ترفع يدك عنه ليعود إلى حاله قبل اقطاعه .

أما بالنسبة لمن تغلب على هذا الموات المستقطع فأحياءه ، فقد اختلف العلماء فى حكمه على ثلاثة مذاهب :

المذهب الأول : وهو المذهب الشافعى ، الذى يرى أن محييه أحق من مستقطعه .

والمذهب الثانى : وهو مذهب أبو حنيفة، الذى يرى أنه اذا أحياه قبل ثلاث سنين كان ملكاً للمقطع ، وإن أحياه بعدها كان ملكاً للمحيى.

أما المذهب الثالث : فهو مذهب مالك، الذى يرى أنه إذا أحياه عالماً بالاقطاع كان ملكاً للمقطع ، وإن أحياه غير عالم بالاقطاع خير للمقطع بين أخذه وإعطاء المحيى نفقة عمارته ، وبين تركه للمحيى والرجوع عليه بقيمة الموات قبل إحيائه .

هذا بالنسبة للقسم الأول من اقطاع التملك وهى الأرض الموات . أما بالنسبة للقسم الثانى من اقطاع التملك فهو الأراضى العامرة وتنقسم إلى نوعين :

النوع الأول من العامر : وهو ماتعين مالكة ، فليس للسultan سلطة عليه إلا فيما يتعلق بتلك الأرض من حقوق بيت المال اذا كانت فى دار الإسلام سواء كانت لذمى أو مسلم . أما اذا كانت فى دار الحرب التى لا يثبت للمسلمين عليها يد ، وأراد الإمام أن يقطعها ليملكها المقطع عند الظفر بها ، جاز له ذلك .

وقد اختلف الاقطاع والتمليك بالنسبة لهذا النوع من الأراضى تبعا لطبيعة الفتح ، فاذا كان الفتح صلحا خلصت الأرض لمقطعها ، وكانت خارجة عن حكم الصلح . فعندما أراد خالد صلح أهل الحيرة قال له حريم ابن أوس بن حارثة الطائى : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل له بنت

نفيلة ، فلا تدخلها فى صلحك . وشهد له بشير بن سعد ومحمد بن مسلمة ، فاستثناها من الصلح ، ودفعها إلى حريم ، فاشتريت منه بألف درهم ... فقيل له : «ويحك لقد أرخصتها ، كان أهلها يدفعون إليك ضعف ما سألت بها، فقال : ما كنت أظن أن عددا يكون أكثر من ألف» .

أما اذا كان الفتح عنوة ، كان المستقطع والمستوهب أحق بما استقطعه واستوهبه من الغانمين. ويقول الماوردى : إنه اذا علم الغانمون بالاقطاع والهبة قيل الفتح ، فليس لهم المطالبة بعوض ما استقطع ووهب ، وإن لم يعلموا حتى فتحوا ، عاوضهم الإمام عنه . وإن كان أبو حنيفة يرى : أنه لا يلزمه (أى الامام) استطابة نفوسهم عنه ، ولا عن غيره من الغنائم ، اذا رأى المصلحة فى أخذها منهم .

أما النوع الثانى من العامر : فينقسم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : وهو ما اصطفاه الامام لبيت المال من فتوح البلاد ، إما بحق الخمس فيأخذه باستحقاق أهله له ، وإما بأن يصطفيه باستطابة نفوس الغانمين عنه ليصرف فى مصالح المسلمين . فمثلا : اصطفى عمر بن الخطاب رضى الله عنه من أرض السواد أموال كسرى وأهل بيته ، وماهرب عنه أربابه أو هلكوا ، فكان مبلغ غلتها تسعة آلاف ألف درهم ، فكان يصرفها فى مصالح المسلمين ، ولم يقطع منها شيئا . وعندما جاء عثمان رضى الله عنه أقطعها ، لأنه رأى أن إقطاعها أوفر لغلتها من تعطليها ، وشرط على من أقطعها إياه أن يأخذ منه حق الفىء ، فكان ذلك منه إقطاع إجارة لا إقطاع تمليك .

ويرى الماوردى : أن هذا النوع من الأرض العامر لايجوز إقطاع رقبته، لأنه قد صار باصطفائه لبيت المال ملكا لكافة المسلمين ، فجرى على رقبته حكم الوقوف المؤبدة ، وصار استغلاله هو المال الموضوع فى حقوقه .

والسلطان فيه بالخيارين فى الأصلح : بين أن يستغله لبيت المال كما فعل عمر رضى الله عنه وبين أن يتخير له من يقوم بعمارة رقبته بخراج

يوضع عليه كما فعل عثمان رضى الله عنه (١) . ويكون الخراج أجرة تصرف
فى وجوه المصالح، إلا أن يكون مأخوذاً بالخمس فيصرف فى أهل الخمس .

أما القسم الثانى من النوع الثانى من العامر : فهو أرض الخراج .

وأرض الخراج لايجوز إقطاع رقبتهها تملكها ، لأن هذا النوع من
الأراضى تكون فيه الأرض :

أ - إما أرض وقف ، وبالتالي خراجها أجرة . وأرض الوقف لايجوز تملكها
لا باقطاع ولا ببيع ولا بهبة (فتكون إقطاع إجارة وليس تملك) .

ب - أو تكون أرضاً لها مالك ، وبالتالي خراجها جزية ، لأنها أرض خراج
فلا يجوز إقطاعها لأنه قد تعين مالكةا .

أما القسم الثالث من النوع الثانى من العامر : فهو مامات عنه أربابه
ولم يكن له وارث ، فينتقل إلى بيت المال ميراثاً لكافة المسلمين ، مصروفاً فى
مصالحهم .

ويرى أبو حنيفة : أن ميراث من لا وارث له يصرف فى الفقراء
خاصة، صدقة عن الميت .

أما الشافعى فيرى : أنه يصرف فى مصالح المسلمين عامة ، لأنه كان
من الأملاك الخاصة ، وصار بعد الانتقال إلى بيت المال من الأملاك العامة .

وبالنسبة لبيت المال ، وما ينتقل إليه من رقاب الأموال : فقد اختلف
أصحاب الشافعى فى ذلك وانقسموا إلى فريقين كما يذكر الماوردى :

الفريق الأول : يرى أنها لا تصير وقفا لعموم مصرفها الذى لا يختص
بجهة ، فعلى هذا لا يجوز بيعها ولا إقطاعها .

الفريق الثانى : يرى أنها تصير وقفا حتى يقفها الامام ، فعلى هذا
يجوز له بيعها اذا رأى بيعها أصلح لبيت المال ، ويكون ثمنها مصروفاً فى

(١) ويرى أبو يوسف أنه من الأفضل للبلاد ، والأكثر للخراج ، هو أن لا يترك الامام أرضاً لملك لأحد فيها
ولا عمارة ، بل عليه أن يقطعها .

عموم المصالح ، وفى ذوى الحاجات من أهل الفئ وأهل الصدقات (١) .

وأما إقطاعها فقد اختلف فيه : فمنهم من أجازها ، على أساس أنه طالما قد جاز بيعها ، وصرف ثمنها إلى من يراه من ذوى الحاجات ، فقد جاز إقطاعها له ، ويكون تملك رقبتها كإقطاع ، كتمليك ثمنها كبيع .

ومنهم من قال : إن إقطاعها لا يجوز ، وإن جاز بيعها ، أى لا تكون إقطاع تملك بل إقطاع إجارة .

وأخيرا ، القسم الثالث من إقطاع التملك وهو : إقطاع المعادن .

وهى البقاع التى أودعها الله تعالى جواهر الأرض ، وهى نوعان :

معادن ظاهرة - ومعادن باطنة .

وبالنسبة للنوع الأول وهى المعادن الظاهرة : أى ما كان جوهرها المستودع فيها بارزا ، كمعادن الكحل والملح والقار والنفط .

فهى كالماء لايجوز إقطاعها ، والناس فيها سواء ، يأخذها من ورد إليه . وقال آخرون فى إقطاع المعادن الظاهرة ، إنها إذا أقطعت هذه المعادن الظاهرة لم يكن لاقطاعها حكم ، وكان المقطع وغيره فيها سواء ، فإن منعهم المقطع منها كان بالمنع متعديا .

أما النوع الثانى ، وهى المعادن الباطنة أى ماكان جوهرها مستكنا فيها لا يوصل إليه إلا بالعمل ، كمعادن الذهب والفضة والصفرة والحديد .

وفى جواز إقطاعها قولان : أحدهما ، أنه لايجوز كالمعادن الظاهرة ، وكل الناس فيها شرع . والقول الثانى يجوز إقطاعه .

على أنه إذا أقطع اختلف فى حكم إقطاعه ، وفى حكمه قولان :

أحدهما : أنه إقطاع تملك ، يصير به المقطع مالكا لرقبة المعدن كسائر أمواله فى حال عمله . وبعد قطعه يجوز له بيعه فى حياته وينتقل إلى ورثته بعد موته .

(١) أهل الصدقات هم الذين عينتهم الآية الكريمة :

«إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم» (سورة التوبة آية رقم ٦٠) .

والقول الثانى : أنه إقطاع إرفاق ، بمعنى أنه لا يملك بهذا الإقطاع رقبة المعدن ، ويملك فيه الارتفاق أو الانتفاع بالعمل فيه مدة مقامه عليه ، وليس لأحد أن ينازعه فيه ما أقام على العمل ، فإذا تركه زال حكم الإقطاع عنه .

ثانيا : اقطاع الاستغلال :

يختص اقطاع الاستغلال بالأراضى العشرية والأراضى الخراجية .

وبالنسبة للأراضى العشرية : فاقطاع هذا النوع من الأراضى لا يجوز إلا للمسلمين على اعتبار أنها زكاة ولا تجوز لغيرهم .

أما بالنسبة للأراضى الخراجية : فيعتبر أهل الجيش أخص الناس بجواز هذا الإقطاع ، لأن لهم أرزاق مقدرة تصرف إليهم مصروف الاستحقاق ، لأنها تعويض لهم لحمايتهم البلاد .

فإذا صح أن يكونوا من أهل الإقطاع ، روى حينئذ مال الخراج . وهو على حالتين :

الحالة الأولى : أن يكون مال الخراج جزية ، وفى هذه الحالة لا يجوز إقطاعه أكثر من سنة ، لأنه غير موثوق باستحقاقه بعدها ، على اعتبار أنه مأخوذ مع بقاء الكفر ، وزائل مع حدوث الإسلام .

الحالة الثانية : أن يكون مال الخراج أجرة (إقطاع إجارة) ، وفى هذه الحالة يجوز إقطاعه سنتين ، ولا يلزم الاقتصار منه على سنة واحدة .

وبالنسبة لاقطاع الاستغلال للأراضى الخراجية ، نلاحظ أن حال إقطاعه لا يخلو من ثلاثة أقسام :

القسم الأول : أن يستقطعه لمدة معلومة . مثلا : كاقطاعه عشر سنين .

وفى هذا القسم يجب أولا : أن يكون قدر الخراج معلوماً عند المقطع ، وعند بائذ الإقطاع فإن كان مجهولا عندهما أو عند أحدهما لم يصح .

ثانيا : أن يراعى حال المقطع فى مدة الإقطاع ، وهو على ثلاث حالات:

الحالة الأولى : أن يبقى على قيد الحياة سالما من الأمراض ، فهو على استحقاق الإقطاع الى انقضاء المدة .

الحالة الثانية : أن يموت قبل انقضاء مدة الاقطاع ، فيبطلُ الاقطاع فى المدة الباقية بعد موته ، ويعود الى بيت المال .

الحالة الثالثة : أن يبقى على قيد الحياة ، لكنه مفقود الصحة ، وهناك قول فى هذه الحالة ، وهى أن يبقى على الاقطاع الى انقضاء مدته .

وهذا حكم القسم الأول اذا قُدر الاقطاع فيه بمدة معلومة .

القسم الثانى : أن يُستقطعه مدة حياته ، ثم لعقبه وورثته بعد موته ، وهذا إقطاع باطل ، لأنه خرج بهذا الاقطاع من حقوق بيت المال الى الاملاك الموروثة .

القسم الثالث : أن يُستقطعه مدة حياته فقط .

على هذا النحو ، قسم الماوردى الاقطاع الى نوعين :

النوع الأول : إقطاع تمليك .

وقد اختص هذا النوع بتملك الأفراد للأراض الزراعية أو للمناجم (المعادن) . وهذه الملكية هى ملكية تامة للأفراد ، يدفعون عنها العشر كزكاة لأموالهم ، وذلك بالنسبة للأراض الزراعية ، وتذكر الكتورة سيدة اسماعيل كاشف : أن الأهالى كانوا يتسلمون إيصالا أو براءة بعد تأدية مايجب عليهم من الزكاة بمقتضى الشريعة الاسلامية .

أما بالنسبة للمعادن ، خاصة المعادن الباطنة ، فيذكر أبو يوسف فى كتابه : أن قيمة الزكاة المفروضة عليها كانت الخمس . فيقول : «فى كل ما أصيب من المعادن من قليل أو كثير الخمس ... إنما الخمس فى الذهب الخالص ، وفى الفضة الخالصة ، والحديد والنحاس والرصاص ... وما استخرج من المعادن سوى ذلك من الحجارة ، مثل : الياقوت والفيروزج والكحل والزئبق والكبريت والمغرة ، فلا خمس فى شىء من ذلك ، إنما ذلك كله بمنزلة الطين والتراب».

ونسبة الزكاة المفروضة على المعدن واحدة ، سواء كان المعدن فى أرض العرب أو أرض العجم ، فيقول يحيى بن آدم : «فيه الخمس ، والمعدن فى أرض العرب وأرض العجم سواء» .

النوع الثانى : اقطاع الاستغلال .

والفرد فيه ليس له حق ملكية الأرض ، وإنما استغلالها فقط .

وقد اختص هذا النوع من الاقطاع بنوعين من الأراضى : -

أولاً : إما أرض خراج ، وهذا النوع مستغل يدفع عنه الخراج المفروض عليه للحاكم ، ويُعرف بخراج جزية .

ثانياً : وإما أرض استصفاها الامام لبيت المال ، ورأى الامام أن فى المصلحة أن يوجرها لشخص بخراج يوضع عليه ، ويعرف بخراج أجره .

ومن هذا العرض لأحكام الاقطاع فى الاسلام ، ننتقل الى دراسة الاقطاع فى مصر

تشير المصادر العربية الى أن أقدم إقطاع فى مصر ، هو إقطاع الخليفة عمر بن الخطاب منية الأصبغ (١) لابن سنذر ، فيقول ابن عبد الحكم فى كتابه :

«لم يبلغنا أن عمر بن الخطاب أقطع أحدا من الناس شيئاً من أرض مصر إلا لابن سنذر ، فانه أقطعه منية الأصبغ ، فحاز لنفسه ألف فدان ، فلم

(١) منية الأصبغ : تقع فى شرقى مصر .

وعن موقعها الحالى يذكر محمد رمزى فى قاموسه أن قرية منية الأصبغ التى عرفت فى أيام الدولة الفاطمية بقرية الخندق كانت واقعة على الخليج المصرى فى المنطقة التى يتوسطها الآن دير الملاك البحرى بين محطة الدمرداش والراوية الحمراء . والآن أصبح فى مكان منية الأصبغ أو الخندق دور ومنازل أهلة بالسكان تكون خطة كبيرة بجوار دير الملاك البحرى ، يراها السالك فى شارع الملك بقسم الوايلى بالقاهرة .

تزل له حتى مات ، فاشتراها الأصبغ بن عبد العزيز من ورثته فليس بمصر قطيعة أقدم منها ولا أفضل».

ويبدو من هذا النص أن ابن سندر كان يمتلك منية الأصبغ امتلاكاً تاماً ، فلم ينته امتلاكه لها بوفاته ، وإنما كانت لورثته من بعده ، كما كان لهؤلاء الورثة أنفسهم الحق في بيعها فيما بعد . وبالطبع كان على ابن سندر أن يدفع العشر كزكاة مسلم .

كما يذكر ابن عبد الحكم في كتابه إقطاعاً آخر ، فيقول : «واقطع عمرو بن العاص ، حين ولى ، وردان مولاه ، الأرض التي خلف القنطرة» . كما يشير أيضاً إلى إقطاعات كانت للوليد بن عبد الملك في مصر .

ويقول المقرئى : «وقد كان خلفاء بنى أمية ، وخلفاء بنى العباس ، يقطعون الأراضى من أرض مصر النفر من خواصهم ... وما أقطع من الأرض فانه بيد من أقطعه» .

وقد كان هؤلاء – فى رأينا – يدفعون عنها العشر .

هذا فيما يتعلق بالاقطاعات التي كانت للعرب فى مصر . ولكن هل كان للمصريين اقطاعات؟

نلاحظ أن المقرئى فى كتابه قد أشار إلى قرية طاء النمل^(١) التى كانت ضيعة تابعة لسيدة قبطية تدعى ماريه ، وقد أشار إليها خلال زيارة المأمون لقرى مصر ، ويقول المقرئى : إن المأمون لم يدخل هذه القرية لحقارتها ، إلا أن السيدة مارية القبطية دعتة إلى حد التوسل لدخول القرية، «فرق لها المأمون وثنى عنان فرسه إليها ونزل ، فجاء ولدها إلى صاحب

(١) وهى قرية طنامل إحدى قرى مركز أجا من مديرية النقهلية . وفى عام ١٢٢٨ هـ - قسمت طنامل إلى ناحيتين أحدهما هذه وهى طنامل الأصلية وقد تميزت بالشرقية بالنسبة لموقعها من طنامل الغربية وهى المستجدة .

المطبخ^(١) وسأله كم تحتاج من الغنم والدجاج والفراخ والسّمك والتوابل والسكر والعسل والطيب والشمع والفاكهة والعلوفة وغير ذلك مما جرت به عادة ، فأحضر جميع ذلك إليه بزيادة . وكان مع المأمون أخوه المعتصم ، وابنه العباس ، وأولاد أخيه الواثق والمتوكل ، ويحيى بن أكتّم^(٢) . والقاضي أحمد بن أبي دواد^(٣) ، فأحضرت لكل واحد منهم ما يخصه على انفراده ، ولم تكل أحدا منهم ، ولا من القواد إلى غيره ، ثم أحضرت للمأمون من فاخر الطعام ولذيذه شيئا كثيرا ، حتى إنه استعظم ذلك.

فلما أصبح ، وقد عزم على الرحيل ، حضرت إليه ومعها عشر وصائف ، مع كل وصيفة طبق ، فلما عاينها المأمون من بُعد ، قال لمن حضر : قد جاءتكم القبطية بهدية الريف ، الكامخ^(٤) ، والصحناء والصير^(٥) . فلما وضعت ذلك بين يديه ، إذا في كل طبق كيس من ذهب ، فاستحسن ذلك ، وأمرها بإعادته ، فقالت : لا ، والله لا أفعل . فتأمل الذهب فإذا به ضرب عام واحد كله ، فقال : هذا والله أعجب ، ربما يعجز بيت مالنا عن مثل ذلك . فقالت : يا أمير المؤمنين ، لا تكسر قلوبنا ولا تحتقر بنا . فقال : إن في بعض ما صنعت الكفاية ، ولا نحب التثقل عليك ، فردى مالك بارك الله فيك .

(١) وهو المسنول عن طعام المأمون وحاشيته .

(٢) يحيى بن أكتّم القاضي أبو محمد المروزي ثم البغدادي ، كان فقيها مجتهدا مصنفا ، غلب على المأمون حتى أخذ بمجامع قلبه وقلده القضاء وتبديل مملكته ، وكانت الوزراء لا تعمل الشيء إلا بعد مطالعته . وقد ولي قضاء البصرة عام ٢٠٢ هـ / ٨١٧ م وهو ابن ثمان عشرة سنة . وتوفي عام ٢٤٢ هـ / ٨٥٦ م

(٣) هو أحمد بن أبي دواد ، أبو عبد الله . يذكر ابن خلكان أنه عندما ولي المعتصم الخلافة (٢١٨ - ٢٢٧ هـ / ٨٢٣ - ٨٤١ م) جعله قاضي القضاة وعزل يحيى بن أكتّم . وأحمد بن أبي دواد هو الذي امتحن الإمام أحمد بن حنبل ، وألزمه بخلق القرآن الكريم وذلك في عام ٢٢٠ هـ / ٨٣٥ م وقد توفي عام ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م . وقد ذكره المقرئ باسم أحمد بن داود ، والاسم الذي ذكرته في المتن هو الصحيح .

(٤) الكامخ بفتح الميم وربما كسرت . جمع كوامخ : إدام يوقد به . وخصه بعضهم بالمطلات التي تستعمل لتشتهي الطعام ، وهي كلمة فارسية .

(٥) الصحناء والصير أنظر عنهما في الموضوع الخاص بالطعام والشراب .

فأخذت قطعة من الأرض ، وقالت : يا أمير المؤمنين ، هذا - وأشارت إلى الذهب - من هذا . وأشارت إلى الطينة التى تناولتها من الأرض ، ثم من عدك يا أمير المؤمنين ، وعندى من هذا شئ كثير .

فأمر به ، فأخذ منها ، وأقطعها عدة ضياع ، وأعطاه من قريتها طاء النمل مائتى فدان بغير خراج ، وانصرف متعجبا من كبر مروعتها وسعة حالها .

ونفهم من هذا النص ، أن الأقباط كانت لهم اقطاعات فى مصر ، وأن هذه الاقطاعات كانت ملكية تامة يدفع عنها الخراج كضريبة للأرض ، بدليل إعفاء المائتى فدان من قريتها من الخراج ، وأقطعها ضياعا أخرى إلى جانب ذلك .

ثانيا : الأحباس أو الأوقاف

بعد الفتح العربى ظهرت أراضى الوقف ، وهى أرض تحبس أو توقف على مشروعات خيرية ، أو على أشخاص بشروط يحددها الواقف ، وقد أنشئ ديوان الأحباس أو الأوقاف فى مصر عام ١١٨ هـ / ٨٣٦ م . وكان القضاة هم الذين يشرفون عليه .

ثالثا : نظام القبالات

نظرا لعجز الدولة عن تحصيل الخراج بواسطة عمالها ، فقد لجأت إلى نظام القبالات أو نظام الإلتزام . وهذا النظام يعنى إيجار حق جباية الضرائب ، وخاصة خراج الأرض للذين يقدمون أعلى مبلغ عنه فى عمليات مزايمة .

ولم يقتصر هذا الحق - أى حق جباية الضرائب - على فئة بعينها ، وإنما كان لكل إنسان الحق فى أن يكون ضامنا أو ملتزما ، سواء أكان من الأمراء أم الجند أم وجوه البلاد أم سكان القرى أم العرب أم القبط وكان يجب على كل منهم دفع الخراج فى المواعيد المعينة .

وقد قسم جرجى زيدان المتقبلين إلى نوعين : الولاة ، والملتزمون .

أولا : بالنسبة للولاية ، فإن الشرع الإسلامى قد أبطل تضمين الولاية للخراج ، «لأن العامل مؤتمن يستوفى ما يجب ويؤدى ما حصل ، فهو كالوكيل الذى أدى الأمانة ، لم يضمن نقصانا ولم يملك زيادة ، لذلك فإن الصحابة فى صدر الإسلام منعوا هذا التضمين . ويستدل على ذلك بما ذكره الماوردى فى كتابه ، فهو يقول :

« فأما تضمين العمال لأموال العشر والخراج فباطل ، لا يتعلق به فى الشرع حكم . وحكى أن رجلا أتى ابن العباس رضى الله عنه يتقبل منه الأبله^(١) بمائة ألف درهم ، فضربه مائة سوط وصلبه ، تعريضا وأدبا .

ويقول أيضا أبو يوسف للرشيد فى كتابه عن تضمين الولاية :

«ورأيت أن لا تقبل شيئا من السواد ولا غير السواد من البلاد ، فإن المتقبل إذا كان فى قبالة فضل عن الخراج ، عسف أهل الخراج ، وحمل عليهم مالا يجب عليهم وظلمهم» .

ثانيا : بالنسبة للمتضمنين ، وهم أناس من أهل الغنى أو النفوذ ، فقد كانوا يتقبلون الأراضى ، أى يضمنونها ، من متولى الخراج بمال معين يقع عليه بالمزايدة ، فيضمن الواحد قرية أو بلدا أو كورة فيزرعها ويستغلها ويدفع ما عليها من الخراج ويستولى على الباقي .

ويقول جرجى زيدان : إن هذا النظام كان معروفا من أيام اليونان ، ثم شاع فى المملكة الرومانية واقتبسه العرب عنهم .

ويذكر الحافظ بن رجب فى كتابه أن تقبل الأرض بخراجها ، عقد لازم من جهة الامام ، مادام المتقبل قادرا على أداء خراجها وعمارتها ، فإن عجز عن عمارتها رفعت يده عنها ، وكذا إن امتنع عن أداء الخراج .

ومن المتقبلين الذين ذكرتهم المصادر العربية : أحمد بن يحيى الوزير ابن سليمان بن المهاجر التجيبى ، أبو عبد الله المصرى الحافظ النحوى ، يقول عنه السيوطى : ولد عام ٢٧١ هـ / ٨٨٤ م . وكان من أعلم أهل زمانه

(١) الأبله : يضم أوله وثانيه وتشديد اللام وفتحها . وهى بلدة على شاطئ دجلة البصرة العظمى فى زاوية الخليج الذى يدخل إلى مدينة البصرة ، وهى أقدم من البصرة ، لأن البصرة مصرت فى أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكانت الأبله حينئذ مدينة فيها مسالح من قبل كسرى وقائد .

بالشعر والأدب وأيام الناس ، صاحب الشافعى وتفقه به ، وكان يتقبل - فيما ذكر - بعضهم ، أى يستأجر الأراضى للزرع ، ويعمل للفلاحة ، فانكسر بعض الخراج ، فحبسه أحمد بن محمد بن المدبر على ما انكسر عليه ، فمات فى السجن عام ٢٥١ هـ / ٨٦٥م وقيل عام ٢٥٠ هـ / ٨٦٤م .

وقد أخذ نظام القبالة فى الانتشار تدريجيا فى العصر العباسى ، حتى وجد قبليون يستأجرون الخراج عن مصر كلها ، بل إن الخليفة كان هو الذى يطلب ذلك .

فقد أرسل الخليفة أبو جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨ هـ / ٧٥٣-٧٧٤م) إلى نوفل بن الفرات ، عامل خراج مصر ، أن يعرض على محمد بن الأشعث وإلى مصر (١٤١ - ١٤٣ هـ / ٧٥٨ - ٧٦٠م) ضمان خراجها ، فيقول الكندى : «بعث أبو جعفر إلى نوفل بن الفرات : أن أعرض على محمد بن الأشعث ضمان خراج مصر ، فان ضمنه فأشهد عليه وأشخص إلى ، وإن أبى فاعمل على الخراج» .

كما تشير المصادر العربية إلى أن محفوظ بن سليمان ، عامل خراج مصر (١٨٧ هـ / ٨٠٣م) ، قد أرسل إلى الرشيد (١٧٠-١٩٣ هـ / ٧٨٦-٨٠٨م) يضمن له خراج مصر ، فيقول الكندى : «فرع محفوظ إلى أمير المؤمنين يضمن له جباية خراجها عن آخره بلا سوط ولا عصا ، فولاه أمير المؤمنين الخراج ، وصرف الليث بن الفضل عن صلاتها وخراجها» .

ويرى جرجى زيدان أن ضمان الولاة لخراج مصر ، قد أعطى لهم الحق فى الاستيلاء على مايتبقى من خراج البلاد مهما كان مقداره .

وقد أشار المقرئى فى كتابه إلى نظام القبالات ، وكيفية توزيع الأراضى على القبالة فيقول : «وكان من خير أراضى مصر بعد نزول العرب بأريافها ، واستيطانهم وأهاليهم فيها ، واتخاذهم الزرع معاشا وكسبا ، وانقياد جمهور القبط إلى إظهار الإسلام ، واختلاط أنسابهم بأنساب المسلمين لنكاحهم المسلمات - أن متولى خراج مصر كان يجلس فى جامع عمرو بن العاص من الفسطاط . فى الوقت الذى تنهيا فيه قبالة الأراضى ،

وقد اجتمع الناس من القرى والمدن ، فيقوم رجل ينادى على البلاد صفقات صفقات ، وكتاب الخراج بين يدي متولى الخراج ، يكتبون ماينتهى اليه مبالغ الكور والصفقات على من يتقبلها من الناس وكانت البلاد يتقبلها متقبلوها بالأربع سنين لأجل الظمأ والاستبحار وغير ذلك . فاذا انقضى هذا الأمر ، خرج كل من كان تقبل أرضاً وضمناها ، إلى ناحيته ، فيتولى زراعتها واصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها ، بنفسه وأهله ومن ينتدبه لذلك ، ويحمل ما عليه من الخراج فى إبانته على أقساط ، ويحسب له من مبلغ قبالاته وضممانه لتلك الأراضى ماينفقه على عمارة جسورها وسد تراعها وحفر خلجها بضرائب مقدرة فى ديوان الخراج ، ويتأخر من مبلغ الخراج فى كل سنة فى جهات الضمان والمتقبلين - يقال لما تأخر من مال الخراج «البواقي» - وكانت الولاة تشدد فى طلب ذلك مرة وتسامح به مرة ، فاذا مضى من الزمان ثلاثون سنة حولوا السنة وراكوا البلاد كلها ، وعدلوا تعديلاً جديداً ، فزيد فيما يحتمل الزيادة من غير ضمان البلاد ، ونقص فيما يحتاج إلى التنقيص منها . ولم يزل ذلك يعمل فى جامع عمرو بن العاص إلى أن عمر أحمد بن طولون جامعهم ، وصار العسكر منزلاً لأمرء مصر ، فنقل الديوان إلى جامع أحمد بن طولون ، ثم نقل أيام العزيز بالله نزار إلى دار الوزير يعقوب بن كلس . فلما مات الوزير نقل الديوان إلى القصر بالقاهرة ، واستمر به مدة الدولة الفاطمية ، ثم نقل منه بعدها .

يتضح من هذا النص الحقائق الآتية : -

أولاً : ان القوائم بتوزيع القبالات هو متولى الخراج ، وأنه كان يدون مكان وأسماء من تولى هذا الحق فى كتاب يعرف بكتاب الخراج .

ثانياً : أن المكان الذى كان يقوم فيه متولى الخراج بتوزيع القبالات ، كان يختلف باختلاف الدولة الحاكمة ، ففي عصر الولاة كان متولى الخراج يجلس فى جامع عمرو بن العاص فى الفسطاط ، وبمجيء أحمد بن طولون وتأسيسه للدولة الطولونية انتقل إلى جامع أحمد بن طولون ، ثم عندما جاءت الدولة الفاطمية انتقل فى البداية زمن العزيز نزار إلى دار الوزير يعقوب بن كلس ، ولما مات الوزير انتقل الديوان إلى القصر بالقاهرة ، واستمر به طوال قيام الدولة الفاطمية ، ثم نقل

منه بعدها - على حد قول المقرئى ، وهكذا ارتبط مكان متولى الخراج بالدولة الحاكمة .

ثالثا : أن عملية توزيع القبلات كانت تقوم فى علنية أو عن طريق اعلان مسبق برجل ينادى فى البلاد «صفقات صفقات» .

رابعا : أن مدة ايجار حق جباية خراج الاراضى كان يمتد فى كثير من الأحيان إلى أربع سنوات تبعا لحالة الأرض الزراعية أو أوقات الجفاف (١) .

خامسا : وبعد مرور ثلاثين سنة (٢) كانوا يقومون بتعديل تقاسيم البلاد كلها ، فتمسح الاراضى ، فيزيد فيما يحتمل الزيادة ، وينقص فيما يحتاج إلى التتقيص منها .

(١) يقول المقرئى فى هذا النص عن سبب امتداد مدة ايجار حق جباية خراج الأرض : إنه كان «لأهل الظلم والاستبحار» ، والاستبحار هنا ربما يقصد به المقرئى (الأرض المستبحر) أرض منخفضة تشبه البركة فإذا انحدر إليها الماء تجمع فيها ، ولا يجد الفلاح سبيلا إلى صرفه عنها ، فيقعد عنها عن الزراعة إلى أن ينزل عنها الماء ، وقد ينتفع بهذا الماء عند الجفاف فيرفع بالآلات رفع الماء كالطنبور والساقية فى رى ما جاورها من أراضى .

(٢) يقول المقرئى فى هذا النص : «فإذا مضى من الزمان ثلاثون سنة حلوا السنة» . وقد اقتضت منا هذه العبارة جهدا كبيرا لمعرفة ماهو المقصود منها ؟ وقد تبين لنا من دراسة كل مايتعلق بهذا الموضوع ، أن هذا القول يتعلق بنظام التقويم الهجرى . فما هو هذا النظام ؟

التقويم الهجرى يعتبر السنة ١٢ شهرا قمريا أى ٣٥٤ يوما تقريبا ، بإعتبار أن الشهر الأول وهو «محرم» يكون ٢٠ يوما ، ثم يليه «صفر» ٢٩ يوما ، ثم «ربيع الأول» ٢٠ يوما ، ثم «ربيع الآخر» ٢٩ يوما .. وهكذا حتى نصل إلى الشهر الأخير وهو «ذو الحجة» فيكون ٢٩ يوما . غير أن حساب الشهور بهذه الطريقة يجعل السنة المعنية تساوى ٣٥٤ يوما تقريبا ، فى حين أن السنة القمرية الحقيقية تساوى ٣٦٥.٢٤٢ يوما ، أى تزيد عن السنة المعنية بقدر ٣٦٧.٢٤٢ ر. من اليوم تقريبا . ويبلغ بذلك هذا الفرق ١١ يوما كل ٣٠ سنة ، لذلك يلزم اضافتها فى هذه المدة ، ولتحقيق ذلك اتفق على أن يعتبر فى كل ٣٠ سنة ، ١١ سنة كبيسة محتوية على ٣٥٥ يوما . وترتيب السنين الكبيسة فى مدة ٣٠ سنة هو : السنة الثانية - والسنة الخامسة - والسنة السابعة - ثم السنة رقم ١٠ - ورقم ١٣ - ورقم ١٦ - ورقم ١٨ - ورقم ٢١ - ورقم ٢٤ - ورقم ٢٦ وأخيرا السنة رقم ٢٩ . أى أنه فى كل ستة من هذه السنوات يضاف إليها يوما لتصبح ٣٥٥ يوما ، وتسمى بالسنة الكبيسة .

ولعرفة السنة الكبيسة من السنة البسيطة ، تقسم السنة على ٣٠ ، فإذا كان الباقي أحد =

سادسا : يظهر من النص أن متقبلي الأراضى كانوا يقومون بتولية زراعة الأراضى ، واصلاح جسورها ، وسد ترعها ، وحفر خلجها وغير ذلك من الأعمال ، وأنهم كانوا يقومون بهذه الأعمال بأنفسهم مع أهاليهم ، أو ينتجبون غيرهم لذلك .

سابعا : كما يبين النص أن خراج الأراضى كان يدفع فى أوقاته على أقساط ، وكان يحسب للمتقبل من مبلغ قبالاته وضممانه لتلك الأراضى ما ينفقه على عمارة جسورها وسد ترعها وحفر خلجها .

ثامنا : وأخيرا يبين النص أن المتقبلين كانوا يتأخرون كل سنة فى دفع مبلغ الخراج المفروض عليهم ، وكان يطلق على المتأخر من مال الخراج «البواقى» .

= السنوات التى تكررتها كانت كبيسة ، وإلا فإنها بسيطة .

فمثلا . سنة ١٣٥٩ لعرفة ما إذا كانت هذه السنة بسيطة أم كبيسة ، تقسم على ٣٠ (وهى مدة التقويم الهجرى) وذلك لعرفة كم فترة ثلاثينية تضمها سنة ١٣٥٩ .

فنجد أن $١٣٥٩ \div ٣٠ = ٤٥ ر٣$ تقريبا . أى إنها تضم ٤٥ فترة ثلاثينية تقريبا ، لأن $٣٠ \times ٤٥ = ١٣٥٠$. فإذا ما طرحنا منها السنة المراد معرفة نوعيتها أى : $١٣٥٩ - ١٣٥٠ = ٩$ فيكون الباقي ٩ ، وهذا الباقي يوازى السنة التاسعة ، وهى ليست سنة كبيسة ، ولذلك تعتبر سنة ١٣٥٩ سنة بسيطة .

أما سنة ١٣٧١ فنجد أن $١٣٧١ \div ٣٠ = ٤٥ ر٧$ تقريبا . أى إنها تضم ٤٥ فترة ثلاثينية تقريبا . وحاصل ضرب $٣٠ \times ٤٥ = ١٣٥٠$. وطرح $١٣٧١ - ١٣٥٠ = ٢١$.

وهذا الباقي يوازى السنة رقم ٢١ وهى سنة كبيسة ، لذلك تعتبر سنة ١٣٧١ سنة كبيسة .. وهكذا وهذا التقويم جعل كل ٣٠ سنة محتوية على ٢٠ سنة $٣٥٤ \times$ يوما + ١١ يوما (الفرق بين السنة المدنية والسنة القمرية) = ١٠٦٢١ يوما . $\frac{١٠٦٢١}{٣٠}$

أى أن متوسط أيام السنة = $٣٥٤ ر٣٦$ يوما

وهذا ينقص عن السنة الحقيقية بنحو ٠.٠٠٠٤ من اليوم ، ويبلغ هذا الفرق بعد مضى ٢٥٠٠ سنة ، يوما كاملا لأن $(٠.٠٠٠٤ \times ٢٥٠٠ = ١.٠٠٠)$ ، لذلك يتبقى إضافة يوم لهذه الفترة .

وهكذا يتضح مما سبق أن مدة الثلاثين عاما ، هى المدة التى اعتمد عليها نظام التقويم الهجرى . وتعتبر فترة الثلاثين سنة الأولى تبدأ من أول محرم سنة واحد ، والثانية من أول محرم سنة ٣١ ، وهكذا تتوالى الفترات بعد كل ٣٠ سنة .

لذلك فإن مرور ثلاثين سنة يعتبر فترة جديدة ، وهذا ماكان يقصده القرينى .

الفصل الثاني :

النظام المالى فى مصر

نظام جباية الخراج والجزية

جباية الخراج

جباية الجزية

خلط المصادر العربية بين معنى كل
من الخراج والجزية

خراج مصر

المقصود بمصطلح " خراج مصر "

قيمة خراج مصر

طريقة إرسال خراج مصر الى
ال خليفة

الفصل الثاني

النظام المالى فى مصر

لم يختلف موقف مصر كثيرا بانتقالها من يد الدولة البيزنطية الى يد العرب، فكما كانت مصر خزانة للدولة البيزنطية صارت خزانة للعرب ، ويظهر ذلك بوضوح من رد عمرو بن العاص على صاحب إختنا عندما أراد أن يخبره ما عليهم من الجزية ، فقال له ، وهو يشير الى ركن الكنيسة : « لو أعطيتنى من الأرض الى السقف ما أخبرتك ما عليك ، إنما أنتم خزانة لنا ، إن كثر علينا ، كثرنا عليكم ، وإن خُف عنا ، خَفْنَا عنكم . » فلم تختلف درجة استغلال مصر اختلافا كبيرا وهى تحت سيطرة بيزنطة عن درجة استغلالها وهى تحت سيطرة العرب ، فكما كانت مصر تدفع جزية عينية وترسل قمحا إلى القسطنطينية ، أصبحت ترسل الى مقر الخلافة آنذاك وهى المدينة ، وكما كان المصريون يدفعون ضريبة الرأس باعتبارهم خاضعين للروم ، أصبحوا يدفعونها الى العرب باعتبارهم تحت حمايتهم (نميين) ، ويظهر ذلك من قول صاحب الاسكندرية - أى المقوقس - الى عمرو بن العاص : « إني قد كنت أخرج الجزية الى من هو أبغض الى منكم معشر العرب لفارس والروم ، فإن أحببت أن أعطيك الجزية على أن ترد على ما أصبتم من سبايا أرضى ، فعلت » .

ويدافع الدكتور محمد ضياء الدين الرئيس عن فرض العرب لهذين النوعين (أى الخراج والجزية) من الضرائب بقوله : إنه اذا كان الاسلام قد أبقى على هذين النوعين إلا أنه قد ألغى أكثر الضرائب ، هذا الى جانب أن معنى أنه أبقاهما يعنى أنه لم يكن المبدع أو الواضع لهما ، وانما كان

استمرارا لما كان موجودا فى عهد الدولتين السابقتين لمدى قرون عديدة . وهذا بالطبع ليس له عندنا غير معنى واحد ، وهو ما ذكرته سابقا من أن موقف مصر لم يختلف كثيرا بانتقالها من يد الدولة البيزنطية الى يد العرب ، خاصة وأن العرب لم يجهلوا ثروة مصر قبل الفتح ، بل إن ثروتها كانت من أسباب فتحهم لها - كما تذكر الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف .

وهنا يجدر بنا أن نفرق بين ما نص عليه الاسلام من تحديد قيمة كل من الجزية والخراج تبعا لطاقة الفرد ، وبين السياسة التى طبقت بالفعل من قبل الخلفاء أو من قبل الولاة فى البلاد التى تولوها ، فقد ذكرت سابقا كيف أن محفوظ بن سليمان ، عامل خراج مصر عام (١٨٧ هـ / ٨٠٣ م) ، يطلب من الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ / ٧٨٦ - ٨٠٨ م) ضمان خراج مصر كله " بلا سوط ولا عصا " ، مما يدلنا على أن الولاة كانوا يكرهون الناس على دفع الخراج ويعذبونهم . لذلك - نرى - أن سياسة التعسف فى جمع الضرائب وعدم مراعاة طاقة الفرد هى التى أدت الى قيام الأهالى بالثورات فيما بعد لعجزهم عن دفع الضرائب ، كما أدت الى نشأة نظام مثل نظام القبالة الذى كان من أهم أسباب نشأته هو ضمان حصول الدولة على الضرائب كاملة وبأعلى عائد ممكن .

وقد ذكرت سابقا كيف أن قواد العرب طلبوا من عمرو بن العاص تقسيمها ، إلا أن عمر بن الخطاب رفض ، على أساس أن جزية قائمة تكون لهم ولن يعدمهم من المسلمين أفضل من فى يقسم " ثم كأنه لم يكن " .

وأنكر هنا بعض العبارات التى وردت فى الخطابات المتبادلة بين عمر ابن الخطاب وعمرو بن العاص بشأن إرسال الخراج للخلافة وابطاء عمرو فى ارساله ، وقلة الخراج فى ولايته ، لأدلل بها كيف كانت الخلافة تستغل مصر أقصى استغلال . فتذكر المصادر العربية أنه عندما استبطن عمرو بن الخطاب الخراج من قبل عمرو بن العاص أرسل له خطابا وردت فيه العبارات الآتية :

« أما بعد ، فانى فكرت فى أمرك ، والذى أنت عليه ، فاذا أرضك أرض واسعة ، عريضة رفيعة ، قد أعطى الله أهلها عددا وجلدا وقوة فى بر وبحر ، أنها قد عالجتها الفراعنة ، وعملوا فيها عملا محكما مع شدة عتوهم وكفرهم ، فعجبت من ذلك ! وأعجب ما عجبت أنها لاتؤدى نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحوط ولا جذب . » ثم يقول له : « لست قابلا منك دون الذى كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك » .

فرد عليه عمرو بن العاص قائلا : « لعبد الله عمر أمير المؤمنين . . . فى الذى استبطأنى فيه من الخراج ، والذى ذكر فيها من عمل الفراعنة قبلى ، وأعجابه من خراجها على أيديهم ، ونقص ذلك منها مذ كان الاسلام ، ولعمري للخراج يومئذ أوفر وأكثر ، والأرض أعمر ، لأنهم كانوا - على كفرهم وعتوهم - أرغب فى عمارة أرضهم منا مذ كان الاسلام ، وذكرت أن النهر يخرج الدر ، فحلبتها حلبا قطع ذلك درها » .

فأرسل عمر بن الخطاب خطابه الثانى اليه قائلا فيه : « ولم أقدمك الى مصر أجعلها لك طعمة ولا لقومك ، ولكنى وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج ، وحسن سياستك ، فاذا أتاك كتابى هذا فاحمل الخراج ، فانما هو فى المسلمين » .

فرد عليه عمرو برسالة ورد فيها : « ولكن أهل الأرض استنظرونى الى أن تدرك غلتهم ، فنظرت للمسلمين ، فكان الرقيق بهم خيرا من أن يخرق بهم ، فيصيروا إلى بيع مالا غنى بهم عنه »

ومن هذه الرسائل المتبادلة يظهر لنا الآتى :

أولا : حرص عمر بن الخطاب على الخراج ، ومقارنته بين قيمة الخراج بعد الفتح وقيمه قبل الفتح ، وإلصاحه على عمرو حتى يصل المبلغ المستخرج من وادى النيل الى ما كان عليه أيام الحكم البيزنطى .

ثانيا : كما تظهر مسألة غاية فى الأهمية وهى عدم اهتمام ولاة العرب بالاصلاحات فى مصر ، ويظهر ذلك بوضوح شديد فى قول أحد أقباط

مصر لعمر بن الخطاب ، عندما طلب من عمرو إرسال أحدهم ليخبره عن مصر وخراجها قبل الاسلام ، فقد قال له : « يا أمير المؤمنين ، كان لا يؤخذ منها شئ إلا بعد عمارتها ، وعاملك لا ينظر الى العمارة ، وإنما يأخذ ما ظهر له ، كأنه لا يريد لها إلا لعام واحد » .

وكان عمر بن الخطاب قد كتب الى عمرو بن العاص ليسأل المقوقس عن العوامل التي تؤدي الى خراب مصر أو عمارتها ، فقال له المقوقس : تأتي عمارتها وخرابها من خمسة وجوه :

أولا : أن يستخرج الخراج في إبان واحد عند فراغ أهلها من زروعهم .

ثانيا : ويرفع خراجها في إبان واحد عند فراغ أهلها من عصر كرومها .

ثالثا : وتحفر في كل سنة خلجها .

رابعا : وتُسد ترعها وجسورها .

خامسا : ولا يُقبل مطل أهلها . فإذا فعل هذا فيها ، عمرت ، وإن عمل فيها بخلافه خربت .

ويذكر أبو المحاسن في كتابه السبب في عدم اهتمام الولاة بالزراعة وإقامة الجسور وبناء القناطر وغيرها ، وبالتالي نزول خراج مصر ، فيقول : « وسبب نزول خراج مصر أن الملوك لم تسمح لهم نفوسهم بما كان ينفق في حفر ترعها واتقان جسورها ، وإزالة ما هو شاغل للأرض عن الزراعة كالقصب والحلفاء وغير ذلك » .

وفي رأيي أن سبب عدم اهتمام الولاة بالاصلاحات يرجع الى :

١ - أن المرحلة الأولى من الفتح كانت مرحلة غزو .

٢ - قصر مدة تولى والى مصر ، وعلمه بذلك جعلته لا يهتم بشئون مصر ، لأن مهمته هي الدفاع عنها واستخراج الخراج وإرساله الى الخليفة ، سواء أكان هو المتولى للخراج أم هناك آخر متوليه ، ببليل أن الولاة

الذين تولوا مصر مدة طويلة كان لهم نشاط ملحوظ . وقصر مدة تولي
الوالي مصر لم تؤدِ فقط إلى عدم الاهتمام بالاصلاحات ، وإنما إلى
جمع المال بأية وسيلة أيضا ، مما أدى إلى ظلم الأهالي ، فاشتهر معظم
ولاية ذلك العصر بالشدة في جمع الخراج .

٣ - أن مصر لم تكن للوالي بلدا له بقدر ما هي خزانة تدر على خلافته ربحا
، لذلك عندما جاء الطولونيون ثم الاخشيديون إلى مصر ، واتخذوها
وطنا لهم ولأولادهم ، وأقاموا بها الدولتين الطولونية ثم الاخشيدية ،
قاموا بكافة الاصلاحات بها . فيذكر المقرئ أن أحمد بن طولون عندما
تسلم أرض مصر من أحمد بن المدبر كانت قد خربت حتى إن خراجها
بلغ ٨٠٠ ألف دينار ، فقام أحمد بن طولون بالاصلاحات في مصر ،
وكما يقول المقرئ " وبالف فيها " ، حتى وصل خراجها إلى ٤ مليون و
٣٠٠ ألف دينار ، وذلك في عام ٢٦٠ هـ / ٨٧٣ م .

ثالثا : أيضا يظهر لنا - من قراءتنا لهذه الرسائل المتبادلة بين عمرو بن
العاص وعمر بن الخطاب - أن النظام الإداري يقوم لخدمة النظام
الاقتصادي الذي تفرضه الدولة الحاكمة ، مما جعل عمر بن الخطاب
يذكر عمرا بأن تعيينه في وظيفة والي على مصر تحتم عليه توفير
الخراج اللازم ، ويبرر الدكتور مصطفى طه بدر هذا الموقف لعمر بن
الخطاب بأن عمر بن الخطاب كان يرمى من ذلك ضبط النظام ، وأنه
كان يخشى أن يأخذ الولاة الأموال لأنفسهم ، ويغتنوا على حساب
بيت المال . فهو يرى أن عمر بن الخطاب كان معروفا طوال مدة خلافته
بتحرى العدل بين الناس جميعا وبالعطف على رعيته . ثم أورد في
كتابه قصة الشيخ اليهودي الذي رآه عمر بن الخطاب في زيارة له في
بلاد الشام وهو يتسول ، وعرف أنه يفعل ذلك ليجمع الجزية المفروضة
عليه ، فأمر باعقائه من الجزية هو وأمثاله من العاجزين الفقراء .

ويظهر لنا أيضا استغلال العرب لمصر ، من استيلاء عمرو بن العاص
على أموال الأقباط في مصر على الرغم من أن مصر قد عوملت كدولة فتحت

صلحاً ، وكان من ضمن شروط الصلح أن لا تنزع كنوزهم ، فعندما فتحت مصر طالب عمرو بن العاص الأقباط باعطائه كنوزهم ، حتى إنه قتل أحدهم عندما علم باخفائه كنزه . ويدافع أبو عبيد عن موقف عمرو هذا بأنه كان قد صالحهم " على أن لا يكتموه أموالهم " ، وبالتالي فعندما كتمه أحدهم استحق القتل .

كما يظهر هذا الاستغلال من رد عمرو على عثمان بن عفان ، فعندما أرسل عبد الله بن سعد - والى مصر (٢٤ هـ / ٦٤٤ م) من قبل عثمان بن عفان - خراج مصر ، وكان يقدر بأربعة عشر ألف ألف دينار أى زيادة على خراج مصر زمن عمرو بن العاص ، قال عثمان لعمرو : « هل تعلم أن تلك اللقاح دُرَّتْ بعدك ؟ فقال عمرو : إن فصالها هلكت ! ويذكر ابن عبد الحكم أن عثمان قال لعمرو : « يا أبا عبد الله دُرَّتْ اللقحة بأكثر من درهما الأول ، قال عمرو : أضرتهم بوليدها » .

كما يبدو بوضوح استغلال العرب لمصر من رسالة سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩ هـ / ٧١٤ - ٧١٧ م) الى أسامة بن زيد التنوخى متولى خراج مصر (٩٦ هـ / ٧١٤ م) ، فقد أرسل اليه يقول : « احلب الدر حتى ينقطع واحلب الدم حتى ينصرم » ، وعندما فعل أسامة ما أمره به ، أعجب به وقال : " هذا أسامة لا يرتشى ديناراً ولا درهما ، فقال له ابن عمه عمر بن عبد العزيز بن مروان : أنا أدلك على من هو شر من أسامة ، ولا يرتشى ديناراً ولا درهما . قال سليمان : ومن هو ؟ قال عمر : عدو الله إبليس . فغضب سليمان وقام من مجلسه " . وهكذا يظهر لنا أن الخليفة كان فى أوقات كثيرة هو الذى يحدث متولى الخراج على الزيادة .

أولاً : (جباية الخراج)^(١)

يتضح مما أورده ابن عبد الحكم فيما يختص بقيمة وطريقة جباية الخراج في مصر ، أنها كانت استمراراً للنظام البيزنطي وفي ذلك يقول :

" كان عمرو بن العاص ، لما استوثق^(٢) له الأمر ، أقر قبضها على جباية الروم ، وكانت جبايتهم بالتعديل ، إذا عمرت القرية وكثر أهلها زيد عليهم ، وإن قل وخربت نقصوا ، فيجتمع عرفاء^(٣) كل قرية ورؤسائها ، فيتناظرون^(٤) في العمارة والخراب ، حتى إذا أقرروا من القسم بالزيادة ، انصرفوا بتلك القسمة إلى الكور^(٥) ، ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى ، فوزعوا ذلك على احتمال القرى وسعة المزارع ، ثم ترجع كل قرية بقسمهم ، فيجمعون قسمهم وخراج كل قرية وما فيها من الأرض العامرة ، فيبدعون ويخرجون من الأرض فدادين لكنائسهم وحماماتهم ومعدياتهم من جملة الأرض ، ثم يخرج منها عدد الضيافة للمسلمين ونزول السلطان ، فاذا فرغوا نظروا إلى ما في كل قرية من الصناعات والأجواء ، فقسموها عليهم بقدر احتمالهم ، فان كانت فيها

(١) يذكر الدكتور محمد ضياء الدين الرئيس في كتابه « الخراج والنظم المالية » أن كلمة الخراج ليست عربية أصيلة ، وإنما هي نقلت عن اللغة اليونانية عن طريق البيزنطيين ، أو هي تعريب الكلمة الأرامية « Choregia » ، وكانت تعني الضريبة بصفة عامة . غير أنه رأى أن استعارة العرب لهذه الكلمة كانت قبل مجئ الإسلام على اعتبار أنها قد استعملت في القرآن ، وتكرر وروها في الأحاديث ، وعلى لسان العرب قبل بدء الفتح .

(٢) استوثق: والصحيح استوسق أى انتظم له الأمر

(٣) والعريف دون الرئيس . والعريف - وكما تذكر الدكتور سيدة إسماعيل كاشف - معناها كاتب ، وهي المقابلة للكلمة اليونانية جرافس أى كاتب .

وكان ينصب على كل جمع عريفا لمعرفة من أسلم منهم ومن مات ، ومن بلغ من صبيانهم ، ومن قدم عليهم ، أو من سافر منهم ، وعليه احضارهم لاداء الجزية أو عند تقديم شكوى من تعدى النسي على أحد من المسلمين ونحو ذلك .

(٤) يتناظرون أى يتجادلون .

(٥) الكورة : جمع كور وهي البقعة التي تجتمع فيها المساكن والقرى . وترى الدكتور سيدة إسماعيل كاشف أن « كورة لفظ يوناني احتفظ به العرب .. وكانت الكور مقسمة بدورها إلى قرى »

جالية^(١) قسموا عليها بقدر احتمالها ، وقل ما كانت إلا للرجل الشاب أو المتزوج ، ثم نظروا فيما بقى من الخراج فيقسمونه بينهم على عدد الأرض ، ثم يقسمون ذلك بين من يريد الزرع منهم على قدر طاقتهم ، فان عجز احد وشكا ضعفا عن زرع أرضه وزعوا ما عجز عنه على ذوى الاحتمال ، وإن كان منهم من يريد الزيادة أعطى ما عجز عنه أهل الضعف ، فان تشاحوا^(٢) قسموا ذلك على عدتهم^(٣) ، وكانت قسمتهم على قراريط ، والدينار أربعة وعشرين قيراطا ، يقسمون الأرض على ذلك^(٤) - وكذلك روى عن النبي صلى الله عليه وسلم : " إنكم ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط ، فاستوصوا بأهلها خيرا " - وجعل عليهم لكل فدان نصف إردب^(٥) قمح ووبيتين^(٦) من شعير إلا القرط^(٧) فلم يكن عليه ضريبة ، والوبية يومئذ ستة أمداد^(٨) .

ويتضح من هذا النص الحقائق الآتية :

أولا : أن عمرو بن العاص عندما أقر قبط مصر على جباية الروم ، كان يقصد من ذلك الضرائب التى فرضها الروم سواء كانت خراجا أو جزية أو غيرهما .

(١) جالية : اختلف المؤرخون فى تفسير معناها ، فيذكر محقق كتاب السيوطى : " ان الجالية هى أهل الذمة ، لأن عمر أجلاهم عن جزيرة العرب " . أما احمد صادق سعد فيقول فى كتابه : إن أعيان الروم الذين ظلوا بمصر بعد الفتح العربى سموا " بالجالية " . وفى رأى أن هذا هو الرأى الأقرب للصواب لمعنى كلمة " جالية " ، لأن عبارة " لو كانت فيها (أى القرية) جالية " ، تدل على وجود عنصر آخر يسكن القرية ، لأن قرى مصر بالطبع كان سكانها من أهل الذمة .

(٢) تشاحوا : أى بخل به بعضهم على بعض .

(٣) عدتهم : أى جماعتهم ، والعدة جمع عدد .

(٤) أى يدفع عن كل فدان (الذى يساوى ٢٤ قيراط) دينارا .

(٥) إردب : جمع أرانب ، مكىال ضخمة وهو ٢٤ صاعا (مكىالا) ، والصاع ٤ أمداد . والإردب من وضع المصريين القدماء ، وقد سبقوا جميع الأمم الى وضعه . والإردب يساوى اليوم عند المصريين ١٩٨ لترا .

(٦) الوبية : اثنان وعشرون أو أربعة وعشرون مداً . وهو مكىال للحبوب ، سعته سدس الإردب ، وتستعمل فى مصر .

(٧) القرط : أى علف للماشية .

(٨) أمداد : لك يساوى ١٨ ليترا أفرنجيا على التقريب . والمدا من الكلمة اللاتينية Modius أو Modium وهو عند الرومان مكىال للسوائل والجوامد ، ثم اطلق عندهم على المكىال ، ويختلف عندهم باختلاف البلدان والأزمان .

ثانياً : أن طريقة الجباية كانت تبدأ بعقد اجتماع سنوى بين مشايخ القرى لمناقشة العمارة والخراب فى كل قرية ، ثم يجتمعون برؤساء الكور ، ثم يوزعون الخراج على احتمال القرى وسعة المزارع ، وتقوم كل قرية ، قبل توزيع الخراج ، باستبعاد فدادين لكنائسهم وحماماتهم ومعدياتهم من جملة الأرض ، ثم يخرج منها عدد الضيافة للمسلمين ونزول السلطان . بعد ذلك يقومون بتحديد الجزية للصناع والأجراء ، ويقسمون عليهم بقدر احتمالهم ، ولو كانت فى القرية جالية قسموا عليها بقدر احتمالها . بعد ذلك يقسمون الأرض التى زادت عن القرية بين من يريد الزرع ، فان عجز أحد بسبب ضعفه عن زرع أرضه ، تعطى لآخر يريد الزيادة .

ثالثاً : أن الخراج كان ينقسم الى نوعين . خراج نقدى ، وخراج عينى . وبالنسبة للخراج النقدى فكان يقدر بدينار عن كل ٢٤ قيراط (أو عن كل فدان) . أما الخراج العينى فكان يقدر بنصف إردب قمح ووييتين من شعير عن كل فدان ، ويضيف ابن عبد الحكم فى موضع آخر : « لا أدري كم من الودك ^(١) والعسل ، وعليهم من البز ^(٢) والكسوة التى يكسوها أمير المؤمنين الناس ، ويضيفون من نزل بهم من أهل الاسلام ثلاث ليال . ويضيف البلاذرى الى ذلك إلزام « كل ذى أرض مع الدينارين ثلاثة أرباب حنطة ، وقسطى زيت ، وقسطى عسل ، وقسطى خل ، رزقاً للمسلمين ، تجمع فى دار الرزق ، وتقسم فيهم ».

وكان يطلق على الضريبة التى تدفع عيناً فى أوراق البردى العربية اسم ضريبة الطعام . وتقول الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف : إن الضرائب العينية كانت ترسل إلى أهراء الفسطاط أو بابليون ، أما الضرائب النقدية فكانت ترسل إلى ديوان الخراج والأموال عن طريق فروعه فى الأقاليم .

(١) الودك : أى اللحم والشحم .

(٢) البز : جمع بزوز ، أى السلاح أو الثياب من الكتان أو القطن .

رابعاً : أن قيمة هذا الخراج كانت - كما يقول ابن عبد الحكم « بالتعديل » - أى لم يكن الخراج مبلغاً ثابتاً يُفرض على وحدة المساحة الزراعية، بل يتغير سنوياً تبعاً لحالة الفيضان، وبالتالي حالة المحصول. كما كان يراعى فى تقدير الخراج كمية المحصول التى تنتجها الأرض، وحالة الأرض إذا كانت عامرة أو تامة.

وهنا يجدر بنا الإشارة إلى أن تعديل الخراج بالنقص لا بد أن يكون نتيجة لسبب خارج عن إرادة المالك، مثل : الفيضان. أما إذا أهمل المالك استغلال أرضه عمداً، فيستحق الخراج المفروض.

أما تعديل الخراج بمعنى زيادته، فنلاحظ أن هذه الزيادة تكون تبعاً لزيادة مساحة الأرض والزرع، لذلك يقول ابن عبد الحكم فى موضع آخر: « لا يُزاد على أحد منهم فى جزية رأسه أكثر من ديتارين، إلا أنه يُكزم بقدر ما يتوسع فيه من الأرض والزرع ». وقد أورد الحافظين رجب فى كتابه: « أنه لا تجوز زيادة الخراج لزيادة الأسعار، ولا نقصه لنقصها ».

خامساً : يفهم من طريقة الجباية أن الخراج بنوعيه النقدي أو العيني، وأيضاً الجزية، كانت توضع إجمالاً على القرية بأكملها، وأن شيخ القرية يُعتبر هو المسئول عن الخراج أو الجزية أمام صاحب الكورة أو القبائل، الذى يسأل عنها بدوره أمام الوالى . وبمعنى آخر، فقد كانت كل قرية مسئولة بالتضامن عن الضرائب المفروضة عليها. ويتطبق هذا الوضع على طوائف الصناع والتجار، فقد كانت الجزية تفرض على كل الطائفة إجمالاً، وتوزع على أفرادها بمعرفة شيخها الذى هو منها.

سادساً : يظهر أيضاً من النص أن قيمة جزية القرية الإجمالية كانت بالتعديل أيضاً، وذلك فيما يبدو تبعاً لزيادة أو نقص عدد أهل القرية. فيقول ابن عبد الحكم : « إذا عمّرت القرية، وكثر أهلها زيد عليهم، وإن قل أهلها وخربت نقصوا ». فلو كان ابن عبد الحكم يقصد من ذلك الخراج، لما احتاج لذكر عدد سكان القرية، لأن الخراج يفرض على الأرض، ويتأثر بالعمارة والخراب، وليس على الرؤوس.

لذلك كان الولاية - فيما يبدو - يقومون بإحصاء عدد سكان كل قرية بصفة دورية. فتشير المصادر إلى قيام الولى ابن رفاعة، عند توليه مصر عام (١٠٩هـ/٧٢٧م) من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥هـ/٧٢٣ - ٧٤٢م) بإحصاء عدد السكان بنفسه، يساعده الأعوان والكتاب، حتى إنه ظل فى ذلك مدة ستة أشهر بالصعيد، وثلاثة أشهر بتسفل الأرض، وذلك بغرض تعديل الجزية. فيقول ابن عبد الحكم : «فأحصوا من القرى أكثرَ من عشرة آلاف قرية، فلم يُحصَ فيها فى أصغر قرية منها أقل من خمسمائة جمجمة من الرجال الذين يفرض عليهم الجزية .

سابعاً : إن من يعجز عن دفع ضرائبه كاملة بسبب عدم إمكانية زراعة أرضه، تعطى أرضه لمن يقدر على زراعتها، أو كما يقول المقرئى : «نوى الاحتمال» .

ثانياً : (جباية الجزية)

إذا كان الخراج ضريبة على الأرض ، فالجزية ضريبة على الروعوس. واسم الجزية مشتق من الجزاء، والأصل فيها قوله تعالى:

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ (١) .

ويذكر الدكتور محمد ضياء الدين الرئيس فى كتابه أن الجزية «كانت بمثابة ضريبة مالية، للمساهمة فى واجب الدفاع نظير ضريبة الدم التى كان يدفعها المسلم فى حومة القتال، للدفاع عن الدولة كلها» .

وكان المصريون يعرفون الجزية باسم «نمزيا».

وقد أجمع الفقهاء على أن الجزية تؤخذ من أهل الكتاب ومن المجوس.

ورأى أبو حنيفة عدم جواز أخذ الجزية من العرب، حتى ولو كانوا من

عبدة الأوثان..

(١) سورة التوبة (آية رقم ٢٩) .

والجزية لا تكون إلا على الأحرار، لأن الأسير إذا استرق فلا جزية عليه، لذلك يقول ابن عبد الحكم: «حدثنا عبد الملك بن مسلمة قال : كان لعبد الله بن سعد موالى نصارى، فأمتقهم، فكان عليهم الخراج»، ويقصد بالخراج هنا الجزية.

والجزية لا تجب أيضاً على امرأة ولا صبي ولا مجنون، لأنهم أتباع. ويرى الدكتور محمد ضياء الدين الرئيس أن الإسلام ألغى الامتياز الذي كانت تتمتع به طوائف خاصة تعفى من ضريبة الرأس أو حتى من غيرها، كالطبقات الأرستقراطية في عاصمة مصر.

أما قيمة الجزية :

فيقول ابن عبد الحكم إن عمر بن الخطاب إذا فتح بلداً صلحاً، فإنه كان يأخذ من أهلها الجزية التي يتفقون عليها، بدون أن ينقص منها أو يزيد عليها، أما من لم يتفق معه على جزية معينة، فإن عمر كان ينظر في أمره، فيخفف عنهم أو يزيد على حسب إمكانياتهم، فيقول في ذلك : «وكان عمر ابن الخطاب يأخذ ممن صالحه من المعاهدين ما سُمي على نفسه، لا يضع من ذلك شيئاً ولا يزداد عليه، ومن نزل منهم على الجزية ولم يسم شيئاً يؤديه، نظر عمر في أمره، فإذا احتاجوا خفف عنهم، وإن استغنوا زاد عليهم بقدر استغنائهم» .

وبدراستنا للمصادر الإسلامية نلاحظ أن الفقهاء قد اختلفوا في قدر الجزية الواجبة على الفرد، فأبو حنيفة قد حدد الجزية على حسب الغنى والفقر (أو حالة الفرد المادية)، فمثلاً : الأغنياء يؤخذ منهم ثمانية وأربعون درهماً، أما الفقراء فيؤخذ منهم إثنا عشر درهماً، ثم أشار إلى وجود طبقة متوسطة بين الأغنياء والفقراء، وذكر أنهم يؤخذ منهم أربعة وعشرون درهماً، وهكذا جعلها مقدرة، كما منع من اجتهاد الولاة فيها.

وبالنسبة للملك، فلم يحدد لها قيمة معينة، وإنما تركها لاجتهاد الولاة.

أما الشافعي فقد حدد القيمة الصغرى لها بدينار، وإن لم يحدد

القيمة الكبرى ، على أساس أنها ترجع لاجتهاد الولاة، وإن كانت لا تقل عن دينار، غير أنه رأى أن اتفاق الولاة فى تحديد قيمتها يجعلها لازمة لجميعهم ولعقابهم قرناً بعد قرن، وأنه لا يجوز لوالى بعده أن يغيره إلى نقصان منه أو زيادة عليه.

هذا من الناحية النظرية، أما من الناحية التطبيقية فى مصر، فإن قيمة الجزية التى صولح عليها الأقباط كانت على النحو الآتى :

يقول المقرئى نقلاً عن ابن عبد الحكم: «لما فتح عمرو بن العاص مصر صولح على جميع من فيها من الرجال من القبط ممن راهق الحلم إلى ما فوق ذلك، ليس فيهم امرأة ولا صبي ولا شيخ على دينارين»، «لايزاد على أحد منهم فى جزية رأسه أكثر من دينارين».

ثم يذكر ابن عبد الحكم أن وضع الاسكندرية بالنسبة للجزية، أو حتى للخراج، كان مختلفاً بالنسبة لوضع مصر، على أساس أنها فتحت عتوة بغير عهد ولا عقد، فيرى «أنهم كانوا يؤدون الخراج والجزية على قدر ما يرى من وإيهم».

وترى الدكتورة سيدة كاشف: أن العرب عندما فتحوا مصر، لم يساؤوا الأقباط فى دفع الجزية، وإنما كانت تتناسب مع ثروة الشخص، وتستند فى ذلك إلى أوراق البردى، ففى كتاب قررة بن شريك إلى صاحب كورة أشقوة^(١)، نجده يأمره بأن يرسل كشفاً بالاماكن المختلفة لمعرفة عدد الرجال فى كل مكان، والجزية الواجب عليهم أدائها، وما يملكه كل رجل من الأراضى وما يقوم به من الأعمال، ويطلب من صاحب الكورة ألا يوجد مجال للشكوى أو الاستياء منه، ويذكره بأنه مصمم على مكافأة من يسير سيراً حسناً، ومعاقبة من يتنكب طريق العدل.

وتقول الدكتورة سيدة كاشف إنه لو كان كل فرد يدفع جزية مساوية لما يدفعه الآخر لما طلب والى مصر كشفاً بما يملكه كل شخص، وما يقوم به من

(١) أشقوة : كانت كورة من كور الصعيد، وهى الآن كوم أشقوا بين أبو تيج وطهطا فى محافظة أسيوط
وقد عثر فيها عام ١٩٠١م على مجموعة من الأوراق البريدية التى ألقت شعاعاً من النور على حكم قررة ابن شريك فى مصر .

عمل، وبالجزية الواجبة عليهم، ولما طلب من صاحب الكورة أن يكون عادلاً في عمله، ولما هده إذا هو لم يتبع طريق الحق أو أوجد أي مجال للشكوى أو الاستياء من جانب أهل كورته، ولاكتفى الوالى بمعرفة عدد رجال كورته، وبذلك يعرف الجزية الواجبة عليهم.

وفى أحيان كثيرة كانت الجزية تؤخذ من أملاك أهل الذمة عيناً بقيمتها، ثم يتولى المسلمون بيعها. ولم يتورع الولاة عن أخذ الخمر والخنازير وبيعها، مما دفع بلال إلى استنكار هذا الأمر، ورفع إلى عمر بن الخطاب الذى أمر بأن يتولى أهل الذمة البيع، ثم يأخذوا ذلك من أثمانها، على اعتبار أن الخمر والخنازير مال من أموال أهل الذمة، ولا تكون مالا للمسلمين.

ويقول ابن عبد الحكم فى ذلك أيضاً: «إن ما باع القبط فى جزيتهم، وما يؤخذون به من الحق الذى عليهم من عبد أو وليدة أو بغير أو بقره أو دابة، فإن ذلك جائز عليهم، جائز لمن ابتاعه منهم، غير مردود إليهم إن أيسروا».

ومعنى ذلك أن القبطى الذى يعطى من أملاكه شيئاً بغرض استيفاء الجزية التى عليه بسبب ضائقة ما، فإنه ليس من حقه استرداد أملاكه مرة أخرى مقابل دفع الجزية المفروضة نقداً إذا زالت هذه الضائقة.

ويشترط عليهم فى عقد الجزية شرطان - كما يذكر الماوردى: مستحق، ومستحب. أما شرط المستحق فيتفرع إلى ستة شروط:

الأول: أن لا يذكر كتاب الله تعالى بطعن فيه ولا تحريف له.

الثانى: أن لا يذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتكذيب له ولا ازدراء.

الثالث: أن لا يذكر دين الإسلام بظلم له ولا قدح فيه.

الرابع: أن لا يصيبوا مسلمة بزنا ولا باسم نكاح.

الخامس: أن لا يفتنوا مسلماً عن دينه ولا يتعرضوا لماله ولا دينه.

السادس: أن لا يعينوا أهل الحرب ولا يؤيدوا أغنياءهم.

وهذه الشروط الستة حقوق ملزمة، يكون ارتكابها بعد ذلك نقضاً لعهدهم.

وأما شرط المستحب فيتفرع أيضاً إلى ستة شروط :

الأول : تغيير هيئاتهم بلبس الغيار وشد الزنار.

الثاني : أن لا يُعللوا على المسلمين في الأبنية، ويكونوا إن لم ينقصوا مساويين لهم.

الثالث : أن لا يُسمعوا أصوات نواقيسهم ولا تلاوة كتبهم ولا قولهم في عزير والمسيح.

الرابع : أن لا يجاهروهم بشرب خمرهم ولا بإظهار صلبانهم وخنازيرهم.

الخامس : أن يُخفوا دفن موتاهم ولا يجاهروا بنذب عليهم ولا نياحة.

السادس : أن يُمتنعوا من ركوب الخيل عناقاً وهجاناً^(١) ولا يمنعوا من ركوب اليفال والحمير.

وهذه الستة المستحبة لا تلزم بعقد الذمة، ولا يكون ارتكابها بعد ذلك نقضاً لعهدهم، ولكن يؤخذون بها إجباراً ويؤدبون بها زجراً، ولا يؤدبون إن لم يشترط ذلك عليهم.

وبالنسبة للوقت الذي يجب أن تجبى فيه الجزية، فقد ذكر الماوردي أنها تجب عليهم مرة واحدة في السنة بعد انقضاءها بشهور هلالية.

ويذكر أبو يوسف: أنه في وقت جباية الجزية كانت تختم رؤوس أهل الذمة، وذلك حتى يفرغوا من عرضهم.

وفي زمن عمر بن عبد العزيز (٩٩هـ - ١٠١هـ / ٧١٨ - ٧٢٠م) أصدر الكثير من التشريعات الخاصة بالجزية، وأرسلها إلى عماله على البلاد ومنها :

(١) والهجين من الخيل هو الذي ولدته برذونة (التركي من الخيل) من حصان عربي. وبمعنى آخر عندما يكون الأب عتيقاً أي كريماً والام ليست كذلك، كان الولد هجيناً.

أولاً : جزية موتى القبط على أحيائهم: وكانت بداية هذه الفتوى عندما أرسل حيان بن سريج عامل الخراج في مصر عام (٧٩٩هـ/٧١٨م) من قبل عمر بن عبد العزيز يسأله في هذه الفتوى «فسأل عمر عن ذلك عراك بن مالك (١) ... فقال: ما سمعت لهم بعقد ولا عهد، وإنما أخذوا عَنوةً بمنزلة العبيد، فكتب عمر إلى حيان بن سريج يأمره أن يجعل جزية الأموات على الأحياء».

ويقول ابن عبد الحكم إن فتوى جعل جزية موتى القبط على أحيائهم ليست دليلاً على أن مصر فُتحت عَنوةً، لأن الفتح سواء كان صلحاً أو عنوة فإن الجزية المفروضة على القرية ثابتة عليهم، فإذا فتحت عَنوة فإن «موت من مات منهم لا يضع عنهم من الجزية شيئاً»، وإذا فتحت صلحاً فإن «موت من مات منهم لا يضع عنهم مما صالحوا عليه شيئاً».

على أن أبا يوسف يرى عدم جواز أخذ الجزية من ورثة من مات من أهل الذمة، أو حتى من تركته «لأن ذلك ليس بدين عليه».

ثانياً : جزية الرهبان: فقد فرض عمر بن عبد العزيز على كل راهب دينارين. وكانت أول جزية أخذت من الرهبان زمن عبد العزيز بن مروان الذي تولى مصر عام (٦٥٥هـ/٦٨٤م)، الذي أمر بإحصاء الرهبان وفرض جزية عليهم تقدر بدينار عن كل راهب .

.فزادت هذه القيمة في زمن عمر بن عبد العزيز الذي جعلها دينارين. وقد برر أبو عبيد لعمر بن عبد العزيز هذا التشريع أو القرار بقوله: «ولا أرى عمر فعل هذا إلا لعلمه بطاقتهم له، وأن أهل دينهم يتحملون

(١) وهو عراك بن مالك الغفاري المدني فقيه أهل نهمك (ونهمك جزيرة قريبة من أرض الحبشة من ناحية اليمن) عن أبي هريرة، وحفصة، وعائشة، وابن عمر وعنه مكحول، والحكم بن عتيبة وجعفر بن ربيعة ويحيى بن سعيد الأنصاري. قال أبو الحسن: كان يصوم الدهر. قال الواقدي: تولى بالمدينة في زمن زيد بن معاوية. وقال أبو حاتم وغيره: ثقة. ويقول ابن العماد: تولى بعد المائة .

ذلك لهم، كما أنهم يكفونهم جميع مؤناتهم». إلا أن هذا التشريع - على ما يبدو - قد ألغى زمن الخليفة المعتز (٢٥٢ - ٢٥٥ هـ/٨٦٦ - ٨٦٨ م) الذي أصدر قراراً «بأن من يرفض العالم ويسكن الجبال، لا يجب أن يلزم بخراج ولا جزية». وكان ذلك بعد الالتماس الذي قدمه أحد الرهبان للخليفة بهذا الشأن.

ويذكر البلوى أيضاً أن رهبان دير القصير اشتكوا لأحمد بن طولون من جزية الرهبان، ويبدو أن جزية الرهبان كانت قد ألغيت قبل ذلك، وذلك لقولهم: «فشكونا إليه (أى لأحمد بن طولون) يوماً، أمر ابن المدبر صاحب الخراج بمصر، وقلنا له: إنه يطالبنا بجزية رؤوسنا، وقد أسقطت عن أمثالنا على مر السنين».

وفى سنة (٣١٣ هـ/٩٢٥) ألزم الوزير على بن عيسى بن الجراح (١) الأساقفة والرهبان بأداء الجزية، مما دفعهم إلى الاستغاثة بالمقتدر بالله (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ/٩٠٧ - ٩٣٢ م) الذي كتب إلى مصر: «بأن لا يؤخذ من الأساقفة والرهبان والضعفاء جزية، وأن يُجروا على العهد الذي بأيديهم».

ثالثاً: إعفاء أهل الذمة من جزية من أسلم منهم: وكان الحجاج بن يوسف قد أخذ الجزية ممن أسلم من أهل الذمة، ولكن فى زمن عبد الملك

(١) هو على بن عيسى بن داود بن الجراح أبو الحسن البغدادي الحسني، وزير للمقتدر العباسي والقاهر، وأحد العلماء الروعاء من أهل بغداد، فارسي الأصل، ولد سنة ٢٤٤ هـ/٨٥٨ م ونشأ كاتباً لأبيه، وولى مكة واستقدمه المقتدر إلى بغداد سنة ٣٠٠ هـ/٩١٢ م، فولاه الوزارة، فأصلح الأحوال وأحسن الإدارة وحمدت سيرته، ثم عزله المقتدر سنة ٣٠٤ هـ/٩١٦ م وحبسه ونفاه إلى مكة سنة ٣١١ هـ/٩٢٣ م ومنها إلى صنعاء، وأذن له بالعودة إلى مكة سنة ٣١٢ هـ/٩٢٤ م فعاد، وولى فيها الإطلاع على أعمال مصر والشام فكان يتردد إليهما، وأعاده المقتدر إلى الوزارة فرجع إلى بغداد سنة ٣١٤ هـ ونقم عليه سنة ٣١٦ هـ/٩٢٨ م فعزله وقبض عليه. ثم جعل له النظر في الدواوين سنة ٣١٨ هـ/٩٣٠ م. وهكذا كانت حياته ملؤها الاضطراب. وقد عاش تسعين عاماً، ويقال إنه كان في الوزراء كعمر بن عبد العزيز في الخلفاء، وتوفي ببغداد عام ٣٣٤ هـ/٩٤٥ م ويقال توفي عام ٣٣٥ هـ/٩٤٦ م له كتب منها «ديوان رسائل»، و«معاني القرآن» أعانه عليه ابن مجاهد المقرئ، و«جامع الدعاء»، و«كتاب الكتاب وسياسة المملكة وسيرة الخلفاء».

بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ / ٦٨٤ - ٧٠٥ م) أرسل إلى أخيه عبد العزيز بن مروان وإلى مصر (٦٥ - ٨٦ هـ / ٦٨٤ - ٧٠٥ م) بوضع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة، وعندما حاول ابن حجيرة^(١) عدوله عن ذلك وقال له:

«أعيزك بالله أيها الأمير أن تكون أول من سن ذلك بمصر، فوالله إن أهل الذمة ليتحملون جزية من ترهب منهم، فكيف نضعها على من أسلم منهم؟»، ولكن يبدو أنه لم يخرج بقرار قاطع للحد من هذه المسألة، وذلك لقول المقرئ: «فتركهم عند ذلك». واستمر هذا الوضع حتى زمن عمر ابن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ / ٧١٧ - ٧١٩)، الذي أعفى أهل الذمة من جزية من أسلم منهم. فقد أرسل عمر بن عبد العزيز إلى حيان بن سريج عامله على مصر «أن تضع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة»، وقد استند عمر في دعواه على هذه الآية الكريمة التي تقول :

﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ^(٢)﴾. وقال تعالى : ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ^(٣)﴾.

ويبدو أن حيان بن سريج لم يقتنع بذلك فأرسل إلى عمر بن العزيز رسالة يوضح فيها مساوئ إسقاط الجزية عمن أسلم من أهل الذمة، لأن نقص حصيلة الجزية قد دفعه إلى الاقتراض لكي يدفع مرتبات أهل الديوان، وكانت رسالته على النحو الآتي: «أما بعد، فإن الإسلام قد أضر بالجزية، حتى سلفت من الحارث بن ثابتة عشرين ألف دينار، تمت بها عطاء أهل الديوان، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائها فعل!»

(١) وهو عبد الرحمن بن حجيرة الخولاني قاضي مصر، روى عن أبي نر وغيره، وكان عبد العزيز بن مروان يريزه في السنة ألف دينار فلا يدخرها، وقد تولى عام ٨٣ هـ .

(٢) سورة التوبة (آية رقم ٥) .

(٣) سورة التوبة (آية رقم ٢٩) .

نرى كيف أن المسألة - فى نظر بعض عمال الخراج - تحولت اقتصادية! وأن عامل تشجيع الأقباط على الدخول فى الإسلام قد مل زيادة حصيلة الجزية! وهو ما دفع عمر بن عبد العزيز إلى فى هذا الوضع قائلاً: «إن الله إنما بعث محمداً صلى الله عليه ولم يبعثه جايياً».

نرى الماوردى أن أبا حنيفة قد أفتى بإسقاط الجزية عن من أسلم من أهل الذمة (١).

تعرضنا لموضوع الخراج والجزية يجدر بنا الإشارة إلى أوجه لاتفاق بين كل منهما، فهما يجتمعان من ثلاثة أوجه، ويفترقان به - حسب تعبير الماوردى - فيقول: «أما الأوجه التى يجتمعان ها، أن كل واحد منهما مأخوذ من مشرك، صغراً له وذمة.

هما مال فى، يصرفان فى أهل الفى.

نهما يجبيان بحلول الحول ولا يستحقان قبله.

يم الجزية فى كتابه:

سقطت عنه الجزية سواء أسلم فى أثناء الحول أو بعده ولو اجتمعت عليه جزية سنين ثم نكلها: هذا قول فقهاء المدينة وفقهاء الرأى وفقهاء الحديث إلا الشافعى وأصحابه فإنه م بعد الحول لم تسقط لأنه دين استحقه صاحبه واستحق المطالبة به فى حالة الكفر، فلم سلام كالخراج وسائر الديون. وله - فيما إذا أسلم فى أثناء الحول - قولان: أحدهما أنها اتى أنها تؤخذ بقسطه. والصحيح الذى لا ينبغي القول بغيره سقوطها، وعليه تدل سنة ﷺ وسنة خلفائه، وذلك من محاسن الإسلام وترغيب الكفار فيه، وإذا كان رسول الله ﷺ ار على الإسلام حتى يسلموا يتألفهم بذلك، فكيف ينفر عن الدخول فى الإسلام من أجل هذا من ترك الأموال للدخول فى الإسلام؟ قال سفيان الثورى عن قابوس بن أبى ظبيان ، قال رسول الله ﷺ: (ليس على مسلم جزية). قال أبو عبيد: تأويل هذا لو أن رجلاً أسلم فى آخر السنة وقد وجبت الجزية عليه، أن إسلامه عنه فلا تؤخذ منه، وإن كانت قد لزمته قبل ذلك، لأن المسلم لا يؤدى الجزية عليه ديناً. وقد روى عن عمر وعلى وعمر بن عبد العزيز ما يحقق هذا المعنى: الرحمن عن حماد بن سلمة بن عبيد الله بن رواحه قال: كنت مع مسروق ، فحدثنى أن رجلاً من الشعوب - يعنى الأعاجم - أسلم، وكانت تؤخذ منه أتى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين، أسلمت والجزية ن. فقال: لعلك أسلمت مستعزداً، فقال: أما فى الإسلام ما يعيذنى؟ قال: لا تؤخذ منه الجزية.

أما الأوجه التي يفترقان فيها: فأحدهما، أن الجزية نص، وأن الخراج اجتهاد. والثاني، أن أقل الجزية مقدر بالشرع ، وأكثرها مقدر بالاجتهاد ، والخراج أقله وأكثره مقدر بالاجتهاد . والثالث، أن الجزية تؤخذ مع بقاء الكفر، وتسقط بحدوث الإسلام، والخراج يؤخذ مع الكفر والإسلام .»

خلط المصادر العربية بين معنى كل من الخراج والجزية :

على أننا نفاجأ بأن ابن عبد الحكم - ومن نقل عنه مثل السيوطي - يخلط بين معنى الخراج والجزية، فيكتب الجزية أحياناً بمعنى الخراج، ويكتب الخراج بمعنى الجزية . وعلى سبيل المثال يذكر أن رجلاً أسلم على عهد عمر بن الخطاب، فقال: «ضعوا الجزية عن أرضي». رغم أن الجزية لا تكون على الأرض وإنما الخراج! كذلك يذكر في موضع آخر أنه لما ولي ابن رفاعه مصر، خرج ليحصى عدد أهلها، وينظر في تعديل الخراج عليهم. «فأحصوا من القرى أكثر من عشرة آلاف قرية، فلم يُحصَ فيها في أصغر قرية منها أقل من خمسمائة جمجمة من الرجال الذين يفرض عليهم الجزية». ونلاحظ أنه في بداية كلامه ذكر كلمة الخراج، في حين أنه في سياق الكلام الذي أورده يشير إلى الجزية، إذ يتحدث عن إحصاء الجماجم من الرجال في كل قرية الذين يفرض عليهم الجزية!

ويقول ابن عبد الحكم أيضاً: «كان لعبد الله بن سعد موالى نصارى، فأعتقهم، فكان عليهم الخراج». وهويقصد بالخراج هنا الجزية، وذلك لارتباط الحرية بالجزية، فقد ذكرت أننا كيف أن الجزية لا تكون إلا على الحر وليس على العبد، فإعتاق العبد معناه إعطاؤه حريته التي يلزم بها إعفاؤه من الجزية.

كذلك يورد ابن عبد الحكم مصطلح «الخراج» بمعنى يشمل كلا من الجزية والخراج. فيقول: إن عمرو بن العاص عندما تم له الأمر في مصر «أحصى أهلها وفرض عليهم الخراج، فكانت مصر كلها صلحا بفريضة دينارين دينارين على كل رجل، لا يُزاد على أحد منهم في جزية رأسه أكثر

من دينارين، إلا أنه يلزم بقدر ما يتوسع فيه من الأرض والزرع». فنراه هنا استخدم مصطلح الخراج فى معنى الجزية، لأن فرض الخراج لا يحتاج إلى إحصاء السكان، فهو على الأرض، ونراه استخدم مصطلح الخراج بمعنى كُلاً من الجزية التى على الرؤوس والخراج الذى على الأرض والزرع.

المقصود بمصطلح خراج مصر

يتساءل «بتلر» عما يعنيه المؤرخون المسلمون من «إرسال خراج مصر» إلى الخلافة: أيقصدون كل ما يُجبى من أموالها؟ أم يقصدون الجزية وحدها، أم الخراج وحده؟ وكان من رأيه أنهم إنما يقصدون الخراج وليس الجزية، غير أنه عندما أراد أن يدلل على رأيه هذا، انتهى إلى أن المقصود الجزية! فهو يقول: «فقد جاء عنهم أن عدد من فرضك عليهم الجزية دينارين، ستة آلاف ألف نفس، وجاء بعد ذلك أن مقدار المال الذى جبى من مصر كان اثنتى عشر ألف دينار، ويقول مؤرخو المسلمين إن هذا المال أقل مما كان يجبيه المقوقس ومقداره عشرون ألف ألف دينار. فإذا صح لنا أن نصدق هذه الأعداد ونثق فى أنها قُدرت على أساس واحد فى الحالين، وأنها تصلح لأن تكون أساساً للمقارنة، كان لابد أن نتخذها دليلاً على أن حكم العرب كان بركة على المصريين خفف عنهم وطأة الضرائب. على أن الأمر كان على غير ذلك، إذ أن المال الذى يذكره العرب لا يقصد منه إلا مال الجزية، فى حين أن ما يُذكر عن أموال الروم لا يقصد به فى أغلب الظن الجزية وحدها، إذ أن الروم كانوا يجبون من مصر جزية على النفوس وضرائب أخرى كثيرة العدد».

ونرجح أن مصطلح «خراج مصر» كان المقصود به الجزية والخراج معاً، فلو كانت جزية مصر وحدها قد قدرت باثنتى عشر ألف ألف دينار فى ولاية عمرو بن العاص، وضرائب الروم كلها قدرت فى عهد المقوقس بعشرين ألف ألف دينار، فليس هناك معنى إذن لقول عمر بن الخطاب لعمر بن العاص فى رسالته الأولى التى أرسلها إليه: «وأعجب مما عجبت أنها لا

١٣٧

تؤدى نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك! ثم قوله: «لست قابلاً منك دون الذى كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك!» مما دفع عمرو بن العاص إلى الرد عليه بقوله: «ولعمري للخراج يومئذ أوفر وأكثر، والأرض أعمر، لأنهم كانوا على كفرهم وعتوهم، أرغب فى عمارة أرضهم منا مذ كان الإسلام». مما يدل على أن قيمة الاثنى عشر ألف ألف دينار هى قيمة الضرائب المفروضة كلها فى ذلك الوقت والتى تشمل الخراج والجزية، لذلك قارن بينهما وبين جباية الروم، وبالتالي، وفى ضوء ما سبق، لا نستطيع أن نثق فى مقولة ابن حوقل والمقرئى: «وهذا الذى جباه عمرو ثم عبد الله إنما هو من الجماجم خاصة دون الخراج».

وعلى كل حال، ففى رأى الدكتور محمد ضياء الدين الرئيس أن كلمة «الخراج» كانت ذات معنى عام ومعنى خاص. فالمعنى العام: وهى أنها تعنى الاموال العامة أو إيراد الدولة، أما المعنى الخاص: فحين يراد بها ضريبة الأرض.

ويقول الحافظ بن رجب نقلاً عن الأزهري^(١) فى معنى الخراج، إنه : اسم لما يخرج من الفرائض فى الاموال، يقع على الضريبة (أى ضريبة الأرض وهى خراج الأرض)، وعلى مال الفئ، ويقع على الجزية، وعلى الغلة».

قيمة خراج مصر :

لقد حقق الدكتور محمد ضياء الدين الرئيس قيمة خراج مصر - فى كتابه - تحقيقاً وافياً يستحق أن نعرضه هنا. فقد لاحظ أن المصادر العربية قد اختلفت فى تقدير قيمة خراج مصر الذى جُبى فى ولاية عمرو بن العاص، فهناك بعض المصادر التى ذكرت أن قيمة خراج مصر بعد الفتح العربى كان يقدر بأثنى عشر ألف ألف دينار، وأن عبد الله بن سعد بن أبى سرح قد

(١) الأزهري: هو محمد بن أحمد الأزهري بن طلحة، صاحب كتاب (تهذيب اللغات)، ولد عام ٢٨٢ هـ وتوفى

عام ٣٧٠ هـ .

جباها فى ولايته على مصر من قبل الخليفة عثمان بن عفان - أربعة عشر ألف ألف دينار، وأن هناك بعض المصادر الأخرى التى ذكرت أن قيمة خراج مصر فى ولاية عمرو بن العاص قد قُدرت بألفى ألف دينار، وأن عبد الله بن سعد بن أبى سرح قد جباها أربعة آلاف ألف.

وقد رأى الدكتور محمد ضياء الدين الرئيس أن التقدير الثانى هو الأصوب وذلك للحقائق الآتية:

أولاً : أن البلاذرى وقُدّامة كلاهما متقدم عن المقرئى، والأول حجة فى الفتوح، والثانى فى الخراج.

ثانياً : أن المقرئى نفسه نصّ على أن الذى جباه عمرو ثم عبد الله، «إنما هو من الجماجم خاصة دون الخراج» - أى كانت على الرؤوس فقط، وما دام أن الجزية بالاتفاق هى ديناران على كل رجل دون النساء والصبيان والشيوخ، فيكون معنى ذلك أن عدد الرجال الذين أدوا الجزية ستة ملايين، فإذا اعتبرنا الرجال المفروض عليهم الجزية ثلث أو ربع أو خمس عدد السكان، كان عدد السكان الكلى: ١٨ أو ٢٤ أو ٣٠ مليوناً على الترتيب، وهذا غير معقول بالمرّة، وقد قرر مؤرخو مصر البيزنطية أن عدد سكانها كان فقط ٧ ملايين بالإضافة إلى ثلاثمائة ألف فى الاسكندرية، ويرجح الدكتور محمد ضياء الدين الرئيس أن هذا العدد قد نقص فى عهد الخلفاء، وخاصة بعد جلاء الروم.

ثالثاً : وبالنسبة لقيمة خراج مصر قبل الفتح العربى، وما ذكر من أن المقوقس قد جباها عشرين ألف ألف دينار، فهذا أيضاً غير قابل للتصديق، إذ تدل أبحاث مؤرخى مصر البيزنطية أن الضرائب كان «يدفع أكثرها عيناً. ويشكّون فى أن تبلغ ضريبة الرأس هذا المقدار نقداً. وبالتالي وكما يقول الدكتور محمد ضياء الدين الرئيس فإن كل هذه الأرقام التى أوردها المقرئى خيالية، وقد يكون منشأ هذا تحريف الناسخ أو غير ذلك.

رابعاً : أن هناك إجماعاً فى الآراء على أن خراج مصر، فى العهدين الأموى والعباسى، كان فى المتوسط لا يزيد على أربعة ملايين دينار، وأنه استمر حافظاً هذه النسبة فيما تلا من عصور. أى أن الخراج ، إذا قبلنا التقدير الأول، يكون قد هبط فجأة، فبعد أن كان أربعة عشر مليوناً نزل إلى أربعة أو نحوها! ويعلل المقرئى ذلك بأنه بسبب خراب الأرض وفساد الزمان ما بين عهد عثمان ومعاوية، على أن الذى يدل عليه التاريخ هو العكس - كما يذكر الدكتور محمد ضياء الدين الرئيس - فإن بنى أمية كانوا أكثر عناية بتعهد مصادر الإنتاج وبجباية الخراج.

خامساً: أن قيمة الخراج فى عهد عمر قد قدر بحوالى مائة أو مائة وعشرين ألف ألف درهم، ولم يزد على ذلك كثيراً فى العهود التالية، فلو أن مصر جزيتها فقط كانت اثنى عشر ألف ألف دينار، لكان هذا معناه أن هذا الخراج يساوى - باعتبار أن الديار عشرة دراهم - مائة وعشرين ألف ألف درهم. . . وبذلك يكون مساوياً لخراج العراق، مع أن مساحة الأرض الزراعية فى العراق كانت أكبر، إذ كانت لا تقل عن عشرة ملايين من الأفدنة، هذا إلى جانب اشتهاها بالجودة والخصوبة.

سادساً : أن أبا يوسف وغيره من المؤرخين قد أثبتوا أن عدد من ضربت عليهم الجزية فى العراق لم يزيدوا على خمسمائة ألف وخمسين ألفاً، فكيف يُعقل أن يكون عدد من فرضت عليهم الجزية فى مصر ثمانية أو ستة ملايين؟ أى يكون سكان مصر البيزنطية أكثر من سكان العراق الكسرى باثنى عشر أو أربعة عشر ضعفاً!

وأخيراً يرى الدكتور محمد ضياء الدين الرئيس أنه فى ضوء هذه الحقائق والأدلة، فإن تقدير البلاذرى وقدامة هو الصحيح، وبالنسبة للتقدير الآخر، فريما كانت كلمة «عشر» قد زيدت فى الرواية، أو حدث خطأ أو تحريف.

فالجزية التي جبيت في عهد عمر كانت تقدر بألفي ألف دينار فقط، ثم في عهد عثمان صارت أربعة آلاف ألف فقط، ويكون من نتائج ذلك أن نحكم بأن الخراج قد ارتفع في عهد بني أمية عما كان في عهد الخلفاء لا نقص، ويكون عدد السكان ما بين أربعة وسبعة ملايين، منهم حوالى مليون أو مليونين من الرجال، أما مساحة الأرض الزراعية في مصر فقد قدرها مؤرخو مصر البيزنطية بحوالى ثلاثة ملايين من الأفدنة فقط، وهو رقم قابل للتصديق.

طريقة إرسال الخراج إلى الخليفة :

أما بالنسبة لطريقة إرسال الخراج إلى الخليفة، فتبين لنا المصادر العربية أن هناك من الأمراء من كان يتولى بنفسه إرسال الخراج إلى الخليفة، ومنهم من كان ينيب عنه غيره.

فمثلاً: في ولاية عمرو بن العاص على مصر (٢٠ هـ / ٦٤١م) نجد أنه كان ينيب عنه غيره في إرسال الخراج إلى الخليفة. وفي ذلك يقول ابن عبد الحكم: إن عمرو بن العاص أرسل الخراج إلى الخليفة مرتين، المرة الأولى كان ينيب عنه زكريا بن جهم العبدي. والمرة الثانية كان ينيب عنه ابنه عبد الله بن عمرو.

إلا أننا نجد أن الليث بن فضل الذي تولى مصر (١٨٢ هـ / ٧٩٨م) كان يسافر بنفسه إلى الخليفة الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ / ٧٨٦ - ٨٠٨م) في كل عام، حاملاً مال الخراج معه وفي ذلك يقول المقرئ: «فكان (أى الليث) كلما أغلق خراج سنة وفرغ من حسابها، خرج بالمال إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد ومعه الحساب».

وكان إرسال الخراج إلى عاصمة الخلافة يتم بعد حبس نصيب مصر المقدر لها، والذي كان يطلق عليه اسم «فريضة»، وقد قدرت فريضة مصر في ولاية عمرو بن العاص بحوالى ١٢٠ ألف دينار، وذلك لاستخدامها في الخدمات العامة مثل: حفر الخللجان، وإقامة الجسور، وبناء القناطر. وكان المساحون يقومون بكشف دورى على هذه الخدمات.

ويذكر محمد كامل مرسى «أن الإدارات كانت تقوم بتوزيع فئ الخراج بين الأمراء والتابعين والجند وفقاً لرتبتهم، ومقدار ما تخولهم مناصبهم من الحقوق، ويُدفع ما بقي إلى الخزانة».

ويجدر بنا في النهاية أن نشير إلى ما أورده الجهشيارى في كتابه من مماثلة أهل مصر في دفع الخراج. ويبدو أن هذه المماثلة كان الولاية قد اعتادوا عليها، مما دفع عمر بن مهران عندما تولى مصر (١٧٦ هـ/ ٧٩٢م) أن يكتب على كل هدية أرسلها له أهل مصر اسم صاحبها، حتى إذا جاء الموعد الثالث لتسديد الخراج المفروض - وكان الخراج كما ذكرت سابقاً يدفع على ثلاث أقساط في السنة - ولم يدفعوا الخراج كالمعتاد. أخرج هذه الهدايا وباعها وأخذ من ثمنها الخراج، ثم نظر فيما بقي، فطالب به الأهالي، الذين أسرعوا إلى تكملة ما بقي من أموال الخراج. وكان عدم قدرة الأهالي على دفع قيمة الخراج المطلوب هو السبب في هذه المماثلة.

الفصل الثالث :

الأرض والفلاح - طبقة الصناع - طبقة التجار

الأرض والفلاح :

- طبقة الفلاحين .
- الوظائف الإدارية الخاصة بالزراعة .
- الاهتمام ببناء مقاييس للنيل .
- الاهتمام بالإصلاحات الزراعية .
- مساحة الأراضي الزراعية .
- أهم المحصولات الزراعية .

طبقة الصناع :

- طبقة الصناع .
- نظام النقابات .
- أنواع الصناعات :
- صناعة المنسوجات وأهم مراكزها
- صناعة الورق
- صناعة الزجاج
- صناعة الخشب
- صناعة الجلود

-
- صناعة الحصر
 - المعاصر وصناعة السكر والزيت
 - صناعة الخزف
 - صناعة الفخار
 - صناعة الصابون
 - صناعة الشمع
 - صناعة حضانة الفرايج
 - صناعة المعادن
 - صناعات مختلفة

● طبقة التجار :

- طبقة التجار .
- الاسواق .
- نظام المعاملات المالية .
- ازمات الغلاء بمصر .
- حفر خليج امير المؤمنين .
- النشاط التجارى الخارجى .
- طرق التجارة .
- اهم موانئ مصر .
- الضرائب على التجارة .
- مقاييس التجارة او الاوزان .

الفصل الثالث

أولاً: الأرض والفلاح

الأرض في مصر تعد الأداة الرئيسية للإنتاج ، وعليها يعتمد المصريون في معاشهم . وتشير المصادر العربية إلى أن مصر كان يطلق عليها في كتب القدماء «أم البلاد» وأنها كانت مصورة في كتب الأوائل ، وسائر المدن وهي تمد أيديها إليها لا طعامها ، ويرى الحميري أن السبب في ذلك أنها كانت «أكثر بلاد الله زرعاً» .

وحين جاء العرب لفتح مصر كانوا يعلمون بثرواتها وخيراتها ، وفي ذلك نشير إلى الحوار الذي دار بين الخليفة المأمون الذي كان في زيارة إلى مصر عام (٢١٧ هـ / ٨٣٢ م) وسعيد بن عفير ، لكي ندرك نظرة العرب لمصر بعد مرور حوالي قرنين من فتح العرب لها ، يقول السيوطي :

حكى أن المأمون لما دخل مصر ، قال : قبح الله فرعون إذ قال : (أَلَيْسَ لِي مَلِكٌ مِصْرَ) (١) فلو رأى العراق ! فقال له سعيد بن عفير : لا تقل هذا يا

(١) سورة الزخرف آية (٥١) .

أمير الموء منين فان الله تعالى قال : (وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ) (١) ، فما ظنك بشيء دمره الله هذه بقيته ؟ فقال : ما قصرت ياسعيد . فقال سعيد : ثم قلت : يا أمير الموء منين ، لقد بلغنا أنه لم تكن أرض أعظم من مصر ، وجميع الأرض يحتاجون إليها ، وكانت الأنهار بقناطر وجسور بتقدير ، حتى إن الماء يجرى تحت منازلهم وأفنياتهم يحبسونه متى شاء وا ، ويرسلونه متى شاء وا ، وكانت البساتين بحافتي النيل من أوله الى آخره مابين أسوان الى رشيد لا تنقطع ، ولقد كانت المرأة تخرج حاسرة لا تحتاج الى خمار لكثرة الشجر ، ولقد كانت المرأة تضع المِثْل على رأسها فيمتلىء مما يسقط فيه من الشجر» .

طبقة الفلاحين :

نقصد بطبقة الفلاحين هنا ، طبقة العمال الزراعيين والمستأجرين ، وكانت هذه الطبقة عند الفتح العربى من الأقباط ، وظلت كذلك بعد الفتح ، والسبب فى ذلك أن العربى ساكن الجزيرة العربية لم يكن يشتغل بالفلاحة وذلك للطبيعة الصحراوية التى عاش فيها بالمقارنة بمصر الزراعية . وكذلك ظل الأقباط هم المشتغلون بالزراعة دون غيرهم ، خاصة مع تحريم عمر بن الخطاب العمل بالزراعة على الجند فى مصر .

وهكذا ظل الأقباط حوالى قرن من الزمان هم المشتغلون وحدهم بالزراعة حتى جاءت قبيلة قيس إلى مصر عام ١٠٩ هـ / ٧٢٧ م ونزلت بلبيس (الحواف الشرقى) ، وكان مجيئها مشروطاً بعملها بالزراعة ، وهنا ظهر عنصر بشرى آخر إلى جانب الأقباط وهم العرب . وبعد مرور حوالى قرن آخر على مجيء قبيلة قيس أسقط المعتصم العرب من الديوان ، فلم يكن أمامهم سوى الاشتغال بالحرف المختلفة التى كان من ضمنها الزراعة .

(١) سورة الاعراف آية رقم (١٣٧) .

وعلى هذا النحو وبعد مرور قرنين من الزمان من فتح العرب لمصر ، كانت طبقة الفلاحين تتكون من عنصرين هما : المصريون والعرب .

ولم يكن يطلق على من يزرع الأرض فى مصر بعد الفتح العربى اسم فلاح ، وانما كان يطلق عليه اسم «نبطى» ، وتذكر الدكتورة سيدة كاشف أن لفظ «نبطى» لم يكن معروفا فى مصر، وانما هو لفظ مستورد من العراق وشرق العالم الاسلامى ، اذ كان يُعرف الفلاحون فى العراق باسم أنباط ونبط .

وكان العمال الزراعيون فى مصر يعملون إما بأجر سنوى أو يومية أو موسمى . ووفقا لكشوفات بردية من القرنين الثالث والرابع الهجريين عثر عليها فى الأشمونين فى صعيد مصر - تتضمن قيمة ما قبضه كل مزارع ، نجد أن أجرة الفلاح كانت تتراوح بين دينار أو اثنين ، أو أقل من دينار أو أكثر . ولكن هذه القوائم والكشوفات لا توضح ما اذا كان هذا الأجر عن العمل السنوى ، أو عن الزراعة الصيفية ، أو عن الزراعة الشتوية ، فقد كانت جداول الأجور عبارة عن أسماء أشخاص ويجانب كل اسم قيمة ما أخذه .

وبالنسبة لمستأجرى الأراضى الزراعية فقد كان هناك شرط جزائى فى العقود يلزمهم بدفع الخراج عن الأرض فى حالة بوارها ، وكان نصه «وما بورت فعليك خراجه» . وقد دفع هذا الشرط المستأجرين الى العناية بالأراضى حتى لا يدفعوا خراجاً على أرض بور . وقد كان السبب الذى دعا الموءجرين الى أن ينصوا هذا الشرط فى عقود الايجار - كما ترى الدكتورة سيدة كاشف - هو حرص الحكومة على زراعة الأرض ، وعدم إعفاء الأرض البور من الخراج . كذلك أوردت عقود الايجار اشتراط زراعة محصول معين .

وكان ايجار الأرض يدفع نقدا أو نقدا وعينا ، ولكننا لم نعثر للآن على أوراق بردية تدلنا على أن الايجار كان يدفع عينا فقط .

وكان إيجارفدان القمح يتراوح فى ذلك العهد الذى نتحدث عنه بين دينار ودينارين ، وأحيانا يزيد على الدينارين أو ينقص عن الدينار ، ليكون الإيجار $\frac{1}{3}$ دينار أو $\frac{1}{4}$ دينار .

وقد كانت العادة أن يدفع الشخص ما عليه إلى الجسطل (١) أو الجهيز (٢) ، ويذكر اسمه وفى حضرة شهود ينص على أسمائهم . وفى بعض الإيصالات لا ينص على وجود شهود . ولدينا براءة كتبت فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) وكتب فيها «شهد الله وملائكته وكفى بالله شهيداً» .

ونجد فى الأوراق البريدية أسماء لوظائف إدارية تعلقت بالزراعة والإشراف على الأرض الزراعية ، بعضها لا يزال معروفاً للآن والبعض بطل استخدامه ، فمثلاً نقرأ عن الكاتب والخولى والوكيل ، وعن وظيفة متقبل البقط وعامل البقط . أما وظيفة متقبل البقط وعامل البقط نجدتها فى الأوراق البريدية التى ترجع إلى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) فمعناها العامل الذى يجمع إيجار الأراضى الزراعية أو خراجها ولعل البقط هنا مشتق من بقط الأرض أى ما يخرج منها .

كان النيل هو عمارة مصر فى الزراعة ، وصح قول السيوطى إن «خراب مصر من جفاف النيل» . لذلك فقد بالغ المؤرخون القدماء فى وصف نيل مصر وذكر الأحاديث التى قيلت عنه . فقد روى يزيد بن أبى حبيب أن معاوية بن أبى سفيان سأل كعب الأحبار : هل تجد لهذا النيل فى كتاب الله خبراً ؟ قال : أى والذى فلق البحر لموسى عليه السلام ، إنى لأجده فى كتاب الله عزوجل ، أن الله يوحى إليه فى كل عام مرتين : يوحى إليه عند جريه : «إن الله يأمرك أن تجرى ، فيجرى ما كتب الله له .» ثم يوحى إليه بعد ذلك : «يانيل عد حميداً» .

(١) الجسطل أو القسطل هو الموظف المختص برئاسة فروع ديوان الخراج بالأقاليم حسب ما جاء فى أوراق البريد العربية .

(٢) الجهيز : بكسر الجيم وسكون الهاء وكسر الباء . كاتب يرسم استخراج المال وقبضه ، ويقوم بعمل المخازن والختمات وتوابعها ، ويطلب بما يقتضيه تخريج ما يرفعه من الحساب اللازم له لا الحاصل .

وعن يزيد بن حبيب أيضا عن كعب الأحبار أنه كان يقول : أربعة أنهار من الجنة وضعها الله في الدنيا ، فالتيل نهر العسل في الجنة ، والفرات نهر الخمر في الجنة ، وسيحان (١) نهر الماء في الجنة ، وجيحان (٢) نهر اللبن في الجنة .

كما روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : نيل مصر سيد الأنهار ، سخر الله له كل نهر من المشرق إلى المغرب ، فإذا أراد الله تعالى أن يجري نيل مصر ، أمر الله كل نهر أن يمدّه ، فأمدته الأنهار بمائها ، وفجر الله له الأرض عيونا ، فإذا انتهت جريته إلى ما أراد الله عز وجل ، أوحى الله إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره .

ومن هنا كان من الطبيعي أن يهتم العرب عقب فتحهم لمصر مباشرة ببناء مقاييس للنيل لمعرفة مقدار الزيادة والنقصان في مياهه ، وليكون المقياس معيارا صادقا للزراعة والرى ، وبالتالي للضرائب كل عام . فيقول المقرئ : إنه لما فتحت مصر عرف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ما يلقي أهلها من الغلاء عند وقوف النيل عن حده في مقياس لهم ، فضلا عن تقاصره ، وإن فرط الاستشعار يدعوهم إلى الإحتكار ، وإن الإحتكار يدعو إلى تصاعد الأسعار بغير قحط . فكتب عمر إلى عمرو بن العاص يسأله عن شرح الحال ، فأجابته : «إني وجدت ما تروى به مصر حتى لا يقحط أهلها أربعة عشر ذراعا ، والحد الذي يروى منه سائرها ، حتى يفضل عن حاجتهم ويبقى عندهم قوت سنة أخرى ستة عشر ذراعا ، والنهائيتان المخوفتان في الزيادة والنقصان وهما الظمأ والاستبحار، اثنتا عشر ذراعا في النقصان، وثمانى عشرة ذراعا في الزيادة. هذا والبلد في ذلك محفور

(١) سيحان : بفتح أوله ، وسكون ثانيه ، ثم حاء مهملة ، وآخره نون . وهو نهر كبير بالثغر من نواحي المصيصة ، وهو نهر أذنة بين انطاكية والروم ، يمر بالثغر ، ثم ينفصل عنها نحو ستة أميال فيصب في بحر الروم .

(٢) جيحان : بالفتح ثم السكون ، والحاء مهملة ، والفاء ونون . نهر بالمصيصة بالثغر الشامى ومخرجه من بلاد الروم ، ويمر حتى يصب بمدينة تعرف بكثرة بيا بلزاء المصيصة ، وعليه عند المصيصة قنطرة من حجارة رومية عجيبة عريضة ، فيدخل منها إلى المصيصة ، وينفذ منها أربعة أميال ثم يصب في بحر الشام .

الأنهار ، معقود الجسور ، عندما تسلموه من القبط ، خمير العمارة فيه .
«فاستشار عمر بن الخطاب على بن أبى طالب فى ذلك . فأمره أن يكتب إليه
بأن يبنى مقياسا .

ولم يكن العرب هم أول من بنوا المقاييس فى مصر ، فعندما دخلوها
وجدوا بها عددا من المقاييس ، إذ كان هناك مقياس بأنصنا ^(١) ، ومقياس
بمنف ^(٢) ، ومقياس بقصر الشمع ^(٣) . وبعد فتح مصر بنى عمرو بن العاص
مقياسا بدندرة ^(٤) ، وفى أيام معاوية بن أبى سفيان (٤٠ - ٦٠ هـ / ٦٦٠ -
٦٧٩ م) بنى مقياسا آخر بأنصنا ، ثم بنى عبد العزيز بن مروان مقياسا
بحلوان . وفى خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ / ٦٨٤ - ٧٠٥ م)
بنى أسامة بن زيد مقياسا بالجزيرة . ثم كتب أسامة إلى سليمان بن عبد
الملك بن مروان لما ولى الخلافة (٩٦ - ٩٩ هـ / ٧١٤ - ٧١٧ م) ببطلان هذا
المقياس المذكور ، وأن المصلحة تقتضى بناء مقياس آخر ، فكتب إليه سليمان
ببناء مقياس فى الجزيرة ، أى الروضة ، فبناه أسامة فى عام ٩٧ هـ /
٧١٥ م . ثم بنى المؤمنون مقياسا بالبشرودات ^(٥) . ولما كان أيام الخليفة جعفر

(١) أنصنا : بالفتح ثم السكون ، وكسر الصاد المهملة والنون مقصور . مدينة أزلية من نواحي الصعيد
على شرقى النيل . وقد ظل اسمها يطلق على زمامها لغاية أوائل القرن الثالث عشر الهجرى ، وبسبب
خراب مساكن هذه البلدة قيد زمامها فى سنة ١٢٢٠ هـ باسم الشيخ عبادة وهى نزلة من توابع ناحية
أنصنا المذكورة ، وبذلك اختفى اسم أنصنا من عداد النواحي المصرية ، ومكانها اليوم الاطلال الواقعة
فى حوض مدينة النضلة (المحرقة عن أنصنا) رقم ١١ بأراضى ناحية الشيخ عبادة الواقعة شرقى
النيل بمركز ملوى بمدينة أسيوط .

(٢) منف . بالفتح ثم السكون ، وفاء . اسم مدينة فرعون بمصر ، وهى أول مدينة عمرت بعد الطوفان .
بينها وبين القسطنطينية ثلاثة فراسخ ، وبينها وبين عين شمس ستة فراسخ ، وذكر بعضهم أن من مصر
لنصف ثلاثين ميلا .

(٣) قصر الشمع وهو حصن بابليون وأنظر عن موقعه فى الفصل الأول .

(٤) بدندرة : يفتح أوله ، وسكون ثانيه ، ودال أخرى مفتوحة . مدينة على غربى النيل من نواحي الصعيد .
ومدينة بدندرة القديمة كانت واقعة بجوار الجبل الغربى ، وقد خربت ولم يبق منها إلا أطلالها ، ومعبد
«هاتور» . وأما بدندرة الحالية ، فقد أنشأها العرب على النيل ، فى شاطئه الغربى ، غربية مدينة قنا ،
وهى أقرب محطة لبندرة ، وبينهما النيل .

(٥) ويبدو أن المقصود بالبشرودات «البشرود» : بالتحريك ، وضم الراء ، وسكون الواو والدال مهملة . وهى
كورة من كور بطن الريف بمصر ، من كور أسفل الأرض . ويقول محمد رمزى فى قاموسه : إنها كانت
واقعة فى أراضى ناحية سيدى غازى (الكلر الغربى سابقا) بمركز كفر الشيخ بمديرية الغربية ، ويدل
عليها حوض البشرود رقم ١١ المحرق عن البشرود بأراضى الناحية المذكورة .

المتوكل على الله (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ / ٨٤٦ - ٨٦١ م)، أرسل إلى يزيد بن عبد الله وإلى مصر (٢٤٢ - ٢٥٣ هـ / ٨٥٦ - ٨٦٧ م) يأمره ببطلان سائر المقاييس التي كانت بمصر ، وبناء مقياس فى الروضة ، وكان ذلك فى عام ٢٤٧ هـ / ٨٦١ م ، وجعل العمل على هذا المقياس ، وسماه المقياس الجديد ، وقد تولى بناءه مهندس من العراق هو محمد بن كثير الفرغانى - أو أحمد بن كثير الفرغانى كما يذكر ابن الداية .

ويقول أبو المحاسن : وهذا المقياس هو المعهود الآن ، ويطل بعمارته كل مقياس كان قد بنى قبله من الوجه القبلى والبحرى بأعمال الديار المصرية ، ولما ولى الأمير أبو العباس أحمد بن طولون الديار المصرية أمره بإصلاحه وقدرله ألف دينار . ويقول أبو المحاسن : إن هذا المقياس قد «بنى بعد تعب زائد وكلفة واضحة يطول شرحها» ، ويرى أن النظر إلى بنائه «ما يغنى عن ذكر مصروف عمارته» .

وتصف المصادر العربية المقياس الجديد بأنه كان عبارة عن فسقية مربعة ، يدخل إليها الماء من أسرية بين الحيطان ، وفى وسطها عمود من رخام أبيض ، طوله نحو عشرين ذراعاً ، وله قاعدتان سفلية وعلوية ، وقد قسم هذا العمود على أذرع بها أصابع مخطوطة كالقراريط ، ومساحة الذراع إلى أن يبلغ اثنتى عشر ذراعاً ، ثمانية وعشرون أصبعا ، ومن اثنتى عشر ذراعاً إلى ما فوق ذلك ، يصير الذراع أربعة وعشرين أصبعا . فإذا كان أوان زيادة النيل ، يدخل الماء الجديد على الماء القديم الذى فى الفسقية ، فتارة تكون القاعدة عالية من الماء القديم ، وتارة تكون واطية من قلة الماء ، وأقل ما يكون فى قاع المقياس من الماء القديم ثلاثة أذرع ، وفى تلك السنة يكون النيل شحيحاً . وقد قيل إن أكثر ما وجد فى قاع المقياس من الماء القديم تسعة أذرع واحد وعشرون أصبعا ، وكان ذلك عام ٩٧ هـ / ٧١٥ م ، وأقل ما وجد فى قاع المقياس من الماء القديم ، ذراع واحد وعشرون أصبعا ، وذلك فى عام ١٩٩ هـ / ٨١٤ م ، فبلغ النيل تلك السنة اثنتى عشر ذراعاً وتسعة عشر أصبعا ، ثم انهبط .

ويقول المسعودى : إن الأثرع التى كان يستسقى عليها بمصر هى ذراعان تسميان : منكر وككير ، وهى الذراع الثالث عشر ، والذراع الرابع عشر ، فإذا انصرف الماء عن هاتين الذراعين وزيادة نصف ذراع من الخامس عشر ، استسقى الناس بمصر ، وكان الضرر شاملا لكل البلدان إلى أن يأتى الله عز وجل فى زيادة الماء ، وإذا تم خمسة عشر ودخل فى ستة عشر ذراعا كان فيه صلاح لبعض الناس ، ولا يستسقى فيه ، وكان ذلك نقصا من خراج السلطان ، وإذا انتهت الزيادة إلى ستة عشر ذراعا ، ففيه تمام الخراج وخصب الأرض ، وفيه ظمأ ربع البلد ، وهو ضار للبهائم لعدم الرعى والكلأ . وأتم الزيادات كلها العامة النافعة للبلد كله سبعة عشر ذراعا وفى ذلك كفايتها ، ورى جميع أراضيها ، وإذا زاد على السبعة عشروبلغ ثمانية عشر ذراعا استبحر من أرض مصر الربع وفى ذلك ضرر لبعض الضياع ، وإن كانت الزيادة ثمانية عشر ذراعا كانت العاقبة فى انصرافه حدوث ويا بمصر . وأكثر الزيادات ثمانية عشر ذراعا ، وقد كان النيل بلغ فى زيادته تسعة عشر ذراعا وذلك فى عام ٩٩ هـ / ٧١٧ م فى خلافة عمر بن عبد العزيز .

ويقول الكندى : إذا تم الماء ستة عشر ذراعا فقد وجب الخراج ، فإذا زاد عن ذلك ذراعا واحدا زاد فى الخراج مائة ألف دينار لما يروى من الأعلى ، فإذا زاد بعد ذلك ذراعا أخرى نقص مائة ألف دينار بسبب الفيضان ، ويعلق ابن ممتى على ذلك بقوله : «ولا يبعد أن يكون ذلك فيما تقدم من السنين عند بلوغ العمارة إلى حد اعتبر به هذا القدر» .

وعن ميعاد القياس تذكر المصادر العربية أن نيل مصر يبدأ فى الزيادة بقية بوء ونة (يونية) وبالتحديد فى الثانى عشر منه ، ثم يقاس فى الخامس والعشرين منه ، ثم يبدو إندفاعه فى الثانى من أبيب (يولية) ، ويكون كمال الزيادة وانتهاء مدته فى الثامن من بابه (أكتوبر) ويأخذ فى النقص من العشرين منه ، فتكون مدته من حين زيادته ونهايته إلى حين نقصه ثلاثة

أشهر وعشرون يوما وهى : أبيب (يولية) ، مسرى (أغسطس) ، توت (سبتمبر) ، وعشرون يوما من بابه (أكتوبر) .

وقد جرت عادة صاحب المقياس ، أن يقيس الزيادة فى المقياس فى كل يوم وقت العصر ، ويكتب بهذه الزيادة رقاعا لأعيان الدولة ، فيذكر زيادته فى ذلك اليوم من الشهر العربى وموافقه من القبطى - من الأصابع ، وما صار إليه من الأذرع ، ويذكر بعد ذلك ما كانت زيادته فى العام الماضى فى ذلك اليوم من الأصابع ، وما صار إليه من الأذرع ، والفرق بين العام الماضى والوقت الحاضر بزيادة أو نقص ، ولا يطلع على ذلك عوام الناس ، فإذا وفى ستة عشر ذراعاً صرح فى المنادة فى كل يوم بما زاد من الأصابع ، وما صار إليه من الأذرع ، ويصير ذلك مشاعاً عند كل أحد .

وتذكر المصادر العربية أن متولى القياس كانوا ينادون على النيل بقولهم : نعم لا تحصى ، من خزائن لا تقنى ، زاد الله فى النيل المبارك كذا وكذا ، وكانت زيادته فى العام الماضى فى هذا اليوم كذا وكذا ، وعلى الله التمام . وكان المنادى يجعل فى أيديهم عوداً وهو مخلق بالزعفران . ومعهم الرياحين ، وكانوا يتجهون إلى الجامع ، وهناك يقفون حلقة ، ويرمون بما معهم من الرياحين اليهم وينادون أن الله عزوجل زاد فى النيل كذا وكذا ، فيستبشر الناس ويكثرون حمد الله والشكر له .

وقد كان من عادة ماء النيل قبل الزيادة ، أن يخضر لونه ، ويتغير طعمه ، فيقول العوام من أهل مصر «البحر بيتوحم» . والنسب فى ذلك كما تقول المصادر العربية : أن النيل إذا انهبط بعد الزيادة ، يرسب الماء فى تلك البطائح ^(١) التى فوق الجنادل ، فينقطع ماؤها ، ويتغير لونه وطعمه ، فإذا جاءت السيول بالماء الجديد ، ينحدر الماء القديم من البطائح إلى أراضى مصر .

(١) البطيحة جمع بطائح والأبطح جمع أباطيح . مسيل (موضع سيل الماء) واسع فيه رمل وبقاق الحصى .

وفى بداية الفتح العربى كان يتولى قياس النيل ، جماعة من النصارى الأقباط ، فلما بنى الأميريزيد بن عبد الله التركى (٢٤٢ - ٢٥٣ هـ / ٨٥٦ - ٨٦٧ م) المقياس الجديد بالجزيرة (الروضة) ، ورد كتاب المتوكل على بكار ابن قتيبة القاضى بأن لا يتولى أمر المقياس إلا مسلم تختاره ، فاختار أبو الرداد عبد الله بن عبد السلام بن عبد الله بن الرداد البصرى وكان ذلك فى عام ٢٤٧ هـ / ٨٦١ م ، وكان أصله من البصرة ، وقدم مصر ، وأقام بها ، وكان مؤذنا بجامع عمرو بن العاص وأجرى عليه فى كل شهر سبعة دنانير ، ولم يزل المقياس بيد أبى الرداد حتى توفى عام ٢٦٦ هـ / ٨٧٩ م وقيل عام ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م ، فاستمر المقياس فى عقبه حتى عصر المماليك (٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م) .

ولما كانت زيادة الضرائب ونقصانها مرتبطة بحالة الاقتصاد الزراعى - خاصة - فى مصر ، فلذلك اهتم العرب بعد الفتح بحفر الترع وإقامة الجسور وبناء القناطر وغير ذلك مما يلزم للرى والزراعة . وتذكر المصادر العربية أن عمر بن الخطاب طلب من عمرو بن العاص أن يسأل المقوقس عن العوامل التى تؤدى إلى خراب مصر أو عمارتها ، فقال له المقوقس : تأتى عمارتها وخرابها من خمسة وجوه - وعدد له هذه الوجوه - وما يهمنا منها قوله: وتحفر فى كل سنة خليجها ، وتسد ترعها وجسورها . لذلك يذكر ابن عبد الحكم أن فريضة مصر لحفر خليجها وإقامة جسورها ، وبناء قناطرها ، وقطع جزائرها ، كانت ١٢٠ ألف عامل ، يقومون بهذا العمل صيفا وشتاء ، وكانوا منقسمين على النحو الآتى : سبعون ألفا للصعيد ، وخمسون ألفا لأسفل الأرض .

ومع ذلك فلم يكن الاهتمام بهذه الإصلاحات ، هو قاعدة جميع الولاة ، فكثير من الولاة تقاعسوا مع مرور الزمن عن القيام بهذه الإصلاحات ، واقتصر الإصلاح على المصلحين من الولاة . وفى ذلك يذكر المقرئى : أن أحمد بن طولون عندما تسلم أرض مصر من أحمد بن المدبر كانت قد خربت

حتى إن خراجها بلغ ٨٠٠ ألف دينار ، فقام أحمد بن طولون بالاصلاحات فى مصر ، كما يقول المقرئى : «وبالغ فيها» حتى وصل خراجها إلى ٤ مليون و ٢٠٠ ألف دينار وذلك فى عام ٢٦٠ هـ / ٨٧٣ م .

كما يقول أيضا ابن اياس عن أحمد بن طولون : «لما ولى الأمير أحمد على مصر ، تسلمها من أحمد بن المدبر ، وقد تلاشى أمرها ، وانحط خراجها ، فاهتم الأمير أحمد فى عمارة جسورها ، وبناء قناطرها ، وحفر خلجانها ، وسد ترعها ، فاستقامت أحوال الديار المصرية فى أيامه ، ووقع العدل والرخاء .

وتروى المصادر أن الجسور فى مصر كانت تنقسم الى قسمين : سلطانية وبلدية . والجسور السلطانية هى الجسور العامة . أما الجسور البلدية فهى الخاصة بناحية دون الأخرى .

ويذكر المقرئى أنه كان للجسور السلطانية رسوم موظفة على الأعمال الشرقية والأعمال الغربية . ويقول ابن مماتى : إن هذه الرسوم كانت تقدم عينا ونقدا ، وانها بمرور الوقت صارت لازمة للفلاحين « كأنه من بعض الخراج . ويجرى فيما بينهم بنسبة ما يزرعه كل منهم » .

أما الجسور البلدية فيتولى إقامتها المقطعون والفلاحون من أصل مال الناحية . ويقول المقرئى فى الفرق بين الجسور السلطانية والبلدية : إن الجسور السلطانية من القرى محل سور المدينة الذى يتعين على السلطان الاهتمام بعمارته ، وكفاية الرعية أمره . أما الجسور البلدية فهى محل الدور التى من داخل السور ، فيلزم صاحب كل دار أن يصلحها ويزيل ضررها .

وترى الدكتورة سيدة كاشف أن جباية العرب لضريبة الجسور كان استمرارا لما كان قبل الفتح ، إذ كانت تجبى ضرائب من المصريين للمحافظة على الجسور . غير أن المقرئى يذكر أن هذه الضرائب قد أبطلت فى زمانه (أى فى القرن ٩ هـ / ١٥ م) ، ولكننا لا نعرف - كما تقول الدكتورة سيدة

كاشف - متى فرضت هذه الضريبة ، وفى أى تاريخ أبطلت . وفى بردية ترجع الى القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى ، وجدنا حسابات خاصة بأحد الملاك عن الضرائب التى دفعها عن القمح والرز والقرط ، وكذلك ضريبة للجسور عبارة عن $\frac{1}{4}$ والغالب لنها $\frac{1}{4}$ دينار لأن الحسابات المالية فى مصر كانت بالدنانير وكسورها .

ونظرا لأهمية الجسور فى حماية مصر من عوامل الفيضان ، وارتباطها بخراب البلاد أو عمارها ، فلم يكن العمل عليها يترك للاختيار ، بل كان يتم عن طريق القسر والارغام ، أى عن طريق السخرة . فتذكر الدكتور سيدة كاشف أن العمال الذين كانوا يكلفون بالعناية بالترع والجسور ، وإقامة القناطر ، كانوا يعملون بطريق السخرة ، وهو ما كان عليه الحال قبل الفتح العربى ، وكما أصبح بعد الفتح حتى العصور الحديثة . بل إن السخرة ظلت تفرض على الأهالى فى مصر فى أوقات الفيضان ، ويعرفها الأهالى باسم « العونة » للعناية بالجسور والمحافظة عليها ، حتى ألغيت فى عام ١٩٣٧ م ، فأصبح الأهالى يتقاضون أجورا عن أعمالهم ، بعد أن كانوا يعملون بدون أجر .

كانت مساحة الأرض الزراعية فى مصر تتفاوت من آن لآخر تبعا لعاملين أساسيين : العامل الأول : هو نهر النيل ، فقد كان النيل منذ قديم الزمان يحدث تغييرات بصفة دائمة فى الأرض الزراعية بسبب الفيضان السنوى ، فتارة يجرف أرضا ، وتارة يطرح أرضا ، وتارة يغير من حدود الأرض أما العامل الثانى ، فهو العناية بالأرض وحفر الترع وصيانة الجسور أو العكس . لذلك فقد اهتمت حكومة مصر الاسلامية كما اهتمت الحكومة البيزنطية من قبلها ، بعمل مسح شامل للأرض الزراعية والأرض البور ، وقياسها على فترات متفاوتة ، خاصة اذا علمنا أن قيمة الخراج كان يتوقف على مساحة الأرض الزراعية .

وتذكر المصادر العربية أنه فى خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ / ٧٢٣ - ٧٤٢ م) تم عمل مسح شامل للأرض

الزراعية فى مصر ، على يد ابن الحبحاب الذى خرج بنفسه فمسح أرض مصر كلها ، عامرها وغامرهما مما يركبه النيل ، فوجد فيها ثلاثين مليون فدان ، وفى رواية أخرى ١٠٠ مليون فدان ، والفدان أربعمئة قصبه ، والقصبه عشرة أذرع .

وقيل : إن أحمد بن المدير اعتبر ما يصلح للزراعة بمصر فوجده أربعة وعشرين مليون فدان ، والباقي مستبحر وتلف من قلة الزراعة . واعتبر أيضا مدة الحرث فوجدها ستين يوما ، والحرث يحرق خمسين فدان ، فكانت محتاجة الى ٤٨٠ ألف حرث .

وفى الدولة الطولونية وصلت مساحة الأرض المزروعة الى حوالى مليون فدان .

وقد أشارت أوراق البردى الى أسماء موظفين إداريين تتعلق وظيفتهم بمهمة مسح الأراضى الزراعية ، (١) ومن هؤلاء - كما تذكر الدكتورة سيدة كاشف - لفظ المساح الذى يرد كثيرا بها ، وكذلك لفظ القصاب ، والمقصود بوظيفة القصاب فى الأوراق البريدية هو الموظف الذى يستخدم القصبه لقياس الأرض . هذا الى جانب الكتبة الذين كانوا يدونون فى دفاترهم أو سجلاتهم القياسات المختلفة ، وأسماء أصحاب الأرض ، وتحديد الحدود للأراضى المختلفة .

وكانت جميع أراضى مصر تقاس بالفدان كما هو الحال الآن . على أن مساحة الفدان فى العصر الاسلامى كانت - كما تذكر الدكتورة سيدة كاشف - أكبر من مساحة الفدان فى عصرنا الحالى ، فقد ذكرت المصادر العربية أن مساحة الفدان أربعمئة قصبه ، وكان طول القصبه - كما يستنتج

(١) ويبدون لنا من الأوراق البريدية أن مهمة مسح الأراضى الزراعية الخاصة بالأفراد ، كان يتخللها بعض الجاملات لزيادة مساحتها

مما ذكره القلقشندي ، ومن أبحاث العلماء الفرنسيين في كتاب وصف مصر، ومن القصبة التي أقرها السلطان سليم حين فتح العثمانيون مصر ، ٣,٨٥ أى أن الأربعمائة قصبة مربعة كانت تعادل ٥٩٢٩ متر مربع . وظلت مساحة الفدان على هذا النحو منذ فتح العرب لمصر حتى حكم محمد على في العصر الحديث ، ففي عهد محمد علي خفض مساحة الفدان إلى ٣٣٣ قصبة مربعة فأصبح مساحته ٤٢٠٠ متر مربع .

ومنذ عهد الفراعنة كان الفلاحون يفلحون الأرض ، ويحصدون الزرع على أساس الشهور المصرية القديمة ، وهي ما عرفت باسم الشهور القبطية. وهذا هو السبب في أننا نجد في إيصالات الخراج بصفة خاصة هذه الظاهرة الفريدة ، وهي ذكر الشهر القبطي إلى جانب السنة الهجرية ! فنجد مثلا : شهر توت (سبتمبر) عام ٢٣٣ هـ ، أو شهر مسرى (أغسطس) عام ٣٢٨ هـ ، أو برمودة (أبريل) عام ٤٠٥ هـ ، وهو ما ليس له مثيل في التقاويم .

ونظرا لأن العرب قدموا من بيئة صحراوية ، فلم يكن منتظرا منهم ادخال طرق جديدة للزراعة والرعى ، لذلك ظلت الطرق القديمة بمصر هي السائدة ، وهي طريقة رعى الحياض ، اللهم إلا في بعض الجهات التي كان يمكن رعيها رعا دائما ، مثلما كان يحدث في أراضي الحدائق بالقيوم .

وكان رعى الحياض يعنى زراعة الأرض مرة واحدة في العام بعد أن تغمر بمياه الفيضان . وقد أدى اتباع هذه الطريقة - كما يذكر الدكتور سعيد عاشور - إلى جعل البلاد والعباد تحت رحمة فيضان النيل ، فإذا جاء الفيضان طبيعيا تمكن الناس من زراعة الأرض في اطمئنان ، وظهر المحصول طبيعيا في مقداره وأثامه ، أما إذا جاء الفيضان منخفضا فمعنى ذلك ضعف المحصول وارتفاع أسعار الغلات ، مما يترتب عليه حدوث المجاعات وانتشار الأوبئة في البلاد .

وكان أهم المحصولات الزراعية التى يزرعها الفلاحون المصريون ، القمح الذى كان أهم ما ترسله مصر الى الخلافة بعد الفتح العربى ويذكر ابن ممتى أن أصلح ما زرع من القمح يكون فى أثر الباق (١) والشرافى (٢) و يزرع فى مدة أولها نصف بابه (أكتوبر) وآخرها سلخ هاتور (نوفمبر) ، ويدرك فى بشنس (مايو). وكان أطيب حب هو القمح اليوسفى ، ولم يكن يوجد إلا بمصر فقط ، وكان يزرع فى مدينة يقال لها بشمور (٣) . كذلك اشتهر أيضا قمح منفلوط كما يذكر ابن جبير . وكان القمح يخزن فى أهراء (٤) ، فيذكر ابن دقماق أنه فى غربى مسجد القرون ، (٥) كان يوجد الأهراء التى يخزن فيها القمح للجند من زمن معاوية الى خلافة بنى هاشم . كذلك كان الفلاحون المصريون يزرعون البرسيم الذى كان يعرف وقتها باسم «القرطه» . وكان يعد من محاسن مصر كما تذكر المصادر العربية ، ويزرع زمن الربيع فتربط عليه

(١) الباق : يطلق على الأرض الزراعية بعد حصاد البرسيم والفلول منها ، وهذا هو المعروف عند الزراع فى أيامنا هذه . أما ابن ممتى فيعرفها بأنها أثر القرط والقطنى والمقاشى ، وهى خير الأرضين ، وأغلاها قيمة وأوفاهما سعرا وقطيفة لأنها تصلح لزراعة القمح والكتان . والمعروف الآن أن الأرض الباق تزرع نرة لأن القمح يزرع فى أوائل الشتاء .

(٢) الشرافى : كانت تطلق على الأرض بعد حصاد المحاصيل الشتوية منها كالفلول والبرسيم والقمح والشعير ، فكانت هذه المحاصيل تحصد فى شهر مايو ويونيو ، وتظل معرضة للشمس حتى أوائل شهر سبتمبر ، وهو يوافق شهر مسرى ، حيث يفيض النيل وتكثر المياه ويبدأ الفلاح فى رى أرضه استعدادا لزراعة الذرة . والشرافى تطلق على الفترة بعد حصاد هذه المحاصيل الشتوية وحتى الربى ، وفيها تنتشق الأرض وخاصة الأرض الباق . ويعرفها ابن ممتى بأن الشرافى يتبع الباق فى الجودة ، ويلحق فى القطيعة لأن الأرض تكون قد ظلمات فى السنة الماضية ، واشتدت حاجتها الى الماء ، فإذا ما رويت حصل لها من الربى مقدار ما حصل لها من الظما ، وكانت أيضا مستريحة ، ويوجد زرعها ، ويؤتى محصولا أكثر .

(٣) البشمور : بالضم . كورة بمصر قرب نسياط . وهى تشمل منطقة الأراضى الزراعية التى تقع اليوم بين فرع النيل الشرقى وهو فرع نسياط وبين البحر الصغير بمديرية النقيلية وذلك فى المسافة الواقعة على فرع نسياط بين قرية محطة أنشاق وقرية السرو بمركز فارسكور ، وفى المسافة الواقعة على البحر للصغير بين قرية القباب الكبرى وقرية برمبال القديمة بمركز دكرنس .

(٤) الأهراء : هى حواصل لخزن أنواع الفلال المتنوعة ، تحمل اليها من جهات مختلفة ، ولا تفتح إلا عند الضرورة . وكل من أراد بيع غلة ، اتجه الى الأهراء لبيعها . وكان للأهراء ديوان وله ناظر يسمى ناظر الأهراء . وتعرف الأهراء فى مصطلحنا الحديث بالشونة .

(٥) وقد ذكره ابن عبد الحكيم من ضمن المساجد التى بنيت بالقسطاط .

الخيول والبهائم ، وتكثر فى تلك الأيام الرعى ، ويطيب اللبن . وأول زراعته فى بابه (أكتوبر) ، ويدرك أخضر فى آخر كيهك (ديسمبر) .

وقد زرع القطن (١) فى مصر ، واستمرت زراعته فى العصر الاسلامى ، وإن كانت النصوص التاريخية الخاصة بالعصر الأخشيدي لا تذكره - كما تقول الدكتورة سيدة كاشف . وكان يزرع فى برمودة (أبريل) ويحصد فى توت (سبتمبر) .

وكان محصول مصر الرئيسى هو الكتان ، الذى تشير أوراق البردى التى ترجع الى عصر الولاة الى زراعته بكثرة فى مصر . وكان يزرع فى هاتور (نوفمبر) ويدرك فى برمودة (أبريل) .

كما زرع أيضا ما عرف باسم البلسم ، وهو نبات تشبه أوراقه أوراق اللوخية ، وله رائحة نكية وغريبة ، وكان هذا النبات ذا أهمية خاصة بالنسبة للأقباط فى مصر ، ولوسمه عيد للقبط يسمونه عيد المشمشة . وكانت العامة تطلق عليه اسم البلسم ، وكان يزرع ببقعة مخصوصة بأرض المطرية من ضواحي القاهرة على القرب من عين شمس ، ويسقى من بئر مخصوصة هناك . قال ابن الأثير فى « عجائب المخلوقات » : وطول هذه الأرض ميل فى ميل ، وشأنه أنه يقصد فى شهر كيهك (ديسمبر) من شهور القبط ، ويجمع ما يسيل من دهنه ويصفى ويطبخ ويحمل الى خزانة السلطان ، ثم ينقل منه قدر معلوم الى الشام والبيمارستان ليستعمل فى بعض الأدوية . وملوك النصارى من الحبشة والروم والفرنج يستهدونه من صاحب مصر ويهانونه

(١) لم يكن القطن فى تلك الفترة يزرع لأغراض تجارية ، وإنما كان يزرع لأغراض الزينة ، وقد استمر ذلك حتى عصر محمد على ، فيذكر جون مارلو أنه « فى عام ١٨١٩ قام جوميل Jumel مهندس زراعى فرنسى ، يعمل تجارب على بعض أنواع نبات القطن الذى كان يزرع لأغراض الزينة فى إحدى حدائق القاهرة ، واستنتج قطنًا طويل الثيلة تراهى له امكانية زراعته للأغراض التجارية نظرا لصلاحيته لأنوال القطن الميكانيكية الجديدة فى أوربا الغربية بصفة خاصة ، فوجه اهتمام محمد على للفكرة ، وفى خلال سنوات قلائل كان القطن يزرع فى جميع أنحاء مصر السفلى كمحصول هام للتصدير . . »

بسببه ، لما يعتقدونه فيه من أثر المسيح عليه السلام فى البئر ، ولا يساويه عندهم ذهب ولا جواهر . والنصارى كافة تعتقد فيه ما تعتقد ، وترى أنه لا يتم تنصر نصرانى حتى يوضع شيء من هذا الدهن فى ماء المعمودية عند تغطيسه فيها . ويقول السيوطى : إن دهنه يستعمل فى علاج أمراض كثيرة ، أما ابن حوقل فيذكر أنه يزرع كالقضبان ، وأن لحاء هذا القضبان تؤكل ، فيكون له طعم صالح وفيه حرارة وحروفه لذينة .

ويذكر ابن اياس أنه قد بطل زرعه فى المطرية ، وإن كان لم يذكر متى كان ذلك .

ولقد زرع فى مصر ذلك الحين أيضا نبات الخشخاش الذى يعمل منه الأفيون ، فكان يوجد بأبوتيج^(١) من الصعيد « الخشخاش الكثير الذى يعمل منه الأفيون » . كما كان يعمل الأفيون أيضا فى أسبوط يعتصر من ورق الخشخاش الأسود والخس ويحمل الى سائر الدنيا ، ولا سيما بلاد الهند .

ومن النباتات التى زرعها الفلاحون المصريون أيضا نبات النيلة الذى كان يستخدم فى الصباغة ، وكان المصريون يستخدمون النيلة للتلوين باللون الأزرق . وكان شجر النيلة يزرع فى الصعيد وفى الواحات ، ويحصد كل مائة يوم ، ويبقى فى الأرض الجيدة ثلاث سنين ، وفى السنة الأولى يسقى فى كل عشرة أيام دفعتين ، وفى السنة الثانية ثلاث دفعات ، وفى الثالثة أربع دفعات . وكان أوان زراعته بشنس (مايو) وبؤونة (يونيه) ، وادراكه فى أبيب (يوليه) ومسرى (أغسطس) .

ولم تكن مصر تعرف البطيخ قبل الفتح العربى ، وقد قيل إن عبد الله ابن طاهر والى مصر (٢١١ هـ / ٨٢٦ م) هو الذى زرعه بمصر ، واليه ينسب بالعبدلى ، ولم يكن هذا النوع ببلد خلاف مصر .

(١) أبوتيج : وردت فى معجم البلدان تحت اسم (بوتيج) بكسر التاء ، ويا ساكنة ، وجيم . وهى بلدة بالصعيد الأدنى من غرب النيل . وهى قاعدة مركز أبوتيج ، فعندما أنشئ قسم أبوتيج فى سنة ١٨٣٢ جعلت مدينة أبوتيج قاعدة لها وسمى مركز أبوتيج سنة ١٨٩٠ .

وتشير أوراق البردى التى ترجع الى القرن الثانى الهجرى (الثامن
الميلادى) الى زراعة قصب السكر فى مصر . وقد نسب الى الامام
الشافعى الذى عاش بمصر فى أواخر القرن الثانى الهجرى أنه قال : « لولا
قصب السكر ما أقمت مصر » . ويزرع قصب السكر بكثرة فى أسيوط .
وأوان زرعه نصف برمهات (مارس) ، ووقت إدراك الرأس فى طوبة (يناير)،
والخلفة فى النصف من هاتور (نوفمبر) وقيل فى النصف من كيهك
(ديسمبر) .

كما كان فى مصر البلح ، ويذكر ابن اياس أنه « ليس فى الدنيا بلد بها
نخيل بلح مثل اقليم مصر ، ياكلون من ثمره : البسر ^(١) ، والرطب ، والتمر
على أنواع ، والعجوة ، وينتفعون بخشبها وجريدها ، وخصوها ، وليفها ،
ويعمل منه جملة أنواع مفيدة ، لا يستغنى عنها أحد من الناس ، وهى عمارة
مصر .

وقال القائل فى المعنى :

أرى أهل الشام يفاخرونا وتلك وقاحة فيهم وخصلة
وكيف يفاخرون بالشام مصرا وشهوة كل من فى الشام نخلة
وعن التمر يذكر الانفوى أن فى صعيد قوص أنواع التمر التى توجد
بالعراق والتى ليس فيها «وأنه لا يوجد تمر يصير تمرأ قبل أن يكون رطباً إلا
بالصعيد» .

كما يذكر ياقوت أن بأسوان رطباً أشد خضرة من السلق ، ويقول إن
الرشيدي قد أمر بأن تحمل إليه أنواع التمر من أسوان من كل صنف ثمرة
واحدة ، فجمعت له وبيته ، «وليس بالعراق هذا ولا بالحجاز ، ولا يعرف فى
الدنيا بسر يصير تمرا ولا يرطب الا بأسوان ، ولا يثمر من بلح قبل أن
يصير بسرا إلا بأسوان ، قال : وسألت بعض أهل أسوان عن ذلك ، فقالوا

(١) البسر : التمر اذا لون ولم ينضج . (أوله طلع ثم خلال بالفتح ثم بلح بفتححتين ثم بسر ثم رطب
ثم تمر) .

لى : كل ماتراه من تمر أسوان ليناً فهو مما يتمر بعد أن صار بسراً ، وما وجدته أبيض فهو مما يتمر بعد أن صار بلحاً .

ويذكر ابن أياس أنه كان «بالصعيد نخلة تحمل كل سنة من التمر عشرة أراذب ، تباع منه كل وبة بدينار ، فجعل عليها بعض ولاة الناحية مكساً ، فلم تحمل من بعد ذلك شيئاً» .

كما يقول فى موضع آخر إنه كان يبيع ضياع البهنسا نخلة بلح ، تطرح ١٢١ عرجون^(١) بلح فاخر فى كل سنة ، فيتحصل منها اثنى عشر أربب بلح فى كل سنة .

ويذكر الكتندى أن بالفرما خلا عجيباً ، يثمر حين ينقطع البسر والربط من سائر الدنيا ، فلا ينقطع أربعة أشهر حتى يجيء البلح فى الربيع ، ولا يوجد ذلك فى بلد من البلدان ، لا بالبصرة ولا بالحجاز ولا باليمن ، ولا بغيرها من البلدان ، ويكون فى هذا البسر ما وزن البصرة منه عشرون درهماً أو أكثر .

ومن الفواكه ، الرمان وقد عرفت مدينة أشمون باسم أشمون الرمان لكثرة بها . ومن الموالح أترج^(٢) كبار ، وأترج حلو . ومن الفواكه الجميز ، والسفرجل الذى يوجد فى أسيوط بكثرة .

ومن أنواع الفواكه أيضاً التى توجد فى مصر وذكرها ابن أياس : الخوخ الزهرى وهو لا يوجد إلا بها ، والعنب البحرى ، وبها التفاح السمكى ، والكمثرى البلدى ، والخواخ المشعر النوى ، وهو غاية فى

(١) العرجون ويقال له أيضاً العرجد جمع عراجين . أصل العنق الذى يعرج ويبقى على النخل يابساً بعد أن تقطع عنه الشماريخ (العنق عليه بسر) .

(٢) الأترج : شجر يطر ، ناعم الأغصان والورق والثمر ، وثمره كاليون الكبار ، وهو ذهبي اللون ، ذكى الرائحة ، عصيره حامض .

ويقول المقريزى : «الأترج للمدور حمل من أرض الهند بعد الثلاثمائة من سنى الهجرة ، وزرع بعمان ثم نقل منها إلى البصرة والعراق والشام حتى كثر فى دور الناس بطرسوس ، وغيرها من الثغور الشامية ، وفى أنطاكية وساحل الشام وفلسطين ومصر ، وماكان يعهد ولا يعرف ، فحدث منه الأرايح الحمراء الطيبة واللون الحسن الذى كان فيه بأرض الهند ، لعدم ذلك الهواء والترية وخاصة البلد» .

الحسن ، وبها التين البرشومي وهو صادق الحلاوة ، وبها الجميز ، وهو نوع شهى لا يوجد الا بها ، وبها نوع يسمى الشقير مثل البرقوق لا يوجد الا بها ، وبها النبق ، واللوز الأخضر ، وكان بها نوع يسمى السبخ وهو مثل اللوز الأخضر ، ولكن انقطع من مصر عام ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠ م ، وبها الموز الدمياطى لا يوجد إلا بها ، وبها الليمون الأحمر الفرنسي وقد نقل الى مصر عام ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م .

ومن مزروعات مصر : الأرز ويعتبر من أكثر غلات الفيوم . والشعير ، ويزرع فى أثر القمح وغيره ، وتقدم زراعته على زراعة القمح بأيام ، وكذلك حصاده وإدراكه فى برمودة (أبريل) .

الترمس : يزرع فى طوبة (يناير) وإدراكه فى برمودة (أبريل) .

السمسم : يزرع فى برمودة (أبريل) ووقت إدراكه فى أبيب (يولييه) ومسرى (أغسطس) .

البول : يزرع فى أثر البرويية^(١) ، فى أول بابه (أكتوبر) ويؤكل أخضر فى كيهك (ديسمبر) ويدرك فى برمودة (أبريل) .

الحمص والجلبان^(٢) والعدس : أوان زراعتهم أولها هاتور (نوفمبر) وآخرها كيهك (ديسمبر) ويدرك فى برمودة (أبريل) .

كذلك زرع الفلاحون المصريون البامية ، والقلقاس الذى يزرع فى نصف برمها (مارس) ويدرك فى هاتور (نوفمبر) ، والبادنجان ، وكانت زراعته فى برمها (مارس) ويشننس (مايو) ويؤونة (يونية) وإدراكه فى يؤونة (يونية) وأبيب (يولية) ومسرى (أغسطس) ، كما زرعوا الكرنب والقرع والاسفاناخ والسلق وغير ذلك من المزروعات .

(١) البرويية : سميها العامة من الفلاحين « البرايب » وهى تطلق على الأرض عقب حصاد محصول القمح والشعير منها ، وهذا هو المعروف الآن . ويعرفها ابن معاتى بأنها أثر القمح والشعير وهى دون الباق لأن الأرض تضعف بزراعة الصنفين ، فمتى زرع أحدهما على الآخر لم ينجب كنجابة الباق ، ويجب أن يزرع قرطاً وقطاني ومقائى لتستريح الأرض وتصير باتاً من السنة الآتية .

(٢) الجلبان وهو غذاء الجمال .

كما كان يزرع في مصر الورود . فتذكر المصادر العربية أن من محاسن مصر السبع زهرات التي تجتمع في وقت واحد بمصر ، وذلك في أوائل فصل الربيع ، وهي النرجس وهي أول ما يقدم ، ثم البنفسج ، ثم البان ، ثم الورد النصيبى ، ثم الزهر ، وهو زهر النارج ، ثم الياسمين ، ثم الورد الجوى ، ويعرف أيضا بالقحابى ، ويأتى أواخر هذه الأزهار ، فهؤلاء هم السبع زهرات . وأما زهر النسرين ، وإن كان من أعظم الزهور رائحة ، فإنه غير معدود في جملة هذه السبع زهرات لأنه يأتى في آخر أيام الورد الجوى ، فلا يلحق النرجس ولا البنفسج ، لذلك لم يكن معدوداً في جملة السبع زهرات لتأخره عنهم . أما الأزهار التي تأتى في الصيف فمنها : الياسمين ، والنسرين ، والتمرحنا ، والريحان ، وشقائق النعمان ، والأقحوان ، والآس ، والريحان . وأكثر أزهار الصيف : الياسمين والتمرحنا والآس .

ويذكر ابن إياس أنه كان يوجد مكان في الجيزة يعرف بالجنانكى كان مكانا لشجر الورد ، وقد كان من متنزهات مصر القديمة إلى سنة ٣٥١ هـ / ٩٦٢ م ، ثم انقطع الورد من هناك وبطل أمره .

هذا إلى جانب زراعة الأعشاب الطبية بها ، فيذكر ابن إياس أن من محاسن مصر ما بها من أعشاب عقاقير مفيدة في الطب وهي :

بذر الهند با (١) ، والشمار (٢) ، والحبة السوداء ولها منافع مفيدة ، والشاهنزاز وله جملة منافع مفيدة للسوداء ، والماسكة وهو طين أصفر داخل حجر أسود يحل في الماء ويشرب منه لوجع المعدة ، وكان نافعا ولكن انقطع عن مصر وكان يجلب من وادى هبيب من أراضى الصعيد . ومن الأعشاب أيضا العوسج (٣) ، والموميا (٤) ، ولها منافع .

(١) الهندبا : تستخدم لعلاج التهاب الكبد والمعدة ، ولعلاج القلب ، كما تستخدم لعلاج أورام العين الحارة إذا خلطت مع السويق والخل ، وإذا خلطت مع السويق تستخدم لعلاج الحمرة .

(٢) الشمار : وهو الرازيانج عند أهل مصر والشام . يستخدم في إمرار البول لذلك يوافق وجع الكلى ، وإذا شرب بالماء البارد سكن القثيان .

(٣) العوسج : يستخدم لعلاج أمراض العين . والحمرة والجذام .

(٤) الموميا : يقول ابن البيطار : إنها موجودة بمصر كثيرا ، وهو خلط كانت الروم قديما تطلق به موتاهم حتى تحفظ أجسادهم بحالها ولا تتغير . وكان يستخدم في علاج الصداع والصرع والذوار والمعدة والطحال .

ثانيا : طبقة الصناع

على الرغم من أن وسيلة الإنتاج الرئيسية فى مصر كانت هى الأرض ، وكانت الزراعة هى الحرفة الرئيسية لأهلها ، إلا أنه كان من الطبيعى أن تنشأ إلى جانب حرفة الزراعة حرفة أخرى تواجه حاجات المجتمع الأخرى من مصنوعات ، وكانت هذه الحرفة هى حرفة الصناعة .

وقد كانت طبقة الصناع فى مصر قبل الفتح العربى تتكون من الأقباط، واستمر الأقباط يعملون بالصناعة تحت الحكم العربى أيضا ، سواء من بقى على دينه ، أو من أسلم منهم ، فالعرب لم يعملوا فى الصناعات وغيرها من المهن ، وإنما كانوا يعنون بالأمور السياسية فى الدولة ، وحتى بعد أن بدأ العرب فى الاختلاط بالأهالى وتملك الأراضى والاشتغال بالزراعة ، وذلك منذ القرن الثانى الهجرى ، وسقوطهم من الديوان فى عهد الخليفة المعتصم (٢١٨ هـ / ٨٣٣ م) ، ظل أهل البلاد الأصليين يشكلون طبقة الصناع .

وكان هؤلاء الصناع قبل الفتح العربى ينتظمون فى نقابات منذ العصر الرومانى والبيزنطى ، وكانت هذه النقابات - كما ذكرنا فى الفصل التمهيدى - مسئولة عن سد حاجات الحكومة ، وعن تأدية الضرائب المفروضة على أعضائها .

ولا نعلم ما اذا كانت هذه النقابات قد إستمرت بعد الفتح العربى أم أنها لم تستمر ، وقد أشار الدكتور السيد طه أبو سديرة إلى إستمرارها تحت الحكم العربى فيقول : «ورث العرب نظام النقابات من بين تلك النظم والتقاليد البيزنطية التى أبقوا عليها ، ولم يحاولوا القضاء عليها ، ولم يطرأ أى تغيير يذكر سوى شيوع إستخدام الطوائف والأصناف ، واختفاء لفظ النقابات فى عصر الولاة والعصور اللاحقة» . ولكنه يعود فينقل عن برنارد لويس أن بحثه فى هذا الموضوع قد أسفر عن أنه لا توجد أية اشارة إلى وجود نقابات إسلامية قبل القرن العاشر الميلادى ، وقد أيده فى ذلك Goitein جواتين زميله الباحث اليهودى - فهو لم يعثر على كلمة نقابة ، ولم يرد ذكرها

فى أوراق الجنيزة Geniza^(١) التى عثر عليها بالفسطاط القديمة ، وقام بفحصها، ويطلق على ذلك قائلا : «لأنه لم يكن هناك مثل هذا النظام » .

ومن هنا فانتا لا نستطيع أن نبت فى ذلك برأى طالما أن المصادر التى تناولت هذه الفترة قد صممت عن هذا الموضوع .

وقد اشتغل هؤلاء الصناع فى كثير من الصناعات التى كانت تشتهر بها مصر من قبل الفتح ومنها : صناعة المنسوجات - صناعة الورق - صناعة الزجاج - صناعة الخشب - صناعة الجلود - صناعة الحصر - صناعة السكر والزيوت - صناعة الخزف - صناعة الفخار - صناعة الصابون - صناعة الشمع - صناعة حضائى الفرائج - صناعة الحلى والجواهر - صناعة سك النقود - صناعة الأسلحة هذا إلى جانب صناعات أخرى .

وقد كان هؤلاء الصناع على درجة عالية من المهارة كما يتضح من عرضنا لهذه الصناعات .

أولا : صناعة المنسوجات

كانت صناعة النسيج من أهم الصناعات التى قام بها الأقباط فى مصر، حتى إنها عرفت بهم، فقد كان العرب يطلقون على المنسوجات المصرية اسم «قباطى» نسبة إلى قبط مصر الذين أظهروا مهارتهم الفنية فى

(١) وثائق الجنيزة هى وثائق خطية كثيرة وجدت فى منطقة مصر القديمة وعرفت لعلماء الغرب فى القرن التاسع عشر الميلادى ، ووزعت على مكتبات أوربا وأمريكا . وكانت هذه الوثائق محفوظة قبل اكتشافها، فى حجرة خصصت للأوراق المهمة فى معبد الفسطاط اليهودى ، ووجد بعض آخر من هذه الوثائق فى جبانة البساتين القريبة من المعبد ، وأطلق على المجموعتين اسم وثائق جنيزة القاهرة . ويرجع تاريخ معظم هذه الوثائق ، التى تتكون فى غالبيتها من خطابات متبادلة بين اليهود وذويهم ، إلى الفترة ما بين القرنين الرابع والسابع الهجريين ، وتدل منها يرجع إلى فترة متقدمة من القرن الرابع الهجرى . ويقدّر عدد الأوراق التى كانت فى هذه الجنيزة بما يزيد عن الربع مليون ورقة معظمها قطع من كتب عبرية ، وقد كتبت غالبية هذه الأوراق باللغة العربية بالحروف العبرية ، وهى تعكس لنا الحالة الاجتماعية والاقتصادية لبلدان البحر المتوسط والشرق فى تلك الفترة . وقد نشر بعض هذه الوثائق ولكن بعضها الآخر لم ينشر حتى الآن .

ميدان النسيج . وكان العرب يعرفون ثياب مصر قبل الفتح ، فيذكر ابن اياس أنه كان من ضمن هدية المقوقس للرسول (ص) «كسوة من بياضات مصر» ، ويذكر أن بعض الثياب بقيت عنده عليه الصلاة والسلام حتى إنه كفن في بعضها . وعن عبد الله بن عمر عن ابن مسعود قال : «قلنا يارسول الله ، عند الموت قيم نكفنك ؟ قال : في ثيابي هذه أو في ثياب مصر» .

وقد كانت صناعة النسيج في مصر صناعة يدوية ، فكان النساء يغزلن الكتان والرجال ينسجونهم . كما اشتغل الرهبان والراهبات في الأديرة المصرية بحرفة النسيج .

وبعد الفتح العربي احتكرت الحكومة العربية صناعة النسيج في مصر ، كما كانت تحتكرها الحكومة البيزنطية من قبل . ونظرا لأهمية صناعة النسيج فقد أنشأت الدولة إلى جانب المصانع الأهلية ، مصانع حكومية يطلق عليها اسم دور الطراز^(١) وكانت تنقسم إلى قسمين : طراز الخاصة وطراز العامة . وبالنسبة لطراز الخاصة ، فقد كان لا يعمل فيها إلا للخليفة ورجال بلاطه وخاصته أو حاشيته . أما طراز العامة فقد كان يعمل فيها لحساب بلاط الخليفة وأفراد الشعب . وكانت دور الطراز الخاصة والعامة تتبع بيت مال الحكومة .

أما المصانع الأهلية ، وهي المملوكة للأفراد ، فلم تكن حرة بالمعنى المعروف ، فقد كانت الحكومة تراقب صناعة النسيج فيها مراقبة دقيقة ، ولم تكن حرة في نسج ماتشياء بالقدر الذي تريده ، بل كانت الحكومة تمدها

(١) ولفظ طراز مشتق من الفارسية «ترازين» ، و «تراز» بمعنى التطريز ، وعمل المذهب broderie ثم أصبح يدل على ملابس الخليفة أو الأمير أو السلطان أو رجال الحاشية لاسيما إذا كان فيها شيء من التطريز ، وعليها إشارة من الكتابة . واتسع مدلول هذا اللفظ حتى انتهى في العربية والفارسية إلى الدلالة على المصنع والمكان الذي تصنع فيه مثل هذه المنسوجات . على أن كلمة «طراز» استعملت في معان أخرى ، مثل الدلالة على أي نقش من النقوش التي توضع على شريط مستعرض من أي نوع كان ، سواء كان من الحجارة أو الفسيفساء أو الزجاج أو الفخار أو محفورا من الخشب . كذلك أطلق لفظ طراز على الكتابة الرسمية التي كانت تكتب على درج البردي ولم يبق نظام الطراز وقفا على مصر ، بل نكاد نجده في كل الأقاليم الإسلامية كسوريا والعراق وإيران وآسيا الصغرى وإسبانيا وجزيرة صقلية .

بالمواد الخام ، وتختتم الأقمشة بخاتم رسمى بدور الطراز أو المصانع الحكومية للنسيج ، وكانت الحكومة تحتكر بيع تلك المواد الخام وتحدد سعرها بمعرفة موظفى دور الطراز ، وكانت لاتسمح بأن يتولى التجارة فيها إلا التجار الذين ترخص لهم بمزاولة هذا العمل ، وكان عليهم تقييد مايبيعونه فى سجلات رسمية . كما كانت دور الطراز الحكومية تكلف النسيج فى تلك المصانع الأهلية أن يحملوا ماينسجون إلى مكان خاص يحدد لهم ، حيث تطوى فيه الأثواب وتشد وتوضع فى الأسفاط (١) ، وقد كانت عملية حزم الأقمشة وربطها وشحنها لايقوم به إلا عمال من طرف الحكومة يتناول كل منهم أجرا معينا كموظف مسئول عن هذه الصناعة . وكانت الحكومة تفرض الضرائب الباهظة على هذه الصناعة .

وقد كان يشرف على الطراز موظف كبير يسمى «صاحب الطراز» ، أو «ناظر الطراز» ، ولسنا نعرف مدى سلطانه فى هذه الفترة ، ولكننا نستطيع أن نتصوره مما نعرفه عن حاله فى العصرين الفاطمى والملوكى ، حين كان من أعلى الموظفين مقاما وأحسنهم راتبا وأوسعهم سلطانا . وكان لصاحب الطراز مساعدون فى مصانع النسيج بالبلاد المصرية كلها ، كما كان له مقر رسمى فى الحاضرة ، ومراكب ينتقل بها فى النيل . وكان يعاون صاحب الطراز فى الاشراف على المصانع فى كل إقليم من الأقاليم المصرية فى فجر الإسلام موظف يسمى «المتوكل بطراز الاقليم» ، كما يتبين من وثيقة بردية ترجع إلى القرن الثالث الهجرى جاء فيها «قبض حسين بن يحسن من رماح ابن يوسف المتوكل بطراز أشمون وأنصنى».

ونلاحظ أن اهتمام الولاة والخلفاء العرب بتشجيع صناعة المنسوجات المصرية يرجع لعدة أسباب :

السبب الأول : هو استعمالهم الشخصى لهذه المنسوجات للاباسهم أو للخلع التى كانوا يخلعونها على كبار رجال دولتهم فى صورة مكافأة أو

(١) السطط جمع أسفاط . وعاء كالقفة .

لإظهار رضاهم عنهم . وقد كانت هذه المنسوجات ، وبخاصة التى تصنع للخلفاء ، عظيمة القيمة ، ومما يدل على ذلك ما ذكره المسعودى فى تاريخه من أن ثوبا صنع فى أحد مراكز صناعة المنسوجات بمصر ، وكان هذا الثوب من عرض واحد ، ومع ذلك بلغ ثمنه ألف دينار لأنه كان مصنوعا من خيوط الذهب مخلوطة باليسير من الكتان . وسنعرف فى الصفحات القادمة أن تنيس كانت مشهورة بصنع ثوب خاص للخليفة يعرف باسم البدنة ، كان ينسج من الذهب الخالص ماعدا أوقيتين فقط .

ومن المعروف أيضا أن الهدايا التى أرسلها أحمد بن طولون إلى الخليفة المعتمد والتى أرسلها خمارويه من بعده إلى المعتضد ، كان فيها شئ كثير من المنسوجات النفيسة ، ومن هذه القطع واحدة باسم الخليفة المعتمد تاريخها عام ٢٧٨ هـ / ٨٩١ م . وهناك أيضا قطعة أخرى باسم الخليفة المكتفى بالله والأمير الطولونى هارون بن خمارويه تاريخها عام ٢٩١ هـ / ٩٠٣ م .

وقد ظل الخلفاء العباسيون فى عهد الاخشيديين يستمدون من مصر أكثر مما يلزمهم من المنسوجات النفيسة المحلاة بكتابات كوفية فيها العبارات والأدعية المعروفة .

كما يذكر المقرئى أنه لما حج الوزير أبو بكر محمد بن على الماذرائى كان من بين ما وهبه القرمطى بمكة المكرمة نحو مائتى قميص من طراز دبيق ، ثمن الثوب الواحد منها خمسون دينارا .

أما السبب الثانى : فهو أن المنسوجات كانت سلعة هامة للتصدير . فيذكر ابن حوقل أن تنيس وحدها كانت تصدر إلى العراق من الأقمشة ما يبلغ ٢٠ ألف دينار إلى ثلاثين ألف دينار ، وقد استمر ذلك إلى ما بعد عام ٣٦٠ هـ / ٩٧٠ م ، فى زمن الدولة الفاطمية حين انتهى على يد أبى الفرج

يعقوب بن كلس^(١) وزير العزيز بالله الفاطمي (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ / ٩٧٥ - ٩٩٦ م) .

وكان يرد إلى تنيس في كل عام خمسمائة مركب من موانئ الشام لشراء منسوجاتها . كذلك كانت تصدر المنسوجات المصرية إلى بيزنطة ، خاصة ماينتج في مدينتي إخميم وأسيوط اللتين كانتا مركزين هامين لصناعة النسيج في العصر القبطي . وكثيرا ما عمل الأباطرة البيزنطيون على شراء تلك الأنواع الفاخرة لتزيين قصورهم ، كما أن بابوات روما أنفسهم كانوا يحصلون من الأسواق على تلك المنسوجات النفيسة ويقدمونها هدايا للكنائس .

أما السبب الثالث : فلأن المنسوجات كانت من ضمن الجزية .

فقد كانت مصانع النسيج ملتزمة بإنتاج كميات من الثياب الصوفية حيث كانت تعطى كنوع من الجزية ، فيقول البلاذري : «فألزم جميع أهل مصر لكل رجل منهم جبة صوف وبرنس أو عمامة وسراويل وخفين في كل عام ، أو عدل الجبة للصوف ثوبا قبطيا» . ولعل شهرة مصر في ذلك الوقت بإنتاج الصوف أو غيره من أنواع النسيج هو الذي شجع الحكام العرب على تقرير ذلك .

ومما يذكره الكندي أنه في ولاية الحسن بن التختاخ على مصر (١٩٣ - ١٩٤ هـ / ٨٠٨ - ٨٠٩ م) قدم العطاء كاملا لديوان الخلافة ببغداد ، وكان قيمة الثلث منه من البز أو الثياب .

(١) يعقوب بن يوسف بن إبراهيم بن كلس ، أبو الفرج ، ولد ببغداد وتعلم الكتابة والحساب ، وعندما جاء إلى مصر ، صار ملازما لكافور . وكان يهوديا وأسلم في عام ٢٥٦هـ / ٩٦٦ م ، وعندما مات كافور سجنه أبو الفضل ، جعفر بن الفرات وزير كافور ، وعندما خرج من السجن سار إلى بلاد المغرب فلقى القائد جوهري بن عبد الله مولى المعز في الطريق ، وهو متوجه بالصاكر إلى مصر ليملكها فرجع معه وقيل ذهب إلى إفريقية ثم رجع إلى مصر . على أية حال ، فقد ترقى في الوظائف حتى تولى الوزارة للعزيز فزار بن المعز عام ٣٦٨هـ / ٩٧٨ م وقيل ٣٦٥هـ / ٩٧٥ م . وتوفي عام ٣٨٠هـ / ٩٩٠ م

وفى عهد الدولة الطولونية كانت الخريبة التى ترسلها مصر إلى بلاط الخليفة العباسى تشمل كثيرا من الأقمشة الثمينة والمنسوجات النفيسة .

وأخيرا السبب الرابع : ، وهو كسوة الكعبة :

فقد عنى الخلفاء منذ الفتح العربى لمصر باتخاذ كسوة الكعبة من المنسوجات النفيسة التى كانت تصنع بها . فقد كسا عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان - من بعده - الكعبة القباطى ، وهى ثياب بيض من صنع مصر ، فلما كان معاوية بن أبى سفيان كساها كسوتين ، كسوة عمر بن الخطاب القباطى ، وكسوة الديباج ، فكانت تكسى الديباج يوم عاشوراء ، وتكسى القباطى فى آخر شهر رمضان .

ويجدر بنا أن نذكر - كما تقول د . سيدة كاشف - أن مصر كما استمرت ترسل القمح سنويا إلى الحجاز حتى بعد أن انتقل مقر الخلافة ، وحتى بعد أن استقلت عنها - استمرت ترسل كسوة الكعبة سنويا . بل إن إرسال كسوة الكعبة من مصر إلى مكة كان يشير إلى زعامة مصر على الحجاز وعلى العالم الإسلامى كله ، وذلك منذ القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى .

وقد كانت المدن التى تنسج فيها كسوة الكعبة هى :

مدينة تنيس : وكانت تصنع بها كسوة الكعبة ، فيذكر الفاكهى فى كتاب أخبار مكة : «ورأيت كسوة من قباطى مصر مكتوبا عليها بسم الله ، بركة من الله ، مما أمر به عبد الله المهدى محمد أمير المؤمنين أصلحه الله محمد بن سليمان أن يصنع فى طراز تنيس كسوة الكعبة على يد الخطاب بن مسلمة عامه سنة ١٥٩ هـ» .

ويقول الفاكهى أيضا : « ورأيت من كسوة من كسا المهدي عليها بسم الله بركة من الله لعبد الله المهدي محمد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، مما أمر به إسماعيل بن إبراهيم أن يصنع فى طراز تنيس على يد الحكم بن عبيدة سنة ١٦٢ هـ . »

مدينة شطا : وكانت تعمل كسوة الكعبة بشطا ، فيقول الفاكهى : « ورأيت فيها كسوة من كسا أمير المؤمنين هارون الرشيد من قباطى مصر مكتوبا عليها : بسم الله بركة من الله لعبد الله هارون أمير المؤمنين أطال الله بقاءه مما أمر الفضل بن الربيع مولى أمير المؤمنين بصنعه فى طراز شطا كسوة الكعبة سنة ١٩١ هـ . »

تونة : وكان من جملة عمل مدينة تنيس قرية يقال لها تونة يعمل بها طراز تنيس ، ويصنع بها من جملة الطراز كسوة الكعبة أحيانا . قال الفاكهى : « ورأيت أيضا كسوة لهارون الرشيد من قباطى مصر مكتوب عليها : بسم الله بركة من الله للخليفة الرشيد عبد الله هارون أمير المؤمنين أكرمه الله مما أمر به الفضل بن الربيع أن يعمل فى طراز تونة سنة ١٩٠ هـ . »

كما ذكر المقرئى نقلا عن الفاكهى وجود قطعتين من كسوة الكعبة أحدهما كانت عام ٩١٧ هـ / ٨١٢ م والثانية كانت عام ٢٠٦ هـ / ٨٢١ م ، وإن لم يذكر المدينة أو القرية التى نسجت فيها .

فيقول المقرئى : قال الفاكهى فى كتاب أخبار مكة : « ورأيت كسوة مما يلى الركن الغربى ، يعنى من الكعبة ، مكتوبا عليها : مما أمر به السرى ابن الحكم وعبد العزيز بن الوزير الجروى ، بأمر الفضل بن سهل ذى الرياستين وظاهر بن الحسين سنة ١٩٧ هـ . »

« ورأيت شقة من قباطى مصر فى وسطها ، إلا أنهم كتبوا فى أركان البيت بخط دقيق أسود : مما أمر به أمير المؤمنين المأمون سنة ٢٠٦ هـ . »

وكانت المواد الخام التى تستخدم فى صناعة النسيج فى مصر هى :

١ - الكتان : وكان الكتان هو النبات الوحيد الذى تعتبر أليافه أقدم الألياف التى استعملت فى صناعة الغزل والنسيج منذ أقدم عصور مصر التاريخية . وكانت الفيوم أكبر مكان لزراعته وكان مادة تصدير ، حتى - كما يذكر آدم متز - ربما بلغ فارس .

ومن المدن التى تنتج الكتان - كما يذكر ابن بطوطة - مدينة « بوش » (١) ويقول عنها : « وهذه المدينة أكثر بلاد مصر كتانا ، ومنها يجلب إلى سائر الديار المصرية وإلى أفريقيا » . ومدينة « دلاص » (٢) أيضا ويقول عنها : « وهذه المدينة كثيرة الكتان أيضا كمثل الذى ذكرنا قبلها ، ويحمل أيضا منها إلى ديار مصر وأفريقيا » .

٢ - الصوف : وهو يعد ثانيا خامات النسيج فى الأهمية بعد الكتان ، وذلك فى العصر الإسلامى وقد أهتم بالصوف فى مصر منذ العصر البطلمى ، فلم يكن الصوف فى العصر الفرعونى ذا أهمية تذكر فى صنع الأقمشة .

٣ - الحرير : يعتبر الحرير ثالث خامات النسيج الطبيعية أهمية ، وقد عرفته مصر منذ عصر البطالمة وكانت من أهم السلع التجارية فى الاسكندرية ، واستمر الحال على ذلك حتى العصر الرومانى .

وقد كان خام الحرير يستورد من الهند والصين قبل انتاجه محليا فى الشام ومصر فى القرن السادس الميلادى .

إلا أن نسيج الحرير فى العصر الإسلامى قد تعرض لنوع من التقييد بسبب تحريم لبس الحرير على الرجال ، فقد ظهرت الأحاديث النبوية التى تحرم ذلك ، فقد ورد عن حذيفة بن اليمان (٣) قال : « نهانا النبى (ص) أن

(١) بوش : كورة ومدينة بمصر من نواحي الصعيد الأدنى فى غربي النيل . هى بمركز بنى سويف .

(٢) دلاص : بفتح أوله ، وآخره صاد مهملة . كورة بصعيد مصر على غربي النيل .

ويقول محمد رمزى فى قاموسه : إنها فى سنة ١٩٣٦ صدر قرار بالحاقها بمركز بنى سويف لقربها منه .

(٣) حذيفة بن اليمان وهو حُسيل بن جابر من بنى عبس حلفاء بنى عبد الأشهل ، ويكنى أبا عبد الله . شهد أحدا ، وتوفى بالمدينة عام ٣٦ هـ / ٦٥٦ م .

نشرب فى أنية الذهب والفضة وأن نأكل فيهما ، وعن لبس الحرير والديباج وأن نجلس عليه . وقد كان لهذا التحريم أثره، فوقف صنع الأقمشة الحريرية وفرض على استعمال الخيوط الحريرية فى التطريز أوامر صارمة، وبعد نقاش طويل دار حول كمية الحرير التى يسمح بوضعها فى الثوب ، انتهى الأمر بتحديد قدر معين من الحرير يباح نسجه فى الثوب .

ويلاحظ أن القطن لم يكن يستخدم فى تلك الفترة فى صناعة النسيج ، نظرا لأنه لم يكن يزرع لهذا الغرض ، وإنما كان يزرع لأغراض الزينة ، كما ذكرت ذلك فى الموضوع الخاص بالأرض والفلاح .

مراكز صناعة المنسوجات :

وقد ظلت مراكز صناعة المنسوجات فى العصر الإسلامى هى نفسها المدن التى اشتهرت بالنسيج فى العصر القبطى . ومن هذه المدن ما كانت تشتهر بإنتاج أنواع معينة من المنسوجات البيضاء أو الملونة الرقيقة أو الثقيلة .

وهذه المدن هى :

أولا : **تَنِيْس** : (١) وكان بها خمسة آلاف منسج ، وكان ينسج بتنيس أنواع عديدة من الأثواب أهمها :

١ - البدنة : وهو اسم للنسيج الثمين المخصص للسلطان ينسج من الذهب بصناعة محكمة ، ولا يدخل فيه من الغزل سداة (٢) ولحمة (٣) غير أوقيتين ، وقد أحكمه صانعه حتى إنه لا يحتاج إلى تفصيل ولا خياطة

(١) تَنِيْس : بكسرتين وتشديد النون وياء ساكنة والسين مهملة . وهى جزيرة فى بحر مصر قريبة من البر ما بين الفرما وبمياط ، والفرما فى شرقها .

ويقول محمد رمزى فى قاموسه : إن الجزيرة التى كانت بها مدينة تنيس لا تزال موجودة إلى اليوم ببحيرة المنزلة ، ومعروفة بجزيرة تنيس وبها بعض بقايا من الطوب الأحمر المخلف من مبانيها القديمة . وهذه الجزيرة واقعة فى الجنوب الغربى لمدينة بور سعيد وعلى بعد تسعة كيلو مترات منها .

(٢) السدئى من الثوب جمع أسدية . أى مامد من خيوطه وهو خلاف اللحمة .

(٣) اللحمة جمع لحم . أى مانسج عرضا وهو خلاف سداه

(٤) البنية والبنقة . رقعة تزداد فى نحر القميص - طوقه - لتوسيعه .

غير الجيب والبناثق^(٤) وكان يصنع لكل ملك من ملوك مصر هذا الثوب فى كل عام ، كما كان يحمل من مصر إلى بغداد برسم الخلفاء . وكانت تباع كل بدنة منها بألف دينار ، وفى رواية أخرى بخمسمائة دينار .

٢ - ثياب الشروب : وهو نوع من الحرير أو الكتان النقى الفاخر. ويذكر صاحب كتاب « الاستبصار » أن بتنيس « تحاك ثياب الشروب التى لا يصنع مثلها فى الدنيا » .

٣ - طراز من الكتان : ويذكر ابن اياس أنه كان يعمل بها طراز من الكتان بغير ذهب ، يباع كل طراز منها بمائة دينار ، ويذكر الكندى أنه لا يبلغ قيمة ثوب الكتان هذا الثمن إلا اذا كان مصنوعا فى تنيس أو دمياط .

٤ - الحل التنيسية : يذكر ابن حوقل أنه ليس فى جميع الأرض مايدانيتها فى القيمة والحسن والنعمة والترف والرقعة، وربما بلغت الحلة من ثيابها مائتين دنانير اذا كان فيها ذهب ، وقد يبلغ مالا ذهب فيه منها مائة دينار. ٥ - القصب التنيسى : يقول الكندى : وكان بها القصب التنيسى ، وهى ثياب رقيقة جدا من الكتان ، وصفها الكتاب المسلمون بأنها « مهلهلة النسج كأنها المنخل » ، وكان هذا القصب يلون ، ويعمل منه عمائم للرجال وملابس للنساء .

٦ - الثوب الديبقي : وكان يُعمل بها ، كما يعمل بدمياط ، وسنذكره عند الكلام عن ديبق .

ثانيا : دمياط :

وكان بسبب قربها من مناطق زراعة الكتان أن تفوقت فى صنع المنسوجات الكتانية خاصة ، هذا إلى جانب صناعة المنسوجات الحريرية والقطنية .

وكان ينسج بدمياط نفس الأنواع التى كانت تنسج بتنيس تقريبا ، فكان ينسج بها :

١ - ثياب الشروب : وكانت صناعته فيها أجود من صناعته فى تنيس.

٢ - طراز الكتان : وكان يعمل بها ، كما كان يعمل بتنيس .

٣ - وكان بها مناشف الأبدان والأرجل .

- ٤ - وكان لا يعمل بدمياط مصبوغ ولا بتنيس أبيض .
- ٥ - وكان يعمل بها كذلك الثوب الأبيض الدبيقى ، وسيأتي ذكره عند الحديث عن دبيق التى تنسب إليها .
- ٦ - كما كان يعمل بها ثياب القصب الأبيض .
- وعن أثمان الأثواب في دمياط ، يذكر ياقوت أن الثوب الأبيض بدمياط كان يبلغ ثمنه ثلاثمائة دينار وليس فيه ذهب ، أو مائة أو مائتين دينار ، وربما بلغ الثوب إذا كان مطرزا بالذهب ألف دينار . وكانت الأمتعة الفاخرة فيها يباع الذراع منها من عشرة دراهم إلى عشرة دنانير .

ثالثا : دبيق (١)

ومن أنواع الثياب بها :

- ١ - الثوب الدبيقى : وينسب إليها وهو من النسيج الحريرى المنسوج بالذهب يبلغ قيمة الثوب منها مائة دينار .
- ٢ - عمامة الشرب المذهبة : وكانت تعمل بقرية دبيق ، ويصل طول كل عمامة مائة ذراع ، وفيها رقعات منسوجة بالذهب ، تبلغ قيمة العمامة منها مائة دينار ذهب في رواية ابن اياس ، أما المقرئى فيذكر أن قيمتها بلغت خمسمائة دينار . وقد اختلفت رواية ابن اياس عن المقرئى فى الوقت الذى ظهرت فيه هذه العمام ، ففي الوقت الذى يذكر فيه ابن اياس أنها ظهرت حتى عام ٣٦٥ هـ ، نرى المقرئى يخبرنا أنها لم تظهر إلا فى عام ٣٦٥ هـ أى فى الدولة الفاطمية وبالأخص فى أيام العزيز بالله بن المعز (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ / ٩٧٥ - ٩٩٦ م) .
- ٣ - القماش الدبيقى الثقيل : وكان هذا القماش - كما يذكر آدم متر - جيد النسيج ، إذا انشق كان له صوت عال ، وكان يستعمل فى رسم الخرائط عليه بالأصباغ المشمعة ، وربما بلغ ثمن الثوب من هذا الدبيقى مائة دينار ، فإذا كان به ذهب بلغ المائتين .

(١) دبيق : من قرى مصر قرب تنيس . وقد اندثرت ، ومكانها اليوم يعرف بتل ديقو أو بجو بالقرب من شاطئ بحيرة المنزلة فى الشمال الشرقى لناحية صان الحجر بمركز فاقوس بمديرية الشرقية وعلى بعد ٥٥٠ متر من صان الحجر .

رابعاً : الاسكندرية :

وعن ثياب الاسكندرية يقول المقرئى:«والثياب المنسوجة لا نظير لها وتحمل الى أقطار الأرض».

ومن أنواع الثياب التى كانت تنسج بالاسكندرية:

- ١ - الشرب: وهو ثوب من الكتان كانت الاسكندرية تبيع منه كل زنة درهم بدرهم فضة.
- ٢ - طراز من الكتان: أما مايدخل من الكتان فى الطراز فكان يباع بنظير وزنه مرات عديدة كما يقول المقرئى.
- ٣ - الوشى: وهو نوع من الثياب الرقيقة المنسوجة من الحرير وهى مرقومة بالوان شتى. وكان يصنع منها فى كل من الاسكندرية واليمن والكوفة.
- ٤ - الأقمشة الحريرية: وكانت تنسج فى الاسكندرية كما كانت تنسج فى دبيق.

خامساً : البهنسا : (١)

وكان بها قيسارية للبز وكان ينسج بها:

- ١ - الستور البهنسية: وكان يبلغ طول الستور الواحد ثلاثين ذراعاً، ويقدر قيمة الزوج بمائتى مثقال ذهب. وقد ذكر ابن حوقل أن الزوج من هذه الستور كان يساوى نحو ثلاثمائة دينار.
- ٢ - المضارب الكبار (٢).
- ٣ - وكان يعمل بالبهنسا أيضاً البسط، وأجلة (٣) الدواب، والبراقع، والأكسية (٤)، والطيايسة، والفساطيط العظام.
- ٤ - ويذكر ابن بطوطة فى كتابه أن بمدينة البهنسا «ثياب الصوف الجديدة».
- ٥ - وعن طراز البهنسا، يذكر الكندى أن طراز البهنسا من الستور

(١) البهنسا: بالفتح ثم السكون، وسين مهمة مقصورة. وهى مدينة بمصر من الصعيد الأدنى غربى النيل.

والبهنسا الآن قرية من قرى مصر، مركز بنى مزار مديرية المنيا.

(٢) المضرب جمع مضارب: أى الخيمة العظيمة.

(٣) الجل جمع جلال وأجلال : الدابة كالثوب للانسان تصمان به.

(٤) الكساء جمع أكسية: الثوب .

والمضارب يفوق طراز أهل الدنيا، فكان يبلغ ثمن الطراز بغير ذهب مائة دينار. ويقول المقرئى إنه كان إذا صنع بالبهنسا شيء من الستور والأكسية والثياب من الصوف، فلا بد أن يكون اسم المتخذ له مكتوباً، وقد استمروا على ذلك جيلاً بعد جيل. وكان نسيج الصوف والكتان بالبهنسا يتم بأصباغ والأوان تثبت فيها .

سادسا : شطا : (١)

١ - وتنسب إليها الثياب الشطوية. وعن الثياب الشطوية يقول المقدسى: «وَأما الثياب الشطوية فلا يمكن للمقبطى أن ينسج شيئاً منها إلا بعد ما يختم عليها بختم السلطان، ولا أن تباع إلا على يد سماسرة قد عقدت عليهم، وصاحب السلطان يثبت مايباع في جريدته، ثم تحمل إلى من يطويها، ثم إلى من يشدها بالقش، ثم إلى من يشدها فى السفط، وإلى من يحزمها. وكل واحد منهم له رسم يأخذه. ثم على باب الفرضة يوه خذ أيضاً شيء، وكل واحد يكتب على السفط علامته ثم تفتش المراكب عند إقلاعها».

٢ - كما كانت مصانع شطا تنسج الشرب الرفيع الذى تبلغ قيمة الثوب منه ثلاثمائة درهم .

٣ - وتعمل بها كسوة الكعبة كما ذكرت سابقاً.

سابعاً: مدينة قيس : (٢)

١ - وينسب إليها الثياب القيسية.

٢ - ولهم ثياب الصوف وأكسية المرعز (٣) من الصوف العسلي الذى لم يكن له نظير فى المناسج الأخرى. ويذكر ابن اياس أن الأكسية العسلية التى

(١) شطا: بالفتح، بليدة بمصر على ثلاثة أميال من دمياط على ضفة البحر المالح (بحيرة المنزلة) .

وشطا مركز فارسكور مديرية النقهلية.

(٢) قيس : وكما يقول المقرئى - هى قرية بصعيد مصر فى غربى النيل، كان فتحها على يد قيس بن الحارث المرادى، فسميت باسمه، وكان شهد فتح مصر. ويرى محمد رمزى أن هذه الرواية غير صحيحة، لأن القيس كانت معروفة بهذا الاسم، قبل فتح العرب لمصر، وإنما يحتمل أن الذى فتحها بعد دخول العرب لمصر، هو قيس بن الحارث المرادى، ولمصادفة تشابه اسمه باسم القيس ظن مورخو العرب أنها سميت له . والقيس بمركز بنى مرار - مديرية المنيا .

تعمل بها من صوف المرعز، تغنى في الشتاء عن لبس الفرو. وتذكر المصادر العربية أن معاوية «لما كبر كان لا يدفا، فأجمعوا أنه لا يدفنه إلا أكسية تعمل في مصر من صوفها المرعز العسلى غير مصبوغ، فعمل له منها عدد، فما احتاج منها إلا إلى الواحد» .

٣ - كما كانت مدينة قيس تشارك البهنسا في شهرتها في طراز الستور والمضارب .

ومن مراكز النسيج كذلك :

القس (١) : وتنسب إليها الثياب القسية.

دمنهو: ونعنى بها دمنهور الوحش، وإليها تنسب الثياب الدمنهوية.

أسيوط: وكان يعمل بها الفرش القرمز^(٢) الذى يشبه الأرمنى، ويقول عنها ياقوت إن بها مناسج الأرمنى والديقى المثلث^(٣). كذلك كان يعمل بها مناديل من الكتان كانت تصدر إلى الحجاز.

وقد اكتسب صوفها شهرة واسعة في عصر الولاة، وكان يسمى بالصوف المصرى.

إخميم: وكان يعمل بها الفرش القطوع الذى يسمى نطوع الخز^(٤).

وقد ظلت مدينتا أسيوط وإخميم فى صعيد مصر من أهم مراكز نسيج الحرير، وليس لدينا من دليل يشير إلى توقف تلك الصناعة منذ ازدهارها فى العصر البيزنطى، بل إنه يوجد من الأبله ماينفى ذلك فقد عثر فى إخميم على لباس من الحرير كتب عليه اسم الخليفة مروان، ولم يذكر تاريخ صناعته أو نسجه لمعرفة المقصود بالخليفة هنا: هل هو مروان بن عبد الحكم أو أنه مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين، ومهما كان الاختلاف فى نسبة الاسم، فإنه يكفى كليل واضح على استمرار تلك الصناعة فى ذلك العصر.

(١) القس : بالفتح ناحية من بلاد الساحل قريبة إلى ديار مصر، قريبة من الساحل بين الفوما والعريش. وتعرف اليوم باسم القلس على ساحل البحر الأبيض المتوسط فى الشمال الشرقى لمحلة بئر العبد.

(٢) القرمز صبغ أحمر أرمنى الأصل.

(٣) وربما يقصد المثلث أى المنسوج من صوف ووبر وشعر.

(٤) الخز جمع خزون: الحرير، مانسج من صوف وحرير أو من حرير فقط .

أهناس : وكانت تعمل بها الأكسية وقد عرفت بها .
تونة .^(١) ويضرب المثل بحسن معمول ثيابها وطرازها كما يقول ياقوت.

صناعة الورق :

كانت مصر منذ العهد الرومانى تشتهر بصناعة الورق من البردى الذى كان ينمو بكثرة فيها وخاصة فى مستنقعات الدلتا والفيوم. وقد استمرت هذه الصناعة فى مصر بعد الفتح العربى فيقول ابن فقيه: إن فى مصر القراطيس ^(٢) «التي لا يشركهم فيها أحد». وكانت مصر تصدر أوراق البردى الى الشعوب الأخرى، فيقول آدم متز: وكان الناس طول استعمالهم للبردى يعتمدون على مصر. وكان أهم مراكز البردى فى مصر هى: بورة ^(٣) وهى على ساحل البحر غربى فرع رشيد. ويبدو أن الفسطاط كانت توجد بها مصانع القراطيس منذ وقت مبكر، حيث يذكر ابن عبد الحكم أن العرب كانوا يختطون حول أصحاب القراطيس الدور والسكن. كما يشير ابن ظهيرة الى أن مدينة أسيوط بالصعيد كانت تضم مصنعا لانتاج الورق. ولا شك أن أهم مصانع الورق ما كان يوجد منها بالاسكندرية، فقد اشتهرت منذ العصور القديمة بانتاجها.

وقد كان الصناع المصريون يجيدون عمل أنواع من البردى، منه مانعم وغلا، ومنه ما خشن ورخص، حتى قيل إنه كانت المصانع المصرية تنتج سبعة أصناف من ورق البردى.

وقد بلغ من اجادة هؤلاء الصناع لورق البردى أن المعتصم عندما أنشأ مصانع للورق جلب لها الأساتذة والصناع من مصر.

(١) تونة : جزيرة قرب تنيس ودمياط. وهذه الجزيرة تعرف اليوم بجزيرة عبد الله بن سلام الواقعة فى بحيرة المنزلة شرقى بلدة المطرية، وعلى بعد أربعة كيلو مترات منها، ولا تزال آثار اطلال هذه القرية ظاهرة بالجزيرة المذكورة باسم كوم ابن سلام.

(٢) تسمى العرب ما يكتب فيه القراطيس، وجمعه قراطيس .

(٣) بورة : مدينة على ساحل بحر مصر قرب دمياط . ويقول محمد رمزى فى قاموسه إن بورة كانت واقعة على الشاطئ الغربى للنيل تجاه قريتى العادلية والبستان الواقعتين على الشاطئ الشرقى منه. ومكانها اليوم القرية المعروفة بكفر البطيخ إحدى قرى مركز شربين بمديرية الغربية، واقعة فى الجنوب الغربى لمدينة دمياط وعلى سبعة كيلو مترات منها. والظاهر أنه لكثرة زراعة صنف البطيخ بأراضيها اشتهرت به فتقلب اسمه عليها واختفى اسم بورة .

وقد ذاعت شهرة مصر بانتاجها من الورق، فقد كان من أهم منتجاتها ذات القيمة الاقتصادية حيث كان يتم تصديره الى بيزنطة وغيرها من بلاد العالم الخارجى، بالاضافة الى أسواق بغداد.

وقد استمرت شهرة مصر بانتاج الورق وتصديره للخارج حتى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى عندما ظهرت كواغيد سمرقند التى عطلت قراطيس مصر - على حد قول الثعالبي - والجلود التى كان الأوائل يكتبون عليها ، لأنها أحسن وأنعم وأرق وأوفق، وكانت هذه الكواغيد لا تصنع إلا بسمرقند والصين فقط. ويقول كراباتشك Karabacek : «يمكننا أن نقول مع كثير من الترجيح إن صناعة تجهيز ورق البردى بمصر للكتابة، قد أصبحت منتية بالاجمال حوالى منتصف القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى)، فنجد أن الورق البردى المورخ ينتهى فى عام ٣٢٣هـ / ٩٣٥م انتهاء تاما، على حين أن الوثائق المكتوبة على الكاغد يبدأ تاريخها منذ عام ٣٠٠هـ/ ٩١٢».

صناعة الزجاج :

كانت صناعة الزجاج مزدهرة فى مصر منذ العصور القديمة، وكان مركزها قبل الاسلام مدينة الاسكندرية. وقد بلغ ما كانت تنتجه مصر من المصنوعات الزجاجية حدا من الاتقان والوفرة حتى إن الامبراطور الرومانى سيفروس Alexander severus طلب أن يكون جزء من جزية مصر من مصنوعات الزجاجية. كما قيل إن الامبراطور نيرون، قد دفع خمسين جنيها ذهبيا ثمنا لكوبين من الزجاج من صناعة طيبة.

وقد استمرت مصانع مدينة الاسكندرية فى انتاج الزجاج فى فجر الاسلام، على الرغم من أن مدينة القسطنطينية - التى كان فيها أكثر من مصنع للزجاج فى القرن الثانى الهجرى - انتزعت منها القيادة فيه.

وكان صناعة الزجاج يقومون بصنع الأوزان الزجاجية والخواتم التى كان يطبع بها على الأوانى لبيان أحجامها المختلفة، كما كانوا يصنعون الأوانى الزجاجية بمختلف الاشكال والأحجام فضلا عن القوارير لحفظ العطور، وغير ذلك .

ولعله أقدم ما وصلنا حتى الآن من الزجاج الاسلامى المورخ هى صنع واختام ومكايل والى مصر قرة بن شريك التى ترجع الى سنة ٧٠٨هـ/٧٠٨م، وقد كانت المكايل تتألف عادة من أوان زجاجية يميل لونها الى اللون الأخضر، أما شكلها فهو إما مخروطى أو بيضاوى أو كروى، ذات فوهات واسعة أو ضيقة حسب الغرض الذى صنعت من أجله.

وعندما استقلت مصر تحت حكم الطولونيين والاخشيديين شهدت نشاطا ملحوظا فى سائر الحرف والصناعات، فقد تطلبت نشأة القطاعات ومظاهر الترف فى القصور الطولونية المزيد من انتاج مصانع الزجاج.

ومن أشهر الصناع الذين سجلوا توقيعهم على احدى التحف الزجاجية فى عهد الدولة الطولونية، كان نصير بن أحمد بن هيثم، فقد صنع لأحد أمراء هذه الدولة تحفة من الزجاج مكتوبا عليها « مما عمل للأمير ربيعة» (١) ولعل نصير الزجاج هذا كان ابنه اسحق الذى أشار اليه ابن النديم فى أخبار الكيمائيين، وقد جاء فى ترجمته أنه كان يخرط الزجاج ويصنف الكتب فى هذه الصناعة، ومنها كتابه المسمى بالتلاويح وسيول الزجاج، وكتاب صناع الدر الثمين، وقد توفى سنة ٣٢٦هـ/٩٣٧م فى بداية عهد الاخشيديين.

صناعة الخشب :

اشتهرت مصر منذ عهد الفراعنة بصناعة الخشب على الرغم من قلة الأخشاب فى مصر، وإن ما يوجد بها من الشجر لا يصلح خشبه إلا لأعمال التجارة البسيطة، مثل شجر الجميز والسنت والزيتون والسر والنبق. وكان المصريون منذ العصور القديمة يستوردون من البلاد المجاورة ما يلزمهم من خشب الأرز والصنوبر والابنوس والساج، وغيرها من أنواع الخشب المتين، وكان جفاف الجو يساعد على بقاء الخشب فى حالة جيدة. ويذكر ابن الفقيه أن بمصر الابنوس الأبيض الذى يتخذ منه الأسرة.

(١) والأمير ربيعة هو فى الغالب ابن أحمد بن طولون الذى قيل أنه قام بثورة ضد ابن اخيه هارون بن خمارويه فى سنة ٢٨٣هـ/٨٩٦م، وكانت قد انتهت بالفشل وقتل ربيعة.

وقد اشتغل الرهبان بالنجارة أيضا وأتقنها الكثير منهم، فلما جاء المسلمون تركوا الصناعة في يد الأقباط، خاصة وإذا علمنا أن العرب قد استعانوا، قبل ظهور الاسلام، بأحد النجارين من الأقباط في إعادة بناء الكعبة عندما صدع جدرانها نتيجة لسيل عظيم تعرضت له، وكان هذا النجار يسكن مكة، وكان معه تاجر رومى اسمه باقوم، كان البحر قد عصف بسفينته القادمة من مصر، فتحطمت في ثغر جدة، وكانت تحمل مواد بناء معدة لكنيسة في بلاد الحبشة.

وقد وصلت الينا قطع كثيرة من الخشب ذى الزخارف، مستعملة في الأبنية، أو فى قطع الاثاث. وأقدم هذه القطع يرجع الى القرنين الثانى والثالث الهجرى (الثامن والتاسع الميلادى)، وقد وجد فى القرافة القديمة بالفسطاط حيث كان يستعمل بعد كسره من الأبنية والاثاث، لمنع انهيار الأتربة فى المدافن، وقد ظهرت فى هذه القطع الأساليب القبطية فى الصناعة، مع تطورها التدريجى لتتخذ لنفسها مسحة اسلامية. وقد وصلت الينا قطع خشبية ترجع الى عصر الانتقال بين الصناعة القبطية البحتة، فى القرن الأول الهجرى (٧م) والصناعة الاسلامية فى القرن الثالث الهجرى (٩م)، وهذه القطع مزخرفة بالنقوش التى امتاز بها الشرق الأدنى فى العصر المسيحى، وبعض القطع المذكورة لا تكاد يميزه عن القطع القبطية إلا بما عليه من كتابات عربية.

وكان من الطبيعى أن يستخدم العرب قطع الاثاث القبطية، كالدواليب والموائد، ولعلمهم أخذوا عنهم أيضا الكرسى الذى يحمل عليه المصحف، والذى يعرفه باسم منجليه (أى محل الانجيل).

صناعة الجلود فى مصر :

يبدو أن المصريين فى القرن الرابع الهجرى - كما تذكر الدكتورة سيدة كاشف - تعلموا من الزنوج صناعة بعض أنواع الجلود.

ومن المراكز التي تصنع الجلود بها :

مدينة إخميم : وتنسب اليها الجلود الاخميمية.

ومدينة دلاص : وينسب اليها اللجم الدلاصية.

وكان يعمل بالصعيد من الجلود الأنطاع (١).

صناعة الحصر في مصر :

ومن الصناعات التي عرفت في مصر أيضا صناعة الحصر، وكان الحصر نوعان كما يقول ابن زولاق :

النوع الأول، وهو نوع فاخر غالى الثمن يستخدمه الأغنياء، منه ما يعرف باسم حصر السامان وحصر العبادان. وقد عرف حصر العبادان بهذا الاسم لأنه كان يصنع بمدينة عبادان، وهي جزيرة على نهر شط العرب، وكانت مصر وفارس تقلد صناعته.

أما النوع الثاني فهو حصر الحلفاء، يستخدمه الفقراء لرخص ثمنه فيما يبدو. ويبدو لنا أن صناعة الحصر في مصر لم تقتصر على هذين النوعين فقط وإنما كانت هناك أنواع أخرى، فيقول السيوطي: إن بمصر أصناف لا حصر لها من الحصر.

المعاصر وصناعة السكر والزيت :

كان المصريون يعصرون القصب ليصنعوا منه السكر، ونعرف ذلك مما جاء في الأوراق البردية. وكان عصر قصب السكر يتم في شهر كيهك (ديسمبر)، فيقول المقرئى : وفي شهر كيهك «كسر قصب السكر واعتصاره، واستخدام الطباخين لطبخ القنود» (٢).

(١) الأنطاع جمع أنطاع ونطوع وهو بساط من الجلد، وتعرف أيضا باسم الأنطاع فيقول ابن خلكان عن الأنطاع: «وهي البسط التي تفرش، وغير ذلك من آلة الفرش من الأنطاع والوسائد، وأهل مصر يسمون هذه الآلات الأنطاع ويأمنها الأنطاع». وقد اشتهرت حرفة الأنطاع في مصر، خاصة في العصر الفاطمي وذلك لاحتياج المنزل الفاطمي لاعداد كبيرة منها، حيث كانت تستخدم لتوضع على مائدة الطعام. وغالبا ما كانت الأنطاع أو الأنطاع يتم زخرفتها بالوان جميلة ورسومات دقيقة. وترى - الدكتور أمينة الشوريحي - أنها تشبه مفرش السفرة في عصرنا الحالى. وكانت تصير الى الشام وغيرها من البلاد.

(٢) القند جمع قنود. وعمل القنود هي غسل قصب السكر اذا جمد .

ويتذكر المصادر أن الفسطاط كان بها مطابخ السكر.

ومن البلاد التي كان بها معاصر لقصب السكر، خاصة وأنها تقوم بزراعتها : مدينة ملوى، فقد كان بها إحدى عشرة معصرة للسكر، «وكان من عوائدهم أنهم لا يمنعون فقيرا من دخول معصرة منها، فيأتي الفقير بالخيزة الحارة فيطرحها في القدر التي يطبخ السكر فيها، ثم يخرجها، وقد امتلأت سكرا، فينصرف بها».

ومن البلاد أيضا سمهود^(١) وهي كثيرة المعاصر لقصب السكر، فقد كان بها سبعة عشر حجرا.

كذلك كان في مصر معاصر لاستخراج الزيت من السمسم وبعض الحبوب والبقول. ويذكر ابن دقماق أن درب المعاصر بالفسطاط عرف بدرب المعاصر لأن في بدايته معصرة زيت لم يكن بمصر مثلها لجودة عمارتها، وكثرة أعوادها وعدة أحجارها.

ويذكر ابن اياس أن مدينة تنيس كان بها مائة معصرة، إلا أنه لم يذكر هل كانت للزيت أو للسكر ! !

صناعة الخزف :

كما اشتهرت مصر بصناعة الخزف، وقد ظل صناع الخزف في مصر محتفظين بمهارتهم وبسر هذه الصناعة منذ عهد الفراعنة.

وأشهر ما عمل من الخزف هي أواني الخزف للماء (لتخزين الماء فيها)، ويذكر المقرئ أن هذه الأواني أفضلها ما عمل في شهر أمشير (فبراير) حيث تمتاز بتبريد الماء في الصيف أكثر من تبريد ما يعمل في غيره من الشهور.

(١) سمهود : يفتح أوله، وسكون ثانيه ويقال بالبدال المهملة مكان الطاء. قرية كبيرة على شاطئ غربي النيل بالصعيد. وسمهود مركز نجح حمادى مديرية قنا. وكانت قد قسمت في عام ١٢٤٥هـ إلى خمس نواح، وهي سمهود هذه وهي الأصلية، والبحرى سمهود، والقبلى سمهود، والأوسط سمهود والشرقى سمهود.

وقد استطاع صناع الخزف أن يبتكروا أنواعا جديدة من الخزف كالأطباق والصحون العميقة والمسطحة التي كانت تستخدم في الطعام، وقد شجع المسلمون هؤلاء الصناع، حيث زاد الاقبال والطلب على الأواني الخزفية بدلا من الأواني الذهبية والفضية التي كره الاسلام استعمالها. ولم تقتصر مراكز صناعة الخزف على الفسطاط، بل كانت أسوان وإسنا وأخميم وأسيوط والأشمونين والفيوم وغيرها من المدن المصرية، وكانت الفيوم تنتج أنواعا من الخزف المسمى بخزف الفيوم، كما اشتهرت البهنسا أيضا بمصانعها الخزفية.

وفي الدولة الطولونية ظهر نوع جديد من الخزف عرف باسم الخزف ذى البريق المعدنى، وأكبر الظن أن أحمد بن طولون أدخله الى مصر نقلا عن سامرا (١).

وقد اختلف علماء الآثار عن نشأة الخزف ذى البريق المعدنى، فقد قال فريق العلماء الفرنسيون بأنه نشأ في إيران، أما فريق العلماء الألمان فيقولون بنسبته للعراق وخاصة في مدينة سامراء، أما بتلر فيؤكد نسبته الى مصر، بل ويرجعه الى العصر القبطى .

صناعة الفخار :

كما كان يصنع بمصر أيضا الفخار ، وخاصة في الأقصر ، فيذكر الأديب أن بالأقصر الفخار الأقصرى الذى « ليس في ديار مصر مثله » ، وكان يصدر إلى الخارج .

صناعة الصابون :

كان المصريون أسبق الأمم إلى اكتشاف المواد التي يصنع منها الصابون . وكان المصريون يصنعون الصابون من زيت الزيتون وزيت الفجل والسلجم (٢) والخس .

(١) سامراء : بلد على بحيرة فوق بغداد بثلاثين فرسخا ، يقال لها سر من رأى ، فخففها الناس وقالوا سامراء. وسر من رأى هي المدينة الثانية من مدن خلفاء بني العباس سكنها ثمانية منهم ، وهم : المعتصم وهو الذى أنشأها ، والواثق هارون ابنه ، والمتوكل جعفر بن المعتصم ، والمنتصر محمد بن المتوكل ، والمستعين أحمد بن محمد بن المعتصم ، والمعتز أبو عبد الله بن المتوكل . والمهتدى محمد بن الواثق والعتد أحمد بن المتوكل .

(٢) السلجم أو الشلجم وهو اللفت .

وعن انواع الصابون فى مصر يذكر البغدادى أن صابونهم رطب أحمر وأصفر وأخضر، وبه شبهت الصابونية التى كانت من أنواع الحلوى

أما بالنسبة لمراكز صناعة الصابون فيبدو لنا انها كانت منتشرة فى كثير من البلاد فتذكر المصادر العربية أن الفسطاط كان بها مطابخ للصابون . كما يذكر الحميرى أن فقط^(١) كان صابونها معروف النظافة .

صناعة الشمع :

وقد اشتهرت مصر ابان الفتح العربى وفى عصر الولاة بإنتاج الشمع من خلايا النحل ، وفضله العربى على غيره من الشمع . وكان صالح بن على والى مصر أول من اتخذ الشموع الطوال . وكان للمصريين مهارة كبيرة فى صنع الشموع ، فكانوا يصنعون منه أنواعاً مختلفة وقد شاع استخدامه فى ذلك العصر. وفى عهد الطولونيين ، لما زفت قطر الندى بنت الأمير أبى الجيش خمارويه على الخليفة المعتضد بالله، قال المعتضد : اكرموها بشمع العنبر .

صناعة حضانة الفرايج :

وقد كانت صناعة حضانة الفرايج إحدى الصناعات التى مارسها المصريون منذ العصور القديمة فقد كان التفريخ الصناعى للبيض من مبتدعات المصريين، وكان غير معروف فى الأقطار الأخرى وهكذا انفرد المصريون فى قيامهم بعملية التفريخ بطريقة الترقيد الصناعى التى برعوا فيها منذ فجر الإسلام. ويظهر أن هذه الطريقة لم تنتقل من مصر الى غيرها من بلاد العالم الخارجى حتى العصر الأيوبي، يومئذ ذلك ما أوضحه البغدادى فى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى بانها إحدى الصناعات التى إختصت بها مصر وحدها .

(١) فقط : بكسر أوله ، وسكون ثانيه . وهى مدينة شرقى النيل ، بصعيد مصر الأعلى ، وإيست على ضفة النيل ، بل بينهما نحو الميل ، وساحلها يسمى بقطر ، وبينها وبين قوص نحو الفرسخ . وقطر مركز قنا - مديرية قنا .

وقد كان المصريون يتاجرون فى هذه الصناعة ويتكسبون منها . وكانت طريقة بناء هذه المعامل تتم بطريقة معينة ، فتعمل كالتنانير ، وتوقد بنار تحاكي بها نار الطبيعة فى حضانة الدجاجة للبيض، ويخرج من تلك المعامل الفراريج، وهى معظم دجاجهم، ولا تعمل هذه التنانير الا بمصر . وكان البيض يرقد فى هذه المعامل أربعة أشهر آخرها شهر بشنس (مايو).

صناعة المعادن :

كانت أنواع المعادن فى مصر هى :

١ - الذهب ^(١) وكان الذهب يستخرج من الصحراء الشرقية بين أسوان وعيذاب ، وكان وادى علاقى مركز الذين يبحثون عن هذا المعدن النفيس، وكان سكان هذا الوادى وهم البجة عبيد من الزنوج يعملون فى استخراج التبغ . وفى سنة ٣٣٢هـ / ٩٤٣ م كان سيد قبيلة ربيعة هو صاحب السلطان فى هذه المنطقة .

ويذكر ياقوت أن المحتفر اذا وجد ذهباً فجزة منه للمحتفر وجزة منه لسلطان العلاقى ، وهو رجل من بنى حنيفة من ربيعة .

٢ - الزمرد ^(٢) : وكان هذا المعدن تنفرد به مصر ، ومنها يحمل إلى سائر الدنيا ، فتذكر المصادر العربية أنه ليس فى الدنيا معدن الزمرد إلا بمصر من نواحي الصعيد ، وهو على القرب من مدينة قفط ومن منطقة الذهب . وقد استمر استخراج هذا المعدن إلى أواخر الدولة الناصرية محمد بن قلاوون ، ثم أهمل لقلته ما يتحصل منه مع كثرة التكلفة .

(١) يوجد الذهب فى الطبيعة منتشرا بكثرة على هيئة معدن ، ولم يوجد فى حالة نقية . بل يكون دائما محتويا على كميات من الفضة أو النحاس ، وأحيانا نجد فيه آثار حديد ، ومعادن أخرى . ويوجد الذهب فى الطبيعة عادة فى شكلين ، اما فى عروق غير منتظمة فى ثنايا صخور الكوارتز ، أو فى الرمال الغرينية والحصى . وهذا ناتج من تفتت صخور تحتوى على مادة الذهب ، قد حملها تيار ماء جف فيما بعد . وقد عثر على الذهب فى هاتين الحالتين . ولما كان من السهل معرفة الذهب بلونه الأصفر البراق ، وكذلك بسهولة استخراجه فقد عرفه المصري واستعمله منذ عصور سحيقة ترجع إلى ما قبل الأسرات . والذهب يوجد فى مناطق شاسعة فى مصر بين وادى النيل والبحر الأحمر ، وبخاصة فى الصحراء الشرقية جنوبا من طريق قنا والقصور إلى حدود السودان . وقد وجد أن عدد المناجم التى شغلت قديما فى الكوارتز لاستخراج الذهب يبلغ عددها نحو المائة ، والواقع أن المصريين كانوا من أمهر الباحثين عن هذا المعدن ، إذ لم يوجد مكان يشعر بوجود الذهب فيه ، إلا وجدنا المصريين قد سبقوا إليه ، وقتلوه لحصا وتثقيبا .

(٢) الزمرد من الأحجار الكريمة ، ولونه اخضر أو أزرق باهتا أو أصفر أو أبيض . غير أننا لا نعرف منه =

٣ - الزبرجد : وكان يستخرج من منطقة فى صعيد مصر من جنوب النيل فى بركة منقطعة عن العمارة . وقد ظل المصريون يستخرجون هذا النوع من الزبرجد حتى عام ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ م ، وهكذا يمكن القول بأنه حتى زوال الدولة الفاطمية كانت مصر تعمل على استخراجها ، وتشتغل بتجارته ، ولها الشهرة فى مجال تصديره إلى الخارج .

٤ - الشب : يقول عنه ابن مماتى : وهو حجر معروف يحتاج إليه فى أشياء كثيرة ، أهمها صبغ الأحمر ، وكان الروم يستخدموه بكثرة ، ومعادنه بصحراء صعيد مصر والواحات . وكانت العرب تهبط به إلى ساحل قوص ، وإلى ساحل إخميم ، وإلى البهنسا ، إن كان أتى به من الواحات ، ويحمل من أى ساحل كان فيه إلى الاسكندرية .

٥ - النطرون ^(١) : وكان يستغل من منطقتين احدهما تسمى الطرانة من أعمال البحيرة بالوجه البحرى ، ويذكر صاحب « التعريف » انه لا يعلم فى الدنيا بقعة صغيرة يستغل منها أكثر مما يستغل منها ، فإنها نحو مائة فدان تغل نحو مائة ألف دينار فى كل سنة ، أما المنطقة الثانية فهى منطقة فاقوس بشرق الدلتا ، ولم يكن معدنها على جودة معدن المنطقة الأولى .

= إلا الأخضر الذى كان يستعمل فى مصر قديما ، ويوجد الزمرد فى منطقة سقاية زيارة فى تلال البحر الأحمر حيث توجد مناجم عظيمة له ربما كانت من عهد الإغريق الرومانى . ومن المحتمل أن أنواعا جميلة من هذا الحجر قد وجدت قديما ولم يمكن العثور عليها الآن . والزمرد يكون دائما شفافا ، ولا يكون قط مظلما ، وكان المصرى يستعمله دائما فى قطعة السداسية الشكل ، وذلك لأنه أصلب من حجر الكوارتز فكان يصعب عليه بطريقة منتظمة . والظاهر أن الزمرد المصرى لم يستعمل قط فى مصر القديمة قبل عصر البطالسة ، ولذلك فإن الأحجار الكريمة التى وجدت فى مجوهرات دهشور ، وكان يقال عنها إنها من الزمرد عندما فحصت لأول مرة كانت فى الواقع من الفلspar الأخضر ، وكذلك كل الأحجار التى أطلق عليها اسم زمرد أو زبرجد قبل عصر البطالسة ، فإنها ليست منهما بل من أحجار أخرى ، وذلك بعد أن فحصها العالم الكيماى « لوكاس » فحسب أنها .

(١) كان النطرون يستعمل فى مصر قديما فى احتفالات التطهير ، وبخاصة لتطهير الفم ولعمل البخور ، ولصناعة الزجاج ، والطلاء ، ولهى الطهو فقد كان المصريون يستعملون النطرون فى طبخ الفجل ، وكذلك يستعمل فى الطب وفى التحنيط .

وكان استخراج النطرون مباحا للناس منذ الفتح العربى، وكان أول من حجر عليه هو أحمد بن محمد بن مدبر عندما ولى خراج مصر بعد عام ٢٥٠هـ/٨٦٤م.

وكان من هذه المعادن وغيرها تقوم عدة صناعات أهمها:

صناعة الحلى والجواهر - صناعة سك النقود - صناعة الأسلحة.

أولا : صناعة الحلى والجواهر:

وقد استمر الصناع الأقباط فى عصر الولاة فى صناعة الحلى والجواهر الكريمة. وكانت مدينة الاسكندرية من أهم مراكز صناعة الحلى والجواهر فى مصر الاسلامية، فقد بقيت الى ما بعد الفتح الاسلامى بزمان طويل تحافظ على صناعة الذهب وتطعيم المعدن، كما تشير المصادر الى وجود طائفة صياغ الذهب وصانعى الحلى من الفضة بها منذ فجر الاسلام. كما كانت الفسطاط من مراكز صناعة الحلى والجواهر الثمينة.

وليس من المستبعد - كما يقول الدكتور السيد طه أبو سديرة - احتراف الفرس الذين دخلوا مع عمرو بن العاص واختلطوا بالفسطاط لمهنة الصياغة منذ وقت مبكر، حيث كانت صناعة الحلى قد بلغت على أيديهم شأنا عظيما فى الدقة والجمال، ولا سيما وأنهم وفدوا من صنعاء باليمن، وقد اشتهر العنصر اليمنى منذ القدم بحضارته الراقية وبفنونهِ الرائعة، وتذكر المصادر أن هؤلاء الفارسيين كانوا يرصعون الزجاج بالجواهر، ويكتبون عليه بالذهب الجسم .

وفى العصر الطولونى توضح لنا المصادر اهتمام الطولونيين بأنواع الحلى وأدوات الترف والزينة، ويعتبر جهاز قطر الندى إبنة خمارويه خير شاهد على ذلك، فقد تفنن صناع الحلى والجواهر فى ابداع الأشكال العجيبة من التحف الذهبية وغيرها من الطرائف. يذكر المسعودى أن ابن

الجصاص الذى تولى أمر صنع جهازها، حمل معها جوهرا لم يجتمع مثله عند خليفة قط. فمن هذا الجهاز دكة من أربع قطع من الذهب، عليها قبة من ذهب مشبك، فى كل عين من التشبيك قرط فيه حبة من الجواهر لا يعرف لها قيمة، وصناديق مملوءة بالشمعدانات وأوانى الذهب والفضة. ومما لا شك فيه أن ما حفلت به المصادر التاريخية فى هذا الصدد، انما يعكس فى جلاء ووضوح مدى تقدم الصناع ومهارتهم الفائقة فى صناعة أنواع الحلى والجواهر أيام الطولونيين. كما ازدهرت أيضا صناعة الحلى والجواهر فى عهد الاخشيديين، خاصة وإذا علمنا أن محمد بن طغج الاخشيد مؤسس الدولة كان يهتم بصناعة الجواهر، فيذكر ابن سعيد أن الاخشيد كان مغرما بجمع المال واقتناء الجواهر، وقد بلغ ماخلفه من الثروة حين وفاته عام ٣٣٤هـ/٩٤٥م ما قيمته مائتا ألف دينار من نوع المجوهرات الثمينة.

ثانيا : صناعة النقود :

يذكر المقرئى أن عمر بن الخطاب قد قبل، بعد فتح الشام ومصر، ضرب النقود العربية بهما على الطراز البيزنطى دون معارضة، فضرب الدراهم على نقش الدراهم الفارسية، وشكلها بأعيانها، غير أنه زاد فى بعضها «الحمد لله»، وفى بعضها «رسول الله»، وفى البعض منها «لا اله الا الله وحده»، وفى البعض الآخر «عمر» الا أن الصورة لم تكن لعمر وانما للملك.

ولما تولى عثمان بن عفان الخلافة ضرب دراهم ونقشها «الله أكبر». كذلك ضرب معاوية دنانير وكان عليها صورة رجل متقلدا «سيفا».

وكان عبد الله بن الزبير هو أول من ضرب الدراهم المستديرة، ونقش بأحد الوجهين «محمد رسول الله» وبالأخر «أمر الله بالوفاء والعدل».

غير أن النقود التى سكها خلفاء الدولة الاسلامية وأمرؤها لم تثبت على وزن واحد بل كانت متغيرة الأوزان. كذلك كان العرب يتعاملون بالنقود الأجنبية جنبا الى جنب مع النقود الاسلامية.

وقد استمر هذا الوضع الى أن ولى الخلافة عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦هـ / ٦٨٤ - ٧٠٥م) فأبطل استعمال النقود الرومية والفارسية، وضرب نقودا اسلامية عربية وأوجب التعامل بها، وأمر بأن تسحب الدنانير التي ضربت قبله، ليعاد سكها على الطراز العربى الجديد. وقد نقش على أحد وجهى الدرهم «قل هو الله أحد»، وعلى الآخر «لا اله الا الله» وطوق الدرهم من وجهيه بطوق، وكتب فى الطوق الواحد «ضرب هذا الدرهم بمدينة كذا»، وفى الطوق الآخر «محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون».

وقد كان لعبد الملك بن مروان الفضل الأول فى إصلاح السكة وتوحيدها فى أنحاء الدولة الاسلامية، وجعلها وزنا واحدا، والاستغناء عن النقود الاجنبية (عام ٧٦هـ / ٦٩٥م)، وربما حمل ذلك المؤرخين على القول بأن عبد الملك بن مروان هو أول من ضرب النقود فى الاسلام.

ومن الجدير بالذكر أن الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان لم يسمح بضرب النقود الذهبية بعد تعريبها تماما فى غير مصر وسوريا، فأنحصر انتاج الدنانير العربية فى عهده فى دار السك بكل من القسطنطينية ودمشق.

وقد استقلت سكة مصر عن السكة المستعملة فى الخلافة عندما استقلت عنها، وذلك فى الدولة الطولونية، فضربت فيها الدنانير التى عرفت بالدنانير الأحمدية نسبة إلى أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية .

وقد كتب عليها بالخط الكوفى الصغير اسم كل من الخليفة المعتمد بن المتوكل على الله ، واسم أحمد بن طولون .

وقد ضربت النقود التى نعرفها من العصر الطولونى فى بلاد مختلفة ، مثل مصر ودمشق وحران وحمص وحلب وأنطاكية .

أما فى الدولة الأخشيديّة ، فيذكر المؤرخون أن محمد بن طغج الأخشيد أمر بضرب الدينار الأخشيدى على عيار كامل ، وصلحت النقود فى عهده بعد فسادها .

ثالثا : صناعة الأسلحة :

تشير المصادر إلى أن حركة صناعة الأسلحة بالاسكندرية وتجارتها كانت رائجة عند دخول العرب إلى البلاد ، وقد اشتملت قوانين جستنيان الصادرة فى سنة ٥٣٩ م بعض الفقرات التى تقضى بوجود حرص حكام الاقاليم واهتمامهم بصناعة الأسلحة فى مصانع الحكومة ، ولا يجرى بيعها إلى الأفراد ، ولا تستخدم فى الفتن والاضطرابات الداخلية ، وعلى من يخالف ذلك دفع غرامة . ولاشك أن مصانع الأسلحة التى كانت تملكها الدولة فى الاسكندرية والفرما والفيوم وغيرها من عواصم الاقاليم المصرية ، قد زادت من حجم إنتاجها ، خاصة وأن مصر ظلت قاعدة للفتوحات والتوسع .

وقد جاء فى وصف الجيش فى العصر العباسى ، أنه لم يكن يختلف على مدى قرن كامل من تأليفه ، فى عدته وعتاده وتدريبه ، عن الجيش البيزنطى ، فاستعمل نفس الأسلحة وهى القوس والسهم والرمح والقلاع والسيف والبلطة ، ولا شك فى أن دار الصناعة بجزيرة الروضة منذ انشائها فى عام ٥٤ هـ / ٦٧٣م كان بها فريق من الصناع يعملون فى انتاج بعض معدات السفن الحربية ، ولا سيما تلك التى كانت تصنع من الحديد أو الفولاذ ، فضلا عما كانت تحتاج إليه تلك السفن فى تركيبها من المسامير والسلاسل ونحوها .

وفى عهد الدولة الطولونية ثم الاخشيدية من بعدها لقيت صناعة الأسلحة رواجاً كبيراً، بسبب العدد الكبير للجيش فى ذلك الوقت، الى جانب الرغبة فى المحافظة على الاستقلال. وتظهر ضخامة الأسلحة وتنوعها عند ذكر المصادر العربية لعرض الجيوش، سواء فى الدولة الطولونية أو الدولة الاخشيدية.

هذا الى جانب انشاء دار جديدة للصناعة بساحل القسطنطينية التى سميت الصناعة الكبرى فى عهد الاخشيد.

صناعات مختلفة :

وكان يعمل بمصر الخيش فى الفيوم.

كما كان يعمل بها الریش.

وكان يصنع فى الفرما الحبال من الليف وهى فى غاية الجودة.

كما كان يعمل من جلد طير الحواصل الخفاف الناعمة، والفراء الأبيض الذى يقوم مقام الفئك^(١) فى لينه ورقته.

ثالثا : طبقة التجار

عندما دخل العرب مصر ، عملوا على استغلال الوضع التجارى المزدهر فيها لصالحهم ، فساروا على نفس سياسة الدولة البيزنطية وهى سياسة حرية التجارة . وفى ذلك يقول الدكتور على حسنى الخربوطلى : إن القرن السابع الميلادى (الأول الهجرى) كان عصر تجارة غير مقيدة فى البحر المتوسط . وهذه الحرية التجارية ، هى التى تفسر لنا مقدار ما بلغته مصر من رخاء حتى عام ٧٠٥م (حوالى سنة ٨٦هـ) برغم الحروب والغارات البحرية ، حتى يقول الرحالة الاوربى (أركولف) الذى زار مصر عام ٦٧٠م (حوالى سنة ٥٠ هـ) : إن الاسكندرية أصبحت ملتقى تجارة العالم كله ، وتوافدت عليها أعداد غفيرة من التجار لشراء ما بها من بضائع . وهذا الرخاء الذى عم وادى النيل حوالى عام ٧٠٠م (حوالى ٨١ هـ) ، جعل واليها يبعث إلى دمشق العاصمة الأموية ، يبلغها أن خزانته لم تعد تتسع لقبول موارد جديدة ، ويطلب من الخليفة أن يدلّه على ما يفعل ؟ فجاءه الرد بأن ينفق الفائض فى بناء المساجد .

كانت طبقة التجار فى العصر البيزنطى تتركز بصورة رئيسية فى الاسكندرية ، وكانت تتكون من اليهود خاصة الذين اشتهروا بمهارتهم التجارية ، ومن الروم والأقباط والسوريين وعناصر أخرى . وقد استمرت

(١) الفئك : حيوان صغير من فصيلة الكلبيات شبيه بالثعلب لكن اذنيه كبيرتان، لا يتجاوز طوله اربعين سنتيمترا بما فيه الذنب. فروته من احسن الفراء، معروف فى مصر.

طبقة التجار هذه فى مزاولتها للتجارة تحت الحكم العربى ، بعد أن أضيفت إليها طبقة من التجار العرب الذين استوطنوا مصر .

وقد تغير هذا التكوين الاجتماعى لطبقة التجار فى الدولة الطولونية (٢٥٤ - ٢٩٢ هـ / ٨٦٨ - ٩٠٤ م) عندما وفدت جالية عظيمة من تجار فارس منذ القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) سواء من المسلمين أو اليهود الذين كانوا يعملون فى تجارة الشرق عبر الخليج العربى ، وذلك بسبب تعطل هذا الطريق ، وعودة تجارة الشرق إلى طريقها الأول (طريق البحر الأحمر) . وفى عهد الدولة الأخشيديّة (٣٢٣ - ٣٥٨ هـ / ٩٣٤ - ٩٦٨ م) وفد إلى مصر مجموعات أخرى من التجار اليهود من سوريا ، قاموا بدور هام فى تجارة المرور بين مصر والشرق .

وقد استطاعت هذه الطبقة أن تكون ثروات طائلة من عملها بالتجارة ، انعكست بالضرورة على نفوذها السياسى ، فقد استطاعت أن تتولى أعلى المناصب فى الدولة ، ومن هؤلاء :

« أبو بكر محمد بن على المانرائى » (ت عام ٣٤٥ هـ / ٩٥٦ م) وهو من أصل فارسى ، وتقول عنه الدكتورة سيدة كاشف إنه مُنح سلطانا واسعا فى مصر منذ قدومه عام ٣٠١ هـ / ٩١٣ م ، فقد قُلد فى هذه السنة أعمال مصر ، والاشراف على أعمال الشام ، وتدير الجيوش ، وقد بلغ من سلطته أن ابن زولاقي يعتبره « أمير البلد فى الحقيقة » .

وقد كان من أشهر تجار مصر فى عصر الدولة الطولونية التاجر « محمد الجوهري » صديق ابن طولون والذى كان له وكلاء كثيرون فى أسواق الشرق كلها .

كذلك من أشهر التجار فى الدولة الأخشيديّة التاجر « يعقوب بن كلس » وهو تاجر يهودى وصل قادما من سوريا عام ٣٣١ هـ / ٩٤٢ م وأقام بالفسطاط واشتغل بتجارة الشرق ، واتصل بكافور الاخشيدي حين بدأ فى الثراء ، وأصبح يعرف باسم (تاجر كافور) ، وكان من فرط ثقة كافور به أنه كان يستشيريه فى كل أمور البلاد الاقتصادية والمالية والسياسية .

ومنهم التاجر « عفان بن سليمان بن أيوب أبو الحسن » ويقول عنه ابن كثير : إنه أقام بمصر وأوقف بها أوقافا على أهل الحديث ، وعلى سلالة

العشرة رضى الله عنهم^(١) وكان تاجرا موسعا عليه فى الدنيا ، مقبول الشهادة عند الحكام ، توفى فى شعبان عام ٣٢٤ هـ / ٩٣٥ م .

وتقول عنه الدكتورة سيدة كاشف : إنه عندما توفى ، استطاع الأخشيد أن يأخذ من ماله نحو مائة ألف دينار .

الأسواق :

كانت الأسواق منتشرة فى جميع مدن مصر ، وكان للفسطاط أسواق ضخمة ، إلا أنها ضيقة . ويقول المقرئى : إنه كان بمصر عشرة أسواق ، وكان هناك سوق عظيم خارج مدينة الفسطاط يحتوى على مقادير هائلة من الأطعمة ، حتى ليذكر المقرئى أنه كان به ٣٩٠ قدر حمص مسلوقة ، سوى الحوانيت التى بها الحمص ، ومن المعروف أن الأسواق التى بداخل المدينة تكون أعظم من الأسواق التى هى خارجها ، ومع ذلك ففى هذا السوق من صنف واحد من المأكول هذا القدر ، فكيف تكون جملة ما فيه من سائر أصناف المأكول؟ ويقول المقرئى أيضا : إن العشرة الأسواق التى كانت بمصر كانت كلها أو أكثرها أجل من هذا السوق .

ومن الأسواق أيضا « سوق وردان » وهو منسوب إلى وردان الرومى مولى عمرو بن العاص ، وكانت دارا له أقطعه إياها معاوية بن أبى سفيان .

ومنها أيضا « سوق الأفضل » وهو خاص بالأمير جيوش بن خمارويه ابن أحمد بن طولون . ومن الأسواق أيضا « سوق البزازين » وهو بمدينة الفسطاط ويقال إنه وقع فيه حريق عظيم زمن كافور ، فركب كافور ، وأمر المنادى ينادى بأن جاء بقرية فيها ماء فله مائة درهم ، فجاء الناس بالقرب وأطفأوا النار ، فكان عدة ما احترق من الدور ألف وسبعمائة دار ، غير البضائع والأقمشة وغير ذلك .

(١) والعشرة المبشرون بالجنة هم : أبو بكر الصديق - عمر بن الخطاب - عثمان بن عفان - على بن أبى طالب - أبو عبيدة بن الجراح - سعد بن أبى وقاص - عبد الرحمن بن عوف - الزبير بن العوام - طلحة ابن عبيد الله - سعيد بن زيد .

ومن الأسواق أيضا «سوق العراقيين» وهي بمدينة الفسطاط. وقد نسبت الى جماعة من الأزد، كانوا قد خرجوا على زياد بن أمية (١) بالبصرة فعاقبهم معاوية بن أبي سفيان بتغريبهم عن أوطانهم، فسيرهم الى مصر، وذلك في عام ٥٣هـ / ٦٧٢م وكان أميرها في ذلك الوقت مسلمة بن مخلد (٤٧ - ٦٢هـ / ٦٦٧ - ٦٨١م)، وكان عددهم حوالي ٢٣٠، فأنزلوا بالظاهر وهو أحد خطط مصر، فبنوا لهم مسجدا، واتخذوا سوقا لأنفسهم، فسمى سوقة العراقيين.

كما وجدت أسواق تقام ليوم واحد فقط، كما الحال عندنا اليوم في الريف والمدن، ومن هذه الأسواق سوق «رحبة الحارث»، وهو سوق يتبايع الناس فيه يوم الجمعة فقط، وقد أمر ببنائه الحارث بن مسكين عندما تولى القضاء من قبل المتوكل في عام ٢٣٧هـ / ٨٥١م.

كما كان يقام في الجيزة سوق كل يوم أحد ، وهو من الأسواق العظيمة كما يذكر ابن جبير.

كذلك تذكر المصادر العربية أسواقا لبيع الرقيق (٢) منها :

١ - دار البركة، ويعتبر أول سوق بناه المسلمون في مصر بعد فتحها، وكان ذلك زمن عمرو بن العاص ولم يكن يقصد ببناء هذه الدار أن تكون سوقا، وإنما كان الغرض منها بناء مسكن للخليفة عمر بن الخطاب، وعندما تم البناء كتب اليه عمرو بن العاص يخبره بذلك، فكتب اليه :

(١) وهو زياد بن أبي سفيان بن حرب بن أمية وكان بعضهم يقول : زياد بن أبيه. ولما بالبصرة لمعاوية وضم اليه الكوفة، فكان يشتري بالبصرة، ويصيف بالكوفة، ولم يكن زياد من القراء ولا الفقهاء، ولكنه كان معروفا، وكان كاتباً لابي موسى الأشعري. مات بالكوفة وهو عامل عليها لمعاوية بن أبي سفيان عام ٥٣هـ / ٦٧٢م.

(٢) كانت تجارة الرقيق رائجة في مصر منذ الفتح العربي . وفي العصر الأخشيدي أصبحت مصر من اعظم أسواق الرقيق الأسود والابيض ، وكان الرقيق الأسود يجلب إليها من الجنوب . أما الرقيق الابيض فكان يصل إلى أسواقها من بيزنطة وأرمينية وثغور البحر الابيض المتوسط ومن أسواق الرقيق في سائر ديار الإسلام . وكان تجار اليهود يستأثرون بجلب الفلماني والجراري من أوربا . وكان المسلمون يحسنون معاملة عبيدهم وإمائهم في معظم الأحيان وذلك عملا بتعاليم الإسلام . وكان من البر والعادات المحمودة أن يعتق السيد كثيرا من العبيد الذين يملكهم . وكان كثير من العبيد المعتقين يحملون السلاح وينخرطون في سلك الجيش ، وكان بعضهم يصل إلى مكانة عالية فيه ، وقد يعد ذلك لتقلد بعض الوظائف الرئيسية في الإدارة .

أنى لرجل بالحجاز أن يكون له دار بمصر؟ وأمره أن يجعلها سوقا للمسلمين. فجعلت سوقا، وكان يباع فيها الرقيق .

٢ - دار أحمد بن المدير عامل خراج مصر للخليفة المتوكل ، وكان موضع سوق الرقيق رحبة أمامها ، فلما نكب أحمد بن طولون أحمد بن المدير عام ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م ، هدم داره ، وجعل رحبتها سوقا للرقيق ، وذلك فى عام ٢٥٦ هـ / ٨٦٩ م .

٣ - دار الأنماطى . وكان سوقا للرقيق أيضا .

وعن الأسواق التى كانت بمدينة القطائع ، يذكر البلوى أنه كان فيها : (سوق العيارين) ^(١) يجمع فيه البزازون والطارون . و (سوق الفاميين) ^(٢) ويجمع فيه الجزارون والبقالون والشواؤن . وكان فى دكاكين الفاميين ، جميع ما فى دكاكين نظرائهم فى المدينة وأكثر وأحسن . و (سوق الطباخين) ويجمع فيه الصيارفة والخبازون وأصحاب الحلواء ، ثم لكل صنف من جميع الصنائع ، أفرد له سوق حسن عامر .

أما عن أسواق الاسكندرية ، فقد ذكرت المصادر العربية أن عمرو بن العاص عندما فتحها ٢٠ هـ / ٦٤١ م كتب إلى عمر بن الخطاب : إني فتحت مدينة فيها اثنتى عشر ألف بقال يبيعون البقل الأخضر .

أما تنيس فقد كان بها ألفان وخمسمائة حانوت للبضائع ، وعندما دخلها أحمد بن طولون فى عام ٢٦٩ هـ / ٨٨٢ م بنى بها حوانيت كثيرة فى السوق .

ويبدو من المصادر العربية أن هذه الأسواق كان بها مساطب تجارية للتأجير بعض الوقت ، فيقال إنه كان خلف جامع أحمد بن طولون مسطبة نراع فى نراع ، وكانت أجرتها فى كل يوم اثنا عشر درهما ، فكان يؤجرها شخص يبيع الغزل من الصباح الباكر إلى الظهر ويدفع أربعة دراهم ، ومن

(١) العيار : الكثير المجىء والذهب ولعله يقصد الكثيرين فى المساومة فى الشراء والبيع .

(٢) الفامى : بائع الفوم أى الثوم والحنطة والحمص والخبز وسائر الحبوب التى تخبز .

الظهر إلى العصر يؤجرها خباز بأربعة دراهم ، ومن العصر إلى المغرب لشخص يبيع فيها الحمص والفل بأربعة دراهم .

وفى زمن خمارويه كان الخدم المشتغلون فى دار الحرم (وهى الدار التى بناها خمارويه لحريمه) يبيعون الأطعمة المستبقية للامة ، فكان الناس يأتونهم ويشترى منهم . ويذكر المقرئى أن عملية البيع هذه كانت تتم فى كل وقت « بحيث أن الرجل اذا طرقه ضيف ، خرج من فوره إلى باب الحرم فيجد ما يشتره ليتجمل به لضيفه مما لا يقدر على عمل مثله . وهذا يدل على ضخامة كمية الأطعمة التى كانت تبقى من دار الحرم .

وكانت التجارة الداخلية فى زمن خمارويه بن أحمد بن طولون متعشة، فيقول المقرئى: إنه عندما طلب لقطر الندى ألف تكة ^(١) بعشرة الاف دينار من أثمان كل تكة عشرة دنانير «فوجدت فى السوق فى أيسر وقت وبأهون سعى».

وتذكر المصادر العربية أن الأسعار فى مدينة الفسطاط كانت أرخص من القاهرة لقرب النيل منها، ووصول المراكب اليها بالخيرات.

وكان سعر كل خمسة أرادب قمح دينارا واحدا زمن خمارويه بن أحمد ابن طولون، وقد بيعت عشرة أرادب قمح بدينار زمن أحمد بن طولون.

وكانت التجارة فى الأسواق تجرى وفق معاملات مالية معينة، منها :

١ - نظام عقود الشراء. وكانت هذه العقود تتضمن شروطا معينة لتحديد السعر، وتحديد موعد الدفع اذا كان البيع نقدا، أو موعد الأقساط اذا كان الدفع مؤجلا، كذلك تحديد نوع البضاعة وصفتها، وتحديد الكمية المتعاقد عليها. ويقول الدكتور حسن محمود: إنه اذا تمت شروط الصفقة كان لا يجوز أن تلغى، اللهم الا اذا تبين للمشتري وجود عطب فى السلعة، أو أنها غير مطابقة للمواصفات التى تضمنها العقد .

(١) التكة جمع تكة أى رباط السراويل.

٢ - النظام المصرفى . وكانت المصارف يديرها رجال ذوو خبرة ودراية يسمون الجهابذة ، وكانوا إما من كبار التجار أو من الصيارفة . وقد نشأ هذا النظام بسبب النشاط التجارى الكبير الذى أسفر عن ظهور طبقة من التجار الأثرياء الذين امتد نشاطهم إلى جميع الأمصار الإسلامية مما أوجب الحاجة لإنشاء مصارف لحفظ أموال التجار وتيسير معاملاتهم التجارية . وكان هؤلاء الصرافون ، أو الوكلاء ، يقومون مقام البنوك ، ولكن لا يتصور - بطبيعة الحال - القيام بالوظيفة الحالية للبنوك فى مجال الاستثمار .

٣ - السفاتج^(١) . (وتقوم مقام الحوالة المالية فى وقتنا الحاضر)

والسفاتجة خطاب تذكر فيه قيمة معينة من المال قابل لأن يصرف فى أى مكان ، من عملاء وجهابذة الشخص الذى حرر السفاتجة . وكانت النقود المذكورة فى السفاتجة تدفع فى أى بلد ، وكان من السهل أن يحملها التاجر عبر الطرق الطويلة وهو آمن مطمئن . بل كانت أموال الجباية من الولايات ترسل إلى العراق بهذه الوسيلة . ومما يدل على توطد العلاقات التجارية بين العالم الإسلامى وبين أوروبا أن سفاتج التجار المسلمين ، كانت تصرف فى البلاد غير الإسلامية . ولهذا صارت للسفاتج قيمة المال ، واستخدمها الأفراد فى مبيعاتهم ومعاملاتهم الخاصة . ومن أمثلة استخدام السفاتج فى فترة بحثنا أن الأخشيد أرسل إلى نائبه ببغداد سفاتج بثلاثين ألف دينار ليسلمها للوزير ابن مقلة^(٢) .

(١) السفاتجة جمع سفاتح كلمة فارسية بمعنى أن تعطى مالا لرجل فيعطيك خطا يمكنك من استرداد ذلك المال من عميل له فى مكان آخر .

(٢) هو محمد بن على بن الحسين بن مقلة ، أبو على الكاتب المشهور . كان فى أول أمره يتولى بعض أعمال فارس ويحبى خراجها . وفى عام ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م أصبح وزيرا للمقتدر بالله ، ثم قبض عليه عام ٣١٨ هـ / ٩٣٠ م ونفى إلى بلاد فارس بعد مصانرة أملاكه . وفى عام ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م استوزره الامام القاهرة بالله ، كما استوزره الراضى بالله عام ٣٢٢ هـ / ٩٣٣ م ، ثم قبض عليه للمرة الثانية عام ٣٢٤ هـ / ٩٣٥ م وقطعت يده اليمنى عام ٣٢٦ هـ / ٩٣٧ م ، وقطع لسانه بعد ذلك . وكان ينوح على يده ويهوى ويقول : « خدمت بها الخلفاء ، وكتبت بها القرآن الكريم دفعتين ، تقطع كما تقطع أيدي اللصوص » . وقد أقام فى الحبس مدة طويلة ، ولم يكن له من يخله ، ولم يزل على هذه الحال الى أن توفى عام ٣٢٨ هـ / ٩٣٩ م .

٤ - الصك . (يعنى الكمبيالة فى وقتنا الحاضر)

وكان من وسائل المعاملات المالية الصك ، وهو فى الأصل سند الدين ، وهو عبارة عن ورقة مالية تثبت فيها قيمة دين أو قرض أو استحقاق مالى له أجل معين . وقد استخدمت الصكوك فى كافة أنحاء العالم الاسلامى ، وكان الجهابذة يصرفون قيمة الصكوك لأصحاب الأموال التى أودعوها عندهم لقاء رسم معلوم .

٥ - نظام السمسرة أو الدلالة . ومن أهم الأنظمة التى استخدمت فى ذلك الوقت نظام السمسرة أو الدلالة ، وكانوا يحصلون من عملهم هذا على أجر محترمة .

٦ - نظام الربا . وقد حرمت الشريعة الاسلامية التعامل بالربا أشد تحريم ، وكان اليهود والنصارى يتعاملون بهذا النظام ، حتى انه فى حوالى عام ٨٠٠م ألف كتاب تشريع للنصارى ، أجبر فيه أن يتعاملوا فيما بينهم بربح يبلغ العشرين فى المائة .

وقد منع ابن قيم الجوزية مشاركة المسلم للذمى فى التجارة ، لاستخدامهم نظام الربا ، واشترط فى مشاركة المسلم للذمى أن يكون المسلم هو الذى يتولى عملية البيع والشراء . مع ذلك بيدولنا أن نظام الربا كان موجودا تحت مسمى آخر ، ويظهر ذلك من الحكاية التى ذكرها ابن الداية فى كتابه ، فهو يقول : « طالبنى بعض عمال الخراج بمصر بمال زاد على ما فى حاصلى ، فاحتجت الى معاملة بعض التجار عليه ، فدللت على رجل من أهل الشام يعامل برهون ، فصار إلى - وأنا فى بيت المال - منه شيخ حسن الصورة جميل اللقاء ، فقال : إلى كم تحتاج ؟ قلت : إلى مائتى دينار . فأخرج من كمه مالا ، فوزنه واستزاد من غلام كان معه دنانير حتى أكمل المائتين ، ثم سلمها إلى واقتضانى خطا بها ، وقال : قد كفيت مؤونة الرهن . فقلت : فكيف أكتب الخط ؟ قال : بمائتى دينار كما أعطيتك ، فقلت له : سبيل المعاملة غير هذا . فقال : والله لا قبلت منك فيها ربحا . ويظهر لنا من هذه القصة أن نظام التسليف كان بربح ، لذلك فانه عندما طلب منه أن يكتب المبلغ المحدد فقط . أخبره بأن سبيل المعاملة غير هذا .

وقد تعرضت مصر لكثير من الأزمات الاقتصادية فى الفترة الخاضعة لبحثنا (من الفتح العربى حتى بداية الدولة الفاطمية) كان يترتب عليها قيام الأهالى بالثورات ، وكانت هذه الأزمات تحدث فى الغالب بسبب تأخر جرى النيل ، أو بسبب الفيضانات .

فيقول المسعودى : « اذا بلغ النيل ثمانية عشر ذراعا وانهبط ، كانت العاقبة لأهل مصر فى انصرافه حدوث وباء بالديار المصرية » .

ومن الأشعار التى قيلت بسبب نقص ماء النيل ، ماذكره ابن اياس فى كتابه فهو يقول : وقد قال القائل :

تقاصر النيل عنا	تقاصر متتابع
حتى قنعنا اضطرارا	منه بمص الأصابع
وقال آخر :	

رب وف النيل إنا	منه فى شر ويلوه
مابقى للناس صبر	يحملون اليوم غلوه

وأول غلاء وقع بمصر كان فى عام ٨٧ هـ / ٧٠٥ م فى ولاية عبد الله ابن عبد الملك (٨٦ - ٩٠ هـ / ٧٠٥ - ٧٠٨ م) ، وكان بسبب تعرض مصر للشراقي (١) ، حتى قيل إن أهل مصر لم يروا فى عمرهم مثل تلك الأيام .

ثم تعرضت مصر للغلاء فى السنة الثانية من ولاية خمارويه على مصر (٢٧٠ - ٢٨٢ هـ / ٨٨٣ - ٨٩٥ م) فيقول ابن كثير : إنه فى عام ٢٧٨ هـ / ٨٩١ م غار ماء النيل ، وهذا شئ لم يعهد بمثله ، ولا بلغنا من الأخبار السالفة ، فغلت الأسعار بسبب ذلك جدا .

أما فى الدولة الاخشيدية (٣٢٣ - ٣٥٨ هـ / ٩٣٥ - ٩٦٩ م) فنلاحظ تعرض مصر لكثير من الأزمات الاقتصادية . ففى عام ٣٣٦ هـ / ٩٤٧ م بلغت الزيادة أربعة عشر ذراعا وستة عشر أصبعا ، فوقع الغلاء بمصر واستمر فى كل سنة يزيد زيادة طفيفة ، ولم يبلغ ستة عشر ذراعا ، وأقام على ذلك نحو تسع سنين ، والغلاء مستمر بمصر .

(١) الأرض الشراقي . وهى كل أرض لم يصل إليها الماء ، إما لقصور ماء النيل ، أو علو الأرض ، أو سد

ويقول المقرئى إنه فى عام ٣٣٨ هـ / ٩٤٩ م فى زمن أبو القاسم أونوجور بن الاخشيد (٣٣٥ - ٣٤٩ هـ / ٩٤٦ - ٩٦٠ م) ، وقع غلاء أدى إلى ثورة الرعية ، حتى إنهم منعوا أونوجور بن الاخشيد من صلاة العتمة (العشاء) فى الجامع العتيق .

ثم وقع غلاء فى عام ٣٤١ هـ / ٩٥٢ م بسبب قصر ماء النيل ، إلى جانب كثرة الفئران التى أتلقت الغلات والكروم وغيرها ، مما أدى إلى زيادة الأسعار .

وفى عام ٣٤٣ هـ / ٩٥٤ م عظم الغلاء ، حتى بيع القمح - كما يقول المقرئى - كل وبيتين ونصف بدينار ، ثم طلب فلم يوجد ، وثارت الرعية وكسروا منبر الجامع بمصر .

ثم كان الغلاء الأكبر فى الدولة الاخشيديّة الذى استمر لمدة تسع سنين متعاقبة ، وأبتدأ فى عام ٣٥٢ هـ / ٦٩٣ م والامير فى ذلك الوقت هو على بن الاخشيد (٣٤٩ - ٣٥٥ هـ / ٩٦٠ - ٩٦٥ م) ، وتدير أمور المملكة كانت لكافور وكان سبب الغلاء أن ماء النيل انتهت زيادته إلى خمسة عشر ذراعا وأربعة أصابع فارتفعت الأسعار ، وما كان بدينار واحد صار بثلاثة دنانير ، واختفى الخبز ، وزاد الغلاء حتى بلغ القمح كل وبيتين بدينار . ثم انخفض ماء النيل إلى ثلاثة عشر ذراعا ، فقامت الثورات ونهبت الضياع والغلات . واستمر الغلاء مع تفاوت مبالغ الزيادة لماء النيل ، حتى مات كافور عام ٣٥٧ هـ / ٩٦٧ م ، فكثر الاضطراب بين الأهالى وتعددت الفتن ، وكانت حروب كثيرة بسبب الجند والأمراء ، فانتهدت أسواق البلد ، وارتفع السعر ، وتعذر وجود الأقوات ، حتى بيع القمح - كما يقول المقرئى - كل وبية بدينار وطل الخبز بدرهمين ، والحنطة كل وبية بدينار وسدس ، والبيضة بدرهم وثلاث . وكان ذلك فى عام ٣٥٨ هـ / ٩٦٨ م .

حفر خليج أمير المؤمنين

بعد الفتح العربى لمصر ، بدأ العرب يخططون لاستغلال خيرات مصر ، ونقلها إلى مقر الخلافة بطريقة أسرع . وكانت بداية ادراك العرب عظم

خيرات مصر ، عندما أرسل عمر بن الخطاب فى عام الرمادة ١٨ هـ / ٦٣٩م^(١) إلى عمرو بن العاص يشكو له قحط الحجاز ، والشدة التى يعانى منها المسلمون ، فأرسل إليه عمرو عيرا عليها طعام يذكر المؤرخون العرب أن أولها كان بالمدينة وآخرها كان بمصر ، حتى إن عمر بن الخطاب أعطى كل بيت بعيرا بما عليه من الطعام .

وقد كان على أثر ذلك أن أرسل عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص ، يطلب منه المجيء إليه مع بعض من أهل مصر . وعندما قدموا عليه قال : «يا عمرو ، إن الله قد فتح على المسلمين مصر ، وهى كثيرة الخير والطعام ، وقد ألقى فى روعى - لما أحببت من الرفق بأهل الحرمين ، والتوسعة عليهم حين فتح الله عليهم مصر ، وجعلها قوة لهم وإجماع المسلمين - أن أحفر خليجا من نيلها حتى يسير فى البحر ، فهو أسهل لما نريد من حمل الطعام إلى المدينة ومكة ، فإن حملة على الظهر يبعد ، ولا نبليغ معه ما نريد . »

ويذكر المقرئى أن سبب حفر خليج أمير المؤمنين كان لتقريب معونة الحجاز من ديار مصر. وهكذا فإن الغرض الأساسى من حفر هذا الخليج كان حمل الطعام والقمح إلى الحجاز كما تقول الدكتورة سيدة كاشف .

وتذكر المصادر العربية أن أحد الأقباط هو الذى اقترح على عمرو بن العاص إعادة حفر هذا الخليج ، على شرط أن يضع عنه وعن أهل بيته الجزية ، وأن عمرو بن العاص قد قام بدوره بطرح هذا الاقتراح على عمر بن الخطاب على اعتبار أنه كان موجودا قبل الفتح العربى ، وكانت سفن التجار تبحر فيه ، ثم سد بعد الفتح وتركه التجار ، فوافق عمر بن الخطاب على هذا الاقتراح .

وسواء كان عمر بن الخطاب هو الذى اقترح إعادة حفر القناة ، أو أن عمرو بن العاص صاحب الاقتراح ، فلم يلبث عمرو بن العاص بعد موافقة

(١) عام الرمادة وهو عام ١٨ هـ / ٦٣٩ م وفيه اصاب الناس مجاعة شديدة وجذب وقحط . وقد سمي بعام الرمادة لان الرياح كان تسفى او تحمل ترابا كالرماد . وقد كتب عمر بن الخطاب إلى أمراء الأمصار يستغيثهم لاهل المدينة ومن حواها ويستمدهم ، وكان من بين الذين استغاث بهم عمرو بن العاص أمير مصر.

عمر بن الخطاب ، أن تخوف من فكرة حفر هذا الخليج وقال فى نفسه : « إن أمكنت عمر من هذا خرب مصر ونقلها إلى المدينة » ، خاصة بعد أن حذره روساء أهل مصر - بعد عرضه للأمر عليهم - من خطورة حفر هذا الخليج بقولهم : « أتريد أن تخرج طعام أرضك وخصبها إلى الحجاز وتخرب هذه؟ » .

لذلك كتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يبين له صعوبة حفر هذا الخليج، فكتب الخليفة إليه يهدده بالعزل ، فقام بحفره . ويذكر ابن عبد الحكم أن عمر بن الخطاب بعث إليه « أن لاتدع شيئاً من طعامها ، وكسوتها ويصلها وعدسها وخلها ، إلا بعثت إلينا منه » .

ويقال إن أول أسطول سار فى الخليج كان يتكون من عشرين سفينة تحمل الحبوب إلى المدينة، وكانت حمولة المركب الواحدة ثلاثة آلاف أردب . لذلك فقد اعتبر المؤرخون العرب أن من فضائل مصر أنها توسع على أهل الحرمين ، بما يجلب منها إليهم من الغلال التى يحمل السفن منها فى الدفعة الواحدة ما لا يحمله خمسمائة بعير .

ويقول المقدسى عن مصر : «مصر قبة الاسلام ، ونهره أجل الأنهار، وبخيراته تعمّر الحجاز» . ويقول المقرئى إن من فضائل مصر « أنها تميز أهل الحرمين ، وتوسع عليهم » . وهكذا أصبحت بلاد العرب بعد فتح مصر تعتمد اعتماداً رئيسياً عليها لطعام أهل الحجاز .

على كل حال ، فقد تم حفر هذا الخليج الذى يصل النيل بالبحر الأحمر فى أقل من عام ، كما تذكر المصادر العربية ، فقد ذكر ابن دقماق والمقرئى أن حفر هذا الخليج قد استغرق ستة أشهر ، وأن السفن وصلت إلى الحجاز فى الشهر السابع . فى حين ذكرت مصادر أخرى أن حفره قد تم خلال ثمانية أشهر . وقد أطلق عليه : خليج أمير المؤمنين .

وترى الدكتورة سيدة كاشف أن إعادة حفر الخليج فى هذا الوقت القصير ، يدل على استعمال العرب للسخرة فى حفره ، واستخدام عدد عظيم من أهل البلاد .

ولما كان هذا الخليج من قبل يستخدم للتجارة ، فقد كان من الطبيعى أن يستخدم بعد إعادة حفره بواسطة العرب - للتجارة أيضاً ، فكانت

المراكب النيلية تفرغ ما تحمله من ديار مصر بالقلزم ، ثم تحمل ما فى القلزم مما وصل من الحجاز وغيره إلى مصر .

ويذكر السيوطى أن «حجاج البحر كانوا يركبون فيه من ساحل تنيس يسيرون فيه ، ثم ينتقلون بالقلزم إلى المراكب الكبار وكانت السفن أيضا تسير فى خليج أمير المؤمنين إلى البحر الأحمر ، وتمر فى البحر إلى الحجاز واليمن والهند .

ولم يزل على ذلك إلى أن قدم محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب (محمد النفس الزكية - قتل عام ١٤٥ هـ / ٧٦٢ م) ثائرا فى الحجاز ، والخليفة يومئذ بالعراق أبو جعفر المنصور . فكتب المنصور الى عامله على مصر يأمره بطم خليج القلزم ، حتى لا تحمل الميرة من مصر الى المدينة ، فطمه ، وانقطع من ذلك الوقت ، اتصاله ببحر القلزم .

ويذكر ابن عبد الحكم انه بعد خلافة عمر بن عبد العزيز لم يهتم الولاة بأمر هذا الخليج ، وتركوه ، فغلب عليه الرمل ، وانقطع ، وصار منتهاه إلى ذنب التمساح (١) من ناحية الطور (٢) والقلزم .

النشاط التجارى الخارجى

بالنسبة لتجارة مصر الخارجية ، فقد كانت لمصر تجارة مع المشرق قبل الفتح العربى لها ، فتذكر المصادر العربية أن عمرو بن العاص كان تاجرا فى الجاهلية ، وكان يأتى بتجارته إلى مصر ، وهى الأدم والعطر .

(١) ومن موقع ذنب التمساح يقول القلقشندى : وهو بآخر بحر القلزم من الذراع الاخذ إلى جهة السويس على ميل من مدينة القلزم .

(٢) الطور : بالضم ثم السكون وآخره راء ، جبل بعينه مطل على طبرية الأربن بينهما أربعة فراسخ ، على رأسه بيعة واسعة محكمة البناء ، موثقة الأرجاء ، يجتمع فى كل عام بحضرتها سوق . والطور أيضا جبل عند كورة تشتمل على عدة قرى تعرف بهذا الاسم بأرض مصر القبلية وبالقرب منها جبل فاران .

كما يذكر الواقدي قصة تاجر عربي أسر في الاسكندرية ، وخلصته قوات الفتح العربية حين قامت بفتح هذه المدينة ، وكان هذا التاجر قد جاء مع غيره بتجارة من اليمن في أيام المقوقس ، فباع تجارته ثم اشترى غيرها ، وخرج مع قافلة كبيرة إلى أرض برقة للاتجار فيها ولكنه أسر في الطريق .

لذلك كان من الطبيعي أن تستمر هذه التجارة بين مصر والمشرق بعد الفتح العربي . غير أن تجارة مصر مع المشرق كانت مرتبطة بالسلام في المنطقة ، لذلك يذكر ساويرس أنه بسبب الخلاف الذي جرى بين المعتز والمستعين (٢٤٨ - ٢٥٢ هـ / ٨٦٢ - ٨٦٦ م) توقفت التعاملات التجارية بين مصر والمشرق، كما توقفت قريضة مصر للخلافة حتى يستقر الوضع على خليفة بعينه .

وبالنسبة للعلاقة التجارية بين مصر والنوبة ، فقد كانت تتم من خلال طرف واحد ، هو الطرف النوبي، ويعني آخر أن التجار المصريين لم يكونوا يحملون تجارة إلى بلاد النوبة ، إذ لم يكن الاتجار في الخارج من صفات المصريين إلا في الذرة ، وانما كان تجار النوبة هم الذين يأتون في النيل حتى الجنادل^(١) . وعندما تقف مراكبهم ومراكب السودان ، يتحول من فيها بتجاراتهم إلى ظهور الجمال حتى يصلوا إلى أسوان .

وكان عمرو بن العاص بعد فتح مصر قد بعث عبد الله بن سعد بن أبي سرح إلى النوبة لفتحها عام ٢٠ هـ / ٦٤٠ م وقيل عام ٢١ هـ / ٦٤١ م، فمكث بها زمنا ، ثم أعاده عمرو بعد عقد صلح بين الطرفين ، وقد دفعت النوبة إلى عمرو بن العاص ما صولحوا عليه من البقط^(٢) قبل نكثهم ،

(١) الجنادل : جمع جندل وهي الحجارة . موضوع فوق أسوان بثلاثة أميال في أقصى صعيد مصر قرب بلاد النوبة .

(٢) يقول المقرئ : «البقط ما يقبض من سبى النوبة في كل عام ، ويحمل إلى مصر ضريبة عليهم ، فإن كانت هذه الكلمة عربية فهي : إما من قولهم في الأرض بقط من بقل وعشب أي نبذ من مرعى ، فيكون معناه على هذا نبذه من المال ، أو يكون من قولهم إن في بني تميم بقطا من ربيعة أي فرقة أو قطعة فيكون معناه على هذا فرقة من المال أو قطعة منه ، ومنه بقط الأرض فرقة منها . وبقط الشيء فرقة . والبقط أن تعطي الحبة على الثالث أو الرابع ، والبقط أيضا ماسقط من التمر إذا قطع فاختلأ المخرف ، فيكون معناه على هذا بعض ما في أيدي النوبة » . ولكن الأرجح - كما تقول الدكتورة سيدة كاشف - أن كلمة بقط من كلمة Pactum اللاتينية ومعناها عقد أو اتفاق . وقد قيل إنها مصرية قديمة بمعنى عبد .

وأهدوا إلى عمرو أربعين رأسا من الرقيق ، وفى المقابل بعث عبد الله بن سعد ما وعدهم به من الحبوب قمحا وشعيرا وعدسا وثيابا وخيلا .

وفى عام ٣١هـ / ٦٥١م نقضت النوبة الصلح الذى جرى بينهم وبين عبد الله بن سعد ، والى عثمان بن عفان ، فحاربهم ، فطلبت النوبة الصلح ، وكتب لهم كتاب أمان قرر فيه عليهم فى كل سنة ثلاثمائة وستون رأسا ، وفى المقابل يهدى إليهم عبد الله بن سعد حبوبا ، خاصة بعدما شكى ملكهم قلة الطعام فى بلده .

ومعنى ذلك أن العلاقة بين مصر وبلاد النوبة لم تكن علاقة تجارية بالمعنى المعروف ، وإنما كانت علاقة محددة بشروط هدنة ، يلتزم فيها النوبيون بتقديم السبى ، فى مقابل الحبوب .

ولا تتعرض المصادر العربية كثيرا لصادرات مصر للبلاد المختلفة فى ذلك العهد . وترجع الدكتورة سيدة كاشف أنه فضلا عن دور الوسيط الذى كانت تقوم به مصر بين الشرق والغرب ، فقد كانت تصدر جانبا من القمح والكتان لوفرة زراعته بها ، ويذكر ابن اياس أنها كانت تصدر إلى البلاد الشامية : الحناء ، والسّمك القديد ، والجبن ، والنيذة ، والكتان ، والزيت الحار ، والعصفر ، والبسلة ، والعدس ، وخيار الشنبر ، وغير ذلك من الأنواع التى لا توجد الا بمصر .

وفى مقابل ذلك كانت تستورد من برقة ^(١) الصوف والعسل كما كانت تستورد الأخشاب ، لندرة الأنواع الطيبة من الخشب فى مصر مما كان يلزم للبناء والسفن ، وكذلك المعادن ، والرقيق .

وكانت تستورد من السودان العاج والأبنوس وريش النعام وشن الفيل الذى كان يباع خاصة فى أسواق القسطنطين .

(١) برقة : بفتح أوله والقاف . اسم صق كبير يشتمل على مدن وقرى بين الاسكندرية وإفريقية ، واسم مدينتها انطاكيا وتفسيره الخمس مدن . وهى مما افتتح صلحا ، صالحهم عليها عمرو بن العاص ، وألزم أهلها من الجزية ثلاثة عشر ألف دينار ، وأن يبيعوا من أحبوا من أبنانهم فى جزيتهم وأسلم أكثر من بها فصولحوا على العشر ونصف العشر فى سنة (٢١ هـ / ٦٤١ م) وكان فى شرطهم أن لا يدخلها صاحب خراج ، بل يبعثوا بالجزية اذا جاء وقتها .

ومن الشام كانت تستورد الفواكه الشامية مثل : الكمثرى ، والتفاح
والسفرجل وغير ذلك من الأنواع .
وكان يرد إليها من الهند التوابل وخاصة الفلفل والعود والبخور .
ومن هذه الحاصلات كان يستهلك جزء في مصر محليا ، والباقي يباع
للتجار الأجانب الذين كانوا يتسابقون على شراء هذه الحاصلات من أسواق
مصر . كذلك كانت الهند تصدر إلى مصر الياقوت والصندل والعود وخشب
الأبنوس وجوز الهند ، فضلا عن الكافور والزعفران والقرنفل والقرفة
(الدارصيني) والعاج وأنواع العقاقير وبعض الأحجار الكريمة من جزيرة
سرنديب (١) .

وكان العنبر من أهم السلع التي تستوردها مصر من الهند ، وكانت
سوقها رائجة في مصر في عهد الاخشيد خاصة ، فقد اشتهر الاخشيد
بحبه للعنبر ، وكان أكثر ما يهدى إليه في الأعياد ، وكان اذا ما جاءت هذه
الأوقات التي يهدى إليه فيها ، أخرج من خزائنه العنبر إلى التجار ، فيشتريه
الذين يهدونه إليه ، فيحصل له الثمن الوافر ، ثم يعود العنبر إليه ! وأقام
الاخشيد سنين كثيرة يعمل هذا ، وقيل إنه اجتمع عنده من العنبر قناطير ،
وقد احترق في عام ٣٤٣ هـ / ٩٥٤ م في دار أبي الفضل ، بعقبة ابن فليح (٢) .
لجا ريته أم أولاده ، عنبر كثير كان يشم على بعد . كما ورد أن الاخشيد لما
مات خلف وراءه من العنبر ٨٠٠ رطل .

(١) سرنديب : بفتح أوله وثانيه وسكون النون ودال مهملة مكسورة ، وباء مثناه من تحت ، وباء موحدة.
ديب بلغة الهنود . هو الجزيرة هي جزيرة عظيمة في بحر هركند بأقصى بلاد الهند ، طولها ثمانون
فرسخا في مثلها . ويقول الحميري : وليس يملك أحد من ملوك الهند ما يملكه صاحب سرنديب من الدر
النقيس والياقوت الجليل وأنواع الأحجار ، لأن أكثر ذلك في جبال جزيرته وفي أوبيتها وبحورها واليها
تقصد مراكب أهل الصين وسائر بلاد الملوك المجاورين له . وملك سرنديب تحمل إليه الخمر من العراق
ولمارس فيشتريها بماله وتباع له في بلاده. ويجلب من سرنديب الحرير والياقوت بجميع ألوانه كلها
والبلور والماس وأنواع من العطور كثيرة

(٢) (عقبة بنى فليح) هي العقبة التي يطلع منها إلى رحبة بنى تميم - وبنى تميم نسبة إلى ابراهيم بن تميم،
وقد ذكر الكندي أن ابراهيم بن تميم كان كاتباً في الخراج بمصر في ولاية الليث بن الفضل من قبل
الرشيد (١٨٢ - ١٨٧ هـ / ٧٩٨ - ٨٠٢ م) وأن الليث أول من استكتبه في كتاب الخراج - وبنى فليح نسبة
إلى فليح ابن سليمان .

ومن الصين كانت مصر تستورد البهار والراوند (١) والحرير الخام والمقسوجات الحريرية الغالية الثمن ، وهذا بالإضافة إلى الخزف الصيني ، والصنل (٢) والورق (الكاغد) ، والحرير (المداد) والسروج والقرفة ، والزنجبيل ، والذهب والفضة ، والسجاد ، والطرز (الوشى والحرير المشجر) ، والطحى والمقابض العاجية . كذلك كانت الصين تصدر إلى أسواق مصر العقاقير والديباج والجوارى والخصيان .

ومن التبت (٣) كان يرد المسك إلى أسواق مصر ، ويقول اليعقوبى : إن مسك التبت هو أحسن وأغلى أنواع المسك فى العالم .

ومن الجزيرة العربية كان يرد إليها : الخيول العربية ، والجمال ، وخشب القسى (٤) والجلود المدبوغة .

ومن اليمن : البز ، والجلد المدبوغ ، والدروع ، والعقاقير ، والكركم ، وكذلك اللبان والسيوف .

ومن شحر عمان (٥) كانت أسواق مصر تستقبل أجود أنواع العنبر ، كذلك أجود أنواع اللبان والبخور والمصطكى (المستكة) .

وفى ذلك يذكر المؤرخون العرب أن مصر كانت قبله تتجه إليها الأنظار ، فقد كانت «فرصة مكة والمدينة وساحلها ، وفرصة صنعاء ، وعدن ، وعمان ، والشحر والسند (٦) والهند والصين وجزائر الصين وسرنديب وغيرها ،

(١) الراوند : يستخدم لعلاج أمراض كثيرة منها : وجع المعدة ، وقرحة الأمعاء ، والاسهال للزمن ، ووجع الكبد ، والكلى ، وأوجاع الرحم وعرق النساء ، والريو وغير ذلك .

(٢) الصنل . وهو خشب يوتى به من الصين ، وهو على ثلاثة أصناف أبيض وأصفر وأحمر وكلها تستعمل ويستخدم لعلاج ضعف المعدة ، والصداع ، وغير ذلك .

(٣) تبت : بالضم ، وكان الزمخشري يقوله بكسر ثانيه ، وبعض يقوله بفتح ثانيه . وهو بلد بأرض الترك وفى متاخمة للصين ، ومتاخمة من إحدى جهاتها لأرض الهند .

(٤) يتخذ من القانة وجمعها القان وهو شجر جبلى ينبت بجزيرة العرب ويتخذ منه القسى .

(٥) الشحر : بكسر أوله ، وسكون ثانيه ، هو شحر عمان ، وهو ساحل اليمن ، وهو معتمد بينها وبين عمان وإليه ينسب العنبر الشحرى لأنه يوجد فى سواحله .

(٦) السند : بكسر أوله ، وسكون ثانيه ، وآخره دال مهملة بلاد كبيرة فيما بين نيار فارس ونيار الهند .

يُجلب العطر والجواهر والطرائف والآلات في البحر حتى توافى المراكب بالقلزم .

وهي فرضة بحر الروم من الشام كلها ، وبلد الروم من أنطاكية إلى ماوراءها من قسطنطينية ورمية وبلد الأفرنجية وأنطابلس ، وطرابلس والقيروان وتاهرت ، وسجلماصة والسوس وطنجة والأندلس وجزائر البحر صقلية وأقريطش (١) وقبرص ورويس (٢) يُحمل إليها رقيق هذه البلدان كلها من الجوارى والغلمان والديباج والحرير والمصطكى ... والمرجان والعنبر والزعفران وسائر أصناف التجارات ، ويحمل من مصر إليها مثل ذلك ، ولا يقصدون بلدا سواها .

ويقول المقرئى إن «مصر فرضة الدنيا ، يُحمل خيرها إلى ما سواها . فساحلها بمدينة القلزم يُحمل منه إلى الحرمين واليمن والهند والصين وعمان والسند والشحر . وساحلها من جهة تنيس ودمياط والفرما فرضة بلاد الروم والأفرنج وسواحل الشام إلى حدود العراق . وتغر اسكندرية فرضة أقريطش وصقلية وبلاد المغرب . ومن جهة الصعيد يُحمل إلى بلاد الغرب والنوبة والبجة والحبشة والحجاز واليمن» .

وقد لعب اليهود دورا هاما في التجارة الخارجية ، فيذكر ابن خردادبة في أواخر القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى أن التجار اليهود الراذانية (٣) الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والأفرنجية والأندلسية والصقلية ، كانوا يسافرون من المشرق إلى المغرب ، ومن المغرب إلى المشرق برا وبحرا ، ويجلبون من المغرب الخدم والجوارى والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور (٤) والسيوف ويركبون من

(١) أقريطش : بفتح الهمزة وتكسر ، القاف ساكنة ، والراء مكسورة ، وياء ساكنة ، وطاء مكسورة ، وشين معجمة . اسم جزيرة في بحر المغرب يقابلها من بر افريقية لوبيا ، وهي جزيرة كبيرة فيها مدن وقرى .

(٢) رويس : جزيرة في البحر من الثغور الشامية مقابل الاسكندرية ، افتتحها جنادة بن ابي أمية عنوة في خلافة معاوية . ورويس بلغة الافريقيين بمعنى الورد .

(٣) نسبة إلى نهر الرون .

(٤) السمور جمع سماير . حيوان برى من فصيلة السموريات ورتبة اللواحم ، يشبه ابن عرس وأكبر منه ، لونه أحمر مائل إلى السواد . تتخذ من جلده فراء ثمينة

فرنجة^(١) فى البحر الغربى فيخرجون بالفرما ، ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم وبينهما خمسة وعشرون فرسخا ^(٢) ، ثم يركبون البحر الشرقى من القلزم إلى الجار ^(٣) وجدة ، ثم يمضون إلى السند والهند والصين فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدارصينى وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي حتى يرجعوا الى القلزم ، ثم يحملونه الى الفرما ، ثم يركبون فى البحر الغربى فريما عدلوا بتجارتهم الى القسطنطينية فباعوها من الروم ، وربما صاروا بها الى ملك فرنجة فيبيعونها هناك ، وإن شاءوا حملوا تجارتهم من فرنجة فى البحر الغربى ، فيخرجون بأنطاكية ويسيرون على الأرض ثلاث مراحل الى الجابية ^(٤) ثم يركبون فى الفرات الى بغداد ثم يركبون فى دجلة الى الأبله ، ومن الأبله الى عمان والسند والهند والصين كل ذلك متصل بعضه ببعض .

طرق التجارة :

لذلك - وكما تقول الدكتورة سيدة كاشف - اهتم حكام مصر من قبل الفتح العربى ، بالسيطرة على الطرق التجارية ليضمنوا سلامة استقلالهم السياسى والاقتصادى ، وليجعلوا مصر الطريق الرئيسى لمروء التجارة . كذلك اهتموا باصلاح الطريق الصحراوى الذى تمر فيه قوافل التجارة بين البحر الأحمر والنيل ، وباقامة الحاميات فيه ، وبحفز الآبار على طول ذلك الطريق ، وبالقضاء على القرصنة فى البحر الأحمر والمحيط الهندى ، وبانشاء الموانئ على الشاطئ الغربى لذلك البحر ، فى أكثر المواقع صلاحية لرسو المراكب وللاتصال بالنيل ، وبشق طرق تجارية جديدة بين البحر الأحمر والنيل ، وبالاهتمام بالقناة التى تصل أحدهما بالآخر ، الى غير ذلك من ضروب الاهتمام بالتجارة .

(١) يقصد بفرنجة فرنسا .

(٢) الفرسخ ثلاثة أميال .

(٣) الجار : مدينة على ساحل بحر القلزم ، بينها وبين المدينة يوم وليلة . وهى فرضة ترفأ إليها السفن من ارض الحبشة ومصر وعدن والصين وسائر بلاد الهند .

(٤) الجابية : بكسر الباء ، وباء مخففة ، وهى قرية من أعمال دمشق .

وهذا ما فعله العرب بعد الفتح العربى ، فيذكر ابن عبد الحكم أن عمرو ابن العاص كان يخصم من جملة المبالغ المتحصلة من الضرائب قبل ارسالها الى الخليفة القدر اللازم لادارة شئون البلاد وحاجة الجند ، وأن اعتمادا خاصا كان يرصد لتطهير الترع وصيانة الطرق وبناء القناطر وترميمها ، وتهديم الجزر الصغيرة التى تتكون وسط مجرى النيل ، وكانت الحكومة تستخدم فى هذا السبيل مائة وعشرين ألف رجل مجهزين بالآلات اللازمة طوال العام صيفا وشتاء بلا إنقطاع .

وقد كان لمصر ثلاث طرق رئيسية للتجارة :

أولا - الطريق البحرى .

ثانيا - الطريق النهري .

ثالثا - الطريق الصحراوى .

أولا - بالنسبة للطريق البحرى ، كان لمصر طريقان بحريان الأول : طريق البحر الأحمر ، والثانى : طريق البحر المتوسط .

١ - طريق البحر الأحمر :

وهو أهم طرق التجارة بين الشرق والغرب فى ذلك العصر ، فقد كان يقلل - الى أدنى حد ممكن - المصاعب والنفقات الطائلة التى يسببها النقل البرى . فاذا استثنينا الشريط البرى الضيق بين البحر الأحمر والنيل ، كانت البضائع التى ترسل من بلاد الهند والصين تسلك دائما طريق البحر ، وتتبع الطريق المباشر أى أقصر الطرق ، للوصول الى موانئ إيطاليا وفرنسا وأسبانيا .

وقد كانت تجارة البحر الأحمر تنتهى أحيانا الى ميناء Leuce Come (الحورة الحالية) على الشاطئ الشرقى للبحر الأحمر ، ومنها تتخذ طريق القوافل الى سوريا ، وكانت أحيانا تصل الى أيلة عند العقبة الحالية ، ومنها أيضا تخرج التجارة الى فلسطين وسوريا . وكثيرا ماكانت تنتهى التجارة الشرقية عند ميناء Berenice (رأس بناس الحالية) أو Leucos Limen (القصير الحالية) أو Myos Hormos (أبو شعر الحالية) ، ومن هذه الموانئ تتجه التجارة

عن طريق الصحراء الشرقية الى قفط على النيل ، وتتخذ طريق النيل حتى الاسكندرية ، ومن الاسكندرية تتصل التجارة الشرقية بأسواق الغرب عن طريق حوض البحر الأبيض المتوسط . وكانت السفن التجارية تواصل السير أحيانا فى البحر الأحمر الى القلزم ، وهى السويس الحالية ، ثم تسير فى القناة النيلية التى تصل البحر الأحمر والنيل عن طريق البحيرات المرة ووادى طميلات (١) وهذه القناة اهتم بحفرها الفراعنة وأعاد حفرها البطالسة والرومان ، وكانت تسهل كثيرا على التجار ويستخدمونها للوصول الى الاسكندرية عن طريق النيل بعد أن ينتهى طريق البحر عند ميناء القلزم وهى التى عرفت بخليج أمير المؤمنين - كما ذكرنا .

وكانت الملاحة فى البحر الأحمر صعبة لما فيه من شعاب بارزة ورياح معاكسة ، ولهذا كانت الملاحة فيه بالنهار فقط ، فاذا جن الليل أُرست المراكب فى مواضع معروفة . وكان نظام هبوب الرياح يجعل الملاحة من الشمال الى الجنوب فقط فى فصل الصيف ، ومن الجنوب الى الشمال فى فصل الشتاء ، فالرياح التى تهب عليه هى رياح موسمية دائمة تكون شمالية شرقية فى فصل الصيف وتتجه الى الجنوب الغربى ، وفى فصل الشتاء تهب من الجنوب الغربى الى الشمال الشرقى ، وقد علّمت هذه الأحوال البحارة والتجار ، والمسافرين من البحر المتوسط الى الشرق عبر البحر الأحمر - أن أحسن شهور السنة للإبحار فيه هما شهرا أبريل ويونيو ، وأحسن وقت للعودة منه هو شهر يناير وفبراير . ويقول الحميرى عن الملاحة فى البحر الأحمر : إن طرق السفن فيه معلومة ، لا يدخلها إلا المهرة من رؤساء البحر، العالمون بطرقاته .

٢ - طريق البحر الأبيض المتوسط :

وقد نتج عن سيطرة العرب على البحر المتوسط . وبخاصة على طريق التجارة الدائرة فى الشمال ، الواصلة بين سوريا ومصر عن طريق صقلية

(١) كان يسمى قديما وادى السدير من أعمال الشرقية ، وفى سنة ٩٢٣هـ ورد هذا الوادى باسم وادى العباسة لمتاخمته لأراضى ناحية العباسة ، ويقال له اليوم وادى الطميلات نسبة الى جماعة من العرب نزلوا به يقال لهم الطميلات .

وكريت وقبرص ، زيادة أهمية الدور الذى قام به سكان شمال أفريقيا كوسطاء فى تجارة هذا البحر ، وهكذا تحكم الأفريقيون فى نقل التجارة بين الشرق والغرب ، وكانت سفنهم دائبة الحركة إلى سوريا لجلب التوابل والمنتجات الفاخرة من بلاد الشرق الأدنى والأقصى إلى شمال أفريقيا وسائر بلاد العرب والإسلام فى الغرب .

وكان من يريد أن يصل من البحر الأبيض إلى الهند أو شرق آسيا مضطرا إلى حمل بضائعه على الظهر عند الفرما ، ثم يسير فى الصحراء سبع مراحل حتى يصل إلى القلزم ، وهناك يستطيع حملها فى المراكب مرة أخرى ، فهذا الطريق هو أقرب طريق للوصول إلى المحيط الهندى .

ثانيا : وبالنسبة للطريق النهري ، فقد كان نهر النيل والترع أداة طيبة للملاحة النهرية ، تنقل بواسطتها البضائع بين بلدان مصر ، كما تنقل إلى دمياط والإسكندرية حيث يحصل التجار الغربيون على ما يحتاجون إليه.

لقد احتفظ نهر النيل بأهميته الكبيرة بوصفه طريقا من طرق الملاحة النهرية وكانت الملاحة النهرية على النيل كثيرة جدا فى القرن الرابع الهجرى، حتى تعجب المقدسى وهو بمصر من كثرة المراكب السائرة والراسية هناك .

وبالنسبة للملاحة فى خليج أمير المؤمنين فقد سبق الحديث عنه .

أما بالنسبة لبحيرة تنيس ، فقد أعجب ابن حوقل - مع كثرة ما شاهده فى أسفاره الطويلة - بمهارة الملاحين الذين رأهم فى تنيس ، فكتب : إن هذه البحيرة «قليلة العمق ، يسار فى أكثرها المرادى (١) وتلتقى السفينتان تحك إحداهما الأخرى : هذه صاعدة ، وهذه نازلة بريح واحدة مملاة شرعهما بالريح ، متساوية فى سرعة السير» .

ثالثا - الطريق الصحراوى :

تقول د. سيدة كاشف فى كتابها « مصر فى فجر الإسلام » : إن طرق الحج وطرق البريد كانت أيضا مسلكا للتجارة فى ذلك العصر ، لأن

(١) المرادى جمع مرادى : خشة يبلغ بها الملاح السفينة

الخلافة كانت تهتم بعمارة هذه الطرق وبالعناية بها ويتوفير الراحة فيها . فعندما كان خليج أمير المؤمنين مستعملا لملاحة السفن ، كان بعض الحجاج يتخذون هذا الطريق أيضا للحج ، ويذكر السيوطي أن حجاج البحر كانوا يسيرون فيه إلى القلزم ، ومن القلزم ينتقلون إلى المراكب الكبار ، ورأينا كذلك أن الطريق الصحراوي بين البحر الأحمر والنيل كان مسلكا للتجار والحجاج .

على أن هناك طريقا برياً كان يرتاده الحجاج بكثرة ، وهو طريق أيلة التي كانت عند موضع العقبة الحالية، فيسير الحجاج من مصر عن طريق البر إلى القلزم ، فلما أن يركبوا البحر إلى «الجار» ، ميناء المدينة ، ولما أن يسيروا إلى أيلة وبعدها إلى بلاد الحجاز . وكان هناك ست مراحل (١) بين القلزم وأيلة ... أما طرق البريد فأولها الطريق المعروف الذي أتت منه الجيوش المغيرة على مصر في العصور المختلفة ، مثل جيوش قمبيز والاسكندر الأكبر وعمرو بن العاص ، وهو يمر بالرملة بفلسطين وبمدينة غزة ورفع والعريش والفرما ويلبيس ثم الفسطاط . وهناك طريق آخر يخرج من الفسطاط إلى برقة وإفريقية وبلاد المغرب ، وآخر يخرج من الفسطاط إلى المغرب دون أن يمر بالاسكندرية ولكنه يلتقى بالطريق الذي يخرج من الاسكندرية في ذات الحمام (٢) .

وقد كان السفر عن طريق الطريق الصحراوي يستلزم استخدام الإبل لحمل البضائع ، حتى إذا ما وصلوا إلى الطريق البحري أو النهري ينقلون أحمالهم على ظهر السفن . وفي خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ/ ٧١٧ - ٧١٩م) كتب إلى حيان بن سريج عامل خراج مصر يأمره بأن لا يحمل البعير أكثر من ستمائة رطل ، وذلك بعد ما وصل إليه الخبر بأن الإبل في مصر يحمل عليها ألف رطل . وهذا نص الكتاب : «إنه بلغني أن بمصر إبل نقالات يحمل على البعير منها ألف رطل ، فإذا أتاك كتابي هذا فلا أعرف أنه يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل ».

(١) المرحلة جمع مراحل : للمسافة التي يقطعها المسافر في يومه .

(٢) ذات الحمام : بلد بين الاسكندرية وإفريقية . ويقول محمد رمزي في قاموسه نوهي واقعة على السكة الحديدية ، الموصلة بين الإسكندرية ومرسى مطروح ، وبها محطة تقع على بعد ٧٤ كيلو مترا من مدينة الإسكندرية .

أهم موانئ مصر :

تنقسم الموانئ المصرية إلى موانئ بحرية وموانئ نهريّة . وبالنسبة للموانئ البحرية فقد كان على رأسها:

١ - الإسكندرية :

كانت الاسكندرية منذ انشائها على يد البطالمة من أهم محطات تجارة العالم ، واستمرت كذلك بعد الفتح العربي ، فقد كانت الاسكندرية أكبر أسواق العالم ، وأكثر ثغوره ازدهاما وحركة فى تجارة القمح والكتان والورق والزجاج وغير ذلك من موارد البلاد الزراعية والصناعية ، كما كانت تحمل إليها مقادير عظيمة من الذهب والعاج من بلاد النوبة واثيوبيا ، كذلك كانت ترد إليها التوابل والبهار والحبر والفضة والجواهر من بحار الصين والهند عبر البحر الأحمر حتى مدينة القلزم (السويس) ، ومنها تحمل إلى ترعة تراجان إلى مدينة منف على نهر النيل ، ومن منف تنحدر بها السفن فى النيل إلى ميناء الاسكندرية حيث كانت تصدر إلى جميع موانئ البحر الأبيض المتوسط . وقد اشتهر ميناء الاسكندرية بمنازته العظيمة التى كانت تفيد منها كل السفن تجارية كانت أم حربية

ويذكر آدم متز أنه حينما أخذت التجارة الاسلامية المكان الأول فى التجارة العالمية فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، كانت الاسكندرية وبغداد هما اللتان تقرران الأسعار للعالم فى البضائع الكمالية على الأقل .

٢ - الفرما :

كانت الفرما محطة لتجار أوروبا وسوريا ، ومنها كانوا يتجهون إلى القلزم لركوب البحر ، وقد ذكر عنها المقدسى أنها كانت على ساحل بحر الروم ، وأنها كانت عامرة أهلة عليها حصن ولها أسواق حسنة ، وأنها كانت مجمع الطرق .

٣ - القلزم :

ميناء قديم هام يقع على الطرف الشمالى للبحر الأحمر ، وقد أصبح القلزم فى صدر الاسلام ميناء مصر الرئيسى فى البحر الأحمر ، وأدت

إعادة حفر خليج أمير المؤمنين الواصل بين الفسطاط والقلزم إلى زيادة أهميته ، نظرا لما يقوم به من الوصل بين مصر والحجاز ، ولكونه ميناء عاصمة مصر . وكان تجار الغرب يفدون اليه من الفرما ، ومنه يركبون البحر إلى «الجار» (ميناء المدينة وقتئذ)، ثم إلى جدة ، ومنها إلى عدن في طريقهم إلى سواحل الهند . ويذكر اليعقوبي أن القلزم كان ميناء مصر إلى الحجاز واليمن ، وأن به سفنا كبارا تعبر البحار العالية ، وأن جل سكانه من التجار الأغنياء . وذكر المقدسي أنه كان يرسل منه مالا يقل عن ثلاثة آلاف جمل محملة بالبضائع كل أسبوع عابرة خليج أمير المؤمنين ، وذكر أيضا أن القلزم خزانة مصر وفرضة الحجاز ، ومعونة الحاج . وقد كان يوجد بالقلزم دار للصناعة ، ولهذا كانت القلزم قاعدة للأسطول المصرى فى البحر الأحمر فى صدر الاسلام .

٤ - عيذاب :

ويقول الحميرى : ومن أسوان الطريق الى عيذاب ، وعيذاب مدينة على ضفة البحر المغربى المعروف ببحر القلزم ، ومن عيذاب يعبر إلى ساحل الحجاز إلى جدة ، ومن عيذاب يسلك إلى اليمن والهند وغير ذلك .

ويقول أبو الفدا : «وهى فرضة لتجار اليمن والحجاز الذين يتوجهون من مصر فى البحر ، فيركبون من عيذاب إلى جدة » . ويقول ياقوت: وهى مرسى المراكب التى تقدم من عدن إلى الصعيد .

وكانت عيذاب نقطة الاتصال بين تجارة البحر وتجارة النهر ، وكان ميناؤها غزير الماء ، مأمونا من الشعاب النابتة ، فكانت ترد إليها البضائع من الحبشة وزنجبار بطريق البحر ، ثم تحمل على الأبل فى الصحراء مسيرة عشرين يوما إلى أسوان أو قوص ، ومن هناك تنقل إلى القاهرة فى النيل .

أما الموانئ النهرية فكان على رأسها :

١ - الفسطاط :

وتقع الفسطاط على حافة النيل ، ويقول عنها أبو الفدا إنها «محط وإقلاع المراكب ، وبسبب ذلك صار الفسطاط أكثر رزقا وأرخص أسعارا من القاهرة » .

وتعتبر القسوط أهم مراكز مصر التجارية منذ انشائها ، فموقعها المتوسط بين الوجهين القبلى والبحرى أدى الى اتصالها بكافة البلاد المصرية عن طريق النيل ، فضلا عن ذلك فإنه كان يخرج منها طرق برية تسير فيها القوافل متجهة نحو الحجاز وبلاد الشام والمغرب .

٢ - أسوان :

وكانت أسوان مجمعا لتجارة السودان ، وكان تجار النوبة هم الذين يأتون فى النيل حتى الجنادل ، وعندها تقف مراكبهم ومراكب السودان ، ويتحول من فيها بتجاراتهم إلى ظهور الجمال ، حتى يصلوا إلى أسوان ، بعد اثنتى عشرة مرحلة إلى جانب النيل . وعن أسوان يقول الحميرى : إنها فى الصعيد آخر بلاد مصر ، وإنها من ثغور النوبة ، وإن مراكب مصر لا تصعد فى النيل إلا إلى مدينة أسوان فقط ، وهى فى آخر الصعيد الأعلى ، وإلى أسوان تصعد المراكب من قسوط مصر . وأن بها تجارات تحمل منها إلى بلاد النوبة .

٣ - قوص :

وتقع فى الجهة الشرقية من النيل ، وهى فرضة التجار من عين .

وقد وصفها الحميرى بقوله : «هى كبيرة بها منبر وأسواق جامعة وتجارات ودخل وخرج ، والمسافر إليها كثير ، والبضاعات نافعة ، والمكاسب رائجة ، والبركات ظاهرة» . لذلك وصف ياقوت أهلها بأنهم «أرياب ثروة واسعة» .

الضرائب على التجارة :

فرض العرب ضرائب أو رسوما على التجارة الخارجية تعرف بالمكوس أو العشور ، ولم يفرضوا أية رسوم على التجارة الداخلية . لذلك يقول مالك ابن أنس : «وإذا أتجر الذمى فى بلاده من أعلاها إلى أسفلها ، ولم يخرج منها إلى غيرها ، فليس عليه شئ» ، مثل أن يتجر الذمى الشامى فى جميع الشام ، أو الذمى المصرى فى جميع مصر ، أو الذمى العراقى فى جميع العراق» .

وهذا يدل على أن مصر كانت تتمتع بوحدة اقتصادية ، لم يتمتع بها أى بلد فى أوربا الاقطاعية ، من ناحية النقود والأوزان والمقاييس والضرائب بين الاقطاعات المختلفة.

وأول من فرضها فى الاسلام هو عمر بن الخطاب ، وذلك بعد رسالة أرسلها اليه أبو موسى الأشعري يقول له فيها : «إن تجارا من قبلنا من المسلمين يأتون أرض الحجاز فيأخذون منهم العشر» . فكتب اليه عمر بن الخطاب : « خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين ، وخذ من أهل الذمة نصف العشر ، ومن المسلمين من كل أربعين درهما درهما ، وليس فيما دون المائتين شئ » ، فاذا كانت مائتين ففيها خمسة دراهم ، وما زاد فبحسابه» .

وتذكر المصادر العربية أن زياد بن جريز هو أول من جعله عمر بن الخطاب على عشور العراق والشام . وقد طلب منه أن لايفتش أحدا ، وأن يأخذ من حساب المسلمين من كل أربعين درهما درهما ، ومن حساب أهل الذمة من كل عشرين درهما درهما ، ومن الذمة له العشر .

وهكذا أخذ عمر بن الخطاب من المسلمين ربع العشر ، ومن أهل الذمة نصف العشر ، ومن أهل الحرب العشر .

وكان أول من عثره المسلمون من أهل الحرب هم أهل مَنَيج (١) وكانوا قد كتبوا الى عمر بن الخطاب : «دعنا ندخل أرضك تجاراوتعشرنا» .

وقد جعل عمر بن الخطاب العشور تؤخذ مرة واحدة فى السنة ، وذلك بعد شكوى أحد نصارى العرب من بنى تغلب له . وكان هذا النصرانى قد مر على زياد بن جريز فأخذ منه العشر ، وعند عودته طلب أن يأخذ منه أيضا ، فقال له النصرانى : كلما مررت بك تأخذ منى ؟ قال : نعم . فرجع النصرانى الى عمر بن الخطاب وقص عليه قصته ، فأرسل عمر بن الخطاب الى زياد بن جريز كتاب يقول فيه : « من مر عليك فأخذت منه صدقه ، فلا تأخذ منه شيئا الى مثل ذلك اليوم من قابل » ، وفى رواية أخرى أنه كتب اليه يقول : « ليس له عليك فى مالك فى السنة الامرة واحدة» .

(١) مَنَيج بالفتح ثم السكون ، وباعمره مَكْسُورَة وجيم . وهى من بلاد الروم ، وهى مدينة كبيرة واسعة ذات خيرات كثيرة ، بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ وبينها وبين حلب عشرة فراسخ ومنها البحرى . ٢٢١

وعندما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب الى زريق بن حيان وكان على مكس مصر : انظر من مر عليك من المسلمين فخذ مما ظهر من أموالهم ، ومما ظهر من التجارات من كل أربعين دينارا دينارا ، وما نقص فبحساب ذلك حتى يبلغ عشرين دينارا ، فان نقصت تلك الدنانير فدعها ولا تأخذ منها شيئا ، وإذا مر عليك أهل الذمة ، فخذ مما يدبرون من تجارتهم من كل عشرين دينارا دينارا فما نقص فبحساب ذلك حتى تبلغ عشرة دنانير ثم دعها فلا تأخذ منها شيئا ، واكتب لهم كتابا بما تأخذ منهم الى مثلها من الحول. وقد ذكر المقرئ في موضع آخر من كتابه أن عمر بن عبد العزيز قد نهى عن أخذ المكوس ، وكتب ضعوا عن الناس هذه المكوس ، «فليس بالمكس ولكنه البخس» .

وقد اعتبر العرب أن هذه العشور التي يدفعها أهل الذمة وأهل الحرب إنما هي مثل الخراج الذي يفرض عليهم ، أما إذا أخذت من المسلمين فهي صدقة منهم .

ويذكر يحيى بن آدم أن هذه العشور تفرض على أهل الذمة إذا تاجروا فقط .

وبالنسبة لتجارة الخمر والخنازير ، فقد كان يؤخذ عشورها من قيمتها ، ويقول أبو يوسف: إنه لا يقبل قول الذمي في قيمتها حتى يوعى برجلين من أهل الذمة يقومانها عليه ، ثم يؤخذ نصف العشر من الثمن ، ورأى يحيى بن آدم أن يؤخذ عن الخمر العشر .

وقد كانت وظيفة صاحب المكس مكروهة ، لما نسب إلى الرسول (ص) من أحاديث تحذر الناس من الاشتغال بها ، ومن هذه الأحاديث : «لا يدخل صاحب مكس الجنة» ، ومنها « إذا لقيت عشارا فاقتلوه ».

لذا ذكرت المصادر العربية الكثير من الأمثلة التي رفض فيها العرب تولى هذه الوظيفة ، فعندما دعا عمرو بن العاص خالد بن ثابت الفهمي ليجعله على المكس رفض ، فقال له عمرو : ما تكره منه ؟ فقال : إن كعبا قال: لا تقرب المكس فإن صاحبه في النار .

وهكذا انتشر كره العرب لاشتغال هذه الوظيفة، وكما يقول المقرئى :
«إن أهل الورع من السلف يكرهون هذا العمل» .

وقد أشار أبو يوسف فى كتابه إلى شروط يجب توافرها فى من يشغل
هذه الوظيفة ، ففى كلامه إلى الخليفة الرشيد قال :

«أما العشور فرأيت أن توليها قوما من أهل الصلاح والدين ، وتأمروهم
بأن لا يتعدوا على الناس فيما يعاملونهم به ، فلا يظلموهم ولا يأخذوا منهم
أكثر مما يجب عليهم ، وأن يمتثلوا مارسمناء لهم ، ثم تنفقد بعد أمرهم وما
يعاملون به من يمر بهم ، وهل تجاوزوا ماقد أمروا به» .

وقد أنشأ العرب فى المدن التجارية والطرق والموانئ جمارك لتحصيل
المكوس من التجار المارين ، سواء عن طريق النقل البرى أو عن طريق النقل
البحرى . ومن هذه الجمارك فى مصر : جمر «أم دنين» ، وقد عرفت
«بالمقس» وذلك لأن صاحب المكس كان يجلس فيها فقيل المكس ، وقلب فقيل
المقس . ومنها جمر مدينة القلزم ، ومنها جمر تنيس والفرما والصعيد
والاسكندرية وعيذاب .

ولم تقتصر مهمة صاحب المكس ، الذى كان يعرف أيضا باسم
«القباض» على تحصيل الجمارك ، وإنما كان من وظائفه تفتيش التجار ، فمن
كان معه سلاح أخذ منه ، ومن كانت معه كتب ، قرئت كتبه وهكذا .

ويجدر علينا أن نشير هنا إلى أن نظام الجوازات الحالى كان يتبع فى
مصر فى هذا العصر الخاضع للدراسة . فيقول آدم متز : إنه لم يكن أحد
يستطيع أن يترك الناحية التى يقيم فيها الى ناحية أخرى بدون إذن ولى
الأمر . ويقال : إن عامل مصر أصدر أمره عام ١٠٠هـ / ٢٧٠م بأن يقبض
على كل من وجد مسافرا أو متنقلا من مكان إلى مكان من غير سجل ، وإذا
وجد صاعدا أو نازلا من مركب ، أو وقعت الحوطة على المركب ، وحرقت بما
فيه. ويؤخذ من رواية لابن سعيد أنه كان لابد من جواز للخروج من مصر ،
ولابد أن يدرج فى هذا الجواز كل من يرافقون المسافرين ولو كانوا عبيده .
وهذا النظام لم يكن معروفا فى المشرق ، وإنما كان معمولا به فى مصر فقط.

مقاييس التجارة (الأوزان) :

وكانت مقاييس التجارة في مصر هي الويبة والأردب . وفي ولاية الواليد ابن رفاعة سنة ١٠٩هـ / ٧٢٧م على مصر ، بعث اليه الخليفة هشام بن عبد الملك بمقياس جديد للاستعمال في مصر ، بدلا من المقاييس القديمة ، وهو المدى ، وكان ذلك في عام ١١٧هـ / ٧٣٥م ، وأمرهم أن يتعاملوا به . فأمر ابن رفاعة أن يطاق به على القبائل ، وأخبرهم أن أمير المؤمنين قد أمر به . حتى أتى إلى عبد الرحمن بن حيويل بن ناشرة المعافري ، فأخذه وكسره وقال : «إن لنا ويبة وأردبا قد عرفناهما ولسنا نحتاج الى هذا» . ففيل له : كاسر المدى ، وصار هذا نسباً لبنيه إلى اليوم ، فقال بني كاسر المدى من قبيلة المعافر . ويذكر الكندي أن شاعرا من قبيلة المعافر علق على هذه الواقعة بقوله :

قومي الذين تبادروا	مدى الخليفة بالحجر
وتخربوا وتعصبوا	وجثوا عليه فأنكسر
من بعد ما نلت له	أعناق يعرب بل مضر

كما كان يستخدم أيضا في الموازين والمكاييل : الكيلة ، والقدرح ، والقفعة.

الباب الثاني

المجتمع المصري ونظام الحكم

الفصل الأول : المجتمع المصري والإدارة .

الفصل الثاني : المجتمع المصري والنظام الحربي .

الفصل الثالث : المجتمع المصري والنظام القضائي .

الفصل الأول :

• المجتمع المصرى والإدارة

• طبيعة النظام الإدارى الذى وضعه العرب
للمجتمع المصرى •

• المناصب الرئيسية التى تولاها العرب :

• الوالى

• متولى الخراج أو صاحب الخراج

• صاحب البريد

• صاحب الشرطة

• المحتسب

الفصل الأول

المجتمع المصرى والإدارة

أوضحنا فيما سبق أن النظام الإدارى يقوم عادة لخدمة النظام الاقتصادى ، بمعنى أن النظام الإدارى لا ينشأ من فراغ وإنما ينشأ لخدمة هدف ، وهذا الهدف هو النظام الاقتصادى ، ويظهر ذلك بوضوح من الرسالة التى أرسلها الخليفة عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص عندما تولى مصر عام ٢٠هـ/٦٤١م ، فهو يقول فيها :

«ولم أقدمك إلى مصر أجعلها لك طعمة ولا لقومك ، ولكنى وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك . فاذا أتاك كتابى هذا ، فاحمل الخراج فانما هو فىء للمسلمين» .

وهكذا يظهر من هذه الرسالة أن مهمة الوالى الأساسية هى توفير الخراج ، وأن اختيار الوالى كان يتم بناء على قدرته على توفير الخراج .

وفيما يبدو أنه لم يكن ثمة فرق بين هذه المهمة ومهمة الوالى فى العصر البيزنطى ، وهذا هو السبب فى أن العرب أبقوا على النظام الإدارى الذى وجدوه فى مصر ، ليخدم مصالحهم كما كان يخدم مصالح البيزنطيين من قبل . على أنه كانت إلى جانب ذلك عوامل أخرى ، أولها : أن هذا النظام

الادارى كان على درجة كبيرة من الإحكام ، فالأمة البيزنطية التى بنى العرب حضارتهم على أنقاضها كانت ذات تاريخ مجيد من حيث الحضارة والمدنية والنظم السياسية .

ثانيا : أن العرب لم يكن لديهم نظام أفضل يطبقونه فى مصر - كما يقول بتلر - فالعرب كانوا رجال حرب وسيف .

لذلك أبقى العرب على الموظفين فى وظائفهم ، واحتفظوا هم لأنفسهم بالمناصب الرئيسية ، فبقى بعض أكابر الروم فى أعمالهم ، أما من رحل منهم فحل مكانه عمال من القبط .

على أن هذا الوضع لم يستمر طويلا ، فلم يلبث أن تغير تحت عاملين أساسيين :

العامل الأول : هو تعريب الدواوين .

العامل الثانى : هو تحريم الخلفاء استخدام أهل الذمة فى وظائف الدولة .

وبالنسبة للعامل الأول وهو تعريب الدواوين :

ففى ولاية عبد الله بن عبد الملك بن مروان على مصر عام (٨٦ - ٩٠هـ / ٧٠٥ - ٧٠٨م) نقل ديوان مصر من القبطية الى العربية ، وكان ذلك عام (٨٧هـ / ٧٠٥م) .

ويبدو - فى رأينا - أن الدافع وراء هذا التعريب هو توافر طبقة من العرب الذين يستطيعون أن يتولوا الوظائف بدلا من أهل الذمة ، وأراد الخليفة عبد الملك بن مروان إرضاء هذه الطبقة عن طريق اتخاذ هذا القرار ، وهو ما يؤكد ابن خلدون فى مقدمته فهو يقول : «ولما جاء عبد الملك بن مروان، واستحال الأمر ملكا ، وانتقل القوم من غضاضة البداوة الى رونق الحضارة ، ومن سذاجة الأمية إلى حذق الكتابة ، وظهر فى العرب ومواليهم

مهرة فى الكتاب والحساب ، أمر عبد الملك سليمان بن سعيد والى الأردن لعهدده أن ينقل ديوان الشام إلى العربية» (١) .

وعلى كل حال ، فقد كان من الطبيعى أن يشكل هذا القرار خطرا على اللغة القبطية ، وعلى مناصب القبط فى الدولة فيذكر الكندى : أنه بعد تحول ديوان مصر إلى العربية صرف عبد الله بن عبد الملك أشناس (٢) عن الديوان، وجعل عليه أبو يربوع الفزارى من أهل حمص .

ويعتبر قرار تعريب الدواوين - فى رأينا - الخطوة الأولى لتعريب مصر، وانتشار اللغة العربية بها . إذ أقبل الأقباط على تعلم اللغة العربية حتى يتسنى لهم الاحتفاظ بوظائفهم، أو تولى الوظائف. وهذا ما حدث للأقباط أثناء الحكم البيزنطى - كما ذكرت فى فصل سابق - فاللغة اليونانية كانت اللغة الرسمية للدولة ، وكان على الأقباط الذين يريدون تولى الأعمال الإدارية فى الحكومة البيزنطية أن يتعلموها ويتقنوها .

هذا فيما يتعلق بالعامل الأول وهو تعريب الدواوين . أما فيما يتصل بالعامل الثانى ، وهو تحريم الخلفاء استخدام أهل الذمة فى وظائف الدولة :

فيبدو - فى رأينا - أن الدافع وراءه هو محاولة الخلفاء دفع أهل الذمة إلى اعتناق الدين الإسلامى إذا أرادوا الاحتفاظ بوظائفهم . ونلاحظ من دراسة المصادر العربية أن ذلك التحريم بدأ من وقت مبكر جدا ، أى منذ عهد عمر بن الخطاب (٣) ، ولكنه لقى صعوبات كثيرة تنصل بعدم توافر

(١) يقول الجهمشيارى أن السبب الذى دفع عبد الملك بن مروان لتعريب الدواوين : إنه «كان يتقلد ديوان الشام بالرومية لعبد الملك ولن تقدمه سرجون بن منصور النصرانى ، فأمره عبد الملك يوما بشىء فتناقل عنه ، وتوانى فيه ، فعاد لطلبه وحثه فيه ، فرأى منه تعريطا وتقصيرا ، فقال عبد الملك لأبى ثابت سليمان بن سعد الخشنى - وكان يتقلد له ديوان الرسائل - : أما ترى إدلال سرجون علينا ؟ وأحسبه قد رأى أن ضرورتنا إليه وإلى صناعته ، أقما عندك حيلة ؟ قال لو شئت لحولت الحساب إلى العربية ، قال : فافعل . فحواله . فرد إليه عبد الملك جميع دواوين الشام» .

(٢) يسميه المقرئى (انتشار) واسمه الحقيقى أثناسيوس الرهاوى وستتناوله فى الصفحات القادمة .
(٣) ترى الدكتور سيدة كاشف أن عمر بن الخطاب برىء من هذه الشروط والأحكام التى أصبحت تعرف بالشروط العمرية أو عهد عمر ، خاصة وأن هذه الشروط والأحكام قد أصابها الزيادات الكثيرة والتأويلات وسوء التفسير والتحريف منذ القرن ٥ هـ / ١١ م

العمالة الإسلامية التي تستطيع أن تسد في جميع الأعمال . وهذا هو السبب في رأينا - فيما نقلته المصادر العربية من رسائل الخلفاء المتكررة لتحريم استخدام أهل الذمة في أزمنة مختلفة ، مما يدل على استمرار بعضهم في العمل .

فقد كتب عمر بن الخطاب (١٣ - ٢٣ هـ / ٦٣٤ - ٦٤٣ م) إلى عماله يقول : «أما بعد ، فإنه من كان من قبله كاتب من المشركين ، فلا يعاشره ولا يوانده ، ولا يجالسه ، ولا يعتضد برأيه ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يأمر باستعمالهم ، ولا خليفته من بعده » .

وكتب عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ / ٧١٧ - ٧١٩ م) إلى جميع عماله رسالة يطلب فيها عزل أهل الذمة عن الوظائف ، ويهددهم إذا أحد منهم استخدمهم ، فيقول فيها : «إن المسلمين كانوا فيما مضى إذا قدموا بلدة فيها أهل الشرك ، يستعينون بهم ، لعلمهم بالجباية والكتابة والتدبير ، فكانت لهم في ذلك مدة ، فقد قضاها الله بأمر المؤمنين . فلا أعلم كاتباً ولا عاملاً في شيء من عملك على غير دين الإسلام ، إلا عزلته ، واستبدلت مكانه رجلاً مسلماً» (١) .

ويقول ابن الأثير : إن عمر بن الخطاب كتب إلى عماله رسالة يقول فيها «أما بعد ، فإن الله عز وجل أكرم بالإسلام أهله ، وشرفهم وأعزهم ، وضرب الذلة والصغار على من خالفهم ، وجعلهم خير أمة أخرجت للناس ، فلا تولين أمور المسلمين أحداً من أهل ذمتهم وخراجهم فتتسبط عليهم أيديهم وألسنتهم ، فتتلهم بعد أن أعزهم الله ، وتهينهم بعد أن أكرمهم الله تعالى ، وتعرضهم لكيدهم والاستطالة عليهم ، ومع هذا فلا يؤمن غشهم إياهم ، فإن الله عز وجل يقول : (لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يآلونكم خيالا ودوا ما عنتم) (٢) .

(١) وفي كتاب ابن النقاش يقول : فلا أعلم أن أحد من العمال أبقي في عمله رجلاً متصرفاً على غير دين الإسلام إلا نكثت به ... وليكتب كل منهم بما فعله في عمله.

(٢) سورة آل عمران آية رقم (١١٨) .

و (لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض) (١)،
والسلام .»

وفى عهد المهدي (١٥٨ - ١٦٩ هـ / ٧٧٤ - ٧٨٥ م) حين تبين أن بعض
أهل الذمة مايزالون يتولون المناصب ، أرسل إلى عماله يطلب منهم عدم
استخدام كتاب من أهل الذمة ، ويقول : «وإن علم أن أحدا من المسلمين
استكتب أحدا من النصارى قطعت يده» .

وفى عهد هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ / ٧٨٦ - ٨٠٨ م) صرف
أيضا أهل الذمة عن أعمالهم ، واستعمل عوضا عنهم مسلمين .

وفى زمن المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ / ٨١٣ - ٨٣٣ م) وأثناء وجوده فى
مصر عام (٢١٧ هـ / ٨٣٢م) تظلم المسلمون إليه من وجود أهل الذمة فى
الوظائف ، فأرسل إلى عمرو بن عبد الله الشيبانى ، وطلب منه أن يخبره عن
أصل القبط ، فأخبره بأنهم بقية الفراعنة الذين كانوا بمصر ، كما أخبره أن
عمر بن الخطاب نهى عن استخدامهم . فأمر بعدم استخدامهم .

كما صرف المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ / ٨٤٦ - ٨٦١ م) أيضا أهل الذمة
عن الأعمال ، وذلك - كما يقول ابن النقاش - لأن المباشرين منهم للأعمال
كثروا فى زمانه وزادوا على الحد ، فكانت الأعمال كلها أو عامتها إليهم فى
جميع النواحي ، وذلك فى عام ٢٣٥ هـ / ٨٤٩ م . فخرج الكتاب النصارى
من الديوان وجعل عوضا عنهم مسلمين .

أما المقتدر بالله (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ / ٩٠٧ - ٩٣٢ م) فانه فى عام ٢٩٥ هـ
/ ٩٠٧ م عزل كتاب النصارى وعمالهم ، وأمر ألا يستعان بأحد من أهل
الذمة ، وقد أرسل رسالة إلى عماله كان من ضمنها : « وقد أمر أمير
المؤمنين بترك الاستعانة بأحد من أهل الذمة ، فليحذر العمال تجاوز أمر أمير
المؤمنين ونواهيه » .

(١) سورة المائدة آية رقم (٥١) .

على أن الحاجة إلى استخدام الأقباط فى الوظائف الحكومية ظلت قائمة طوال عصر الولاة وعصر الطولونيين وعصر الاخشيديين .

ففى عصر الولاة :

يذكر ساويرس أنه فى ولاية عبد الواحد بن يحيى الوزير على مصر عام (٢٣٦ - ٢٣٨ هـ / ٨٥٠ - ٨٥٢ م) ، كان هناك أرخانان^(١) بمصر أحدهما : مقارة بن يوسف ، كاتب صاحب ديوان ، وله موضع عند جميع من يتولى فسطاط مصر ، والآخر : ابراهيم بن ساويرس ، متولى بيت المال ، وعليه استخراج الأموال ليحملها إلى خزائن الملك . ويبدو أنهما لم يكونا فقط المشتغلين من الأقباط ، فيشير ساويرس إلى وجود آخرين فى الديوان ويقول: «وكان من نعمة الله أن جماعة من المؤمنين متولين ديوان السلطان». ويشير المقدسى - وهو من أهل القرن الرابع الهجرى - إلى أن الكتاب فى بلاد الشام ومصر كانوا من المسيحيين .

كما يذكر الكندى أنه فى ولاية يزيد بن عبد الله التركى عام (٢٤٢ هـ / ٨٥٦ م) ، ورد كتاب المتوكل بابتناء المقياس الهاشمى للنيل ، ويعزل النصارى عن قياسه - مما يدل على أن النصارى كانوا متولين قراءة مقياس النيل حتى ذلك الوقت .

ويقول تريتون Tritton- فى كتابه : إن المسيحيين كانوا يُستخدمون فى بعض الأحيان كسفراء لا سيما إلى الدول النصرانية . فقد ذهب البطريرك «ديونيسيوس» Dionysius بطرك أنطاكية إلى مصر عام ٢١٦ هـ / ٨٣١ م ، وعند بلوغه إياها أرسله المأمون لبعض الثوار لردهم إلى الطاعة .

ومن الواضح أن صلات النصارى بأصحاب السلطة الرئيسية كانت صلات طيبة - كما يذكر تريتون Tritton- فقد جاء إلى المأمون رجل من أثرياء «بورة» من أعمال مصر ، واسمه « بكام » ، سائلا إياه أن يوليه الأمر فى بلدته ويسوق اليه رياستها ، فقال له الخليفة: « أسلم ، فتكون مولائى».

(١) الأرخون Archon بمعنى الرئيس .

فأجابه بكلمة: «لأمير المؤمنين عشرة آلاف مولى مسلم ، أفلا يكون له مولى واحد من النصارى ؟ » فضحك المؤمن منه ، وجعله كبير بلدة « بورة » وإقليمها .

ويذكر ساويرس إن كاتب ابن مدبر كان اسمه « ابن أندونه المصرى » ، وأنه كان يضطهد المسيحيين ويفرض على الرهبان الجزية ، فطلب منه الأب أن يقصر عن ذكر الرهبان أمام ابن مدبر على اعتبار أنه كاتبه ، إلا أنه رفض . ويرى ساويرس : أن الله قد عاقبه ، فقد أصيب فى كفه الأيمن الذى يكتب به ، حتى صارت خراجا ، فقطعها الأطباء .

أما فى عصر الدولة الطولونية :

فيذكر ساويرس : أنه كان لأحمد بن طولون كاتبان من النصارى ، أحدهما يدعى يوحنا والآخر إبراهيم ، كما كان لوزيره أحمد بن المانرائى (١) كاتب قبلى يدعى يونس .

أيضا سميت قرية «أندونه» باسم مولى نصرانى من موالى أحمد بن طولون ، وكان ابن طولون قد فصله من عمله وغرمه خمسين ألف دينار وقد سبق ذكر ابن أندونه المصرى فيما سبق ، ولعله هو أو اسم أسرته .

كما يذكر البلوى أن الذى بنى جامع ابن طولون نصرانى «حاذق بالهندسة». وفى تاريخ الأمة القبطية أن اسم هذا المهندس سعيد بن كاتب الفرغانى .

(١) وهو أحمد بن إبراهيم أو محمد بن أحمد بن إبراهيم المانرائى الاطروش الذى ولى خراج مصر سنة ٢٦٢ هـ شركة مع على بن الحسين (أو الحسن أو أبو الحسن) بن شعيب الداينى . وقد ذكر المقرئى أن الذى ولاء هو الخليفة المعتمد . وذكر البلوى وابن سعيد (عن ابن الداية) أن الذى ولاء هو أحمد بن طولون نفسه والراجع عندنا ما ذكره البلوى وابن سعيد لأن ابن طولون أشرف على مالية البلاد بعد تخلصه من ابن المدير ، وأصبح منذ سنة ٢٦٤ هـ فى عداة ظاهر مع الحكومة المركزية فى بغداد واستقل عنها بإدارة مصر . ومهما يكن من الأمر فإن شركة المانرائى مع على بن الحسين فى خراج مصر لم تدم طويلا لأن ابن طولون أمر بسجن على بن الحسين حتى مات ، وذلك بسبب كتاب وجهه إلى ابن المدير - عدو ابن طولون - يشكو فيه من أعمال وظيفته . وهكذا أصبح المانرائى وحده عاملا على خراج مصر .

أما فى عصر الدولة الاخشيدية :

يذكر ساويرس : أن كافور الاخشيدى كان له وزير قبلى اسمه «أبو اليمن قزمان بن مينا» ، وأنه ظل ناظرا فى كورة مصر بعد دخول جواهر الصقلى أرض مصر «لما هو مشهور به من الثقة والأمانة التى عرفت منه ، وشهد له بها ثقات مصر » .

وترى الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف : أنه لم يكن وزيرا ، وإنما كان من كبار الموظفين فى الشئون المالية بحضرة مصر .

وتذكر الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف : أن أهل الذمة كانوا لا يزالون يعملون فى جباية الخراج فى البلاد بوصفها من الأعمال التى لم يكن ميسورا أن يستغنى عنهم فى أدائها ، فيقول : إنه فى الأوراق البردية المحفوظة بمجموعة الأرشيدوق «رينر» فى فينا ، وثيقة من البردى تتضمن إيصالا مؤرخا من عام ٣٣٥ هـ / ٩٤٦ م ، يثبت أن «بكام بن دينال» دفع الجزية المقررة عليه وهى ثلث دينار وثلثا قيراط فى حضور أبى الحسن بن عيسى لعامل الجباية تيودور بن خايل .

وممن أشرفوا أيضا على الشئون المالية فى العصر الاخشيدى ، الكاتب القبطى ابن عيسى بقطر بن شفا المعروف ببولس ، متولى خراج مصر للدولة الاخشيدية . وبالنسبة لإبراهيم بن مروان - وهو موظف نصرانى من عمال الدولة الاخشيدية فى عهد أونوجور - ترى الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف : أن عمله كان من الراجح متصلا بالشئون المالية فى البلاد.

ومن القبط أيضا الذين أشرفوا على إدارة الشئون المالية على عهد الاخشيديين «جرير بن الحصان» .

على أن الأقباط لم يكونوا وحدهم من تولى الوظائف الإدارية فى الدولة ، فقد تولاهم أيضا البيزنطيون ، ويورد لنا تريتون Tritton أسماء بعضهم ، ومنهم : «ميناس» وهو عامل كان هرقل قد ولاه أعمال المنطقة الشمالية من

البلاد ، ويقول ترتون Tritton: إنه كان يجمع بين الفظاظلة وشدة البغض للمصريين ، ومع ذلك استبقاه المسلمون فى عمله بعد فتحهم الديار ، فظل يباشر عمله كما كان يباشره من قبل .

ومنهم أيضا آخر اسمه «شنوده» وقد وكلت إليه حكومة الريف. وثالث اسمه Philoxenus وقد استعملوه واليا على أركاديا أو الفيوم. ويقول ترتون Tritton: إن هؤلاء الأشخاص كانوا يؤثرون الوثنيين (أى المسلمين) بعطفهم ويمقتون العيسويين ، ويرغمونهم على أن يجلبوا للمسلمين الكلا واللبن والعسل والفواكه والزبيب وغير ذلك مما قد لا يكون فى طاقتهم . وقد أثقل ميناى على الاسكندرية قبلت جزيته أيامه ٥٦ ر ٣٣٠ قطعة من الذهب . ثم حل مكانه آخر يدعى «جون» فدفع ٢٢٠٠٠ دينار ، وهو القدر الحقيقى الذى نصت عليه المعاهدة .

ومن الأشخاص المعروفين - كما يقول ترتون Tritton - «أثناسيوس الرهاوى» (يسميه المقرئى أنتناش) الذى شغل بعض مناصب الحكومة فى مصر ، وكان ينعت فى المكاتبات الرسمية « بالكاتب الفخم » ، وكان بديوانه عشرون كاتباً ، ثم زادوا إلى أربعة وأربعين . وكان «أثناسيوس» هذا هو متولى ديوان الخراج لعبد العزيز بن مروان ، ثم انتهى الأمر أخيراً بصرفه عما بيده ليخلفه أبو يربوع الفزارى من أهل حمص . وفى أثناء عودة «أثناسيوس» إلى بلاد الشام صودرت كل أملاكه بمصر ، وتختلف الروايات فى شأنه ، فيزعم بعضها أنه كان يتناول ستين ألف دينار سنوياً إلى جانب دينار واحد يأخذه من كل جندي ، وكان لديه أربعة آلاف عبد ، وكثير من الدور والقرى والبساتين والذهب والفضة . واستطاع أن يشيد كنيسة «أم الاله» فى الرها ^(١) من إيجار أربعمائة حانوت يملكها ، فحسده سرجون - وكان ملكانى المذهب - ووشى به عند الخليفة زاعما أنه مد يده بالسرقة إلى بيت مال مصر ، وظل دأباً على الوشاية ، ومن ثم تنازل أثناسيوس عن مبلغ كبير من المال أرضى به الخليفة ، ومع ذلك فقد تبقى لديه قدر ضخم ! وعلى

(١) الرها : يضم أوله . مدينة من أرض الجزيرة ، بين الموصل والشام بينهما ستة فراسخ .

الرغم من المبالغات الظاهرة ، فمن الجلى أنه كان واسع السلطان عظيم النفوذ ، وأنه استعمله فى صالح رفاقه المسيحيين .

كما يذكر ترتون Tritton أيضا : أن «تيودوسيوس» ، وهو من الملكانيين البارزين ، قد شغل منصبا رفيعا فى الاسكندرية . والمأثور عنه أنه رحل إلى دمشق حيث دفع إلى يزيد مبلغا من المال وعاد حاملا مرسوم توليته حاكما على الاسكندرية ومريوط^(١) وما يلحق بهما ، دون أن يكون لوالى مصر سلطان عليه . وكان «تيودوسيوس» هذا من أشد الناقمين على البطريك القبطى « أنبا أغاثوا » ، ومن ثم استغل مكانته للكيد له ، فأخذ منه كرها ستة وثلاثين دينارا كل سنة عن تلاميذه ، كما فرض عليه أن يدفع له كل ما ينفقه على رجال الأسطول – إلى غير ذلك من الأموال . ويرى ترتون Tritton أن هذا القول فيه شئ من المبالغة .

وفى خلال بطريركية اسكندروس (٨١ – ١٠٦ هـ / ٧٠٠ – ٧٢٤م) كان تيودور واليا على الاسكندرية ، ويقول ترتون Tritton إنه كان يلقب فى الكتب الرسمية بأجستاليوس Augustalis ، ذلك اللقب الذى جرت العادة زمن الحكم البيزنطى على إطلاقه على حاكم الاسكندرية . ويرى أنه – من الأرجح – كان تحت إمرة عربى .

وسنعرض فى الصفحات القادمة أهم المناصب الإدارية الرئيسية التى تولها العرب فى مصر للاشراف على الإدارة بوجه عام ، ولتنفيذ ما يتطلبه الاحتلال العربى الجديد .

أولا - (الوالى)

أصبحت مصر بعد الفتح العربى فى يدوال خاضع مباشرة للخليفة ، على نحو ما كان الأمر فى العصر البيزنطى ، الذى كان حاكم مصر فيه خاضعا مباشرة للامبراطور البيزنطى ، مع فارق هام يتعلق بمركزية الحكم .

(١) مريوط : قرية من قرى مصر قرب الاسكندرية .

فعلى الرغم من أن مصر البيزنطية كانت تحت سيطرة حاكم عام الشرق ، الخاضع للإمبراطور البيزنطى مباشرة ، إلا أنها كانت مقسمة إلى دوقيات ، ذات سلطات مدنية وعسكرية ، الأمر الذى كان من شأنه إضعاف الحكم المركزى . أما فى مصر الإسلامية ، فإن الولاة كانوا حريصين على عدم إعطاء الفرصة لعمال أقاليمهم للاستقلال محليا ، فكان الحكم فى مصر مركزيا إلى أقصى حد ، وكانت كل كبيرة وصغيرة ترجع إلى والى مصر .

كان والى أعظم موظفى الدولة فى الحكومات الإسلامية ، يعين من قبل الخليفة ، وينوب عنه فى حكم البلاد ، وهو الرئيس الأعلى للقضاء ، والصلاة ، والخراج ، والجند ، والشرطة وغير ذلك من الأعمال .

وقد تولى إمارة مصر ، منذ الفتح العربى حتى قدوم القائد جوهر الصقلى عام ٣٥٨ هـ / ٩٦٨ م ، مائة وإثنا عشر أميرا ، حكموا مدة ثلثمائة وسبع وثلاثين سنة وسبعة أشهر وستة عشر يوما . أولها يوم الجمعة مستهل المحرم سنة عشرين من الهجرة ، وآخرها يوم الاثنين سادس عشر شعبان سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، وكان يطلق عليهم اسم أمراء مصر . ويقال للدار التى يقيمون فيها «دار الإمارة» . وكان غنيسة بن اسحاق آخر من وليها من العرب من عام (٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م إلى عام ٢٤٢ هـ / ٨٥٦ م) .

وقد كان الأصل فى الإمارة هو إمارة الصلاة ، وقيادة الجيوش ، وقد أضيف الخراج لبعض الولاة . وهذا ما اتفقت عليه المصادر العربية ، التى ذكرت أن والى كان أحيانا يجمع فى يده الخراج إلى جانب الصلاة وقيادة الجيوش أثناء الحرب ، وأحيانا أخرى يكون له الصلاة وقيادة الجيوش فقط أما الخراج فيكون لشخص آخر .

ويلحظ من الجدول الذى أعدته الدكتورة سيدة كاشف لأسماء الولاة وعمال الخراج وأصحاب الشرطة والقضاة والبطارقة فى عهد الولاة ، فى كتابها «مصر فى فجر الإسلام» - أن الفترة الأولى التى تولى فيها الولاة مصر ، والتى بدأت بولاية عمرو بن العاص ٢٠ هـ / ٦٤١ م حتى ولاية عبد

الملك بن رفاعة عام ٩٦ هـ / ٧١٥ م ، كان الوالى فيها يجمع بين الخراج وإمامة الصلاة وقيادة الجيوش ، اللهم فيما عدا عام ٤٣ هـ / ٦٦٣ م أثناء ولاية عتبة بن أبى سفيان ، فقد ولى الخراج فى هذا العام «وردان» . وفى عام ٩٦ هـ / ٧١٤ - ٧١٥ م انتزعت وظيفة تولى الخراج من الوالى عندما عين لهذه الوظيفة «أسامة بن زيد» . ومنذ ذلك الحين أصبح الوالى ومتولى الخراج شخصين مختلفين ، الأمر الذى اعتبره الدكتور محمد ضياء الدين الرئيس دليلا على تزايد اهتمام الدولة الإسلامية بأمر الخراج .

وهناك من الأمراء من اجتمعت لهم سلطة إمامة الصلاة وجمع الخراج معا ، ثم عزلوا فيما بعد عن الخراج . ومن هؤلاء :

حفص بن الوليد الذى تولى مصر من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك عام ١٢٤ هـ / ٧٤١ م ، فقد اجتمع له الصلاة والخراج ، ثم عزل عن الخراج عام ١٢٥ هـ / ٧٤٢ م من قبل الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وانفرد بالصلاة .

أيضا الوالى خوط عبد الواحد بن يحيى الذى تولى مصر عام ٢٣٦ هـ / ٨٥٠ م من قبل المنتصر ، ثم عزله عن الخراج بعد سنة من توليه ، وذلك عام ٢٣٧ هـ / ٨٥١ م ، وبقيت له الصلاة فقط .

وهناك من الأمراء من تولوا الخراج ، ثم تولوا الإمارة من قبل الخليفة ، فجمعوا بين الصلاة والخراج ، ومن هؤلاء :

عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير الذى تولى مصر عام ١٣٢ هـ / ٧٤٩ م من قبل الخليفة مروان بن محمد . وكان عبد الملك بن مروان متوليا أصلا لخراج مصر ، فجمع له مروان الخراج والصلاة .

وقد لاحظنا أن بعض الأمراء جمعوا بين الخراج والصلاة بعض الوقت وليس طول الوقت ، ومنهم - كما يذكر أبو المحاسن - :

موسى بن أبى العباس الذى تولى مصر عام ٢١٩ هـ / ٨٣٤ م نيابة عن أشناس على الصلاة ، وقد جمع له الخراج فى بعض الاحيان .

كما كان هناك أيضا بعض الأمراء الذين شاركوا متولى الخراج ، ومنهم : عنبسة بن اسحاق الذى تولى مصر عام ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م من قبل المنتصر على الصلاة فقط ، وشريكا لأحمد بن خالد صاحب خراج مصر .

ومنذ إنتهاء عصر عنبسة بن اسحاق ، آخر من ولى مصر من العرب (٢٣٨ - ٢٤٢ هـ / ٨٥٢ - ٨٥٦ م) ، لم يعد الوالى يتولى الصلاة بالناس فى الجامع ، وإنما صار يصلى بالناس رجل يرزق من بيت المال ، وكذلك المؤذنون ونحوهم .

ومن الأمور الجديرة بالذكر أن بعض الولاة جمعوا الى ادارة مصر إدارة بلاد برقة وما يليها من شمال افريقية ومن هؤلاء الولاة :

مسلمة بن مخلد الذى تولى مصر عام ٤٧ هـ / ٦٦٧ م من قبل معاوية ، فقد جمع له معاوية صلاة مصر وخراجها وبلاد المغرب ، وهو أول من جمعت له مصر والمغرب .

أيضا يزيد بن حاتم الذى تولى مصر ٤٤ هـ / ٧٦١ م من قبل الخليفة أبى جعفر المنصور ، فقد كان أول وال تضم له برقة مع مصر ، وذلك فى عام ١٤٨ هـ / ٧٦٥ م .

وأصبحت افريقية لا تتبع مصر منذ عام ٨٦ هـ / ٧٠٥ م ، وذلك بعد عزل حسان بن النعمان وتولية موسى بن نصير ^(١) لولاية افريقية يحكمها من القيروان ، ويتبع الخليفة مباشرة. فمنذ ذلك الحين أصبحت افريقية ولاية مستقلة فى حكمها عن مصر ، بعد أن كانت تتبعها فى الادارة ، وتتلقى منها الجيوش الفاتحة .

(١) هو : أبى عبد الرحمن موسى بن نصير ، اللخمى بالولاء صاحب فتح الاندلس . كان من التابعين رضى الله عنهم ، وروى عن تميم الدارى رضى الله عنه . وكان عاقلا كريما شجاعا ورعا تقيا لله تعالى ، لم يهزم له جيش قط . توفى عام ٩٧ هـ / ٧١٥ م .

وتشير المصادر العربية الى أن البعض من الولاة كانوا يستغلون مناصبهم فى جمع المال ، ومن هنا عمد عمر بن الخطاب الى مقاسمة بيت المال لأموال هؤلاء العمال ، فيذكر البلاذرى أن عمر بن الخطاب كان اذا ولى عاملا له ، يسجل أمواله قبل الولاية ، ثم يقاسمه ما زاد على ذلك .

ويذكر ابن عبد الحكم أن موقف عمر بن الخطاب هذا كان نتيجة لأبيات شعر أرسلها له مجهول ، تشير بأصابع الاتهام الى مصادر أموال العمال ، وتتساءل عن وفرة هذه الأموال فى أيديهم ، وتطلب منه مقاسمته لأموالهم . وكان من هؤلاء العمال :

عمرو بن العاص ، الذى كتب اليه عمر بن الخطاب يقول : « أما بعد ، فانكم معشر العمال قعدتم على عيون الأموال ، فجبيتكم الحرام ، وأكلتم الحرام ، وأورثتم الحرام . وقد بعثت اليك محمد بن مسلمة الأنصارى ^(١) ليقاسمك مالك ، فأحضره مالك والسلام . » . وكان عمر بن الخطاب قد لاحظ زيادة ممتلكات عمرو بن العاص بعدما ولى مصر . ومن هنا ، وكما يقول البلاذرى ، كتب اليه يقول :

« لقد فشنت لك فاشية من متاع ورقيق وأنية وحيوان ، لم يكن حين وليت مصر » .

ومن هؤلاء العمال أيضا - وكما تذكر المصادر العربية - أبو هريرة الذى قال له عمر بن الخطاب عندما قدم من البحرين : « ياعدو الله ، وعدو الاسلام ، خنت مال الله » ! وقد كرر هذه العبارة ثلاث مرات ، وأبو هريرة ينكر فى كل مرة ، وأخيرا أخذ عمر بن الخطاب منه اثنى عشر ألفا ، أو كما قال أبو هريرة : « فغرمنى اثنى عشر ألفا » .

(١) وهو محمد بن مسلمة بن خالد بن عدى الأنصارى ، أبو عبد الرحمن وقيل أبو عبد الله . شهد بدرًا والمشاهد كلها ، وكان من فضلاء الصحابة واستخلفه النبی صلى الله عليه وسلم فى بعض غزواته مات بالمدينة عام ٤٢ هـ / ٦٦٣ م .

ويبدو أن الخلفاء لم يقاسموا أموال عمالهم فقط ، بل قاسموا أيضا أموال كتاب هؤلاء العمال، فتشير المصادر الى أنه بعد وفاة عبد العزيز بن مروان والى مصر عام (٨٦هـ / ٧٠٥م) أرسل عبد الملك بن مروان الضحاك ابن عبد الرحمن الى مصر لمقاسمة أموال يناس بن خميا ، كاتب عبد العزيز ابن مروان، وكان هذا الكتاب قد بنى له عبد العزيز بن مروان قصرا على باب الجامع بالفسطاط .

وقد كان يصاحب عزل الوالى فى أحيان كثيرة مصادرة أمواله - كما تذكر المصادر العربية - ولسنا ندرى هل كانت هذه المصادرة بسبب عدم شرعية هذه الأموال ، أو أنها كانت عقابا على ذنب اقترفه الوالى ، أو لأنها بلغت من التضخم حدا يجعل من صاحبها خطرا على الخلافة ؟ على كل حال ، فإن المصادر العربية التى تشير الى هذه المصادرات لا تشير غالبا الى الأسباب التى أدت اليها . ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره أبو المحاسن عن عزل عبد الله بن عبد الملك (٨٦ - ٩٠ هـ / ٧٠٥ - ٧٠٨م) عن ولاية مصر ، فقد أورد أنه بعد خروجه بجميع أمواله ، أرسل اليه أخوه الخليفة الوليد بن عبد الملك من أحاط به فى الأردن عندما وصل اليها ، وأخذ جميع ما كان معه، ثم حمل اليه - هكذا بدون ذكر سبب المصادرة. وقد يكون السبب ما ذكره الدكتور محمد ضياء الدين الريس من أن عبد الله بن عبد الملك كان سييء السيرة فى ولايته ، وكان يرتشى . وقد يكون السبب رغبة الخليفة فى تجريده من المال حتى لا يكون قوة مضادة له فى الحكم .

ومن الحالات التى ذكرت أسباب المصادرة ، حالة إبراهيم بن صالح الذى كان متوليا لمصر من قبل المهدي (١٦٥ - ١٦٧ هـ / ٧٨١ - ٧٨٣ م) ، فقد عزله المهدي ، وصادر أمواله واستولى على أموال من عماله قدرت بثلاثمائة وخمسين ألف دينار . ويقول أبو المحاسن فى سبب ذلك : إنه لم يحفل بأمر دحيه بن المصعب بن الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان الذى خرج بالصعيد ، ودعا لنفسه بالخلافة ، حتى استفحل أمره ، وملك معظم بلاد الصعيد ، وكاد أن يسيطر على مصر كلها .

وترى الدكتورة سيدة كاشف أن الخلفاء الأمويين قد أعطوا لعمالهم على الولايات قسما من الحرية ، لذلك ظهرت مصر فى أحيان كثيرة كدولة شبه مستقلة عن الخلافة ، وظهر الولاة فيها كملوك شبه مستقلين .

وفى رأينا - وكما تشير المصادر العربية - أن هذه الحرية فى كثير من الأحيان كانت لمصالح مشتركة بين الخليفة والوالى ، كما هو الحال بالنسبة لعمر بن العاص ، الذى ولاة معاوية بن أبى سفيان على الصلاة والخراج فى مصر فى ولايته عام ٢٨ هـ / ٦٥٨ م ، وجعلها له طعمة بعد عطاء جندها والنفقة فى مصلحتها . فنلاحظ أن معاوية لم يجعل مصر طعمة لعمر بن العاص إلا مكافأة له لوقوفه إلى جانبه ضد على بن أبى طالب فى موقعة صفين ^(١) وخدعة التحكيم ^(٢) فيقول أبو المحاسن :

(١) صفين : بكسرتين وتشديد الميم ، وهى موضع بقرب الرقة على شاطئ الفرات من الجانب الغربى بين الرقة وبالس .

(٢) موقعة صفين نشبت بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان فى عام ٣٧ هـ / ٦٥٧ م ، وقد نشأ الخلاف بينهما بعد مقتل عثمان بن عفان ومبايعة على بن أبى طالب من بعده بالخلافة فى عام ٣٥ هـ / ٦٥٥ م ، فقد رأى على - كما يقول ابن خلدون - ومن تبعه أن بيعته قد إنعقدت ، وازمت من تأخر عنها ، بإجماع من اجتمع عليها بالمدينة دار النبى (ص) وموطن الصحابة وأرجاء المطالبة بدم عثمان إلى إجماع الناس واتفاق الكلمة ، فيتمكن حينئذ من ذلك . ورأى الآخرون أن بيعته لم تنعقد لافتراق الصحابة أهل الحل والعقد بالآفاق ، ولم يحضر إلا قليل ، ولا تكون البيعة إلا باتفاق أهل الحل والعقد ، ولا تلزم بعقد من تولاهم من غيرهم أو من القليل منهم ، وإن المسلمين حينئذ فوضى ، فيطالبون أولا بدم عثمان ثم يجتمعون على إمام ، وذهب إلى هذا معاوية وعمر بن العاص وأم المؤمنين عائشة والزبير وغيرهم .

وقد يادر على بعد توليه الخلافة بعزل ولاة عثمان وإرسال عماله إلى الولايات ، كذلك أرسل بيعته إلى جميع الأمصار . والظاهر - كما تقول الدكتورة سيدة كاشف - أن البيعة جاءت من كل مكان إلا بلاد الشام التى كان يليها معاوية من قبل عثمان بن عفان ، فكان لابد من نشوب النزاع بين الطرفين ، وببعضهما يستعدان لذلك وقع على مسرح الخلاف السياسى حادث جديد هو خروج طلحة والزبير وعائشة زوج الرسول (ص) على خلافة على واشتباكهم معه فى موقعة الجمل التى انتهت بانتصار على وقتل طلحة والزبير وأسر السيدة عائشة فى سنة ٣٦ هـ / ٦٥٦ م . وفى عام ٣٦ هـ / ٦٥٦ م سار على بن أبى طالب من الكوفة مقر خلافته بعد موقعة الجمل - نحو الشام لمحاربة معاوية ، وتقابل الفريقان فى سهل صفين ، حيث نشب القتال بين الفريقين ، وانتهت تلك الموقعة فى صفر عام ٣٧ هـ / ٦٥٧ م بحيلة لعمر بن العاص ، إذ أشار على معاوية برفع المصاحف على الرماح والنداء بتحكيم القرآن بدلا من تحكيم السيف ، فكان ذلك سببا فى نفور أكثر جند على بعد أن كانوا قاب قوسين أو أدنى من الانتصار . =

إن عليا كان قد كتب الى عمرو بن العاص يتألفه، فلما أتاه الكتاب،
أقرأه معاوية، وقال : قد ترى فإما أن ترضيني، وإما أن ألحق به ! قال : فما
تريد ؟ قال : مصر ! فجعلها له .

ثم يقول أيضا : « وظن (أى عمرو بن العاص) أن معاوية سيزيده
الشام مع مصر، فلم يفعل معاوية فتتكر له عمرو، فاختلفا وتغالظا، فدخل
بينهما معاوية بن حديج^(١) فأصلح بينهما، وكتب بينهما كتابا : إن لعمرو
ولاية مصر سبع سنين، وأشهد عليهما شهودا » .

كذلك من الولاة الذين تولوا مصر فترة طويلة لوجود مصالح مشتركة
بينه وبين الخليفة، عبد العزيز بن مروان (من عام ٦٥هـ / ٦٨٤م الى عام
٨٦هـ / ٧٠٥م) . فقد تولى إمارة مصر من قبل أبيه مروان بن الحكم فى عام
٦٥هـ / ٦٨٤م على الصلاة والخراج، بعد ماعهد اليه بالخلافة بعد أخيه عبد
الملك، وعندما مات أبوه أقره أخوه عبد الملك بن مروان على ولاية مصر،
لإبعاده - على الأرجح - عن مقر الخلافة حتى لا يكون منافسا له . ومما
يؤكد ذلك أنه عندما طال بعبد العزيز بن مروان العمر، خشى عبد الملك أن
تضيع فرصة الخلافة من عقبه، فطلب الى عبد العزيز أن يتنازل عن حقه فى
الخلافة من بعده لولده الوليد، فسليمان، ولكنه رفض، فأراد عبد الملك عزله
بالقوة، ولكن الموت فاجأ عبد العزيز عام ٨٦هـ / ٧٠٥م فانفتح طريق الخلافة
أمام الوليد ثم سليمان .

ويذكر ابن كثير أن عبد العزيز بن مروان طوال مدة توليه مصر لم يكن
يرسل الخراج الى الخلافة ، لأن مصر وبلاد المغرب كانت كلها له : مغانمها

= وقد اختير عمرو بن العاص حكما من قبل معاوية . كما اختير أبو موسى الأشعرى من قبل على، وقيل
إن هذا التحكيم قد انتهى باتفاق الحكيم على خلق على ومعاوية ، فاعلن أبو موسى الأشعرى خلعهما ثم
قام عمرو فاعلن خلق على وتثبيت معاوية لأنه رضى عثمان ، والمطالب بدمه ، وأحق الناس بأن يخلفه .
(١) هو معاوية بن حديج بن جفنة بن قتيبة الكندى الخولانى المصرى ، صحابى على قول الأكثرين ، وذكره
ابن حبان فى التابعين من الثقات . شهد فتح مصر . وتوفى عام ٥٢هـ / ٦٧٢م بمصر .

وخارجها ، ولكن عندما أرسل اليه الخليفة عبد الملك ليعزل نفسه ورفض هذا الطلب ، أرسل اليه يطلب منه حمل خراج مصر الى الخلافة .

أما فى العصر العباسى ، فقد اختلف وضع الولاة فى مصر باختلاف سياسة الدولة العباسية ، التى اعتمدت فى البداية على الفرس فى قيام دولتها ، ثم على الاتراك زمن الخليفة المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧هـ / ٨٣٣ - ٨٤١م) . فكما تلاحظ الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف ، فقد تميزت هذه الفترة بظاهرتين :

الظاهرة الأولى : كثرة تغيير الولاة ، بسبب بعد مقر الخلافة العباسية (فى بغداد وسامرا) عن مصر أولا ، وبسبب ضعف الخلفاء العباسيين أنفسهم ثانيا . فقد خشى الخلفاء العباسيون أن يتركوا ولاة مصر فى الحكم طويلا حتى لا يطمعوا فى الاستقلال بالبلاد .

ومن الولاة الذين حاولوا الاستقلال بالبلاد ، على بن سليمان الذى تولى مصر عام ١٦٩هـ / ٧٨٥م ولم يحاول الاستقلال بالبلاد عن الخلافة فقط ، بل إنه طمع أيضا فى الخلافة ورأى أنه يصلح لها ، مما دفع بعض أهل مصر الى الكتابة الى هارون الرشيد الذى أسرع بعزله فى عام ١٧١هـ / ٧٨٧م .

كذلك من الولاة الذين حاولوا الاستقلال بالبلاد ، وكان له نصيب كبير مما أراد ، عبيد الله بن السرى الذى تولى مصر عام ٢٠٦هـ / ٨٢١م بمبايعة الجند له . فقد خرج عن طاعة المأمون ، مما دفع المأمون الى ارسال عبد الله ابن طاهر لقتاله حتى استسلم عام ٢١١هـ / ٨٢٦م . وقد كان انتصار عبد الله ابن طاهر على عبيد الله بن السرى ، هو السبب - فى رأينا - الذى جعل المأمون يوليه مصر عام ٢١١هـ / ٨٢٦م ، ويهب له خراجها الذى قدر بثلاثة ملايين دينار .

ومن الولاة الذين أرادوا الاستقلال بمصر أيضا ، موسى بن عيسى الذى تولى مصر مرة ثانية عام ١٧٥ - ١٧٦هـ / ٧٩١ - ٧٩٢م . فقد عزم

على الاستقلال ، وعندما بلغ الرشيد موقفه هذا ، قال : « والله لا أعزله الا بأخس من على بابي » . فذكروا له عمر بن مهران ، وكان هذا - كما يذكر الطبري - رجلا أحول ، مشوه الوجه ، وكان لباسه لباسا خسيسا ، أرفع ثيابه طيلسانه الذي كانت قيمته ثلاثين درهما ، وكان يشمر ثيابه ، ويقصر أكمامه ويركب بغلا وعليه رسن ^(١) ولجام حديد ، ويردف غلامه خلفه ^(٢) . فؤلاه مصر على شرط أن يكون له الحرية في الانصراف اذا أصلح حالها . ويذكر الطبري أن موسى بن عيسى عندما علم أن عمر بن مهران هو الذي تولى بعده قال : «لعن الله فرعون حين يقول أليس لى ملك مصر » ^(٣)

هذا فيما يتعلق بالظاهرة الأولى في العصر العباسي وهى كثرة تغيير الولاة .

أما الظاهرة الثانية ، فهى ظاهرة الاقطاع ، وهى إقطاع الخلفاء العباسيين منذ عهد الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ / ٧٨٦ - ٨٠٨م) بعض أقاليم الدولة العباسية لبعض الشخصيات فى مقابل مال يوعدهونه للخلافة ، ولهم أن يعينوا من قبلهم ولاية فيما يتبعونهم مباشرة ولا يتبعون الخلافة ، كما فعل هارون الرشيد بعبد الملك بن صالح (١٧٨هـ / ٧٩٤م) ، والمأمون بطاهر بن الحسين (٢١٢هـ / ٨٢٧م) والمعتصم بأشناس (٢١٩هـ / ٨٣٤م) ، والواثق بايتاخ (٢٣٠هـ / ٨٤٤م).

فتشير المصادر العربية الى أن المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ / ٨٣٣-٨٤١م) أقطع أشناس التركى ولاية مصر عام (٢١٩هـ / ٨٣٤م) وأذن له بأن يولى حكمها بنفسه . وكان يذكر اسمه فى خطبة الجمعة مع الخليفة ، وكما يقول الكندى : «فدعى له بها» . وضربت السكة باسمه الذى نقش أيضا على الموازين والمكايل ، وقد ظل أشناس صاحب إقطاع مصر ويعين ولائها من قبله الى أن توفى عام (٢٣٠هـ / ٨٤٤م). وبعد وفاة أشناس أقطع الواثق (٢٢٧-٢٣٢هـ / ٨٤١-٨٤٦م) مصر لايتاخ التركى ، وقد دعى له على المنابر أيضا .

(١) رسن جمع أرسن وارسن وهو الحبل المعروف للدابة .

(٢) يردف غلامه خلفه : أى كان يركب غلامه خلفه على الدابة .

(٣) سورة الزخرف آية رقم ٥١ .

ويشير ابن اياس فى كتابه الى أن الخلفاء كانوا يشترطون عليهم ، فى كتب تقاليدهم ، المال الذى يلتزمون به ، الى جانب الهدايا المكونة من الخيول العربية ، والبغال الخيسية ^(١) ، والجمال البجاوية ^(٢) والثياب الديبيقية ، ومقاطع الشرب ^(٣) الاسكندرانية ، والطرز البهنساوية ، وأجلال الخيل ^(٤) ، والستور الفيومية ، والعسل النحل المصرى من بنها ، وغير ذلك من الاصناف التى لا توجد إلا فى مصر .

وفى رأينا أن هذا الاقطاع لم يكن اقطاع تملك ، وانما اقطاع إجارة (أنظر فى ذلك : الموضوع الخاص بالاقطاع) والدليل على ذلك ، أن المقطع كان يرسل للخليفة مالا يحدده الخليفة له ، كما كان فى إمكان الخليفة أن يعزل المقطع عن اقطاعه ليعطيه لآخر . فتشير المصادر العربية الى أنه بعدما أقطع الواثق مصر لايتاخ ، أمر بالقبض عليه عام ٢٣٥هـ / ٨٤٩م ، وأقطع مصر ابنه وولى عهده المنتصر . ولذلك يقول الكندى : «ثم صرف ايتاخ فى المحرم سنة ٢٣٥ ، واستصفيت أمواله بمصر ، وترك الدعاء له ، ودعى للمنتصر مكانه» .

على أن سياسة اقطاع الأتراك ولاية مصر ، والسماح لهم بتولية عمال من قبلهم ، أدت الى استقلال هؤلاء العمال بها ، ويرجع ذلك الى اهتمام الخلفاء بمراقبة من أعطيت لهم ولاية مصر ، وهم الذين أثروا البقاء فى عاصمة البلاد ، دون مراقبة عمالهم ، وبالتالي فلم يكن من العسير على عامل له شخصية بارزة وأمال واسعة أن يستقل بأمور البلاد ، خاصة بعدما

(١) خيس : بفتح أوله ويكسر ، وسكون ثانية وسين مهملة . وهى من كور الحوف الغربى بمصر . ومكانها اليوم القرية التى تسمى أم حكيم ، إحدى قرى مركز شبرا خيت بمديرية البحيرة . وهذه القرية تقع فى منطقة ناحية الشراك التى كانت مشتركة مع الخيس فى كورة واحدة ، ثم حُرِفَ اسمها الى الاشراك ، ولا تزال موجودة ضمن قرى مركز شبرا خيت المذكورة .

(٢) بجاوة : بفتح الواو . وهى أرض بالنوبة وتنسب الجمال الى البجا ، وهى أمم عظيمة بين العرب والحش والنوبة .

(٣) الشروب : جمع شرب ، وهو نوع عظيم الرقة والنفاسة من النسيج

(٤) الجل جمع جلال وأجلال للذابة كالثوب للانسان تصان به .

تطرق الضعف الى مركز الخلافة نفسها ، وهذا ماحدث فى عهد أحمد بن طولون الذى ولى مصر من قبل الخليفة المعتز ، فقد استقل بمصر عن الخلافة ، وأسس بها أول دولة مستقلة فى تاريخ مصر الاسلامية ، وهى الدولة الطولونية (٢٥٤-٢٩٢هـ / ٨٦٨ - ٩٠٥م) . ثم حدث ذلك أيضا فى عهد محمد بن طغج الذى ولى مصر من قبل الخليفة الراضى بالله محمد بن المقتدر ، واستقل بمصر عن الخلافة ، وأسس بها دولة مستقلة عرفت باسم الدولة الاخشيدية ، استمرت أربعاً وثلاثين سنة وعشرة أشهر وأربعة وعشرين يوماً (٣٢٣-٣٥٨هـ / ٩٣٥ - ٩٦٩م).

ثانياً: متولى الخراج أو صاحب الخراج :

ويعتبر الرجل الثانى فى الدولة بعد الوالى من حيث المكانة والأهمية . فيرى المقرئى أن سلطة الوالى كانت أعلى فى المكانة من سلطة متولى الخراج . وقد حرص الخلفاء على جعل عمال الخراج مستقلين عن الولاة، وذلك لإضعاف نفوذهم . ومن هنا حرص كثير من الولاة على ضم الخراج اليهم لدعم قوتهم ، ومن هؤلاء عمرو بن العاص (٢٠هـ / ٦٤١م). وعندما أراد عثمان بن عفان (٢٤-٣٥هـ / ٦٤٤-٦٥٥م) أن يكون عمرو على الحرب ، وعبد الله بن سعد على الخراج ، رفض عمرو ، وقال عبارته المشهورة : «أنا إذا كماشك البقرة بقرنيها وآخر يخلبها» !

ومنهم أيضاً عتبة بن أبى سفيان ، الذى تولى مصر من قبل معاوية عام (٤٣-٤٤هـ / ٦٦٣-٦٦٤م) على الحرب ، وكان وردان على الخراج . وعندما وفد عتبة على معاوية ومعه نفر من أهل مصر ، سأل معاوية الوفد عن عتبة ، فقال عبادة بن صمل المعافرى :«حوت بحر ياأمير المؤمنين ، ووعل بر» !

فقال معاوية لعتبة : «اسمع ماتقول فيك رعيتك » ! فقال : «صدقوا ياأمير المؤمنين ، حجبتنى عن الخراج ، ولهم على حقوق ، وأكره أن أجلس فأسال فلا أفعل فأبخل » . فضم اليه معاوية الخراج .

ويتضح من هذين المثلين أهمية وقوة منصب متولى الخراج ، الذى كان فى أحيان كثيرة يتدخل فى عزل وتولية الوالى بنفسه ، وسنعرض هنا أهم الشخصيات التى تولت الخراج فى الفترة التى يتناولها بحثنا .

وأول هؤلاء : أسامة بن زيد التنوخى (٩٦ - ٩٩ هـ / ٧١٤ - ٧١٧ م)
(١٠١ - ١٠٥ هـ / ٧١٩ - ٧٢٣ م)

وقد تولى خراج مصر فى ولاية عبد الملك بن رفاعة عام (٩٦ هـ / ٧١٤ م). وبعد وفاة الخليفة الوليد بن عبد الملك وتولية سليمان بن عبد الملك الخلافة (٩٦ - ٩٩ هـ / ٧١٤ - ٧١٧ م) كتب اليه سليمان : « احلب الدر حتى ينقطع ، واحلب الدم حتى ينصرم »^(١) ، وكان ذلك - كما يقول أبو المحاسن - « أول شدة دخلت على أهل مصر » .

وقد وصف سليمان بن عبد الملك أسامة يوماً فقال : « هذا أسامة لا يرتشى ديناراً ولا درهما . فقال له ابن عمه عمر بن العزيز بن مروان : أنا أدلك على من هو شر من أسامة ، ولا يرتشى ديناراً ولا درهما قال سليمان : ومن هو ؟ قال عمر : عدو الله ابليس . فغضب سليمان وقام من مجلسه . ومعنى هذا أن قسوة صاحب الخراج وبطشه أحياناً كانت ترجع الى طلب الخليفة منه ذلك .

ويرى لنا الجهشيارى أن أسامة بن زيد كان قد بلغه أن عمر بن عبد العزيز - ولم يكن بعد خليفة - يذم فيه . فعندما قدم بالمال على الخليفة سليمان بن عبد الملك ، حرص على الدخول عليه فى وقت يكون عنده عمر بن عبد العزيز ، ودار الحوار الآتى الذى لا يحتاج الى تعليق ، قال أسامة : « يا أمير المؤمنين ، إنى ماجئتك حتى نهكت الرعية وجهدت ، فان رأيت أن ترفق بها ، وترفها عنها ، وتخفف من خراجها ماتقوى به على عمارة بلادها ، وصلاح معاشها ، فافعل ، فانه يستدرك ذلك فى العام المقبل ! »

فقال له سليمان : « هبلتك أمك ! احلب الدم ، فإذا انقطع فاحلب الدم والنجا » (٢) . فخرج أسامة بن زيد ، فوقف لعمر بن عبد العزيز حتى خرج ،

(١) ينصرم . يقطع .

(٢) النجا . الجلد .

فركب ثم سار معه ، وقال له : «إنه بلغنى يا أبا حفص ، أنك تلومنى وتذمنى، وقد سمعت اليوم ما كان من مقالتي لابن عمك ، ومارد على، وعرفت عذرى» فقال عمر : «سمعت والله كلام رجل لا يغنى عنك شيئا !».

وعندما توفى سليمان بن عبد الملك وتولى الخلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩- ١٠١ هـ / ٧١٧ - ٧١٩م) ، كتب بعزل أسامة بن زيد ، وأمر به أن يحبس ويقيد ، ويحل عن القيد عند كل صلاة ، ثم يرد فى القيد ، فحبس بمصر سنة ، ثم نقل الى أرض فلسطين ، فحبس بها حتى مات عمر بن عبد العزيز، وتولى بعده يزيد بن عبد الملك (١٠١- ١٠٥ هـ / ٧١٩ - ٧٢٣م) فأعاد أسامة بن زيد على خراج مصر للمرة الثانية !

وأثناء خلافة يزيد بن عبد الملك اشتد أسامة بن زيد متولى خراج مصر على النصارى ، فأخذ - كما يقول المقرئى - أموالهم ، ووسم أيدي الرهبان بحلقة حديد فيها اسم الراهب ، واسم ديريه وتاريخه ، فكل من وجد بغير وسم قطع يده ، وكتب إلى الأعمال بأنه من وجد من النصارى وليس معه منشور أن يؤخذ منه عشرة دنانير . ثم كبس الديارات ، وقبض على عدة من الرهبان بغير وسم ، فضرب أعناق بعضهم ، وضرب بقيتهم حتى ماتوا من الضرب !

ثانيا : عبيد الله بن الحبحاب (١٠٥ - ١١٦ هـ / ٧٢٣ - ٧٣٥م)

وقد نجح فى عزل الوالى الحر بن يوسف ، الذى تولى مصر عام (١٠٥ هـ / ٧٢٣م) من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك - عن مصر ، لمغاضبة بينهما كما يقول المقرئى .

وعندما ولى هشام بن عبد الملك بدلا منه حفصا بن الوليد عام ١٠٨ هـ / ٧٢٦م ، كتب إليه عبيد الله بن الحبحاب يقول : «إنك لم تعزل الحر إذ وليت حفصاً ! فترك له الخليفة اختيار من يشاء ، فاختر عبد الملك بن رفاعة .

ويتميز عهد عبيد الله بن الحبحاب بقيام أول ثورة للأقباط في مصر ، وذلك بسبب رفعه قيمة الخراج عليهم ، فيذكر الكندي : أنه في إمرة الحر بن يوسف كتب عبيد الله بن الحبحاب إلى هشام بن عبد الملك بأن أرض مصر تحتل الزيادة ، فزاد على كل قيراط دينار . وقد أدت هذه الزيادة إلى قيام ثورات في كل من كورة تنو وتُمى^(١) وقُرَيْبُط^(٢) وطَرَايِيَّة^(٣) . وعامة الحَوَف الشرقي^(٤) وكانت هذه الثورات هي الأولى التي يقوم بها القبط ، وكان ذلك في عام ١٠٧ هـ / ٧٢٥ م . وقد نجح عبيد الله بن الحبحاب في قمع هذه الثورات بعدما أرسل أهل الديوان (العرب) لمحاربتهم .

- أما الشخصية الهامة الثالثة التي تولت الخراج في مصر فهو أحمد بن المدبر (٢٤٧ - ٢٥٥ هـ / ٨٦١ - ٨٦٨ م) :

وكان على خراج مصر في ولاية يزيد بن عبد الله التركي (٢٤٢ هـ / ٨٥٦ م) . وقد تولى خراج مصر بعد سليمان بن وهب عام ٢٤٧ هـ / ٨٦١ م بمرتب شهرى يقدر بستة آلاف دينار ويقول البلوى : إنه كان من دهاة الناس وشياطين الكتاب ، وقد أحدث في أيامه أنواعا من وجوه الظلم لم تكن بمصر ، منها : أنه حجر على النطرون بعدما كان مباحا لجميع الناس بمصر ، فصار

(١) تُمى . بالضم ثم الفتح ، ويا مشددة . كورة بحوف مصر يقال لها كورة تنو وتُمى ، وهما كورة واحدة . وهى كورة يقال لها تمى وتنو والصواب تنو ، وتسمى تنو . وقد زالت هذه القرية ، ومحلها اليوم تل المقدام الواقع في زمام كفر المقدام بمركز ميت غمر .

(٢) قُرَيْبُط بضم القاف ، وسكون الراء وفتح الباء الموحدة ويا ساكنة وطاء مهملة من كور أسفل الأرض بمصر وهى هُرَيْبُط التى بمركز كفر صقر بمديرية الشرقية .

(٣) طَرَايِيَّة : بالفتح وبعد الألف باء موحدة ويا مشددة من تحتها خفيفة . من نواحي حوف مصر . وردت فى مصادر أخرى باسم طرافية أو أرابيا ومعناها أرض العرب ، لأنها تجاور الصحراء العربية ، وكانت فاقوس قاعدة هذه الكورة ، وكانت صفت الحنة من قراها ولذلك يقال لها سقط طرابيا .

(٤) الحَوَف : بالفتح ، وسكون الواو ، والفاء . والحوف بمصر حوفان : الشرقى والغربى ، وهما متصلان . أول الشرقى من جهة الشام وآخر الغربى قرب دمياط ، ويشتملان على بلدان وقرى كثيرة . والحوف الشرقى كان يشمل جميع النواحي والبلاد التابعة الآن لمديرتى القليوبية والشرقية ، ثم البلاد الواقعة فى الحانف الشرقى من مركز السنبلوين ، وأجا ، وبلاد مركز ميت غمر بمديرية الدقهلية بالوجه البحرى .

له ديوان خاص ، وعامل جلد يحظر على الناس أن يبيعوا أو يشتروا إلا من جهته . كما حجر على الملح . أيضا قرر على الكلا الذى ترعاه البهائم مالا وسماء المراعى ! كما قرر على مصايد الأسماك مالا ، وسماء المصايد ! فانقسم حينئذ مال مصر إلى خراجى وهلالى ^(١) ، وكان الهلالى يعرف فى زمنه وما بعده بالمرافق والمعاون . ويذكر ابن اياس أن خراج مصر قد انحط فى أيامه حتى بقى ثمانمائة ألف دينار فقط .

ويقول ساويرس عن أحمد بن المدبر : أنه عندما وصل إلى مصر وضع يده على كل المسلمين والنصارى واليهود ، وضاعف عليهم الخراج ، فقوم لكل دينار دينار ، وقوم للدينار ثلثه ، وأرسل إلى الديارات فى كل موضع وأحصى الرهبان التى فيها ، وطالبهم بالجزية والخراج عن الحشيش الذى فى البهلس ، وعن النخل والشجر المثمرة المغروسة فى بيوتهم !

وكانت جزية النصارى التى بأرض مصر ألفى دينار ، زاد عليها أربعة ألف دينار ، حتى صارت ستة آلاف دينار ، وكان «الإنسان الفقير الذى يعجز قوته يأخذ منه فى كل سنة خمسين درهما» .

ويقول ساويرس : إنه فى أثناء ولاية مزاحم بن خاقان ٢٥٣ هـ / ٨٦٧ م كتب أحمد بن المدبر إلى جميع أرض مصر بأن يؤخذ من كل واحد خراجين فى تلك السنة ، وكل نصرانى جزيتين ، «فزاد الناس الذين بأرض مصر فقرا بهذا السبب بأمر هذا الإنسان ، حتى إن الأغنياء لم يجدوا الخبز ولم يقدرُوا عليه» .

واستمر أحمد بن مدبر يتولى خراج مصر حتى قدم أحمد بن طولون واليا عليها عام ٢٥٤ هـ / ٨٦٨ م . ويقول البلوى : إنه عندما دخل أحمد بن

(١) والخراجى مايجبى مسانحة ، أما الهلالى فهو مايجبى مشاهرة . ويقول المقرئى عن المال الخراجى والهلالى : «المال الخراجى ما يؤخذ مسانحة من الاراضى التى تزرع حبوبا ، ونخلا وعبنا وفاكهة ، وما يؤخذ من الفلاحين هدية مثل الغنم والدجاج والكشك وغيره من طرف الريف . والمال الهلالى عدة ابواب كلها احبثوها ولاه السوء شيئا بعد شيء» .

طولون مصر ، استقبله أحمد بن مدبر ومعه شقيق الخادم صاحب البريد ، وكان يرافق أحمد بن مدبر حاشيته المكونة من مائة غلام من مولدى الغور^(١) قد انتخبهم ، وكانوا يقفون فى حافتى مجلس ابن المدبر اذا جلس ، واذا ركب كانوا بين يديه ، فكانت له بهم هيبة عظيمة فى صدور الناس إذا رأوهم . وقد أهدى أحمد بن مدبر أحمد بن طولون هدايا قيمتها عشرة آلاف دينار ، إلا أن ابن طولون ردها اليه ، وطلب منه عوضا عنها غلمانا ، وقال له : « أحب أن تجعل العوض منها الغلمان الذين رأيتهم بين يديك ، فأنا إليهم أحوج منك » . ويذكر البلوى أن أحمد بن مدبر لم ير بدا من أن يبعثهم إليه . ويشير البلوى كذلك إلى إمتلاك أحمد بن مدبر الكثير من الضياع ، حتى إنه وهب لأحمد بن طولون ضياعا كان يملكها بمصر «جليلة المقدار» . وقد ألغى أحمد بن طولون جزية الرهبان التى كان أحمد بن مدبر قد فرضها عليهم ، وذلك بعد شكوى رهبان دير القصير^(٢) له . والغريب أن أحمد بن طولون بعدما وقّع لهم بخطه قال لهم : «إحذروا أن تجعلوا توقيعى هذا كالسيف الذى يصل به صاحبه ، ولكن استعملوا الاستكانة عند ايصالكم إياه إليه... وحسن التلطف » . وكأنه كان يتوقع أن يرفض ابن مدبر تنفيذ هذا الأمر ، فطلب منهم الاستكانة وحسن التلطف .

ولم يلبث ابن طولون أن عزل ابن مدبر عن خراج مصر ، وولى بدلا منه محمد بن هلال بعدما حاول ابن مدبر الوقية بينه وبين الخليفة ، فقد أرسل إلى الخليفة يقول عن أحمد بن طولون : إنه عزم على أن يقيم بمصر خليفة ! وأخذ يصف غدره ، ويذكره بكل قبيح ، ويشير بعزله ، ويخوف السلطان منه ، ويذكر ماقد اختزله من الأموال - الأمر الذى دفع أحمد بن طولون الى حبسه .

(١) غُور: بضم اوله ، وسكون ثانيه ، وآخره راء . جبال ولاية بين هراة وغزنة وهى بلاد باردة واسعة موحشة . والغالب أن هؤلاء الغلمان من تلك البلاد .

(٢) دير القصير . فى ديار مصر فى طريق الصعيد بقرب موضع هناك يقال له حلوان . وهذا الدير فى أعلى جبل المقطم وهى هيكله صورة مريم فى حجرها صورة المسيح عليه السلام ، وفى أعلاه غرفة بناها أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون ، وكان كثير الغشيان لهذا الدير ، معجبا بالصورة التى فيه .

ويقول البلوى : إن أحمد بن طولون حبس ابن مدبر فى حجرة مفروشة،
ومعه خادمان يخدمانه ، وكان أحمد بن طولون فى كل يوم يوجه اليه مائدة
حسنة عليها من كل شىء .

وهذا على عكس ما يقوله ساويرس ، فهو يقول : « إنه لما عزل عن
الخراج ، أمر الوالى أن يعرى من الثياب التى كانت عليه ، وأن يلبس ثياب
صوف خشن لا يلبسه عبد ، ففعل به ذلك ، وحبس فى موضع ضيق لا يقدر
أن يلتفت فيه يمناً ولا يسرة، وجعلت مؤونته لاتكفيه ، وهو مغفل بالحديد ،
فاذا كان فى أيام الصيف أخرج منه ، وجعل فى حرارة الشمس ، ويدبرون
وجهه اليها حيثما دارت من الغداة فى كل نهار الى الساعة التاسعة منه ،
فدفعات كثيرة يغشى عليه حتى يسقط الى الأرض ، ويصير كالميت
فيضربونه فى أوداجه (١) ، ويقيمونه ويجلسوه فى الشمس قهراً . وأقام فى
هذا العذاب عدة شهور ، وكل من يذكر شره وسوء فعله وما ناله الآن
يتعجبوا ويمجدوا الله » . وقد ظل أحمد بن مدبر فى الحبس حتى عمى
ومات.

ثالثاً : صاحب البريد

وصاحب البريد (٢) يعتبر من المناصب الرئيسية الهامة فى الدولة ، فهو
الرابع فى الترتيب بعد الوالى وصاحب الخراج والقاضى (الذى سوف
نتناوله فى النظام القضائى) ولم تكن هذه الوظيفة قائمة فى عهد الخلفاء
الراشدين ، وإنما بدأتها الدولة الأموية ، ثم تقدم نظام البريد فى عهد الدولة
العباسية ، وكان معاوية بن أبى سفيان (٤٠ ـ ٦٠ هـ / ٦٦٠ ـ ٦٧٩ م) هو أول
من وضع البريد فى الاسلام .

(١) الودج جمع أوداج . عرق فى العنق ينتفخ عند الغضب .

(٢) معنى البريد اللغوى هو اثنا عشر ميلاً . ويرى ابن طباطبغا أن هذه المسافة هى التى قدرت بين كل بريد

ويعزو الدكتور محمد ضياء الدين الرئيس نشأة نظام البريد الى الحاجة اليه لانتظام الأمور وضبط الادارة. وفي رأينا أن الحاجة الى انشاء نظام للبريد نشأت مع اتساع رقعة الدولة وزيادة مهامها ، وضرورة قيام نظام للاتصال السريع بين أجزائها.

ولم يكن البريد يستعمله الشعب ، وإنما كان نظاما رسميا حكوميا .

وقد كان الغرض الأساسي من نشأة نظام البريد في البداية هو سرعة وصول الأخبار ، وحاجة الخلفاء الى نظام لنقل الأخبار بسرعة من مقر خلافتهم الى الولايات المختلفة ، وأيضا لتلقى الأخبار. ثم مالبث أن تطور هذا النظام فاستعمله الخلفاء العباسيون للتجسس على ولاية الاقاليم وعمالها . ولم يكن بين صاحب البريد والخليفة أو والي واسطة ، فإذا جاء صاحب البريد، لا يطلع أحدا عليه قبل الخليفة ، ليكون هو الذي يشيعه أو يكتمه على ما يراه .

ويفهم مما كتبه ابن طباطبا أن صاحب البريد كان يضع نظاما يكفل وصول البريد الى غايته بالسرعة المطلوبة . وكان هذا النظام يقوم على إقامة محطات في الطريق تزود بخيول مسرجة ، فإذا وصل حامل البريد متعبا فرسه ، ركب غيره على الفور ليواصل مسيرته ، وكذلك يفعل في المحطة التالية حتى يصل بسرعة .

وتشير الدكتورة سيدة كاشف الى وجود نقوش معاصرة لعبد الملك بن مروان (٦٥- ٨٦هـ/ ٦٨٤- ٧٠٥م) كشفت بالقرب من بيت المقدس ، تشير الى أوامره بصناعة الأميال (أي مسح الأراضي لوضع حدود على كل مسافة قدرها ميل) ، وبعمارة أربعة طرق تخرج من إيليا^(١) ومن دمشق. وقد اهتم العباسيون اهتماما كبيرا بالطرق حتى أصبحت بغداد مركزا تتشعب منه الطرق الى جميع الجهات ، فكانت جميع الطرق توعدى الى بغداد كما كانت جميع الطرق توعدى الى روما .

(١) إيلياء بكسر أوله واللام ، وياء والفاء مددودة . اسم مدينة بيت المقدس .

ويتبين من ذلك أن وظيفة صاحب البريد كانت تتكون من مهمتين : الأولى، تزويد الخلفاء بالأخبار الهامة ، أو تلقى الاخبار الهامة من الولاة ، وارسال الأوامر الى الولاة . والمهمة الثانية ، وضع النظام الذى يكفل سرعة وصول البريد الذى حمل هذه الاخبار . ومن هنا كانت عملية اختيار صاحب البريد فى غاية الأهمية لأنه - كما يذكر أبويوسف - ربما مال مع العمال على الرعية ، وستر أخبارهم وسوء معاملتهم للناس ، وربما كتب فى الولاة والعمال بما لم يفعلوا اذا لم يرضوه !

وهكذا فان صاحب البريد لابد أن يكون اختياره من الثقات العدول من اهل البلد ، بل يرى أبويوسف أنه اذا استتر صاحب البريد خبرا عن الخليفة من رعيته ، أو خبرا من ولاته ، أو يزيد فيما يكتب خبرا ، يجب أن ينكل به . وفى الوقت نفسه يجب أن يحصل صاحب البريد على رزق أكبر من بيت المال ، لضمان عدم خيائته وعدم ارتشائه ، وبالتالي يضمن صحة الأخبار .

دور صاحب البريد فى مصر :

ومن الملاحظ أن المصادر القديمة لاتشير الى أصحاب البريد الموفدين من الخلفاء الى مصر الا فى موضع أو موضعين - كما تذكر الدكتورة سيدة كاشف - التى ترى أن اغفال ذكر أصحاب البريد فى المصادر راجع إلى أن مهام وظيفتهم كانت تعنى الخلافة وعمال الخلافة أكثر مما تعنى مصر نفسها . ففى السنوات الأولى من فتح مصر لا تذكر المصادر العربية سوى وصول كتب من الخلفاء إلى الولاة ، وبالطبع هذه الكتب لا تصل إلا عن طريق رسل مختارين ، ثم بعد اتساع الدولة وظهور وظيفة صاحب البريد فى عهد معاوية بن أبى سفيان كانت تصل عن طريق صاحب البريد ، وهذه الكتب كانت إما بعزل وال وتولية آخر مثل :

كتاب أبى جعفر المنصور بعزل يزيد بن حاتم والى مصر عام ١٤٤هـ/٧٦١ م ، وكان ذلك عام ١٥٢ هـ / ٧٦٩ م .

أو كتاب يطلب فيه من الأمير ترك البلد وتأميره على بلد آخر مثل :

كتاب يزيد بن عبد الملك إلى بشر بن صفوان وإلى مصر من قبله عام (١٠١ هـ / ٧١٩ م) ، بتأميره على إفريقية ، فخرج إليها في شوال عام ١٠٢ هـ / ٧٢٠ م .

كما ورد كتاب أبي العباس (السفاح) إلى صالح بن علي ، وإلى مصر من قبله ، عام (١٣٣ هـ / ٧٥٠ م) ، بإمارته على فلسطين ، ويأمره بالاستخلاف على مصر . فاستخلف عليها أبا عون عبد الملك بن يزيد عام (١٣٣ هـ / ٧٥٠ م) .

أو كتاب من الخليفة يأمر باتباع سياسة داخلية معينة ، سواء كانت مالية أو دينية أو غيرها ، مثل : كتاب عمر بن عبد العزيز إلى أيوب بن شرحبيل وإلى مصر من قبله عام (٩٩ هـ / ٧١٧ م) . فقد كتب إليه بفرض فريضة للجند .

وكتاب يزيد بن عبد الملك إلى بشر بن صفوان وإلى مصر من قبله ، عام (١٠١ هـ / ٧١٩ م) ، بمتع الزيادة التي كان عمر بن عبد العزيز قد أمر بها لأهل الديوان .

وكتب أبي جعفر المنصور إلى يزيد بن حاتم وإلى مصر من قبله ، عام (١٤٤ هـ / ٧٦١ م) ، يأمره بالتحول من العسكر إلى الفسطاط .

وكتاب الوليد بن عبد الملك إلى قرّة بن شريك وإلى مصر من قبله ، عام (٩٠ هـ / ٧٠٨ م) ، يأمره بالزيادة في الجامع (جامع عمرو بن العاص) .

وفي المقابل تشير المصادر العربية إلى ورود كتب من الولاة إلى الخلفاء لطلب رأي الخليفة في السياسة الداخلية مثل :

كتاب بشر بن صفوان (١٠١-١٠٢ هـ / ٧١٩-٧٢٠ م) إلى يزيد بن عبد الملك ، يسأله الإذن في جمع قبيلة قضاة في الديوان ، بعدما لاحظ أنها متفرقة وسط القبائل .

كذلك كتاب حفص بن الوليد والى مصر (١٠٥هـ/٧٢٣م) الى هشام بن عبد الملك ، يطلب فيه الإذن بالبناء فى أرض انكشف عنها النيل ، وهى ليست لمسلم أو لمعاهد ، فاذن له فى بنائها .

وتبدأ المصادر العربية منذ خلافة المتوكل (٢٣٢-٢٤٧هـ/٨٤٦-٨٦١م) فى ذكر أخبار متفرقة عن صاحب البريد ودوره فى مصر ، نعرضها فيما يلى : يذكر الطبرى أنه فى أيام المتوكل ولى بريد مصر رجلا يقال له يعقوب ابن ابراهيم الباذغيسى مولى الهادى ، وهو المعروف بقوصرة ، وقد جعل اليه بريد مصر والاسكندرية وبرقة ونواحي المغرب . وقد كتب يعقوب الى المتوكل بنقض البجة (١) للعهد الذى كان بينها وبين المسلمين. وقد توفى يعقوب بن ابراهيم صاحب بريد مصر فى جمادى الآخرة عام ٢٤١هـ/٨٥٥م.

(١) البجة : ويلاذ البجة - كما يذكر المقرئى - تمتد من صحراء قوص الى اول بلاد الحبشة ، ولم يهتم العرب عندما فتحوا مصر باخضاعها . ويذكر المؤرخون أن عبد الله بن سعد عندما قفل من عزو النوبة عام ٢٣١هـ/٦٥١م تجمع له البجة على شاطئ النيل ، فسأل عنهم ، وهان عليه أمرهم ، فتركهم ولم يكن لهم عقد ولا صلح ، وأول من صالحهم عبيد الله بن الحجاب ، ولكنهم كثيرا ما كانوا يغيرون على مصر فحاربهم الخليفة المأمون ، وأصبحت بلاد البجة تابعة للخلافة بعقضى عهد عقد بين الخليفة وبين رئيسهم فى عام ٢١٦هـ/٨٣١م ولكنهم مالبثوا أن عادوا الى الاغارة على صعيد مصر . فحاربهم الخليفة المتوكل العباسى ، وسار رئيسهم الى الخليفة المتوكل بسر من رأى فى عام ٢٤١هـ/٨٥٥م ليقيم اليه فروض الولاء والطاعة . ولما تسمع الناس بوجود معس القبر فى أرض البجة وفدوا الى أرضهم ، فقدم عليهم أبو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحميد العمري بعد محاربتة النوبة فى عام ٢٥٥هـ/٨٦٨م ومعه بطون من ربيعة وجهينة وغيرهم من العرب..

ويقول الطبرى عن البجة : وفى بلاد البجة معادن ذهب ، فهم يقاسمون من يعمل فيها ، ويوعدون الى عمال السلطان فى مصر فى كل سنة عن معادنهم أربعمائة مثقال تبر قبل أن يطبخ ويوصفى .

ويقول المنجد عن قبائل البجة : هى قبائل تعيش بين النيل والبحر الأحمر ، وبين القاهرة وحدود السودان ، يعيش قسم منها داخل الاراضى المصرية، ويعيش الباقون فى السودان ومعظمهم لا يتكلمون العربية .

وفى ولاية يزيد بن عبد الله من قبل المنتصر على مصر عام ٢٤٢هـ/٨٥٦م، يذكر الكندى أن يزيدا أمر بضرب رجل من الجند فى شىء وجب عليه ، فضربه عشرة ، فاستحلف يزيدا بحق الحسن والحسين إلا عفا عنه، فزاده ثلاثين درة (١) ، فأرسل صاحب البريد هذا الخبر الى المتوكل ، الذى أرسل كتابا الى يزيد يطلب فيه ضرب ذلك الجندى مائة سوط ، فضربه.

وتظهر خطورة دور صاحب البريد فى ولاية أحمد بن طولون على مصر من قبل المعتز عام ٢٥٤هـ/٨٦٨م، فعندما دخل أحمد بن طولون مصر كان صاحب البريد هو شقير الخادم، الذى اتفق مع صاحب الخراج ابن المدير فى ذلك الوقت على الكتابة فيه الى الخليفة حتى يعزله. وبالفعل كتب الى الخليفة يقول : إن أحمد بن طولون على وشك التغلب على مصر والعصيان بها. مما دفع الخليفة الى الكتابة الى أحمد بن طولون يستدعيه بقوله :

«أما بعد ، فانا رأينا أن نرد اليك أمر دارنا بالحضرة ، وتدير مملكتنا، فاذا قرأت كتابنا هذا فاستخلف على قصرِكَ من أحببت ، والبلد لك ويأسمك واشخص إلينا لما ندينك اليه ، ورأيناك أهلا له والسلام».

فلما قرأ أحمد بن طولون الكتاب علم أنها حيلة ، فأرسل كاتبه أحمد بن محمد الواسطى الى الخليفة بالمال والهدايا ، فرضى عنه الخليفة وأرسل بتثبيت يده فى عمله . ثم أرسل أحمد بن طولون الى الخلافة يطلب الرسائل التى كتبها ضده العمال بمصر وأهل البلد ، فأرسل اليه كتاب شقير الخادم صاحب البريد ، فأحضره ابن طولون ، وأمر بأن تحضر السياط ، فضرب بها حتى سقط ، فأمر برده الى داره راكبا ، فلما وصل اليها مات فى نفس اليوم آخر النهار . وقد أرسل أحمد بن طولون اليه «العدول» (الشهود) ليشهدوا بأنه مات من غير ضرب ولا سبب ، غير فناء أجله !

ويذكر البلوى أن الحسن بن مهاجر هو الذى تولى البريد فى مصر فى أثناء الدولة الطولونية .

(١) الدرّة جمع درر أى السوط الذى يضرب به .

وعن الحسن بن مهاجر تقول الدكتورة سيدة كاشف : إنه كان له عماله وأعوانه فى سائر المدن والكورات، على أن طبيعة عملهم جعلتهم غير محبوبين عند الشعب . ويظهر ذلك من قصة ذكرها البلوى عن امرأة بدوية كانت لها حظوة عند أحمد بن طولون ، فطلبت منه أن يشمل برعايته أحد أبنائها ، فأمر أحمد بن طولون الحسن بن مهاجر بأن يجد لهذا الابن عملا ، فعينه ابن مهاجر عاملا على البريد فى قريته ، ورتب له عشرة دنانير فى الشهر ، غير أن أمه رجعت الى ابن طولون شاكية وقالت : إن الأمير أمر بأن يوجد لابنها عملا مثمرا ، ولكن ابن المهاجر لم يجد له الا هذا العمل الذى يجلب العار ، والذى تفضل عليه الجوع الشريف . وأضافت : إنه اذا لم يكن الا هذا العمل فخير لابنها أن يتركه كى لا يتعرض لغضب الله وسباب المؤمنين . فضحك أحمد بن طولون وأمر ابن مهاجر بأن يستمر فى اعطاء الابن عشرة دنانير كل شهر مع اعفائه من عمله فى البريد .

رابعاً - صاحب الشرطة :

كان صاحب الشرطة فى مصر بعد فتح العرب لها بمثابة نائب للوالى ، يومئذ الناس فى الصلاة اذا مرض الوالى ، ويحكم الولاية اذا خرج الوالى من مقر ولايته ، ولذا نجد أنه كثيرا ماكان الخليفة يعين صاحب الشرطة واليا على مصر اذا ماعزل الوالى أو مات ، أو تنحى عن أمور الولاية .

وكان تعيين صاحب الشرطة أو عزله يرجع الى الوالى ، ولكن فى بعض الأحيان - وإن كان نادرا - كان يرجع تعيينه الى الخليفة نفسه ، كما حدث عام ٢١٧هـ/١٢٢م عندما جاء الخليفة المأمون الى مصر ، لقمع ثورة بها ، فعين صاحب الشرطة فى ذلك الوقت .

وعن وظيفة صاحب الشرطة فى مصر ، تقول الدكتورة سيدة كاشف إن الوالى يعهد الى صاحب الشرطة بتطبيق القوانين ، وتنفيذ العقوبات التأديبية التى يفرضها ، وينشر الأمن فى البلاد ومنع الجرائم . كذلك كان واجب صاحب الشرطة نشر الفضيلة ، والمحافظة على الاخلاق الفاضلة ،

وقمع أهل الفساد . كذلك كانت وظيفة صاحب الشرطة المحافظة على حياة الوالى ومرافقته والحفاظ على الأمن فى مكان تواجدده ، ويتضح ذلك من رواية ابن عبد الحكم ، نقلا عن بحير بن ذاخر المعافرى، قال : «رحت أنا ووالدى الى صلاة الجمعة ... فأطلقنا الركوع ، إذ أقبل رجال بأيديهم السياط يزجرون الناس فذعرت ، فقلت يا أبت : من هؤلاء ؟ قال : يابنى هؤلاء الشرطة. فأقام المؤذن الصلاة ، فقام عمرو بن العاص على المنبر ...»

وقد كانت وظيفة صاحب الشرطة يتولاها بأنفسهم ، ومن هؤلاء الولاة : عيسى النوشرى الذى تولى مصر عام ٢٩٢هـ، فقد تسلم الشرطة وسائر الأعمال عندما تولى مصر .

كذلك كان يتولى وظيفة صاحب الشرطة القضاة ، ومن الذين جمعوا بين وظيفتى القضاء والشرطة : عابس بن سعيد ، وقد تولى القضاء من قبل مسلمة بن مخلد (٦٠هـ/٦٧٩-٦٨٧م)، وقد جمع له القضاء والشرط . وهو أول من جمعا له كما يقول الكندى ، ومنهم يونس بن عطية الذى تولى القضاء من قبل عبد العزيز بن مروان (٨٤هـ/٧٠٣-٧٠٥م)، ومنهم عبد الرحمن بن معاوية بن حديج الذى تولى القضاء من قبل عبد العزيز بن مروان (٨٦هـ/٧٠٥م)، ومنهم عمران بن عبد الرحمن الذى تولى القضاء من قبل عبد الله بن عبد الملك (٨٦هـ/٧٠٥-٧٠٧م).

ومن المحتمل أن صاحب الشرطة فى الحاضرة كان له أعوان فى سائر أنحاء البلاد ، ولكن الراجح - كما تقول الدكتورة سيدة كاشف - أن ولاية المدن والأقاليم فى ريف مصر ، كان لكل منهم شرطة يتخذها لاقرار الأمن والمحافظة على النظام فى منطقة حكمه .

وكان رجال الشرطة يحملون فى أيديهم السياط ، وهى سلاح الهدف منه الزجر ، ومنع الهرج فى التجمعات ، ونحن لا نشك - كما يقول الدكتور عبد المنعم سلطان - بأن هناك أسلحة أخرى كان يتسلح بها الشرطيون مثل السيف والحرية وغيرها .

وكان مقر صاحب الشرطة فى الفسطاط ولما أنشئت «العسكر» على يد صالح بن على أول الولاة العباسيين فى مصر ، أنشئت فى حاضرة مصر الاسلامية شرطة جديدة سميت الشرطة العليا ، وكان مقرها دارا جنوبي المكان الذى شيد فيه ابن طولون المسجد الجامع . ولا يرجع تسميتها الشرطة العليا الى أنها أعظم شأنًا من شرطة الفسطاط ، ولكن هذه التسمية - كما تقول الدكتورة سيدة كاشف - مشتقة من الموقع ، وحدود الاختصاص ، فإن تقسيم الفسطاط الى «عمل فوق» و «عمل أسفل» يرجع الى عهد إنشاء العسكر سنة ١٣٣هـ / ٧٥٠م وقد ذكر هذا التقسيم المقرئى فى كتابه الخطط، بل إننا نرى المقدسى يكتب فى كتابه «أحسن التقاسيم» أن جامع عمرو كان يسمى الجامع السفلاى ، وجامع ابن طولون الجامع فوقانى . وكان صاحب الشرطة السفلى فى الفسطاط أعلى شأنًا وأعظم اختصاصا من زميله ، بوصفه حاكم القسم الرئيسى الاصيل فى الحاضرة .

ويذكر البلوى عن نسيم الخادم نصيحة أحمد بن طولون لمن يتولى الشرطة العليا ، أو من يتولى الشرطة السفلى فيقول : «قال : قلد مولاي الشرطة السفلاية قائدا من قواده ، وقال له : أرفق بالرعية ، وانشر العدل عليهم ، واقض حوائجهم ، وأظهر اكرامهم وصيانتهم ، وتفقد مصالحهم ، فانى أسير بالليل فى محالهم ، فكل موضع أمر به ، لا يخلو من قارئ أو متهجد^(١) أو داع أو ذاكر الله عز وجل فوفر علينا دعاءهم لنا ، واحرسنا من أن يكون دعاءهم علينا . ويقول لمن يقلده الشرطة الفوقانية تشدد عليهم ، وأرهبهم منك ، ولا تلتن لهم ، واغلظ عليهم ، فانى أسير فى محالهم . فما أمر بموضع فاسمع فيه إلا غناء أو سكران أو معريدا قد أخرجته عريده الى الوثوب والكفر».

(١)المتهجد: القائم من النوم الى الصلاة.

خامسا : المحتسب :

وهى من الوظائف الدينية ، والحسبة هى أمر بالمعروف اذا ظهر تركه ، ونهى عن المنكر اذا اظهر فعله ، وهو فرض على القائم بأمر المسلمين . قال الله تعالى : (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) (١) .

ويُقصد بالحسبة فى مصطلح التاريخ الوظيفة التى تراقب تنفيذ أحكام الشريعة فيما هو حادث فعلا فى المجتمع الاسلامى على اختلاف طبقاته ، من حيث المعاملات الجارية بين أفرادها ، وواجباتهم نحو الدولة ، وأحوالهم الشخصية ، وما قد يترتب على مخالفتهم من إلحاق الضرر بالمصلحة العامة. فكان المحتسب يشرف على نظام الأسواق والطرق وعلى الباعة والعمال ، ويعمل بوجه عام على حماية الناس من غش التجار والصناع . وكان يُشترط فيمن يتولاها أن يكون مسلما ، حرا ، بالغا ، عاقلا ، عالما بالأحكام الشرعية، فقيها ، عادلا ، عفيفا عن أموال الناس ، متورعا عن قبول الهدية من أرباب الحرف والصنائع ، متصفا بالرفق ولين القول وطلاقة الوجه والصبر ، فطنا لا يرتشى فتسقط هيئته ويستخف به .

كما كان على المحتسب أن يكون مواظبا على سنن رسول الله (ص) من قص الشارب ، ونتف الابط ، وحلق العانة وتقليم الأظافر ، ونظافة الثياب والتعطر بالمسك وغير ذلك .

كما كان للمحتسب الحق فى أن يتخذ مساعدين له ، وذلك نظرا لتضخم واجبات المحتسب الدينية والاقتصادية والاجتماعية والصحية . وكان يشترط فيهم العفة والشهامة ، وكان يؤدبهم ويهذبهم ويعرفهم كيف يتصرفون بين يديه ، وكيف يخرجون فى طلب الغرماء .

وقد خول للمحتسب حق توقيع العقوبة وتنفيذها فى الدعاوى التى تتعلق بالمنكرات الظاهرة ، اذا أقر المخالف بارتكابها ، أو ضُبط متلبسا بفعل

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٠٤ .

هذا المنكر . ويطلق على العقوبة التى يفرضها المحتسب «التعزير» وهو يختلف بحسب كبر الذنوب وصغرها ، وحال المذنب ، ومقدار الذنب . ويشمل «التعزير» التوبيخ ، والزجر بالكلام ، والحبس ، والضرب ، والنفى عن الوطن ، وليس للمحتسب الحق فى تنفيذ الحدود الشرعية إلا فى الأحوال المأذون بها من الامام ، كذلك لايجوز له أن يسمع بيّنه على اثبات الحق ، ولا أن يحلف يمينا على نفى الحق كالقاضى ، وليس له أن يحبس المماطلين فى دفع الديون ، لأن الحبس حكم . فكان عمل المحتسب يتطلب السرعة عند الفصل فيما يعرض عليه ، بخلاف عمل القاضى الذى يتطلب الأناة والانتظار حتى تكوين رأى النهائى الناضج .

وظيفة الحسبة فى مصر :

ولم تكن وظيفة الحسبة فى مصر منذ الفتح وحتى العصر الطولونى وظيفة مستقلة ، وإنما كان يقوم بها الولاة أو أصحاب الشرطة أو عمال الخراج والقضاة .

فيذكر الكندى أن القاضى محمد بن عبدة الذى تولى القضاء من قبل خمارويه بن أحمد بن طولون (٢٧٧ - ٢٨٣هـ / ٨٩٠ - ٨٩٦ م) قد جمع مع القضاء النظر فى المظالم والموارث والأحباس والحسبة .

ولاندرى متى أصبحت وظيفة المحتسب وظيفة مستقلة بذاتها ، فيفاجئنا ملحق الكندى بتعيين أبى مقاتل صالح بن محمد فى وظيفة محتسب ، ويبدو أن هذا التعيين كان صادرا من قبل الخليفة المقتدر (٢٩٥-٣٢٠هـ / ٩٠٧-٩٣٢م) الذى أرسل كتابه الى تكين والى مصر (٢٩٧-٣٠٢هـ / ٩٠٩-٩١٤م) بشأن بعض التعيينات .

كذلك يشير ابن سعيد الى أن محمد بن جعفر القرطى قد عينه مؤنس الخادم فى منصب المحتسب .

ومن المحتسبين فى العصر الاخشيدى محمد بن جعفر بن سلام ، وقد روى ابن زولاق أن بعض جيران سيبيويه المصرى ساءه ولاية ابن سلام على

الحسبة ، فشكاه الى سيبويه ، فركب معه الى أبى الفضل جعفر بن الفضل فقال له :

« أبا الفضل ، حفظك الله ورعاك وصانك وأبقاك ، وليت علينا محتسبا قليل الوفا ، كثير الجفا ، طويل القفا ، فإما أن كفيناه ، أو أبدلته لنا بسواه..» ويبدو من هذا النص - كما تقول الدكتورة سيدة كاشف - أن الوزير كان صاحب الرأي الأعلى فى اختيار المحتسب وفى عزله .

والظاهر أن بعض الذين تقلدوا الحسبة فى العصر الاخشيدى ، لم يختاروا بالشروط التى ذكرتها أنفا ، فكانوا بعيدين عن الفضائل. وحسبنا مارواه ابن زولاق فى هذا الشأن وأوردته الدكتورة سيدة كاشف ، قال : إن سيبويه المصرى لقى المحتسب والحراس بين يديه فقال : « ماهذه الأحراس يا أنجاس ؟ والله ماثم حق أقمتوه ، ولا سعر أصلحتموه ، ولا جان أدبتموه ، ولا ذو حسب وقرتموه ، وما هى إلا أحراس تسمع لباطل يوضع ، وأقفاء تصفع ، وبراطيل تقطع ! لا حفظ الله من جعلك محتسبا ، ولا رحم لك ولا له أما ولا أبا ! »

ومن المحتسبين فى العصر الاخشيدى كذلك - على ما يبدو - صدقة بن الحسن الصدفى ، وكان محتسب الفسطاط ، وقد توفى سنة ٣٥٠هـ / ٩٦١م ويذكر ابن دقماق أن « زقاق مليح» عرف به فقيل: «زقاق صدقة» . وربما ذلك لأنه كان يجلس فيه ، أو لوقوع منزله فيه .

الفصل الثامن :

المجتمع المصرى والنظام الحربى

• الجيش :

• قوة الجيش - عدده - حامية الاسكندرية .

• الجيش فى الدولتين الطولونية والانشيدية .

• ديوان الجند .

• نظام التجنيد .

• الاسطول :

• إنشاء العرب للاسطول .

• تصنيع العرب للسفن الحربية واعتمادهم على الاقباط .

• نظام تشغيل الاقباط على السفن .

• الاسطول فى الدولتين الطولونية والانشيدية .

الفصل الثامن

المجتمع المصرى والنظام الحربى

حرص العرب بعد دخولهم مصر على وضع نظام حربى يضمن لهم استمرار حكمهم فيها ، فيحميهم ويحمى سياستهم من أى خطر داخلى أو خارجى . وقد اهتم العرب بالنظام الحربى فى مصر اهتماما كبيرا أكثر من أى ولاية أخرى ، نظرا لأهمية موقعها كقاعدة للفتوحات والتوسع ، ولأنها فى الوقت نفسه مهددة من جميع الجهات ، لذلك نسب إلى الرسول (ص) أحاديث بضرورة وجود جيش قوى فى مصر ، فقد روى عن عمر بن الخطاب عن النبى (ص) أنه قال : « اذا فتح الله عليكم مصر ، فاتخذوا فيها جندا كثيفا ، فذلك الجند خير أجناد الأرض » . قال أبو بكر رضى الله عنه : ولم ذلك يا رسول الله ؟ قال : « لأنهم فى رباط إلى يوم القيامة » .

وقال أحمد بن صالح : « قال لى سفيان بن عيينة ^(١) : يا مصرى ، أين تسكن ؟ قلت : أسكن الفسطاط . قال : أتأتى الاسكندرية ؟ قلت : نعم ، قال

(١) وهو سفيان بن عيينة بن أبى عمران ، أبو محمد . عده ابن سعد من الطبقة الخامسة من أهل مكة . كان إماما عالما ثبتا حجة زاهدا ورعا . روى عنه الإمام الشافعى وغيره . ولد بالكوفة عام ١٠٧ هـ / ٧٢٥ م وتولى عام ١٩٨ هـ / ٨١٢ م .

لى : تلك كنانة الله يَحْمِلُ فيها خير سهامه . وقال عبد الله بن مرزوق الصدفى : لما نعى إلى ابن عمى خالد بن يزيد ، وكان توفى بالاسكندرية ، لقينى موسى بن على بن رياح ، وعبد الله بن لهيعة ، والليث بن سعد ، متفرقين ، كلهم يقولون : آليس مات بالاسكندرية ؟ فأقول : بلى . فيقولون : هو حى عند الله يرزق ، ويجرى عليه أجر رباطه ما قامت الدنيا ، وله أجر شهيد حتى يحشر على ذلك » .

وقد انقسم النظام الحريى فى مصر إلى قسمين

القسم الأول : الجيش القسم الثانى : البحرية (الأسطول)

وبالنسبة للقسم الأول وهو الجيش ، فيجدر بنا أن نشير فى البداية إلى قوة الجيش العربى الذى صاحب عمرو بن العاص فى فتح مصر ، ورغبتهم فى الموت ، وعدم اكترائهم بالحياة على اعتبار أن هذا الجهاد هو جهاد فى سبيل الله ، ويظهر ذلك بوضوح من الحوار الذى دار بين المقوقس وعبادة بن الصامت (١) المتحدث باسم العرب ، فقد قال عبادة للمقوقس :

« إنما رغبتنا وهمتنا الجهاد فى الله ، واتباع رضوانه ، وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة فى دنيا ، ولا طلب للاستكثار منها ، إلا أن الله عز وجل قد أحل لنا ذلك ، وجعل ما غنمنا من ذلك حلالا ، وما يبالى أحدنا أكان له قنطار من ذهب ، أم كان لا يملك إلا درهم ، لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعته لليلة ونهاره ، وشملة يلتحفها ، فإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه ، وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه فى طاعة الله ، واقتصر على هذا الذى بيده ويبلغه ما كان فى الدنيا ، لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ، ورخاءها ليس برخاء ، إنما النعيم والرخاء فى الآخرة ، وبذلك أمرنا ربنا وأمرنا به نبينا وعهد إلينا أن لا تكون همة أحدنا من الدنيا إلا ما يمسك جوعته ويستتر عورته ، وتكون همته وشغله فى رضاء ربه ، وجهاد عدوه . »

ثم يقول له : « وإنا منكم حينئذ لعلى احدى الحسنين ، إما أن تعظم

(١) وهو عبادة بن الصامت بن قيس الأنصارى الخزرجى أبو الوليد . كان من سادات الصحابة ، شهد ندرا وسائر المشاهد ، وشهد فتح مصر ، ولأهلها عنه عشرة أحاديث . مات بالرملة عام ٣٤ هـ / ٦٥٤ م .

لنأبذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم، أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا، وإنها لأحب الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا، وإن الله عز وجل قال لنا في كتابه (كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) (١) وما منا رجل إلا وهو يدعو ربه صباحاً ومساءً أن يرزقه الشهادة وألا يرده إلى بلده ، ولا إلى أرضه ، ولا إلى أهله وولده ، وليس لأحد منا همٌ فيما خلفه ، وقد استودع كل واحد منا ربه ، أهله ، وولده ، وإنما همنا ما أمامنا .

وقد علم المقوقس من هذا الحوار خطورة الجيش العربى الذى يعتبر هذه الحرب حرباً دينية ، ويظهر ذلك بوضوح من رد فعله عندما أتاه كتاب ملك الروم يطلب منه القتال ، فقد قال : « إنهم على قلتهم وضعفهم أقوى وأشد منا على قوتنا وكثرتنا ، إن الرجل الواحد منهم ليعادل مائة رجل منا ، وذلك أنهم قوم الموت أحب إلى أحدهم من الحياة ، يقاتل الرجل منهم وهو مستقبل ، يتمنى أن لا يرجع إلى أهله ولا بلده ولا ولده ، ويرون أن لهم أجراً عظيماً فيمن قتلوه ما ، ويقولون إنهم إن قتلوا دخلوا الجنة ، وليس لهم رغبة فى الدنيا ولا لذة الا قدر بلغة العيش من الطعام واللباس ، ونحن قوم نكره الموت ونحب الحياة ولذتها ، فكيف نستقيم نحن وهؤلاء » .

وكان هذا الجيش العربى هو النواة التى تكون منها الجيش فى مصر تحت الحكم العربى .

وقد اختلفت الآراء فى عدد هذا الجيش ، فقدر بعضهم عدده بحوالى خمسة عشر ألفاً وخمسمائة ، وقدر البعض الآخر هذا العدد بحوالى اثنى عشر ألفاً وثلاثمائة ، وقدر البعض الثالث عدده بثلاثة آلاف وخمسمائة ، ثم مد بالزبير بن العوام فى اثنى عشر ألفاً .

ويقال أيضاً إن عمراً عندما قدم من الشام كان فى عدة قليلة ، فكان يفرق أصحابه ، ليرى العدو أنهم أكثر مما هم ، وإن عمراً كتب إلى عمر بن الخطاب يستمده ، فأمدّه بأربعة آلاف رجل عليهم الزبير بن العوام ، والمقداد ابن الأسود (٢) ، وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد ، وقيل إن الرابع

(١) سورة البقرة آية رقم (٢٤٩)

(٢) المقداد بن الأسود ، أبو معبد . وكان قد تبناه الأسود بن عبد يغوث وهو صغير ، فعرف به ، واسم أبيه عمر بن ثعلبة الكندى . شهد احداً ويدرأ والمشاهد كلها ، وشهد فتح مصر ، ولهم عنه حديثان . مات بالمدينة عام ٣٣ هـ / ٦٥٣ م .

خارجة بن حذافة دون مسلمة ، وقد قال عمر بن الخطاب إلى عمرو : أعلم أن معك اثني عشر ألفا ، ولا تغلب اثنا عشر ألفا من قلة .

ويتضح من المصادر أن كل وال جديد تولى مصر كان يصاحبه عدد من الجنود ، فيذكر أبو المحاسن أن حميد بن قحطبة عندما تولى مصر من قبل أبي جعفر المنصور عام ١٤٢هـ / ٧٦٠م دخلها ومعه عشرون ألفا من الجند . ويذكر أيضا أن موسى بن يحيى عندما تولى مصر من قبل هارون الرشيد عام ١٧٢هـ / ٧٨٨م قدم إليها ومعه عشرة آلاف من الجند .

ويشير الماوردي في كتابه (الأحكام السلطانية) إلى وجود قسمين من القوات العسكرية :

القسم الأول ويتمثل في المستزرقة .

القسم الثاني ويتمثل في المتطوعة .

وبالنسبة للقسم الأول وهم المستزرقة ، فهم الجنود النظاميون أصحاب الديوان من أهل الفىء والجهاد الذين يفرض لهم العطاء من بيت المال من الفىء بحسب الغنى والحاجة . وقد كانوا موقوفين للجهاد لا يشتغلون بغيره من تجارة أو زراعة أو غيرها ، وإن فعلوا تعرضوا للعقاب ، ويظهر ذلك بوضوح من نهى عمر بن الخطاب الجند عن الزرع ، فيقول ابن عبد الحكم : إن عمر بن الخطاب أمر مناديه أن يخرج إلى أمراء الأجناد لأبلاغ الرعية «أن عطاءهم قائم ، وأن رزق عيالهم سائل ، فلا يزرعون ولا يزارعون» .

ويشير ابن عبد الحكم إلى موقف عمر بن الخطاب عندما علم أن أحد جنود مصر قد قام بالزراعة ، فيقول : « إن شريك بن سمي الغطيفي (الغطفاني) أتى إلى عمرو بن العاص ، فقال : إنكم لا تعطونا ما يحسبنا^(١) ، أفأتأذن لى بالزرع ؟ فقال له عمرو : ما أقدر على ذلك ، فزرع شريك من غير إذن عمرو ، فلما بلغ ذلك عمرا كتب إلى عمر بن الخطاب يخبره أن شريك ابن سمي الغطيفي (الغطفاني) حرث بأرض مصر فكتب إليه عمر أن أبعث

(١) أى ما يكفيننا .

إلى به ، فلما انتهى كتاب عمر إلى عمرو أقرأه شريكا ، فقال شريك لعمرو : قتلتنى يا عمرو . فقال عمرو : ما أنا قتلتك ، أنت صنعت هذا بنفسك . قال له : إذا كان هذا من رأيك فاذن لى بالخروج إليه من غير كتاب ، ولك على عهد الله أن أجعل يدي فى يده . فاذن له بالخروج ، فلما وقف على عمر قال : تؤمننى يا أمير المؤمنين ؟ قال : ومن أى الاجناد أنت ؟ قال : من جند مصر . قال : فلعلك شريك بن سمي الغطيفى (الغطفانى) . قال : نعم يا أمير المؤمنين . قال : لأجعلنك نكالا لمن خلفك . قال : أو تقبل منى ما قبل الله تعالى من العباد . قال : وتفعل ؟ قال : نعم . فكتب إلى عمرو بن العاص أن شريك بن سمي جاء نى تأثبا ، فقبلت منه . »

وترى الدكتور سيدة كاشف أن السبب الذى دفع عمر بن الخطاب إلى نهى الجند عن الاشتغال بالزراعة ، وعدم تقسيم الأراضى بينهم ، هو خوفه من أن يركنوا إلى الكسل ويسيطر عليهم حب المال ، خاصة وأن العرب قد بهرتهم ثروة البلاد التى فتحوها ، بل إن رغبتهم فى الانتفاع بخيراتها العظيمة كانت من الأسباب التى شجعتهم على فتحها ، فطبيعة بلاد العرب الصحراوية لا تجعل العيش فيها سهلا ميسورا . ويذكر جرجى زيدان أنه ربما أراد بذلك أن لا يتوطنوا فى بلد بعينها ، ثم تستدعى الحاجة تجنيدهم لنجدة بلاد أخرى . وبالنسبة كان العرب - خاصة فى بداية فتوحاتهم - فى أمس الحاجة إلى حماية البلاد التى فتحوها ، حتى يحافظوا على سيطرتهم عليها ، ولم يكن ذلك ليتأتى إلا عن طريق جيش قوى محترف على أتم الاستعداد فى أى لحظة للقيام بالدفاع عنها .

على أننا نلاحظ أن تركيب الجيش الاجتماعى كان يتغير وفقا للتطورات التى حدثت فى الخلافة نفسها ، من حيث سيطرة العرب أو الفرس أو الترك ، فعندما كانت هذه السيطرة فى يد العرب ، كان الجنس العربى هو المكون للجيش ، وقد استمر ذلك حتى نهاية الدولة الأموية ، فلما سقطت هذه السيطرة فى يد الفرس مع قيام الدولة العباسية ، لم يعد الجنس العربى وحده هو المكون للجيش . حتى اذا ما وصلنا إلى زمن المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧هـ / ٨٣٣ - ٨٤١م) الذى استكثر من الترك ، وانتقلت السيطرة اليهم ، وجدنا المعتصم يأمر واليه على مصر كيدر نصر بن عبد الله (٢١٧ -

٢١٩هـ / ٨٣٢ - ٨٣٤م) ، باسقاط العرب من الديوان ، وقطع أعطياتهم ، وكان ذلك فى عام ٢١٨هـ / ٨٣٣م .

وهكذا - كما يقول المقرئى - انقرضت دولة العرب من مصر ، وصار جندھا العجم والموالى من عهد المعتصم .

وكان من نتيجة ذلك ، تحول العرب من طبقة عسكرية إلى طبقة مدنية ، تسعى وراء الرزق عن طريق آخر غير طريق الجهاد والحرب ، فاحترفوا الزراعة والتجارة والصناعة وغيرها من المهن والحرف التى كانت - حتى ذلك الوقت - وقفا على أهالى البلاد .

هذا بالنسبة للقسم النظامى من القوات العسكرية .

أما بالنسبة للقسم الثانى وهم المتطوعة ، فيذكر الماوردى أنهم الخارجون عن الديوان من البوادر والأعراب وسكان القرى والأمصا . ويظهر لنا من اسم «المتطوعة» ؛ أنهم كانوا يتطوعون للالتحاق بالجيش من تلقاء أنفسهم ، مدفوعين فى ذلك بعوامل دينية أو مادية ، وكانوا أحراراً فى العودة الى ديارهم بعد إنتهاء أية حملة ، كما كانوا أحراراً أيضاً فى العمل بزراعة الأرض أو الاشتغال بأية حرفة أخرى .

وترى الدكتورة سيدة كاشف أن هؤلاء المتطوعة ربما كانوا من أهل البلاد المصرين ، إلا أنهم لم يدخلوا فى صلب الجيش ، ولم يشتركوا اشتراكاً فعلياً فيه . ويغلب على الظن أنهم كانوا يقومون بأدوار ثانوية فى خدمة الجيش ، وفى أوقات الضرورة القصوى ، كما كان عملهم مقصوراً على مصر وحدها . ولم يكن لهؤلاء المتطوعة عطاء ، ولم يثبتوا فى الديوان ، وإنما كان عطاؤهم من الصدقات . فيذكر الكندى أن مواحيز^(١) مصر كان يعمرها أهل الديوان وطائفة المطوعة ، وكانت أحباس السبيل^(٢) التى يتولاها القضاة تجمع فى كل سنة ، فإذا جاء شهر أبيب^(٣) فرق القاضى أموال

(١) الماحوز : المكان الذى يكون بين القوم وبين عدوهم ، وهو من استعمال أهل الشام ، والماحرز فى سوريا معناه الحدود .

(٢) أحباس السبيل : الأوقاف التى توقف فى سبيل الله

(٣) شهر أبيب وهو من الشهور القبطية يوازى ٨ يولية من الشهور الميلادية .

السبيل التي جمعت من الأحباس على المطوعة ، وعلى من كان فقيرا من أهل الديوان الذين يشغلون مواخير مصر من العريش إلى لويبة (١) ومراقية (٢) .

وقد ذكرت في فصل سابق أن المصريين في العصر البيزنطي كانوا يجندون في الجيش الإقليمي أي الجيش الخاص بكل إقليم ، ولم يكن هذا الجيش خاضعا لقيادة موحدة ، وإنما كان كل دوق يتولى قيادة الجند المرابطين بدوقيته . وذكرت أن هذا الجيش قد وصل إلى حد من الضعف لم يكن في وسعه أن ينهض بأعباء الدفاع عن البلاد ، فقد أغفل التدريب والنظام العسكري ، واشتغل كثير منهم بالأعمال المدنية إلى جانب مهنة الحرب . هذا عن وضع المصريين في الجيش البيزنطي ، فماذا كان وضعهم في الجيش العربي ؟ الواقع أن العرب لم يشركوا المصريين في الجيش ، فلم يرد في صلح بابليون أية إشارة تدل على السماح للمصريين بالاشتغال بالجنديّة ، ويرجع ذلك لسببين :

السبب الأول ، هو خوف العرب من أن يحيى المصريون روح القومية المصرية على حسابهم ، وأن يقوموا بطردهم من بلادهم متى حانت لهم الفرصة ، فأروا من الحكمة أن يبعدهم عن الأعمال الحربية ، ألا يتركوا لهم إلا الأعمال المدنية .

والسبب الثاني ، أن العرب ربما كانوا يشكون في كفاءة المصريين الحربية ، إذ كان المصريون زمن الفتح قد غمرتهم روح التواكل والاستسلام، بينما كان العرب حينذاك شعبا يتقد حماسه وشجاعة .

حامية الاسكندرية :

اهتم الخلفاء العرب بعد فتح مصر بحماية الاسكندرية على اعتبار أن سقوطها يعنى سقوط مصر ، وبالتالي خروجهم منها . فيذكر ابن عبد الحكم

(١) لويبة : بالضم ثم السكون ، وباء موحدة ، وباء مثناة . مدينة بين الاسكندرية وبرقة .

(٢) مراقية . بالفتح ، والقام المكسورة ، والياء مخففة . اذا قصد القاصد من الاسكندرية إلى افريقية ، فاول بلد يلقاه مراقية ثم لويبة . وهى اسم لحد مصر العربى بينها وبين برقة .

أن عمر بن الخطاب كان يبعث في كل سنة غازیة من أهل المدينة ترابط بالاسكندرية ، وكان يكتب للولاة يحثهم على الاهتمام بحمايتها فيقول لهم : « لا تغفلها ، وتكشف رابطتها ، ولا تأمن الروم عليها » .

وكان عمرو بن العاص يضع بها ربيع الجند ، يتغيرون كل ستة أشهر ، صائفة يقيمون ستة أشهر ، ويعقبهم شاتية يقيمون ستة أشهر أيضا . كما اهتم أيضا عثمان بن عفان بحماية الاسكندرية خاصة بعد استيلاء الروم عليها للمرة الثانية (٣٤هـ / ٦٥٤م)^(١) ، فأرسل إلى عبد الله بن سعد يقول له : « قد علمت كيف كان هم أمير المؤمنين بالاسكندرية ، وقد نقضت الروم مرتين فالزم الاسكندرية رابطتها ، ثم أجر عليهم أرزاقهم ، وأعقب منهم في كل ستة أشهر » .

ويذكر ابن عبد الحكم أن حامية الاسكندرية في ولاية عتبة بن أبي سفيان (٤٣ - ٤٤هـ / ٦٦٣ - ٦٦٤م) كانت اثني عشر ألفا ، فكتب علقمة بن زيد^(٢) إلى معاوية يشكو من قلة مامعه من الجند ، وقال له : « إنك خلفتني بالاسكندرية ، وليس معي إلا اثنا عشر ألفا ، ما يكاد بعضنا يرى بعضا من القلة » . فأمد معاوية بأربعة آلاف من أهل المدينة بقيادة عبد الله بن مطيع ، كما وضع بالرملة أربعة آلاف آخرين بقيادة معن بن يزيد السلمي ، يكونون تحت يده في حالة وجود أي خطر .

ويذكر السيوطي أن معاوية قد أمده بعشرة آلاف من أهل الشام ، وبخمسة آلاف من أهل المدينة ، فكان فيها سبعة وعشرون ألفا .

ويبدولنا من هذا العدد الضخم بالاسكندرية وحدها أن نسبة الربع التي وضعها عمرو بن العاص في الاسكندرية قد زادت ، ويحتمل أن تكون

(١) المرة الأولى كانت في عام ٢٥هـ / ٦٤٥م في ولاية عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وقد تم طرد الروم على يد عمرو بن العاص . أما المرة الثانية فكانت في عام ٣٤هـ أو ٣٥هـ / ٦٥٤م أو ٦٥٥م في ولاية عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وقد عرفت بغزوة ذي الصواري لكثرة صواري المراكب واجتماعها ، وقد تم هزيمة الروم فيها أيضا على يد عبد الله بن سعد بن أبي سرح .

(٢) وهو علقمة بن يزيد المرادي ثم الغطيفي ، شهد فتح مصر ، وولى الاسكندرية رمن معاوية .

هذه الزيادة قد طرأت بعد غزو الروم للاسكندرية فى المرة الثانية عام ٣٤هـ / ٦٥٤ م .

ويظهر لنا اهتمام العرب بجند الاسكندرية من اعتبار موت أحدهم أنه
حتى يرزق عند الله ، ويجرى عليه أجر رباطه ما قامت الدنيا ، وله أجر
شهيد . وغير ذلك من الأقوال .

· ويعد هذا العرض الموجز للجيش العربى فى مصر ، نلاحظ أن هذا
الجيش لم يلتزم بمهمته العسكرية الدفاعية ، وإنما كان يتدخل فى السياسة .

فتشير المصادر العربية إلى أن الجند كثيرا ما تدخلوا فى تولية وال
وعزل آخر . ومن ذلك ما تذكره المصادر من أن السرى بن الحكم قد ولى
مصر ولايته الأولى عام ٢٠٠هـ / ٨١٥م بإجماع الجند وأهل مصر ، وأنه
عندما استعفى قبض الجند عليه ، وإن كان ذلك بأمر الخليفة .

وعندما عزل السرى بن الحكم تولى بدلا منه سليمان بن غالب من قبل
الخليفة المأمون عام ٢٠١هـ / ٨١٦م، إلا أن المصادر العربية تشير أيضا إلى
الحروب التى وقعت بينه وبين الجند ، والتى أدت إلى عزله ، فيقول أبو
المحسن : « ثم وقع بين سليمان هذا وبين الجند أيضا وحشة ، فوثبوا عليه
وقاتلوه ، ووقع له معهم وقائع وحروب كثيرة آلت إلى عزله عن إمرة مصر ،
فصرفه المأمون عنها » .

ثم يذكر القلقشندى أن عبيد الله بن السرى قد تولى مصر عام
٢٠٦هـ / ٨٢١م بمبايعة الجندله .

الجيش زمن الدولة الطولونية :

وقد كان جيش مصر زمن الدولة الطولونية يتكون من أجناس مختلفة
من المماليك المعتقين ، والجنود المرتزقة ، ومن السودانيين ، وبعضهم من
أصل رومى أو تركى .

وقد خدمت الظروف أحمد بن طولون فى تكوين هذا الجيش عندما طلب منه الخليفة التصدى لثورة ابن الشيخ والى الشام ، ثم ألقى من هذه المهمة وتولتها جيوش عراقية أرسلها الخليفة ، فكان هذا الجيش مكسبا كبيرا لمصر .

وفى عهد أحمد بن طولون وخمارويه كان هذا الجيش يسوده النظام والانضباط ، ولكن عندما ترك خمارويه الخزانة خالية بعد زواج ابنته ، لم يستطع ابنه « جيش بن خمارويه » أن يشتري طاعة الجند بالمال ، فانقلبوا عليه ، وأصبح هذا الجيش من أكبر أسباب الفوضى فى الدولة ، ولم يبق على الاخلاص التام لبنى طولون إلا الجند السودانيون الذين ذبحوا عن آخرهم بيد الجيوش العراقية لأنهم لم ينضموا إلى الجيش العباسى .

الجيش زمن الدولة الاخشيدية :

وقد تكون الجيش فى زمن الدولة الاخشيدية من ترك ، وسوادنيين ، ومغارية ، ومماليك من أجناس مختلفة .

وكان هذا الجيش عدة الاخشيد فى دخول مصر والتمكين لنفسه فيها بالقضاء على المعارضين لامارته .

وكان هذا الجيش أعظم جيوش عصره ، ولكن عندما مات محمد بن طغج الاخشيد مؤسس الدولة الاخشيدية (٣٣٤هـ / ٩٤٥م) ، انقسم الجند إلى فريقين : فريق يؤيد كافورا ، وفريق يؤيد أبناء الاخشيد . وقد عمل كافور على الاعتماد على المال والعطايا فى السيطرة على الجيش . وعندما مات كافور (٣٥٧هـ / ٩٦٧م) ، بدأ الجند فى الثورة ، وطلبوا من الوزير أبى الفضل جعفر بن الفرات من الأموال مالم يستطع دفعه ، فلما تبين لهم عجزه ، نهبوا داره ، ودور نفر من أتباعه ، وكتب فريق منهم إلى الخليفة الفاطمى يزينون له فتح مصر . وكان ذلك من أسباب سقوط الدولة الاخشيدية .

ديوان الجند :

أول من دون الدواوين من العرب فى الاسلام هو عمر بن الخطاب ، فلم يفرض النبى (ص) ولا أبو بكر للجنود عطاء مقررأ، ولكنهم كانوا اذا غزوا، وغنموا، أخذوا نصيباً من الغنائم قررته الشريعة لهم . واذا ورد إلى المدينة مال من بعض البلاد، أحضر إلى مسجد الرسول (ص) وفرق عليهم على حسب ما يراه النبى (ص). وجرى الأمر على ذلك مدة خلافة أبى بكر . فلما كانت سنة خمس عشرة للهجرة، وهى خلافة عمر بن الخطاب ، قدم عليه أبو هريرة من البحرين ومعه مال كثير قدر بخمسمائة ألف درهم، فصعد عمر المنبر وقال: أيها الناس قد جاءنا مال كثير، فإن شئتم كلناه كيلاً، وإن شئتم أن نعد عدأ .

فقام اليه رجل من الفرس فقال يا أمير المؤمنين، إن للأكاسرة شيئاً يسمونه ديواناً ،جميع دخلهم وخرجهم مضبوط فيه،ولايشذ منه شىء، وأهل العطاء مرتبون فيه مراتب لا يتطرق اليها خلل. فتنبّه عمر وقال: صفه لى، فوصفه له. لذلك دون الدواوين.

وقد رأى عمر أن يجعل العطاء على حسب السبق الى الإسلام ، وإلى نصرة الرسول (ص) فى حروبه، ثم إستخدم الكتاب فى الدواوين ، وأمرهم بترتيب الطبقات وضبط العطاء. فقالوا : بمن نبدأ ياأمير المؤمنين ؟ فأشار ناس من الصحابة عليه بأن يبدأ بنفسه، فكره عمر ذلك وقال: ابدأوا بالعباس عم الرسول (ص)، ويبنى هاشم، ثم بمن بعدهم طبقة طبقة، وضعوا آل الخطاب حيث وضعهم الله عز وجل .

وهكذا كان عمر بن الخطاب هو أول من جعل الجند فئة مخصوصة. ولم يكن هذا الديوان يومئذ يعرف بديوان الجند ، لكنه كان يسمى «الديوان » فقط، فكأنه ديوان المسلمين، على إعتبار أن المسلمين كانوا كلهم جنداً فى ذلك الحين .

وعلى كل حال ، فقد كان ديوان الجند الذى إستحدثه عمر بن الخطاب أكبر
ساعد على تحسين نظام الجند وضبطه فى الإسلام.

وكان أول من دون ديوانا للجند فى مصر هو عمرو بن العاص ، ثم
دون عبد العزيز بن مروان (٦٥-٨٦هـ / ٦٨٤ - ٧٠٥م) تدوينا ثانيا ، ودون
قرة بن شريك (٩٠ - ٩٦هـ / ٧٠٨ - ٧١٤م) التدوين الثالث عام ٩٥هـ/
٧١٣م ، ثم دون بشر بن صفوان (١٠١ - ١٠٢ هـ / ٧١٩ - ٧٢٠م) تدوينا
رابعا ، ثم لم يكن بعد تدوين بشر شئ يذكر ، إلا ما كان من إلحاق قبيلة
قيس بالديوان فى خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان (١٠٥ - ١٢٥هـ/
٧٢٣ - ٧٤٢م) . وكان الجند يثبتون فى الديوان على حسب قبائلهم التى
ينتمون إليها ، لذلك فإن الذى حمل بشر بن صفوان على تدوينه الديوان
للمرة الرابعة ما رآه من تفرق قبيلة قضاة فى القبائل الأخرى ، فكتب إلى
الخليفة يزيد بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥ هـ / ٧١٩ - ٧٢٣م) يستأذنه فى
استخراج من كان من القبائل منهم ، ويجعلهم فى قبيلة واحدة ، فأذن له
بذلك .

وقد اهتم الخلفاء باحصاء المسلمين اقتداء بما فعله النبى (ص) ، فقد
جعل معاوية (٤٠ - ٦٠هـ / ٦٦٠ - ٦٧٩م) على كل قبيلة من قبائل العرب
بمصر رجلا يصيح كل يوم ، فيدور على المجالس ويقول : هل ولد الليلة فيكم
مولود ؟ وهل نزل بكم نازل ؟ فيقال : ولد لفلان غلام ، ولفلان جارية ، فيكتب
أسماء هم . ويقال : نزل بهم رجل من أهل كذا بعياله ، فيسميه وعياله ، فإذا
فرغ من القبائل كلها ، أتى الديوان حتى يثبت ذلك .

أما بالنسبة لترتيب الجند فى الديوان فيذكر الماوردى : أنه اذا أثبت
الجند فى الديوان ، يكون ترتيبهم من وجهين :

الأول : ترتيب عام ، وهو ترتيب القبائل والأجناس حتى تتميز كل قبيلة عن
غيرها ، وكل جنس عن خالفه . وإذا كانوا عربا يكون ترتيب قبائلهم
بالقرب من رسول الله (ص) ، كما فعل عمر بن الخطاب حين دونهم .

والثاني : ترتيب خاص ، وهو ترتيب الأشخاص، ويكون هذا الترتيب بالسابقة فى الإسلام فإن تكافئوا فى السابقة ترتبوا بالدين ، فإن تقاربوا ترتبوا بالسن ، فإن تقاربوا ترتبوا بالشجاعة ، فإن تقاربوا فيها فولى الأمر بالخيار بين أن يرتبهم بالقرعة أو يرتبهم عن رأيه واجتهاده.

أما بالنسبة لتقدير قيمة العطاء، فيذكر الماوردى أن قيمة العطاء كان ينظر إليها من ثلاثة وجوه :

الأول : عدد من يعوله ، سواء كان من الذرارى ^(١) والمماليك.

الثاني : عدد ما عنده من الخيل و الظهر ^(٢) .

الثالث . ظروف المكان من حيث الغلاء والرخص

فيقدر قيمة العطاء على هذا الأساس ، وتكون قيمة العطاء قابلة للزيادة أو النقص عند عرض حالته كل عام .

وقد اختلف الفقهاء فى قيمة العطاء للرجل إذا تقدر رزقه بالكفاية، هل يجوز أن يزداد عليها ؟ فمنع الشافعى من زيادته على كفايته وإن اتسع المال . وجوز أبو حنيفة زيادته على الكفاية إذا اتسع المال لها .

كما يذكر الماوردى أنه إذا مات أحدهم أو قتل كان ما يستحق من عطائه موروثاً عنه على فرائض الله تعالى ، وهو دين لورثته في بيت المال . وقد اختلف الفقهاء فى توريث عطاء الجند ، فظهر رأيان : رأى يرى أنه قد سقطت نفقتهم من ديوان الجيش لذهاب مستحقه ، ويحالون على مال العشر والصدقة. ورأى ثان يرى أنه يستبقى من عطائه نفقات ورثته ترغيباً له فى المقام ، ويعثا له فى الاقدام . وترى الدكتورورة سيدة كاشف أن توريث عطاء الجند كان لتشجيع العرب على الالتحاق بالجندية .

(١) ذرية الرجل جمع الذرارى والذريات . أى ولده ونسله

(٢) الظهر . أى الركاب التى تحمل الأثقال .

وعن قيمة العطاء في مصر في ولاية عمرو بن العاص ، يذكر أبو عبيد :
أن عمر بن الخطاب كتب إلى عمرو بن العاص أن يفرض لمن بايع تحت
الشجرة (١) في مائتين في العطاء (يعنى مائتى دينار في السنة) . وأبلغ ذلك
لنفسك بامارتك ، وافرض لخارجة بن حذافة في الشرف لشجاعته ، ولعثمان
ابن قيس السهمي لضيافته .

إلا أن المصادر العربية تشير إلى أن مقدار العطاء لم يكن ثابتا . فعندما
سافر عبد العزيز بن مروان وإلى مصر (٦٥ - ٨٦ هـ / ٦٨٤ - ٧٠٥ م) إلى
أخيه عبد الملك بن مروان في عام ٦٧ هـ / ٦٨٦ م ، زاد عابس بن سعيد
(صاحب الشرطة) في أعطيات الناس من الجند ، وعندما عاد عبد العزيز بن
مروان قال له : ما حملك على ذلك ؟ قال عابس : أردت أن أثبت وطأك ووطأة
أخيك ، فإن أردت أن تنقضه فانقضه . فقال عبد العزيز بن مروان : ما كنا
لنرد عليك شيئا فعلته .

وفي ولاية أيوب بن شرحبيل (٩٩ - ١٠١ هـ / ٧١٧ - ٧١٩ م) ورد إليه
كتاب الخليفة عمر بن عبد العزيز بالزيادة في أعطيات الناس عامة .

وعندما تولى يزيد بن عبد الملك الخلافة (١٠١ - ١٠٥ هـ / ٧١٩ -
٧٢٣ م) أرسل إلى بشر بن صفوان وإلى مصر (١٠١ - ١٠٢ هـ / ٧١٩ -
٧٢٠ م) بمنع هذه الزيادة .

ويتضح من المصادر أن أرزاق المسلمين لم تكن نقدا فقط ، وإنما عينا
أيضا . فيذكر الكندي أن أرزاق المسلمين كانت اثني عشر أردبا في كل سنة ،
فنقص أردبين ، فصار كل رجل إلى عشرة ، فلما ولى حفص بن الوليد
ولايته الثانية (١٢٤ - ١٢٧ هـ / ٧٤١ - ٧٤٤ م) ، صيرهم إلى اثني عشر .

(١) كان ذلك عام الحبيبية ٦ هـ / ٦٢٧ م وذلك أن النبي (ص) بعث عثمان إلى أبي سفيان وأشراف قريش
يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وإنما جاء زائرا لهذا البيت ، معطما لحرمته . فحبسته قريش عندها ، وبلغ
رسول الله (ص) والمسلمون أن عثمان قد قتل . فقال رسول الله (ص) . لا تبرح حتى تنال القوم (تبارز
ونقاتل) ، ودعا الناس إلى البيعة ، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة ، وقد بايعوه على ألا يفروا ، وقيل
على الموت . وقد نزل فيهم قوله تعالى (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) سورة الفتح
١٨ / .

على كل حال ، يجدر بنا الإشارة إلى رأى « حسيني » عن أسباب ارتفاع أو انخفاض المرتبات طوال العهود الإسلامية (الخلفاء الراشدون - الأمويون - العباسيون) ، فهو يرى أن الجيش الإسلامى طوال الفترة التى كان يتألف فيها من العرب فقط ، كان من الصعب على الخليفة خفض الرواتب خشية قيام عصيان من السهل حدوثه فى جيش موحد . فقد كان العرب إلى عهد الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك ينظرون إلى عطاءاتهم على أنها نفقات للمعيشة أكثر منها رواتب تلزم صاحبها بأداء الخدمة ، وبالإضافة إلى ذلك فإن عدد الجند العربى الصالح للخدمة فى الميدان صار محدودا ، لأن كثيراً منهم صار أقدر على أن يكسب عيشه عن طريق غير احتراف الجندية ، لذلك اضطرت الدولة فى عهد الأمويين إلى دفع رواتب باهظة لهم .

أما فى العصر العباسى فقد فَقَدَ العرب سيادتهم الحربية ، كما فقدوا نفوذهم على الخليفة ، فصار العرب والفرس والأترك والبربر والزنج يجندون فى الجيش دون فارق فى الجنس أو اللون . وهكذا كان أمام العباسيين ميدان أوسع للتجنيد ، واستطاعوا الحصول على الجند فى أعداد كبيرة جدا ، لأنهم لم يهتموا بالجنسية عند الاختيار . ومن قوانين الاقتصاد الطبيعية أن زيادة العرض عن الطلب يؤدى إلى انخفاض قيمة السلع ، وقد حدث مثل هذا فى الدولة فإن وجود عدد كثير جدا من الجنود جعل الدولة تنقص الرواتب ، وكلما اتسع مجال التجنيد كلما انخفضت رواتب الجند .

وفضلا عن ذلك ، فإن الجندية فى العهد العباسى لم تعد تشتمل على كثير من المخاطرة بالحياة ، كما كان الحال فى العهود الأولى ، ذلك أن الاسلام قد استقر فى مساحات شاسعة جدا ، ولم تعد الفتوحات والتوسعات متلاحقة ، وإنما حدثت على فترات متقطعة ، ولذا فإن الدولة لم تدفع رواتب عالية إلا للجند فى الأقاليم التى تتعرض فيها حياتهم للخطر بسبب الحرب أو الثورة .

كما كان هناك سبب آخر لإنخفاض رواتب الجند، وهو الإزدياد الهائل في عدد الجيش ، فكانت الجيوش تقدر بمئات الألوف في العهد العباسي الأول ، الأمر الذي دفع العباسيين الى خفض عطاء الجند. هذا فيما يتعلق بأسباب إنخفاض أو إرتفاع مراتب الجند طوال العهود الإسلامية كما ذكرها حسيني.

أما بالنسبة لوقت صرف الرواتب (العطاء) للجند ، فيذكر الماوردي : أن وقت العطاء كان معلوماً يتوقعه الجيش عند الاستحقاق ، وهو معتبر بالوقت الذي تستوفى فيه حقوق بيت المال، فإن كانت تستوفى في وقت واحد من السنة جعل العطاء في رأس كل سنة، وإن كانت تستوفى في وقتين جعل العطاء في كل سنة مرتين ، وإن كانت تستوفى في كل شهر جعل العطاء في رأس كل شهر ليكون المال مصروفاً إليهم عند حصوله ، فلا يحبس عنهم اذا إجتمع ولا يطالبون به إذا تأخر . وإذا تأخر عنهم العطاء عند إستحقاقه ، وكان حاصلاً في بيت المال ، كان لهم المطالبة به كالدين المستحق، وإن أعوز بيت المال لعوارض أبطلت حقوقه أو أخرتها ، كانت أرزاقهم ديناً على بيت المال .

ويذكر الكندي أنه في خلافة مروان بن محمد (١٢٧ - ١٣٢هـ/ ٧٤٤-٧٤٩م) آخر خلفاء بني أمية ، قطع العطاء عن أهل مصر سنة ، ثم كتب إليهم كتاباً يعتذر إليهم فيه ويقول : « إني إنما حبست عنكم العطاء في السنة الماضية لعدو حضرنى ، فاحتجت فيه إلى المال ، وقد وجهت إليكم بعطاء السنة الماضية وعطاء هذه السنة ، فكلوا هنيئاً مرثياً ، وأعوذ بالله أن أكون أنا الذى يجرى الله قطع العطاء على يديه » .

ويظهر من المصادر العربية أن قطع فروض الجند كانت تؤدي إلى قيام الثورات ، خصوصاً - كما تذكر الدكتورة سيدة كاشف - فى أواخر الدولة الأموية وفى خلال الدولة العباسية ، عندما أصبح العرب يملكون أراض زراعية ، اذ أصبحوا يؤدون خراجاً ، وفى الوقت نفسه يأخذون عطاء . وانقاص العطاء أو زيادة الخراج يكون معناه زيادة الأعباء المالية على العرب.

ففى ولاية حسان بن عتاهية (١٢٧ هـ / ٧٤٤م) من قبل مروان بن محمد ، أسقط الفروض التى كان حفص بن الوليد قد قررها فى ولايته ، كما قطع فروض الجند كلها ، فثاروا عليه وقاتلوه ، وحاصروا داره ، وطلبوا منه الخروج من مصر . ومن الواضح أن الجند كانوا قوة لا يستهان بها حتى إنهم دعوا إلى خلع مروان بن محمد من الخلافة أيضا ، وأخرجوا حفصا من سجنه وولّوه عليهم .

وفى ولاية محمد بن زهير الأزدي عام (١٧٣ هـ / ٧٨٩م) من قبل الرشيد ، ثار الجند الذين يقال لهم « القديدية »^(١) بصاحب الخراج عمر بن غيلان ، بسبب أعطياتهم ، ويذكر الكندي : « أنهم صلبوه ، وبخنوا عليه حتى دفع إليهم أعطياتهم » .

ويبدو أن « القديدية » كانوا يشكلون خطورة كبيرة مما دفع داود بن يزيد المهلبى عندما تولى مصر عام (١٧٤ هـ / ٧٩٠م) إلى إخراجهم من الفسطاط إلى بلاد المغرب وبلاد المشرق .

وفى ولاية الحسن بن تختاخ عام (١٩٣ - ١٩٤ هـ / ٨٠٨ - ٨٠٩م) من قبل الرشيد ، ثار الجند عليه عندما أعطاهم العطاء ثلثا عينا^(٢) ، وثلثا بزا^(٣) ، ووقع فتنة عظيمة حتى قتل ناس من الجند وناس من أهل مصر فى المسجد الجامع .

وفى ولاية كيدر نصر بن عبد الله من قبل المعتصم عام (٢١٧ - ٢١٩ هـ / ٨٣٢ - ٨٣٤م) ، وبعدما ورد كتاب المعتصم إليه باسقاط العرب من الديوان وقطع أعطياتهم ، خرج يحيى بن الوزير الجروى فى جمع من لخم وجذام وعندما مات كيدر ٢١٩ هـ / ٨٣٤م وولى ابنه المظفر مصر من بعده ، سار إلى يحيى وقاتله وأخذه أسيرا .

وفى ولاية أحمد كيغلغ الثانية (٣٢١ - ٣٢٢ هـ / ٩٣٣ - ٩٣٣م) من قبل القاهرة بالله ، استخلف على مصر أبا الفتح محمد بن عيسى النوشرى . وقد

(١) القديدية: تبايع العساكر من الصنائع كالحداد والبيطار والحلاق وأمثالهم .

(٢) العين جمع أعين وعيون وأعيان الذهب المضروب والدينار خلاف الفضة المضروبة .

(٣) البز : جمع بزوز السلاح - أو الثياب من الكتان أو القطن .

ثار الجند عليه فى طلب أرزاقهم ، وطلبوا من محمد بن على الماذرائى صاحب خراج مصر أرزاقهم ، فاستتر الماذرائى منهم ، فأحرقوا داره ودور أهله ، ووقعت فتنة عظيمة وحروب نتل فيها جماعة كثيرة من المصريين .

وفى ولاية محمد بن تكين عم (٣٢٢هـ / ٩٣٣م) ثار الجند على أبى بكر محمد بن على الماذرائى فى طلب أرزاقهم ، وأحرقوا داره ودار أهله .

نظام التجنيد

بالنسبة لنظام التجنيد فى الإسلام ، ترى الدكتورة سيدة الكاشف أن حالة التجنيد ، من تطوع أو إلزام ، كانت تتغير من حين وآخر بتغير الأمراء ، واختلاف ظروف القتال ، وقوة الخلافة نفسها ، ونوع العناصر التى تعتمد عليها فى تكوين الجيوش الإسلامية .

أما جرجى زيدان فيرى أن التجنيد الإلزامى بدأ فى أواسط العصر الأموى ، أما قبل ذلك فقد كان الناس يذهبون إلى الحرب جهادا فى سبيل الله ، فيصيبون الغنائم والفيء . فلما قامت الفتنة بعد مقتل عثمان عام ٣٥هـ / ٦٥٥ م اشتغلوا بالحرب فيما بينهم مدة ، وانقسم المسلمون إلى طوائف متصارعة ، وكل طائفة تحارب معتقدة أنها التى تدافع عن الحق ، فلما أفضى الأمر إلى بنى أمية ، وصار المسلمون دولة واحدة ، وضعفت قوة الأحزاب بتغلب العنصر الأموى ، لم يعد الناس يرون ما يدفعهم إلى الحرب طوعا ، فجعلوا يتقاعدون ، فاضطر الخلفاء إلى التجنيد بالإلزام .

ويرى جرجى زيدان أن أول من أدخل التجنيد الإجبارى هو الحجاج بن يوسف ، على عهد عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦هـ / ٦٨٤ - ٧٠٥م) . وسبب ذلك أن الدولة الأموية كانت قد بلغت ذروة مجدها وكثر المسلمون ، ومالوا إلى العمل فى الأرض ، وأطلق لهم السراح ، وكانوا قد هموا بالتقاعد عن الحرب فى أيام معاوية (٤٠ - ٦٠هـ / ٦٦٠ - ٦٧٩م) ، فغلبهم بهائنه

وعطائه ، فلما تولى ابنه يزيد (٦٠ - ٦٤ هـ / ٦٧٩ - ٦٨٣ م) ، ثم معاوية الثانى (٦٤ هـ / ٦٨٣ م) ، ثم مروان بن الحكم (٦٤ - ٦٥ هـ / ٦٨٣ - ٦٨٤ م) - ولم يكن فيهم من يملك القلوب أو الأعناق - تجرأ الجند على التقاعد ، فتولى عبد الملك الخلافة والجند على ما تقدم لا يرحلون برحيله ولا ينزلون بنزوله ، فشكا ذلك إلى روح بن زنباع صاحب شرطته فقال له : « يا أمير المؤمنين ، إن فى شرطتى رجلا لو قلده أمير المؤمنين عسكره لأرحلهم برحيله ، وأنزلهم بنزوله . يقال له الحجاج بن يوسف » . فأطاعه عبد الملك بن مروان وقلد الحجاج أمر العسكر ، فكان هذا بداية التجنيد الاجبارى ، ثم أصبح نظاما ثابتا .

الا أن الدكتور سعاد ماهر تختلف مع رأى جرجى زيدان هذا ، فهى ترى أن التجنيد الإلزامى بدأ بتأسيس عمر للديوان ، فقد أفرد للجند دفاتر خاصة تسمى ديوان الجند ، يدون فيها اسم الجند مع نسبه وقبيلته وبيان قده ولونه وملامحه وسائر ما يتميز به عن غيره لئلا تتفق الأسماء وليسهل استدعاؤه ، وتقول : إنه مما يوعد أن التجنيد كان إلزاميا فى عهد عمر ما رواه ابن الأثير عن الشعبى قوله : « كان الرجل اذا أخل بواجبه الذى يكتب له زمن عمر وعثمان وعلى ، نزعتم عمامته ، ويقام فى الناس ، ويشهر أمره » .

(الأسطول)

هذا فيما يتعلق بالقسم الأول من النظام الحرى وهو الجيش ، أما فيما يتعلق بالقسم الثانى وهو الأسطول .

فنلاحظ أن فتوحات العرب للبلاد التى تقع على البحر (أى الساحلية) ، قد ألزمتهم بإنشاء أسطول عربى ، لأن الجيش وحده لا يستطيع أن يدافع عن دولة معرضة للغزو البحرى ، لذلك أنشأ العرب الأسطول لحمايتهم من غزو بحرئى ، كما أنشأوا الجيش من قبل لحمايتهم من غزو برئى .

ولكن كيف بدأ العرب فى انشاء الأسطول؟

فى البداية يجب أن نشير الى أن العرب لم يكونوا شعبا بحريا، وتقصد بالعرب هنا عرب الجزيرة العربية من البدو الذين جعلوا الرعى حرفتهم الأولى، وذلك لأن عرب اليمن كانوا يعملون بالتجارة البحرية، ويمتلكون الأساطيل الضخمة خاصة فى البحر الأحمر والمحيط الهندي.

وفى ذلك يقول ابن خلدون: إن العرب، لبدأوتهم، لم يكونوا أول الأمر مهرة فى ثقافة البحر وركوبه. والروم والافرنجة، لمارستهم أحواله ومرباهم فى التقلب على أعواده، مرنوا عليه، وأحكموا الدراية بثقافته.

ويلاحظ أنه لم تقدم طوال حياة الرسول (ص) أو فى خلافة أبى بكر وعمر بن الخطاب أية معارك بحرية. وكان ابن الخطاب يكره ركوب البحر. ولذلك عندما غزا العلاء بن الحضرمي^(١) أمير البحرين - فارس^(٢) عن طريق البحر بغير إذن الخليفة، غضب عمر على العلاء، وعزله وجعل مكانه سعد بن أبى وقاص^(٣)، فقد فقد المسلمون سفنهم فى غزوهم لفارس، وإن عادوا الى البصرة محملين بالغنائم.

ولما فتح العرب بلاد الشام، وشاهدوا سفن الروم، ألح معاوية بن أبى سفيان على الخليفة عمر بن الخطاب فى غزو البحر، معللا ذلك بقرب الروم من حمص، فكتب عمر إلى عمرو بن العاص وإلى مصر يطلب إليه وصف

(١) كان أمير البحرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأقره عليها أبو بكر ثم عمر. توفى عام ١٤هـ/ ٦٣٥ م وقيل عام ٢١هـ/ ٦٤١ م. عزله عمر عن البحرين وولى مكانه أبو هريرة، وأمره عمر على الكوفة فعات قبل أن يصل إليها.

(٢) فارس: ولاية واسعة، وإقليم لمسيح، أول حدودها من جهة العراق أرجان، ومن جهة كرمان السيرجان، ومن جهة ساحل بحر الهند سيراف، ومن جهة السند مكران. وفارس خمس كور: اصطخر، وسابور، وارد شير خرة، ودار ابجرود، وأرجان.

(٣) سعد بن أبى وقاص واسمه مالك بن أهيب بن عبد مناف القرشى، أبو اسحاق. أحد العشرة المبشرين بالجنة. شهد بدرًا، وهو الذي أمتنع القادسية، ونزل الكوفة وخطبها خطبًا لقبائل العرب، وأبنتى بها دارا، «وأيها لعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ثم عزل عنها». توفى عام ٥٥هـ/ ٦٧٤ م ودفن بالقيقع.

البحر ، فكتب عمرو إليه : « إن البحر خلق عظيم ، يركبه خلق ضعيف ، دود على عود » . فمنع عمر بن الخطاب المسلمين من ركوب البحر .

ويقال أيضا إن عمرو بن العاص كتب إليه يقول :

« يا أمير المؤمنين ! إنى رأيت البحر خلقا كبيرا ، يركبه خلق صغير ، ليس إلا السماء والماء ، إن ركد أحزن القلوب ، وإن ثار أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة ، والشك كثرة ، هم فيه كدود على عود ، إن مال غرق ، وإن نجا برق » . لذلك منع عمر بن الخطاب المسلمين من ركوب البحر ، وكتب إلى معاوية يقول :

« لا ، والذي بعث محمدا بالحق ، لا أحمل فيه مسلما أبدا » .

غير أن العرب مالبثوا أن غيروا سياستهم هذه ، فيقول ابن خلدون : « فلما استقر الملك للعرب ، وشمخ سلطانهم ، وصارت أمم العجم خولا (١) لهم تحت أيديهم ، وتقرب كل ذى صنعة إليهم بمبلغ صناعته ، واستخدموا من النواتية (٢) فى حاجاتهم البحرية أمما ، وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته ، استحدثوا بصراء بها ، فشرهوا (٣) إلى الجهاد فيه ، وأنشئوا السفن فيه والشوانى (٤) ، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح ، وأمطوها (٥) العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر ، واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم (٦) ما كان أقرب لهذا البحر ، وعلى حافته مثل : الشام ، وأفريقية ، والمغرب ، والأندلس » .

وهكذا رأى العرب ضرورة انشاء أسطول بحرى يستطيع أن يحميهم من أى غزو بحرى ، خاصة وأن أعداء العرب (مثل الروم) كانوا دولا بحرية ،

(١) الخول جمع خولى . العبيد والإماء وغيرهم من الحاشية ، وهو يستعمل بلفظ واحد للجميع ، وربما قيل للواحد خائل . وهذا مأخوذ من التخويل أى التمليك ، وقيل من الرعاية .

(٢) نوتى جمع نواتى . الملاح فى البحر خاصة . وقيل معرب من اليونانية .

(٣) شره . اشتد ميله إليه .

(٤) الشونة جمع شوان . المركب المعد للجهاد فى البحر .

(٥) أمطوها من أمطى . أركبهم أيها .

(٦) الثغر جمع ثغور . المكان الذى يخاف منه هجوم العدو .

لذلك وافق عثمان بن عفان على القتال فى البحر على أن يكون الاشتراك فيه تطوعا لا يحمل عليه أحد .

وقد اعتمد العرب فى البداية اعتمادا كليا على شعوب البلاد التى فتحوها ، والتى مرنت على ركوب البحار منذ القدم ، وبالطبع كانت مصر من ضمن هذه البلاد ، ومعنى ذلك استخدام الأقباط فى الأسطول . على أنه من الواضح أن العرب استخدموا الأقباط كملاحين وعمال وليسوا كمقاتلين ، فلا يعقل أن يكون العرب قد كونوا جيشهم البحرى من الأقباط ، وتركوا لهم مهمة الدفاع عنهم ، وهذا ما يقوله الدكتور على حسنى الخريطولى الذى يذكر أن العرب استخدموا الأقباط كملاحين ، أما المحاربون الذين حملتهم السفن فكان معظمهم من العرب المسلمين .

على أن استخدام الأقباط لم يقتصر على العمل كملاحين فقط ، لأن الدلة العربية لم تلبث ان اكتشفت ضرورة صنع السفن العربية. وكان عليها الاستعانة بخبرة الأقباط فى هذا المجال ، فقد كانت مصر مشهورة بمهرة صناع السفن وكثرة دور الصناعة التى صنعت الأعداد الوفيرة من سفن الروم وأساطيلهم ، ومعنى ذلك استمرار العرب على سياسة الدولة البيزنطية فى بناء السفن على أيدى نفس العمال الأقباط المتخصصين فى بناء السفن .

وقد سمي العرب مجموع السفن أسطولا ، وهو تعريب لفظ يونانى الأصل (Stolos) .

وقد كانت صناعة السفن فى مصر من أهم الصناعات فى فجر الإسلام، كما أن المصريين كان لهم الفضل الأكبر فى عظمة الدولة الإسلامية البحرية . كما تقول الدكتورة سيدة كاشف . حيث كانت الخلافة تعتمد عليهم فى انشاء أسطولها الحربي ، وقد تركزت صناعة السفن فى البداية فى مصر فقط حتى زمن خلافة معاوية بن أبى سفيان (٤٠ - ٦٠ هـ / ٦٦٠ - ٦٧٩ م) .

وكان يطلق على مكان صناعة السفن اسم « الصناعة » ، فقط دون أن تقترب باسم السفن ، وفي ذلك تقول الدكتورة سعاد ماهر : إن إطلاق لفظ « الصناعة » دون تخصيص على صناعة السفن يدل على مبلغ اهتمام الدولة الإسلامية بالقوى البحرية ، ولذا فقد أصبحت الصناعة لديها تعنى فى المقام الأول صناعة السفن والأساطيل .

ويذكر المقرئى أن « الصناعة » كانت بجزيرة الروضة ، وأنها أسست فى عام ٥٤ هـ / ٦٧٣ م ، غير أن الدكتورة سيدة كاشف ترى أن الصناعة أنشئت فى مصر قبل هذا التاريخ، فالمسلمون بدأوا يُعَنُون ببناء السفن الحربية منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان (٢٣ - ٣٥ هـ / ٦٤٣ - ٦٥٥ م)، فقد كانت غزوة عبد الله بن سعد البحرية التي عرفت باسم «ذات الصواري» فى عام ٣٤ هـ / ٦٥٤ م. وسرعان ما انتقلت صناعة السفن من مصر الى جهات مختلفة من أنحاء الدولة العربية مع تطور الصراع ضد الدول البيزنطية، وفى ذلك يقول البلاذري : إنه فى عام ٤٩ هـ / ٦٦٩ م هاجم الروم السواحل الإسلامية، وكانت «الصناعة» بمصر فقط، فأمر معاوية بن أبي سفيان بإنشاء دار للصناعة فى عكا .

ولما ولي عبد الملك بن مروان الخلافة (٦٥ - ٨٦ هـ / ٦٨٤ - ٧٠٥ م) بعث إلى حسان بن نعمان عاملة علي افريقية يأمره باتخاذ «صناعة» بتونس لإنشاء الآلات البحرية ، وقد كتب عبد الملك بن مروان الى أخيه عبد العزيز وإلى مصر أن يوجه الى معسكر تونس ألف قبضى بأهله وولده لإنشاء دار صناعة فيها، أما مهمة البربر هناك فكانت أن يجروا ويحملوا الى دار الصناعة ما تحتاجه من خشب لصنع المراكب.

وكان الأسطول المصرى أكثر أهمية وأضخم عدداً من أسطول الشام، وأسطول افريقية، كما كان أمير البحرية المصرية هو القائد العام للجميع، وغالبا ما اشترك الأسطولان المصرى والسورى فى عمليات واحدة، على حين استقل اسطول شمال افريقية بعملياته عنهما .

وقد كان في مصر ثلاث وحدات للأسطول : أسطول بالاسكندرية، وأسطول النيل مقره بابلون، وأسطول خاص لحراسة مداخل النيل من نزول الرومان على السواحل. وكانت دور صناعة السفن الرئيسية في مصر توجد في بابلون والقلم.

ولما كانت مصر تطل على البحرين الأبيض والأحمر، وكانت طبيعة البحر الأحمر تختلف عن طبيعة البحر الأبيض المتوسط، بما يحتويه من صخور وما به من تيارات بحرية، وما يهب عليه من رياح وأعاصير، فقد تطلب هذا الاختلاف، تغيراً في بناء السفن التي تسير فيه، والتي تبحر في المحيط الهندي، الذي يشبه في طبيعته وخواصه البحر الأحمر إلى حد كبير.

ولأهمية توفير الخشب لصنع السفن، فقد جعلت الدولة غابات الأشجار التي تصنع منها الأخشاب الخاصة بالأسطول ملكاً لها، ويقول المقريني: «إنه كان في البهنساوية وسفط ريشين^(١) والأشمونيين^(٢) والأسيوطية والاحميمية والقوصية أشجار لا تحصي من سقط لها حراس يحمونها حتى يعمل منها مراكب الأسطول، فلا يقطع منها إلا ما تدعو الحاجة إليه. وكان فيها ما تبلغ قيمة العود الواحد منه مائة دينار». ويقول أيضاً: «وكانت العادة أنه لا يباع مما في البهنسا إلا ما فضل عن احتياج المصالح السلطانية».

وتقول الدكتورة سيدة كاشف عن نظام استيلاء الدولة على هذه الأشجار: «لأنعرف متى نشأ هذا النظام، ومتى ألغى، فإن من المحتمل أن هذا الاهتمام بالأخشاب يرجع إلى عهد الولاة ولاسيما في نهايته».

ومن أغلى أنواع الخشب الذي كانت تصنع منه السفن المصرية شجر اللبخ الذي لا ينبت إلا بأصنا، وهي مدينة من نواحي الصعيد على شرف

(١) ذكرها محمد رمزي في قاموسه باسم صفط راشين، وهي من القرى القديمة. اسمها الأصلي سفط ريشين. وهي بمركز بيا - مديرية بني سويف.

(٢) أشمون بضم أوله، وأهل مصر يقولون الأشمونيين. وهي مدينة قديمة أثرية، غربي النيل بصعيد مصر، وهي قصبة كورة الأشمونيين وقد نثرت مدينة الأشمونيين القديمة، ومكانها لا يزال ظاهراً في التل الواقع بجوار سكن بلدة الأشمونيين الحالية. وفي عام ١٨٢٦م صدر أمر من الوالي بتسمية ولاية الأشمونيين باسم مأمورية أسيوط، وجعلت مدينة أسيوط قاعدة لهذه المأمورية، وبذلك حُف اسم الأشمونيين، من الأقسام الإدارية بمصر، وأصبحت الأشمونيين، قرية من قرى مركز ملوي، مديرية أسيوط.

النيل، وقد أورد ياقوت أن شجر اللبخ لا ينبت الا بأصصنا، وهو عود تنتشر منه الألواح للسفن، وربما أرفع ناشرها، ويبيع اللوح منها بخمسين دينارا ونحوها. ثم يقول : وقد رأيت أنا اللبخ بمصر، وهو شجر له ثمر يشبه البلح فى لونه وشكله، ويقرب طعمه من طعمه، وهو كثير ينبت فى جميع نواحي مصر.

ولم يقتصر الخشب الذى تصنع منه السفن والأساطيل المصرية على ما تنتجه البلاد فحسب - كما تقول الدكتور سعاد ماهر - بل كان يستورد من بلاد الشام خشب الأرز، كما كان يستورد من بلاد الأناضول كذلك. فقد ذكر ابن بطوطة عند كلامه على مدينة (العلايا) الواقعة على ساحل بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) فى الأناضول، أنها كثيرة الخشب، ومنها يحمل الى الاسكندرية ودمياط، ويحمل منها الى سائر بلاد مصر.

وقضلا عن ذلك فان مصر كانت تنبت نوعا من الكتان تصلح أليافه لعمل الحبال وأدوات السفن، فقد ذكر ابن الفقيه أن «من عجائب مصر حشيشة يقال لها الدقس، يتخذ منها حبال للسفن تسمى تلك الحبال القرقس. يؤخذ من القرقس قطعة فيشعل بين أيديهم كالشمع، ثم يطفى، فيمكث سائر الليل، فاذا احتاجوا اليه أخذوا طرفه فأداروه كالخراق فيشتعل.»

وتذكر الدكتورة سيدة كاشف أن أوراق البردى التى كشفت فى كوم أشقار، والتى ترجع الى عصر الوليد بن عبد الملك - أظهرت أن صناعة السفن كانت زاهرة بوادى النيل فى جزيرة الروضة وفى القلزم وفى الاسكندرية. أما عن نظام تجنيد الأقباط فى الأسطول، فقد أشارت بعض الأوراق البردية إلى أن والى قرة بن شريك كان يطلب من صاحب كورة أشقوة إرسال عمال وصناع وملاحين للعمل فى دور الصناعة وإعداد الأسطول الحربى ، وكان والى يتفق مقدما على أجور هؤلاء العمال .

ويذكر ساويرس أن عمل الأقباط فى البحرية كان يتم عن طريق التجنيد الإجبارى . وفى ولاية عنيسة بن اسحق (٢٣٨ - ٢٤٢هـ / ٨٥٢ - ٨٥٦ م) كان يحصى الرجال الأقباط فى كل ضيعة ، ويختار منهم من يسافر بالأسطول . وكانت عملية التجنيد - فيما يبدو - تتم فى كل عام . ويشير ساويرس إلى سوء حالة هؤلاء الأقباط المختارين ، وأنهم لم يكن لديهم أدنى

خبرة فى القتال البحرى ، لذلك كانوا يفضلون أن يدفعوا لمن يرضى أن يسافر بدلا منهم . كما أشار أيضا إلى أن راتبهم قدر بدينارين فى الوقت الذى كان يدفع فيه للمسلم خمسة عشر دينارا ، فيقول فى كتابه :

« وينفق فى الأسطول فى كل سنة مال كثير ، فأما النصارى فانهم يسيروهم فى المراكب ، ولا يدفعوا لهم ما ينفقوه فى طريقهم ولا درهم واحد ، ولا زاد الطريق ، بل كانوا يجروا عليه جراية من الطعام فقط ، وكانوا يلزمهم بالمسير بهذا ، وكان المتولى ، من كثرة بغضه للنصارى ، يفعل هذا ، ويحصى البلاد كلها ، ويجعل على كل ضيعة عدة من الرجال يسافروا فى الأسطول ، وكان أيضا لا يدفع لهم سلاح ، ويتفقد أحوالهم فمن وجده بغير سلاح أو فى سلاحه نقص يسيء إليه ، ويغرمه خسارة ، ويأخذه بابتياح عدة يقاتل بها . حتى إنهم كانوا يأخذوا أقوام ضعفاء لا قدرة لهم على المسير ، وليس يعرفون صنعة البحر ولا القتال ، فيدفعوا ما يملكوه لمن يسافر عنهم ، ولما شكوا ما ينالهم من الكلف ، وانهم متى وجدوا سبيلا إلى المضى من هذه الأعمال إلى غيرها مضوا إليها ، فأمر أن يطلق لكل واحد من النصارى ديناران ، ويزيد عليها ما يقيم به بديلا عن نفسه من المسلمين بخمسة عشر دينار . »

غير أن هذا الوضع - كما يبدو لنا - مالبث أن تغير عندما هاجم الروم دمياط سنة ٢٣٨هـ / ٨٥٢م فى خلافة المتوكل ، وكان والى مصر فى ذلك الوقت عنبسة بن اسحاق ، فيقول المقرئى :

« عندما نزل الروم دمياط فى يوم عرفة سنة ثمان وثلاثين ومائتين ، وأمير مصر يومئذ عنبسة بن اسحاق ، فملكوها وقتلوا بها جمعا كثيرا من المسلمين ، وسبوا النساء والأطفال ، ومضوا إلى تنيس فأقاموا بأشتومها^(١) ، فوقع الاهتمام من ذلك الوقت بأمر الأسطول ، وصار من أهم ما يعمل

(١) اشتام فى التسمية أو الامر . دخل فيه

بمصر، وأنشئت الشوانى برسم الأسطول ، وجعلت الأرزاق لغزاة البحر كما هى لغزاة البر ، وانتدب الأمراء له الرماة ، فاجتهد الناس بمصر فى تعليم أولادهم الرماية وجميع أنواع المحاربة ، وانتخب له القواد العارفون بمحاربة العدو . وكان لا ينزل فى رجال الأسطول غشيم ولا جاهل بأمور الحرب ، هذا والناس اذ ذاك رغبة فى جهاد أعداء الله وإقامة دينه . لاجرم أنه كان لخدام الأسطول حرمة ومكانه ، ولكل أحد من الناس رغبة فى أنه يعد من جملتهم فيسعى بالوسائل حتى يستقر فيه . وكان من غزو الأسطول ما قد شحنت به كتب التواريخ، فكانت الحرب بين المسلمين والروم سجالات، ينال المسلمون من العدو وينال العدو منهم، ويأسر بعضهم بعضا لكثرة هجوم أساطيل الاسلام بلاد العدو، فإنها كانت تسير من مصر ومن الشام ومن افريقية.»

ويظهر من هذا النص الحقائق الآتية :

أولا : أن المسلمين لم يهتموا فقط بصناعة السفن، وانما أدركوا أهمية خلق كوادر بحرية مدرية تدريبا جيدا. لذلك انكب الناس على تعليم أولادهم جميع أنواع فنون القتال البحرى، بعدما كان الاختيار- على ما يبدو - يتم بطريقة عشوائية، لذلك يقول المقرئى : « وكان لا ينزل فى رجال الأسطول غشيم ولا جاهل بأمور الحرب ».

كما بدأوا فى اختيار القواد المؤهلين لهذا النوع من القتال عن طريق الانتخاب، وبالتالي اختيار الأفضل.

ثانيا : يظهر أيضا من عبارة المقرئى التى أوردها من أنه « قد حصلت الأرزاق لغزاة البحر كما هى لغزاة البر » ، أنه أصبح لمصر فى العصر العباسى فى القرن الثالث الهجرى جيش بحرى ثابت، له رواتب مثل الجيش البرى.

ثالثا : يظهر أيضا من النص تغير نظرة المجتمع العربى لوظيفة البحارة،

فأصبح لهذه الوظيفة مكانة كبيرة، أو كما يقول المقرئى «حرمة» ، وبدأ الناس يتمنون ويسعون للاشتغال بها، فقد أصبحت الخدمة فى الأسطول شرفا عظيما يتمناه كل امرئ فى مصر.

رابعا : وأخيرا يظهر من النص تغير سياسة العرب البحرية من سياسة دفاعية تستهدف تأمين الفتوحات العربية الى سياسة هجومية ساعدهم عليها وجود أسطول ضخم فى كل من مصر والشام وإفريقية.

الأسطول فى الدولتين الطولونية والاختشيدية :

ذكرت سابقا أن قوة الجيش و الأسطول فى مصر ظهرت مع وجود دولتين تريدان الاستقلال عن الخلافة، وهما الدولة الطولونية والدولة الاختشيدية، وقد تناولت بالدراسة الجيش فى كل منهما، ورأينا كيف أن قوة الجيش كان عاملا هاما فى المحافظة على استقلالهما عن الخلافة، وأن حدوث اضطرابات فى جيش كل منهما كان عاملا هاما أيضا فى سقوطهما بعد ذلك .

وستتناول فى الصفحات القادمة اهتمام كل من الدولتين بالأسطول أيضا، باعتباره مكملا للجيش، وهما وجوده فى دولة كمصر تقع مباشرة على البحر، وبالتالي معرضة للغزو البحرى .

الأسطول فى الدولة الطولونية :

اهتم أحمد بن طولون بالأسطول اهتماما كبيرا، وزاد اهتمامه به بعد توسعه فى بلاد الشام واضطراره إلى حماية شواطئه ومواجهة الهجوم البيزنطى، ثم المحافظة على طرق الاتصال البحرى بين سواحل مصر والشام.

وترى الدكتورة سيدة كاشف « أن المحافظة على البحرية المصرية، أو انشاء أسطول مصرى فى زمن أحمد بن طولون، كان استمرارا لتاريخ مصر الحربى المجيد، ولم يكن من الأمور الشاقة أو الصعبة مثل انشاء جيش قائم فى مصر حينذاك..»

وقد بنى أحمد بن طولون أسطولا ضخما يتكون - كما يقول البلوى - من «مائة مركب عربية كبارا، ومائة مركب حربية، سوى ما يضاف إليها من العلابيات (١)، والحمائم (٢)، والعشاريات (٣) والسناديل (٤) وقوارب الخدمة» (٥).

وقد اهتم أحمد بن طولون بصناعة الأسطول فى مصر اهتماما كبيرا، فنجده يطلب من عامله الاهتمام بجودة صناعة السفن والاتفاق عليها، فيقول أبو كامل شجاع بن أسلم الحاجب (٦): «لما أطلقنى أحمد بن طولون، ألزمنى دار «الصناعة»، فدعانى يوما فقال لى: كل ما تعمل لى من العدة يكتفى فيه بالقليل مع تقدم هيبتى فى صدور الناس، إلا المراكب فان البحر لا يهابنى، ولا يخاف سورتى، وليس يعمل فى البحر إلا الوثاقة، والجودة فى الصناعة، وتقدير الاحسان. فقدم الحزم فى الاحتياط، والاستزادة فى الانفاق على المراكب، لتسلم بعون الله عز وجل وتوفيقه من معرة البحر».

(١) العلابيات: نوع من السفن كانت تصنع خصيصا للحرب، فهى من سفن الأسطول ومفريدها العلابى.

(٢) الحمائم: نوع من السفن الشراعية ذات مجاديف متعددة.

(٣) العشاريات: نوع من السفن، يستعمل فى البحر الأبيض المتوسط وفى البحر الأحمر، ويجر بعشرين مجدافا، وكان بعضها يستخدم فى وقت السلم لتقل البضائع والرجال، وكان النوع الذى يستخدم فى الحرب، يعتبر من أهم قطع الأسطول الحربى.

(٤) السناديل أو الصناديل جمع صندل، وهى القوارب المستخدمة للشحن، وكانت من القطع الحربية الصغيرة الملحقة بالأسطول.

(٥) قوارب الخدمة: هى تلك السفن الصغيرة التى تعتبر ترابح للأسطول، وقد استخدمت منذ أقدم العصور، وجاء ذكرها فى كتاب عمرو بن العاص الذى وصف فيه مصر للخليفة عمر بن الخطاب، كما جاء ذكرها فى قوانين الدواوين، حيث كان عمال الديوان يتنقلون بها بين أقاليم مصر لجمع الخراج.

(٦) عينه ابن طولون رئيسا لدار الصناعة التى كانت تصنع السفن، ويبدو أنه كان قد سجنه قبل ذلك.

ولقد كان إنشاء المراكب الحربية فى زمن الدولة الطولونية فى « صناعة الجزيرة » .

الأسطول فى الدولة الاخشيدية :

واستمر أيضا اهتمام محمد بن طغج بالأسطول ، خاصة وأن الجيش والأسطول كان عدة الاخشيد فى دخول مصر ، والاستقلال بها عن الخلافة أو عن المعارضين لامارته .

وقد عمل بن طغج على نقل دار صناعة السفن، وذلك منذ عام ٣٢٥ هـ / ٩٣٦ م ، من جزيرة الروضة إلى دار خديجة بنت الفتح بن خاقان زوجة أحمد بن طولون بساحل الفسطاط ، وأصبح يطلق على دار خديجة اسم «الصناعة الكبرى» ، إلا أن نقل دار الصناعة من جزيرة الروضة لم يقض على الصناعة بها ، فاستمرت بها حتى عهد الحاكم بالله فيقول المقرئى : « وكانت مراكب الأسطول مع ذلك تنشأ فى الجزيرة وفى صناعتها إلى أيام الخليفة الأمر بأحكام الله » . ويذكر المقرئى أن السبب الذى دفع الاخشيد إلى نقل دار الصناعة هو أنه بعد دخوله مصر ثار عليه . بعض الثوار ، واشتبكوا مع جيوشه وأسطوله ، واستطاع هؤلاء قتل « صاعد » قائد أسطول الاخشيد ، كما أنهم أحرقوا كل مافى جزيرة الروضة من السفن ، ووقف ابن طغج تجاههم بجيشه ، إلا أنه لم يستطع القيام بأى عمل حاسم ، فالنيل بينهم وبينه ، فكره ذلك وقال : « صناعة يحول بينها وبين صاحبها الماء ليست بشئ » .

الفصل الثالث :

المجتمع المصرى والنظام القضائى

. أنواع المحاكم :

. المحاكم العادية .

. محاكم النظر فى المظالم .

. محاكم أهل الذمة .

. قضاء الجند .

. الشهود .

. أماكن انعقاد المحاكم .

. إنشاء سجل للقضايا .

. رواتب القضاة .

. نظام السجون .

. نشأة نظام السجون فى الدولة الإسلامية وتطوره .

. السجون فى الدولة الطولونية واشهر مسجون بها .

. السجون فى الدولة الاخشيدية واشهر مسجون بها .

الفصل الثالث

المجتمع المصرى والنظام القضائى

كان من الطبيعى أن يتغير النظام القضائى فى مصر بعد الفتح العربى، وفقا لعقيدة الفاتحين الجدد ، وهى العقيدة الإسلامية ، فالعقيدة الإسلامية ليست عقيدة للعبادة فقط ، بل كانت عقيدة للحكم أيضا . ومن هنا كان من الطبيعى أن يحل نظام قضائى إسلامى جديد محل النظام القضائى البيزنطى الذى بنى على اصلاحات جستنيان .

وقد رأينا فيما سبق (الفصل التمهيدى) كيف كان النظام القضائى البيزنطى يقوم على أربعة أنواع من المحاكم :

النوع الأول : وهو المحاكم العادية .

النوع الثانى : وهو محكمة الامبراطور .

النوع الثالث : وهو القضاء الكنسى أو المحاكم الكنسية .

النوع الرابع : وهو المحاكم العسكرية .

وعندما فتح العرب مصر أبقوا على هذه الأنواع الأربعة مع تغيير فى التسميات من جانب ، وتغيير فى الوظيفة من جانب آخر . فكانت هناك أربعة أنواع من المحاكم هى :

النوع الأول : المحاكم العادية .

النوع الثانى : محكمة الخليفة أو كما تسميه المصادر العربية النظر فى المظالم (وتقابل محكمة الامبراطور) .

النوع الثالث : محاكم أهل الذمة (ويقابل القضاء الكنسى أو المحاكم الكنسية) .

النوع الرابع : قضاء الجند (ويقابل المحاكم العسكرية) .

أولا : المحاكم العادية :

وكان يقضى بها قضاة يحكمون وفقا للشريعة الإسلامية ، وهذه المحاكم كانت تخدم الفاتحين من العرب ، أو الذين يسلمون من أهل البلاد ، وأحيانا لأهل الذمة كما سنرى فيما بعد .

فكيف كان يتم اختيار القاضى ؟ وما هى الشروط التى يجب توافرها فيه ؟ ومن الذى تقع عليه سلطة اختيار القاضى ؟ وأخيرا ما هى سلطة هذا القاضى المكفولة إليه ؟ .

فى البداية نقول إن أول قاض فى الإسلام هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن للمسلمين فى عهده قاض سواه ، وكان الفصل فى الخصومات بين الناس يقوم على أساس أحكام القرآن ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يحكم بين الناس بما ينزله الله عليه من القرآن ، وبما يراه مما لا يتعرض مع القرآن الكريم ، وكان المتخاصمون يحضرون إليه ، فيسمع كلام كل فريق .

أما طرق الإثبات عندهم - كما يقول الدكتور عطية مصطفى مشرفة - فأهمها : علم القيافة بنوعية (معرفة الشبيه وتمييز الأثر) ، ويسمى صاحب تلك المعرفة قائفا والجمع القافة . والفراسة ، إذ كان العرب فى جاهليتهم يتفرسون فى كلام المتكلم ، لمعرفة مبلغه من الصحة أو الكذب ، وذلك

بملاحظة نبرات صوته وملامحه وحركاته عند التكلم . والقسامة ، فإذا وجد قتيل في مكان ، ولم يعرف قاتله ، حلف خمسون رجلا من أهل هذا المكان - يختارهم ولى الدم - بالله أنهم ماقتلوه ولا علموا له من قاتل ، ثم يقرمون الدية . والقرعة ، فقد كان العرب في جاهليتهم يحكمون بها ، كما كانوا يعتمدون في اثبات الواقعة على شهادة الشهود ، وإلى غير ذلك من طرق الإثبات .

ولما انتشرت الدعوة الإسلامية ، أذن الرسول لبعض الصحابة بفض الخصومات بين الناس ، كما سمح للولاة الذين أرسلهم إلى الأمصار بالقضاء أيضا طبقا للكتاب والسنة والقياس والاجتهاد .

وقد ظل القضاء جزءا من الولاية حتى زمن عمر بن الخطاب . ومع اتساع الدولة أصبح من العسير على الخليفة أن يجمع بين النظر في الأمور العامة والفصل في الخصومات ، ففصل عمر القضاء عن الولاية ، وعهد به إلى أشخاص يتفرغون لها ، سموها « قضاة » . وبذلك كان عمر أول من عين القضاة في الولايات الإسلامية ، فولى أبا الدرداء (١) معه بالمدينة ، وولى شريحا بالبصرة (٢) ، وولى أبا موسى الأشعري بالكوفة .

وقد سن عمر بن الخطاب لهؤلاء القضاة دستورا يسيرون على هدية في الأحكام ، يعتبر أساسا للقضاء في الإسلام ، باعتباره قاعدة الفقه الإسلامي ، وعليه تدور أكثر أحكام القضاة إلى اليوم . وقد بعث عمر بهذا الدستور إلى أبي موسى الأشعري ، وغيره من القضاة ، وهذا نصه :

« أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة ، فإفهم إذا أئلى إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لاتفاد له . أس في الناس بين وجهك وعدلك

(١) وهو عويمر بن عامر - ويقال : ابن مالك - الانتصاري الخزرجي . أسلم يوم بدر ، وشهد أحدا ، وقد الحقه عمر بن الخطاب بالبصريين في العطاء . وشهد فتح مصر ولهم عنه خمسة أحاديث . مات سنة ٣٢٢هـ / ٦٥٢ م .

(٢) وهو أبو أمية شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم ، كان من كبار التابعين وقد أقام قاضيا ٧٥ سنة لم يتعطل فيها الا ثلاث سنين ، امتنع فيها عن القضاء في فتنة ابن الزبير ، توفي عام ٨٧هـ / ٧٠٥ م وقيل ٨٢هـ / ٧٠١ م ، وقيل ٨٠هـ / ٦٩٩ م وقيل ٧٩هـ / ٦٩٨ م ، وقيل ٧٦هـ / ٦٩٥ م .

ومجلسك ، حتى لا يطمع شريف فى حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك .
 البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر . والصلح جائز بين المسلمين ،
 إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا . ولا يمنعك قضاء قضيته اليوم ،
 فراجعت فيه اليوم عقلك ، وهديت فيه لرشدك ، أن ترجع إلى الحق ، فإن
 الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التماذى فى الباطل . الفهم الفهم فيما
 تلجج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا فى سنة. ثم اعرف الأشباه
 والأمثال، فقس الأمور عند ذلك و اعمد الى أقربها الى الله، وأشبهها بالحق،
 واجعل لمن ادعى حقا غائبا أو بينة أمدا ينتهى اليه، فإن أحضر بينته أخذت
 له بحقه، وإلا استحللت عليه القضية، فانه أنفى للشك وأجلى للعمى.
 المسلمون عدول لبعضهم على بعض، الا مجلودا فى حد أو مجريا عليه
 شهادة زور، أو ظنينا فى ولاء أو نسب، فان الله تولى منكم السرائر، وبرا
 (عنكم) بالبينات والايمان، وإياك والقلق والضجر والتأذى بالخصوم، والتنكر
 عند الخصومات، فان الحق فى مواطن الحق، يعظم الله به الأجر (الآخر)
 ويحسن به الذخر (الذكر)، فمن صحت نيته، وأقبل على نفسه، كفاه الله ما
 بينه وبين الناس، ومن تخلق (تزين) للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه،
 شانه الله فما ظنك بثواب غير الله عز وجل فى عاجل رزقه وخزائن رحمته.
 والسلام».

شروط اختيار القضاة:

وقبل الحديث عن تعيين القضاة، يجب الإشارة الى الشروط التى يجب
 توافرها فى الشخص لاختياره قاضيا، فيقول الماوردى: لا يجوز أن يقلد
 القضاء إلا من تكاملت فيه شروطه التى يصح معها تقليده، وينفذ بها حكمه،
 وهى سبعة:

الشرط الأول : أن يكون رجلا، وهذا الشرط يجمع صفتين: البلوغ
 والذكورية.

الشرط الثانى : أن يكون صحيح التمييز، جيد الفطنة، بعيدا عن
 السهو والغفلة، يتوصل بذكائه الى إيضاح ما أشكل وفصل ما أعضل .

الشرط الثالث : أن يكون حرا، فلا يكون عبدا.

الشرط الرابع : أن يكون مسلما.

الشرط الخامس : العدالة بمعنى أن يكون صادق اللهجة، ظاهر الأمانة، عفيفا عن المحارم، متوقيا المآثم، بعيدا عن الريب، مأمونا فى الرضا والغضب، مستعملا لمروءة مثله فى دينه ودنياه.

الشرط السادس : السلامة فى السمع والبصر ليصح بهما اثبات الحقوق، ويفرق بين الطالب والمطلوب.

الشرط السابع : أن يكون عالما بالأحكام الشرعية، وعلمه بها يشتمل على علم أصولها، ومعرفة فروعها.

كما قال عمر بن عبد العزيز عن اختيار القاضى: «لا ينبغي للرجل أن يكون قاضيا حتى تكون فيه خمس خصال : يكون عالما قبل أن يستعمل، مستشيرا لأهل العلم، ملقيا للرئع^(١)، منصفًا لخصم محتملا للأئمة» .

وكان القضاة ينتخبون - عادة - من بين أعلام الفقهاء، وأتقيائهم، وذوى النزاهة منهم. وكان عمر بن الخطاب يختبر المرشحين للقضاء فى فطنتهم، وحذقهم فى تفهم الأقضية، ومقدرتهم على الفصل فيها، وذلك قبل تعيينهم. وإن يذكر ابن عبد الحكم أن مروان بن الحكم أقر القاضى عابس بن سعيد - الذى تولى قضاء مصر من قبل مسلمة بن مخلد (٦٠ - ٦٨هـ/ ٦٧٩ - ٦٨٧م) - بعد ما عمل له ما يشبه الاختبار ليتيقن صلاحيته لمنصبه. فعندما دخل الخليفة مروان بن الحكم مصر عام (٦٥هـ/ ٦٨٤م) قال : أين قاضيك؟ فدعى له عابس بن سعيد، وكان أميا لا يكتب . فقال له مروان بن الحكم: أجمعت كتاب الله؟ قال : لا . قال : أفأحكمت الفرائض؟^(٢) قال : لا ! قال : فتكتب بيديك؟ قال : لا . قال : فبم تقضى؟ قال: أقضى بما علمت، وأسأل عما جهلت. فقال : أنت القاضى !

(١) الرئع: الحرص والطمع، جمع رعون.

(٢) علم الفرائض: علم تعرف به كيفية قسمة التركة على مستحقيها. وأصحاب الفرائض هم الورثة الذين لهم سهام مقدرة.

طريقة تعيين القضاة:

أما تعيين القضاة، فقد ذكرت سابقا أن القضاء كان من الأمور الخاصة بالخلافة، لذلك كان الخليفة هو الذى يعين القضاة.

وعندما فتح العرب مصر، كتب عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص بتولية قيس بن أبى العاص القضاء، فولى القضاء عام ٢٢هـ/٦٤٣م ثم مات بعد ثلاثة شهور من توليته، وبعد موته كتب اليه أن يستقضى كعبا بن يسار، وكان ممن قضى فى الجاهلية. فأبى، وقال: «قضيت فى الجاهلية ولا أعود اليه فى الاسلام»، فولى عمرو بن العاص عثمان بن قيس بن أبى العاص على القضاء بأذن عمر بن الخطاب.

ولكن بعض القضاة كان يعينهم الولاة بتفويض من الخليفة، فنرى والى مصر عبد العزيز بن مروان (٦٥ - ٨٦هـ/٦٨٤ - ٧٠٥م) يولى القضاء عبد الرحمن بن حبيزة (٦٩ - ٨٣هـ/٦٨٨ - ٧٠٢م)، كما ولى ايضا يونس بن عطية (٨٤ - ٨٦هـ/٧٠٣ - ٧٠٥م)، كما ولى عبد الرحمن بن معاوية بن حديج (٨٦هـ/٧٠٥م).

كما كتب هشام بن عبد الملك الى الوليد بن رفاعه بصرف القاضى يحيى بن ميمون (١٠٥ - ١١٤هـ/٧٢٣ - ٧٣٢م)، وأن يعين من قبله من يصلح لهذه الوظيفة، وقال له: «اصرف يحيى عما يتولاه من القضاء مذموما مدحورا»^(١)، وتخير لقضاء جندك رجلا عفيفا ورعا تقيا سليما من العيوب، لا تأخذه فى الله لومة لائم.

وأحيانا كان والى يولى القاضى ويقره الخليفة على ذلك، فنرى والى مصر داود بن يزيد بن حاتم المهلبى (١٧٤ - ١٧٥هـ/٧٩٠ - ٧٩١م) يولى الفضل بن فضالة عام ١٧٤هـ/٧٩٠م، ثم يرد كتاب الخليفة بأقراره فى السنة نفسها.

وهكذا كان الخليفة هو الذى يقوم بتعيين القضاة فى الأمصار ، أو يُقر

هذا التعيين.

(١) مدحورا: مطرودا.

على أنه ظهر منذ عهد هارون الرشيد ما يعرف بنظام «قاضى القضاة»، وهو بمثابة وزير العدل اليوم، وكان يقيم فى حاضرة الدولة، ويولى من قبله قضاة ينوبون عنه فى الأقاليم والأمصار. وأول من لقب بهذا اللقب القاضى أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم صاحب كتاب الخراج، وكان يطوف على القضاة ويتفقد أحوالهم وسيرهم.

ويعتبر أبو يوسف من أشهر تلامذة الامام أبو حنيفة، وقد ظل قاضيا للقضاة فى عهد المهدي وابنيه وتوفى ٧٩٨م. وهكذا صار قاضى القضاة منذ ذلك الوقت هو الذى يعين نوابه فى الولايات.

وقد امتنع كثير من الفقهاء عن تولى القضاء، خوفا من تحمل التبعة فيما قد يخطئ به القاضى، فيحكم على صاحب الحق فيظلمه وهو مسئول عنه.

ويذكر آدم متز أن امتناع الناس عن تولى القضاء استمر حتى القرن الرابع الهجرى. فيقول السمرقندى المتوفى عام ٣٧٥هـ/٩٨٥م: اختلف الناس فى قبول القضاء، قال بعضهم: لا ينبغي أن يقبل القضاء، وقال بعضهم: اذا ولى رجل بغير طلب منه، فلا بأس بأن يقبل اذا كان يصلح لذلك الامر. وقد احتج من كره ذلك بأحاديث رويت عن النبى (ص) من شأنها أن تُرهب القضاة حتى العادل منهم، ومن هذه الأحاديث: عن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «يجاء بالقاضى العدل يوم القيامة، فيلقى من شدة الحساب ما يود أن لم يكن قضى بين اثنين». وعن أبى هريرة «من جعل قاضيا فكأنما ذبح بغير سكين».

وكان أول من رفض تولى القضاء فى مصر كعب بن يسار بن ضنة - كما ذكرت سابقا - وقال : «والله لا ينجيهِ الله من أمر الجاهلية، وما كان فيها من الهلكة، ثم يعود فيها أبدا إذ أنجاه الله منها»!

ويقول الكندي فى كتابه: إنه لما ولى عبد العزيز بن مروان عبد الرحمن ابن حجية القصص، خبر أبوه بذلك، وكان بالشام، فقال: «الحمد لله نكر ابنى وذكر»^(١)، فلما ولاه القضاء (٦٩ - ٨٣هـ / ٦٨٨ - ٧٠٢م) أخبر أبوه بذلك فقال: «هلك ابنى وأهلك»!

ومن الذين رفضوا تولى القضاء أيضا حيوة بن شريح، وكان من ضمن الذين رشحوا لتولى القضاء فى ولاية يزيد بن حاتم (١٤٤ - ١٥٢هـ / ٧٦١ - ٧٦٩م). ويقول ابن عبد الحكم إنه عندما رفض «دعى له بالسيف والنطع»^(٢)، فلما رأى ذلك حيوة أخرج مفتاحا كان معه فقال: هذا مفتاح بيتي، ولقد اشتقت الى لقاء ربي! فلما رأوا عزمه تركوه.

فعرض على أبى خزيمة ابراهيم بن يزيد الحميرى القضاء، فامتنع، فدعى له بالسيف والنطع، « فضعف قلب الشيخ ولم يحتمل ذلك » وقبل تولى القضاء (١٤٤-١٥٤هـ / ٧٦١-٧٧٠م).

ويبدو لنا من ذلك أن رفض تولى القضاء كان يعد خطرا على صاحبه، باعتباره رفض أمر!

ومنهم أيضا لهيعة بن عيسى الذى تولى القضاء من قبل عباد بن محمد عام (١٩٦ - ١٩٨هـ / ٨١١ - ٨١٣م). يقول الكندي . إنه عندما طلب لهيعة بن عيسى للقضاء تغيب، فسمع وهو يقول: « يا رب يقدم عليك أخوانى غدا علماء حلماء فقهاء، وأقدم عليك قاضيا، لا يارب ولو قرضت بالمقاريض»^(٣).

ومنهم أيضا على بن معبد بن شداد العبدى الذى طلب منه الخليفة المأمون، عندما قدم مصر فى عام ٢١٧هـ / ٨٣٢م - تولى القضاء، غير أنه رفض. وذكر الكندي على لسان على بن معبد بن شداد أنه قال: « انصرفت من عند المأمون، وقد أبييت عليه الدخول فيما عرضه على من تولية القضاء

(١) نكر: سبى الله ومجده. ذكر الشيء بالشيء. جعله يذكره

(٢) النطع والنطع جمع أنطاع ونطوع. وهو بساط من الجلد يفرش تحت المحكم عليه بالعذاب أو بقطع الرأس.

(٣) المقرض جمع مقاريض. وهو ما يقرض به الثوب أى يقطع ويقصد به المقص.

بمصر ، وفرشت حصيرا وقعدت على بابي ، وقلت : أقرب ممن عسى أن يأتيني يعزيني على ما نالني .

ومنهم أيضا الحارث بن مسكين الذي تولى القضاء من قبل الخليفة المتوكل عام (٢٣٧ - ٢٤٥هـ / ٨٥١ - ٨٥٩م). يقول الكندي عن رد فعل الحارث عندما علم بتولييه القضاء: «أناه كتاب القضاء وهو بالاسكندرية، ففرض الكتاب، فلما قرأه امتنع من الولاية، فجبره على قبولها اخوانه، وقالوا: نحن نقوم بين يديك. فقدم القسطاط وجلس للحكم».

أما عن استقلال السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية، فتذكر الدكتورة سيدة كاشف أن القضاة في مصر كانوا أكثر استقلالاً في مناصبهم من الولاة، وهو أمر كان يستدعيه حسن سير العدالة. ففي كثير من الأحيان كان القاضي يشغل منصبه في عهود ولاة مختلفين أو في عهود خلفاء مختلفين، وكثيرا مامات القضاة في مصر وهم في مناصبهم. فنجد القاضي سليم بن عتر التجيبي يتولى القضاء عشرين سنة (٤٠ - ٦٠هـ / ٦٦٠ - ٦٧٩م)، بينما يتعاقب في مصر في عهده أربعة ولاة هم : عمرو بن العاص، وعتبة بن أبي سفيان، وعقبة بن عامر الجهني، ومسلمة بن مخلد. ونرى عبد الرحمن بن حجية الأكبر يلى القضاء أربعة عشر عاما، ويظل يشغل هذا المنصب حتى موته (٦٩ - ٨٣هـ / ٦٨٨ - ٧٠٢م) في ولاية عبد العزيز بن مروان. ونجد القاضي عياض بن عبيد الله الأزدي يلى القضاء في مصر نيابة عن خليفتي متواليين هما سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩هـ / ٧١٤ - ٧١٧م)، وعمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١هـ / ٧١٧ - ٧١٩م). ويلي عبد الله بن لهيعة الحضرمي القضاء مدة تسع سنين (١٥٥ - ١٦٤هـ / ٧٧١ - ٧٨٠م) نيابة عن الخليفة أبي جعفر المنصور، ثم المهدي، بينما يلى مصر في هذه المدة سبعة ولاة.

وكان تعيين القضاة يتم بمراسيم معينة، فتذكر المصادر العربية أن القاضي إذا ولى ، كان لابد له أن يبدأ بالمرور بدار أمير مصر، ويذهب الجميع الى الجامع، وكان في ذهابه الى الجامع يركب وهو يلبس السواد، وهو اللباس الرسمي للوظيفة، وأحيانا يكون بين يديه أصحاب الشرطة.

ويقال إنه كان يركب الى الجامع بالسواد ومعه القضاة والشهود والأمناء والأشراف ووجوه البلد، كما فى حالة القاضى عمر بن الحسن الذى تولى القضاء عام (٣٣٦ - ٣٩٩هـ/٩٤٧ - ٩٥٠م).

وفى الجامع يحتفلون بقراءة الأمر الصادر له بذلك.

وكان القاضى الجديد يتسلم أوراق القضايا من القاضى السابق، ويختتم عليها بختمه ويكسر ختم من سبقه، ولكنه كان يعهد أحيانا الى أحد الثقة ليتسلم له من القاضى السابق.

كما تذكر المصادر العربية أن القاضى كان عندما يتسلم منصبه، لا يمشى إلا وبين يديه الرجال والحجاب وسلة القضاء.

سلطات القاضى :

كان عمل القاضى فى صدر الاسلام محصورا فى الفصل بين الخصوم، ثم أضيفت اليه - كما يقول ابن خلدون - سلطات أخرى، مثل: استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين، بالنظر فى أمر المحجور عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين وأهل السفه، وفى وصايا المسلمين وأوقافهم، وتزويج الأيتام عند فقد الأولياء على رأى من رآه، والنظر فى مصالح الطرقات والأبنية .

وكثيرا ما أسند الى القاضى قيادة الجهاد فى عساكر الصوائف. ومن القضاة الذين كانوا يخرجون مع الصائفة، القاضى غوث بن سليمان الحضرمى، الذى تولى قضاء مصر من قبل أبى عون عبد الملك بن يزيد (١٣٥ - ١٤٠هـ/٧٥٢ - ٧٥٧م).

بل كثيرا ما أضيفت الى القضاة ولاية الشرطة والمظالم. ومن القضاة الذين تولوا الشرطة مع وظيفتهم: عابس بن سعيد، الذى تولى القضاء من قبل مسلمة بن مخلد (٦٠ - ٦٨هـ/٦٧٩ - ٦٨٧م)، وأقره مروان بن الحكم عندما جاء الى مصر، وقد جمع له القضاء والشرطة وهو أول من جمعها له - كما يقول الكندى. ومنهم أيضا يونس بن عطية الذى تولى القضاء من قبل عبد العزيز بن مروان (٨٤ - ٨٦هـ/٧٠٣ - ٧٠٥م). ومنهم عبد الرحمن بن

معاوية بن حديج الذى تولى القضاء من قبل عمر بن عبد العزيز بن مروان (٨٦هـ/٧٠٥م). ومنهم عمران بن عبد الرحمن الذى تولى القضاء من قبل عبدالله بن عبد الملك بن مروان (٨٦ - ٨٩هـ/٧٠٥ - ٧٠٧م).

كذلك شملت سلطة القاضى ولاية القصص، أى الاشراف على الوعظ والارشاد الدينى وتوجيه الناس وجهة صحيحة.

وكان أول من قص بمصر سليم بن عتر التجيبى عام (٣٩هـ/٦٥٩م)، وقد ولاه معاوية القضاء عام (٤٠هـ/٦٦٠م) فجمع بين القضاء والقصص. ومن القضاة الذين جمعوا مع وظيفتهم ولاية القصص عبد الرحمن بن حجية (٦٩هـ/٨٣ - ٦٨٨هـ/٧٠٢م). وقد تولى القضاء من قبل عبد العزيز بن مروان، وكان على القضاء والقصص وبيت المال. ومنهم أيضا ابراهيم بن اسحاق الذى تولى القضاء من قبل السرى بن الحكم (٢٠٤ - ٢٠٥هـ/٨١٩ - ٨٢٠م)، فجمع له القضاء والقصص.

كذلك وجد قضاة تولوا إلى جانب وظيفتهم بيت المال والأحباس . ومن هؤلاء القضاة : القاضى عبد الله بن عبد الرحمن بن حجية الذى تولى القضاء فى ولايته الثانية من قبل عبد الملك بن رفاعه (٩٧ - ٩٨ هـ / ٧١٥ - ٧١٦ م) ، فقد جمع له القضاء وبيت المال . ومنهم محمد بن عبدة الذى تولى القضاء من قبل خمارويه بن أحمد بن طولون (٢٧٧ - ٢٨٣ هـ / ٨٩٠ - ٨٩٦ م) ، فقد جمع مع القضاء النظر فى المظالم والموارث والأحباس والحسبة . وعندما تولى القضاء أيضا من قبل محمد بن سليمان (٢٩٢ هـ / ٩٠٤ م) ، ولاه مع القضاء المظالم .

وكان أول قاض بمصر وضع يده على الأحباس هو توبة بن نمر (١١٥ - ١٢٠ هـ / ٧٣٣ - ٧٣٧) فى زمن هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ / ٧٢٣ - ٧٤٢ م) ، فيقول الكندى : « وإنما كانت الأحباس فى أيدي أهلها وفى أيدي أوصيائهم ، فلما كان توبة قال : ما أرى مرجع هذه الصدقات إلا إلى الفقراء والمساكين ، فأرى أن أضع يدي عليها حفظا من التواء ^(١) والتوارث ، فلم يمت توبة حتى صارت الأحباس ديوانا عظيما » .

(١) هكذا فى الأصل ، وصحتها التوى أو الإتياء بمعنى الضياع أو الهلاك .

ومن السلطات التي أضيفت إلى القاضى خروجه لرؤية هلال شهر رمضان مع الشهود ، وقد أضيفت هذه السلطة إلى سلطة القاضى فى ولاية عبد الله بن لهيعة على القضاء (١٥٥ - ١٦٤ هـ / ٧٧١ - ٧٨٠ م) من قبل الخليفة أبى جعفر المنصور . وكان سبب ذلك كما يقول الكندى : إن الناس طلبوا هلال شهر رمضان ، وابن لهيعة على القضاء . فلم ير ، وأتى رجلان فزعا أنهما قد رأياه ، فبعث بهما الأمير موسى بن على بن رباح (١٥٦ - ١٦١ هـ / ٧٧٢ - ٧٧٧ م) إلى ابن لهيعة يسأله عن عدالتهم ، فلم يعرفا . واختلف الناس وشكوا . فلما كان فى العام التالى ، خرج عبد الله بن لهيعة فى نفر من أهل المسجد عرفوا بالصلاح ، فطلبوا الهلال ، فكانوا يطلبونه بالجيزة ، فهو أول القضاة حضر فى طلب الهلال . وفى ولاية هاشم بن أبى بكر البكرى على القضاء (١٩٤ - ١٩٦ هـ / ٨٠٩ - ٨١١ م) من قبل محمد الأمين - تعدوا الجسر ، وطلب الهلال فى جنان ابن أبى حبشى . وظل القضاء على ذلك حتى كان ابن أبى الليث على القضاء (٢٢٦ - ٢٣٠ هـ / ٨٤٠ - ٨٤٤ م) من قبل المعتصم ، فطلبه فى أصل المقطم .

وهناك من القضاة من تعدت سلطته مصر إلى بلاد أخرى ، ومن هؤلاء: أبو زرعة محمد بن عثمان الذى تولى القضاء من قبل هارون بن خمارويه ، فقد جمع له قضاء مصر وفلسطين والأردن ودمشق . وفى ملحق القضاة للكندى أنه ضم إليه أيضا حمص ^(١) وقنسرين ^(٢) ، والعواصم ^(٣) . ومنهم الحسين بن أبى زرعة الذى تولى القضاء عام (٣٢٤ - ٣٢٧ هـ / ٩٣٥ - ٩٣٨ م) ، فقد جمع له قضاء مصر والاسكندرية والشام وحمص وفلسطين

(١) حمص - بالكسر ثم السكون ، والصاد المهملة . وهى مدينة بالشام بين دمشق وحلب ، وقد افتتحها أبو عبيدة بن الجراح صلحا عام ١٤ هـ فى خلافة عمر بن الخطاب .

(٢) قنسرين : بكسر أوله ، وفتح ثانيه وتشديده وقد كسره قومه ثم سين مهمة . وهى بالشام . وقد فتحت عام ١٧ هـ على يد أبى عبيدة بن الجراح

(٣) العواصم . جمع عاصم ، وهو المانع كورة من كور الشام والعواصم - حصون موانع ، وولاية تحيط بها بين حلب وأنطاكية ، كان قد بناها قومه واعتصموا بها من الأعداء ، واكثرها فى الجبال فسميت بذلك

والرملة (١) ، وطبرية (٢) وأعمال ذلك ، كما أنه نظر فى المواريث والأحباس ودار الضرب .

ومنهم عمر بن الحسن الهاشمى (٣٣٦ - ٣٣٩ هـ / ٩٤٧ - ٩٥٠ م) ، فقد ولى قضاء مصر وأضيف إليه قضاء الاسكندرية والرملة وطبرية وأعمالها . ويفهم من ذلك أن قضاء الاسكندرية كان مستقلا عن قضاء مصر . ومنهم عبد الله بن محمد بن الخصيب (٣٣٩ - ٣٤٨ هـ / ٩٥٠ - ٩٥٩ م) ، فقد أضيف إليه قضاء دمشق والرملة وطبرية .

ويجدر الاشارة الى أن كثيرا من القضاة جمعوا بين وظيفتهم والعمل بالتجارة، اذا كانت التجارة مهنتهم الأولى، فكانوا يتجرون فيها بعد توليتهم للقضاء، ومن هؤلاء :

خير بن نعيم الذى تولى قضاء مصر من قبل حنظلة بن صفوان (١٢٠ - ١٢٧ هـ / ٧٣٧ - ٧٤٤ م) فقد كان تاجرا للزيت

ومنهم أيضا القاضى أبو خزيمة ابراهيم بن يزيد الرعينى من قبل يزيد ابن حاتم (١٤٤ - ١٥٤ هـ / ٧٦١ - ٧٧٠ م) ، فقد جمع بين القضاء وعمل الأرسان (٣) على اعتبار أنها كانت وظيفته الأولى قبل تولى القضاء . وفى ذلك يقول الكندى : «إن أبا خزيمة كان يعمل الأرسان، وكان يعمل كل يوم رسنين، واحد ينفقه على نفسه وأهله، وآخر يبعث به أنسى اخوان له من أهل الاسكندرية، لكل واحد منهم رسن لنفسه. فلما ولى القضاء كتب اليه أهل الاسكندرية : انا لله وأن اليه راجعون، وإن كانت الدنيا يا أبا خزيمة مالت بك أن تقطع ما كان الله يجريه على يديك فى سبيل الله. فقال: معاذ الله، فكان يعملها ، ويبعث بها اليهم».

(١) الرملة : مدينة عظيمة بفلسطين ، سميت بالرملة لغلبة الرمل عليها .

(٢) طبرية: اسم أعجمى، وطبر فى العربية بمعنى قفز واختنا. وهى بليدة مطلة على البحيرة المعروفة بحيرة طبرية، وهى فى طرف جبل، وجبل الطور مطل عليها، وهى من أعمال الأرض. وفتحت عام ١٣ هـ صلحا على يد شرحبيل بن حسنة

(٣) الرسن: جمع أرسان وأرسن . هو الحبل المعروف للدابة

ويقول ابن عبد الحكم: «مر به رجل من أهل الاسكندرية وهو فى مجلس الحكم، فقال: لأختبرن أبا خزيمة! فوقف عليه فقال له: يا أبا خزيمة احتجت الى رسن لفرس، فقام أبو خزيمة الى منزله فأخرج رسنا فباعه له، ثم جلس».

ومن القضاة أيضا الذين جمعوا بين وظيفتهم والعمل بالتجارة القاضى عبد الرحمن بن اسحاق الجوهري (٣١٣ - ٣١٤ هـ / ٩٢٥ - ٩٢٦ م) . فيذكر فى ملحق أخبار القضاة للكندى أنه كان تاجرا للصوف ، وكانت بضاعته تصدر إلى مكة فى كل سنة .

وقد كانت وظيفة القضاء من الوظائف السامية التى تحاط بالهيبة والاحلال ، كما كان لصاحبها نفوذ كبير يتفق مع خطورة العمل الذى يؤديه ، الا أن ذلك لم يمنع من أن يتقلص سلطان القاضى ونفوذه أمام أمير قوى .

ونلاحظ أن المصادر العربية لا تتعرض كثيرا لحوادث التصادم بين الولاة والقضاة - أو بين السلطة القضائية والسلطة التنفيذية - ومن حوادث التصادم هذه ما حدث فى ولاية عمران بن عبد الرحمن بن شريحيل على القضاء من قبل عبد الله بن عبد الملك بن مروان (٨٦ - ٨٩ هـ / ٧٠٥ - ٧٠٧ م) ، وأدى إلى عزله . فيذكر الكندى فى سبب ذلك ، أن أهل مصر تشاءموا بعبد الله بن عبد الملك فى ولايته عليهم بسبب غلو الطعام ، فقد كانت أول شدة رآها أهل مصر ، فهجاه ابن أبى زمزمة ^(١) ، فطلب عبد الله ابن عبد الملك فهرب منه ، ثم بلغ عبد الله أن القاضى عمران آواه عنده ، وأنه أيضا قد هجاه ، فعزله لذلك .

ومنها أيضا ما حدث فى ولاية خير بن نعيم على القضاء فى ولايته الثانية من قبل الأمير أبى عون عبد الله بن يزيد (١٣٣ - ١٣٥ هـ / ٧٥٠ - ٧٥٢ م) وأدى إلى صرفه عن القضاء . وكان السبب فى ذلك - كما يحدثنا ابن عبد الحكم والكندى عن يحيى بن بكير - : « أن رجلا من الجند قذف ^(٢)

(١) وهو زريعة بن سعد الله بن أبى زمزمة ، من شعراء مصر فى عصر الولاة ، وقد ذكرته فى الفصل الخاص بالحركة العلمية فى مصر

(٢) قذف الرجل رماه وأتهمه بريية .

رجلا ، فخاصمه إليه وثبت عليه شاهدا واحدا ، فأمر بحبس الجندى إلى أن يثبت الرجل شاهدا آخر . فأرسل أبو عون عبد الملك بن يزيد فأخرج الجندى من الحبس ، فاعتزل خير وجلس فى بيته وترك الحكم ، فأرسل إليه أبو عون ، فقال : لا ، حتى يرد الجندى إلى مكانه ، فلم يرد وتم على عزمه .

ومنها أيضا ما حدث فى ولاية أبى خزيمة ابراهيم بن يزيد على القضاء من قبل يزيد بن حاتم (١٤٤ - ١٥٤ هـ / ٧٦١ - ٧٧٠ م) . وكان سبب ذلك - كما يذكر الكندى - « أن عبد الأعلى بن سعيد الجيشانى تزوج بامرأة من بنى عبد كلال ، ^(١) فقام بعض أوليائها فى ذلك وأنكروه ، وترافعوا إلى أبى خزيمة فقال : ما أحل ما حرم الله ، ولا أحرم ما أحل الله اذا زوجها لى ، فالنكاح ماض . فارتفعوا إلى يزيد بن حاتم ، وهو الأمير يومئذ ، فقال يزيد : ليس عبد الأعلى من أكفائها ، وأمر أبا خزيمة بفسخ نكاحها ، فامتنع أبو خزيمة من ذلك ، وفرق بينهما يزيد بن حاتم » .

ومنها ما حدث فى ولاية ابراهيم بن اسحاق على القضاء من قبل السرى بن الحكم (٢٠٤ - ٢٠٥ هـ / ٨١٩ - ٨٢٠ م) وكانت ولايته لمدة ستة أشهر ، وكان سبب ذلك - كما يذكر الكندى - أنه عندما ولى القضاء «اختصم إليه رجلان فى شىء ، فأمر بالكتاب على أحد الرجلين ، ونفذ الحكم ، فشفع الرجل بآبى عون إلى السرى ، فأمره السرى أن يتوقف ، فإن اصطلحا ، وإلا حكم بينهما . فجلس ابراهيم فى منزله ، فركب إليه السرى وسأله الرجوع فقال : لا أعود إلى ذلك المجلس أبدا ليس فى الحكم شفاعة ، فاستعفى .

وتذكر المصادر العربية حدوث صدام وحيد فى الدولة الطولونية كان بين الوالى والقاضى ، وكان هذا الخلاف بين أحمد بن طولون والقاضى بكار

(١) قبيلة بنو عبد كلال نكرها الدكتور خورشيد من ضمن القبائل المجهولة ، وقال عنها طهر منهم بمصر يعفور بن عريب زعموا أنه شهد فتح مصر ، ومعاوية بن الزبير من أشرف مصر (١٢٢ هـ) وأم شرحبيل بنت عبد الرحمن التى تزوجها عبد الأعلى بن سعيد الجيشانى (١٤٤ - ١٥٤ هـ) . ولم نعرش على بطن بهذا الاسم ، ولكن السمعانى ينسب يعفور بن عريب إلى رعين ، فلعلى بنى عبد كلال بطن منهم

ابن قتيبة (تولى قضاء مصر من قبل المتوكل ٢٤٦ / ٢٧٠ هـ / ٨٦٠ - ٨٨٣ م) وأدى إلى سجنه ، وكان الصدام بسبب طلب أحمد بن طولون لعن الموفق (١) ، فامتنع بكار ، مما أدى إلى غضب أحمد بن طولون عليه ، فسجنه عام ٢٧٠ هـ / ٨٨٣ م ، وقد أقام في السجن إلى أن مرض ابن طولون مرضه الذي توفي فيه عام ٢٧٠ هـ / ٨٨٣ م. وتظهر لنا هذه الحادثة أن الدولة الطولونية على الرغم من استقلالها إلا أنها لم تكن مستقلة استقلالاً تاماً بالمعنى المعروف ، فقد امتنع أحمد بن طولون عن إطلاق سراح بكار بن قتيبة حتى يرد عليه كتاب المعتمد باطلاقه . وترى الدكتورة سيدة كاشف أنه على الرغم من استقلال مصر الذاتي في عهد الطولونيين ، فإن أمر القضاء كان لا يزال مرجعه إلى الخلافة !

على كل حال ، فقد عظم شأن القضاء وقوى مركزهم منذ عهد الخلفاء الأولين من بني العباس . فقد كانت العادة أن الولاة يحضرون القضاء إلى مجالسهم ، فلما قدم محمد بن مسروق الكندي قاضياً على مصر من قبل الرشيد (١٧٧ - ١٨٤ هـ / ٧٩٣ - ٨٠٠ م) ، أرسل إليه الأمير عبد الله بن المسيب يأمره بحضور مجلسه ، فقال : لو كنت تقدمت إليك في هذا لفعلت

(١) وهو أبو أحمد الموفق ، ويقال له طلحة بن المتوكل على الله جعفر بن محمد المعتمد بن هارون الرشيد . و«أخو الخليفة المعتمد . وكان الخليفة المعتمد وأخوه الموفق طلحة ككاشريكين في الخلافة ، للمعتمد الخطبة والسكة والتسمى بأمرة المؤمنين ، ولأخيه الموفق طلحة الأمر والبهى وقيادة العساكر ومحاربة الأعداء ومراقبة الثغور وترتيب الوزراء والأمراء . وقد اعترف الخليفة المعتمد بأخيه الموفق ولياً للعهد بعد ولي العهد الشرعى جعفر المفقوض ابنه ، وقسم الدولة بينهما ، فكان للموفق الجزء الشرقى ، ولجعفر المفقوض الجزء الغربى وفيه مصر ، إلا أنه لما كان صغيراً فقد اختير موسى بن بقا أحد الجنود الأتراك لإدارة هذا القسم . وكان سبب لعن أحمد بن طولون للموفق هو قرار الموفق بتولية اسحق بن كنداج على مصر بدلاً منه ، وأسره للخليفة المعتمد الذى كان متحها إلى أحمد بن طولون بمصر ، فعاد إلى سامراء شبه سجين سنة ٢٦٩ هـ / ٨٨٢ م . لذلك فقد عقد أحمد بن طولون مؤتمراً في دمشق سنة ٢٦٩ هـ / ٨٨٢ م دعى إليه القضاء والفقهاء والأشراف من كافة أنحاء الإمبراطورية لأن أبا أحمد الموفق نكث بيعة المعتمد وأسره وأمر ابن طولون بكتاب خلغ فيه الموفق من ولاية العهد لمخالفته المعتمد وأسره له ، وكتب في هذا الكتاب أن « أبا أحمد خلغ الطاعة ، وبرىء من الذمة ، فوجب جهاده على الأمة » وشهد على ذلك جميع من حضر إلا بكار بن قتيبة ، ومحمد بن ابراهيم الاسكندراني ، وفهد ابن موسى

بك وفعلت ، يا كذا وكذا ، فانقطع ذلك عن القضاة من يومئذ . ومن أشهر القضاة الموسومين بالعدالة والنزاهة وأعمال بعضهم :

١ - سليم بن عتر التجيبي : وقد تولى القضاء من قبل معاوية (٤٠ - ٦٠هـ / ٦٦٠ - ٦٧٩م) . ومن أهم أعماله أنه أول قاض نظر فى الجراح وحكم فيها بأمر من معاوية بن أبى سفيان ، فيقول الكندى : « فكان الرجل اذا أصيب فجرح أتى إلى القاضى ، وأحضر بينته على الذى جرحه ، فيكتب القاضى بذلك الجرح قصته على عاقلة الجراح (١) ، ويرفعها إلى صاحب الديوان . فاذا حضر العطاء اقتص من أعطيات عشيرة الجراح ماوجب للمجروح ، وينجم (٢) ذلك فى ثلاث سنين ، فكان الأمر على ذلك ».

٢ - عبد الرحمن بن حجية : وقد تولى القضاء فى مصر من قبل عبد العزيز ابن مروان (٦٩- ٨٣هـ / ٦٨٨- ٧٠٢م) ، وظل قاضيا بها حتى مات . ويقول عن شهرته الكندى : « إن رجلا من أهل مصر سأل ابن عباس عن مسألة . فقال : من أى الأجناد أنت ؟ قال : من أهل مصر . قال : تسألنى وفيكم ابن حجية ؟ » .

٣ - توبة بن نمر الحضرمى : وقد تولى قضاء مصر من قبل الوليد بن رفاع (١١٥ - ١٢٠هـ / ٧٣٣- ٧٣٧م) ، وظل قاضيا بها حتى مات . يقول عنه الكندى : إنه عندما تولى القضاء دعا امرأته عفيرة وقال لها : « يا أم محمد ، أى صاحب كنت لك ؟ قالت : خير صاحب وأكرمه . قال : فاسمعى ، لا تعرضن لى فى شىء من القضاء ، ولا تذكرنى بخصم ، ولا تسألنى عن حكومة ، فان فعلت شيئا من هذا ، فأنت طالق . فإما أن تقيمى مكربة ، وأما أن تذهبى ذميمة ، فانتقلت عنه ، فلم تكن تأتية إلا فى الشهر والشهرين »

٤ - خير بن نعيم الحضرمى : وقد تولى قضاء مصر من قبل حنظلة بن صفوان (١٢٠ - ١٢٧هـ / ٧٣٧- ٧٤٤م) ، وقد ذكر الكندى عن يزيد بن أبى حبيب أنه قال : ما أدركت من قضاة مصر أحدا أفقه من خير بن نعيم .

(١) عاقلة الرجل أى عصبته أو قرابته من قبل الأب .

(٢) نجم فلان الدين : اداه نجوما أى فى أوقات معينة .

ومن أهم الأعمال التي قام بها في ولايته الثانية من قبل أبي عون عبد الملك بن يزيد (١٣٣-١٣٥هـ/ ٧٥٠-٧٥٢م) أنه أدخل أموال اليتامى بيت المال، وذهب بأمر من الخليفة أبي جعفر، فقد أرسل إليه كتابا يأمره بذلك، فأوردها بيت المال، وسجل في كل مال منها سجل بما يدخل منها وما يخرج.

٥ - أبو خزيمة إبراهيم بن يزيد الرعيني : وقد تولى قضاء مصر من قبل يزيد بن حاتم (١٤٤-١٥٤هـ/ ٧٦١-٧٧٠م) . وقد ذكر عنه الكندي أنه كان إذا غسل ثيابه أو شهد جنازة أو اشتغل بشغل، لم يأخذ من رزقه بقدر ما اشتغل . وكان يقول : «إنما أنا عامل للمسلمين فإذا اشتغلت بشيء غير عملهم، فلا يحل لي أخذ مالهم»

٦ - اسماعيل بن اليسع الكندي : وقد تولى قضاء مصر من قبل الخليفة المهدي (١٦٤-١٦٧هـ/ ٧٨٠-٧٨٣م). ومن أهم أعماله - كما يذكر الكندي - أنه أبطل الأحباس. ويبدو أن إبطاله للأحباس كانت من أهم أسباب عزله عن القضاة. كما « أنه كان يذهب إلى قول أبي حنيفة، ولم يكن أهل البلد يومئذ يعرفونه » ، لذلك كتب الليث بن سعد إلى المهدي يقول : « إنا لم ننكر عليه شيئا غير أنه أحدث أحكاما لا نعرفها » فعزله . ويبدو لنا من أسباب عزله أيضا وعدم تقبل المصريين له أنه كان كوفيا ، ولم يكن مصرية . فقد ذكر الكندي عند تولى القاضي عبد الله بن لهيعة القضاء في مصر (١٥٥-١٦٤هـ/ ٧٧١-٧٨٠م) أن وفدا من أهل مصر كان بالعراق ودخلوا على أبي جعفر المنصور يوما ، فقال لهم : انتخبنا لأهل مصر قاضيا ، فقال له عبد الله بن عبد الرحمن بن حديج (وكان من ضمن الوفد المصري) : «ماذا أردت بنا يا أمير المؤمنين ، أردت أن تشهرنا في الأمصار ، بأن بلدنا ليس فيه من يصلح لقضائنا حتى تولى علينا من غيرها ؟»

٧ - غوث بن سليمان : وقد تولى قضاء مصر ثلاث مرات ، الأولى من (١٣٥-١٤٠هـ/ ٧٥٢-٧٥٧م) وكانت من قبل أبي عون عبد الملك بن يزيد ، والثانية من (١٤٠-١٤٤هـ/ ٧٥٧-٧٦١م) بعد موت القاضي ابن بلال ،

والثالثة من (١٦٧-١٦٨هـ/٧٨٣ - ٧٨٤م) من قبل المهدي ، وقد ظل قاضيا فى هذه المرة حتى توفى .

ويقول ابن عبد الحكم عنه : « قدمت امرأة من الريف ، وغوث ماض^(١) فى محفة ، فوافت غوثا عند السراجين رائحا إلى المسجد ، فشكت إليه أمرها ، وأخبرته بحاجتها ، فنزل عن دابته فى حوانيت السراجين ، ولم يبلغ المسجد ، وكتب لها حاجتها ، وركب إلى المسجد ، فانصرفت المرأة وهى تقول : أصابت والله أمك حين سمتك غوثا . »

ويقول الكندى عنه أيضا : إن أم موسى بنت يزيد بن منصور بن عبدالله الحميرية وقع بينها وبين أبى جعفر خصومه ، فقالت : لا أرضى إلا بحكم غوث بن سليمان ، فحمل إلى العراق حتى حكم بينه وبينها ، ورجع إلى مصر . »

ويقول أيضا : إن أبا جعفر المنصور أمره ليحكم بين أهل الكوفة ، فقال له غوث : « يا أمير المؤمنين ليس البلد بلدى ولا معرفة لى بأهلها ، فإذا أنا ناديت من له حاجة بخصومة فلم يأت أحد ، ائذن لى يا أمير المؤمنين فى الرجوع إلى بلدى . قال : نعم . فجلس غوث يحكم ثم نادى بعد ذلك فانقطعت عنه الخصوم ، وسار إلى مصر . »

وهذا يبرهن لنا ما ذكرناه سابقا من أن كل بلد كانت تفضل أن يكون قاضيا منها .

٨ - المفضل بن فضالة : وقد تولى قضاء مصر من قبل المهدي (١٦٨ - ١٦٩ هـ / ٧٨٤ - ٧٨٥م) ، وهو أول قاض يطول السجلات ، فقد نسخ فيها كتب الوصايا والديون ، « ولم يكن ذلك قبله » .

٩ - أبو الطاهر عبد الملك بن محمد الحزمى : وقد تولى القضاء من قبل الهادى (١٧٠ - ١٧٤ هـ / ٧٨٦ - ٧٩٠م) . ومن أهم أعماله أنه كان يتفقد الأعباس بنفسه ثلاثة أيام فى كل شهر ، يأمر بمرمتها (٢) ،

(١) فى الأصل : قاضى ، وصحتها « ماض » .

(٢) مرمة البناء أو الامر . أصله .

وإصلاحها وكنتس ترايبها ، ومعه طائفة من عماله عليها ، فإن رأى خلافا
فى شىء منها ضرب المتولى لها عشر جلدات .

١٠ - لهيعة بن عيسى الحضرمى : وقد تولى قضاء مصر من قبل عباد بن
محمد (١٩٦ - ١٩٨ هـ / ٨١١ - ٨١٣ م) . ومن أهم أعماله فرضه
للفروض التى عرفت باسمه ، فيقول الكندى :

« كانت مواحيز مصر يعمرها أهل الديوان وطائفة المطوعة ، وكانت
أحباس السبيل التى يتولاها القضاء تجمع فى كل سنة ، فاذا كان
شهر أبيب من شهور القبط بعث القاضى لما اجتمع من أموال السبيل ،
ففرقت فى مواحيز مصر من العريش الى لوبية ومراقية فتفرق على
المطوعة ، ومن كان فقيرا من أهل الديوان . فلما هاجت الفتنة أيام خلع
محمد بن هارون ، تشاغل السلطان عن عطاء أهل الديوان ، وتعطلت
المواحيز ، وانقطع عنها المطوعة لما كان فى الناس من الفتنة . ثم ولى
لهيعة بن عيسى ، فجمع أموال السبيل التى من الأحباس ، وفرض فيها
فروضا من أهل مصر ، وجعل فيها المطوعة الذين كانوا يعمرون
المواحيز ، وأجرى عليهم العطاء من الأحباس ، فكان ذلك أول ما
فرضت فروض القضاة ، فصارت سنة بعد لهيعة ، ولم يكن الناس
يسمونها إلا فروض لهيعة ، حتى كان ابن أبى الليث فسمها فروض
القاضى » .

ومع ذلك فلم يكن كل قضاة ذلك العصر موسومين بالعدالة والنزاهة-
كما تذكر الدكتورة سيدة كاشف ، بل وجد أحيانا القاضى المرتشى
والقاضى غير النزيه . ومن هؤلاء القضاة :

١ - يحيى بن ميمون الحضرمى : وقد تولى قضاء مصر من قبل هشام بن
عبد الملك (١٠٥-١١٤ هـ / ٧٢٣-٧٣٢ م) . فقد كان يوصف بأنه «بئس
القاضى»! ويقول الكندى عن كتابه : «كان كتاب يحيى بن ميمون لا
يكتبون قضية إلا برشوة ، فكلم يحيى فى ذلك ، فلم ينكره ، ثم كلم مرة
بعد مرة فلم يعزل منهم أحدا عن كتابته » !

ويقول الكندي : إن الخليفة هشام بن عبد الملك عزله عن ولاية القضاء عندما بلغه أنه لم ينصف يتيما احتكم اليه بعد بلوغه.

٢ - عبد الرحمن بن عبد الله العمرى : وقد تولى قضاء مصر من قبل هارون الرشيد (١٨٥-١٩٤هـ/٨٠١-٨٠٩م) . ويقال إن نفرا من أهل مصر خرجوا الى هارون الرشيد ، وشكروا اليه ما يفعله العمرى فيهم . فقال لهم هارون : «أنظروا فى الديوان كم لى من ولد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ؟ فكشف الديوان ، فلم يوجد غيره . فقال : «انصرفوا فوالله لاعمزته أبدا» !ومن الغريب أن الخليفة كان يعلم بسوء هذا القاضى إلا أنه لم يعزله بحجة أنه الباقي من نسل عمر بن الخطاب !

وكان من أهم أعماله - كما يذكر الكندي - أنه عمل تابوت القضاة الذى كان فى بيت المال، فهو أول من عمله ، وقد أنفق عليه أربعة دنانير، وكان هذا التابوت يجمع فيه أموال اليتامى ، وأموال من لا وارث له .

على أية حال، فعندما تولى هاشم بن أبى بكر البكرى القضاء من بعده، من قبل محمد الأمين (١٩٤-١٩٦هـ/٨٠٩-٨١١م) - تتبع أصحاب العمرى كلهم وسجنهم ، وسجن العمرى وقيده، وطالبه بما صار اليه من الأموال والأوقاف . وزعم أهل مصر أن العمرى اكتسب مائة ألف فطالبه البكرى بها . كما سافر وفد من أهل مصر الى الأمين ، وذكروا ما فعله العمرى من إلحاق أهل الحرس بالعرب ، فكتب محمد الأمين الى البكرى بكتاب يذكر فيه أنه لا يمنح أحدا من غير العرب إلحاقا بالعرب ، ويأمره أن يردهم الى ماكانوا عليه من أتسابهم . فدعا البكرى أهل الحرس ، وأمر بإقامة البينة عنده ، فحضر أهل مصر ، منهم عبد الله بن وهب وسعيد بن أبى مريم وسعيد بن عفير، وناس كثير من أهل القناعة والعدالة ، فشهدوا أن أهل الحرس من القبط ، فنقض البكرى قضية العمرى، وأمر بردهم الى أصلهم من القبط .

٣ - محمد بن الليث الخوارزمى : وقد تولى قضاء مصر من قبل المعتصم (٢٢٦-٢٣٥هـ/٨٤٠-٨٤٩م) ، وكانت له تجاوزات كثيرة، مما دفع قوصرة

(يعقوب بن ابراهيم) صاحب بريد مصر فى ذلك الوقت الى ارسال كشف بتجاوزات ابن أبى الليث الى المتوكل بطلب منه . فأتى كتاب المتوكل بحبسه واستقصاء امواله، فأمر قوصرة بحبس ابن أبى الليث وولده وأصحابه وأعوانه، فاستقصيت أموالهم كلهم، ووثب أهل مصر على مجلس ابن أبى الليث ، فرموا بحصره ، وغسلوا موضعه بالماء ، وذلك فى عام ٢٣٥هـ/٨٤٩م، وعزل يومئذ.

ثم ورد كتاب المتوكل يأمر بلعن ابن أبى الليث على المنبر فلعنه مكرم ابن حاجب الإمام على المنبر ، ولعنته العامة. وأقام فى السجن حتى عام ٢٣٧هـ/٨٥١م . وعندما قدم يزيد التركى إلى مصر فى عام ٢٣٧هـ/٨٥١م أدخل سبيل ابن أبى الليث وأصحابه ، فورد كتاب المتوكل برد ابن أبى الليث وأصحابه الى السجن ، ثم أمر خوط عبد الواحد (أمير مصر) بطلق رأس ابن أبى الليث ولحيته وضربه بالسوط، وحمله على حمار باكاف يطوف الفسطاط، ففعل ذلك به «خوط» يوم الإثنين ٢٣٧هـ/٨٥١م، وظل محبوساً هو وأصحابه الى عام ٢٤١هـ/٨٥٥م، وأخرج الى العراق . ويقال إن الحارث ابن مسكين الذى تولى القضاء من بعده من قبل المتوكل عام (٢٣٧-٢٤٥هـ/٨٥١-٨٥٩م)، كان يوقفه ويضربه كل يوم عشرين سوطاً، لكى يؤدى ماوجب عليه من الأموال ، وقد «أقام على ذلك أياماً» .

كان القاضى يستمد أحكامه القضائية من مصادر التشريع الإسلامى وهى : القرآن والسنة والإجماع والإجتهد أو القياس .

فيرى للماوردى أن أصول الأحكام فى الشرع أربعة :

الأول : علمه بكتاب الله عز وجل على الوجه الذى تصح به معرفة ماتضمنه من الأحكام .

الثانى : علمه بسنة رسول الله (ص) الثابتة من أقواله وأفعاله.

الثالث : علمه بتأويل السلف فيما اجتمعوا عليه واختلفوا عليه ليتبع الإجماع ويجتهد برأيه فى الاختلاف .

الرابع :علمه بالقياس الموجب لرد الفروع المسكوت عنها الى الأصول المنطوق بها ، والمُجمَع عليها حتى يجد طريقاً الى العلم باحكام النوازل، وتمييز الحق من الباطل .

ويرى الماوردي أنه إذا أحاط علمه بهذه الأصول الأربعة فى أحكام الشريعة ، صار بها من أهل الإجتهد فى الدين ، وجاز له أن يُفتى ويقضى ، وإن أخل بها أو بشيء منها خرج من أن يكون من أهل الإجتهد فلم يجز أن يُفتى ولا أن يقضى .

وكان القضاة فى عهد الخلفاء الراشدين يحكمون فى بعض الأحيان بما يوحى اليهم اجتهداهم ، بمعنى أنه إذا سئل أحدهم فى حادثة وقعت ، أخذ من ظواهر النصوص الواردة فى الكتاب والسنة الحكم المراد تطبيقه . ثم أوقف الإجتهد بعد ظهور المذاهب الأربعة، فى العصر العباسي ، فأصبح القاضي ملزماً بأن يصدر أحكامه وفق هذه المذاهب ، فكان القاضي فى العراق يحكم وفق مذهب أبى حنيفة ، وفى الشام والمغرب وفق مذهب مالك ، وفى مصر وفق المذهب الشافعى ، وإذا تقدم متخاصمان على غير المذهب الشائع فى بلد من البلاد، أناب القاضي عنه قاضياً يدين بعقائد مذهب المتخاصمين . وقد أطلق على العصر العباسي «عصر أئمة المذاهب» ، وضعت فيه أصول الفقه .

وفى مصر لم يكن القضاة ملزمين باتباع مذهب معين يصدر عن أحكامهم وفقاً له . كما تذكر الدكتورة سيدة كاشف - فيروى الكندى عن القاضي أبى الطاهر عبد الملك بن محمد الحزمى الذى تولى القضاء من قبل الهادى (١٧٠-١٧٤هـ/٧٨٦-٧٩٠م) أن أحكامه كانت على مذاهب ابن القاسم وسالم وابن شهاب وربيعة، وكان مستضلعا بمذاهب أهل المدينة حافظاً لها . أى أن القاضي كان يحكم وفق عقائد المذهب الذى ينتمى اليه .

وكان أول قاض ولى مصر وينتمى الى مذهب أبى حنيفة هو اسماعيل ابن اليسع الكندى ، فقد تولى قضاء مصر من قبل المهدي (١٦٤-١٦٧هـ/٧٨٠-٧٨٣م) ، كما أنه أول عراقى يتولى قضاء مصر بوكان من الكوفة.

ومن القضاة الذين حكموا بمذهب أبى حنيفة أيضا القاضي هاشم بن أبى بكر البكرى من قبل محمد الأمين (١٩٤-١٩٦هـ/٨٠٩-٨١١م)، وكان من أهل الكوفة أيضا. ومنهم أيضا إبراهيم بن الجراح، من قبل السرى بن الحكم (١٠٥-٢١١هـ/٨٢٠-٨٢٦م). ومنهم أيضا بكار بن قتيبة الذى تولى القضاء من قبل المتوكل (٢٤٦-٢٧٠هـ/٨٦٠-٨٨٣م). ومنهم القاضي محمد بن عبدة الذى تولى القضاء من قبل خمارويه بن أحمد بن طولون (٢٧٧-٢٨٣هـ/٨٩٠-٨٩٦م). ومنهم القاضي أحمد بن عبد الله الكششى، وقد تولى القضاء ثلاثة أشهر فقط من عام (٣٣١هـ/٩٤٢م).

وأول من ولى قضاء مصر ممن ينتمى لمذهب الإمام مالك، القاضي اسحاق بن الفرات (١٨٤ - ١٨٥ هـ / ٨٠٠ - ٨٠١ م). ومن هؤلاء القضاة أيضا القاضي أبو الذكر محمد بن يحيى الأسوانى (٢١١ - ٣١٢ هـ / ٩٢٣ - ٩٢٤ م)، وقد تولى قضاء مصر لمدة ثلاثة أشهر وأيام، وفى ملحق أخبار القضاة للكندى أنه كان المشار إليه فى مذهب مالك بمصر. ومنهم القاضي الحسن بن عبد الرحمن الجوهري الذى تولى القضاء من قبل الاخشيدي محمد بن طغج عام (٣٣٣ هـ / ٩٤٤ م). ومنهم أبو الطاهر الذهلى الذى تولى القضاء من قبل كاقور (٣٤٨ - ٣٦٦ هـ / ٩٥٩ - ٩٧٦ م).

وكان أول من ولى قضاء مصر على مذهب الإمام الشافعى هو القاضي أبو زرعة محمد بن عثمان الدمشقى (٢٨٤-٢٩٢هـ/٨٩٧-٩٠٤م) من قبل هارون بن خمارويه. ومن القضاة الذين كانوا على مذهب الإمام الشافعى أيضا القاضي على بن الحسين بن حرب (ويقال له خريويه بن عيسى البغدادى) وقد ولى قضاء مصر من عام (٢٩٣-٣١١هـ/٩٠٥م)، ومنهم أيضا القاضي عبد الله بن أحمد بن زير الذى تولى قضاء مصر من قبل المقتدر عام (٣١٧هـ/٩٢٩م). ومنهم كذلك القاضي اسماعيل بن عبد الواحد المقدسى (٣٢١هـ/٩٣٣م) وقد تولى القضاء لمدة شهرين. ثم القاضي محمد بن الحداد، وقد تولى القضاء بأمر الاخشيدي محمد بن طغج (٣٢٤ - ٣٢٥هـ/٩٣٥-٩٣٦م). والقاضى عمر بن الحسن الهاشمى (٣٣٦ -

٣٣٩هـ/٩٤٧-٩٥٠م). ومنهم أيضا القاضي عبد الله بن محمد بن الخصيب (٣٣٩ - ٣٤٨هـ/٩٥٠-٩٥٩م).

وتذكر الدكتورة سيدة كاشف أن بعض القضاة كان يرجع أحيانا إلى الخليفة في المسائل الدقيقة، وربما كان ذلك خوفاً من الإنفراد بالرأي في مسألة ربما يخطئ فيها بإجتهاده وحده. ويرى من الأوفق أن يشترك الخليفة معه في حلها ، استثناساً برأيه، وضماناً للعدالة. ومن أمثلة ذلك أن القاضي عياض بن عبيد الله الأزدي في ولايته الثانية (٩٨ - ١٠٠هـ/٧١٦ - ٧١٨م) ، استفتى الخليفة عمر بن عبد العزيز في مسألة، فأفتاه فيها . وأحياناً كان الخليفة لا يبدى رأياً، بل يفوض الأمر الى القاضي، فقد استفتى القاضي عياض الخليفة عمر بن عبد العزيز في مسألة أخرى فكتب إليه: "إنه لم يبلغني في هذا شيء، وقد جعلته لك فامض فيه برأيك". وكذلك نسمع أن القاضي عبد الله بن يزيد بن خذامر استشار الخليفة عمر بن عبد العزيز في مسائل فأفتاه فيها . على أننا لنعثر في مصادر هذا العصر على قضاة يستشيرون خلفاء آخرين غير عمر بن عبد العزيز في المسائل الفقهية ، ولعل هذه حالة فردية يمكن تفسيرها بمكانة عمر بن عبد العزيز الدينية وتفقهه في الدين.

ثانيا - محاكم النظر في المظالم أو محاكم الخليفة :

تشبه هذه المحاكم - في رأيي - محكمة الامبراطور في العصر البيزنطي إلى حد كبير. لقد سبق أن ذكرت أنه كان من حق سكان مصر أن يرفعوا قضاياهم وشكاويهم مباشرة إلى محكمة الامبراطور بالقسطنطينية في صورة ملتمس ، وكان الحكم يصدر في هذه الحالة في صورة أمر ، وذكرت أن جستنيان استغل هذه المحاكم حتى تكون سلطته عند سكان مصر في مظهر أعلى من سلطة كبار الملاك ، غير أننا لاحظنا أن اللجوء إلى محكمة الامبراطور كان يتطلب نفقات باهظة في السفر والإقامة ، فضلا عما اشتهر به هذا القضاء من بطء .

وعندما فتح العرب مصر . نقلوا هذا النظام فى شكل يتلاءم مع النظام الإسلامى . على أن الدكتور عبد المنعم ماجد يرى أن هذا النوع من القضاء يرجع فى أصله إلى ملوك الفرس الساسانيين الذين كانوا أول من مارسوه ، وأن فكرته قد ترجع أيضا إلى أصل عريق قديم ، عندما تعاون القرشيون على رد حقوق المظلومين وعقدوا حلفا سموه «حلف الفضول» .

على أنه من الواضح أن « حلف الفضول » كان شيئا مختلفا عن محاكم النظر فى المظالم ، فلقد أنشئ « حلف الفضول » كقضاء عادى يقضى بين عامة الناس ، أما محاكم النظر فى المظالم فقد أنشئت لتتوسط الطبقة الشعبية من الطبقة العليا (من الأعيان والأشراف) وهم الحكام أو الولاة ، ولم يكن هذا ليتم إلا عن طريق سلطة عليا تعلو سلطة الولاة والطبقة العليا ، وهى سلطة الخليفة . وكما يقول ابن خلدون : « تحتاج إلى علو يد وعظيم رهبة » . لذلك فلن أستطيع أن أقول إن هذا النظام كان موجودا أيام الرسول (ص) فقد ذكرت سابقا أنه كان القاضى الوحيد فى الإسلام ، كما أن هذا النظام لم يكن موجودا أيام أبى بكر الصديق (١١ - ١٣ هـ / ٦٣٢ - ٦٣٤م) . إلا أننا نستطيع القول بأن هذا النظام نشأ فى خلافة عمر بن الخطاب ، أو بمعنى آخر ، أن هذا النظام قد أوجد نفسه فى خلافة عمر بن الخطاب ، خاصة بعد فتح مصر التى كانت تحت الاحتلال البيزنطى ، وكان أهلها يعرفون نظام محكمة الإمبراطور . والدليل على ذلك تلك الحادثة التى تروىها المصادر العربية ، وقد وقعت زمن الخليفة عمر بن الخطاب (١٣ - ٢٣ هـ / ٦٣٤ - ٦٤٣م) وفى ولاية عمرو بن العاص على مصر . يقول ابن عبد الحكم فى كتابه :

« أتى رجل من أهل مصر ... إلى عمر بن الخطاب فقال : يا أمير المؤمنين ، عائد بك من الظلم . قال : عدت معاذا . قال : سأبقت ابن عمرو بن العاص ، فسبقته ، فجعل يضربنى بالسوط ، ويقول : أنا ابن الأكرمين . فكتب عمر إلى عمرو يأمره بالقدوم عليه ويقدم بآبئه معه ، فقدم . فقال عمر : أين المصرى ؟ حذ السوط فاضرب . فجعل يضربه بالسوط ، ويقول عمر :

اضرب ابن الأليمين^(١) . قال أنس : قضر ب ، فوالله لقد ضربه ، ونحن نحب ضربه ، فما أقطع عنه حتى تمنينا أنه يرفع عنه . ثم قال عمر للمصرى : ضع على ضلعة عمرو . فقال : يا أمير المؤمنين ، إنما ابنة الذى ضربنى ، وقد اشتفيت منه . فقال عمر لعمرو : مذكم تعبدتم الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، لم أعلم ، ولم يأتنى .

إذا كانت هذه الحادثة تشير إلى عدل عمر وكراهته للظلم وإيمانه بالمساواة ، إلا أننا إذا نظرنا إليها من وجهة أخرى ، وهى جراءة المصرى على الذهاب إلى الخليفة مباشرة ليشكوا ابن الوالى لأنه ضربه ، لعرفنا أن معرفة المصرين بنظام محكمة الامبراطور عندما كانوا تحت الحكم البيزنطى، هى التى جعلت هذا المصرى يقدم على هذه الخطوة ، رغم اختلاف السلطة الحاكمة ووقوع مصر تحت حكم العرب ، لذلك ذهب إلى محكمة الخليفة مباشرة .

وهكذا فإن فكرة محكمة الخليفة تكون ظهرت منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب، ولكنها لم تتخذ شكل نظام رسمى إلا فى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان. وربما يرجع ذلك الى كثرة المظالم التى ظهرت فى ذلك العصر ووقعت من الحكام على المحكومين.

وعلى أية حال، فسنستعرف فى الصفحات القادمة على وظيفة محاكم النظر فى المظالم التى أنشأها العرب، والغرض من انشاء هذا النوع من المحاكم.

تقول الدكتورة سيدة كاشف إن الغرض الأساسى من إنشاء محاكم النظر فى المظالم هو وقف تعدى ذوى الجاه والحسب. ومعنى ذلك أن اختصاص هذه الهيئة هو أن تنظر فى ظلمات الشعب. ويفصل الدكتور حسن ابراهيم حسن هذه الظلمات فيقول إنها قد تكون من قضاة لم ينصفوا المتقاضين، أو من ولاة استبدوا بالأمر وظلموا رعاياهم، أو من جباة أموال حادوا عن الطريق المستقيم، أو من أبناء الخلفاء أو أهل الجاه

(١) الأليم : الموجع كالسميع بمعنى المسمع .

وأصحاب النفوذ ممن اغتالوا أموال الناس وأمتعتهم ظلما وعدوانا، أو ماشبه ذلك من الشكاوى التى ربما لا يستطيع القضاء تنفيذ أحكامهم فيها .

أما المتظلمون الذين كانت تختص بهم هذه المحاكم، فقد كان أغلبهم من بسطاء الناس، ومن النساء المستضعفات، ومن أهل الذمة الذين يأتون من نواحي بعيدة خارج العاصمة.

وقد كان الخلفاء الأولون هم الذين يباشرون نظر هذه المظالم بأنفسهم، وكان أول من أفرد للظلمات يوما يتصفح فيه قصص المتظلمين ، عبد الملك بن مروان . وكان عمر بن عبد العزيز أول من ندب نفسه للنظر فى المظالم . ثم جلس لها من خلفاء بنى العباس المهدي ، ثم الهادي ، ثم الرشيد ، ثم المأمون، وآخر من جلس لها المهدي (٢٥٥ - ٢٥٦ هـ / ٨٦٨ - ٨٦٩ م) .

وقد جعلها بعض الخلفاء لقضاتهم . كما فعل عمر رضى الله عنه مع قاضيه أبى ادريس الخولانى^(١) وكما فعل المأمون ليحيى بن أكثم ، والمعتمد لأحمد بن أبى دؤاد .

وعندما استقلت الدولة الطولونية بمصر كان أول من جلس بمصر من الأمراء للنظر فى المظالم أحمد بن طولون . ويذكر فى ملحق أخبار القضاة للكندى أن جلوس أحمد بن طولون للنظر فى المظالم جعل الناس تستغنى عن القاضى ، « حتى كان بكار ربما نعس فى محلة واتكأ ، ثم انصرف إلى منزله ، ولم يتقدم إليه اثنان » ! وعندما تولى خمارويه بن أحمد بن طولون مصر من بعده ، جعل على المظالم بمصر محمد بن عبده بن حرب وذلك فى عام ٢٧٧ هـ / ٨٩٠ م . وكان محمد بن عبده ينظر فى المظالم من بعد موت القاضى بكار بن قتيبة عام ٢٧٠ هـ / ٨٨٣ م ، حتى تولى القضاء عام ٢٧٧ هـ / ٨٩٠ م ، وكانت مصر فى تلك الفترة بلا قاض .

(١) اسمه عائد الله بن عبد الله كان ثقة ، وقد روى عنه الزهرى . تولى القضاء بدمشق وتوفى عام ٨٠

وعندما استقلت الدولة الاخشيدية بمصر كان الاخشيد يجلس بنفسه للنظر فى المظالم . وعندما تولى كافور مصر كان يجلس أيضا للمظالم ، وكان أول جلوسه فى عام ٣٤٠ هـ / ٩٥١ م . وقد قيل عن القاضى أبو الطاهر الذهلى الذى تولى القضاء من قبل كافور (٣٤٨ - ٣٦٦ هـ / ٩٥٩ - ٩٧٦ م) : إنه « كان فى أحكامه كالمحجور عليه ، لكثرة جلوس كافور للمظالم فى كل سبت » . وكان المتظلمون يقدمون مظالمهم مكتوبة .

أما عن مواعيد النظر فى المظالم، فكانت تتراوح بين يوم واحد فى الأسبوع، وجميع أيام الأسبوع. يقول الماوردى: إنه اذا نظر فى المظالم من انتدب لها، جعل لنظره يوما معروفا يقصده فيه المتظلمون، ويراجعه فيه المتنازعون، ليكون ماسواه من الأيام لما هو موكل اليه من السياسة والتدبير. أما اذا كان من عمال المظالم المنفردين لها، فيكون مندوبا للنظر فى جميع الأيام.

ويذكر جرجى زيدان أنه فى البداية لم يكن يخصص لسماع الظلمات يوم معين أو ساعة معينة وإنما كان اذا جاء متظلم أنصف. ثم أفرد يوم خاص للنظر فى أقوال المتظلمين وتصفح قصصهم.

ويرى آدم متز أن تخصيص يوم للنظر فى المظالم كان موجودا فى العصر البيزنطى. ففى عام ٤٩٦م كان حاكم الرها يجلس كل يوم جمعة فى الكنيسة للقضاء.

وفى عصر الخليفة المأمون خصص يوم الأحد للنظر فى المظالم. وكان أحمد بن طولون يجلس للنظر فى المظالم يومين فى الأسبوع، إلا أن المصادر لم تحدد هما . وعندما كان يعقد مجلس مظالمه، كان يحضر بكار بن قتيبة من السجن، ثم يعاد اليه اذا انقضى المجلس.

أما الاخشيد فكان يجلس للنظر فى المظالم كل أربعاء.

وكان كافور يعقد مجلس المظالم كل سبت ابتداء من عام ٣٤٠ هـ / ٩٥١م، وكان يحضر مجلسه القضاة والوزراء والشهود ووجوه البلد.

وكانت محكمة المظالم تنعقد فى المسجد كغيرها من المحاكم التى يعقدها القضاة. وكان مجلس النظر فى المظالم لا يستكمل إلا بحضور خمسة أعوان - كما يقول الماوردى - لا يستغنى عنهم الناظر فى المظالم وهم:-

١ - الحماة والأعوان (الشرطة) : «لجذب القوى وتقويم الجرى». وقد كانوا من القوة بحيث يستطيعون التغلب على من يلجأ الى العنف، أو يحاول الفرار من وجه القضاء.

٢ - القضاة والحكام : «لاستعلام ما يثبت عندهم من الحقوق، ومعرفة مايجرى فى مجالسهم بين الخصوم». فكانت مهمتهم الاحاطة بما يصدر من الأحكام لرد الحقوق الى أصحابها، والعلم بما يجرى بين الخصوم، فيلمون بثبات الأمور الخاصة بالمتقاضين.

٣ - الفقهاء : «ليرجع اليهم فيما أشكل، ويسألهم عما اشتبه وأعضل».

٤ - الكتّاب : «ليثبتوا ماجرى بين الخصوم، وما توجب لهم أو عليهم من الحقوق».

٥ - الشهود : «ليشهدهم على ما أوجبه من حق وأمضاه من حكم».

وقد فرق الماوردى فى كتابه بين اختصاص كل من القاضى وناظر المظالم، ولكن الدكتورة سيدة كاشف ترى أن هذه الاختصاصات كانت نظرية الى حد كبير، وأن سلطان الناظر فى المظالم لم يكن واسعاً إلا حين يكون هو الخليفة أو الأمير أو من يقرب من مرتبتهما، أو من كان مؤيداً من الأمير حائزاً لثقته التامة. وفضلاً عن ذلك فإن اختصاص النظر فى المظالم واختصاص القاضى كانا يلتقيان فى كثير من الأحيان، وكان يصعب أحياناً أن نتبين أيهما أوسع سلطاناً.

ثالثاً - محاكم أهل الذمة :

هذه المحاكم تشبه المحاكم الكنسية فى العصر البيزنطى، يتولى القضاء فيها رجال الدين منهم، وكانت خاصة بأهل الذمة. وقد ذكرت سابقاً أن هذه

المحاكم ظهرت بانتشار المسيحية زمن الامبراطور قسطنطين، وأنها لم تكن مقتصرة على رجال الدين، وإنما جاز للمتخاصمين فى الأمور المدنية أن يلجأوا باختيارهم الى تحكيم الأسقف، فقد كانت أحكامه معترفا بها قانونا. وفى عصر هرقل زادت سلطات رجال الدين القضائية، فصار للأسقف الحق فى تنفيذ الأحكام، هذا الى جانب أنه لا يجوز للمتهم اللجوء الى القضاء المدني بعد أن اعتبرته الكنيسة مذنباً.

ويبدو لنا أنه بعد الفتح العربى لمصر، ترك العرب للزميين قضاءهم، واستمرت محكمة الكنيسة فى عملها تحت الحكم العربى.

والسؤال الآن هل ظلت سلطة المحاكم الكنسية تحت الحكم العربى، كما كانت سلطتها تحت الحكم البيزنطى؟

يقول آدم متز : « إن بعض فقهاء الاسلام أجازوا تقليد الذمى القضاء بين أهل دينه. وهذا، وإن كان العرف به جارياً، فهو تقليد زعامة ورياسة وليس بتقليد حكم وقضاء، وإنما يلزمهم حكمه لالتزامهم له، وإذا امتنعوا من التحاكم اليه لم يجبروا على ذلك، فإذا رجعوا الى قاضى الاسلام فإنه يقضى بينهم بحكم الاسلام، لأنه يكون عليهم أنفذ ولهم أسلم».

وهكذا نرى أنه وإذا كان القضاة المسلمون لم يتدخلوا فى أحكام قضاة أهل الذمة، إلا أن سلطة هؤلاء القضاة الذميين تقلصت، لأن العقوبات التى كانوا يحكمون بها كانت عقوبات دينية فقط، وأصبح من مصلحة الذمى اللجوء الى القضاء الإسلامى الذى يكون أنفذ والزم. وفى ذلك يقول الكندى إن القاضى خير بن نعيم الحضرمى الذى تولى قضاء مصر من قبل حنظلة ابن صفوان (١٢٠ - ١٢٧هـ / ٧٣٧ - ٧٤٤م) كان يقبل شهادة النصارى على النصارى، واليهود على اليهود ويسأل عن عدالتهم فى أهل دينهم.

ولكن اذا حدث نزاع بين عربى وقبطى، تقدم المتقاضون الى مجلس مؤلف من قضاة يمثلون الفريقين المتنازعين.

أما أماكن انعقاد العرب لجلسات المحاكم لأهل الذمة، فيقول الكندي: إن خير بن نعيم كان يقضى فى المسجد بين المسلمين، ثم يجلس على باب المسجد بعد العصر على المعارج (١) فيقضى بين النصارى.

كما يقول الكندي فى موضع آخر : إن القضاة كانوا يجعلون للقضاء بين النصارى يوما فى منازلهم، الى أن جاء القاضى محمد بن مسروق، الذى تولى القضاء من قبل هارون الرشيد (١٧٧ - ١٨٤هـ/ ٧٩٣ - ٨٠٠م)، فاذن لهم بالدخول فى المسجد.

ويقول آدم متز عن لجوء الذمى للمحاكم الاسلامية إن الكنائس لم تكن تنتظر الى ذلك بعين الرضا، «لذلك ألف الجاثليق (٢) تيموثيوس (timotheus) حوالى عام ٢٠٠هـ/ ٨٠٠م كتابا فى الأحكام القضائية المسيحية، لكى يقطع كل عذر يتعلل به النصارى الذين يلجأون الى المحاكم غير النصرانية بدعوى نقصان القوانين المسيحية. وفى الفصلين الثانى عشر والثالث عشر من هذا الكتاب فرض تيموثيوس على من يذهب طائعا الى المحاكم الاسلامية أن يتوب ويتصدق ويقوم على المسح والرماد (٣)، ثم جاء خليفته فقرر أن النصارى اذا خرجوا الى الأحكام البرأنية، فانهم يوعدون على قدر جرمهم، ويمنعون من البيعة الى حين».

ويذكر آدم متز عن العقوبات الدينية التى كانت تحكم بها المحاكم الكنسية أنها كانت تشمل «التوبيخ أمام الناس، والقيام على المسح والرماد أمام البيعة، ودفع كفارة مالية للبيعة، والمنع من حضورها ومن التمتع برسوم المباركة الدينية عند الموت، ومن الدفن على الطريقة النصرانية. ومن أمثلة

(١) المعارج جمع معارج ومعاريج: السلم والمصعد.

(٢) الجاثليق لفظ يونانى (catholicos) معناه العمومى. والمراد به: الرئيس الدينى الأعلى عند الكلدان الفساطرة فى أيام الملوك الساسانيين والخلفاء العباسيين. جمع الجاثليقة ويقابله فى وقتنا هذا «البطرك» (patriarch).

(٣) المسح: بكسر الميم، جمع أمساح ومسوح. ثوب من الشعر غليظ، يلبسه الرهبان على البدن نقشفا وتنهرا للجسد. والمسح والرماد تعبير مجازى عن التوبة بلبس نوع معين من الملابس، والجلوس على الأرض. (بالرجوع الى الدكتور وليم سليمان).

العقوبة أن النصراني الذي يضرب آخر يمنع من البيعة ومن رسوم المباركة من القسيس شهرين، ويقف كل يوم أحد على المسح والرماد، وعليه أن يتصدق على الفقراء بحسب قدرته » .

أما بالنسبة لشهادة الذمي ، فيذكر آدم متز أن أهل الذمة لم يكن يسمح لهم بالتقدم للشهادة أمام القضاء الإسلامي « كأنهم عبيد » ، وإن كان المعقول أن يقصد بذلك شهادة الذمي على المسلم ، أما شهادتهم على أهل دينهم ، فقد اختلف الرأي ، فذهب بعض الفقهاء إلى أنه لا تقبل شهادتهم على أهل دينهم ، وذهب البعض مذهباً آخر .

أما المحاكم النصرانية فإنها كانت تقبل شهادة المسلم على النصراني «على كره منها لذلك بالطبع» ، وكل ما كانت تطلبه هو أن يكون الشاهد تقياً يخاف الله غير مطعون في ذمته .

ومن قضايا النصارى التي ذكرتها المصادر العربية أنه في ولاية الفضل بن فضالة الأولى على القضاء من قبل موسى بن مصعب ، والتي أقره عليها الخليفة المهدي عام (١٦٨ - ١٦٩ هـ / ٧٨٤ - ٧٨٥ م) - كان بمصر نصراني سب النبي (ص) فكتب فيه الفضل بن فضالة إلى مالك بن أنس يسأله عن قتله ، فكتب مالك يأمره بقتله ، فقتل النصراني . وكان والي مصر في ذلك الوقت على بن سليمان الهاشمي .

وفي ولاية الحارث بن مسكين على القضاء من قبل المتوكل (٢٣٧ - ٢٤٥ هـ / ٨٥١ - ٨٥٩ م) حكم بقتل نصراني سب النبي (ص) أيضاً ، بعد أن جلده الحد ، كما أمر بضرب عنق نصرانيين شهد عنده أنهما ساحران .

ومن أهم هذه القضايا ، قضية هدم كنيسة أبي شنودة ، وكانت في ولاية محمد بن أحمد بن الحداد على القضاء من قبل الاخشيد (٣٢٤ - ٣٤٤ هـ / ٩٣٥ - ٩٥٥ م) . فيقول الكندي عن ابن زولاخ : « إنه اتفق في ذلك حين أن كنيسة أبي شنودة انهدم جانبها ، وبذل النصارى مالا كثيراً ليطلق لهم عمارتها ، فاستفتوا الفقهاء ، فأفتى ابن الحداد بهدم عمارتها ، ووافقه أصحاب مالك . ولكن محمد بن علي العسكري أفتى بأن لهم أن يرموها

ويعمروها ، فثارت العامة به ، وهموا باحراق داره ، فاستتر ، وأحاطوا بالكنيسة . فبلغ ذلك الأمير فاغتاظ ، فأرسل وجوه غلمانه فى جمع كثير ، فاجتمع عليهم العوام ورموهم بالحجارة ، فراسلوه ، فأرسل إلى ابن الحداد فقال : اركب إلى الكنيسة ، فان كانت قائمة فاتركها على حالها ، وان كانت دائرة فاهدمها . فتوجه ابن الحداد وصحبته على بن عبد الله بن النواس المهندس ، وكثر الزحام ، فلم يزل يرفق بهم باللفظ ويلين لهم القول ، ويعلمهم أنه معهم ، حتى فتحوا الدروب ، ودخل الكنيسة ، فأخرج جميع من فيها من النصارى ، وأغلق الباب ، ودفع للمهندس شمعة ، ودخل المذبح وكشفه وقال: يبقى خمسة عشر سنة ثم يسقط منها موضع ، ثم يبقى إلى تمام أربعين سنة ويسقط جميعها ، فأعاد الجواب ، فتركها ولم يعمرها ، فلما كان عام ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م (زمن الخليفة الفاطمى العزيز (نزار أبو منصور) ٣٦٥ - ٣٨٦ هـ / ٩٧٥ - ٩٩٦ م) عمرت كلها ، ولو تركت لسقطت . » .

ونلاحظ أن هناك من الحدود التى كانت على المسلم من طبقت على الذمى . فيقول أبو يوسف فى كتابه عن حد المسلم الذى يسرق من الذمى : إنه يلزمه ما يلزم السارق المسلم ، وكذلك لو كان السارق ذميا يلزمه ما يلزم السارق المسلم .

كما يقول : « إن الذمى اذا استكره المرأة المسلمة على نفسها فعليه من الحد ماعلى المسلم فى قول فقهاءنا » .

وعندما تولى حفص بن الوليد مصر فى ولايته الثانية عام ١٢٤ هـ / ٧٤١ م بعدما أقره هشام بن عبد الملك عليها « أمر بقسم موارث أهل الذمة على قسم موارث المسلمين ، وكانوا قبل حفص يقسمون موارثهم بقسم أهل دينهم » .

رابعاً : قضاء الجند :

يقول جرجى زيدان عن قاضى الجند : « كان منصب قضاء الجند تارة يضاف إلى القاضى الحنفى ، وتارة يضاف إلى القاضى الشافعى ، وتارة

ينفرد به قاض حنفى ، وما زال إلا لأن قاضى العسكر إنما ينتفع به فى الجهاد ، ووقت خروج العسكر .

ومعنى ذلك أن قضاء الجند فى الدولة الإسلامية كان يختلف عن المحاكم العسكرية فى الدولة البيزنطية ، التى نشأت للطبقة العسكرية . فقد اقتصر قضاء الجند فى الدولة الإسلامية على وقت الحرب فقط ، فكان القاضى يخرج معهم .

ويقول الكندى عن ولاية غوث بن سليمان الحضرمى للقضاء فى مصر ، من قبل أبى عون عبد الملك بن يزيد (١٣٥ - ١٤٠ هـ / ٧٥٢ - ٧٥٧ م) : « إن صالح بن على لما نزل دابقا ^(١) وحشد الناس للصائفة جعل على كل جند قاضيا ، فشكوا تطويل القضاء ، فذكر ذلك للمصريين ، فقال له عمرو بن الحارث : اجمعهم على غوث بن سليمان فانه يستضلع بهم . »

وقد أوردت الدكتورة سيدة كاشف قولا للخليفة هشام بن عبد الملك لواليه على مصر الوليد بن رفاعه (١٠٩ - ١١٧ هـ / ٧٢٧ - ٧٣٥ م) يقول فيه : « اصرف يحيى (وهو القاضى يحيى بن ميمون) عما يتولاه مذموما مدحورا ، وتخیر لقضاء جندك رجلا عفيفا ورعا تقيا سليما من العيوب ، لا تأخذه فى الله لومة لائم . » . وعلقت على ذلك قائلة إنه يستنبط من ذلك - أى من عبارة (قضاء الجند) - أن العرب فى مصر حتى أيام الخليفة هشام بن عبد الملك لم يكونوا إلا جنودا ، أو أن الذين أسلموا من المصريين لم يكونوا سوى أقلية ، بدليل أنه لم يهتم بالتعميم فى خطابه بل خص القضاء على الجند . ولكن قد يكون المقصود بكلمة جند هنا المنطقة الحربية .

وعلى العموم فإن المصادر العربية لا توضح لنا بصورة مفصلة قضاء الجند فى الدولة الإسلامية .

الشهود :

يقول آدم متز : إن أهم ما يستلفت النظر فى النظام القضائى الإسلامى ، هو إيجاب جماعة من الشهود الدائمين أمام القاضى . فقد كان

(١) دابق : بكسر الباء وقد روى بفتحها . وآخره قاف . قرية قرب حلب ، بينها وبين حلب أربع فراسخ .

يعاون القضاة طائفة من الشهود كانوا بمثابة موظفين دائمين - كما تذكر الدكتورة سيدة كاشف - وكان الشاهد المعترف به يسمى الشاهد العدل ، ويعرف الشهود أيضا باسم العدل . وترى الدكتورة سيدة كاشف أن الشهود كانوا يشبهون من بعض الوجوه مشايخ البلاد أو مشايخ الحارات في عصرنا الحالي ، فكان على كل شاهد أن يعرف أحوال أهل الحي الذي يسكنه ومنازعاتهم وخصوماتهم ، ومن أجل ذلك كان لشهادة هؤلاء الشهود قيمتها الخاصة في القضاء . ولذلك عني قضاة هذا العهد عناية كبيرة بأحوال الشهود الذين يتقدمون للشهادة في المحاكم .

وكان اختيار الشهود من ضمن عمل القاضى فيقول ابن خلدون : إن من ضمن سلطة القاضى « تصفح الشهود والأمناء والنواب ، واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالعدالة والجرح ، ليحصل له الوثوق بهم » . وعندما يترك القاضى منصبه يبطل عمل العدل الذين عينهم للشهادة ، ويجئ القاضى الجديد ليعين من يثق به ، وربما يوافق على بعض شهود القاضى السابق .

وعن نشأة الشهود يقول الكندى : وكان القضاة اذا شهد عندهم أحد ، وكان معروفاً بالسلامة ، قبله القاضى ، وإن كان غير معروف بها أوقف ، وإن كان الشاهد مجهولاً لا يعرف سئل عنه جيرانه ، فما ذكروه به من خير أو شر عمل به . وقد استمر هذا الوضع حتى تولى القضاة فى مصر للمرة الثانية غوث بن سليمان (١٤٠ - ١٤٤ هـ / ٧٥٧ - ٧٦١ م) فى خلافة المنصور، فكان أول من سأل عن الشهود بمصر، وكان سبب ذلك كما يقول الكندى « تفشى ظاهرة شهادة الزور فى زمانه ».

وعن الاهتمام بأمانة الشهود يذكر الكندى عن توبة بن نمر، الذى تولى القضاء من قبل الوليد بن رفاعه (١١٥ - ١٢٠ هـ / ٧٣٣ - ٧٣٧)، « أن رجلاً وامراً اختصما عنده فطلقها . فقال توبة : متعها . فقال : لا أفعل . قال : فسكت عنه ، لأنه لم يره لازماً له . فأتاه الرجل الذى طلق امرأته فى شهادة ، فقال له توبة : لست قابلاً لشهادتك . قال : ولم ؟ قال : إنك أبيت أن تكون من المحسنين ، وأبيت أن تكون من المتقين . ولم يقبل له شهادة » .

وعندما تولى المفضل بن فضالة ولايته الثانية على القضاء (١٧٤ - ١٧٧هـ/٧٩٠ - ٧٩٣م) اتخذ «صاحب مسائل» يسأل عن الشهود، وكان أول من اتخذه. وعين في هذه الوظيفة كاتبه فليج بن القمري، فتحدث الناس أنه كان يرتشى من أقوام ليذكرهم بالعدالة.

كما اتخذ أقواما للشهادة، فيقول الكندي: «لم يكن يتبع القاضي فيما مضى غير كاتبه، ومن يقوم بين يديه في مجلس الحكم، حتى كان المفضل في ولايته الثانية، فانه رسم أقواما للشهادة، فكانوا عشرة رجال» .

ويذكر الكندي أن اتخاذه للشهود قد أثار العديدين ضده، فقال اسحاق ابن معاذ:

سأدعو إلهي حتى الصباح	لكيما يعيدك كلبا هزيلا
سننت لنا الجور في حكمنا	وصيرت قوما لصوصا عدولا
ولم يسمع الناس فيما مضى	بأن العدول عديدا قليلا

وعندما تولى بعده القاضي محمد بن مسروق من قبل هارون الرشيد (١٧٧ - ١٨٤هـ/٧٩٣ - ٨٠٠م) اتخذ أيضا قوما للشهادة رسمهم بها.

وعندما تولى بعده القاضي عبد الرحمن بن عبد الله العمري القضاء من قبل هارون الرشيد (١٨٥ - ١٩٤هـ/٨٠١ - ٨٠٩م) أمر باتخاذ الشهود أيضا، غير أنه «جعل أسماءهم في كتاب وهو أول من فعل ذلك، ودونهم، وأسقط سائر الناس. ثم فعلت ذلك القضاة من بعده». وجعل أشهب بن عبدالعزيز على مسائله، وضم اليه يحيى بن عبد الله بن حرملة، ويحيى بن عبد الله بن بكير.

ويقول عنه الكندي: إنه كان أكثر القضاة شهودا، فقد اتخذ مائة شاهد من أهل المدينة من موالى قريش والأتصار، إلا أنه فيما بعد أسقط جمعا من هؤلاء الشهود، وأضاف عليهم حوالى ثلاثين رجلا من الفرس.

وعندما تولى لهيعة بن عيسى القضاء بمصر للمرة الثانية من قبل المطلب بن عبد الله الخزاعي (١٩٩ - ٢٠٤هـ/٨١٤ - ٨١٩)، جعل على

مسائله سعيدا بن تليد، وأمره أن يجدد السؤال عن الشهود والموسومين بالشهادة في كل ستة أشهر، فمن حدث له جرحه (١) أوقفه. ويذكر الكندي أنه جعل من الشهود بطانته، وكان عددهم ثلاثون رجلاً.

وقد بلغ من اهتمام القضاة بالسؤال عن الشهود أن القاضي عيسى بن المنكر، الذي تولى القضاء من قبل عبد الله بن طاهر (٢١٢ - ٢١٤هـ/٨٢٧ - ٨٢٩م)، كان يتنكر بالليل، يغطي رأسه، ويمشي في السكك يسأل عن الشهود.

ويبدو لنا أن اختيار الشهود كان يتم في الطبقة العليا من المجتمع، أي من الأسرات الكبيرة في البلاد، أو من وجوه القوم. لذلك عندما عين عيسى بن المنكر عبد الله بن عبد الحكم على مسأله، كان أول من بدأ في اختيار الشهود من كافة الطبقات، فيقول الكندي: «إن عيسى بن المنكر جعل عبد الله بن عبد الحكم على مسأله، فأدخل في العدالة من لا قدر له، ولا بيت: فلان الحائك، وقلان البياح قال ابن عفير: فأخبرت أن أبا خليفة حميد ابن هاشم الرعيني لقيه، فقال له: يا ابن عبد الحكم قد كان هذا الأمر مستورا فهتكته، وأدخلت في الشهادة من ليس لها أهلا. فقال له ابن عبد الحكم: إن هذا الأمر دين، وإنما فعلت ما يجب عليّ».

وعندما ظهرت محنة خلق القرآن في زمن المأمون (٢١٨/٨٣٣م) تأثر اختيار الشهود تبعاً لامتحانهم، فيقول الكندي: «كان هارون بن عبد الله إذا شهد عنده شاهدان سألهما عن القرآن فإن أقرأ بأنه مخلوق قبلهما، وإلا أوقف شهادتهما. فكانت هذه المحنة من سنة ٢١٨هـ/٨٣٣م إلى أن قام المتوكل سنة ٢٣٢هـ/٨٤٦م».

وعندما تولى القضاء محمد بن موسى السرخسي (٣٢٢هـ/٩٣٣م) أكثر الشهود التردد عليه، فقال لهم: مالكم معاش عندنا، فلا يجيء أحد منكم إلا لحاجة أو لشهادة. ويعلق آدم متز على هذه الواقعة بأن الشهود أرادوا أن يكونوا موظفين.

(١) الجرحه ماتجرى به شهادة الخصم أو حجته أي تسقط

وحوالى هذا الوقت أى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى كان الرسم أن يجلس مع القاضى عند نظره فى القضايا أربعة شهود، اثنان يجلسان عن يمينه، واثنان عن يساره. ويتضح من ذلك أن هذا النظام كان يشبه نظام المحلفين فى الغرب.

أماكن انعقاد المحاكم:

لم يكن هناك محكمة خاصة للفصل فى القضايا، إنما كانت مجالس القضاء تعقد فى جامع عمرو بن العاص بالفسطاط، وأحيانا كان القاضى يجلس للحكم فى منزله أو فى منزل غيره. ويرى آدم متزن أن القاضى كان يجلس للحكم فى الجامع، لأن جلسات القضاء كانت علنية، فيجلس فى الجامع حيث لا يمنع أحد من المسلمين من الدخول اليه.

ويقول الكندى عن القاضى خير بن نعيم (١٢٠ - ١٢٧هـ/ ٧٣٧ - ٧٤٤م) إنه كان يقضى فى المسجد بين المسلمين، كما كان له مجلس يشرف على الطريق على باب داره، فكان يجلس فيه فيسمع مايجرى بين الخصوم من كلام.

وعندما تولى القضاء ابراهيم بن الجراح من قبل السرى بن الحكم (٢٠٥ - ٢١١هـ/ ٨٢٠ - ٨٢٦م) جلس للحكم فى منزله، ويرجع السبب فى ذلك الى طرده من الجامع، فيقول الكندى: «ولى السرى ابراهيم بن الجراح فأمر بمصلاه، فوضع فى المسجد الجامع، واجتمع المصريون فآلقوه فى الطريق، فما تكلم فيه السرى بشيء»، وجلس ابراهيم بن الجراح للحكم فى منزله، فلم يعد الى المسجد الجامع حتى صرّف». وهنا نرى وحدة المصريين لطرد قاضى ظالم من المسجد، وعجز الوالى عن طرده رغم معرفته بظلمه.

أما القاضى هارون بن عبد الله، فعندما تولى القضاء من قبل المأمون (٢١٧ - ٢٢٦هـ/ ٨٢٢ - ٨٤٠م) جعل مجلسه فى الشتاء فى مقدم المسجد، واستدبر القبلة، وأسند ظهره بجدار المسجد، ومنع المصلين أن يقرؤوا منه، وباعد كتابه عنه، وباعد الخصوم، وكان أول من فعل ذلك. ثم اتخذ مجلسا للصيف فى صحن المسجد، وأسند ظهره للحائط الغربى.

وعندما تولى القاضى عبد الله بن أحمد بن زبر القضاء من قبل المقتدر عام ٣١٧هـ/٩٢٩م - وذلك فى أثناء ولاية تكين على مصر للمرة الثالثة من قبل الخليفة المقتدر عام ٣١١ - ٣٢١هـ/٩٢٣ - ٩٢٣م - كان يجلس للقضاء يومين فقط فى الأسبوع، وهما يوما الاثنين والخميس، ويظهر لنا ذلك من النص الذى ذكر فى ملحق أخبار القضاة للكندى فهو يقول: كان «يجلس فى كل اثنين وخميس لابسا للسود وفى سائر الأيام بالبياض». وكان القاضى ليسه الرسمي هو السود، وكان ملزما بلبسه، لذلك فهو يلبس السود فى الأيام التى يقضى بها، ولكنه غير ملزم به فى باقى الأيام.

وكان القاضى محمد بن أحمد بن الحداد الذى تولى قضاء مصر (٣٢٤ - ٣٢٥هـ/٩٣٥ - ٩٣٦م) من قبل الاخشيذ محمد بن طغج - يجلس فى الجامع، وفى داره، وفى دار ابن أبى زرعة. حتى تولى عمر بن الحسن قضاء مصر (٣٢٦ - ٣٣٩هـ/٩٤٧ - ٩٥٠م) فاستخلفه (أى محمد بن أحمد بن الحداد) فى الأحكام، فكان يجلس فى دار العباس يومى الخميس والسبت، وفى داره يوم الاثنين.

على أن جلوس القاضى فى المسجد لم يلبث أن أبطل حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى، عندما رأى أهل السنة أن جلوس القاضى فى المسجد ينافى ما يجب لبيوت الله من الحرمة، فأمر المعتضد عام ٢٧٩هـ/٨٩٢م - وكان ذلك فى ولاية خماوريه بن أحمد بن طولون على مصر عام ٢٧٠ - ٢٨٢هـ/٨٨٣ - ٨٩٥م - ألا يقعد القضاة فى المسجد.

وقد كانت العادة أن يبسط المتحاكمون الى القاضى فى العصر الاول قضيتهم وهم وقوف بين يديه، ثم صار الرسم أن يجلس المختصمون بين يدى القاضى صفا متساويين .

إنشاء سجل للقضاة تدون فيه القضايا :

لم يكن للقضاة فى البداية سجل تدون فيه الأحكام، لأنها كانت تنفذ على أثر صدورها، ويقوم القاضى بتنفيذها بنفسه. وظل الأمر كذلك حتى

نهاية عهد الخلفاء الراشدين. على أن الأمر اختلف بمجيء العصر الأموي، فقد أدى تناكر الخصوم الى انشاء هذه السجلات.

وكان أول القضاة الذي سجل سجلا بقضائه هو قاضى مصر سليم ابن عتر (٤٠ - ٦٠هـ/٦٦٠ - ٦٨٩م)، وكان السبب فى ذلك كما يذكر الكندى انه فى أثناء ولايته للقضاء اختصم اليه فى ميراث، فقضى بين الورثة، ثم تناكروا، فعادوا اليه، فقضى بينهم، وكتب كتابا بقضائه، وأشهد فيه شيوخ الجند .

كذلك لم يكن للقاضى أرشيف خاص تصان فيه كتبه وأوراقه، بل كان كاتب القاضى يحضر، ومعه الكتب فى منديل، فاتخذ القاضى محمد بن المسروق الكندى (١٧٧ - ١٨٤هـ/٧٩٣ - ٨٠٠م) لنفسه قمطرا (١) يحفظ فيه أوراقه، وكان يختمها قبل أن يودعها القمطر، وإذا جلس للقضاء أحضرت وظلت هذه العادة متبعة من بعده.

وعندما تولى عيسى بن المنكر القضاء من قبل عبد الله بن طاهر (٢١٢ - ٢١٤هـ/٨٢٧ - ٨٢٩م) كان القمطر فى ولايته للقضاء يرفع فى حانوت فى دار عمرو بن خالد، فعندما فسدت قضية منها أبى عمرو بن خالد أن يدخلها داره، فاكترى لها منزلا فى دار عمرو بن العاص، اذا انصرف عيسى جعلت فيه، وختم الباب .

وفى العصر الاخشىدى كانت أوراق القضايا تحفظ فى سلال وتختم.

وكان للقضاة كتاب يساعدونهم فى كتابة الأحكام، ومن المفترض أن يكونوا من أهل الفقه والعلم، كما كان لهم حجاب يستأذنون للناس وللشهود للدخول الى القاضى .

وينبغى للقاضى أيضا أن يتخذ ترجمانا اذا اختصم اليه من لا يعرف لغته، ويشترط فى الترجمان أن يكون ثقة مسلما مأمونا. ويكفى واحد، والاثنان أحوط .

(١) القمطر والقمطر جمع قماطر: ماتصان فيه الكتب .

وكانت عادة المتحاكمين - كما يذكر أسم متز - أن يتقدموا للقاضي برفاق ، يذكر فى الرقعة منها اسم المدعى واسم خصمه وأبيه . وكان الكاتب يأخذ هذه الرفاق عند باب المسجد قبل مجيء القاضي ، ولا يزال يأخذها حتى يحضر القاضي . وإذا كانت الرفاق كثيرة ولا يقدر القاضي أن يدعو بها كلها فى يوم ، فرقها فى كل يوم خمسين رقعة ، أو أكثر من ذلك على قدر طاقته فى الجلوس والصبر .

رواتب القاضي :

كان القضاة يأخذون مرتباتهم من بيت مال المسلمين ، فيقول أبو يوسف موجها كلامه للخليفة الرشيد : « ما يجرى على القضاة والولاة من بيت مال المسلمين ، من جباية الأرض أو من خراج الأرض والجزية لأنهم فى عمل المسلمين ، فيجرى عليهم من بيت مالهم ... وأما الزيادة فى أرزاق القضاة والعمال والولاة والنقصان مما يجرى عليهم فنلك إليك ، من رأيت أن تزيده فى رزقه منهم زدت ، ومن رأيت أن تحط من رزقه حططت » . وهكذا أصبحت مسألة تحديد رواتبهم ويدفعها من اختصاص الخليفة نفسه .

وفى عهد عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ / ٧١٧ - ٧١٩ م) لم يتناول معظم القضاة راتبا ، لأنه كان يرى أن القاضي لا يجوز له أن يتناول راتبا لقاء قيامه بهذه الخدمة الدينية . وهذا يفسر أنهم كانوا يحتفظون بمهنتهم . ويرى الدكتور على حسنى الخربوطلى أن القضاة كانوا يمنحون مرتبات سخية ، حتى لا تدفعهم الحاجة إلى أخذ الرشا .

غير أنه يبدو لنا أن كثيرا من القضاة كانوا فى ترف من العيش ، سواء من المرتبات الكبيرة التى يتقاضونها ، أو من الإرتشاء ، لذلك نجد الكندى يشير إلى رأى أحد الأشخاص فى القاضي هارون بن عبد الله ، الذى تولى القضاء من قبل المأمون (٢١٧ - ٢٢٦ هـ / ٨٣٢ - ٨٤٠ م) ، فهو يقول : « ما رأيت قاضيا مثل هارون بن عبد الله ، ما استفاد عندنا إلا دارا ، فلما

انصرف باعها ، وتحمل بثمنها » . وهكذا نرى كيف أنه يتعجب من هذا القاضى الذى لم يستفد من وظيفته ، ولم يكسب منها إلا دارا ، وأنه حتى عندما عزل من وظيفته اضطر أن يبيعها ليسافر بثمنها .

ومما يدل على ذلك ما يذكره أبو المحاسن من أن المأمون أرسل رسالة إلى اسحاق بن ابراهيم ^(١) يقول له فيها : « وأما الفضل بن غانم (تولى القضاء من قبل المطلب بن عبد الله الخزاعى (١٩٨ - ١٩٩هـ / ٨١٣ - ٨١٨م)، فأعلمه ، أنه لم يخف على أمير المؤمنين ما كان منه بمصر ، وما اكتسب من الأموال فى أقل من سنة - يعنى فى ولايته القضاء ! وهكذا كان الخلفاء على علم بتجاوزات القضاة .

وتقول الدكتورة سيدة كاشف إن رزق القاضى فى أول عصر الولاة كان بسيطا ، ثم أخذ يرتفع تدريجيا . لقد كان رزق القاضى حتى قرب نهاية القرن الأول الهجرى حوالى مائتى دينار فى السنة ، فأصبح فى النصف الأول من القرن الثانى الهجرى عشرين دينارا فى الشهر ، ثم صار فى بداية النصف الثانى من هذا القرن حوالى ثلاثين دينارا فى الشهر ، وفى نهاية القرن الثانى الهجرى وصل رزق القاضى إلى مائة وثمانية وستين دينارا فى كل شهر .

وقد ذكرت المصادر العربية نماذج من أرزاق بعض القضاة تتفاوت تفاوتاً كبيراً . فقد كان رزق القاضى عبد الرحمن بن حجية الذى تولى القضاء من قبل عبد العزيز بن مروان (٦٩ - ٨٣ هـ / ٦٨٨ - ٧٠٢م) من القضاء مائتى دينار ، وفى القصص مائتى دينار ، ورزقه فى بيت المال مائتى دينار ، وكان عطاؤه مائتى دينار ، وكانت جائزته مائتى دينار - أى ألف دينار فى السنة .

(١) هو أبو محمد اسحاق بن ابراهيم بن ماهان المعروف بابن النديم الموصلى . كان من ندماء الخلفاء وله الظرف المشهور والخلاعة والغناء اللذان تفرد بهما ، وكان من العلماء باللغة والأشعار وأخبار الشعراء وأيام الناس . روى عنه مصعب بن عبد الله الزبيرى ، والزيير بن بكار وغيرهما . وكان المأمون يقول : لولا ما سبق لاسحاق على السنة الناس ، واشتهر بالغناء لولايته القضاء ، فانه أولى وأعف وأصدق وأكثر دينا وأمانة من هؤلاء القضاة . ولد عام ١٥٠ هـ وتوفى عام ٢٣٥ هـ أو ٢٣٦ هـ .

وكان مالك بن شراحبيل الذى تولى القضاء من قبل عبد العزيز بن مروان (٨٣ - ٨٤ هـ / ٧٠٢ - ٧٠٣ م) يتقاضى من الحجاج فى كل سنة حلة (ثوب) وثلاثة آلاف درهم . ولا ندرى هل كان ذلك زيادة فوق المرتب ، أو هو قيمة المرتب نفسه .

وكان رزق عبد الرحمن بن سالم الذى تولى القضاء من قبل حوثة بن سهيل (١٢٨ - ١٣٣ هـ / ٧٤٥ - ٧٥٠ م) - عشرة دنانير فى الشهر . فيقول الكندى : إنه قد وجدت فى ديوان بنى أمية براءة زمن مروان بن محمد ، فيها : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عيسى بن أبى عطاء إلى خزان بيت المال ، فأعطوا عبد الرحمن بن سالم القاضى رزقة لشهر ربيع الأول وربيع الآخر سنة ١٣١ هـ عشرين ديناراً ، واكتبوا بذلك البراءة ، وكتب يوم الأربعاء ليلة خلت من ربيع الأول سنة ١٣١ هـ » .

وكان رزق أبو خزيمة ابراهيم بن يزيد الرعينى - الذى تولى القضاء من قبل يزيد بن حاتم (١٤٤ - ١٤٥ هـ / ٧٦١ - ٧٦٢ م) - عشرة دنانير فى الشهر ، وكان لا يأخذ ليوم الجمعة رزقا ويقول : « إنما أنا أجير المسلمين ، فاذا لم أعمل لهم ، لم آخذ متاعهم » .

وكان رزق عبد الله بن لهيعة الحضرمى الذى تولى القضاء من قبل الخليفة المنصور (١٥٥ - ١٦٤ هـ / ٧٧١ - ٧٨٠ م) ثلاثين ديناراً فى الشهر .

وكان رزق المفضل بن فضالة الذى تولى القضاء من قبل الخليفة المهدي (١٦٨ - ١٦٩ هـ / ٧٨٤ - ٧٨٥ م) - ثلاثين ديناراً فى الشهر . ويقال إنه « كان يجعل منها عشرا فى غسل » . ويفهم من ذلك - أغلب الظن - أنه كان يأخذ مرتبه نقداً وعينا (عسلاً) . ويقول آدم متز : فكان يأخذ عسلاً بدل عشرة منها .

وكان رزق الفضل بن غانم الخزاعى - الذى تولى القضاء من قبل المطلب بن عبد الله الخزاعى (١٩٨ - ١٩٩ هـ / ٨١٣ - ٨١٤ م) - مائة وثمانية وستين ديناراً فى كل شهر ، ويقول الكندى : إنه « أول قاض أجرى عليه هذا » .

وكان رزق عيسى بن المنكدر الذى تولى القضاء من قبل عبد الله بن طاهر (٢١٢ - ٢١٤هـ/ ٨٢٧ - ٨٢٩م) - مائة وثلاثة وستين ديناراً فى كل شهر، وفى رواية أخرى أنه أجرى عليه أربعة آلاف درهم فى الشهر، «وهو أول قاض أجرى عليه ذلك» وأجازه بألف دينار.

أما رزق بكار بن قتيبة الذى تولى القضاء من قبل المتوكل (٢٤٦ - ٢٧٠هـ/ ٨٦٠ - ٨٨٣م) - فيذكر فى ملحق أخبار القضاة للكندى أن المتوكل أجرى عليه فى الشهر مائة وثمانية وستين ديناراً، فلم يزل يجرى عليه طول حياته، وأن أحمد بن طولون كان يجيزه فى كل سنة ألف دينار، وأنه عندما غضب منه بسبب رفضه لعن الموفق، أرسل اليه يسترد جوائزه. ويقال إنها كانت على حالها، فأحضرت من منزله بخواتيمها ستة عشر كيساً (وفى رواية أخرى ثمانية عشر كيساً) فقبضها أحمد بن طولون.

أما رزق محمد بن عبدة - الذى تولى القضاء من قبل خمارويه بن أحمد بن طولون (٢٧٧ - ٢٨٣هـ/ ٨٩٠ - ٨٩٦م) - فيذكر فى ملحق أخبار القضاة للكندى أن خمارويه كان يجرى عليه فى كل شهر ثلاثة آلاف دينار، ولعل المقصود - كما تقول الدكتورة سيدة كاشف - هنا كل سنة وليس كل شهر، أو لعلها ثلاثة آلاف درهم.

أما رزق أبو عبيدة على بن الحسين بن حرب (٢٩٣ - ٣١١هـ/ ٩٠٥ - ٩٢٣م) - وكان ذلك فى أثناء ولاية عيسى النوشرى على مصر من قبل المكتفى عام (٢٩٢ - ٢٩٧هـ/ ٩٠٤ - ٩٠٩م) - فيذكر فى ملحق أخبار القضاة للكندى أن رزقه فى الشهر كان مائة وعشرين ديناراً.

نظام السجون :

لم يكن السجن، بمعناه المعروف الآن، موجوداً زمن الرسول (ص) ولا فى عهد أبى بكر وإنما استحدث فى عهد عمر بن الخطاب عندما اشترى بيت صفوان بن أمية فى مكة وحوله الى سجن. فكان عمر أول مؤسس للسجون فى الاسلام، وقد تلى ذلك تأسيس سجون أخرى مماثلة لهذا فى المراكز الهامة للولاية.

على أنه إذا كانت السجون قد ظهرت فى عهد عمر بن الخطاب إلا أنها نظمت فى عهد الأمويين على يد عمر بن عبد العزيز، فقد أوجد لها ديوانا يشرف عليها، وكان ينظر بنفسه فى أمرها. وكان المسجونون يتمتعون بالرعاية، اكتفاء بحرمانهم من حرياتهم، فكان يكتب للمسجونين برزق الصيف والشتاء، وتكون لهم كسوة الصيف والشتاء، ومن يمرض يعتنى به، كما أمر ألا يقيد أحد فى المحابس بقيد يمنعه من اتمام الصلاة. كذلك أمر عمر بن عبد العزيز بالفصل بين فئات المسجونين - أى بين من يسجن فى دين، ومن يسجن فى جريمة. وقد جعل للنساء حبسا على حده . على أنه بعد العصر الأموى ساءت حالة المسجونين، ولم يعد السجن مكان اصلاح وتهذيب، ولكن مكان انتقام وتعذيب.

وتذكر المصادر العربية أن عدد المسجونين فى عصر الدولة الطولونية بلغ ثمانية عشر ألفا. ويرى الدكتور على ابراهيم حسن أن هذا الرقم ليس عجيبا فى وقت كان الوالى يعتمد فيه على عيون ترصد له حركات منافسيه، بل تأتية بمخاطبات أعدائه.

على أن المسجونين لم يكونوا جميعا يسجونون لاسباب سياسية، وإنما اختلفت أسباب حبسهم كما اختلفت طريقة سجنهم، فهناك نوع من الحبس يؤمر فيه المسجون بأن يلزم داره، فلا يخرج منها ولا يتصل بالخارج، وهناك نوع آخر من السجن ينقل المسجون اليه عقب الحكم عليه. على أن المسجونين لم يكلفوا بأعمال شاقة لحساب الدولة، بل كانوا يقومون بصنع بعض الأشياء لحسابهم الخاص، وبذا عاشوا فى السجن عيشة تقرب من الحياة العادية دون ارهاق أو تعذيب.

ويقول البلوى: إن السجون عرفت فى الدولة الطولونية باسم «المطبق»، وهى سجون تحت الأرض. وقد يكون هذا نوع ثالث من أنواع السجون.

وقد ذكر موسى بن مصلح، أحد العاملين على سجون أحمد بن طولون، أن أحمد بن طولون «كان يراعى أمر المحبوس حتى يمضى له حول،

فاذا جازاه لم يذكره»، وكان يقول لى سرا «إذا تبينت من رجل براءة ساحته، فسهل عليه واستأمرنى (١) فأنى أستعمل التشدد للضرورة اليه».

أما أشهر مسجون فى الدولة الطولونية فهو القاضى بكار بن قتيبة - كما ذكرت سابقا - وقد سجن عام ٢٧٠هـ/٨٨٣م حتى مرض أحمد بن طولون مرضه الذى توفى فيه، وكان سجنه بسبب رفضه لعن الموفق. ولم يسجن فى سجن الدولة، وإنما اكرت له دار، كان فيها طاق (نافذة) يجلس يتحدث فيها، ويكتب عنه وهو فى السجن. وقد ذكرت سابقا أن أحمد بن طولون كان عندما يعقد مجلس النظر فى المظالم كان يستدعيه، وعندما ينتهى المجلس يعود الى سجنه مرة أخرى.

ويقول الكندى: إنه «إذا كان يوم الجمعة اغتسل غسل الجمعة، ولبس ثيابه، ثم خرج الى السجن، فيقول له السجنان: الى أين تريد؟ فيقول له بكار: أريد صلاة الجمعة. فيقول له السجنان: لا سبيل الى ذلك. فيقول بكار: الله المستعان».

وعندما توفى أحمد بن طولون أطلق سراحه، إلا أنه رفض الخروج، وطلب تأجير الدار التى سجن بها لأنه كما يقول: «قد أنست بها»! وقد أقام بكار بن قتيبة فى الدار بعد موت أحمد بن طولون أربعين يوما، ثم مات وكان ذلك فى عام ٢٧٠هـ/٨٨٣م.

ومن الذين سجنهم أحمد بن طولون أيضا أبو أيوب أحمد بن محمد بن شجاع، وكان أحد عمال الخراج فى زمنه. ويقول عنه ابن دقماق إنه «مات فى سجن أحمد بن طولون بعد أن نكبه واصطفى أمواله، وذلك فى عام ٢٦٦هـ/٨٧٩م. ومن المسجونين أيضا أحمد بن مدبر.

وكان أشهر مسجون فى الدولة الاخشيدية هو محمد بن على المانرائى، فقد قبض عليه الاخشيد فى عام ٣٣١هـ/٩٤٢م وكان سجنه عبارة عن «دار أعد له فيها من الفرش والآلات والأوانى والملابس والطيب والطرائف وأنواع (١) استأمر شاور.

الماكل والمشارب ما بلغ فيه الغاية، وتفقدتها بنفسه وطاقها كلها، فقليل له:
عملت هذا كله لحمد بن علي المازرائي؟ فقال : نعم، هذا ملك، وأردت أن لا
يحتقر بشيء لنا، ولا يحتاج أن يطلب حاجة الا وجدها، فانه إن فقد عندنا
شيئا ما يريد، استدعى به من اره، فنسقط نحن من عينيه عند ذلك». وقد
ظل معتقلا حتى أخرج في زمن ءافور، وردت اليه ضياعه وضياع ابنه.

الفهرس

٧	- تقديم د . عبد العظيم رمضان
١١	- تقديم المؤلف
١٩	- عرض لأهم المصادر والمراجع
٣٣	- فصل تمهيدي
٣٥	المجتمع المصرى قبل الفتح العربى
٣٥	• النظام الادارى فى الدولة الرومانية ثم البيزنطية
٣٨	• النظام الحربى
٣٩	• المجتمع المصرى فى العصر البيزنطى :
٣٩	على الصعيد البشرى :
	الرومان - الاغريق - اليهود - المصريين .
٤٠	على الصعيد الطبقي :
٤٠	طبقة ملاك الأراضى الزراعية
٤٦	طبقة الفلاحين
٣٤٩	

٤٧	طبقة الصناع .
٤٨	طبقة التجار .
٥١	الدين
٥٦	نظام الرهينة
٥٩	الحياة العقلية
٦٤	الحياة الفنية
٦٤	الحياة القضائية
٦٧	الباب الأول : النظام الإقتصادي
٦٩	الفصل الأول :
٧١	الملكية العقارية في مصر
٧١	أنواع الأراضي في الدولة الإسلامية
٧٥	طبيعة الفتح العربي لمصر .
٨٨	أنواع الأراضي في مصر بعد الفتح العربي
٩٧	أشكال الحياة العقارية في مصر بعد الفتح العربي .

٩٨ الاقطاع

١٠٩ الأحباس أو الأوقاف

١٠٩ نظام القبالات

١١٥ الفصل الثانى :

١١٧ النظام المالى فى مصر

١١٧ نظام جباية الخراج والجزية

١٢٣ جباية الخراج

١٢٧ جباية الجزية

١٢٦ خلط المصادر العربية بين معنى كل من الخراج والجزية

١٢٦ خراج مصر

١٢٧ المقصود بمصطلح " خراج مصر

١٣٨ قيمة خراج مصر

١٤١ طريقة إرسال خراج مصر الى الخليفة

الفصل الثالث : ١٤٣

الأرض والفلاح - طبقة الصناع - طبقة التجار

الأرض والفلاح : ١٤٥

• طبقة الفلاحين ١٤٦

• الوظائف الإدارية الخاصة بالزراعة ١٤٨

• الاهتمام ببناء مقاييس للنيل ١٤٩

• الاهتمام بالإصلاحات الزراعية ١٥٤

• مساحة الأراضي الزراعية ١٥٥

• أهم المحصولات الزراعية ١٥٩

طبقة الصناع :

• طبقة الصناع ١٦٦

• نظام النقابات ١٦٦

• أنواع الصناعات : ١٦٧

صناعة المنسوجات وأهم مراكزها ١٦٧

صناعة الورق ١٨١

صناعة الزجاج ١٨٢

صناعة الخشب ١٨٣

١٨٤	صناعة الجلود
١٨٥	صناعة الحصر
١٨٥	المعاصر وصناعة السكر والزيوت
١٨٦	صناعة الخزف
١٨٧	صناعة الفخار
١٨٧	صناعة الصابون
١٨٨	صناعة الشمع
١٨٨	صناعة حضانة الفراريج
١٨٩	صناعة المعادن
١٩٥	صناعات مختلفة

طبقة التجار :

١٩٥	● طبقة التجار
١٩٧	● الأسواق .
١٩٩	● نظام المعاملات المالية .
٢٠٣	■ أزمات الغلاء بمصر
٢٠٤	■ حفر خليج أمير المؤمنين.

- النشاط التجارى الخارجى . ٢٠٧
- طرق التجارة . ٢١٣
- أهم موانئ مصر . ٢١٨
- الضرائب على التجارة . ٢٢٠
- مقاييس التجارة أو الأوزان . ٢٤٤

٢٢٥ _الباب الثانى : النظام الإقتصادى

٢٢٧ الفصل الأول :

- المجتمع المصرى والإدارة ٢٢٩

- طبيعة النظام الإدارى الذى وضعه العرب للمجتمع المصرى . ٢٣٤

- المناصب الرئيسية التى تولاهها العرب :

● الوالى ٢٣٨

● متولى الخراج أو صاحب الخراج ٢٤٩

● صاحب البريد ٢٥٥

● صاحب الشرطة ٢٦١

● المحتسب ٢٦٣

الفصل الثانى : ٢٦٧

المجتمع المصرى والنظام الحربى ٢٦٩

. الجيش : ٢٧٠

. قوة الجيش - عدده - حامىة الاسكندرية - ٢٧٥

. الجيش فى الدولة الطولونية ٢٧٧

. الجيش فى الدولة الأخشيديية ٢٧٨

. ديوان الجند ٢٧٩

. نظام التجنيد ٢٨٦

. الأسطول :

. إنشاء العرب للأسطول ٢٨٧

. تصنيع العرب للسفن الحربية واعتمادهم على الأقباط ٢٨٩

. نظام تشغيل الأقباط على السفن ٢٩٠

. الأسطول فى الدولتين الطولونية والأخشيديية ٢٩٦

٢٩٩	الفصل الثالث :
٣٠١	المجتمع المصرى والنظام القضائى
	أنواع المحاكم :
٣٠٢	المحاكم العادية .
٣٢٥	محاكم النظر فى المظالم .
٣٣٠	محاكم أهل الذمة .
٣٣٤	قضاء الجند .
٣٣٥	الشهود .
٣٣٩	أماكن إنعقاد المحاكم .
٣٤٠	إنشاء سجل للقضايا .
٣٤٢	رواتب القضاة .
٣٤٥	نظام السجون .
٣٤٦	نشأة نظام السجون فى الدولة الإسلامية وتطوره .
٣٤٧	السجون فى الدولة الطولونية وأشهر مسجون بها .
٣٤٧	السجون فى الدولة الأخشيدية وأشهر مسجون بها .



هذا الكتاب

فى الأصل رسالة علمية تعالج مرحلة ربما كانت أهم مراحل التحول فى تاريخ مصر الطويل ، وهى مرحلة التحول من الحكم البيزنطى إلى الحكم العربى ، ومن الدين المسيحى إلى الدين الإسلامى ، ومن اللغة القبطية - اليونانية إلى اللغة العربية ، ومن الثقافة اليونانية إلى الثقافة العربية ، ومن الشريعة والقوانين المسيحية إلى الشرائع والقوانين الإسلامية ، ومن العادات والتقاليد القبطية إلى العادات والتقاليد العربية - الإسلامية ، ومن الفنون القبطية إلى الفنون الإسلامية . وفى عبارة وجيزة من الحضارة القبطية - الاغريقية إلى الحضارة الإسلامية العربية .

المجتمع في مصر الإسلامية

من النسخ العربية إلى العصر الفاطمي

الحسن الباقلي

هویدا عبد المصنم رمضان

المكتبة المصرية
الرئاسة للكتاب

0148441

Bibliotheca Alexandrina

المجتمع في مصر الإسلامية

من الفتح العربي إلى العصر الفاطمي

المجتمع في مصر الإسلامية

من الفتح العربي إلى العصر الفاطمي

الجزء الثاني

بقلم

هويدا عبد العظيم رمضان



الهيئة العامة للكتاب

١٩٩٤

الباب الثالث

التكوين الاجتماعى للمجتمع المصرى

الفصل الأول : تعريب المجتمع المصرى

الفصل الثانى : المرأة فى المجتمع المصرى

الفصل الثالث : العادات والتقاليد فى المجتمع المصرى

الفصل الأول

تعريب المجتمع المصرى

- هجرة القبائل العربية

- الفتح العربى وبداية نزوح القبائل العربية إلى مصر.

- مناطق سكنى القبائل العربية بعد الفتح العربى :

- الفسطاط

- الجيزة

- الاسكندرية

- العوامل التى أدت إلى هجرة القبائل العربية.

- أسباب اختلاط القبائل العربية بالمصريين:

- حركة الارتباج

- رابطة الاسكندرية

- الضيافة

- مطالب الحياة اليومية

- الأعمال التي اشتغل بها العرب في مصر
- ثورات العرب.
- أسماء القبائل العربية التي هاجرت إلى مصر حسب
مناطق سكناها

- انتشار اللغة العربية:
أسباب انتشار اللغة العربية:
- هجرة القبائل العربية.
- حركة التعريب.

انتشار الاسلام :
عوامل انتشار الاسلام:
- هجرة القبائل العربية.
- الرغبة في التخلص من دفع الجزية.
- تحريم الخلفاء استخدام أهل الذمة في الوظائف.

الفصل الأول

تعريب المجتمع المصرى

اصطبغ المجتمع المصرى بالصبغة العربية بثلاث طرق رئيسية:

الأولى : هجرة القبائل العربية.

الثانية : انتشار اللغة العربية.

الثالثة : انتشار الإسلام.

أولاً: هجرة القبائل العربية:

كان من الطبيعى أن يشجع الفتح العربى لمصر، وتملك العرب زمام السلطة فيها - الكثير من القبائل العربية على الهجرة الى مصر. وليس معنى ذلك أنه لم تكن ثمة هجرات عربية الى مصر قبل حملة عمرو بن العاص، وإنما يذكر المؤرخون أخباراً عن هجرة بعض بطون خزاعة فى الجاهلية الى مصر والشام لأن بلادهم أجذبت كما كان يعيش فى الاسكندرية فى عام ٦١٠م كثير من العرب الى جانب غيرهم من الاغريق والقبط واليهود والسوريين.

ويرى «بندلى جوزى» أن الدافع لهجرة العرب الى مصر قبل الفتح العربى هو جفاف أرضهم المستمر وما يتبع ذلك من الضيق والفقر.

وقد كان غنى مصر معروفا للعرب قبل الاسلام عن طريق العلاقات التجارية بينهما، وقد ذكرت فى فصل سابق أن عمرو بن العاص - وهو الذى قاد الحملة لفتح مصر - كان تاجراً فى الجاهلية، وكان يأتى بتجارته الى مصر وهى الأدم والعطر، وهكذا كان التجار العرب على معرفة تامة بأحوال

مصر الاقتصادية المزدهرة، لذلك يقول ابن عبد الحكم عن عمرو بن العاص: «كان عمرو قد دخل مصرفى الجاهلية، وعرف طرقها، ورأى كثرة ما فيها».

وقد بدأ أول نزوح للقبائل العربية الى مصر مع حملة عمرو بن العاص. فتذكر المصادر العربية أن عمرو عندما فتح مصر كان معه أربعة آلاف أو ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل «كلهم من عك» وفى رواية أخرى أن ثلثهم من غافق، وأنه فى أثناء توجهه إلى مصر، وبالتحديد عندما وصل إلى جبل الحلال (١)، انضمت اليه قبيلة راشدة وقبائل من لخم.

كما تشير المصادر أيضا الى أسماء لقبائل أخرى اشتركت مع عمرو بن العاص فى الفتح، وخاصة فى فتح قصر بابليون وهم: بنو همدان، وبنو الصدف، وبنو بكى، فقد قال عمرو بن العاص عنهم أثناء فتح قصر بابليون:

يوم لهمدان ويوم للصدف والمنجنيق فى بكى تختلف.

أما عن أماكن سكنى هذه القبائل، فتذكر المصادر العربية أن عمرو بن العاص عندما تم له فتح الاسكندرية نزل موضع فسطاطه، واتخذها عاصمة لمصر، وهنا انضمت القبائل العربية بعضها الى بعض، وتنافسوا فى المواضع، فولى عمرو بن العاص على الخطط معاوية بن حديج التجيبى، وشريك بن سُمى الغطيفى، وعمرو بن قحزم الخولانى، وحيويل بن ناشرة المعافرى، فقاموا بالفصل بين القبائل، وأنزلوهم فى الخطط، وكان ذلك فى عام ٢١هـ / ٦٤١م.

كما اختط العرب مدينة الجيزة على غرار خطط الفسطاط، وقد ذكرت المصادر العربية فى سبب بناء الجيزة أن عمرا بن العاص عندما رجع من الاسكندرية، ونزل الفسطاط، جعل طائفة من جيشه بالجيزة خوفا من عدو يغشاهم من تلك الناحية. ولما استقر فى الفسطاط أمر الذين خلفهم بالجيزة

(١) جبل الحلال: بالفتح، وهو جبل فى طريق مصر من الشام، وكان من منازل بنى راشدة.

أن ينضموا إليه، فرفضوا أن يتركوا أماكنهم، فكتب إلى عمر بن الخطاب بذلك، فكتب إليه عمر: « كيف رضيت أن تفرق عنك أصحابك؟ لم يكن ينبغي لك أن ترضى لأحد من أصحابك أن يكون بينهم وبينك بخر، لا تدرى ما يفجؤهم، فلعلك لا تقدر على غيابهم حتى ينزل بهم مائكره فاجمعهم إليك، فإن أبوا عليك، وأعجبهم موضعهم، فابن عليهم من فئ المسلمين حصنا». فجمعهم عمرو، وأخبرهم بكتاب عمر بن الخطاب، فامتنعوا من الخروج من الجيزة، فأمر عمرو ببناء الحصن، فبنى في عام ٢١هـ / ٦٤١م، وفرغ من بنائه عام ٢٢هـ / ٦٤٢م، وأمرهم عمرو بالخطط بها.

أما الأسكندرية، فيذكر ابن عبد الحكم أنه لم يكن بها خطط وإنما كانت أخاخذ، من أخذ منزلا، نزل فيه هو وبنو أبيه.

وكانت سكنى القبائل في الأسكندرية في هذه الفترة المبكرة للفتح - مرتبطة برياطهم. وقد ذكرت في فصل سابق أن عمرا بن العاص أقطع من أصحابه لربط الأسكندرية ربع الناس، وربعاً في السواحل، والنصف كانوا مقيمين معه، وكان مدة رياطهم^(٢) بالأسكندرية ستة أشهر في الصيف، يعقبهم شاتية ستة أشهر وهكذا.

وعن طريق سكنى الأسكندرية يقول ابن عبد الحكم عن يزيد بن أبي حبيب: «إن المسلمين لما سكنوها في رياطهم، ثم قفلوا^(٣) ثم غزوا، إبتدروا^(٤) فكان الرجل يأتي المنزل الذي كان فيه صاحبه قبل ذلك، فيبتدر، فيسكنه. فلما غزوا، قال عمرو: إني أخاف أن تخربوا المنازل إذا كنتم تتعاورونها^(٥) فلما كان عند الكريون^(٦) قال لهم: سيروا على بركة الله، فمن ركز منكم رمحه في

(٢) الرياط: المكان الذي يربط فيه الجيش. والجمع ربط.

(٣) قفل : رجع.

(٤) إبتدر القوم أمرا: بادر بعضهم بعضا إليه، أيهم يسبق إليه .

(٥) تعاور وتعاور القوم الشيء : تعاوطه وتداولوه.

(٦) الكريون: بكسر أوله، وسكون ثانيه، وفتح الياء المثناة من تحتها، وواو ساكنة، ثم نون. اسم لموضع قرب الأسكندرية والكريون بمركز كفر النوار - مديرية البحيرة.

دارفهي له، ولبنى أبيه، فكان الرجل يدخل الدار فيركز رمحہ في منزل منها، ثم يأتي الآخر فيركز رمحہ في بعض بيوت الدار، فكانت الدار تكون لقبيلتين، ثلاث، وكانوا يسكنونها. حتى اذا قفلوا سكنها الروم، وعليهم مَرْمُتُها (٧). فكان يزيد بن أبي حبيب يقول: لا يحل من كرائها شيء ولا بيعها، ولا يورث، ولا يورث منها شيء، إنما كانت لهم يسكنونها في رباطهم.

وكان هذا هو أول استيطان للقبائل العربية في مصر بعد الفتح العربي، ومنذ ذلك التاريخ بدأت القبائل العربية في الوفود إلى مصر بشكل متزايد وثابت، بعد أن ظهرت إلى جانب العامل الاقتصادي عوامل أخرى سياسية واقتصادية منها:

أولاً : تشجيع الخلفاء للقبائل العربية على الوفود إلى مصر لتعزيز الجند واستيطان البلاد.

ثانياً : أن أغلب الولاة الذين حكموا مصر في فجر الاسلام كانوا يصحبون معهم جيوشا عربية حتى نهاية العهد الأموي. وقد سبق لنا ذكر أعداد الجيوش التي جاءت إلى مصر في الفصل الخاص بالنظام الحربي .

ثالثاً: النفى السياسى. فقد نفى معاوية بن أبى سفيان جماعة من الأزد إلى مصر. كانوا قد خرجوا على زياد بن أمية بالبصرة، فعاقبهم معاوية بتغريبهم عن أوطانهم، وكان ذلك في عام ٥٣هـ / ٦٧٢م وأمير مصر في ذلك الوقت مسلمة بن مخلد (٤٧- ٦٢هـ / ٦٦٧- ٦٨١م) وكان عددهم حوالى ٢٣٠، فأنزلوا بالظاهر وهو أحد خطط مصر بالفسطاط.

· (٧) مرمة البناء أو الامر : أصلحه.

رابعاً: تحقيق توازن قبلى. فقد كانت هجرة قيس إلى مصر لتحقيق توازن قبلى بين عنصرى سبأ وقيس أو قحطان وعدنان، فيرى الدكتور عبد المجيد عابدين أن تشجيع القيسية لا ستيطان مصر كان للحد من سيطرة العنصر السبئى الذى كان مايزال يمثل الغالبية من عرب مصر، فقد كان إحداث التكافؤ بين العنصرين فى الحوف الشرقى يخفف من الأخطار التى قد تنجم من تفرد أعقاب سبأ واستئثارهم بالنفوذ.

خامساً: نقل قبائل بلى التى تؤلف ثلث قضاة فى بلاد الشام إلى مصر، وكان ذلك بأمر الخليفة عمر بن الخطاب. ولست أدري سبباً لهذا النقل، هل هو سبب سياسى للتخلص منهم لأنهم يكونون قوة فى بلاد الشام، أو سبب اجتماعى لتحقيق توازن قبلى فى مصر. ويرى محمد عزة دروزة أن ارسال هذه القبيلة إلى مصر كان بقصد الاستيطان.

سادساً: الهجرات الجماعية للقبائل العربية من أجل الانضمام لنوهم فى مصر، فيقول ابن عبد الحكم : « وكان بين القبائل فضاء من القبيل إلى القبيل، فلما مدَّت الأمداد فى زمن عثمان بن عفان وما بعد ذلك، وكثر الناس، وسَّع كل قوم لبنى أبيهم، حتى كثر البنيان والتأم».

سابعاً : ومن الأسباب أيضاً رغبة الوالى فى تواجد عصابة له فى مصر. فتذكر المصادر العربية أن عبد العزيز بن مروان عندما ولى مصر من قبل أبيه الخليفة مروان بن الحكم (٦٥هـ / ٦٨٤م) قال لأبيه: «ياأمير المؤمنين، كيف المقام ببلد ليس به أحد من بنى أبى؟»

وقد كان المرافقون للوالى ينضمون إلى قبائلهم فى مصر، ويستمرون مقيمين بها، بعد انتهاء ولاية الوالى، وانصرافه عن مصر.

اختلاط القبائل العربية بالمصريين:

نلاحظ أن العرب الأوائل الذين استقروا في مصر كانوا يقيمون في الفسطاط أو الجيزة أو الاسكندرية، فيقول المقرئ: « فانظر- أعزك الله - كيف كانت اقامة الصحابة؟ إنما هي بالفسطاط والاسكندرية، وإنه لم يكن لهم كثير اقامة بالقرى، وإن النصارى كانوا متمكنين من القرى، والمسلمون بها قليل، وإنهم لم ينتشروا بالنواحي إلا بعد عصر الصحابة والتابعين» .

لذا لم يختلط العرب بالمصريين في البداية، ولم يكن لهم تأثير يذكر على القبط سواء أكان هذا التأثير من ناحية انتشار الدين الاسلامي أم اللغة العربية، كما أن اختلاط القبائل العربية بأهل مصر عن طريق التزاوج أو الولاء كان نادرا في أول الأمر.

على أنه لم يلبث أن جدد الأسباب التي دفعت إلى الاختلاط بالمصريين، وتتمثل في الآتى :

الارتباج - رابطة الاسكندرية - الضيافة - مطالب الحياة اليومية.

أولا - الارتباج:

ويقصد بالارتباج نزول القبائل العربية في الريف في شهور الربيع بقصد المرمى. وكان الارتباج يتم وفقا لمخطط مرسوم وضع له منذ اللحظة الأولى للفتح. وفي ذلك نشير إلى الخطبة التي ألقاها عمرو بن العاص على جنوده، بمناسبة بدء موسم الارتباج، وفيها يقول : « يامعشر الناس، إنه قد تدلّت الجوزاء، وذكَتِ الشَّعْرَى، وأقلعت السماء، وارتفع الوياء، وقل الندى، وطاب المرمى، ووضعت الحوامل، ودرَجَتِ السخائل. وعلى الراعى بحسن رعيته حسن النظر، فَحَى لَكُمْ، على بركة الله إلى ريفكم فنالوا من خيريه ولبنه

وخرافه وصيده، وأربعوا خيلكم وأسمنوها وصونوها وأكرموها فانها ^٨جُنْتُكُمْ من عدوكم، وبها مغانمكم وأثقالكم. واستوضوا بمن جاورتموه من القبط خيرا حدثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله (ص) يقول : إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر، فاستوصوا بقبطها خيرا، فان لكم منهم صهرا وذمة. فعفوا أيديكم وفروجكم، وغضوا أبصاركم، ولا أعلن ما أتى رجل قد أسمن جسمه وأهزل فرسه، وأعلموا أنى معترض الخيل كاعتراض الرجال، فمن أهزل فرسه من غير علة حططته من فريضته قدر ذلك. وأعلموا أنكم فى رباط إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم، وتشوق قلوبهم اليكم وإلى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية. وحدثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله (ص) يقول اذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفا، فذلك الجند خير أجناد الأرض. فقال له أبو بكر : ولم يارسول الله؟ قال: لأنهم وأزواجهم فى رباط إلى يوم القيامة. فاحمدوا الله معشر الناس على ما أولاكم، فتمتعوا فى ريفكم ما طاب لكم، فاذا ببس العود، وسخن العمود وكثر الذباب وحمض اللبن، وصُوح البقل ^٩، وانقطع الورد من الشجر، فحى على فسطاطكم على بركة الله، ولا يقدمن أحد منكم ذو عيال على عياله، إلا ومعه تحفة لعياله على ما أطاق من سعته أو عسرتة. أقول قولى هذا واستحفظ الله عليكم» .

ويظهر من هذه الخطبة النقاط الآتية:

أولا : أن موسم الارتباج كان يبدأ فى أخريات الشتاء وقد «تدلت الجوزاء، وذكت الشعرى»، ويستمر حوالى ثلاثة أشهر، ثم ينتهى فى أوائل الصيف.

(٨) الجُنَّة: جمع جُنَن. بمعنى السقرة.

(٩) صُبُوح البقل : جففته.

ثانيا: أن من أهداف الارتباع الهامة كان إطعام الخيل وتقويتها، على اعتبار أنها تشكل جانبا أساسيا من قوة العرب العسكرية فى ذلك الوقت.

ثالثا: وفيها يوصى عمرو جنده بأن يحسنوا معاملة القبط، سكان البلاد الأصليين، عندما يتصلون بهم فى خلال الارتباع، ويؤكد وصيته هذه بأحاديث منسوبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، تحض على معاملة المصريين بالحسنى. ولما كان عمرو على علم بالوسائل التى يلجأ إليها الغزاة عادة فى الاعتداء على أهالى البلاد المفتوحة، فإنه يأمر جنده هنا أمرا صريحا بأن يكفوا أيديهم عن أموال المصريين وأبدانهم. وأن يعفوا فروجهم عن أعراضهم، وأن يغضوا أبصارهم عن نساءهم.

رابعا: وفيها ينبه جنده إلى دقة موقفهم فى مصر نتيجة لموقع مصر الحساس من جهة، وثروتها الواسعة من جهة أخرى، وما يتطلبه ذلك من يقظة دائمة واستعداد كبير.

خامسا: كان الارتباع نوعا من العطلة والاستجمام والراحة من مشاق القتال، فينالوا من خيريه ولبنه وخرافه وصيده، مع تجنب الترف فى المأكل والملبس، فإنه يفسد الدين ويقصر الهمم.

سادسا: ولما كان الجنود لا يصحبون نساءهم معهم فى هذه الرحلة، فقد حرص عمرو على أن يذكرهم بأن يأخذوا بعض الهدايا معهم إلى أسرهم عند عودتهم.

وعن مناطق الارتباع يقول عبد الله خورشيد:

«وبالرغم من أنه كان يترك للقبيلة اختيار الجهة التى تفضل الارتباع بها فى الدلتا أو الصعيد، فإن الوالى كان يصدر أمرا كتابيا يحدد فيه القرية التى تذهب إليها (القبيلة)، وكميات اللبن التى يسمح لها بالحصول عليها من المصريين.

وبالنظر فى الجهات التى كانت القبائل تختارها للارتباع نستطيع أن نلاحظ فى وضوح كاف أن هذه الحركة كانت تتركز فى كور أو مناطق بعينها هى:

منف^(١٠)، ووسيم^(١١) لخصبهما، إلى جانب قريهما من الفسطاط، ومنوف^(١٢) لخصبها كذلك. كما كانت تتركز في الشمال الشرقي أي في تلك الكور التي أصبحت فيما بعد تؤلف ما يعرف باسم (الحوف الشرقي) وهي: عين شمس^(١٣)، أتريب^(١٤)، بنا^(١٥)، بسطة^(١٦) فريبط، طرايبية، صان^(١٧)، إبليل^(١٨)، نتو، تمى.

- (١٠) منف: بالفتح ثم السكون وفاء. اسم مدينة فرعون، وهي من المدن القديمة في أول الصعيد على غربي النيل، وبينها وبين الفسطاط ثلاثة فراسخ. واسمها القديم مافه أي مدينة الثلاثين، وبالرومية منفيس.
- (١١) وسيم: بالفتح ثم الكسر وميم. كورة في جنوبي مصر. قال البكري: تخرج من الفسطاط وتسير إلى الجيزة، وهي في الضفة الغربية من النيل، ويقرب الفسطاط على رأس ميل منها قرية يقال لها وسيم. نكرها محمد رمزي في قاموسه باسم أوسيم، وقال إن اسمها العربي القديم كان وسيم. وكانت أوسيم قاعدة قسم أول جيزة، ويعرف بقسم أوسيم لوجود مقره بها، ثم نقل منها ديوان المركز والمصالح الأخرى إلى امبابية لوقوعها على السكة الحديدية في سنة ١٨٨٤، على أن يبقى باسم مركز أوسيم، وفي سنة ١٨٩٦ صدر قرار بتسميته مركز امبابية لوجوده بها.
- (١٢) منوف: من قرى مصر القديمة. أسفل الأرض (الوجه البحري) من بطن الريف، ويقال لكورتها المنوفية. ومنوف الآن قاعدة مركز منوف - مديرية المنوفية.
- (١٣) عين شمس: كانت من أشهر المدن المصرية القديمة، موقعها في الشمال الشرقي للقاهرة، بأراضي ناحية المطرية، من ضواحي القاهرة، وعلى بعد عشرة كيلومترات منها. واسمها المصري القديم « أتم » أو « رع » ومعناها الشمس. والعبري « أون »، والرومي « هليوبوليس » أي مدينة الشمس. وقد اندثرت هذه المدينة، محلها اليوم يعرف بقل الحصن، وماجاوره بأرض المطرية حيث توجد إحدى المسلتين اللتين أقامهما الملك سنوسريت الأول المعروف بسيزوستريس الأول على باب معبد المدينة.
- (١٤) أتريب: بالفتح ثم السكون وكسر الراء وياء ساكنة وياء. وهي مدينة مصرية قديمة. وقد بدأ الخراب في مساكن هذه المدينة من القرن السابع الهجري، ثم اندثرت بعد ذلك. ويعرف محلها اليوم باسم تل أتريب بمركز بنها - مديرية القليوبية.
- (١٥) بنا: هي من المدن المصرية القديمة. نكرها محمد رمزي في قاموسه باسم بنا أبو صير بمركز سمفود - مديرية الغربية وتنسب إلى بوصير لأنها تجاوزها.
- (١٦) بسطة: بالفتح ويقال بسطة بالضم. كورة أسفل الأرض بمصر.
- وقد اندثرت هذه المدينة وتعرف أطلالها الآن باسم تل بسطة، وكانت مبانيتها تشغل أرض حوض التل رقم ١٢ بأراضي ناحية شوبك بسطة بمركز الزقازيق بمديرية الشرقية. وهذا الحوض يقع في الجنوب الشرقي لمدينة الزقازيق وعلى بعد كيلو متر واحد منها.
- (١٧) صان: من كور أسفل الأرض وفي العهد العثماني عرفت باسم صان الحجر بسبب ما يوجد في أطلالها القديمة من الأحجار الباقية من معبد ما المصري القديم. وفي سنة ١٩٣٢ قسمت أراضي صان الحجر هذه إلى ناحيتين تميزت هذه وهي الأصلية منهاما بالقليوبية بسبب موقعها بالنسبة للآخرى البحرية المستجدة. وصان الحجر بمركز فاقوس - مديرية الشرقية.
- (١٨) إبليل: بالكسر ثم السكون ولام مكسورة وياء ساكنة ولام أخرى. قرية من قرى مصر أسفل الأرض. وقد اندثرت هذه المدينة، ومكانها يعرف اليوم بتل بليم المحرفة عن إبليل، ويقال له أيضا تل البطيخ بجزيرة في بحيرة المنزلة شرقي صان الحجر، على بعد ٣١ كيلو مترا، وغربي محطة الكاب الواقعة على السكة الحديدية الموصلة بين الاسماعيلية وبورسعيد بمسافة ١٤ كيلو مترا.

ويلحظ أن هذه الكور تتمتع بالخصب، إلى جانب متاخمتها من الشرق للصحراء، حيث كان يتهيا للعرب الصيد، وتأديب خيولهم، وتدريبها، مع الإقامة في جو قريب إلى جو البادية التي مايزال الحنين الشديد يجذب قلوبهم إليها. أما الاتجاه إلى الشمال فكان محدودا ولا يتجاوز بنا، ويوصير والْبَدْقُون (١٩) وخِرْبَتَا (٢٠) وسَخَا (٢١). والقبائل التي كانت تذهب هناك قليلة.

وكذلك كان الاتجاه إلى الجنوب محدودا، ففي الفيوم كان يرتبع بعض القبائل، وأقصى ماوصلوا إليه هو أهْناس (٢٢) والبهنسا والقيس حيث كانت ترتبع قبيلة واحدة.

وهكذا كانت القبائل تقل كلما زاد الاتجاه نحو الشمال أو الجنوب، في حين تتركز حول الفسطاط شمالا وجنوبا وشرقا وغربا، بحيث يمكن القول بأن الارتباع كان يتم فيما يشبه دائرة مركزها الفسطاط. ولا بد أن القبائل كانت تختار أماكن ارتباعها وفقا لاعتبارات معينة، اذ نلاحظ مثلا أن في منف ووسيم القريبتين من العاصمة كانت ترتبع القبائل ذات النفوذ مثل: بلى وتجبب. ومثل - بالذات - آل عمرو بن العاص، وآل عبد الله بن سعد بن أبي سرح - أول أميرين لمصر.

(١٩) البنقون: وردت في معجم البلدان باسم البنقون كورة بمصر وهي من كور الحوف الغربية. .
(٢٠) خربتتا: هي من المدن القديمة. وردت في معجم البلدان خربتتا قرية وكورة من كور مصر بالقرب من الإسكندرية. خربتتا بمركز كوم حمادة - مديرية البحيرة.

(٢١) سخا: كورة بمصر، وقصبتها سخا بأسفل مصر وسخا بمركز كفر الشيخ - مديرية الغربية.
(٢٢) أهْناس: بالفتح. إسم لموضعين بمصر أحدهما إسم كورة في الصعيد الأدنى يقال لقصبتها: أهْناس المدينة، وأضيفت نواحيها إلى كورة البهنسا، وأهْناس هذه قديمة أزلية وقد خرب أكثرها وهي على غربي النيل، ليست ببعيدة عن الفسطاط. وقد ذكر محمد رمزي في قاموسه أن أطلال هذه المدينة لا تزال ظاهرة بالقرب من مساكن القرية الحالية.

والموضع الثاني: أهْناس الصغرى وهي قرية كبيرة في كورة البهنسا أيضا. ويقول محمد رمزي: ولما كانت كلمة الصغرى تحط من شأن هذه القرية غيرت بالخضرا تفاؤلا بلون زرعها.

وكانت العصبية القبلية موضع اعتبار بوجه عام، بحيث كانت القبائل المتقاربة تشترك فى مرتبعات واحدة مثل : بلىَ وأخَم، وجُدَام، وغِفَار، وأَسَلَم، وآل عمرو، وآل عبد الله بن سعد. وقد يكون للقبيلة أكثر من مرتبة مثل : بلى، وتُجِيب، وأخَم، والمَعَاقر. ويبدو أن ذلك يرجع إلى كبر حجم هذه القبائل وأمثالها.

وقد كان لحركة الارتباع هذه تأثير كبير فى اختلاط القبائل العربية بالمصريين، إذ هيأت للعرب فرصة التعرف على البيئة الجديدة وسكانها، فى نفس الوقت الذى هيأت فيه للمصريين أن يتعرفوا إلى هؤلاء الوافدين الجدد.

ومن هنا يمكن اعتبار الارتباع الخطوة الأولى، أو حجر الأساس فى عملية تعريب مصر. ولا أدل على ذلك من أن قبائل بعينها انتهى بها الأمر إلى اتخاذ مرتبعاتها منازل، والاقامة فيها بصفة دائمة بعد أن تركت الفسطاط نهائيا، مثل: مدلج ومن حالفهم من حمير وثُبَّحان الذين استقروا فى خَرِبَتَا. ومثل : خُشَيْنَ وطائفة من لخم وجذام نزلوا أكتاف صان، وإبليل، وطرايبة من الحوف الشرقى، حيث انتهى بهم الأمر إلى الذوبان التام فى سكان تلك المناطق الأصليين.

ولما كانت حركة الارتباع قد تركزت حول الفسطاط فى الجيزة ووسط الدلتا وشرقيها، فكان من الطبيعى أن تكون هذه المناطق أسرع تعريبا من مناطق أخرى مثل: شمال الدلتا وغربيها والصعيد.

وقد كان يسود القرية المصرية طوال فترة الارتباع، التى تمتد بامتداد وجود البرسيم فى الحقول . وقد تأخذ جزءا غير قصير من الصيف - جو غير عادى من النشاط والجلبة والبهجة، تتخلله المبادلات الاقتصادية السانجة بين البدو وأهل القرى، وتمارس فيه العلاقات الاجتماعية الانسانية المألوفة من تزاور، وتهاد، ومجاملة. وقد يحدث أن يتزوج أحد العرب من

مصرية، فى حين لا يحدث العكس، « لأن العربى يفضل أن يأكل ابنته التمساح، ولا يأخذها الفلاح! ».

ثانيا: رابطة الاسكندرية:

يقصد برابطة الاسكندرية القوات العربية المرابطة فى الاسكندرية. وتعتبر عاملا آخر من عوامل اختلاط العرب بالمصريين، ويرجع السبب فى ذلك إلى أن هذه القوات لم تكن تتخذ معسكرا خاصا لها كالفسطاط، وانما كانت تقيم طوال فترة الرباط فى مساكن الأهلىين العادية، وكان لكل عريف قصر ينزل فيه بمن معه من أصحابه.

وهكذا، اذا كانت حركة الارتباج لم تبلغ الاسكندرية، لبعدها من جهة، ولعدم صلاحيتها للمراعى من جهة أخرى - فلا شك فى أن مرابطة هذه الأعداد الهائلة من الجند العرب فيها منذ اللحظات الأولى، واقامتهم بين الأهالى كان له أثر هام فى تعريب تلك المدينة وغيرها من الثغور مثل: رشيد، واخنا، والبرلس، والأشمتوم^(٢٣)، ودمياط.

ثالثا: الضيافة:

أما العامل الثالث الذى أدى إلى اختلاط العرب بالمصريين، فهو الشرط الذى ورد فى نص الصلح الذى تم بين العرب والمصريين بعد الفتح من أن «للمسلمين عليهم النُّزُل لجماعتهم حيث نزلوا، ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين، أو أكثر من ذلك، كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم»^(٢٤)

(٢٣) الاشتوم : بالضم ثم السكون، وتاء مثناه مضمومة، والواو ساكنة، ويميم موضع قرب تنيس .

(٢٤) وترى الدكتور فاطمة مصطفى عامر أن شرط الضيافة كان فى الغالب على أهل القرى دون المدن . ويرجع ذلك - كما تقول - إلى أن الخليفة عمر رضى الله عنه، قد حرم على الجند المسلمين سكناً القرى حتى لا ينشغلوا بالزراعة، وامتلاك الأراضى وأمرهم بسكنى المدن حتى يكونوا دائما على أهبة الاستعداد للجهاد والفتح.

وهكذا كان للعرب أفرادا وجماعات الحق فى أن ينزلوا ضيوفا على المصريين لمدة أقصاها - نظريا - ثلاثة أيام، يتمتعون فى أثنائها بكل مايجب للضيف من حقوق الضيافة . ويقول عبد الله خورشيد: إن هذه المسألة يبدو أنها نظمت بحيث كانت القرية كلها تتحمل نفقات من ينزل عليها من الضيوف العرب . فعند تقدير الخراج المستحق على القرية كان يجتمع عرفاؤها ومازوتها ورؤساء أهلها ويتناظرون، فيخرجون من زمام القرية، الذى سيقدر الخراج على أساسه، عددا من الفدادين، يخصص ريعها للانفاق على المرافق العامة مثل : الكنائس والحمامات والمعدنيات و- وهو مايمهنا هنا - الضيافة للمسلمين ونزول السلطان .

ويرى عبد الله خورشيد أنه سواء كان العربى ينزل ضيفا على المصرى فى بيته الخاص أو فى المضيفة العامة، فلا بد أن هذا الشكل من أشكال الاتصال - وهو الضيافة - كان له أثره فى تقارب العرب والمصريين.

رابعا: مطالب الحياة اليومية:

على هذا النحو، كان العرب يتحركون فى مصر، ويختلطون بالمصريين عند الارتباع، وفى الرباط، وعند الضيافة، ولا شك فى أن ذلك كان يتيح للجانبين فرصا هامة للاحتكاك والاختلاط. وكانت هناك فرص أخرى كثيرة تتعدد وتتجدد بتعدد وتجدد مطالب الحياة اليومية نفسها، فقد اعتمد العرب اعتمادا يكاد يكون كاملا على المصريين فى أمور بعينها، كأعمال الديوان، والطب، ومسح الأراضى، وأعمال الزراعة، وبناء البيوت، وبناء السفن، وصناعة الأقمشة وغيرها.

والسؤال الآن : ما هى الأعمال التى كان يقوم بها العرب فى مصر؟

للإجابة على هذا السؤال نلاحظ وجود فترتين متميزتين فى تاريخ مصر: الأولى، من الفتح حتى سقوط العرب من الديوان فى عام ٢١٨هـ / ٨٣٣م . والفترة الثانية، ماتلى ذلك .

وفى الفترة الأولى نلاحظ أن عمر بن الخطاب قد حرم على العرب الاشتغال بالزراعة أو امتلاك الأراضى (وقد ذكرنا ذلك فى فصل سابق)، وبالتالي فلم يكن العرب يشتغلون فى مصر بغير السياسة والحكم والحرب .

على أن هناك حالة استثنائية لذلك هى قبيلة قيس، التى جاءت إلى مصر عام ١٠٩هـ / ٧٢٧م بشرط ممارستها لمهنة الزراعة.

وعن سبب مجيء هذه القبيلة إلى مصر يقول الكندى : إنه فى ولاية الوليد بن رفاعه على مصر عام ١٠٩هـ / ٧٢٧م نقلت قيس إلى مصر، وذلك عندما تولى عبيد الله بن الحجاج الخراج فى مصر من قبل هشام بن عبد الملك، فقد قال : « ما أرى لقيس فيها حظا إلا لناس من جديلة وهم فهم وعدوان^(٢٥) فكتب إلى هشام: إن أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - قد شرف هذا الحى من قيس، ونعشهم ورفع من ذكرهم، وإنى قدمت مصر فلم أر لهم فيها حظا إلا أبياتا من فهم، وفيها كور وليس فيها أحد ، وليس يضر بأهلها نزولهم معها، ولا يكسر ذلك خراجها، وهى بلبيس، فان رأى أمير المؤمنين أن ينزلها هذا الحى من قيس فليفعل.

فكتب اليه هشام: أنت وذلك. فبعث إلى البادية، فقدم عليه مائة أهل بيت من بنى نصر، ومائة أهل بيت من بنى عامر، ومائة أهل بيت من أبناء هوازن، ومائة أهل بيت من بنى سليم . فأنزلهم بلبيس، وأمرهم بالزرع، ونظر إلى الصدقة من العشور فصرفها اليهم، فاشتروا إبلا، فكانوا يحملون الطعام إلى القلزم، وكان الرجل يصيب فى الشهر العشرة دنانير وأكثر وأقل، ثم أمرهم باشتراء الخيول، فجعل الرجل يشتري المهر، فلا يمكث إلا شهرا حتى يركب، وليس عليهم مؤونة فى اعلاف إبليهم ولا خيلهم لجودة مراعاهم.

(٢٥) وقد سمي عدوان لانه قتل أخيه فهم. واسمه الحقيقي الحارث.

فلما بلغ ذلك عامة قومهم تحمل اليهم خمسمائة أهل بيت من البادية، فكانوا على مثل ذلك . فأقاموا سنة، فأتاهم نحو من خمسمائة أهل بيت. فمات هشام (١٢٥هـ / ٧٤٢م) وبلبيس ألف وخمسمائة أهل بيت من قيس . حتى اذا كان فى زمن مروان بن محمد (١٢٧-١٣٢هـ / ٧٤٤-٧٤٩م) وولى الحوثر بن سهيل الباهلى مصر (١٢٨ - ١٣١هـ / ٧٤٥ - ٧٤٨م)، مالت إليه قيس، فمات مروان وبها ثلاثة آلاف أهل بيت، ثم توالدوا، وقدم عليهم من البادية من قدم .

وهكذا فان العرب فى زمن الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥هـ / ٧٢٣ - ٧٤٢م). كما تقول الدكتورة سيدة كاشف - أخذوا يتخلون عن السياسة التى اتبعوها منذ الفتح، وهى سياسة الترفع عن الاختلاط بالأهالى، وعن الاشتغال بالزراعة. وترى أيضا أنه ربما أراد الخليفة من نقل هذه البطون إلى مصر، والسماح لها بالاشتغال بالزراعة، أن يتقوى المسلمون بالعرب ضد الأقباط الذين بدأوا ثوراتهم، أو أن يحل العرب محل من يموت من الأقباط فى هذه الثورات، أو من يهجر أرضه، وذلك حتى لا يصيب الزراعة ضرر.

على كل حال، فلم يلبث أن جاء سقوط العرب من الديوان عام ٢١٨هـ / ٨٣٣ م، وقطع أعطياتهم زمن المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧هـ / ٨٣٣ - ٨٤١م)، فى ولاية كيدر بن نصر بن عبد الله على مصر (٢١٦-٢١٩هـ / ٨٣١ - ٨٣٤م). فلقد كان من نتيجة ذلك أن وجد العرب أنفسهم أمام ضرورة احترام الزراعة والتجارة والصناعة وغيرها من المهن التى كانت حتى ذلك الوقت وقفا على أهالى البلاد .

وبذلك فقد العرب مركزهم السامى فى الدولة الاسلامية، واضطروا إلى الانتشار فى الريف، والاختلاط بالمصريين والتزاوج من بناتهم، والاشتغال بهذه الأعمال التى ترفعوا من قبل عن الاشتغال بها. فيقول المقرئى : « وكان

من خير أراضى مصر، بعد نزول العرب بأريافها، واستيطانهم وأهاليهم فيها، واتخاذهم الزرع معاشا وكسبا، وانقياد جمهور القبط إلى إظهار الاسلام، واختلاط أنسابهم بأنساب المسلمين لنكاحهم المسلمات».

وترى الدكتور سيدة كاشف أن العرب منذ القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) أصبحوا لا يميزون عن أهل البلاد، ودليلها على ذلك شواهد القبور. فقد احتفظ العرب بالانتساب لقبائلهم حوالى قرنين من الزمان، ففى معظم شواهد القبور التى اكتشفت حديثا فى مقابر أسوان والفسطاط، كان اسم الميت يتبع باسم قبيلته فى خلال القرنين الأولين للهجرة، ولكن فى خلال القرن الثالث الهجرى نجد أن اسم القبيلة قد حل محلها اسم الجهة أو الاقليم الذى ينتسب اليه المتوفى، فيكتب فلان الكوفى أو المصرى ... الخ.

ثورات العرب:

كان من أثر اشتغال العرب بالزراعة وامتلاك الأراضى، أن أخذوا يدفعون الخراج، وبالتالي أخذوا يتعرضون لنفس المظالم التى كان يتعرض لها الأقباط والمسألة الذين يدفعون الخراج، من زيادة الخراج عليهم بدون وجه حق. لذلك فقد أخذوا يشاركونهم ثوراتهم .

ففى السنوات الأولى نلاحظ قيام الاقباط وحدهم بهذه الثورات، ثم بعد مرور فترة تبدأ المصادر العربية فى ذكر ثورات العرب مع الاقباط، مما يدل على نوع من الاندماج بين العرب والمصريين، وبالتالي تضامنهم ضد أى اعتداء يقع عليهم.

فتذكر المصادر العربية أن أول انتفاض للقبط فى مصر كان عام ١٠٧هـ / ٧٢٥م فى ولاية الحر بن يوسف على مصر (١٠٥-١٠٨هـ / ٧٢٦-٧٢٣م). وكان ذلك لأن عبد الله بن الحبحاب صاحب الخراج أرسل إلى هشام بن عبد الملك بأن أرض مصر تحتل الزيادة، فزاد على كل قيراط دينارا.

ثم تبدأ المصادر العربية فى ذكر انتفاضات القبط المختلفة على طول السنين، ومنها : انتفاضة القبط عام ١٢١هـ / ٧٣٨م فى ولاية حنظلة بن صفوان الثانية (١١٩-١٢٤هـ / ٧٣٧-٧٤١م). ثم فى عام ١٣٢هـ / ٧٤٩م فى سمنود. وفى عام ١٣٥هـ / ٧٥٢م بسمنود أيضا فى ولاية أبى عون عبد الملك بن يزيد (١٣٣ - ١٣٦هـ / ٧٥٠-٧٥٣م). وفى عام ١٥٠هـ / ٧٦٧م أيضا خرج القبط بناحية سخا أثناء ولاية يزيد بن جاتم على مصر من قبل المنصور (١٤٤-١٥٢هـ / ٧٦٦-٧٦٩م). وفى عام ١٥٦هـ / ٧٧٢م وفى أثناء ولاية موسى بن على بن رباح على مصر (١٥٥-١٦١هـ / ٧٧١-٧٧٧م) خرج القبط ببليهب.

ثم تبدأ المصادر فى ذكر انتفاضات العرب الذين كانوا يشتغلون بالزراعة من القيسية واليمانية، بسبب زيادة الخراج، وفى أحيان كثيرة تشير إلى ثورات قام بها العرب والأقباط معا.

وأول انتفاضات العرب كانت فى عام ١٦٧هـ / ٧٨٣م فى ولاية موسى بن مصعب على مصر من قبل المهدي (١٦٧-١٦٨هـ / ٧٨٣-٧٨٤م)، وكان ذلك بسبب تشدده فى استخراج الخراج، كما أنه زاد على كل فدان ضعف مايقبل به، فثار قيس واليمانية وهم أهل الحوف.

وفى ولاية اسحاق بن سليمان من قبل الرشيد (١٧٧ - ١٧٨هـ / ٧٩٣ - ٧٩٤م) خرج عليه أهل الحوف، بسبب زيادة الخراج على المزارعين «زيادة أجحفت بهم» - على حد تعبير الكندى.

وفى ولاية الليث بن الفضل على مصر من قبل الرشيد (١٨٢ - ١٨٧هـ / ٧٩٨ - ٨٠٢م)، ثار أهل الحوف عام ١٨٦هـ / ٨٠٢م، وكان السبب فى ذلك أنه «بعث بمساح يمسحون عليهم أراضى زرعهم، فانتقصوا من القصبه أصابع، فتظلم الناس إلى الليث، فلم يسمع منهم. فعسكروا، وساروا إلى الفسطاط».

والغريب أن الليث بن الفضل سافر إلى هارون الرشيد في عام ١٨٧ هـ / ٨٠٢ م، وطلب منه أن يبعث معه بالجيش «لأنه لا يقدر على استخراج الخراج من أهل الحوف إلا بجيش يبعث به معه»!

وفي ولاية الحسين بن جميل من قبل الرشيد على مصر (١٩٠ - ١٩٢ هـ / ٨٠٥ - ٨٠٧ م)، امتنع أهل الحوف من أداء الخراج، فأرسل إليهم الرشيد جيشاً لمحاربتهم بقيادة يحيى بن معاذ. ويذكر الكندي أنه في ولاية مالك بن دلهم من قبل الرشيد (١٩٢ - ١٩٣ هـ / ٨٠٧ - ٨٠٨ م) ورد كتاب الرشيد على يحيى بن معاذ، يأمره بالخروج إليه، فكتب إلى أهل الأحواف أن «أقدموا حتى أوصيكم مالك بن دلهم، وأدخل فيما بينكم وبينه في أمر خراجكم». فدخل كل رئيس منهم من اليمانية والقيسية، وقد أعد لهم القيود، فأمر بالأبواب، فأخذت، ثم دعا بالحديد فقيدهم، وتوجه بهم إلى مقر الخلافة وذلك عام ١٩٢ هـ / ٨٠٧ م.

كما قامت ثورات العرب من أهل الأحواف، خاصة أهل تنو وتنمي، في ولاية حاتم بن هرثمة (١٩٤ - ١٩٥ هـ / ٨٠٩ - ٨١٠ م).

كذلك قامت ثورة في ولاية العباس بن موسى عام (١٩٨ هـ / ١٨٣ م) على مصر من قبل المأمون. فقد أرسل ابنه عبد الله إلى مصر كخليفة له، وقد «تشدد على أهل مصر»، فثاروا عليه. وقد وقف العرب بجوارهم فيقول أبو المحاسن «ووافقهم جند مصر». فمنع عنهم أعطياتهم، واجتمع الجميع - كما يذكر أبو المحاسن - وثاروا، ووقفوا جملة واحدة، حتى أخرجوه من البلاد.

وفي ولاية عيسى بن يزيد الجلودى على مصر عام (٢١٢ - ٢١٤ هـ / ٨٢٧ - ٨٢٩ م)، ثار أهل الحوف أيضاً، وذلك بسبب تعسف صالح بن شيرازاد، صاحب الخراج في ذلك الوقت، الذي «ظلم الناس وزاد عليهم في خراجهم»، مما أدى إلى إندلاع الثورة.

وفى ولاية عيسى بن يزيد الثانية عام (٢١٤ - ٢١٥هـ / ٨٢٩ - ٨٣٠م)، قام أهل الحوف بالثورة، مما دفع المأمون إلى إرسال أخيه المعتصم (أبو اسحاق بن هارون) إلى مصر، وبالفعل خرج المعتصم من بغداد فى أربعة آلاف من الجنود الترك، فقاتل أهل الحوف من القيسية واليمانية وقتلهم ومهد البلاد.

وفى ولاية عيسى بن منصور عام (٢١٦هـ / ٨٣١م) ثارت أسفل الأرض - كما تقول المصادر العربية - «عريها وقبطها»، وكان ذلك بسبب سوء سيرة العمال فيهم، وقد امتدت الحروب بينهم وبين عساكر الفسطاط، إلى أن قدم الخليفة عبد الله المأمون إلى مصر عام ٢١٧هـ / ٨٣٢م لاختمادها، فقاتلهم وهزمهم، ثم رحل بعد تسعة وأربعين يوماً.

ويذكر المقرئى أنه إذا كانت الثورات التى كان القبط يقومون بها قبل دخول المأمون مصر دليلاً على «ما هم عليه من القوة والكثرة». إلا أنه بعد مجيء المأمون مصر لم تقم لهم قائمة - كما يفهم من النص. وفيما يبدو أن ذلك صحيح، لأن المصادر العربية - فى حدود علمى - لم تعد تذكر شيئاً بعد ذلك عن ثورات القبط، وإنما اقتصر كلامها على ذكر ثورات العرب وخلافات القبائل العربية مع بعضها مثل:

ثورة أهل الحوف فى ولاية موسى بن أبى العباس عام ٢١٩هـ / ٨٢٤م، وثورة أهل الحوف أيضاً، وأهل الجيزة فى ولاية مزاحم بن خاقان فى عام ٢٥٣هـ / ٨٦٧م.

توزيعات القبائل العربية فى مصر

بعد أن أصبحت القبائل العربية جزءاً من نسيج مصر الاجتماعى، فقد يبدو من الضرورى هنا أن نقدم دراسة لهذه القبائل وتوزيعاتها فى مصر حسب المناطق التى نزلت فيها.

أولاً - القبائل التي سكنت الفسطاط:

وتنقسم إلى قحطانية وعدنانية، ثم تجمعات قبلية منهما.
أما القحطانية فقد توزعت على الخطط على النحو الآتي:-

(أ) خطط القبائل القحطانية من الهميسع بن حمير:

١ - خطط حَضْرَمَوْت: وهم بنو حَضْرَمَوْت بن عمرو بن قيس بن معاوية
ابن حمير.

٢ - خطط الصَّدِف: وهم بنو مالك بن سهل بن عمرو بن قيس بن حمير
من قبائل اليمن. وهم من أولاد حضرموت. وقد سمي الصدف لأنه صدف
بوجهه عن قومه حين أتاهم سيل العرم.

٣ - خطة رُعَيْن: وهم بنو رعين بن زيد بن سهل بن يَعْفَر بن مُرَّة بن أَدَد.

٤ - خطة بنى الكَلَاع: وهو الكلاع بن شَرَحْبِيل بن سعد بن حَمِير.

٥ - خطة يَحْصُب: وهم بنو يحصب بن مالك بن أسلم بن زيد بن غوث بن
حمير.

٦ - خطة سيبان: قبيلة من الهميسع، اختلطوا بمصر، وكان لهم مسجد
باسمهم في الفسطاط.

٧ - خطة بنو الرجبة: وهم بنو الرجبة بن زرعة بن كعب. قبيلة من
الهميسع، اختلطوا بالفسطاط.

٨ - خطة القبض: وهم بنو القبض بن مَرْتَد. ويرى عبد الله خورشيد أن
بنى القبض ربما كانوا بَطْنَا من الرعين من الهميسع بن حمير.

(ب) خطط القبائل القحطانية من قضاة بن مالك بن حمير:

× بنو مَهْرَة: وهم بنو مهرة بن حِيدَان بن عمرو بن إلْحَاف بن قُضَاعَة بن
مالك بن حمير، من قبائل اليمن.

(ج) خطط القبائل القحطانية من عريب من كهلان:

١ - بنو كِنْدَة: قبيلة من عدى من مرة من عريب من كهلان. وكِنْدَة: بكسر الكاف وسكون النون وفتح الدال المهملة وهاء فى الآخر. وسمى كِنْدَة لأنه كند أباه أى كفر نعمته. وقد شهدت فتح مصر.

٢ - بنو تجيب: وهم بنو عَدِيٍّ وسعد ابنى الأشرس بن شبيب بن السُّكَن بن الأشرس بن كنده. وتجيب اسم أمهما، وقد عرفت القبيلة بها.

٣ - خطط خَوْلَان: بفتح الخاء المعجمة وسكون الواو ولام ألف ثم النون. وهم: بنو خَوْلَان بن عمرو بن مالك بن زيد بن عريب.

٤ - خطط مَذْحِج: بفتح الميم وسكون الذال المعجمة وكسر الحاء المهملة ثم جيم. وهم بنو مالك بن مُرَّة بن أَدَد بن زيد بن كهلان بن عبد الله.

٥ - بنو الأشعرين: بفتح الهمزة وسكون الشين المعجمة وفتح العين المهملة. وهم فرع من عريب من القحطانية. وهم بنو الأشعر بن أد بن زيد بن عريب بن زيد بن كهلان. وقيل سمي الأشعر لأن أمه ولدته وهو أشعر. وقد شهدوا مصر، وكانت خطتهم مع المعافر.

٦ - بنو سعد: وهم بطن من جذام من عدى من مرة من عريب، وقد شهدت فتح مصر، واختلطت بها.

٧ - خطة بنى وائل: وهم بطن من جذام من عدى من مرة من عريب. وهو وائل بن زيد مناة بن أفضى بن إياس بن حَرَام بن جذام بن عدى.

٨ - خطة المعافر: وهم من قبائل مالك بن مرة من عريب. وهم بنو المعافر ابن يَعْفَر بن مُرَّة بن أَدَد.

٩ - بنو لَخْم: بفتح اللام وسكون الخاء المعجمة وميم فى الآخر. وهى ثلاث:

الأولى: بنو لخم بن عَدِيٍّ بن مُرَّة بن أَدَد ومن خالطهم من جذام.

الثانية: بنو عبد ربه بن عمرو بن الحارث بن وائل بن راشدة بن لخم.

الثالثة: بنو راشدة بن أَدَب بن جَزِيلَة بن لخم.

وقد ذكرت سابقاً أن بنى راشدة من القبائل التى انضمت إلى عمرو بن العاص عندما مر بجبل الحلال.

(د) خطط القبائل القحطانية من الأزْد من مالك من كهلان:

١ - خطط غافق: من قبائل الأزْد. وهم بنو غافق بن الحارث بن عكّ بن عُدْثان بن عبد الله بن الأزْد.

٢ - بنو غنث: من قبائل الأزْد.

٣ - بنو شبابة: من قبائل الأزْد.

٤ - بنو خثيم: من قبائل الأزْد.

٥ - بنو مازن: من قبائل الأزْد.

x خطة سبأ: وهم بنو مالك بن زيد بن وليعة بن معبد بن سبأ.

هذا بالنسبة للقبائل القحطانية، أما بالنسبة للقبائل العدنانية فقد توزعت على الخطط على النحو التالى:

(١) خطط القبائل العدنانية من خندف من مضر:

١ - بنو فهر: بطن من كنانة من بنى مدركة من خندف، وهو فهر بن مالك ابن النضر بن كنانة. وقد اختلطوا بالفسطاط منذ الفتح العربى.

٢ - بنو جُمَح: من قريش بطن من كنانة من بنى مدركة من خندف، وهم بنو جمح بن عمرو بن هصيص من قريش. وهم أبناء عم بنى سهم، وقد أمر عمرو بن العاص أن تكون خطتهم بالفسطاط بجوار داره.

٣ - بنو سهم: من قريش بطن من كنانة من بنى مدركة من خندف، وهم ولد عمرو بن العاص بن وائل. وكانوا بفسطاط مصر، وفرّق منهم بالصعيد. وكانت دور بنى سهم حول جامع عمرو بن العاص من الفسطاط.

(ب) خطط القبائل العدنانية من ربيعة:

× عنزة: بطن من ربيعة، وهم بنو عنزة بن أسد ربيعة. ويقول عنها عبد الله خورشيد: إن عنزه يبدو أنها جاءت مع جيش الفتح، فابن عبد الحكم يذكر أن لها بمصر دوراً مجتمعاً نحواً من عشر، وفي هذا ما يدل على كثرتها.

وبالنسبة للتجمعات القبلية من القبائل العدنانية والقحطانية، فقد توزعت على النحو الآتي:

١ - أهل الرابية: وهم جماعة من قريش^(٣٦)، والأنصار^(٣٧)، وخزاعة^(٣٨) وأسلم^(٣٩)، وغفار^(٤٠)، ومزينة^(٤١)، وأشجع^(٤٢). وجُهينة^(٤٣).

(٣٦) قريش: من القبائل العدنانية، وهم ولد مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر.

(٣٧) الأنصار: من القبائل القحطانية، وهم من قبائل الأوس والخزرج من قبائل الأزدي من مالك من كهلان.

(٣٨) خزاعة: بضم الخاء وفتح الزاء المعجمتين والفاء ثم عين مهملة وهاء في الآخر. من القبائل القحطانية، وهم قبيلة من الأزدي من مالك من كهلان.

(٣٩) أسلم: ولم تذكر المصادر العربية هل هم من بني أسلم: بطن من خزاعة من القحطانية، وهم بنو أسلم ابن قصي بن حارثة بن عمرو مزيقياء. أم هو بنو أسلم: بطن من بني قحمة من العدنانية، وهم بنو أسلم بن عامر بن قحمة. أم هو بنو أسلم بضم اللام: بطن من قضاعة من القحطانية وهم بنو أسلم بن الحارث بن قضاعة.

ويرجع عبد الله خورشيد أن بني أسلم المذكورة هذه هي أسلم خزاعة القحطانية وهم من الأزدي من مالك من كهلان.

(٤٠) غفار: من القبائل العدنانية، وهم بطن من كنانة من بني مدركة من خندف من مضر. بطن من جاسم من العماليق. وهم بنو غفار بن جاسم بن عمليق وكانت منازلهم بنجد.

(٤١) مزينة: من القبائل العدنانية، وهم بطن من طابخة من خندف من مضر. وهم بنو عثمان وأوس ابني عمرو بن أد بن طابخة. ومزينة أمهما عرفوا بها.

(٤٢) أشجع: من القبائل العدنانية، وهم من بنو سعد فرع من قبيلة قيس من مضر، وهم: حنّ من غطفان، غلب عليهم إسم أبيهم فقبل لهم أشجع. وهم بنو أشجع بن ريث بن غطفان. وكانوا عرب للدينة النبوية.

(٤٣) جهينة: بضم الجيم وفتح الهاء وسكون الياء المثناة التحتية وفتح التون وهاء في الآخر. من القبائل القحطانية، وهم قبيلة من أسلم من قضاعة من مالك من حمير. وهم بنو جهينة بن يزيد بن ليث بن سوده بن سلم بن الحافى من قضاعة.

وَبَقِيْف (٢٤)، وَنَوْس (٢٥)، وَعَبْس بن بغيض (٢٦)، وَجُرَش بن بنى كنانة (٢٧)، وليث بن بكر (٢٨).

لم يكن لكل منهم من العدد ما ينفرد به بدعوة من الديوان، فجعل لهم عمرو بن العاص راية لم ينسبها إلى أحد، وقال: يكون وقوفكم تحتها. فكانت لهم كالنسب الجامع، وكان ديوانهم عليها، فعُرفوا بأهل الراية، وانفردوا بخطة وحدهم، وخطتهم من أعظم الخطط وأوسعها.

٢ - بنو اللفيْف: وهم جماعة من القبائل تسارعوا إلى مراكز الروم حين بلغ عمرا قدومهم الأسكندرية عند فتحها، فقال لهم عمرو، وقد استكثرهم: إنكم لكما قال الله (فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لقيفا) فسموا اللفيْف من يومئذ. وقد كانوا مجتمعين في المنزل، متفرقين في الديوان، إذا دُعِيَ كل بطن منهم انضم إلى بنى أبيه. وكان عامتهم من الأزد (٢٩)، ومن الحجر (٤٠)، ومن

(٢٤) بَقِيْف: من القبائل العدنانية، بطن من هوازن من بنى خصفة من قيس من مضر، وقد اشتهروا باسم أبيهم فيقال لهم: بَقِيْف. واسمه قسي بن منبه بن بكر بن هوازن.

(٢٥) نَوْس: لم تذكر المصادر العربية هل هم من بنى نَوْس: بطن من شنوءة، من الأزد من القحطانية وهم: بنو نوس بن عدنان بن عبد الله بن زهران بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن خالد بن نصر وهو شنوءة. أم هم بنو نوس: بطن من بنى مهدي من جذام من القحطانية. وقد صنفهم عبد الله خورشيد من ضمن قبيلة الأزد من مالك القحطانية.

(٢٦) عَبْس بن بغيض: من القبائل العدنانية، من بنى سعد من قيس من مضر، وهم بطن من غطفان. وهم بنو عيس بن بغيض بن ريث بن غطفان.

(٢٧) جُرَش: يقول عبد الله خورشيد: لا نعرف عن هذا البطن سوى ما ذكره ابن دقماق من أنه من كنانة من أهل الراية (وهم من كنانة من بنى مدركة من خندف من مضر العدنانية).

(٢٨) ليث بن بكر: من القبائل العدنانية، وهم بطن من بكر من كنانة من بنى مدركة من خندف من مضر.

(٢٩) الأزد: بفتح الهمزة وسكون الزاي ودال مهملة في الآخر. من القبائل القحطانية، وهم حى من كهلان

من القحطانية. وهم بنو الأزد بن الغوث بن بنت بن مالك زيد بن كهلان.

(٤٠) الحجر: من القبائل القحطانية (من الأزد من مالك من كهلان). بطن من لخم من القحطانية وهم بنو حجر بن جزيمة بن لخم.

غسان^(٤١)، ومن شجاعة^(٤٢). والتف بهم نفر جذام^(٤٣). ولخم^(٤٤).
والوحاف^(٤٥)، وتنوخ^(٤٦) من قضاة.

٣ - خطط الحمريات: وهى ثلاث، سميت بذلك لنزول الروم بها وهى:

الأولى: الحمراء الدنيا: وبها خطة بلى، وهم: بنو بلى بن عمرو بن إلحاف
ابن قضاة (من القبائل القحطانية) إلا ما كان منهم فى أهل الراية. وخطة
ثراد من الأزد^(٤٧). وخطة فهم. وهم: بنو فهم بن عمرو بن قيس بن
عيلان^(٤٨). وخطة بنى بحر بن سَوَادَة من الأزد^(٤٩).

الثانية: الحمراء الوسطى، وبها خطة بنى نبيه، وهم قوم من الروم
حضرُوا الفتح. وخطة هذيل: وهم بنو هذيل بن مُدْرِكَة بن إلیاس بن مضر
(من القبائل العدنانية). وخطة بنى سَلَامَان من الأزد^(٥٠).

(٤١) غسان: من القبائل القحطانية، وهم حى من الأزد (من مالك من كهلان).

(٤٢) شجاعة: من القبائل القحطانية. ويقول عبد الله خورشيد. وقد يفهم من سياق كلام ابن دقماق أنها
من الأزد.

(٤٣) جذام: من القبائل القحطانية. من عدى من مرة من عريب من كهلان. وهم: بنو جذام بن عدى بن
الحارث ابن مرة بن أد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان. ويقول الحمداوى: إن جذام
أول من سكن مصر من العرب حين جاءوا فى الفتح مع عمرو بن العاص. وهم بنو زيد بن حرام بن
جذام.

(٤٤) لُحْم: بفتح اللام وسكون الخاء المعجمة وميم فى الآخر. من القبائل القحطانية. من عدى من مرة من
عريب من كهلان. وهم بنو لخم بن عدى بن الحارث بن مرة بن أد بن زيد.

(٤٥) الوحاف: من القبائل القحطانية. من قبائل الهميسع بن حمير.

(٤٦) تنوخ: يقول القلقشندى: وهم من قضاة، وقال آخر: وهم حى من اليمن، يعنى من القحطانية. ويقول
عبد الله خورشيد: وهم من القبائل القحطانية، من قبائل عمران من قضاة من مالك من حمير

(٤٧) ثراد: من القبائل القحطانية. بطن من الأزد من مالك من كهلان.

(٤٨) فهم: من القبائل العدنانية. من بنى جديلة من قيس من مضر.

(٤٩) بنو بحر: من القبائل القحطانية. بطن من الأزد من مالك من كهلان.

(٥٠) سلامان: من القبائل القحطانية بطن من الأزد من مالك من كهلان.

الثالثة: الحمراء القصوى: وهى خطة بنى الأزرق من الروم، وحضر الفتح منهم أربعمائة رجل. وخطة بنى يَشْكُر بن جَزَيْلَة من لَحْم^(٥١). وإليهم ينسب جبل يشكر الذى بنى عليه جامع أحمد بن طولون.

٤ - خطة أهل الظاهر: وهم جماعة من القبائل قفلوا من الاسكندرية بعد قفول عمرو بن العاص، فوجدوا الناس قد أخذوا منازلهم، فتحاكموا إلى معاوية بن حديج الذى جعله عمرو على الخطط، فقال لهم: إني أرى لكم أن تظهروا على هذه القبائل فنتخذوا لكم منازل. فسميت منازلهم الظاهر.

٥ - خطة الفارسيين: وهم بقايا جند بآذان، عامل كسرى ملك الفرس على اليمن قبل الإسلام، أسلموا بالشام، ورغبوا فى الجهاد، وقد حضروا مع عمرو بن العاص إلى مصر واختطوا بها.

ثانياً - القبائل التى سكنت الجيزة:

١ - خطط أصبح: من القبائل القحطانية، من الهميسع بن حمير، وهى من القبائل الذين كرهوا أن يبنى الحصن فيهم.

٢ - خطط يافع بن الحارث: من القبائل القحطانية، بطن من عرين من الهميسع بن حمير. ويرى عبد الله خورشيد أن الاسم الصحيح لهذه القبيلة هو يافع، وليس نافع كما يقول ابن دقماق. على أية حال فإن هذه القبيلة كانت خططهم فى وسط الجيزة، وقد بنى الحصن فى خططهم. ويقال إن طائفة منهم قد خرجت عن القبيلة بسبب عدم رضاها على الحصن.

٣ - خطط همدان: بفتح الهاء وسكون الميم وألف ثم نون. من القبائل القحطانية، من مالك من كهلان. ومن بطونها التى اختلطت فى الجيزة: حاشد

(٥١) يشكر: من القبائل القحطانية، بطن من لحْم من عدى من مرة من عريب من كهلان.

وبكيل ابنا جشم بن نوفل بن همدان وقد اختطت بكيل فى جنوبها الشرقى، واختطت حاشد فى شمالها الغربى. ومن بطون بكيل التى اختطت فى الجيزة: الحياوية بن بنى عامر بن بكيل. وبنو عوف بن أرحب بن بكيل. وقد اختطت كلاهما فى قبلى الجيزة.

٤ - خطط بنى حجر: من القبائل القحطانية، من الأزد من مالك من كهلان. ويقول عبد الله خورشيد: إن بطنا منهم فقط هم: بنو كعب بن مالك بن الحجر هو الذى اختط فى الجيزة. وكانت خطلتهم فيما بين بكيل ويافع.

ثالثاً - القبائل التى سكنت الحوف الشرقى (بلييس):

وقد سكن الحوف الشرقى قبائل من القبائل العدنانية وهم من قيس من مضر، ومن هؤلاء القبائل:

١ - بنو عبس: وهم من قبائل بنى سعد من قيس. وقد سكنوا الحوف الشرقى منذ أواخر القرن الثانى الهجرى، وقد اشتهروا باقامتهم فى بلييس بالذات. ويرى عبد الله خورشيد أن انتقالهم إلى الحوف ربما كانوا ليعيشوا مع قبائل قيس الأخرى التى هاجرت إلى تلك المنطقة.

٢ - بنو سليم: وهم من قبائل بنى خصفة من قيس. وهم بنو سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس. وقد قدمت مائة أسرة منهم إلى مصر ونزلت بلييس فى هجرة قيس الكبرى إلى مصر عام ١٠٩هـ / ٧٢٧م فى ولاية الوليد بن رفاعه.

٣ - قبيلة هوازن: وهم من قبائل بنى خصفة من قيس. وهم بنو هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس. قدم منها مائة أسرة إلى مصر عام ١٠٩هـ / ٧٢٧م ونزلوا بلييس.

٤ - بنو نصر: بطن من هوازن من بنى خصفة من قيس. وهم بنو نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن. قدم منها مائة أسرة إلى مصر عام ١٠٩هـ / ٧٢٧م ونزلوا بلييس.

٥ - بنو عامر: بطن من عامر بن صعصعة من هوازن من بنى خصفة من قريش. وهم: بنو عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن. قدم منها مائة أسرة إلى مصر عام ١٠٩هـ / ٧٢٧م في هجرة قيس إلى مصر.

رابعاً: القبائل التي سكنت الصعيد:

١ - بنو هلال: من القبائل العدنانية، وهم من بنى عامر بن صعصعة من مجموعة هوازن الكبرى من بنى خصفة من قيس من مضر.

وقد كان أول قدمهم إلى مصر عام ١٠٩هـ / ٧٢٧م في هجرة قيس الكبرى، وقد انتشر بنو هلال في وقت متأخر في الصعيد في بلاد أسوان وما تحتها.

٢ - قبائل ربيعة: من القبائل العدنانية، ويقول المقرئ إنهم قدموا إلى مصر في خلافة المتوكل على الله (٢٣٢ - ٢٤٧هـ / ٨٤٦ - ٨٦١م) أعوام بضع وأربعين ومائتين. وعن سبب سكنهم في الصعيد يقول عبد الله خورشيد: إنه لما كانت القبائل العربية القديمة قد اتخذ كل منها لنفسه موطنًا، فإن ربيعة لم تجد بداً من الذهاب إلى أعالي الصعيد، حيث سكنوا بيوت الشعر في براريها الجنوبية وأوديتها، وخلعوا اسمهم على القرية الكبيرة الجامعة - قرية بنى ربيعة - الواقعة في أقصى الصعيد بين أسوان وإبلاق^(٥٢). على أية حال فإن قبائل ربيعة هي التي أوقفت غارات البجة، التي كانت تشنها على القرى الشرقية، بل إنهم تزوجوا منهم، واستولوا على معدن الذهب بالعلاقى، فكثر أموالهم، وبالتالي اتسعت أحوالهم.

٣ - بنو حجر: من القبائل القحطانية، من الأزد من مالك من كهلان. وهم: بنو كعب بن مالك بن حجر، وقد انتقلت هذه القبيلة أو بعضها إلى المنطقة

(٥٢) بلاق: بالكسر وآخره قاف. وهي مدينة واقعة في أول بلاد النوبة على الشاطئ الشرقي للنيل جنوبي أسوان ومتصلة بها بطريق البر. وإليها تنتهي سفن النوبة وسفن المسلمين، وبينها وبين أسوان أربعة أميال .

الواقعة فى محافظة المنيا الحالية، وذلك منذ القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى).

٤ - بنو راشد: من القبائل القحطانية، بطن من لخم من عدى من مرة من عريب من كهلان. ويقول عنها عبد الله خورشيد: «يبدو أنها كانت كثيرة العدد، إذ كان منها فى مصر عدد كبير من البطون، وكانت تمثل جانباً كبيراً من القسم الذى عاش من لخم بالصعيد، فقد أقامت بطونُها بالبر الشرقى من صعيد مصر، فيما بين مسجد موسى وأسكر من عمل أطفيح».

٥ - بنو المغيرة: من القبائل القحطانية، أسرة من العتيك من الأزد من مالك من كهلان. يقول عنها عبد الله خورشيد: «يبدو أنها كانت تقيم فى القرن الثانى بصعيد مصر فى كورة البهنسا (مركز بنى مزار محافظة المنيا)».

خامساً: القبائل التى سكنت الأشمونين:

١ - بنو كنانة طلحة: من القبائل العدنانية، بطن من كنانة من بنى مُدْرِكة من خندف من مضر. وهم من كنانة بن خُزَيْمة بن مُدْرِكة بن إلياس بن مضر. وقد ذكروهم القضاء فى خطط مصر وقال: إن منهم أخلاطاً فى بلاد قريش، أى بلاد الأشمونين وما حولها من البهنسا.

٢ - بنو زُهْرَة: بضم الزاى وسكون الهاء وفتح الراء المهملة وهاء فى الآخر. من القبائل العدنانية، بطن من قريش من كنانة من بنى مُدْرِكة من خندف من مضر وهم: بنو زُهْرَة بن كلاب بن مرة. وزُهْرَة اسم امرأة كلاب، تُسبب ولده إليها. ويقول عنهم عبد الله خورشيد: إنهم «أقاموا بمصر إقامة فعلية منذ القرن الثانى فى الأقل. والمقريزى يحسبهم ممن كان بالصعيد من قريش، فى حين يحدد الحمدانى مكانهم ببلاد الأشمونين وما حولها من صعيد مصر. ويُفهم من هذا أنهم ذهبوا للإقامة فى بلاد قريش منذ هجرة الأشمونين».

٣ - بنو سبهم: من القبائل العدنانية، بطن من قريش من كنانة من بنى مدركة من خندف من مضر. وقد ذكرت سابقاً أنهم ولد عمرو بن العاص. ويرى عبد الله خورشيد أنهم أقاموا في منطقة الأشمونين منذ هجرة قريش، رغم أن المقرئ قد ذكرهم ممن كانوا بالصعيد من قريش.

٤ - بنو جعفر الطيار بن أبي طالب (٥٣): من القبائل العدنانية، من بنى هاشم بطن من قريش من كنانة من بنى مدركة من خندف من مضر. ويقول عنهم عبد الله خورشيد: إن المقرئ لا يعطينا فكرة واضحة عن أول اقامتهم بمصر، ولكنه في موضع آخر يذكر أن عدة بطون منهم كانت تنزل بأرض الأشمونين. ويرى عبد الله خورشيد أن الجعاقرة عاشوا في مصر منذ القرن الثالث في الأقل، وأنهم هاجروا إلى الأشمونين في هجرة قريش الكبرى (٥٤) إلى تلك المنطقة.

٥ - جهينة: من القبائل القحطانية، وقد تم التعريف بها مع أهل الراية. لكن يبدو - من كلام المقرئ - أنهم انتقلوا بعد ذلك وسكنوا بلاد الأشمونين، وظلوا بها حتى مجيء الفاطميين الذين نقلوهم من بلاد الأشمونين إلى بلاد أخميم.

٦ - بنو أمية: من القبائل العدنانية، وهم بطن من قريش من كنانة من بنى مدركة من خندف من مضر. ويقول عنهم الحمداني: وبالصعيد جماعة من بنى أمية بناحية تَنْدَة (٥٥) وما حولها من الأشمونين - من بنى أبان بن عثمان، وبنى خالد بن يزيد بن معاوية، وبنى مسلمة بن عبد الملك، وبنى حبيب بن الوليد بن عبد الملك، ومن بنى مروان بن الحكم، وهو المروانية.

(٥٣) ويقول القلقشندي: وقد عرف بجعفر الطيار لأنه عندما قطعت يده يوم موته سنة ثمان من الهجرة، فلخبر النبي (ص) أن الله جعل له منهما جناحين يطير بهما في الجنة، ولذلك قيل له: الطيار.

(٥٤) ويرجح عبد الله خورشيد أن تكون هجرة قريش الكبرى إلى بلاد الأشمونين قد تمت فيما بين أواسط القرن الرابع وقت دخول الفاطميين مصر، وأواسط الخامس.

(٥٥) تَنْدَة: الدال مهملة مفتوحة. وهي قرية كبيرة في غربي النيل من الصعيد الأدنى، وتندة بمركز ملوى - مديرية أسيوط.

(ثانيا) انتشار اللغة العربية:

رأينا كيف كانت اللغة اليونانية هى اللغة الرسمية للبلاد قبل الفتح العربى لمصر طوال مدة الحكم البيزنطى، وكيف كانت اللغة القبطية هى لغة المصريين. ولم تكن ثمة حاجة بالمصريين لتعلم اللغة اليونانية إلا لمن يريدون تولي الأعمال الإدارية فى الحكومة.

وعندما فتح العرب مصر تغير الأمر، ولكن تدريجياً، ففى خلال ثلاثة قرون كانت اللغة القبطية للمصريين قد أفسحت مكانها للغة العربية. فكيف تغير اللسان المصرى، الذى لم يتغير طوال العهود السابقة، من القبطية إلى العربية؟ وبمعنى آخر ما هى العوامل التى أدت إلى إنتشار اللغة العربية فى مصر، ومن ثم إلى تعريب مصر؟

تُعتبر هجرة القبائل العربية - التى مرت بنا فى الصفحات السابقة - من أهم عوامل انتشار اللغة العربية، ذلك أن أحد الفروق الهامة بين هذه القبائل واليونانيين الذين عاشوا فى مصر، هو أن هذه القبائل أتت للإستييطان والمعيشة فى مصر، فكان عليها أن تنتشر فى الريف المصرى. أما اليونانيون فقد عاشوا فى مصر كطبقة حاكمة، فاقتصر نزولهم على المدن وصبغوها بحضارتهم، ولم يمتد نفوذهم الثقافى فى الريف كثيراً، فلم تنتشر اللغة اليونانية إلا فى بيئات خاصة، وعاش اليونانيون فى مصر، كأنهم جزر يونانية فى المحيط المصرى الواسع. أما العرب فقد عاشوا وسط المصريين، واختلطوا بهم اختلاطاً كاملاً، وتزوجوا منهم، الأمر الذى أدى - بالضرورة - إلى إنتقال اللغة العربية إليهم. وبدون هذا التفاعل والإختلاط لا يمكننا أن نفسر - كما تقول الدكتورة سيدة كاشف - كيف ترك الفلاح المصرى القديم لغته رغم تمسكه بالقديم وحرصه عليه.

هذا على كل حال، هو العامل الاول فى إنتشار اللغة العربية فى مصر، أما العامل الثانى، فهو حركة التعريب التى قامت بها الدولة العربية، سواء لتعريب الدواوين أو لتعريب النقود.

وبالنسبة لتعريب الدواوين فى مصر، فقد حدث ذلك فى عام ٨٧هـ/ ٧٠٥م فى ولاية عبد الله بن عبد الملك بن مروان على مصر (٨٦ - ٩٠ هـ / ٧٠٥ - ٧٠٨م)، الذى نقل ديوان مصر من القبطية إلى العربية. وبغض النظر عن الدافع وراء هذا التعريب - وهو ما تناولناه فى كلامنا عن النظام الإدارى، فإن تعريب الدواوين شكل خطراً كبيراً على مناصب الأقباط فى الدولة، دفعهم دفعاً إلى تعلم اللغة العربية، حتى يتسنى لهم الإحتفاظ بوظائفهم، أو تولى الوظائف كما ذكرت سابقاً.

وهكذا أصبحت اللغة العربية، هى اللغة الرسمية للبلاد، بدلاً من اللغة اليونانية التى كانت حتى ذلك الحين هى لغة الدواوين.

ولم تقتصر حركة التعريب على تعريب النظام الإدارى فى الدولة الإسلامية، وإنما تعددت إلى تعريب النظام الإقتصادى المتمثل فى عملة البلاد، ومن المعروف أن العرب ظلوا يتعاملون بنقود كسرى وقيصر، أى الدراهم والدنانير، حتى تولى عبد الملك بن مروان الخلافة (٦٥ - ٨٦ هـ / ٦٨٤ - ٧٠٥م)، فكان أول من ضرب النقود الرسمية عربية مستقلة فى الإسلام، وأوجب التعامل بها، وأبطل إستعمال النقود الرومية والفارسية عام ٧٦ هـ / ٦٨٦م.^(٥٦)

على كل حال، فقد كان بسبب حركة التعريب أن انتقلت ثقافة مصر من الثقافة القبطية واليونانية إلى الثقافة العربية، بكل ما ترتب على ذلك من تغير العقل المصرى بصفاته القديمة القبطية واليونانية، إلى عقل عربى، حتى إذا ما وصلنا إلى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) رأينا البطريرك الملكانى فى مصر سعيد بن بطريق (ت عام ٣٢٨ هـ / ٩٣٩ م) يكتب كتابه فى التاريخ

(٥٦) وقد اختلف المؤرخون فى السنة التى ضرب فيها عبد الملك النقود ونقشها، فقيل عام ٧٦ هـ / ٦٩٥م وقيل عام ٧٥ هـ / ٦٩٤م وقيل عام ٧٤ هـ / ٦٩٣م وقيل عام ٧٧ هـ / ٦٩٦م.

باللغة العربية، ويعنونه باسم «كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق». كذلك نرى ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين - فى صعيد مصر- يؤرخ لبطاركة الكنيسة المصرية باللغة العربية فى أواخر القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى. ويتضح لنا - كما تقول الدكتورة سيدة كاشف - مما كتبه ساويرس أن اللغة العربية كانت قد أصبحت هى اللغة السائدة فى ديار مصر فى عصره على المستوى الشعبى والرسمى، حتى إن اللغة القبطية - باعترافه هو نفسه - أصبحت مجهولة من غالبية المصريين، وكذلك الحال بالنسبة للغة اليونانية التى كانت هى اللغة الرسمية منذ عهد البطالمة. لذلك يذكر ساويرس أنه لاقى مشقة كبيرة فى ترجمة الوثائق القبطية واليونانية إلى العربية، وأنه استعان ببعض المسيحيين ممن كانوا لهم دراية باللسان القبطى أو اليونانى!

ثالثاً: انتشار الإسلام:

أما بالنسبة لانتشار الإسلام، وهو العامل الثالث فى صبغ المجتمع المصرى بالصبغة العربية - فمن المحقق أن هجرة القبائل العربية إلى مصر، ونزولها خاصة فى الريف المصرى، كانت من أهم عوامل انتشار الإسلام فى مصر. ومما يؤكد أهمية هذا العامل قول المقرئ:

«ولم ينتشر الإسلام فى قرى مصر إلا بعد المائة من تاريخ الهجرة، عندما أنزل عبيد الله بن الحبحاب، مولى سلول، قيسا بالحواف الشرقى. فلما كان فى المائة الثانية من سنى الهجرة، كثر انتشار المسلمين بقرى مصر ونواحيها.»

على أنه كان ثمة عوامل أخرى - ذكرتها المصادر العربية - أسهمت فى انتشار الإسلام فى مصر، خاصة فى فترات معينة، تبعاً لسياسة الخلفاء وولاتهم.

ومن هذه العوامل: الرغبة فى التخلص من دفع الجزية.

فيذكر ساويرس أنه في خلافة مروان بن محمد (١٢٧ - ١٣٢ هـ / ٧٤٤ - ٧٤٩ م) أعلن والى مصر حفص بن الوليد (١٢٧ - ١٢٨ هـ / ٧٤٤ - ٧٤٥ م) إعفاء كل من يسلم من الجزية، فاعتنق نحو أربعة وعشرين ألفاً من الأقباط الدين الإسلامي!

كذلك يذكر ساويرس أنه عندما قرر الخليفة العباسي الأول أبو العباس عبد الله السفاح (١٣٢ - ١٣٦ هـ / ٧٤٩ - ٧٥٣ م) أن يُعفى من الجزية كل من يعتنق الدين الإسلامي ويقيم شعائره، تخلص كثير من المسيحيين - أغنياء كانوا أو فقراء - عن دينهم، واعتنقوا الدين الإسلامي بسبب فداحة الجزية والأعباء الملقة عليهم.

ومن الأمثلة التي يبين فيها ساويرس أيضاً إسلام الكثيرين من الأقباط بسبب الفقر وقلة ما معهم من المال، ما حدث في خلافة المنتصر العباسي (٢٤٧ - ٢٤٨ هـ / ٨٦١ - ٨٦٢ م) حينما ولى خراج مصر أحمد بن محمد بن المدير، إذ فرض هذا الوالى ضرائب باهظة على الكنيسة وعلى الأقباط عامة، مما دفع الكثيرين إلى التحول إلى الإسلام.

وهذه الأمثلة التي أوردها ساويرس لا يجب التشكيك فيها، لأن ساويرس كان قبطياً، كما أنه لم يكن ليغفل الكلام على أى اضطهاد يصيب الأقباط لتحويلهم إلى الدين الإسلامي بقوة.

وقد كانت ثورات القبط - التي سبق أن تعرضنا لها - بسبب زيادة الخراج، يتبع اخمادها في العادة تحول عدد كبير من الأقباط إلى الدين الإسلامي. وكان آخر تلك الثورات، تلك التي انتهت عام ٢١٧ هـ / ٨٣٢ م بمجيء الخليفة المأمون إلى مصر، واخضاعه للثائرين، وكان من نتائجها أن أصبح المسلمون أغلبية في القطر المصري.

كذلك من العوامل التي أدت إلى دخول القبط إلى الإسلام، تحريم الخلفاء استخدام أهل الذمة في وظائف الدولة. وقد بدأ به الخليفة عمر بن عبد

العزیز (۹۹ - ۱۰۱ هـ / ۷۱۷ - ۷۱۹ م)، وتلاه الخلیفه المهدی (۱۵۸ - ۱۶۹ هـ / ۷۷۴ - ۷۸۵ م)، ثم هارون الرشید (۱۷۰ - ۱۹۳ هـ / ۷۸۶ - ۸۰۸ م)، والمأمون (۱۹۸ - ۲۱۸ هـ / ۸۱۳ - ۸۳۳ م)، والمتوکل (۲۳۲ - ۲۴۷ هـ / ۸۴۶ - ۸۶۱ م)، والمقتدر بالله (۲۹۵ - ۳۲۰ هـ / ۹۰۷ - ۹۳۲ م).

الفصل الثانى

المرأة فى المجتمع المصرى

وضع المرأة فى المجتمع المصرى

المعلمات، والأميرات، وزوجات الأمراء، والفقيهات

الوظائف التى شغلتها المرأة

الفصل الثانى

المرأة فى المجتمع المصرى

بداية نقول إنه على الرغم من كثرة المؤلفات العربية فى مجالات الحياة المختلفة، إلا أننا لا نجد مصدراً يلقى أضواء كافية عن المرأة ووضعها فى المجتمع المصرى على وجه الخصوص.

وعند محاولتنا دراسة وضع المرأة فى المجتمع المصرى خاصة فى الفترة الخاضعة للبحث (من الفتح العربى إلى بداية الدولة الفاطمية) نلاحظ أن المصادر العربية تكاد تكون نادرة، أما فيما يختص بالمراجع الحديثة، فنلاحظ أنها قد أغفلت فترة بحثنا، كما نلاحظ أنها تتناول المرأة من حيث تكريم الإسلام لها ورفع مكانتها، وغير ذلك من الأمور النظرية التى لا تعبر عن واقع المرأة فى تلك الفترة، فهناك فرق بين النظرية والتطبيق أو الواقع.

وعلى أية حال، فمن خلال ما جمعناه من معلومات، وجدنا أن المرأة فى المجتمع المصرى - فى فترة بحثنا - لم يكن لها دور يذكر فى شئون الحكم، كما حدث فيما بعد، ولم نسمع عن دور سياسى قامت به زوجات الأمراء أو بناتهم أو أية امرأة أخرى.

على أن المصادر تتحدث عن حرص الأمراء والخلفاء على تعليم بناتهم وزوجاتهم، وتأديبهن على يد معلمات ومربيات عُرفن بالفضل والعلم.

فتتحدث المصادر عن عزة بنت حميل بن حفص بن إياس الحاجبية الغفارية الضمرية^(١) التى أمر الخليفة عبد الملك بن مروان بإسخالها على حرمة ليتعلمن من أدبها. وكانت من أجمل النساء وجهاً وأفصح لساناً، وأحفظن لكلام العرب. وقد سكنت مصر، وكان كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر الشاعر المشهور يهيم بها، لذلك كان ينسب بها.

(١) فى ابن إياس (عزة بنت جميل بن عمرو الضمرى)

وقد توفيت عام ٨٥ هـ / ٧٠٤ م وقيل عام ٨٦ هـ / ٧٠٥ م بمصر، فى أيام عبد العزيز بن مروان. وقد زار «كثير» قبرها، ورثاها، وتغير شعره بعدها، فقال له قائل: ما بال شعرك قد قصرت فيه؟ فقال: ماتت عزة فلا أطرب، وذهب الشباب فلا أعجب، ومات عبد العزيز بن مروان فلا أرغب.

وقد تحدثت المصادر عن بعض الأميرات اللاتى عُرفن بالعلم والأدب مثل:

قطر الندى ابنة خمارويه بن أحمد بن طولون:

وكان اسمها: أسماء. وكانت من أعقل النساء، وتذكر المصادر العربية أنه كان لها من الحكايات مع الخليفة المعتضد ما يجب أن تؤرخ! فمنها:

أن المعتضد قال لها يوما: «بم تشكرين الله إذ جعل أمير المؤمنين زوجك؟»

قالت: «بما يشكر به أمير المؤمنين إذ جعل أحمد بن طولون من رعيته»!

ومما أورده ابن سعيد أن المعتضد «وضع رأسه يوما فى حجرها، فنام حتى غط فى نومه، فتلطفت فى ميل رأسه من حجرها، ووضعت على مخده، وقامت، إلى أن انتبه المعتضد من نومه، فوجد رأسه على مخده، ونظر إلى قطر الندى، فلم يجدها معه فى البيت، فاشتد غيظه، واستدعاها، فقال لها - بكلام منزعج -: ما هذا الذى صنعت ؟ أضع رأسى فى حجرك، وأستأمنك على روحى، فتتركينى وتمرين عني؟ فقالت: إن فيما أوصانى به أبى، ألا أجلس بين النيام ولا أنام بين الجلوس! فأعجب ذلك المعتضد وقال: نعم ما أوصاك به أبوك».

ثم يقول ابن سعيد إن المعتضد «ناولها يوما قدح خمر لتشربه، فقالت: يا أمير المؤمنين: ما شربته قطه والنبي صلى الله عليه وسلم يقول عن النساء: ناقصات عقل ودين، والرجال إن شربوا الخمر، ففى عقولهم وأديانهم ما يحتمل حيفها، والنساء بضد ذلك، فاشتد ولعه بما سمع منها وأعفاها».

«وقال لها يوماً: ما أحسن ما أدبك أبوك؟ فقالت: إنى لم أكن أبصر أبى، ولكنى تأدبت بأدب جواريه، فقال: ذلك أحسن وأشرف». وعن أدب قطر الندى يقول ابن سعيد: «وصارت الأمثال فى قصر الخليفة تُضرب بأدب قطر الندى».

ومن الأميرات اللاتى عرفن بالعلم والأدب:

أم مروان:

وهى الإبنة الكبرى لأخر الخلفاء الأمويين مروان بن محمد، وكانت قد جاءت ضمن بناته وزوجاته عندما هرب إلى مصر. ويقال إنه عندما قتل مروان بن محمد على يد عامر بن اسماعيل، أرسل حريمه وبناته إلى صالح بن على، فتكلمت ابنة مروان الكبرى فقالت:

«يا عم أمير المؤمنين، حفظ الله لك من أمرك ما يحب لك حفظه، وأسعدك فى الأمور كلها بخواص نعمه، وعمك بالعافية فى الدنيا والآخرة. نحن بناتك وبنات أخيك وابن عمك، فليسعنا من عفوك ما وسعكم من جورنا! قال: اذن لا نستبقى منكم أحدا رجلاً ولا امرأة... قالت: يا عم أمير المؤمنين فليسعنا عفوك اذا. قال: أما العفو فنعم قد وسعكم، فان أحببت زوجتك من الفضل بن صالح بن على، وزوجت أختك من أخيه عبد الله بن صالح. فقالت: يا عم أمير المؤمنين، وای أوان عرس هذا؟ بل تلحقنا بحران. قال: فاذاً أفعل ذلك بكن إن شاء الله، فالحقهن بحران».

ويذكر الحميرى أنه عندما قتل عامر بن اسماعيل مروان بن محمد، قعد على فرشه، وأكل من طعامه، فخرجت إليه ابنة مروان الكبرى، وتعرف بأمر مروان، فقالت: «يا عامر، إن دهرأ أنزل أمير المؤمنين عن فرشه حتى أقعدك عليه، فاكلت من طعامه، واحتويت على أمره، وحكمت فى مملكته - لقادر أن يغير مآربك! فاغتاظ السفاح من ذلك وكتب إليه: ويلك، أما كان لك فى أدب

الله عز وجل ما ينجرك عن أن تأكل من طعام مروان، وتقعّد على مهاده
وتتمكن من وساده؟! أما والله لولا أن أمير المؤمنين تناول ما فعلت على غير
اعتقاد منك لذلك، لمسك من غضبه وأليم أدبه ما يكون لك زاجرا ولغيرك
واعظا، فإذا أتاك كتاب أمير المؤمنين فتقرب إلى الله عز وجل بصدقة تطفئ
بها غضبه، وصلاة تُظهرها الاستكانة، وصم ثلاثة أيام، ومر جميع أصحابك
أن يصوموا مثل صيامك».

ومن الأميرات اللاتي ذكرت المصادر العربية أسماءهن:

أروانوسة ابنة المقوقس:

وكان عمرو بن العاص عندما نزل بلبيس قد أسرها وأخذ جميع مالها، ثم
أحب عمرو ملاطفة المقوقس، فسيرها إليه مكرمة في جميع مالها مع قيس بن
أبي العاص السهمي.

أم كلثوم:

وكانت ابنة الوالي عقبة بن عامر.

أم سهل:

وكانت ابنة الوالي مسلمة بن مخلد، وإليها تنسب منبلة أم سهل، وقد
تزوجت من أبي بكر بن عبد العزيز بن مروان.

أسماء ابنة أبي بكر بن عبد العزيز بن مروان:

وهي التي يُعرف باسمها (مصحف أسماء). فقد ذكرت في موضع سابق
أن عبد العزيز بن مروان عندما كان واليا على مصر، أمر أن يُكتب له
مصحف، فلما فرغ من كتابته قال: مَنْ وجد فيه حرفا خطأ فله رأس أحمر
وثلاثون ديناراً، فتداوله القراء، فأتى رجل من قراء الكوفة (من أهل الحمراء

كما فى رواية ابن عبد الحكم) ذكر ابن يونس أن اسمه زوعة بن سهيل الثقفى، فقرأه بهجاء، ثم جاء إلى عبد العزيز بن مروان فقال له: قد وجدت فى المصحف حرفاً خطأ، قال مصحفى؟ قال: نعم. قال: فنظروا، فإذا فيه: «إن هذا أذى له تسع وتسعون نعة»، فإذا هى مكتوبة «نجة» قدمت الجيم قبل العين، فأمر بالمصحف، فأصلح وأبدلت الورقة، ثم أمر له بثلاثين ديناراً وبرأس أحمر. وعندما توفى عبد العزيز بن مروان فى سنة ٨٦ هـ / ٧٠٥ م بيع هذا المصحف فى ميراثه، فاشتراه ابنه أبو بكر بألف دينار، ثم توفى أبو بكر، فاشترته أسماء ابنة أبى بكر بن عبد العزيز بسبعمائة دينار، فأمكنت منه الناس، وشهرته، فنُسب إليها، وعرف بمصحف أسماء.

عباسة بنت أحمد بن طولون:

وهى من فواضل نساء عصرها، وقد سميت بها قرية العباسية - الواقعة أول ما يلقى القاصد لمصر من الشام - عندما نزلت بها فى أثناء توديعها لقطر الندى.

وقد أبرزت المصادر أيضاً أسماء بعض زوجات الأمراء فى مصر، دون ذكر أدوار لعبنها وهن:

أم عبد الله ابنة عبد الله بن عمرو بن العاص:

وقد تزوجها عبد العزيز بن مروان فأنجبت منه سهلاً وسهيلاً.

مارية:

وكانت جنسيتها رومية. وقد تزوجها عبد العزيز بن مروان. وأنجب منها ولداً وهو محمد بن عبد العزيز، وقد بنى عبد العزيز بن مروان قصراً لها عرف بقصر مارية.

أسماء:

وكانت زوجة أحمد بن طولون. يقول عنها ابن سعيد، نقلاً عن نعت جارية أحمد بن طولون: كان لأحمد بن طولون زوجة من بنات الموالي تزوجها بمصر، وكانت حسنة الموقع منه، جميلة الصورة، يقال لها أسماء، فقلت: «يا مولاي ليس خلوتك منها على حسب محلها منك!!» قال لى: «هى صغيرة الكف، قصدة الخلقة، فأخاف أن يكون هذا فى ولدى منها».

خديجة بنت مزاحم بن خاقان:

وكانت زوجة أيضاً لأحمد بن طولون. وكانت دار صناعة السفن قد نقلت إلى دارها بساحل الفسطاط من جزيرة الروضة عام ٣٢٥ هـ / ٩٣٦ م، وذلك فى الدولة الإخشيدية.

وقد أوردت المصادر بعض أسماء الجاريات اللاتى كانت لهن حظوة لدى الأمراء أو الوزراء، ومنهن:

نعت:

وكانت جارية أحمد بن طولون. وتقول عنها الدكتورة سيدة كاشف:

«ولم تشتهر فى بلاط أحمد بن طولون نساء اللهم إلا جاريته نعت. والظاهر أنها كانت تنعم بقسط وافر من الحرية، فإن ابن الداية قد نقل عنها معظم البيانات التى تركها لنا عن حياة أحمد بن طولون الخاصة. والمعروف أنها كانت أمّاً لثلاث من بناته. والظاهر أنها كانت تدير (حريم) أحمد بن طولون، ومن المحتمل أنها كانت غير صغيرة فى السن، فإننا نراها تعنى بالترويح عن الأمير، وتعنى ببيته وسائر حريمه وجواريه، ولكننا لا نظن أنها كانت ذات شأن يذكر فى الأمور العامة».

بوران:

وكانت محظية خمارويه. ويقال إن من أجلها بنى خمارويه بيت الذهب، وصور فيه صورتها وصورته، وكان يرى أن الدنيا لا تطيب له إلا بسلامتها وينظره إليها، وتمتعه بها، فكدر موتها عيشه، وانكسر انكساراً بان عليه.

وقد كان لأبى بكر محمد بن على الماذرائى جارية - لم يذكر المقرئى اسمها - كانت تخرج معه للحج.

كما ذكرت المصادر اسماً لسيدة كانت أما لأحد أولاد أحمد بن طولون وهو أبو العشائر. وإن كانت المصادر لم توضح لنا هل كانت زوجته أو جاريته، وقد عرفت باسم «مئة ألف».

وقد برزت فى فترة البحث، بعض الفقيهات من النساء اللاتى حظين بقدر من الشهرة، وكانت أشهرهن:

السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب:

وقد دخلت مصر مع زوجها اسحاق بن جعفر الصادق. وكانت من ربات الصلاح والزهد، ويقال إنها حجت ثلاثين حجة، وكانت كثيرة البكاء، تقوم الليل وتصوم بالنهار، فقيل لها: ألا ترفقين بنفسك؟ فقالت: كيف أرفق بنفسى، وأمامى عقبة لا يقطعها إلا الفائزون. وكانت تحفظ القرآن وتفسره. وكان الإمام الشافعى يزورها وهى من وراء الحجاب، وقال لها: ادعى لى! وكان معه عبد الله بن عبد الحكم. وقيل: لما مات الإمام الشافعى أوصى أن السيدة نفيسة تصلى عليه، فلما مات أدخل نعشه فى دارها، وصلى عليه، ثم حُمل من عندها ودفن. وقد توفيت السيدة نفيسة سنة ٢٠٨هـ / ٨٢٣ ودفنت فى منزلها، وهو الموضع الذى به قبرها الآن. وقد أراد زوجها اسحاق بن الصادق أن يحملها ليدفنها بالمدينة، فسأله أهل مصر أن يتركها ويدفنها عندهم لأجل البركة. وقبر السيدة نفيسة أحد المواضع المعروفة بإجابة الدعاء بمصر.

وقد أشار الأبشيهي والقرماني في كتابهما إلى واقعة مقابلة أحمد بن طولون والسيدة نفيسة، ومن الواضح جليا أن هذه الواقعة مختلفة، خاصة وأن الدولة الطولونية قامت في مصر عام ٢٥٤هـ / ٨٦٨م، والسيدة نفيسة - كما ذكرت آنفا - قد توفيت عام ٢٠٨هـ / ٨٢٣م، فكيف تسنى لهما هذا اللقاء؟ وعلى أية حال، فسأورد نص هذه المقابلة كما ذكرها الأبشيهي، فهو يقول: «وقيل لما ظلم أحمد بن طولون قبل أن يعدل، استغاث الناس من ظلمه، وتوجهوا إلى السيدة نفيسة يشكونه إليها، فقالت لهم: متى يركب؟ قالوا: في غد. فكتبت رقعة ووقفت في طريقه وقالت: يا أحمد يا ابن طولون! فلما رآها عرفها، فترجل عن فرسه وأخذ منها الرقعة، وقرأها، فإذا فيها: ملكتم فأسرتم، وقدرتم فقهرتم، وخولتم فعسفتم، وردت اليكم الأرزاق فقطعتم هذا، وقد علمتم أن سهام الأسحار نافذة غير مخطئة، لا سيما من قلوب أوجعتموها، وأكباد جوعتموها، وأجساد عريتوها، فمحال أن يموت المظلوم ويبقى الظالم، اعملوا ما شئتم فانا صابرون، وجوروا فانا بالله مستجيرون، واطلموا فانا إلى الله متظلمون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون. قال: فعدل لوقته».

ومن الفقيهات اللاتي ذكرتهن المصادر العربية كذلك:

كلثوم بنت أبي القاسم بن محمد بن جعفر الصادق بن محمد
الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب:

وقد كانت من الزاهدات العابدات، وكان لها مشهد يزار في مصر - كما
ذكرت في موضع سابق.

عائشة بنت جعفر الصادق:

من ربات العبادة والصلاح، كانت تقول: «وعزتك وجلالك لئن أدخلتني
النار، لأخذتُ توحيدي وأدور به على أهل النار، وأقول لهم: وحدته فعذبني!»
وقد توفيت عام ١٤٥هـ / ٧٦٢م وبغنت بقرافة مصر.

رابعة بنت اسماعيل:

عابدة من عابدات مكة، ولدت بمكة سنة ١٤٥هـ / ٧٦٢م وأقامت بمصر سبع سنين، ولما دخل الإمام الشافعي مصر كان يتردد عليها، وكان يصلى التراويح فى رمضان بمسجدها.

أسية بنت مزاحم بن خاقان:

وهى من ربات العبادة والزهد والتقوى والصلاح، عكف عليها الخاص والعام، ويُنسب اليها تربية السيدة أسية بنت مزاحم بمصر. وتوفيت عام ٢٥٩هـ / ٨٧٢م. ويبدو من اسمها أنها كانت أختا لخديجة ابنة مزاحم بن خاقان، زوجة أحمد بن طولون، التى ذكرتها سابقاً.

فاطمة بنت عبد الرحمن الحرائية:

كانت من الزاهدات العابدات، ولدت ببغداد، وقدم بها أبوها إلى مصر، وسمعت منه، وطال عمرها حتى تجاوزت الثمانين، وكانت تعرف بالصوفية لأنها كانت تلبس الصوف، ولا تنام إلا فى مصلاها بلا وطاء أكثر من ستين سنة. وقد سمع منها أخيها عبد الرحمن بن القاسم بن عبد الرحمن بن أبى صالح. وقد توفيت عام ٣١٢هـ / ٩٢٤م.

وبعد فقد حاولنا معرفة شىء عن الوظائف التى شغلتها المرأة فى فترة بحثنا، فلم نجد إلى جانب وظيفة المؤدبة والمربية التى تحدثنا عنها، سوى وظيفة الحاضنة. ومن الحاضنات اللاتى ذكرتهن المصادر العربية: بُنانة وكانت حاضنة لبعض بنى مروان أو ظنُّرا لهم^(٢) كما يقول ابن عبد الحكم.

(٢) الظنُّر جمع الظنُّر والظنُّر والظنُّر والظنُّر والظنُّر أى المرضعة لولد غيرها.

الفصل الثالث

العادات والتقاليد فى المجتمع المصرى

. الأعياد والمواسم

. أعياد المسلمين - أعياد الأقباط - أعياد اليهود.

. الأعياد القومية.

. احتفالات الزواج.

. الطعام والشراب.

. الملابس والزينة.

. الألعاب ووسائل التسلية..

. الجِوَاة
. الكُرْج
. سباق الخيل

. الشطرنج
. الصيد
. لعب القمار
. لعبة الصِوَالِجَة

. المقابر والجنازات .

الفصل الثالث

١. العادات والتقاليد فى المجتمع المصرى

الأعياد والمواسم

بعد سيطرة العرب على مصر، ودخول الدين الإسلامى إليها، أصبح فى مصر ثلاثة أنواع من الأعياد تتبع ثلاث ديانات أساسية فى مصر، وهذه الأعياد هى:

أعياد المسلمين - أعياد الأقباط - أعياد اليهود.

هذا إلى جانب أعياد يمكن أن نطلق عليها أعيادا قومية، وذلك لأنها لا تقام وفقا لدين معين، وإنما كان الشعب كله يحتفل بها، وشاركهم العرب فى هذا الاحتفال.

وقبل تناول الأعياد فى مصر يجب أن نشير إلى ظاهرة هامة، وهى أن المصريين، مسلمين ومسيحيين، كانوا يحتفلون بالأعياد الإسلامية والمسيحية على السواء، ولعل ذلك - كما ترى الدكتورة سيدة كاشف - يرجع إلى أن الكثير من المصريين المسلمين كان من أصل قبطى.

وسنحاول فى الصفحات القادمة أن نتتبع الأعياد فى مصر بشئ من التفصيل، رغم فقر المصادر العربية التى تعرضت للفترة التى يتناولها بحثنا فى هذا الموضوع.

أولا: أعياد المسلمين:

نلاحظ أن المصادر العربية لا تشير إلى احتفالات بأعياد المسلمين أقيمت فى هذه الفترة، اللهم إلا ما ذكر عن إحتفالين فى الدولة الإخشيدية، كان الأول عن الإحتفال بشهر رمضان وعيد الفطر - ويظهر من النص أن هذا ما كان يحدث فى الدولة الطولونية - والثانى عن الإحتفال بعيد الأضحى.

وبالنسبة للإحتفال الأول، وهو الإحتفال بشهر رمضان وعيد الفطر، يقول ابن سعيد: «ولما دخل شهر رمضان، أطلق النفقات للمسجد الجامع، وأمر بعمارة المساجد بالجص، والبياض، والخلوق، والمصاييح، والأئمة. ثم أمر بالتأهب للعرض ليلة الفطر على رسم أحمد بن طولون وما كان يفعله تكين، فتأهب الناس واشتروا وأكثروا، وكان القواد التكنينية على غاية الرفعة. ولما كان آخر شهر رمضان ركب الإخشيد بعد عشية، فحضر ختم الجامع وصلى وأوتر، وهو فى وجوه عبيده فى دراعه ^(١) بياض، وبين يديه خمسمائة غلام بالدبابيس ^(٢) والمستوفيات ^(٣)، وبين يديه الشمع والمشاعل، وقيل كان بين يديه مائة فراش بمائة شمعة. ثم أصبح الناس للعرض، وجلس فى المنطرة التى على باب دار الإمارة، ومرت العساكر. فلما انقض العسكر ركب غلمانه فى أحسن زى بالتجافيف ^(٤)، والجواش ^(٥) والدروع، فلم يفرغوا إلى العشاء. ثم أصبح، فركب لصلاة العيد، فصلى به عمر بن الحسن العباسى وخطب به وانصرف، ونصب السماط فاكل الناس وحملوا».

أما بالنسبة للإحتفال الثانى وهو الإحتفال بعيد الأضحى، فيقول ابن خلكان: كان كافور فى عيد الأضحى يسلم أحد رجاله ويدعى أبو بكر المحلى - وكان يتولى أمر نفقاته - بغلا محملا ذهباً وورقا وجريدة تتضمن أسماء بعض الأشخاص، لتوزع عليهم هذه الأموال. ويصف أبو بكر مهمته فى العيد فى تلك العبارة: كان يمشى معى صاحب الشرطة ونقيب يعرف المنازل، وأطوف من بعد العشاء الأخيرة إلى آخر الليل حتى أسلم ذلك إلى من

(١) الدراعة: جبة مشقوقة المقدم.

(٢) الدبوس: عصا من خشب أو حديد فى رأسها كالكرة. والدبوس يسمى أيضاً العامود وهو آلة من حديد ذات أضلاع ينتفع بها فى قتال لابس البيضة (توضع على الرأس) ومن فى معناه.

(٣) الراجح أنها ضرب من العصى الخشبية السميكة.

(٤) جمع تجفاف، وهى آلة للحرب يلبسها الفارس ويتقى بها وكانها درع.

(٥) الجواش: الدروع.

تضمنت اسمه الجريدة، فأطرق منزل كل إنسان ما بين رجل وامرأة وأقول:
الاستاذ أبو المسك كافور الإخشيدي يهنتك بعيدك، ويقول لك: اصرف هذا
فى منفعتك. فأدفع إليه ما جعل له.

كما كان الشيعة فى مصر - خاصة فى الدولة الإخشيدية - يحتفلون بيوم
عاشوراء بالنياحة والبكاء على الحسين عليه السلام.

ويرى المقرئ عن يوم عاشوراء فى الدولة الإخشيدية فيقول:

«وانما قَوِيَتْ أنفس الشيعة بكون المعز بمصر، وقد كانت مصر لا تخلو
منهم فى أيام الإخشيدية والكافورية فى يوم عاشوراء عند قبر كلثوم وقبر
نفيسة. وكان السودان وكافور يتعصبون على الشيعة، وتتعلق السودان فى
الطرق بالناس، ويقولون للرجل: من خالك؟ فان قال معاوية، أكرموه، وان
سكت، لقى المكروه، وأخذت ثيابه وما معه، حتى كان كافور قد وكل
بالصحراء ومنع الناس من الخروج».

ثانيا: أعياد الأقباط:

ذكر المقرئ أن أعياد الأقباط المشهورة والشرعية بمصر، عددها أربعة
عشر عيداً، فى كل سنة من سنواتهم القبطية، منها سبعة أعياد يسمونها
أعياداً كباراً، وسبعة يسمونها أعياداً صغاراً.

أما الأعياد الكبار فهي:

١ - عيد البشارة:

ويحتفل به الأقباط فى اليوم التاسع والعشرين من شهر برمهاث (مارس).
وهو اليوم الذى بشر فيه جبريل مريم بميلاد المسيح عليه السلام.

٢ - عيد الزيتونة:

ويعرف بعيد الشعانين ومعناه التسبيح، ويحتفل به الأقباط فى الأحد السابع من صومهم الذى يوافق اليوم الثانى والأربعين من بداية الصوم. وهو يُحيى ذكرى ركوب السيد المسيح لحماره، ودخوله إلى بيت المقدس ومن حوله النصارى يسبحون، وهو يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر. وكان عيد الشعانين من مواسم النصارى فى مصر. فتتزين كنائسهم، ويخرجون فى جماعات من الكنائس حاملين سعف النخل.

ويذكر المقرئى أن من عادة الإحتفال به فى مدينة أخميم، أن يخرج القسوس والشمامسة بالمجامر والبخور والصلبان والأنجيل والشموع المشعلة، ويقفوا على باب القاضى، ثم أبواب الأعيان من المسلمين، فيخروا، ويقرأوا فصلا من الانجيل، ويمدحونه.

٣ - عيد الفصح:

وهو العيد الكبير عندهم، يحتفلون به يوم الفطر من صومهم الأكبر، ويأتى هذا العيد بعد «عيد الصليبوت» بثلاثة أيام كما يقول المقرئى. وهو إحياء لذكرى خروج المسيح عليه السلام من قبره بعدما دفن. وكان ذلك فى ليلة الأحد، عشرين من برمهات (مارس). فيقال إن المسيح عليه السلام خرج من قبره فى هذا اليوم ودخل على تلاميذه وسلم عليهم وأكل معهم وكلمهم وأوصاهم بأمور تضمنها انجيلهم.

٤ - عيد خميس الأربعين:

ويُعرف أيضاً بعيد الصعود، ويحتفل به الأقباط فى اليوم الثانى والأربعين من الفطر. ويعتقدون أن المسيح عليه السلام بعد أربعين يوماً من قيامته، خرج والتلاميذ معه، فرفع يديه وبارك عليهم، وصعد إلى السماء، وذلك عند إكماله ثلاثة وثلاثين سنة وثلاثة أشهر.

٥ - عيد الخميس:

ويحتفل به الأقباط بعد خمسين يوما من يوم القيامة، وهو فى اليوم السادس والعشرين من بشنس (مايو). وقد اعتقدوا أنه بعد عشرة أيام من الصعود، وبعد خمسين يوما من قيامة المسيح، اجتمع التلاميذ فى بيت المقدس، فتجلى لهم روح القدس فى شبه السنة من نار، فامتثلوا من هذه الروح، وتكلموا بجميع الألسن، وظهرت على أيديهم آيات كثيرة ومعجزات، فعاداهم اليهود وحبسوهم، إلا أن الله سبحانه وتعالى نجّاهم، فخرجوا من السجن وساروا فى الأرض متفرقين يدعون الناس إلى دين المسيح.

٦ - عيد الميلاد:

يحتفل أقباط مصر بهذا العيد فى التاسع والعشرين من شهر كيهك (ديسمبر)، وهو ذكرى ميلاد المسيح، ودائما يوافق يوم الاثنين (فهم يقولون إنه ولد يوم الاثنين)، فتبدأ الاحتفالات مساء الأحد. ومن عاداتهم فى هذا العيد تزيين الكنائس بالمصابيح، وإضاءة دورهم بالفوانيس الملونة، بداخلها الشموع المصبوغة، وكانوا يقبلون على أنواع الملاحى واللعب بالنار، وكانت الأسواق تزدهان بالفوانيس والشموع والمشاعل فى هذه الليلة.

٧ - عيد الغطاس:

يحتفل الأقباط بهذا العيد فى اليوم الحادى عشر من شهر طوبة (يناير). وأصله عند النصارى - كما يقول المقرئى - أن يحيى بن زكريا عليهما السلام المعروف عندهم بيوحنا المعمدانى، عمّد المسيح أى غسله فى بحيرة الأردن، وعندما خرج المسيح عليه السلام من الماء اتصل به روح القدس، فصار النصارى لذلك يغمسون أولادهم فى الماء فى هذا اليوم، وينزلون فيه بجمعهم، ولا يكون ذلك إلا فى شدة البرد، ويسمونه «يوم الغطاس». ويصف المسعودى ليلة الغطاس فى مصر عندما شاهدها بنفسه، وكان ذلك فى عام

٣٣٠هـ / ٩٤١م زمن الدولة الإخشيدية فيقول: ولقد حضرت سنة ٣٣٠هـ ليلة الغطاس بمصر، والإخشيد محمد بن طغج في داره المعروفة بالمختارة في الجزيرة، والنيل يطوف بها، وقد أمر فأسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل، غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع، فيحرق في تلك الليلة بمصر من الشمع ما لا يحصى عدده. وقد حضر النيل في تلك الليلة آلاف من الناس من المسلمين والنصارى، منهم في الزوارق، ومنهم في الدور الدانية من النيل، ومنهم على الشطوط، ويحضر كل ما يمكنهم إظهاره من المأكول والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهي والعزف. وهي أحسن ليلة تكون بمصر، لا تُخلق فيها الدروب، ويَغُطس أكثرهم في النيل، ويزعمون أن ذلك أمان من المرض ومبرئ للداء.

أما الأعياد الصغار فهي:

١ - عيد الختان:

يحتفل به الأقباط في اليوم السادس من شهر بؤونة (يونيه)، ويعتقدون أن المسيح ختن في هذا اليوم، وهو يوافق اليوم الثامن من يوم الميلاد.

٢ - عيد الأربعين:

يحتفل به الأقباط في اليوم الثامن من شهر أمشير (فبراير)، وفي هذا اليوم - كما يقول الأقباط - دخل المسيح الهيكل، ويعتقدون أن سمعان الكاهن دخل بالمسيح مع أمه وبارك عليه بعد أربعين يوماً من ولادته.

٣ - خميس العهد:

ويأتي هذا العيد قبل عيد الفصح بثلاثة أيام، وكان من عاداتهم فيه أن يُملأ إناء من ماء ويزمزمون عليه، ثم يُغسل للتبرك به أرجل سائر النصارى. ويعتقدون أن المسيح فعل هذا بتلامذته في مثل هذا اليوم كي يعلمهم التواضع، ثم أخذ عليهم العهد أن لا يتفرقوا وأن يتواضع بعضهم لبعض.

والعامة يطلقون عليه خميس العدس، من أجل أن النصارى تطبخ فيه العدس بأصناف كثيرة، ويقول أهل الشام: خميس الأرز وخميس البيض. ويبدو - كما يقول الدكتور عبد المنعم سلطان - أن هذه التسميات راجعة إلى نوع الطعام الذى اشتهر كل اقليم بتناوله فى هذه المناسبة.

وكان من عادة أهل مصر من المسلمين والنصارى تبادل الهدايا من الأطعمة فى هذا العيد، فيهادى النصارى بعضهم بعضا، ويهدون إلى المسلمين أنواع السمك المتنوع مع العدس المصفى والبيض.

وكان يقام فى الأسكندرية عيد يسمى بخميس العدس، وهو أول خميس من شهر نيسان، وهو خاص بمنارة الأسكندرية، لا يتخلف فى الأسكندرية عن الخروج إلى المنار ذلك اليوم أحد - كما يقول الحميرى - وقد أعدوا لذلك الأطعمة والأشربة، ولا بد فى ذلك الطعام من العدس، فيفتح باب المنارة للناس ويدخلون فيها، فيقيمون إلى نصف النهار ثم ينصرفون.

٤ - سبت النور:

يأتى هذا العيد قبل «عيد الفصح» بيوم، ويكون ثالث يوم من «خميس العدس». وفى هذا اليوم يعتقد المسيحيون أن النور يظهر على قبر المسيح بكنيسة القيامة فى القدس، فتشتعل مصابيح الكنيسة كلها.

٥ - عيد حد الحدود:

يأتى هذا العيد بعد «عيد الفصح» بثمانية أيام، ويحتفلوا به أول أحد بعد الفطر، لأن الآحاد قبله تكون مشغولة بالصوم. ومن عاداتهم فيه - كما يذكر المقرئى - أنهم يجددون ملابسهم والأثاث وغير ذلك.

٦ - عيد التجلى:

يحتفل به الأقباط فى اليوم الثالث عشر من شهر مسرى (أغسطس)، لأن فى هذا اليوم - كما يعتقد المسيحيون - تجلى المسيح عليه السلام لتلاميذه

بعدها رُفِع. وقد تمنوا عليه أن يحضر لهم إيلياء وموسى عليهما السلام،
فأحضرهما اليهم بمصلى بيت المقدس، ثم صعد إلى السماء وتركهم.

٧ - عيد الصليب:

ويُحتفل به فى اليوم السابع عشر من شهر توت (سبتمبر)، وكان سبب الإحتفال به هو ظهور الصليب على يد هيلانة أم الإمبراطور قسطنطين. فيذكر المقرئى أنها سافرت إلى بيت المقدس فى طلب آثار المسيح عليه السلام، وبناء الكنائس، وإقامة شعائر النصرانية. ويقال إن الأسقف مقاريوس دلها على الخشبة التى زعموا أن المسيح صلب عليها، وقد قَص عليها ما عمل به اليهود، فحفرت فوجدت قبراً وثلاث خشبات على شكل الصليب، فاتخذوا ذلك اليوم عيداً، وسموه عيد الصليب، وهو اليوم الذى وجدت فيه الثلاث خشبات، وبنيت فى نفس المكان كنيسة القيامة.

وقد كان لعيد الصليب بمصر موسم عظيم - كما يقول المقرئى - يخرج الناس فيه إلى بنى وائل بظاهر فسطاط مصر، ويتظاهرون فى ذلك اليوم بالمنكرات من أنواع المحرمات، ويمر لهم فيه ما يتجاوز الحد.

ومن أعياد القبط أيضاً:

عيد الشهيد:

ويحتفل به أقباط مصر فى اليوم الثامن من شهر بشنس (مايو)، ويعتقد النصارى أن النيل بمصر لا يزيد فى كل سنة حتى يُلقوا فيه تابوتاً من خشب فيه أصبع من أصابع أسلافهم الموتى. ويكون ذلك اليوم عيداً تُرحل إليه النصارى من جميع القرى على اختلاف طبقاتهم، وينصبون الخيم على شواطئ النيل، ويركبون فيه الخيل، ويبيع فى هذا اليوم أعداد كبيرة من الخمر. وكان يخرج إلى هذا العيد أيضاً المغنون والمغنيات وأصحاب الفسق

وغيرهم، وكان يُتجاهر هناك بما لا يحتمل - كما يقول المقرئى - من المعاصى والفسوق.

عيد النيروز:

وهو الاحتفال برأس السنة القبطية، ويحتفل به الأقباط فى أول يوم من شهر توت (سبتمبر) والنيروز كلمة فارسية معربة. وهو من الأعياد القديمة التى احتفلت بها كثير من الشعوب على اختلاف جنسياتها وعقائدها، وهذا العيد ليس له تاريخ ثابت، بل يحتفل به كل شعب حسب تاريخ بداية السنة عنده.

وكان من عاداتهم فى هذا اليوم اشعال النيران والتراش بالماء، فهو من مواسم لهو المصريين.

ثالثا: أعياد اليهود:

يذكر القلقشندى فى كتابه أن لليهود خمسة أعياد مذكورة فى التوراة، وعيدين أحدثوهم ولم يذكرها بالتوراة.

وبالنسبة للأعياد الخمسة المذكورة فى التوراة، فهى:

١- عيد رأس السنة:

ويحتفل به اليهود فى أول يوم من تشرى من شهورهم، ويسمونه «عيد رأس هيشا» أى عيد رأس الشهر. وهو عندهم بمنزلة عيد الأضحى عند المسلمين، فيقولون: إن الله تعالى أمر إبراهيم بذبح اسماعيل ابنه فيه، وفداه بذبح عظيم. وهو عيد البشارة كما يقول المقرئى .

٢- عيد صوماريا:

ويسمونه الكبور، وهو عندهم الصوم العظيم، ويقولون: إن الله فرض عليهم صومه، ومن لم يصم فيه قتل عندهم . ومدة هذا الصوم خمس

وعشرون ساعة، يبدأ فيها قبل غروب الشمس فى اليوم التاسع من شهر
تشرى، وتختتم بمضى ساعة بعد غروبها فى اليوم العاشر، وربما سموه
العاشر. ويشترط فيه لجواز الافطار عندهم روعية ثلاثة كواكب عند الافطار .
ولا يجوز أن يقع هذا الصوم عندهم فى يوم الأحد، ولا فى يوم الثلاثاء، ولا
فى يوم الجمعة. ويعتقدون أن الله يغفر لهم فيه جميع ذنوبهم ما خلا الزنا
بالمحصنة، وظلم الرجل أخاه، وجحده ربوبية الله تعالى .

٣. عيد المظلة:

ويكون لمدة سبعة أيام، أولها الخامس عشر من تشرى، وهو أيضا حج
لهم، يجلسون فى هذه الايام تحت ظلال من جريد النخل، وأغصان الزيتون
وسائر الشجر الذى لا ينتشر ورقه على الأرض. ويعتقدون أن ذلك تذكار
منهم لا ظلال الله اياهم فى التيه بالغمام.

٤. عيد الفطير:

ويسمونه الفصح، ويحتفل به اليهود لمدة سبعة أيام أيضا، ويكون بدايته
اليوم الخامس عشر من نيسان. وفى هذا العيد يأكلون الفطير، وهو ذكرى
لاحياء الايام التى خلص الله فيها بنى اسرائيل من يد فرعون وأغرقه،
فخرجوا إلى التيه، فجعلوا يأكلون اللحم والخبز الفطير.

عيد الأسابيع:

ويسمى عيد العنصرة وعيد الخطاب، ويحتفل به اليهود فى اليوم
السادس من شهر سيوان.

ويأتى هذا العيد بعد عيد الفطير بسبعة أسابيع. ويقولون إن فى هذا
اليوم خاطب الله سبحانه وتعالى بنى اسرائيل من طور سيناء. وهو أيضا
حج لهم، فحجوجهم، ثلاثة: الأسابيع والفطير والمظلة. ومن عاداتهم فى هذا
العيد أكل القطائف، ويتفننون فى عملها، ويجعلونها بدلا من المن الذى أنزله
الله عليهم فى هذا اليوم.

أما العيدان اللذان أحدثهما اليهود فهما كما يقول القلقشندي:

١- عيد الفوز:

واليهود يصومون قبلة بثلاثة أيام، وهو فى شهر آذار الثانى، وهو عندهم عيد سرور ولهو وخلاعة، يهدى فيه بعضهم إلى بعض.

عيد الحنكة:

وهو ثمانية أيام فى شهر كسيلو، ومن عاداتهم فيه أنهم يوقدون فى الليلة الأولى من لياليه على كل باب من أبوابهم سراجا، وفى الليلة الثانية سراجين، وهكذا إلى أن يكون فى الليلة الثامنة ثمانية سروج.

الأعياد القومية:

كان على رأس هذه الأعياد عيد وفاء النيل :

عندما فتح عمرو بن العاص مصر أتى أهلها إليه حين دخل شهر بؤونه (يونيه) ^(٦)، وقالوا له كما يقول ابن عبد الحكم: «أيها الأمير، إن لنيلنا هذا سنة لا يجرى إلا بها. فقال لهم : وما ذاك؟ قالوا: إنه إذا كان لاثنتى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر، عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها، فارضينا أبويها، وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها فى هذا النيل. فقال لهم عمرو: إن هذا لا يكون فى الاسلام، وإن الاسلام يهدم ما قبله. فأقاموا بؤونه وأبيب، ومسرى، لا يجرى قليلا ولا كثيرا، حتى هموا بالجلاء . فلما رأى ذلك عمرو كتب إلى عمر بن الخطاب بذلك، فكتب إليه عمر: قد أصبت إن الاسلام يهدم ما كان قبله، وقد بعثت إليك ببطاقة فألقها فى داخل النيل إذا أتاك كتابى. فلما قدم الكتاب على عمرو فتح البطاقة فاذا فيها: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر: أما

(٦) كانت الزيادة فى النيل - كما تذكر المصادر العربية - تبدأ فى الخامس من شهر بؤونه. وفى اليوم السابع والعشرين من نفس الشهر، ينادى عليه بالزيادة، وكانت علامة وفاء النيل ستة عشر ذراعا. وأنظر فى ذلك، الموضوع الخاص بطبقة الزراع.

بعد، فإن كنت تجرى من قبلك (قتلاك) فلا تجر، وإن كان الله الواحد القهار
الذى يجريك، فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك .

فالتقى عمرو البطاقة فى النيل قبل يوم الصليب بيوم، وقد تهيأ أهل مصر
للجلاء والخروج منها، لأنه لا يقوم بمصلحتهم فيها الا النيل، فأصبحوا يوم
الصليب، وقد أجراه الله ستة عشر ذراعا فى ليلة، وقطع تلك السنة السوء
عن أهل مصر.

وكان المتولى قياس المقياس اذا وجد أن العلامة وصلت إلى الستة عشر
ذراعا، يسبل ستارا أسود على شباك المقياس، فاذا شاهد الناس هذا الستار
قد أسبل، تباشروا بالوفاء، واجتمعوا كعادتهم للفرجة من كل صوب .

كما تذكر المصادر العربية أن متولى القياس كانوا ينادون على النيل
بقولهم: « نعم لا تحصى، من خزائن لا تفنى، زاد الله فى النيل المبارك كذا
وكذا، وكانت زيادته فى العام الماضى فى هذا اليوم كذا وكذا، وعلى الله
التمام » . وكان المنادى يجعل فى أيديهم عودا وهو مخلوق بالزعفران ، ومعهم
الرياحين، وكانوا يتجهون إلى الجامع، وهناك يقفون حلقة، ويرمون بما
معهم من الرياحين إليهم، وينادون أن الله عز وجل زاد فى النيل كذا وكذا،
فيستبشر الناس، ويكثرون حمد الله والشكر له.

وقد جرت العادة فى كل سنة أنه اذا وفى النيل، يرسل الحاكم بشيرا إلى
كل البلاد لتطمئن القلوب. وهى عادة قديمة.

وتذكر المصادر أن هذا اليوم، كان يوما مشهودا، وموسما معدودا، ليس
له نظير فى الدنيا، وكانت فرحة أهل مصر به لا تعادلها فرحة، وقد خصوا
بذلك دون غيرهم من البلاد الشامية وغيرها.

وقد قال القائل فى المعنى :

نادى منادى الوفا بمصر اذا علقوا ستره علامة
من الغلا قد سلمت حقا وبت فى الستر السلامة

احتفالات الزواج

نظرا لارتباط الزواج بالدين، كان من الطبيعي أن تختلف مراسيم الزواج بانتقال مصر من يد البيزنطيين إلى يد العرب، ومن الديانة المسيحية إلى الإسلامية. وتقدم لنا أوراق البردى الكثير من عقود الزواج التي توضح لنا عادات وتقاليد الزواج في فترة دراستنا.

وقد كانت عقود الزواج في هذا العصر تختلف عن عقود الزواج في عصرنا، فقد كانت غنية بالبيانات المتصلة بالزواج من خطوبة، وشهود، ومهر معجل، ومؤخر، ووصايا بحسن الصحبة والمعاشرة، والأمر بالامساك بالمعروف والتسريح بالاحسان، وفي بعضها شروط تشترطها الزوجة على الزوج.

ويتضح من هذه العقود أن قيمة المهر في ذلك الوقت، كانت تتراوح ما بين ٤ دنانير و ٢٠ ديناراً ذهباً، حسب الحالة الاجتماعية لكل زوجة أو زوج. أما المؤخر فلم يكن يدفع عند الطلاق كما يحدث حالياً، وإنما كان يدفع على أقساط في مواعيد محددة من تاريخ عقد الزواج.

ونلاحظ أن الزوجة عندما تستلم صداقها تكتب براءة أو اقرار الشهود بأنها استلمت قيمة الصداق. أما بالنسبة للشهود، فنلاحظ من عقود الزواج أنهم كانوا أكثر من شاهدين، وليس كما يحدث في وقتنا الحاضر. وتقول الدكتورة سيدة كاشف: إنهم كانوا أكثر من عشرة في الغالب! وكان من الشروط التي تضمنتها عقود الزواج ما يتعلق بحسن الصحبة والمعاشرة، أو يتعلق بزيارة الأهل، أو يتعلق بوضع الزوجة إذا تزوج الزوج عليها أو اتخذ جارية له.

وتتضمن ملاحق الرسالة بعضاً من عقود الزواج لنرى فيها بوضوح البيانات المتعلقة بالزواج.

وكان أشهر زواج قد تم فى فترة بحثنا هو زواج قطر الندى إبنة خمارويه. ففى عام ٢٧٩هـ / ٨٩٢م توفى الخليفة المعتمد، ويبيع بالخلافة من بعده المعتضد أبو العباس أحمد بن الموفق طلحة، فبعث اليه خمارويه بهدايا وتحف، وسأله أن يزوج ابنته قطر الندى لولده المكتفى بالله فقال المعتضد: بل أنا اتزوجها ! وتزوجها فى عام ٢٨١هـ / ٨٩٤م.

ويذكر ابن اياس أن مهرها الذى دفعه الخليفة المعتضد كان مائة ألف دينار، ومائة ألف شقة حرير ملون، وإن كان ابن خلكان يقول فى كتابه: إن مهرها قدر ألف ألف درهم.

وقد جهزها خمارويه بجهاز لم ير مثله، لذلك سنعرض وصفا لهذا الجهاز مع ما فيه من مبالغة، من كل مصدر على حده، خاصة أن بعض المصادر العربية تشير إلى أن المعتضد أراد بزواجها أن يفقر أباه خمارويه!

يقول ابن كثير: « فجهزها أبوها بجهاز لم يسمع بمثله، حتى قيل إنه كان فى جهازها مائة هاون من ذهب. فحمل ذلك كله من الديار المصرية إلى دار الخلافة ببغداد ».

ويقول فى موضع آخر: وهذا « غير الفضة وما يتبع ذلك من القماش وغير ذلك مما لا يحصى. ثم بعد كل حساب أرسل معها أبوها ألف ألف دينار وخمسين ألف دينار، لتشتري بها من العراق ما قد تحتاج اليه مما ليس بمصر مثله! »

ويقول ابن دقماق: « وحمل معها مالم ير مثله، ولاسمع به، دكة (٧) أربع قطع ذهب، عليها قبة ذهب مشبكة، فى كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة من الجواهر لا يعرف لها قيمة»، وفيه أيضا « ألف تكة، الثمن عنها عشرة آلاف دينار ».

(٧) الدكة جمع دكاك: بناء يسطح أعلاه للجلوس أو لجعل كرسى عليه.

ويقول القلقشندي: «وَجَهَّزَ إِلَيْهِ مَهْرَهَا أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ، وَهَدَايَا كَثِيرَةً وَوَشَاحَ وَبِدْلَةَ جَوْهَرٍ، فَأَجَابَهُ خَمَارُويَهُ إِلَى ذَلِكَ، وَهَادَى بِالْهَدَايَا الْجَمَّةَ، وَجَهَّزَهَا بِجِهَازٍ لَمْ يَسْمَعْ بِمِثْلِهِ، يُقَالُ إِنَّهُ كَانَ فِيهِ أَلْفُ هَاوْنٍ مِنْ ذَهَبٍ» .

ويقول السيوطي: «وكان جهازها أربعة آلاف تكة مجوهره، وعشر صناديق جواهر».

ويقول ابن اياس: «كان معها من القماش والأواني ما لا يحصر، حتى قيل نقل جهازها من مصر إلى بغداد في ستة أشهر! فكان من جملة ما ذكر من جهازها مائة هاون ذهب، وألف سروال حرير، وفي تكة كل سروال جوهرة قدر بيضة الحمامة!»

ولما فرغ خمارويه من جهاز ابنته قطر الندى، أمر فبنى لها على رأس كل منزله تنزل فيها قصرا فيما بين مصر وبغداد. وأخرج معها خمارويه أخاه خزرج بن أحمد بن طولون (وفي رواية المقرئ شيبان بن أحمد بن طولون) في جماعة مع ابن الجصاص، الحسن بن عبد الله، فكانوا يسرون بها سير الطفل في المهد، فكانت إذا وافت المنزلة وجدت قصرا قد فرش فيه جميع ما يحتاج إليه، وقد علقت فيه الستور، وأعد فيه كل ما يصلح لمثلها. وكانت في مسيرها من مصر إلى بغداد - على بعد الشقة - كأنها في قصر أبيها، حتى قدمت بغداد في أول المحرم سنة ٢٨٢هـ / ٨٩٥م. وكانت عمته العباسية بنت أحمد بن طولون قد خرجت لتوديعها، فنزلت مكان القرية المعروفة بالعباسية من بلاد الشرقية من الديار المصرية، فعرفت بها كما ذكرت في موضع سابق.

وعندما وصلت قطر الندى بغداد، نزلت في دار صاعد بن مخلد، لأن المعتضد كان بالموصل . وزفت قطر الندى إلى المعتضد في ربيع الآخر من نفس العالم، وعند ذهابها إليه من دار صاعد، منع الناس من المرور في الطرقات، ويصف الطبرى زفافها إليه بقوله:

«ونودي في جانبي بغداد ألا يعبر أحد في دجلة يوم الأحد، وغلقت أبواب الدروب التي تلى الشط، ومد على الشوارع النافذة إلى دجلة شراع، ووكل بحافتي دجلة من يمنع أن يظهروا في دورهم على الشط. فلما صليت العتمة، وافت الشذا^(٨) من دار المعتضد، وفيها خدم معهم الشمع، فوقفوا بإزاء دار صاعد. وكانت أعدت أربع حراقات^(٩)، شُدَّت مع دار صاعد، فلما جاءت الشذا أهدرت الحراقات، وصارت الشذا بين أيديهم، وأقامت الحرة يوم الاثنين في دار المعتضد، وجلبت عليه يوم الثلاثاء لخمس خلون من شهر ربيع الأول».

وقد توفيت قطر الندى زوجة المعتضد في رجب سنة ٢٨٧هـ / ٩٠٠م، ودفنت داخل قصر الرصافة ببغداد.

أما الزواج الثاني الذي تم في فترة بحثنا، فهو زواج الحسين بن القاضى أبو زرة ببنت أبى على الحسين بن أحمد الماندرائى المعروف بأبى زنبور. يقول الكندى :

«فكتب أبو زنبور أسامى مائة نفس في درج، ووعدهم أن يكونوا عنده قبل صلاة الصبح، فحضرُوا، فأخرج اليهم مائة غلام بمائة قدح غالية، ومائة قمقم ماء ورد، ومائة مشط، ومائة مرآة، ومائة مبخرة. ثم عقد النكاح، فخرج مائة غلام، بمائة طست، ومائة إبريق وعشرة موائد، فعقدوا على كل مائدة عشرة أنفس، فاكلوا ثم غسلوا أيديهم، فألقيت على أيديهم مائة منديل، وأعيد عليهم الطيب والبخور، وأخرجت مائة صينية فيها الدنانير وتمائيل^(١٠) والعنبر، فألقيت في أكمام الناس، وكان أملاكاً ماسمع بمثله، وكان العرس بعد ذلك أعظم من الأملاك».

(٨) الشذا جمع شدوات: ضرب من السفن. هي سفن صغيرة .

(٩) الحراقة : جمع حراقات. السفينة فيها مرامى نيران يرمى بها العدو.

(١٠) اللد بالفتح عود يتبخر به. وهي كلمة فارسية.

وكان الزواج يشترط فيه التكافؤ الاجتماعى، فتتزوج الأميرة من أمير مثلها أو حتى خليفة أو ابن قاضى أو ابن وزير، وهكذا. ويظهر ذلك بوضوح فى حكاية ذكرها الكندى فهو يقول:

« إن عبد الأعلى بن سعيد الجيَّشَانى تزوج بامرأة من بنى كُلال، فقام بعض أوليائها فى ذلك وأنكروه، وترافعوا إلى أبى خزيمة (إبراهيم بن يزيد قاضى مصر) فقال: ما أحل ما حرم الله، ولا أحرم ما أحل الله، اذا زوجها ولى فالنكاح ماض. فارتفعوا إلى يزيد بن حاتم، وهو الأمير يومئذ، فقال يزيد: ليس عبد الأعلى من أكفائها، وأمر أبا خزيمة بفسخ نكاحها، فامتنع أبو خزيمة من ذلك، وفرق بينها يزيد بن حاتم.»

وهكذا نرى كيف أن عدم التكافؤ بينهما أباح للوالى أن يفرق بينهما .

ولا تورد المصادر العربية معلومات كافية عن مظاهر الاحتفالات بالأفراح، ولكن نجد فى ابن عبد الحكم أن يزيد بن أبى حبيب كتب إلى عمر بن عبد العزيز عن اللعب بالدقاق والبرابط^(١١) فى العرس. فكتب إليه عمر بن عبد العزيز: إمنع الذين يضربون البرابط، ودع الذين يضربون بالدقاق.

وقد كانت مراسيم الزواج عند اليهود مختلفة، فيقول المقرئى: « ولا يصح النكاح عندهم إلا بولى، وخطبة، وثلاثة شهود، ومهر مائتى درهم للبكر، ومائة للثيب لا أقل من ذلك. ويحضر عند عقد النكاح كأس خمر وبقاة مرسين، فيأخذ الامام الكأس ويبارك عليه، ويخطب خطبة النكاح، ثم يدفعه

(١١) البربط: من ملامى العجم، ولهذا قيل معرب. و العرب تسمية المزهري والعود. والبربط من جنس الطنبور الفارسي القديم، ذو الوجه من الجلد، ويعرف الآن باسم: الطنبور العجمي، وصندوقه صغير، بعضه مغطى بالجلد وبعضه بالخشب، وجميعه قطعة واحدة محفورة، والأصل فى تسميته أنه محرف عن (بارباتره)، بمعنى الطنبور ذى الدف، أى المعلق به صندوق مستدير كالطبل، فكان العرب يسمونه البربط، وهو أيضا بهذه التسمية بالفارسية. والبربط أو الطنبور بوجه عام، أقدم عهدا من العود، ويتميز بطول الساعد حتى يكاد يبلغ أربعة أمثال ساعد العود.

إلى الختن^(١٢) ويقول : قد تزوجت فلانة بهذه الفضة، أو بهذا الذهب، وهو خاتم فى يده، وبهذا الكأس من الخمر، وبمهر كذا، ويشرب جرعة من الخمر، ثم ينهضون إلى المرأة، ويأمرونها أن تأخذ الخاتم والمرسين والكأس من يد الختن، فإذا أخذت وشربت جرعة وجب عقد النكاح، ويضمن أولياء المرأة البكارة..... ولا يجوز عندهم نكاح الاماء حتى يعتقن ثم ينكحن».

أما الطلاق عند اليهود، فيقول عنه المقرئى : إنه لم يكن يجوز « إلا بفاحشة أو سحر أو رجوع عن الدين. وعلى من طلق خمسة وعشرون درهما للبكر، ونصف ذلك للثيب، وينزل فى كتابها طلاقها بعد أن يقول الزوج: أنت طالق منى، ومختلعة منى، وفى سعة أن تتزوجى من شئت. ولا يقع طلاق الحامل أبدا ... ويراجع الرجل امرأته ما لم تتزوج، فان تزوجت حرمت عليه إلى الأبد».

(١٢) الختن جمع أختان؛ كل من كان من قبل المرأة مثل الأب والابن.

الطعام والشراب

ربما كان موضوع الطعام والشراب خير ما يعطينا من مثل على ثراء الحكام والأمراء والكبراء وأسرافهم فى هذا العصر، بقدر ما كان عليه العامة من فقر، ومن الولاة الذين تحدثت المصادر العربية عن موائدهم وأسرافهم:

عبد العزيز بن مروان - أحمد بن طولون - خمارويه بن أحمد بن طولون - كافور.

وبالنسبة لعبد العزيز بن مروان فيذكر الكندى أنه كان له ألف جَفَنَة كل يوم تنصب حول داره، كما كانت له مائة جَفَنَة يطاف بها على القبائل وهى مملوءة بالطعام، تفرق على الفقراء والمساكين ومعها الخبز، وقد وصف أحد الشعراء مائدة عبد العزيز بن مروان هذه بقوله :

كُلُّ يَوْمٍ كَأَنَّهُ يَوْمٌ أَضْحَى عِنْدَ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَوْ يَوْمٌ فُطِرَ
وَلَهُ أَلْفُ جَفَنَةٍ مُتَرَعَّاتٍ كُلُّ يَوْمٍ يُمِدُّهَا أَلْفُ قَدَرٍ

أما أحمد بن طولون فتذكر المصادر العربية أنه كان ينفق على مطبخه فى كل يوم ألف دينار . وكان يعمل سماط عظيم فى داره كل يوم يحضره الخاص والعام ، فينادى فى مصر : من أحب أن يحضر سماط الأمير فليحضر . وكان أحمد بن طولون يجلس بأعلى القصر ينظر ذلك ، ويأمر بفتح جميع أبواب الميدان ، فيراهم وهم يأكلون ويحملون ، فيسره ذلك ويحمد الله على نعمته . وقد كانت مطابخ الفقراء والمساكين هذه يذبح فيها البقر والغنم ، ويفرق للناس فى القدور الفخار والقصع، ولكل قصعة أو قدر أربعة أرغفة، فى اثنين منها فالودج، والاثنان الآخران على القدر أو القصعة.

وبالنسبة لخمارويه بن أحمد بن طولون فيذكر المقرئى أنه كان ينفق على مطبخه المعروف بمطبخ العامة ثلاثة وعشرين ألف دينار فى كل شهر، بدون أرزاق الطباخين ومن يخدمهم.

كما يصف لنا المقرئى مطبخ دار الحرم التى بناها لزوجات أبيه وزوجاته، كما ذكرت فى موضع سابق، فيقول: «فكان الخدم الموكلون بالحرم من الطباخين وغيرهم، يفضل لكل منهم مع كثرة عددهم بعد التوسع فى قوته، الزلة الكبيرة، والتى فيها العدة من الدجاج، فمنها ما قُلع فخذها، ومنها ما قد تشعب صدرها، ومن الفراخ مثل ذلك، مع القطع الكبار من الجدى، ولحوم الضأن، والعدة من ألوان عديدة والقطع الصالحة من الفالودج، والكثير من اللوزنج، والقطائف والهرايس من العصيدة التى تعرف اليوم فى وقتنا هذا بالمأمونية، وأشباه ذلك مع الأرغفة الكبار. واشتهر بمصر بيعهم لذلك وعُرفوا به، فكان الناس يتناوبونهم لذلك، وأكثر ما تباع الزلة الكبير قمئها بدرهمين ومنها ما يباع بدرهم، فكان كثير من الناس يتفكهون من هذه الزلات ... موجودا فى كل وقت لكثرتة واتساعه، بحيث أن الرجل إذا طرقة ضيف خرج من فوره إلى باب دار الحرم فيجد ما يشتريه ليتجمل به لضيفه مما لا يقدر على عمل مثله، ولا يتهيا له من اللحوم والفراخ والدجاج مثل ذلك».

أما كافور فقد بالغت المصادر العربية فى ذكر مطبخه:

فيقول ابن اياس: «كان راتب كافور فى مطبخه فى كل يوم ألفى رطل من اللحم البقرى، وسبعمائة رطل من اللحم الضأن، ومائة طير أوز، وثلاثمائة طير دجاج، وثلاثمائة فرخ حمام، وعشرين فرخ سمك كبار، وعشرين رميا رضعاء، وثلاثمائة صحن حلوى، وسبعة أفراد فاكهة، وألف كوز فقا، ومائة قرابة سكر، وعشرة قناطير سكر، وألف كُمَاجَة (١٣) من الخبز، وخمسة أفراد بقولات، وكان يحضر على سماطه الخاص والعام».

(١٣) الكماج الواحدة كمَاجَة: وهى كلمة فارسية بمعنى خبز مستدير أسمك من الخبز العادى.

ويقول أبو المحاسن عن سماط كافور في اليوم إنه: «مائتا خروف كبار، ومائة خروف رميس^(١٤)، ومائة وخمسون إوزة، وخمسمائة دجاجة، ألف طير من الحمام، ومائة صحن حلوى كل صحن عشرة أرطال، ومائتان وخمسون قرابة أقسما».

ولم يكن الولاة هم وحدهم الذين ظهروا بمظهر الإسراف على موائدهم، وإنما أشارت المصادر العربية كذلك إلى بعض أغنياء الدولة، سواء كانوا من العرب أو من الأقباط.

ومن العرب المسلمين الذين ذكرتهم المصادر:

أبو محمد عبد الله بن أحمد بن علي بن الحسن بن إبراهيم بن طباطبا (تسنة ٣٤٨ هـ / ٩٥٩ م) وكان من سادة مصر وكبرائها، يقول عن مطبخه ابن كثير: «لا تزال الحلوى تعقد بداره، ولا يزال رجل يكسر اللوز بسببها. وللناس عليه رواتب من الحلوى، فمنهم من يهدى إليه كل يوم، ومنهم في الجمعة، ومنهم في الشهر. وكان لكافور الإخشيد عليه في كل يوم جامان^(١٥) ورغيف من الحلوى».

ومن الأقباط:

مارية القبطية صاحبة قرية طاء النمل . وقد ذكر المقرئ أنها عندما دعت المأمون إلى قريرتها « جاء ولدها إلى صاحب المطبخ وسأله: كم تحتاج من الغنم والدجاج والفراخ والسماك والتوابل والسكر والعسل والطيب والشمع والفاكهة والعلوفة وغير ذلك مما جرت به عادته؟ فأحضر جميع ذلك إليه بزيادة، وكان مع المأمون أخوه المعتصم وابنه العباس وأولاد أخيه الوثائق

(١٤) الرميس : هو ولد الضأن الصغير
(١٥) الجام جمع جامات وأجوام: وهي كلمة فارسية بمعنى الكأس.

والتوكل ويحيى بن أكرم والقاضى أحمد بن أبى دواد، فاحضرت لكل منهم ما يخصه على انفراده، ولم تكل أحد منهم ولا من القواد إلى غيره، ثم احضرت للمأمون من فاخر الطعام ولذيذه شيئا كثيرا، حتى إنه استعظم ذلك».

وقبل الخوض فى أنواع الطعام والشراب فى هذا العصر، يجب أن نوضح أن معظم ماورد ذكره كان قاصرا على موائد الأغنياء، أما الفقراء وعامة الشعب، فقلما عرفوا ذلك. فيقول عبد اللطيف البغدادى:

« وأما عوامهم، فقلما يعرفون شيئا من ذلك، وأكثر أغذيتهم الصير والصحناء^(١٦)، والدلّيس^(١٧)، والجبن والذيدة ونحو ذلك، وشرابهم المزد وهو نبيذ يتخذ من القمح».

وقد رأينا عند تناولنا لمطبخ دار الحرم فى زمن كافور، أن هذه الأطعمة التى كانت تباع، كان لا يستطيع الرجل العادى أن يصنعها فى بيته، فيقول المقرئى: « فيجد ما يشتريه ليتجمل به لضييفه مما لا يقدر على عمل مثله، ولا يتهيا له من اللحوم والفراخ والدجاج والحلوى مثل ذلك».

ويبدو أن هذه الأطعمة كانت تكلفتها عالية، فيذكر ابن سعيد أن طبق «الحماضية» الذى صنع للاخشيد بلغ ثمنه مائة دينار.

كان الخبز يعد من أهم عناصر الطعام على المائدة المصرية، سواء فى ذلك طعام العامة أو الخاصة. وقد روى الكندى عن حيوة بن شريح، عن عقبة بن مسلم، حديثا يرفعه إلى الله عز وجل، يقول يوم القيامة لساكنى مصر، فيما يعدد عليهم من نعمته:

(١٦) الصحناء كلمة فارسية وهى ما يطلق عليها العرب الصير. والصير هو السمك الصغير الذى يصاد من النيل عند الفيضان وانصراف الماء، ولايزيد عن الأصبع فى حجمه، ويسمى أيضا اللوحة، اذا كبس بالملح، ويسمى اذا كان طازجا البسارية، وتؤكل مشوية ومقلية.

(١٧) ويعبر المقدسى عن هذه الاكلة بأنها اقذر شئ «حيوان بين زلفتين صغيرتين، يفلقان ويحسى مثل المخطأ». ويبدو لنا أنه يقصد بهذه الاكلة أم الخلول.

« ألم أسكنكم مصر، فكنتم تشييعون من خبزها وتروون من مائها؟ »
وعندما تولى موسى بن كعب من قبل المنصور عام ١٤١هـ / ٧٥٨م كان
يقول: « كانت لنا أسنان وليس عندنا خبز، فلما جاء الخبز ذهبت الأسنان! »

وقد كانت كل مدينة تبني، يبنى فيها عدة أفران، بل إن دار عبد العزيز بن
مروان كان بها عدة أفران كما ذكرت في موضع سابق.

ومن أنواع الخبز التي عرفت بمصر: الخبز الحواري، وكان من أجود
أنواع الخبز في عهد الطولونيين والاضشيديين، وكان يصنع من الدقيق
الابيض المنخول.

ومن انواع الخبز أيضا نوع يسمى كعكا، وكان - كما يقول المقرئى -
يعمل من جريش الحنطة ويجفف. ويكثر هذا النوع عند فلاحيههم، وهو أكثر
اكلهم السنة كلها، ويعرف أيضا بكعك مصر الخشن.

ويذكر ابن سعيد أن أبا بكر محمد بن على الماذرائى كان قد عمل كعكا
لحاشيته، وعزم على الخروج إلى مكة، فتوفى وكان ذلك عام ٣٤٥هـ / ٩٥٦م،
فباعوا الكعك للناس ولم يتصدقوا به بعد موته.

ويذكر البلوى أن رغيف الخبز فى الدولة الطولونية كان به رطلان زائدان.

ومن الأطعمة أيضا:

الترمس، وكان من الحبوب التى يقبل الناس على أكلها، فكان يسلق
وينقع فى الماء عدة أيام لتذهب مرارته، كما كان يخلى أو يملح.

كما كان العدس من الأطعمة التى يقبل عليها الناس، وخاصة الأقباط.
وقد ذكرت فى موضع سابق أنه كان للأقباط عيد يعرف بخميس العهد،
فكانت العامة تطلق عليه خميس العدس، لأن الأقباط كانوا يطبخون فيه

العدس بأصناف عدة. ويذكر آدم متز أن العدس كان يعتبر طعام حداد، وأن نصارى مصر يأكلونه فى كل يوم جمعة.

وكان الحمص المسلوق من الأطعمة التى ينتشر بيعها فى الأسواق، فقد ذكر المقرئى أنه كان خارج مدينة الفسطاط سوق عظيم يباع فيه حمص مسلوق، فكان به عدد ٣٩٠ قدر حمص مسلوق.

ومن الأطعمة أيضا السويق. وطريقة صنعه أن تحمص الحبوب جيدا، ثم تطحن ويصنع من دقيق الحنطة أو الشعير أو الفول، وأحيانا يطحن مع الحبوب البلح والسكر وهو طعام سهل التجهيز، وتصنع منه غالبا العصيدة أو الثريد بإضافة الماء أو الزيت .

كما كان أهل مصر يأكلون الجلبان، وخاصة الرهبان منهم.

ومن أشهر أكلات العرب التى عرفت فى مصر الثريد، وهو الخبز يفت ويبل بالمرق، ويوضع فوقه اللحم.

ومن الاكلات التى ذكرت فى الدولة الطولونية:

فراريج كردباج حارة: والصحيح فراريج كردناج، وهو معرب كردناك، وهو شواء فى سفود يقلب على النار لينضج ويؤم كل.

بزمأورد، أو الزماورد: طعام قيل هو الرقاق الملفوف باللحم ويسمى لقمة القاضى. وقيل هو طعام من البيض واللحم، وهو لفظ فارسى. وصنعتة أن يؤخذ الشواء الحار الذى فتر وهجه، ويقطع ويجعل عليه ورق النعنع، ويسير من خل خمر وليمون وملوح ولب جوز، ويرش عليه يسير ماء ورد، ويدق بالساطور دقا ناعما، ولا يزال يسقى خلا إلى أن يشربه جيدا، ويؤخذ الخبز السميد الملبب، فيخرج لبابة، ثم يحشى من ذلك الشواء حشوا جيدا، ويقطع ويبل بالماء وينشف ويرش فيه ماء ورد، ثم يفرش فيه نعنن طرى، ويعبى فيه بعضه فوق بعض، ويغطى أيضا بشيء من النعنن، ويترك ساعة ثم يؤم كل.

ومن الأكلات التى ذكرت فى الدولة الاخشيدية:

الهريسة، وهى مصنوعة من لحوم الضأن والبقر والدجاج، ودقيق بعض الحبوب مثل القمح بالاضافة إلى البصل والتوابل بنسب محددة.

البقرية، وكان الاخشيد يحبها.

وقد كثر فى الأسواق المصرية فى ذلك الوقت الأماكن الخاصة ببيع الشواء، وهو المعروف اليوم باسم «الكباب» حتى إن الاخشيد حذر الشاعر أبو القاسم سعيد المعروف بقاضى البقر من شراء شواء من محل «دار فرح» لأنه يباع نيا ويخلط بلحم الماعز .

ومن الطوى:

النيدة: وهى تعمل من بقول القمح، وقد روى عن مريم عليها السلام أنها عندما دخلت إلى مصر ومعها ابنها عيسى عليه السلام وهو رضيع، شكت إلى الله تعالى قلة اللبن بها، فآلهما الله تعالى أن غلت النيدة، وأطعمت منها عيسى عليه السلام.

عسل النحل: وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أهدى إليه من المقوقس هدية، من ضمنها عسل نحل من بنها، فلما أكل منه أعجبه، فقال: من أين هذا العسل؟ فقل له: من قرية من قرى مصر، يقال لها بنها، فقال: اللهم بارك فى بنها وفى عسلها.

القنود^(١٨): وهى الحلاوة المصنوعة من قصب السكر، فكان أهل الصعيد يكسرون قصب السكر فى شهر كيهك (ديسمبر)، ويعتصر، ويعمل منه الطباخون القنود، ثم يحملونها إلى الفسطاط وغيرها من المدن، فتباع هناك .

(١٨) القنود جمع قنود: عسل قصب السكر اذا جمد. وهى كلمة فارسية معربة.

الكنافة: يذكر القرمانى أنها صنعت فى خلافة سليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩هـ / ٧١٤ - ٧١٧م)، فكان يتسحر فى ليالى رمضان كل ليلة بثمانين رطل كنافة. وهى مبالغه كما هو واضح.

ومن الحلويات التى ورد ذكرها فى الدولة الطولونية:

الفالودج أو البالوظة، واللوزينج وهى تشبه القطائف وتعمل بدهن اللوز، والقطائف، والعصيدة التى تعرف بالمأمونية.

هذا إلى جانب صنف ذكره ابن سعيد يعرف باسم : سمانى زيرباجا .

ومن الحلويات التى ورد ذكرها فى الدولة الاخشيدية:

الحماضية: وكان الاخشيد يحبها، وهى تعمل من الأترج، ويوضع فيها ماء الورد والمسك، والأفاويه، والجوازيه.

الكحك المحشو بالسكر: ويذكر المقرئى أنه عمل فى أيام أبى بكر محمد ابن على الماذرائى .

أفطن له! : وقد عمل فى أيام أبو بكر محمد بن على الماذرائى، ويقول المقرئى عن سبب تسميته بذلك: «كان قد سمع فى سيرة الماذرائيين أنه عمل له هذا ال «أفطن له»، وفى كل واحدة خمسة دنانير، ووقف أستاذ على السماط، فقال لأحد الجلساء: أفطن له! وكان عمل على السماط عدة صحون من ذلك الجنس، لكن ما فيه الدنانير صحن واحد، فلما رمز الأستاذ لذلك الرجل بقوله: أفطن له، وأشار إلى الصحن، تناول ذلك الرجل منه فأصاب الذهب واعتمد عليه، فحصل له جملة، وراه الناس وهو اذا أكل يخرج من فمه ويجمع بيده ويحط فى حجره، فتنبهوا له، وتزاحموا عليه، فقليل لذلك من يومئذ «أفطن له» .

ويذكر البغدادى فى كتابه أنهم كانوا يطبخون الدجاج كصنف حلو، وذلك بأن يسلق الدجاج، ثم يوضع فى الجُلَّاب^(١٩)، ويلقى عليه بندق أو فستق أو خشخاش أو بذر رجلة أو ورد، ويطبخ حتى ينعقد، ثم يتبل ويرفع، وتسمى هذه الأصناف باسم حشوها، فتعرف بالبندقية، والفستقية، والخشخاشية، وست النوبة لبذر الرجلة لسوادها، والوردية.

ثانيا : الشراب.

إذا كان الخبز هو الطعام الذى لا تخلو منه المائدة المصرية على مر العصور، فإن الماء يعتبر الشراب الرئيسى على تلك المائدة.

وقد أورد المقريزى العديد من الطرق التى كانت تتبع لتنقية ماء النيل، ليكون صالحا للشرب، وذلك بترسيب المواد الغريبة العالقة بالماء باستخدام الطباشير وأنواع من الطين وقلوب نوى المشمش، أو بتقطيره فى أوان من الخزف والفخار أو الجلود، وذلك بعد غليه وتركه يبرد .

وكان عامة المصريين يهتمون بتبريد الماء فى الصيف باستخدام أنية من الخزف والفخار لهذا الغرض، وفى الشتاء يوضع الماء فى أنية من الزجاج المدهون، وغالبا ماكان يضاف إلى ماء الشرب القليل من ماء الورد، وأحيانا ييخر الاناء بأنواع الأبخرة الطيبة لتجويد مذاق الماء .

ويذكر ياقوت أن أهالى تنيس عندما تتكامل زيادة النيل تغلب حلاوته على ماء البحر، فتصبح بحيرة تنيس حلوة، فحينئذ يدخر أهالى تنيس المياه فى صهاريجهم ومصانعهم لمدة عام.

كما يذكر ياقوت عن نَسْتَرُو، وهى جزيرة بين دمياط والاسكندرية - بأنه ليس عند أهلها ماء، وإنما يأتىهم الماء فى المراكب، فاذا لاحت لهم مراكب الماء، ضربوا بوق البشارة سرورا، ثم يأتى كل رجل بجرفته يأخذ فيها الماء .

(١٩) الجُلَّاب أو الجُلَّاب : العسل أو السكر عقد بماء الورد.

وعرف الأغنياء فى مصر، ولاسيما فى العصر الاخشيدي، الماء المثلج، وكان الثلج بمصر يستعمل فى تبريد الماء والمشروبات. ولكن الظاهر أنه لم يكن يصل إلى مصر كل يوم بانتظام.

ومن الأشربة التى وجدت فى تلك الفترة:

الشمسى: وهو من أجود الأشربة كما يقول المقرئى، ويدخل فى صناعته الزبيب والعسل، ويصنع فى الوقت الشديد الحرارة.

المرز: وهو شراب يعمل من الشعير، ويستعمل عند بعض الناس بدل الخمر، وإذا أكثر من شربه - كما يقول ابن البيطار - فإنه يؤدى إلى الغثيان والقيء. وقد ذكره البغدادى باسم المزد، وقال عنه: إنه نبيذ يتخذ من القمح، وهو شراب العامة.

شراب العسل أو نبيذ العسل: ويصنع من ماء النيل وقت الفيضان مضافا إليه العسل. وكان هذا الشراب ينقل من مصر إلى سائر الأقطار.

الشوبية: يذكر الكندى أن عبد الرحمن بن حجية كان يشربها.

المثلث: وهو شراب يطبخ حتى يذهب ثلثاه.

شراب الأقسما: وكان يصنع من السكر الأبيض النقى المضاف إلى الماء، وماء الورد ويطيب بالمسك ويبرد بالثلج.

شراب الفقاع: وهو شراب يتخذ من الشعير، وقد سمي بذلك لما يرتفع فى رأسه ويعلوه من الزبد.

صناعة الخمر: وكان يختص بصناعتها الأقباط، فكانت تعتصر من كرومهم خاصة فى شهر مسرى (أغسطس)، ويضاف إليها العسل.

ويبدو أن شرب الخمر كان منتشرا فى مصر فى تلك الفترة! لذلك نجد الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ/٧١٧-٧١٩م) يرسل رسالة إلى

أيوب بن شرحبيل - والى مصر - وأهل مصر، ينهى فيها عن شرب الخمر.
لذلك ففى ولاية أيوب بن شرحبيل عام ٩٩هـ / ٧١٧م حرمت الخمر،
وكسرت، وعطلت حاناتها كما تذكر المصادر العربية.

الملابس والزينة

كان من اثر انتقال مصر من يد البيزنطيين الى يد العرب ، ومن الديانة المسيحية الى الديانة الإسلامية ، أن طرا تغيير على ملابس الناس يواكب التغيير الجديد . فبانقسام المصريين إلى مسلمين وأهل ذمة ، أصبح للمسلمين ملابسهم ولأهل الذمة ملابسهم ، وهو لم يكن موجودا قبل الفتح .

وستتناول فى الصفحات القادمة التطور الذى طرا على الملابس . وفقا للتركيب الاجتماعى للسكان ووظائفهم ودينهم .

كان لبس البدو - كما يقول الدكتور حسن ابراهيم حسن - يتكون من قُبَاء (٢٠) طويل مشقوق من الوسط ، ويمتد الى العقب ، ومربوط من الوسط بحزام من الجلد ، ولايزال البدو من الرجال والنساء يستعملون هذا اللباس إلى اليوم . وكانوا يرتدون العباءة فوق القباء ويصنعونها من وبر الجمل ، وكانوا يرتدون فى الحرب أو فى ركوب الخيل أردية خاصة ، فيلبسون السروال عادة ، ورداء قصير بدلا من الثياب الفضفاضة.

وتذكر المصادر العربية أن الملابس التى أعطاها عمرو بن العاص لجنوده فى مصر كانت تتكون من جُبَّة (٢١) وِبْرُنْسَا (٢٢) أو عمامة وخفين .

وبمرور الوقت حدث تطور فى ملابس العرب، وكان ذلك يرجع فى الغالب لرغبة الخلفاء. ففى عهد سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩ هـ / ٧١٤ - ٧١٧م) شاع الوشش (٢٣) الذى كان يجلب من اليمن والكوفة والاسكندرية،

(٢٠) القباء جمع أقبية : وهو ثوب يلبس فوق الثياب.

(٢١) الجُبَّة جمع جبب وجباب : وهو ثوب واسع يلبس فوق الثياب.

(٢٢) الْبِرُنْسَا: قلنسوة طويلة كانت تلبس فى صدر الاسلام. والبرنس كذلك بمعنى كل

ثوب يكون غطاء للرأس جزءا منه، متصلا به.

(٢٣) الوشش جمع وشاء: نقش الثوب.

واتخذ الناس منه جلبابا وأردية وسراويل وعمائم وقلانس . وقد بلغ من ولوعه بالوشى أنه كان لا يدخل عليه رجل من أهل بيته وعماله وأصحابه ورجال بلاطه إلا فى الوشى، وكان رداؤه اذا جلس أو ركب أو ارتقى المنبر من الوشى .

وفى عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥هـ / ٧٢٣ - ٧٤٢م) أدخل زى الخَزَّ أو القُطْف أى القماش الناعم. فسلك الناس جميعا فى أيامه مذهبه .

وفى سنة ١٥٣ هـ / ٧٧٠م أمر أبو جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨هـ / ٧٥٣ - ٧٧٤م) بلبس القلانس الطوال، وهى القبعات السود الطويلة المخروطة الشكل - بصفة رسمية، والدراريع مكتوب عليها بين كتفى الرجل (فسيكفيكم الله). كما أمرهم بتعليق السيوف فى أوساطهم، كما أدخل استعمال الملابس المحلاة بالذهب، وغدا خلعها على الناس من حق الخليفة.

وينسب إلى الخليفة العباسى المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧هـ / ٨٣٣ - ٨٤١م) أنه أول من اتخذ الزى الفارسى زيا رسميا.

وفى خلافة المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧هـ / ٨٤٦ - ٨٦١ م) أوجد زيا عرف بالمتوكلية، وهو نوع من ثياب اللحم أى المبطن، وقد فضله على سائر الثياب، واتبعه من فى داره على لبس ذلك، كما لبسه الناس وبألغوا فى ثمنه وهو غاية فى الحسن والصبغ وجودة الصنع.

وفى خلافة المستعين بالله (٢٤٨ - ٢٥٢هـ / ٨٦٢ - ٨٦٦م) صغر القلانس، وأحدث لبس الأكمام الواسعة التى لم تكن تعهد من قبل، فجعل عرضها ثلاثة أشبار ونحو ذلك. وكانت هذه الأكمام تقوم مقام الجيوب، يحفظ فيها الانسان كل ما يحتاج إلى حفظه من أقلام وكراريس وأموال ودواة وغيرها .

ولم يقتصر تطور ملابس العرب على الخلفاء، بل كان لبعض الولاة دور فى هذا التطور، ففى عام ٨٧هـ / ٧٠٥م منع عبد الله بن عبد الملك والى مصر

(٨٦ - ٩٠هـ / ٧٠٥ - ٧٠٨م) من لبس البرانس. وتذكر المصادر العربية أنه هو أول من نهى الناس عن لبس البرانس السود.

وفى أثناء ولاية يحيى بن داود على مصر من قبل المهدي (١٦٢ - ١٦٤هـ / ٧٧٨ - ٧٨٠م) أمر الفقهاء والأشراف والأعيان بلبس القلانس الطوال عند الدخول عليه لمقابلتة، وذلك فى يومى الاثنين والخمسين - بلا أردعية^(٢٤).

وقد اختلفت ملابس عمال الدولة، تبعا لوظائفهم، فكان الكتاب يلبسون الدراعات، وهى ثياب مشقوقة من الصدر.

أما القضاة فكان لهم زى خاص، ويذكر أن أول من ميزهم بلباس مخصوص بهم هو القاضى أبو يوسف فى عهد هارون الرشيد. فكان القاضى يلبس السواد كهيئة عمال بنى العباس، وكانت ملابسه تتكون من طيلسان أسود وعمامة سوداء.

ويذكر الكندى أن القاضى المفضل بن فضالة الذى تولى القضاء من قبل المهدي (١٦٨ - ١٦٩هـ / ٧٨٤ - ٧٨٥م) كان «يعتم بعمامة سوداء على قلنسوة طويلة».

أما القاضى اسماعيل بن اليسع الذى تولى القضاء من قبل المهدي (١٦٤ - ١٦٧هـ / ٧٨٠ - ٧٨٣م) فيذكر الكندى أنه كان يصلى الجمع وعليه كساء مربع من صوف وقطن وقلنسوة حبر.

وعندما تولى محمد بن أبى الليث الخوارزمى القضاء من قبل المعتصم (٢٢٦ - ٢٣٥هـ / ٨٤٠ - ٨٤٩م) أمر الشيوخ بعدم لبس القلانس، فيقول الكندى : «كان زى أهل مصر وجمال شيوخهم وأهل الفقة والعدالة منهم لباس القلانس الطوال، وكانوا يبالغون فيها، فأمرهم ابن أبى الليث بتركها،

(٢٤) الرداء جمع أردية : ما يلبس فوق الثياب كالعباءة والجبة.

ومنعهم لباسها وأن يشبهوا بلباس القاضى وزيه، فلم ينتهوا . قال ابن عثمان: فجلس ابن أبى الليث فى مجلس حكمه فى المسجد، واجتمع أولئك الشيوخ عليهم القلانيس، فأقبل عبد الغنى ومطر، فضربا روعوس الشيوخ حتى ألقا قلائسهم».

ويبدو أن القضاة كانوا ملزمين بالزى المخصوص بهم. فمثلا عندما ولى الحارث بن مسكين القضاء من قبل المتوكل (٢٣٧- ٢٤٥هـ / ٨٥١- ٨٥٩م) طلب منه أن يلبس السواد، فامتنع، فخوفه أصحابه سطوة السلطان به، وقالوا: سوف يقال إنك من موالى بنى أمية! فأجابهم إلى لباس كساء أسود من الصوف.

كما يحكى أيضا أن القاضى أبا زُرعة محمد بن عثمان الذى تولى القضاء من قبل هارون بن خمارويه (٢٨٤- ٢٩٢هـ / ٨٩٧- ٩٠٤م) قدم دمشق على الوزير عبيد الله بن سليمان بن وهب فقال له: «يا أبا زُرعة، بلغنى أن القضاة والشهود يركبون بغير سراويل - واتفق أنى كنت بغير سراويل - فعاهدت الله إن سلمت من التفتيش أن لا أعود، فسهل الله أن نهضت قبل أن يمتحننى بالتفتيش».

وقد اختلفت ملابس الطبقة الراقية الغنية عن ملابس العامة، لذلك كان من السهولة التفريق بين طبقات المجتمع فى ذلك الوقت.

وكان اللباس العادى للطبقة الراقية يشتمل على سراويل فضفاضة وقميص وبراعة وسترة وقفطان وقباء وقلنسوة وعباءة أو جبة.

ولم يكن الأغنياء يتأنقون فى ملابسهم فحسب بل كانوا يتسابقون كذلك إلى الحصول على النادر والثرمين منها. وكانت الفراء الغالية معروفة بين الأغنياء، ولم يكن لبسها وقفا على النساء بل كان الرجال يلبسون المعاطف المصنوعة من الفرو.

يقول ابن سعيد: «وحدثني مزاحم بن رائق قال : استعمل لى فرو قام على بستمائه درهم، فمن حسنه وفرجى به لبسته بدمشق، وركبت إلى الاخشيد، فلما راه قلبه واستحسنه وقال : مارأيت مثله قطا فلم تسمع نفسى بأن أنزعه للوقت، فلما انصرف اعترضنى جائك (وهو المعروف بفاتك) وقال لى : اجلس فان الاخشيد يريد أن يخلع عليك ! وجاء وا برزمة وقالوا اخلع القرو، وطووه ومضوا به. وبقيت جالسا ثم قالوا : قد نام، تعود اليه العشية! فانصرفت إلى دارى، وقلت: هاتوا الفروا فقالوا: ايما فرو!! ماجاء نا شىء! فلما كان عشية دخلت على الاخشيد فاذا الفرو عليه، فلما رآنى ضحك وقال: كيف رأيت؟ ما أصفق وجهك! ولكنك ابن أبيك، وكم عرضت لك وأنت لا تستحى فلم تفعل، حتى أخذناه بلا شكر ولا منة».

وكان الأغنياء من الرجال والنساء، يلبسون الجوارب المصنوعة من الحرير أو الصوف أو الجلد ويسمونها (موزاج).

أما عامة الناس فكان لباسهم يشتمل على إزار^(٢٥) وقميص ودراسة وسترة طويلة وحزام، وكانوا ينتعلون الأحذية والنعال.

وكان لباس الرأس هو العمامة وهى عادة من عادات العرب، وكان حجمها يختلف تبعا للسن والمركز العلمى وغيرهما. وكانوا يلقون الطيلسان فوق العمامة، وهو عبارة عن منديل كبير متدل إلى الكتفين ليقى الرقبة حرارة الشمس .

هذا فيما يتصل بملابس الرجال، أما مايتصل بملابس المرأة فكانت تتكون من سروال فضفاض، وقميص مشقوق عند الرقبة عليه رداء قصير ضيق يلبس عادة فى البرد، وإذا خرجت المرأة من بيتها ترتدى الحبرة وهى ضرب من برود اليمن، وهى ملاءة طويلة سوداء تغطى جسمها، وتقى ملابسها من التراب والطين، وتلف رأسها بمنديل يربط فوق الرقبة.

(٢٥) الإزار أو المنزرد كما يسمى أحيانا عبارة عن قطعة قماش كبيرة تلف على الجسم، تعقد على وسطه من تحت السرة، وربما فيها أزار.

وقد تطورت ملابس النساء في العصر العباسي تطورا ظاهرا عما كانت عليه في العصر الأموي، إذ اتخذت سيدات الطبقة الراقية غطاء للرأس (البرنس) مرصعا بالجواهر، محلى بسلسلة ذهبية مطعمة بالأحجار الكريمة. ويرجع ابتكار هذا الغطاء إلى عليّة بنت المهدي وأخت الرشيد. وكانت نساء تلك الطبقة يعلقن الحُجُب بزئار^(٢٦) البرنس للزينة.

أما نساء الطبقة الوسطى فكان يزين روء سهن بحلية مسطحة من الذهب، ويلفن حولها عصابة مرصعة باللؤلؤ والزمرد، ويلبسن الخلاخل في أرجلهن والأساور في معاصمهن وأزنادهن، ولم يجهلن فن التجميل الذي أخذنه عن الفارسيات، وكان «طابع الحسن» الصناعي مما يتحلى به الاعرابيات. ولم تكن الملابس تختلف فقط بين طبقات المجتمع وإنما كانت تختلف أيضا بين الحضر والريف، وبين كل مدينة وأخرى فيذكر الوطواط أن أهل مدينة بلييس كانوا يأخذون بزئ أهل مصر.

هلبس أهل الذمة:

عندما فتح العرب مصر، لم تكن ثمة حاجة لالزام المصريين بلبس معين يميزهم عن العربي، إذ كان لكل من الفريقين وقتذاك ثيابه الخاصة، وكان النصاري يفعلون ذلك من تلقاء أنفسهم دون جبر أو الزام، على أن الحاجة استلزمت هذا الالزام فيما بعد، حين أخذ العرب بحظ من التمدن، إذ حمل الاغراء الشعوب الخاضعة لهم على الاقتداء بهم في ملبسهم، والتشبه بهم في ثيابهم.

ومن هنا، ولتمييز أهل الذمة عن المسلمين، أخذ الخلفاء يصدرون المراسيم بخصوص الملابس.

وقد كان أول هؤلاء الخلفاء هو عمر بن عبد العزيز، فيذكر ابن عبد الحكم أنه كتب إلى عماله يقول: «لا يمشى نصراني إلا مفروق الناصية، ولا

(٢٦) الزئار جمع زناتير: ما يشد على الوسط . وهي كلمة يونانية.

يلبس قباء، ولا يمشى إلا بزئار من جلود، ولا يلبس طيلسانا ولا سراويل ذات خَدَمَة (٢٧)، ولا نعلا لها عَدْبَة» (٢٨).

وفى خلافة هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ / ٧٨٦-٨٠٨م) طلب منه أبو يوسف تمييز أهل الذمة، بأن يجعلوا فى أوساطهم الزنارات (مثل الخيط الغليظ يعقد فى وسط كل واحد منهم)، وبأن تكون قلانسهم طوالا. فيقول له: «مرعمالك أن يأخذوا أهل الذمة بهذا الزى، هكذا كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه أمر عماله أن يأخذوا أهل الذمة بهذا الزى وقال: حتى يعرف زيه من زى المسلمين» (٢٩). وإن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عماله أن « لا يلبس نصراني قباء، ولا ثوب خز ولا عصب. وقد ذكر لى أن كثيرا من قبلك من النصارى راجعوا لبس العمائم، وتركوا المناطق على أوساطهم».

وفى عام ١٩١هـ / ٨٠٦م أمر هارون الرشيد أهل الذمة بتمييز لباسهم وهيئاتهم فى بغداد (مدينة السلام) وغيرها من البلاد .

وفى عام ٢٣٥هـ / ٨٤٩م ألزم المتوكل أهل الذمة كلهم بلبس الطيالة العسلىة والزنانير، وبتصيير زَيْن على قلانس من لبس منهم قلنسوة مخالفة لون القلنسوة التى يلبسها المسلمون، وبتصيير رقعتين على مظهر من لباس مماليكهم (رجالهم) مخالف لونهما لون الثوب الظاهر الذى عليه، وأن تكون إحدى الرقعتين بين يديه عند صدره، والأخرى منهما خلف ظهره، وتكون كل واحدة من الرقعتين قَدْر أربعة أصابع، ولونهما عسليا. ومن لبس منهم عمامة فكذا يكون لونها لون العسلى، ومن خرج من نسائهم فبرزت، فلا تبرز إلا فى إزار عسلى. وأمر بأخذ مماليكهم بلبس الزنانير ويمنعهم لبس المناطق.

(٢٧) خَدَمَة: الخلخال. المَخْنَم والمُخْدَمَة: رباط السراويل عند أسفل الرجل

(٢٨) العَدْبَة: الاطراف من كل شئ.

(٢٩) ترى الدكتورة سيدة كاشف أن ماورد فى كتب الفقهاء عن أمور اشترطها عمر بن الخطاب على أهل الذمة بخصوص ملابسهم والدواب التى يركبونها، مما يميز بينهم وبين المسلمين من الناحية الاجتماعية والأدبية - قد أصابها الزيادات الكثيرة، والتأويلات وسوء التفسير والتحريف خاصة منذ القرن ٥ هـ / ١١م. فليس من المعقول أن يتدخل عمر بن الخطاب فى ملابس أهل الذمة حتى ولو تشبهوا بالعرب القادمين، والمعقول أن العرب الذين كانوا فى دور البساطة زمن الفتح هم الذين أخذوا يتشبهون بأهل البلاد المفتوحة فى ملابسهم، حين بدأوا يتخلون عن عهد البساطة الأول، ويسيروا فى ركب التطور والمدنية.

وفى عام ٢٣٨هـ / ٨٥٢م زاد المتوكل فى التغليظ على أهل الذمة فى التمييز فى اللباس. وفى عام ٢٣٩هـ / ٨٥٣م أمر المتوكل بأخذ أهل الذمة بلبس درّعتين عسليتين على الأقبية والدراريع.

ويذكر ابن الراهب أن المتوكل أمر أن لا يلبس أحد من النصارى واليهود أبيض بل مصبوغا .

وفى سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٨م أمر المقتدر بالله أهل الذمة بلبس العسلى، وتعليق الرقاع المصبوغة بين أظهرهم .

ويورد الأبشيهى قائمة بما تراه جماعة الشافعية من القيود على الملابس، فيقول :

«قال أصحاب الشافعى : ويلزمهم أن يتميزوا فى اللباس عن المسلمين، وأن يلبسوا قلانس يميزونها عن قلانس المسلمين بالحرمة، ويشدوا الزنانير على أوساطهم، ويكون فى رقابهم خاتم من نحاس أو رصاص أو جرس يدخلون به الحمام، وليس لهم أن يلبسوا العمائم ولا الطيلسانات. وأما المرأة فانها تشد الزنار تحت الإزار، وقيل فوق الإزار وهو الأولى، ويكون فى عنقها خاتم تدخل به الحمام، ويكون أحد خفيها أسود والآخر أبيض.

ويقول القلقشندي فى كتابه تحت عنوان (فى ذكر ما يحتاج الكاتب الى معرفته فى عقد الذمة):

«التمييز عن المسلمين فى اللباس: بأن يخطوا فى ثيابهم الظاهرة ما يخالف لونها، سواء فى ذلك الرجال والنساء. والأولى باليهود الأصفر، وبالنصارى الأزرق والأكْهَب (وهو المعبر عنه بالرمادى)، وبالمجوس الأسود والأحمر، ويُشدُّ الرجال منهم الزُّنار من غير الحرير فى وَسْطِهِ، وتشدُّه المرأة تحت إزارها، وقيل فوقه. ويميزون ملابسهم عن ملابس المسلمين، وتغاير المرأة لون خُفَّيْها بأن يكون أحدهما أبيض والآخر أسود، و نحو ذلك. ويُجعل فى عنقه فى الحمام جُلْجُلًا أو خاتما من حديد. وإن كان على رأس أحدهم شعر أمر بَجْز ناصيته. ويمنعون من ارسال الضفائر كما تفعل

الاشراف. ولهم لبس الحرير والعمامة والطيلسان. والذي عليه عرف زماننا
فى التمييز أن اليهود مطلقا تلبس العمائم الصفرة، والنصارى العمائم
الزرق».

وبالنسبة للزينة :

فقد كان أهل اليسار يقبلون على التطيب بالروائح العطرية إقبالا عظيما -
كما تقول الدكتورة سيدة كاشف. وقد روى ابن زولاى أن الحسين بن أبى
زرعة - أحد قضاة مصر زمن الاخشيد - كان يبالغ فى التطيب. وكان
الاخشيد يحب العنبر ويجمع منه مقادير كبيرة. فيقول ابن سعيد: «وكان قد
اشتهر عنه محبة العنبر، وكان أكثر ما يهدى اليه، فكان اذا جاءت هذه
الأوقات التى يهدى اليه فيها، أخرج من خزانته العنبر الى التجار فيشتريه
الذين يهدونه اليه، فيحصل له الثمن الوافر ثم يعود العنبر. أقام سنين كثيرة
يعمل هذا، وقيل إنه اجتمع عنده قناطير. واحترق فى سنة ثلاث وأربعين
(وثلاثمائة) فى دار أبى الفضل بعقبة ابن فليح لجاريته أم أولاده، عنبر كثير،
كان يُشم على بعد، وكنت أسمع الناس يقولون: احترق لهم فى دار أبى
الفضل عنبر، وأسفاط، وأعدال، وصينى، مامبلغه مائة ألف دينار»؛
ويقول ابن سعيد فى موضع آخر: «كانت خزانة طفج للطيب تحمل فى
سفره على نيف وخمسين جملا».

الألعاب ووسائل التسلية

مع اصطباغ المجتمع المصرى بالصبغة العربية، كان من الطبيعى أن تصطبغ عاداته وتقاليده بالصبغة العربية أيضا، ومن هذه العادات مايتصل بالألعاب ووسائل التسلية التى عرفتها مصر بعد الفتح العربى. ومن وسائل التسلية والألعاب التى كانت منتشرة فى مصر، وذكرتها المصادر العربية خاصة فى الفترة التى يتناولها بحثنا:

١- الشطرنج^(٣٠):

وهى لعبة ذات أصل هندى، ويذكر ابن اياس أن عمرا بن العاص هو أول من أدخل علم الشطرنج إلى مصر.

٢- الحواة:

ومن الألعاب التى كانت منتشرة فى مصر خاصة فى العصر الاخشيدى الحواة الذين يلعبون بالثعابين وغيرها من الزواحف، وكان الحواة فى مصر يصيدون الحيات الضخمة، ويتباهون فيما بينهم بأحجامها وبالنادر من أجناسها، ويعرضون ألعابهم فى المجالس الخاصة. وكان بعض الشخصيات لهم هواية جمع الأفاعى والحيات، فقد ذكرت فى موضع سابق أن الوزير جعفر بن الفضل بن الفرات المعروف بابن حنزابة كان يرى الحشرات والأفاعى لدراسة خواصها وطبائعها. ويذكر المقرئى أنه كان فى داره قاعة مصنوعة بالرخام يوجد بها سلات الحيات ولها حاو من الحواة ومعه مستخدمون لهم رواتب ثابتة، وأنه كان له وقت معين يجلس فيه على دكة مرتفعة، ويدخل المستخدمون والحواة، فيخرجون ما فى السلات ويعرضون ألعابهم، وكان ابن حنزابة « يتعجب من ذلك ويستحسنه ».

ويذكر المقرئى أن كل حاو فى مصر كان يصيد مايقدر عليه من الحيات، ويتباهون فى ذوات العجب من أجناسها، وفى الكبار منها، وفى الغريبة المنظر. وأن الوزير ابن حنزابة كان يثيبهم على ذلك ويبذل لهم الأموال حتى يجتهدوا فى تحصيلها.

(٣٠) يذكر الألبشيهى أنه كان لبعض ملوك الفرس شطرنج من ياقوت أحمر وأصفر، القطعة منه قدرت بثلاثة آلاف دينار.

٣- الصيد :

وقد كانت هواية الصيد منتشرة فى مصر، خاصة بين الأمراء . ومن أشهر الولاة الذين كانوا مغرمين بهواية الصيد خمارويه بن أحمد بن طولون. فيذكر المقرئى أنه كان يخرج للصيد فى منطقة الأهرام ومدينة العقاب. ثم يصف لنا عملية الصيد فى زمن خمارويه فيقول: « لا يكاد يسمع بسبع إلا قصده، ومعه رجال عليهم لُبُود^(٣١) فيدخلون إلى الأسد، ويتناولونه بأيديهم من غابة عَنُوة وهو سليم، فيضعونه فى أقفاص من خشب محكمة الصنعة، يسع الواحد منها السبع وهو قائم، فاذا قدم خمارويه من الصيد سار القفص وفيه السبع بين يديه».

وكان خمارويه قد بنى لكل نوع من الحيوانات دارا له، فكان له دار للسباع، عمل فيها بيوتا بأزاج كل بيت يسع سبعا ولبوته، وعلى تلك البيوت أبوابا تفتح من أعلاها بحركات، ولكل بيت منها طاق صغير يدخل منه الرجل الموكل بخدمة ذلك البيت، يفرشه بالزبل، وفى جانب كل بيت حوض من رخام بميزاب من نحاس يصب فيه الماء، وبين يدى هذه البيوت قاعة فسيحة متسعة فيها رمل مفروش بها، وفى جانبها حوض كبير من رخام يصب فيه ماء من ميزاب كبير، فاذا أراد سائس سبع من هذه السباع تنظيف بيته، أو وضع وظيفة اللحم التى لغذائه، رفع الباب بحيلة من أعلى البيت، وصاح بالسبع فيخرج إلى القاعة المذكورة، ويرد الباب، ثم ينزل إلى البيت من الطاق فيكنس الزبل، ويبدل الرمل بغيره مما هو نظيف، ويضع الوظيفة من اللحم فى مكان معد لذلك بعد ما يخلص ما فيه من الغدد، ويقطعه لهما، ويغسل الحوض ويملاه ماء، ثم يخرج ويرفع الباب من أعلاه، وقد عرف السبع ذاك، فحال ما يرفع السائس باب البيت دخل اليه الأسد فأكل ما هبىء له من اللحم حتى يستوفيه، ويشرب من الماء كفايته، فكانت هذه مملوءة من السباع، ولهم أوقات يفتح فيها سائر بيوت السباع فتخرج إلى القاعة وتتمشى فيها وتمرح

(٣١) اللَّبْدُ جمع لُبُود وألباد: كل شعر أو صوف متلبد. والألبادة: ما يلبس منه للمطر.

وتلعب، فتقيم يوما كاملا إلى العشى، فيصيح بها السواس، فيدخل كل سبع إلى بيته لا يتخطاه إلى غيره. ويذكر المقرئ أن من ضمن هذه السباع كان هناك سبع أزرق العينين يقال له «زريق»، قد أنس بخمارويه وصار مطلقا في الدار لا يؤذى أحدا، وكان خمارويه يطعمه، وكان يحرس خمارويه إذا نام فلا يقدر أحد أن يدنو من خمارويه، وكان في عنقه طوق من ذهب .

كما كان للنمور دار خاصة بها، والفهود دار، والفيلة دار، وللزرافات دار، وكان لهذه الدور وكلاء لهم الرزق السننى والوظائف الكثيرة والأموال المتسعة.

٤- الكُرْج :

ومن تماثيل اللهو واللعب الكُرْج بضم الكاف وفتح الراء المشددة، معرب كرة بالفارسية، وهو تمثال مُهر من خشب يلعب به.

وهى لعبة أحدثت فى الدولة العباسية، وعنها يقول ابن خلدون:

«واتخذت آلات أخرى للرقص تسمى بالكرج، وهى تماثيل خيل مسرجة من الخشب، معلقة بأطراف أقبية يلبسها النسوان، ويحاكين بها امتطاء الخيل، فيكرونها ويفرون ويثاقفون» (٣٢) وأمثال ذلك من اللعب المعد للولائم والأعراس وأيام الأعياد ومجالس الفراغ واللهو. وكثر ذلك ببغداد وأمصار العراق، وانتشر منها إلى غيرها .

ويبدو أن هذه اللعبة قد انتقلت إلى مصر من ضمن البلاد التى انتقلت إليها، وخاصة أن ابن سعيد يذكر أن الفضل بن جعفر بن الفرات وزير الراضى بالله العباسى، عندما وصل إلى مصر بعد أن ملكها محمد بن طغج الاخشيد، كان مما عملوه فى الاحتفال بمقدمه تمثال فرس من خشب ينحدر ويصعد، ولعله — كما يقول أحمد تيمور باشا — من هذا النوع المسمى بالكرج أو شبيها به. فيقول ابن سعيد:

(٣٢) أى حاول كل منهما أن يدرك الآخر ويظفر به.

« ثم دخل الوزير الفضل بن جعفر إلى مصر، وقد ملكها الاخشيدي، فلتقاه الاخشيدي، وخلع عليه عند باب المدينة خلعا سلطانية، وزينت لهما المدينة، ونصب لهما على جوسق ابن الخلاطى فرس من خشب ينحدر ويصعد و ابن الخلاطى راكب عليه، وأكثر الناس ينظر اليه».

٥. لعب القمار:

على الرغم من تحريم الدين الإسلامى للقمار إلا أنه استمر اللعب به، بل كان للقمار دور خاصة يلعب المقامرون فيها، ويظهر ذلك بوضوح فى الدولة الاخشيديية ومما ذكره ابن سعيد يظهر نظام اللعب فى دور القمار، فيقول:

«وأمر الاخشيدي فى وقت من الأوقات بهدم المواخير ودور المقامرين والقبض عليهم. وأدخل عليه جماعة من المقامرين وعرضوا عليه، وفيهم شيخ له هيئة، فقال: هذا الشيخ مقامر؟ فقالوا: هذا يقال له المطمّع. فقال الاخشيدي: وايش المطمّع؟ فقالوا: هو سبب عمارة دار القمار، وذلك أن الواحد اذا قمر ما معه، قال له: فالعب على ردائك فلعلك تغلب، فاذا ذهب رداؤه قال له: إلبعب على قميصك حتى تغلب به، كل شىء حتى يبلغ نعليه، وربما اقترض له.

ولهذا الشيخ جراءة يأخذها على هذا كل يوم من متقبل دار القمار. فضحك الاخشيدي وقال: ياشيخ تب إلى الله وحده من هذا! فتاب، وأمر له الاخشيدي بثوب ورداء وألف درهم وقال: يجرى عليه فى كل شهر عشرة دنانير. فانصرف الشيخ شاكرا داعيا. فقال: ردوه، وقال: خذوا ما أعطيناها وابطحوه، فضربه ستمائة عصا، ثم قال: خلوه، أين هذا من تطميعك!!».

٦. سباق الخيل :

كان سباق الخيل من الألعاب المعروفة عند العرب فى الجاهلية، وكان العرب تراهن على سباق خيلها، وكانوا يعدون ذلك فخرا يتفاخرون به ويتمادحون بسببه. وكان من عاداتهم أنهم كانوا اذا سبق الفرس الحلبة ويرز، قلدوه شيئا ليعرف أنه سبق وسموه المقلد. وكان من عاداتهم أيضا

أن يمسحوا وجه الفرس اذا جاء سابقا. كما كان من عاداتهم أن يجعلوا للفرس الذى يجىء فى آخر الحلبة حبلا، ويحملوا عليه قردا، ويعطوا للقرد سوطا فيركضه القرد، ويُغير بذلك صاحب الفرس.

وكان بعضهم اذا تخلف فرسه عن الحلبة، يرميه بالنبل حتى يسقط بالأرض، كما كانوا يستعملون فى سباقهم ورهانهم طريقة القمار.

وتشير المصادر العربية إلى أول سباق تم فى مصر، هو الذى كان فى زمن عمرو بن العاص، فيذكر ابن الجوزى أن عمرو بن العاص أجرى بمصر الخيل. وقد كان لهذا السباق حادثة مشهورة ذكرتها فى موضع آخر، وهى باختصار عندما سابق فرس أحد أهل مصر فرس محمد بن عمرو بن العاص، فأشار محمد بن عمرو بن العاص إلى الفرس السابقة بقوله: فرسى ورب الكعبة! مما جعل صاحب الفرس يقول نفس العبارة: فرسى ورب الكعبة، فضربه محمد بن عمرو بن العاص وهو يقول: خذها وأنا ابن الأكرمين. فسافر صاحب الفرس إلى عمر بن الخطاب وحكى له ظلامته، وما تبع ذلك من ارسال عمر بن الخطاب رسالة إلى عمرو بن العاص يستدعيه هو وابنه، ثم عندما امتثلا بين يديه طلب من المصرى أن يضرب ابن عمرو ثم عمرو نفسه.

وقد عنى أحمد بن طولون بحلقات السباق، فبنى مكانا لعرض الخيل سماه «المنظر». وقد كانت حلبة السباق فى أيام الدولة الطولونية، خاصة فى زمن خمارويه - كما يقول المقريزى - تقوم مقام الأعياد، لكثرة الزينة، وركوب سائر الغلمان والعساكر على كثرتهم بالسلاح التام والعدد الكاملة، فيجلس الناس لمشاهدة ذلك، كما يجلسون فى الأعياد، وتطلق الخيل من غايتها، فتتمر متفاوتة يقدم بعضها بعضا حتى يتم السبق .

وقد اعتبر عرض الخيل فى الدولة الطولونية من عجائب الاسلام الأربعة - كما يقول القضاعى - وهى عرض الخيل هذا، ورمضان بمكة، والعيد بطرسوس، والجمعة ببغداد.

أما حلبه السباق فى الدولة الاخشيدية، فيبدو أنها حاكت حلبه السباق التى كانت فى الدولة الطولونية، فيذكر ابن سعيد أنه فى عام ٣٢٤هـ / ٩٣٥م شرع الاخشيد فى إجراء الحلبه على رسم أحمد بن طولون.

وقد كانت تقام سباقات دولية للخيول - فى فترة بحثنا - كما يظهر ذلك من المصادر العربيه. فيذكر الكندى أنه فى خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦هـ / ٧٠٥ - ٧١٤م) عزم على أن يجرى الخيل، ويمتحن خيل البلدان، فكتب إلى سائر الأمصار أن يتخير له خيل كل بلد، ويتوجه به اليه، فلما اجتمعت، عرضت عليه، فمرت به المصريه، فلما رآها دقيقه العصب، لينه المفاصل والأعطاف، قال: هذه خيل ما عندها طائل! (أى ليس لها قدرة) . فقال له عمر ابن عبد العزيز وهو جالس معه : وأين الخير كله إلا لهذه وعندها؟ فقال له: ما تترك تعصبك يا أبا حفص لمصر! على كل حال، فلما أجريت الخيل جاءت المصريه كلها سابقه، ما خالطها غيرها».

ويبدو أن الرهان فى سباق الخيل كان موجوداً فى مصر رغم تحريم الاسلام للرهان، فيذكر الكندى أنه فى ولاية يزيد بن عبد الله من قبل المنتصر عام (٢٤٢ - ٢٥٣هـ / ٨٥٦ - ٨٦٧م) باع الخيل التى كانت تتخذ للسباق بمصر، وعطل الرهان الذى كان لسباق الخيل بمصر، فلم تجر إلى عام ٢٤٩هـ / ٨٦٣م.

ويظهر اهتمام الدولة بسباق الخيل فى الدولة الطولونية ما ذكره المقريزى من وجود اصطبلات خاصة تنتج فيها الخيل لحلبه السباق، وكان لهذه الاصطبلات وكلاء، لهم الرزق السنى والوظائف الكثيرة والأموال المتسعة. ويذكر ابن اياس أن خمارويه كان يحب الجياد من الخيل، فكان لها أنساب مثبتة فى الدواوين كأنساب الناس .

ومن الخيول التى اشتهرت فى مصر، وكانت ملكا للقبائل أو الاشخاص:

١- فرس ذو الريش وكان ملكا للعوام بن حبيب اليحصبى .

٢- فرس الخطار، وكان ملكا للبيد بن عتبة السومى.

- ٣- فرس الذُعْلُوق، وكان ملكاً لِحَمِيرَ بن وائل السومى
٤- فرس عَجَلَى، وكانت ملكاً لقبيلة عَكَّ. ولها يقول الشاعر:

سَبَقُ الْأَقْوَامِ عَجَلَى

سَبَقَتَهُمْ وَهِيَ حُبْلَى

- ٥- فرس أُبْلَقَ لَحْم، وكانت ملكاً لقبيلة لَحْم.
٦- فرس الجَوْن، وكانت ملكاً لعُقْبَةَ بن كُليب الحضرمى .

٧. لعبة الصوالجة:

وهى عبارة عن كرة كانت تصنع من مادة خفيفة كالفلين ونحوه، وتلقى فى أرض الميدان، فيتسابق الفرسان إلى التقاطها بالصولجان، حيث يرسلون الكرة فى الهواء وهم على ظهور الخيل. ويرجح أنها ظهرت للمرة الأولى فى بلاط الفرس حوالى القرن الرابع قبل الميلاد، وهى اللعبة المعروفة اليوم عند الانجليز باسم البولو POLO.

وقد اهتم أحمد بن طولون بهذه اللعبة، حتى إنه عندما بنى قصره، بنى فيه ميداناً كبيراً لتلعب فيه بالصوالجة.

المقابر والجنائزات

اتخذ عمرو بن العاص بعد فتحه لمصر - سفح جبل المقطم، ليدفن فيه المسلمون، وقد حدث ذلك - كما يقول ابن عبد الحكم - عندما سأل المقوقس عمرو بن العاص أن يبيعه سفح المقطم بسبعين ألف دينار، فعجب عمرو من ذلك، وقال: أكتب فى ذلك إلى أمير المؤمنين، فكتب فى ذلك إلى عمر، فكتب إليه عمر: سَلْهَ لَمْ أَعْطَاكَ بِهِ مَا أَعْطَاكَ، وَهِيَ لَا تُزْدَرَعُ، وَلَا يَسْتَنْبِطُ بِهَا مَاءٌ، وَلَا يَنْتَفَعُ بِهَا؟ فَسَأَلَهُ فَقَالَ: إِنَّا لَنَجِدُ صَفْتَهَا فِي الْكُتُبِ، إِنْ فِيهَا غَرَّاسُ الْجَنَّةِ. فَكُتِبَ بِذَلِكَ إِلَى عُمَرَ، فَكُتِبَ إِلَيْهِ عُمَرُ: إِنَّا لَا نَعْلَمُ غَرَّاسَ الْجَنَّةِ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، فَاقْبِرْ فِيهَا مَنْ مَاتَ قَبْلَكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَبِعْهُ شَيْئًا.

وهناك رواية أخرى يذكرها الكندي عن اتخاذ عمرو بن العاص سفح المقطم مقبرة للمسلمين فيقول: « سأل عمرو بن العاص عن سفح المقطم ومعه المقوقس، فقال: ما بال جبلكم هذا أقرع ليس عليه نبات كجبال الشام، فلو شققنا فى أسفله نهرا من النيل وعرسناه نخلا؟ فقال المقوقس : وجدنا فى الكتب أنه كان من أكثر الجبال أشجارا ونباتا وفاكهة، وكان ينزله المقطم بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام، فلما كانت الليلة التى كلم الله تعالى فيها موسى عليه السلام، أوحى إلى الجبال، انى مكلم نبيا من أنبيائى على جبل منكم، فسمعت الجبال كلها وتشامخت، إلا جبل بيت المقدس، فانه هبط وتصاغر، فأوحى الله تعالى إليه: لم فعلت ذلك؟ وهو به أخبر، فقال: إعظاما واجلالا لك يارب. قال: فأمر الله الجبال أن يحيوه، كل جبل مما عليه من النبات، وجاء له المقطم بكل ما عليه من النبات حتى بقى كما ترى، فأوحى الله تعالى انى معوضك على فعلك بشجر الجنة أو غرسها. فكتب بذلك عمرو ابن العاص إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما، فكتب إليه: إننى لا أعلم شجرة الجنة لغير المسلمين، فاجعله لهم مقبرة. ففعل. فغضب المقوقس من ذلك، وقال لعمرو: ما على هذا صالحتنى! فقطع له عمرو قطيعا نحو بركة الحبش يدفن فيه النصارى».

وفى وصف هذه المقبرة يقول الكندى: « والاجماع على أنه ليس فى الدنيا مقبرة أعجب منها، ولا أبهى، ولا أعظم، ولا أنظف من أبنيته وقبابها وحجرها، ولا أعجب تربة منها، كأنها الكافور والزعفران، مقدسة فى جميع الكتب، وحين تشرف عليها تراها كأنها مدينة بيضاء، والمقطم عال عليها كأنه حائط من ورائها».

وقد أجمعت المصادر العربية على أن أول من دفن فى هذه المقبرة رجل من قبيلة المعافر يقال له «عامر»، فقليل: عمرت. وقبره الآن - كما يقول المقرئى - تحت حائط مسجد الفتح الشرقى .

وقد دفن فيها من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسة أشخاص هم: عمرو بن العاص، عبد الله بن حذافة السهمي، وعبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي، وأبو بصرة الغفارى، وعقبة بن عامر الجهنى . ويقال : ومسلمة بن مخلد الأنصارى .

أما بالنسبة لمقابر النصارى، فلا نعرف من المصادر العربية - خاصة فى فترة بحثنا - إلا ما ذكرته سابقا من أن عمرو بن العاص فى مقابل أخذه لسفح المقطم منهم ليكون مقبرة للمسلمين، أقطعهم أرضا بجوار بركة الحبش. أما عن مقابر اليهود فلا تذكر المصادر شيئا عن مكانها خاصة فى ذلك الوقت المبكر، وإن كان الكندى قد ذكر فى كتابه أن أحمد بن طولون عندما ابتدا فى بنى الميادين سنة ٢٥٦هـ / ٨٦٩م أمر بحرق قبور اليهود والنصارى، وبني موضعهما . فهل معنى ذلك أن النصارى واليهود كانوا يقبرون موتاهم فى مكان واحد؟ كما تذكر المصادر أنه فى سنة ٢٣٥هـ / ٨٤٩م أمر الخليفة المتوكل أهل الذمة بتسوية قبورهم بالأرض. هذا ما تذكره المصادر العربية بالنسبة لقبور النصارى واليهود فى فترة بحثنا .

وبالنسبة لبناء القبور فلا توضح لنا المصادر أشكالها إلا فى وقت متأخر، وإن كان يبدو لنا أنها كانت فى ذلك العصر بسيطة جدا، وأن التغيرات التى طرأت على بعض قبور المزارات كانت فى فترة متأخرة تلى فترة البحث - كما فى ضريح السيدة نفيسة.

ويذكر ابن دقماق أن قبر إبراهيم بن صالح بن علي وإلى مصر (١٦٥-١٦٧ هـ / ٧٨١-٧٨٣ م) كان أول قبر بيض بمصر.

أما عن صناعة شواهد القبور، فتقول الدكتورة سيدة كاشف: إن صناعة شواهد القبور كانت من الصناعات الشعبية التي ازدهرت في مصر منذ فجر الاسلام، وكانت هذه الشواهد في البداية بسيطة من الحجر والرخام، ثم اكتسبت طابع الاتقان تدريجيا، حين دخلت الزخرفة على الخط الكوفي الذي ظلت تكتب به إلى نهاية العصر الفاطمي .

وكان وجوه القوم وعلماء هم في مصر يدفنون عند وفاتهم في دورهم، ثم ينقلون بعد فترة من الزمن إلى المقبرة. ومن هؤلاء محمد بن علي المانرائي حين توفي عام ٣٤٥ هـ / ٩٥٦ م.

ويبدولنا أنه كان من عادة الناس في هذه الفترة زيارة الأموات من الأقارب، كما في العصر الحالي. فيذكر المقرئ أن محمداً بن علي المانرائي، أبا بكر كان « يركب كل يوم إلى المقابر، بكرة وعشية، فيقف له الموكب حتى يمضي إلى تربة أولاده وأهله فيقرأ عندهم، ويدعو لهم». كما كان من عادة الناس أيضا زيادة الأضرحة وأصحاب الكرامات كما في العصر الحالي.

وكان من أهم المزارات التي ذكرتها المصادر:

١- قبر الامام أبي عبد الله محمد بن ادريس الشافعي. ويقول المقرئ: إنه عندما توفي سنة ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م بفسطاط مصر، حمل على الأعناق حتى دفن في مقبرة بنى زهرة أولاد عبد الله بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى، وعرفت أيضا بتربة أولاد ابن عبدالحكم .

قال القاضي: وقد جرب الناس خير هذه التربة المباركة والقبر المبارك.

٢- قبر السيدة نفيسة بنت الحسين بن زيد بن الحسن علي بن أبي طالب. يقول المقرئ: إنها توفيت في سنة ٢٠٨ هـ / ٨٢٣ م، ودفنت في

منزلها وهو الموضع الذى به قبرها الآن، ويعرف بخط درب السباع ودرب بزرب. وقد أراد زوجها اسحاق بن الصادق أن يحملها ليدفنها بالمدينة، فسأله أهل مصر أن يتركها ويدفنها عندهم لأجل البركة. وقبر السيدة نفيسة أحد المواضع المعروفة بأجابة الدعاء بمصر.

٣- قبر السيدة كلثوم. وهى كلثوم بنت القاسم بن محمد بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب، موضعه بمقابر قريش بمصر. وكانت من الزاهدات العابدات. ومن أهم المزارات التى كانت للأقباط مشهد فى البهنسا فى صعيد مصر، يعتقد النصارى - كما يقول ياقوت - أن المسيح وأمه أقاما به سبع سنين.

وقد أورد المقرئى أن زيارة المقابر كانت لها أيام محددة تتم فيها، ولم تكن مطلقة، فيقول: « إعلم أن زيارة القرافة كانت أولا يوم الأربعاء، ثم صارت ليلة الجمعة، أما زيارة يوم السبت فقل إنها قديمة، وقيل متأخرة. ولا نعلم إذا كان ما ذكره عن عصره ينسحب على العصر الذى يخضع لبحثنا أم لا؟

ولم تمدنا المصادر العربية بمعلومات - فى فترة بحثنا - عما إذا كانت هناك مراسيم تتم للجنائز أم لا؟ غير أن المقرئى أشار فى كتابه إلى جنازتين: إحداهما كانت لعبد العزيز بن مروان عندما كان واليا لمصر، والثانية لخمارويه بن أحمد بن طولون. كما أشار البلوى فى كتابه إلى جنازة أحمد بن طولون. ويظهر فيها بعض من مراسيم الجنائز فى تلك الفترة.

فيقول المقرئى عن جنازة عبد العزيز بن مروان: « ومات هناك (أى فى حلوان)، فحُمِلَ فى البحر يراد به الفسطاط حتى تغيّر، فأنزل فى بعض خصوص ساحل مريس، فغُسِّلَ فيه، وأخرجت من هناك جنازته، وخرج معه بالمجامر فيها العود، لما كان قد تغير من ريحه، وأوصى عبد العزيز أن يمر بجنازته إذا مات على منزل جناب بن مرثد بن زيد بن هانىء صاحب حرسه،

وكان صديقا له، وقد توفى قبل عبد العزيز. فمر بجنازته على باب جناب، وقد خرج عيال جناب، ولبسن السواد، ووقفن على الباب صائحات، ثم اتبعنه إلى المقبرة.

ويقول البلوى عن جنازة أحمد بن طولون نقلا عن شيخ من صالحى أهل المعافرة: «مضيت فرايت جمعا عظيما هائلا، وحالا كبيرة تعجز الصفة عن ذكرها، حتى ظننت أنه مابقى فى البلد أحد من رجل ولا امرأة، وكل فرقة شتى، كل فرقة على حديثها رجالا ونساء، فتأملت فإذا كل صنف من غلمانه أيضا فرقا، وقواده فرقا، وكتابه فرقا، وسائر أصحابه ومن يلوذ به فرقا فرقا، ومن كان فضله عليه وجراياته وصدقاته فرقا فرقا. وقد تميز أيضا النساء من حاشيته وهن أيضا فرق فرق: حرمة منفرد فى خلق عظيم، لا يخالطن أحد من حشمهن، وحشمهن ناحية لا يخالطن غيرهن، ونساء قواده، ونساء غلمانه، ونساء كتابه، ونساء أصحابه، كل صنف منهن على حدة لا يخالطن غيرهن، ونساء القطائع فرق فرق، وكل الجماعة عليهم من الكتابة أمر عظيم، وكل منهم مسلم لأمر الله عز وجل.

ثم أقبل من النساء السودانيات اللاتى كان فضله عليهن، وجراياته القمع والدراهم فى كل شهر، خلق عظيم لا يحصيه ولا يقوم بمعرفة مبلغه إلا الله جل اسمه، صائحات صارخات، فارتجت الأرض لهن، وعظمت الحال فى قلوب من شاهدهن. ثم أقبل بعدهن من صالحى من يسكن المعافرة ممن فيه الدين والورع والخير نساء ورجال، قد كان له على جماعتهم المعروف الواسع، ولو لم يكن إلا العين الماء التى صارت حياة لهم، وصيانة ومرفقا إلى اليوم وإلى القيامة، وإن أراد الله جل اسمه ذلك ووقاها من الغير، فأقبلوا مبتهلين إلى الله جل اسمه يسألونه الرحمة له والمغفرة والتجاوز عنه، بخشوع وتضرع واستكانة وبكاء.

فشاهدت من ذلك ما هالنى، وذكر جميع من حضر أنه مارأى مثله لموت خليفة من الخلفاء ولا غيره ممن عظم قدره. ثم أقبلوا به مفردا على سرير،

مدرّجاً في ثوب وشى سعيدى كافورى، وأبو الجيش خلفه وحده راكب، لموضع خلافته والامارة، والعالم من صغير و كبير، وشريف وقاض وعدل، وكل من فى البلد يمشون، وبين يديه من غلمانه، وخلفه من كل صنف، ومن قواده وسائر من بقى من أصحابه ما لا يحصى إلا الله جل وعز، فأتوا به إلى المصلى الذى كان بناه، فتقدم ابنه أبو الجيش فصلى عليه، وصلى الناس بأجمعهم، وعدلوا به إلى قبره وواروه فى لحده، وخطوه وحيدا فريدا، أقرب الناس منه وأحبهم اليه من حثا عليه التراب. وانصرف عنه كل ذلك الجمع العظيم، وذهبوا حتى كأنه لم يكن منهم أحد. فتبارك الله أحسن الخالقين، ومالك يوم الدين، سبحانه لا يموت ولا يزول وكل نفس ذائقة الموت».

ويقول المقرئى عن جنازة خمارويه بن أحمد بن طولون: « وحمل فى صندوق إلى مصر، وكان لدخول تابوته يوم عظيم، واستقبله جواريه وجوارى غلمانه، ونساء قواده، ونساء القطنع بالصياح وما يصنع فى الماتم، وخرج الغلمان وقد حلوا أقبيبتهم، وفيهم من سود ثيابه وشققها. وكانت فى البلد ضجة عظيمة، وصرخة تتعنت القلوب، حتى دُفن».

ويظهر من هذه الجنازات :

١- أن المتوفى أحيانا كان يوصى قبل موته بمسار معين لجنازته، كما حدث مع عبد العزيز بن مروان .

٢- أن ملابس الحداد فى مصر كان هى لبس السواد.

٣- الصياح على الميت وشق الأثواب. وواضح أنها عادة عرفها الشعب المصرى منذ العصور القديمة، كما تقول الدكتورة سيدة كاشف، رغم مخالفتها لتعاليم الدين الاسلامى. وهذا ما دعا بعض الخلفاء والأمراء إلى اصدار الأوامر بمنع النواح، فيذكر ابن عبد الحكم أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عماله يقول:

«أما بعد، فانه ذكر لى أن نساء من أهل السفه يخرجن إلى الأسواق عند موت الميت ناشرات روء وسهن، ينحن نياحة أهل الجاهلية،

ولعمري ما رُخص للنساء فى وضع خمرهن مذ أمرن أن يضرين بهن على جيوبهن. فأنه عن هذه الناحية نهيا شديدا، وتقدم إلى صاحب شرطكم فلا يقرن نوحا فى دار ولا طريق، فإن الله قد أمر المؤمنين عند مصائبهم بخير الأمرين فى الدنيا والآخرة فقال: (الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ.) (٣٣)

وعندما تولى يزيد بن عبد الله ولاية مصر من قبل المنتصر عام ٢٤٢هـ / ٨٥٦م أمر بمنع النداء على الجنائز، وضرب جماعة بسبب ذلك.

وفى سنة ٢٥٣هـ / ٨٦٧م، عندما تولى مزاحم بن خاقان ولاية مصر من قبل المعتز، أمر أن لا يشق ثوب ميت، ولا سود وجهه، ولا يحلق شعره، ومنع من الخُلق (٣٤) الذى يجعل على الثياب مع السُّوار (٣٥)، وكان قد أحدث فى ولاية يزيد بن عبد الله. ومنع النساء من الصياح، وعاقب فيه وتشدد. كما منع النساء من الخروج من بيوتهن، والتوجه إلى المقابر، وسجن النوائح.

كما منع عيسى النوشرى فى ولايته على مصر من قبل المكتفى سنة ٢٩٢هـ / ٩٠٤م النواح والنداء على الجنائز.

٤ - ومن مراسيم الجنائز أيضا كانت الصلاة على الميت فى المساجد. وتذكر المصادر العربية أن أول من صلى عليه داخل مسجد عمرو بن العاص هو سعيد بن عثمان أبو الحسن صاحب الشرط (٣٦)، وقد « صلى عليه خلف المقصورة وكبر عليه خمسا ».

ويذكر المقرئى عن اليهود أنهم يغسلون موتاهم ولا يصلون عليهم، وأن من غسل ميتا اعتبر أنه نجس، فلا يصلى لمدة سبعة أيام.

(٣٣) سورة البقرة رقم ١٥٦ و ١٥٧ .

(٣٤) الخلق: ضرب من الطيب أعظم أجزاءه الزعفران.

(٣٥) السُّوار والأسوار جمع سُور وأسورة وأساور: حلقة كالطوق تلبسه المرأة فى زندها أو معصمها.

(٣٦) سعيد بن عثمان، تولى الشرطة فى ولاية أحمد بن كَيْفَلَع عام ٣٢٣هـ / ٩٣٤م ثم تولاهما فى ولاية محمد بن طغج الثانية من قبل الراضى فى رمضان عام ٣٢٣هـ / ٩٣٤م، وتوفى وهو على الشرط عام ٣٢٨هـ / ٩٣٤م.

الباب الرابع **الحياة العقلية فى المجتمع المصرى**

الفصل الأول : الحركة الفكرية فى مصر.
الفصل الثانى : الفنون.

الفصل الأول

الحركة الفكرية فى مصر

- . مدى تاثر مركز الاسكندرية الثقافى بالفتح العربى
- . مراكز الحركة الثقافية فى الفسطاط بعد الفتح العربى :
- . الجوامع والمساجد والزوايا.
- . دور ومجالس الأمراء والوزراء والعلماء.
- . أماكن عامة.
- . مراحل الحركة العلمية فى مصر بعد الفتح العربى :
- . المرحلة الاولى من بداية الفتح العربى حتى بداية حركة الترجمة.
- . المرحلة الثانية ما بعد حركة الترجمة.
- . تشجيع الخلفاء والولاة للعلماء .
- . نظام التعليم فى مصر فى العصر الاسلامى.
- . الكتاب.
- . الجوامع.
- . التعليم الخاص.
- . انواع الدراسات والقوى الاجتماعية التى أسهمت فيها :
- . دراسات المرحلة الاولى :
- . الدراسات الدينية
- . علوم القرآن.
- . علوم الحديث.
- . علوم الفقه وفقهاء المذاهب الأربعة - التصوف والمتصوفون.
- . الدراسات اللغوية والنحوية.
- . التاريخ وفن السير والقصص.

. الدراسات الأدبية :

. الشعر.

. النثر.

دراسات المرحلة الثانية :

. حركة الترجمة.

. الطب.

. علم النجوم - علم تعبير الرؤيا - علوم السحر.

. علم الصناعة (الكيمياء).

. علم الهندسة.

. الرحلات العلمية والتبادل الثقافى.

الفصل الأول الحركة الفكرية فى مصر

رأينا فى الفصل التمهيدي أنه كان لمصر حركة فكرية ضخمة مركزها الاسكندرية بوصفها عاصمة مصر قبل الفتح العربى، وعندما فتح العرب مصر انتقلت هذه الحركة من الاسكندرية إلى الفسطاط التى اتخذها العرب - الحكام الجدد - عاصمة لهم .

ويهمنا فى هذا الفصل أن نتناول تأثير الفتح العربى على الحركة الفكرية فى مصر، والقوى الاجتماعية التى أسهمت فى الحركة العلمية واشتركت فيها، ومدى تأثير المركز الفكرى للاسكندرية بالفتح العربى، وهل فقدت مركزها كلية أم تدهور هذا المركز وانتهى؟

وفيما يتصل بمدينة الاسكندرية، فإن الفتح العربى لم يقض على الحياة العلمية بها، ولا سيما ما يتعلق بالعلوم العقلية، وذلك بالرغم من أن معظم علماء الروم غادروها بعد الفتح .

وهكذا ظلت مدرسة الاسكندرية تؤدى رسالتها العلمية، على الرغم مما أصابها من ضعف لاهتمام الناس بالعلوم الدينية الاسلامية، ونظرة المسلمين فى أول الأمر إلى ماكان يدرس فى مدرسة الاسكندرية فى القرنين الأول والثانى من قرون الهجرة عن هذه العلوم، وظل أهل الذمة من النصارى واليهود أو من اليونانيين الذين بقوا بالاسكندرية، ينهلون وحدهم من هذه الدراسات.

ومع تراجع مركز الاسكندرية الثقافى إلى المقام الثانى، وبروز مركز الفسطاط إلى المقام الأول، باعتبارها العاصمة الجديدة لمصر، أخذت تظهر فيها تدريجيا مراكز للحركة الثقافية والعلمية أشعلت مصباح الحضارة الاسلامية، التى حلت محل الحضارة اليونانية المسيحية التى كانت سائدة فى مصر قبل الفتح العربى .

وقد تمثلت هذه المراكز فى ثلاثة مراكز:

المركز الأول : الجوامع والمساجد والزوايا .

المركز الثانى : دور ومجالس الأمراء والوزراء والعلماء.

المركز الثالث : أماكن عامة.

وبالنسبة للمركز الأول المتمثل فى الجوامع والمساجد والزوايا، فقد كان يقوم مقام المدرسة، وذلك لأن المدارس لم تكن تعرف زمن الصحابة والتابعين - كما يقول المقرئى - وإنما حدث عملها بعد الأربعمئة من سنى الهجرة، أى فى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى. لذلك فإن الفترة التى يتناولها بحثنا لا يوجد فيها اسم لمدرسة، وإنما كان مركز الحركة العلمية فى مصر فى بداية الفتح العربى جامع عمرو بن العاص، باعتباره أول جامع بنى فى مصر بعد الفتح العربى.

فقد كان المسجد - كما يقول الدكتور سعيد عاشور - هو المدرسة الوحيدة التى عرفها المسلمون، واستوعبت نشاطهم المتعدد الأوجه، فهو بيت الله الذى تقام فيه الصلاة ويتلى القرآن الكريم، وهو دار القضاء الذى يجلس فيه القضاة ليحكموا بين الناس بما أنزل الله، وهو مقر الحكومة الذى يخرج منه المبعوثون ويستقبل فيه السفراء، وتعتقد فيه الألوية وتنطلق منه الجيوش للغزو، وهو دار العلم الذى يلتقى بين جوانبه المعلمون والمتعلمون ليتدارسوا أصول دينهم وأركانهم، ويتدبروا القرآن وأحكامه، ويحيطوا بسنة نبيهم وأحاديثه. كما كان يوجد فى المسجد مختلف الكتب الدينية والعلمية والأدبية فهو مدرسة ومكتبة معا .

أما الزوايا فقد ظهرت فى بادئ الأمر - خاصة فى فترة دراستنا (من الفتح العربى حتى قبيل العصر الفاطمى) - فى المساجد، ثم زاد استخدام الزوايا كنوع من المنشآت الدينية المستقلة فى العمارة الإسلامية، سواء كانت زوايا فردية لأصحابها من العلماء، أو من المنقطعين للعبادة، أو زوايا جماعية لتدريس فروع العلوم الدينية المختلفة، أو زوايا خاصة لدراسة القرآن الكريم.

والزاوية فى اللغة هى موضع للانزواء، وقد وجدت الزوايا وفق هذا المعنى فى المساجد التى انزوى فى بعضها الناس لتعلم العلوم الدينية المختلفة، وهم يحيطون بشيخهم يستمعون له فى حلقات الدرس والوعظ. ومن أشهر الزوايا فى جامع عمرو بن العاص زاوية الامام الشافعى، ويذكر ابن دقماق أن مجلس الشافعى كان فى الجهة الشرقية من الجامع، وكان فى محرابه عمودان.

وقد كان الشافعى يجلس فى زاويته بعد صلاة الفجر، فيقول يا قوت نقلا عن الربيع بن سليمان: « كان الشافعى رحمه الله يجلس فى حلقة اذ صلى الصبح، فيجيئه أهل القرآن، فاذا طلعت الشمس قاموا وجاء أهل الحديث، فيسألونه تفسيره ومعانيه، فاذا ارتفعت الشمس قاموا فاستوت الحلقة للمذاكرة والنظر، فاذا ارتفع الضحى تفرقوا، وجاء أهل العربية والعروض^(١) والنحو والشعر، فلا يزالون إلى قرب انتصاف النهار، ثم ينصرف رضى الله عنه».

ومعنى هذا أن الشافعى يظل قرابة ست ساعات يوميا يلقي دروسا متصلة، ينتقل فيها من علم إلى علم ومن مادة إلى مادة، ويظل ملازما مكانه وجموع التلاميذ تتوالى عليه، يذهب عنه جمع ليقبل عليه آخر، ويظل هكذا من بعد صلاة الفجر حتى تدنو صلاة الظهر.

المركز الثانى : دور ومجالس الأمراء والوزراء والعلماء.

وكانت تتخذ للتدريس أو لقيام الندوات العلمية فيها، ومن هذه الدور والمجالس:

دار عبد الرحمن بن ملجم المرادى . شهد فتح مصر، واختط بها مع الاشراف، وكان ممن قرأ القرآن والفقه، وقيل إن عمر بن الخطاب كتب إلى عمرو بن العاص أن يقرب دار عبد الرحمن بن ملجم من المسجد ليعلم الناس القرآن والفقه، فوسع له مكان داره.

(١) العَرُوض جمع أَعَارِض. ميزان الشعر لأنه به يظهر المتزن من المختل.

دار محمد بن عبد الله بن عبد الرحيم بن أبى زرعة البرقى، مولى بنى زهرة (ت سنة ٢٤٩هـ / ٨٦٣م) يقول عنه ابن فرحون: إن بيته كان بيت علم، وأنه كان من أصحاب الحديث والفهم، والرواية أغلب عليه. وله تأليف فى مختصر ابن عبد الحكم الصغير، زاد فيه اختلاف فقهاء الأمصار، وكتاب فى التاريخ، وفى الطبقات، وفى رجال الموطأ.

دار مائك الصغرى: وهى خطة عبد الرحمن بن ملجم بقرب المسجد ليعلم الناس القرآن .

مجلس القاضى بكار بن قتيبة: كان للقاضى بكار بن قتيبة مجلس يملئ فيه الحديث، وكان أحمد بن طولون - كما تذكر المصادر العربية - شغوفاً بمجالسة الفقهاء وأهل العلم، وبلغ ولعه بالحديث وسماعه وروايته أنه كان ينتقل إلى مجلس القاضى بكار بن قتيبة طلباً للمزيد. فيقول أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوى الفقيه: ما أحصى كم كان أحمد ابن طولون يجىء إلى بكار بن قتيبة وهو يملئ الحديث، ومجلسه مملوء بالناس وأنا حاضر، فيقول الحاجب للمستملئ قبل أن يدخل : يقول لك الأمير لا تقطع ما أنت فيه. ثم يدخل أحمد بن طولون فما يشعر به بكار إلا وهو جالس على جانبه. وكان بكار على مذهب الامام أبى حنيفة، وله كتاب يرد فيه على الشافعى.

مجلس النسائى أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب (ت سنة ٣٠٣ هـ / ٩١٥م). ويبدو لنا أن النسائى كان له مجلس، فيقول الذهبي: «وكان النسائى يكون بزقاق القناديل بمصر».

مجلس أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى (ت سنة ٣٢٢ هـ / ٩٣٣م كان مجلسه - كما يقول ابن فرحون - محشواً بعيون الناس، وهو مالكى المذهب، من أهل العلم والحفظ لكتب أبيه وعددها ٢١ كتاباً، وقد سمع منه خلق عظيم.

مجلس الاخشيدي: وقد حدث يوما أن تنازع القاضى الشافعى أبوبكر ابن الحداد والقاضى المالكى أبو الذكر محمد والقاضى عبد الله بن الوليد فى مجلس الاخشيدي، وحدث بينهم لغط كثير، فلما إنصرفوا قال الاخشيدي: يجرى هذا فى مجلسى! كدت والله أن أمر بأخذ عمائمهم.

مجلس كافور : كان يعقد الندوات فى مجلسه كل ليلة، وكانت تقرأ عنده فى كل ليلة السير وأخبار الدولة الأموية والعباسية.

مجلس أحد الوعاظ^(٢) فى زمن كافور: وعنه يقول ابن اياس : « كان بمصر واعظ يعظ الناس، فقال يوما فى مجلس وعظه، وكافور حاضرا ذلك المجلس : أيها الناس أنظروا إلى هوان الدنيا على الله تعالى، فانه أعطاهما لمقصومين ضعيفين وهما: الحسن بن بويه، استولى على بغداد وهو أشل بيده، وأعطى كافورا ملك مصر وهو خصى . فرفع كافور طرفه إليه فظن الناس أنه يوقع به فعلا، فلما فرغ من وعظه، دفع إليه مائة دينار، وأخلع عليه خلعه سنية. فلما كان المجلس الثانى، حضر كافور على عادته، فقال الواعظ: ومن العجائب أن ما أنجب من بنى حام غير ثلاثة: لقمان الحكيم، وإبلال مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم وكافور الخصى».

مجلس الوزير جعفر بن الفرات المعروف بابن حنزابة. وكان يملئ الحديث بمصر، ويقصد إليه المحدثون يسمعون روايته، ومنهم المحدث أبو الحسن الدار قطنى الذى كتب عنه مجالسه.

مجلس حمزة بن محمد الحافظ فى المسجد الجامع.

مجلس على بن محمد بن أحمد بن الحسن (ت ٣٣٨هـ / ٩٤٩م)، وقد أقام بمصر فعرف بالمصرى. يقول عنه ابن كثير: إنه كان له مجلس وعظ يحضر فيه الرجال والنساء، وكان يتكلم وهو مبرقع لئلا يرى النساء حسن وجهه! وقد حضر مجلسه أبو بكر النقاش متخفيا، فلما سمع كلامه، قام قائما وشهر نفسه، وقال له: القصص بعدك حرام.

مجلس أبى جعفر بن النحاس (ت سنة ٣٣٨هـ / ٩٤٩م).

(٢) لم يذكر ابن اياس اسمه .

مجلس أبى بكر، محمد بن أحمد بن الحداد (ت عام ٣٤٥هـ / ٩٥٦م وقيل عام ٣٤٤هـ / ٩٥٥م) يقول عنه ابن زولاق: إنه تولى القضاء بمصر والتدريس، وكانت الملوك والرعايا تكرمه وتعظمه وتقصدته فى الفتاوى و الحوادث، وكان يعد الرد على ابن الحداد من ضمن عجائب الدنيا، حدث عن أبى عبد الرحمن النسائى وغيره، وكان متصرفا فى علوم كثيرة من علوم القرآن الكريم والفقه والحديث والشعر وأيام العرب والنحو واللغة، ولم يكن فى زمانه مثله. وهو صاحب كتاب الفروع فى المذهب الشافعى، كما صنف كتاب القضاء فى أربعين جزءا، وكتاب الفرائض فى نحو مائة جزء. ولد عام ٢٦٤هـ / ٨٧٧م وعندما توفى حضر جنازته الأمير أئوبجور بن الأخشيد وكافور.

وكان مجلس ابن الحداد - كما يقول الزبيدى - يتم ليلة فى كل جمعة، يتكلم فيها عنده فى مسائل الفقه على طرائق النحو، وكان أبو جعفر النحاس يحضر مجلسه.

المركز الثالث: أماكن عامة.

مثل: سوق الوراقين بالفسطاط.

فقد كان النشاط العلمى والأدبى فى العصر الاخشيدى يظهر بصورة واضحة فى هذا السوق الذى كان يسعى اليه أهل العلم والأدب، فلم يكن مجرد سوق تنسخ فيه الكتب وتباع، وإنما كانت تدور فيه أحيانا المناظرات.

وقد لاحظنا من خلال دراستنا للحركة العلمية فى مصر بعد الفتح العربى أنها مرت بمرحلتين: المرحلة الأولى، وتمتد من بداية الفتح حتى بداية حركة الترجمة.

المرحلة الثانية، وهى ما بعد حركة الترجمة.

وبالنسبة للمرحلة الأولى فقد تركزت الحركة العلمية، ليس فقط فى مصر بل فى كافة الأمصار الإسلامية، فى الدراسات الدينية. أما العلوم الدنيوية

والفلسفية فقد كان الاهتمام بها ضعيفا فى صدر الاسلام، وما نما منها كان يعتمد على الدين، ويصطبغ به.

أما بالنسبة للمرحلة الثانية فقد كان لحركة الترجمة الفضل فى إضافة نوع جديد من الدراسات الى الدراسات الدينية، وهى العلوم الفلسفية. والمقصود من العلوم الفلسفية - كما يقول الدكتور محمد كامل حسين - هى جميع العلوم التى كانت تشتمل عليها الفلسفة فى العصور الوسطى، والتى تضمها الموسوعة الفلسفية المعروفة برسائل «إخوان الصفا» من رياضيات وطب وفلك وكيمياء ومنطق... إلى غير ذلك من العلوم التى كان يحذقها فلاسفة هذه العصور، والتى لا يستحق طالب الفلسفة هذا اللقب إلا اذا ألم بها جميعها. (٢)

ويرجع الفضل فى ازدهار الحركة العلمية فى مصر بمرحلتها الى تشجيع الخلفاء والولاة للعلماء. فالأمويون حكام الدولة الأموية فتحوا أبوابهم للشعراء والخطباء، وبذلوا لهم الأموال. وطبقا لما قاله المسعودى: كان عبد الملك بن مروان «يحب الشعر والفخر والتقريظ والمدح ... وكان عماله على مثل مذهبه». وقد كان شأن أكثر بنى أمية شأن عبد الملك، نستثنى منهم خالد ابن يزيد بن معاوية، الذى كانت له نزعة فلسفية الى جانب نزعة الأدبية. كما نستثنى عمر بن عبد العزيز الذى كانت نزعة دينية، فلم يهتم بالدراسات الأدبية مثل الشعر، فقد شقى به الشعراء، إلا أنه اهتم بالدراسات الدينية. ويذكر ابن عبد الحكم عن سيرته أنه قال: «إن استطعت فكن عالما، فإن لم تستطع فكن متعلما، فإن لم تستطع فأحبهم، فإن لم تستطع فلا تبغضهم».

إما بالنسبة للعلوم الفلسفية فقد جرى الاهتمام بها فى عهد الدولة العباسية، بسبب تشجيع خلفائها - منذ خلافة المنصور الذى كان شغوفاً بالعلوم الفلسفية - لحركة الترجمة.

(٢) وسنتناول دراسات كل من المرحلتين مع حركة الترجمة بشئ من التفصيل فى الصفحات القادمة

ولم يكن الخلفاء وحدهم من قاموا بتشجيع العلماء خاصة في مصر، وإنما هناك الولاة ورجال الدولة. فمثلا أحمد بن طولون، عندما استقل بدولته أراد أن تكون إمارته منافسة للخلافة العباسية في العلوم والفنون وغير ذلك، فشجع الحركة العلمية. ويقول عنه ابن زولاق: إنه كان «يحب أهل العلم».

وقد بلغ من إهتمامه بأهل العلم استضافته لشيخ قبطى من أرض الصعيد بمصر، ذكر له أنه له نحو مائة وثلاثين سنة، وهو ممن عني، من لدن حداثته، بالعلم والاشراف على الملل والآراء والنحل من مذاهب المتفلسفين وغيرها، وأنه علامة بالممالك والملوك، وأنه ممن سافر في الأرض وشاهد الأمم، وأنه نو معرفة بهيئات الأفلاك والنجوم، وكان نصرانيا على مذهب اليعقوبية. فبعث أحمد بن طولون اليه قائدا من قواده فحمله في النيل اليه مكرما، وأسكنه وحمل اليه لذيذ المأكّل والمشارب، فأبى أن ياكل إلا بغذاء كان قد حمله معه من كعك وغيره. وتذكر المصادر العربية أن أحمد بن طولون أخلى نفسه له في ليال وأيام كثيرة، يسمع كلامه وإيراداته وجواباته فيما يسأل عنه. كما كان لهذا القبطى مجالس كثيرة عند أحمد بن طولون مع جماعة من الفلاسفة والصائبة والمجوس وجماعة من المسلمين. وقد أقام هذا الشيخ عند أحمد بن طولون حوالى سنة، فأجازه، وأعطاه، فأبى قبول شئ من ذلك، فردّه إلى بلده مكرما، وأقام بعد ذلك مدة من الزمان ثم هلك.

كما أورد لنا البلوى عطف أحمد بن طولون على إمام في أحد المساجد عندما شعر بضيق ذات يده، فأنبت اسمه في الدفتر الذى فيه أسماء المستورين و المستورات الذين يجرى عليهم في كل شهر خمسة دنانير على كل رجل وامرأة.

هذا في الوقت الذى غضب فيه على خطيب أحد المساجد، ويدعى أبا يعقوب البلخى، عندما دعا للمعتمد ولولده ونسى أن يدعو لأحمد بن طولون، فأشار ابن طولون الى نسيم الخادم ليضربه خمسمائة سوطا، إلا أن

الخطيب تذكر سهوه فعاد ودعا له، وزاد فى الشكر والدعاء له بقدر الخطبة،
ثم نزل، فنظر أحمد بن طولون الى نسيم الخادم أن اجعلها دنائير!
وكان أحمد بن طولون يميل الى المذهب الشافعى ويكرم أصحابه.
ويذكر ابن سعيد أن العباس بن أحمد بن طولون كانت له بطانة مقدمة فى
علم العرب من النحو والشعر وما جرى مجراه، وهم: جعفر بن جدار، وأحمد
بن المؤمل المعروف بأبى معشر، ومحمد بن سهل المنتوف.
أما خمارويه فيذكر ابن سعيد أنه كان محسنا للأجناد والشعراء وسائر
من يرد عليه.

كما استمر أمراء الدولة الاخشيدية أيضا فى تشجيع الحركة العلمية
والعلماء، ليس فقط عن طريق المنح المالية وإنما أيضا عن طريق تقريب
العلماء والأدباء ومجالستهم لهم، خاصة وأن أبا بكر محمد بن طنج
الاخشيد كان أديبا وشاعرا.

وكان ابن الاخشيد ، وهو أبو بكر أحمد بن على (ت ٣٢٦هـ / ٩٣٧م)،
يصرف أكثر ما يُحمل اليه من ضيعته على العلم وأهله. وكانت له معرفة
بالعربية والفقه، وله فى الفقه عدة كتب، ومن كتبه: كتاب المعونه فى الأصول،
لكنه لم يتمه، وكتاب نقل القرآن ، وكتاب الاجماع، وكتاب النقض على
الخالدى فى الأرجاء، وكتاب اختصار كتاب التفسير للطبرى.

كما أن أونوجور بن الاخشيد كان يجالس سيبويه المصرى ويناديه. وقيل
إن الأمراء الاخشيديين على اختلافهم جالسوا الفقيه أبا بكر بن الحداد، ولم
تغضبهم صراحته وثقته بنفسه، مع أنه كان طويل اللسان!

وتذكر المصادر العربية أن كافورا أمر بعشرين ألف دينار لتفرق على
فقهاء الشافعية، عندما علم أن الخليفة عبد الرحمن الناصر الأندلسى (٣٠٠-
٣٥٠هـ / ٩١٢-٩٦١م) أرسل عشرة آلاف دينار لتفرق على فقهاء المالكية.

ومن الوزراء الوزير جعفر بن الفضل بن جعفر بن الفرات المعروف بابن حَنْزَابَة (٣٠٨ - ٣٩١ هـ / ٩٢٠ - ١٠٠٠ م). الذى كان وزيراً للدولة الاخشيدية بمصر مدة إمارة كافور، ولما استقل كافور استمر على وزارته، وبعد وفاة كافور استقل بالوزارة ، وتدير المملكة لأحمد بن على بن الاخشيد. وقد كان ابن حنزابة عالماً، محباً للعلماء، شاعراً، وكان يملئ الحديث بمصر وهو وزير، وقد قصده الأفاضل والعلماء من الأقطار الأخرى، ومنهم أبو الحسن على المعروف بالدارقطنى الذى حضر إليه من العراق ليصنف مُسْنَدًا، فلم يزل الدارقطنى عنده حتى فرغ من تأليفه، وحصل له من جهته مال كثير.^(٤)

نظام التعليم فى مصر فى العصر الاسلامى:

وسنتناول فى الصفحات القادمة نظام التعليم فى مصر فى العصر الاسلامى سواء كان فى الكُتَّاب أو فى الجامع أو فى المنازل لأولاد الأمراء والملوك والوزراء.

وبالنسبة للكُتَّاب الذى يعتبر مرحلة التعليم الاولى فقد وُجد الكتاب لتعليم القرآن أول ما وجد فى المسجد، يدلنا على ذلك ما ذكره ابن جبير فى رحلته، وكذلك ابن بطوطة، من وجود حلقات كان الأطفال يلتفون فيها حول معلم القرآن، وإذا كانت الفترة التى قيل فيها هذا متأخرة فانما كان ذلك استمراراً لأمر كان سائداً فى البداية.

وبعد ذلك ظهرت كتاتيب ملحقة بالمسجد، وأخرى مستقلة عنه تماماً، فالامام الشافعى يروى لنا أنه كان يتيماً فى حجر أمه فدفعته الى الكتاب، فلما ختم القرآن، دخل المسجد مما يوحى باستقلال هذا عن ذاك.

كما يذكر ابن عبد الحكم أن عبد العزيز بن مروان كان وهو صغير فى الكتاب. ويرى الدكتور محمد كامل حسين أن المساجد التى كانت فى الخطط تقوم مقام الكتاتيب أو المدارس الأولية الآن فى التدريس للعلمان. حتى اذا

(٤) حَنْزَابَة - بكسر الحاء المهملة وسكون النون وفتح الزاى وبعد الألف باء موحدة مفتوحة ثم هاء - وهى أم أبيه الفضل بن جعفر.

تهيأت لهم ثقافتهم الى الاستماع الى فحول العلماء انتقلوا اليهم فى جامع
الفسطاط، ومنه يتخرج خيرة العلماء والفقهاء.

ويذكر ابن عبد الحكم فى كتابه إسما لكتاب يعرف «بكتاب اسماعيل».
كما يذكر ابن زولاى فى كتابه أنه كان بمصر رجل يعرف «بالغزىل الحى»،
كان يعلم الصبيان عند الصفا.

وقد بُدئ فى تنظيم تعليم الصبيان فى الكتاب فى عهد عمر بن الخطاب،
ثم توسع تعليم الصبيان فيما بعد، فظهرت كلمات عديدة تدل عليه ولا سيما
فى عهد العباسيين، فنسمع عن المكاتب - مفردتها مكتب - أو مكاتب الصبيان،
ومن يقوم به اسمه معلم أو مؤدب.

وفى زمن أحمد بن طولون ألزم أولاد الصنائع كلهم صلاة الجمعة فى
فؤارة الجامع، ثم يخرجون بعد الصلاة الى مجلس الربيع بن سليمان
ليكتبوا العلم مع كل واحد منهم ورقاً^(٥) وعدة غلمان.

ويذكر الأبشيى: أن الجاحظ قد ألف كتابا فى نواير المعلمين. وقد
ذكر فى كتابه بعضا من النواير التى كانت تدور بين المعلمين وتلاميذهم.

أما عن نظام الدراسة فى هذه المرحلة فلا شك أن أساسها كان التعليم
الدينى، ولا سيما تحفيظ القرآن والحديث. فيقول ابن خلدون: إن التريية
الدينية يجب أن تبدأ من سن مبكرة، ذلك لأنه فى هذه السن يكون الصبى
مستعدا لقبول العقائد بمجرد الايمان بها، كذلك الخط والحساب، وربما
بعض الشعر والسباحة هى جزء من المقررات.

وكان نظام الدراسة بالكتاب الاسلامى شبيه بنظام الدراسة بالكتاب
القبلى فى مواده الدراسية وهى: الدين - اللغة - الحساب.

وبالنسبة لنظام الدراسة فى الجامع، فقد كان الجامع يمثل مرحلة متقدمة
من التعليم يحصل فيها الطلبة على قسط أوفر من العلوم.

(٥) الورق: الكاتب.

وقد عُرف أن الدراسة بالمساجد تقسم الى مراحل: مرحلة (ابتدائية) لحفظ القرآن الكريم، ودراسة فوق ما درس في الكتاتيب، ثم مرحلة (ثانوية) تكون على أيدي مدرسين أكثر علما، ثم مرحلة (عالية) أو (نهائية) تدرس فيها أمهات الكتب على يد طائفة من الجهابذة.

ويذكر الحسيني في كتابه أن المرحلة الأولية كان يد رس فيها القراءة والكتابة والنحو وسيرة النبي (ص) وأحاديثه و القواعد الأولية في الحساب وبعض القصائد الدينية، أما الطلبة الكبار (الثانوية) فدرسوا تفسير القرآن والقراءات وعلم الحديث والفقه والكلام والنحو واللغة والأدب. أما الطلبة المتقدمون (النهائية - العالية) فاشتغلوا بدراسة الفلك والجغرافيا والفلسفة والهندسة والموسيقى والطب.

وقد كان الصحابة و التابعون من العلماء يجلسون في جامع عمرو بن العاص، وفي جامع أحمد بن طولون، يتصدرون الحلقات العلمية ومجالس العلم.

وكان الأستاذ يجلس في المسجد وحوله الآخذون عنه على شكل حلقة، وتكبر الحلقة وتصغر تبعا لقدرة الأستاذ، وقد يكون في المسجد جملة حلقات تجتمع كل حلقة على شيخ.

وفي عام ٣٢٦هـ / ٩٣٧م كان للشافعيين في جامع عمرو بن العاص خمس عشرة حلقة، وللمالكيين مثلها، ولأصحاب أبي حنيفة ثلاث حلقات فقط.

وفي الغالب أن الدراسة في الجامع كانت مرتبطة بموعد محدد، فيقول المقدسي: «وبين العشائين، جامعهم مغتص^(٦) بخلق الفقهاء، وأئمة القراء، وأهل الأدب والحكمة. وبخلتها مع جماعة من المقادسة، فريما جلسنا نتحدث، فنسمع النداء من الوجهين: دوروا وجوهكم الى المجلس، فإذا نحن بين مجلسين، على هذا جميع المساجد. وعددت فيه مائة وعشرة مجالس».

(٦) اغتص المكان بهم ضاق.

والى جانب التعليم فى المساجد الذى أوردناه آنفاً، كان الأمراء والوزراء ورجال الدولة يعلمون أولادهم فى المنازل على يد أساتذة متخصصين. وفيما يبدو أن هؤلاء الأولاد كانوا يتلقون تعليمهم فى المنازل وفق برنامج خاص يلتقى فى أسسه العامة بمنهاج التعليم الذى وضع لجميع الصبيان، مع بعض الحذف أو الاضافة استجابة لتوجيه الوالد، وتمشياً مع الرغبة فى إعداد هذا الصبى أعداداً خاصاً يناسب الأهداف والمسئوليات التى ستواجهه فى المستقبل.

ولدينا صورة عن هذا البرنامج التعليمى فيما وضعه الخليفة الرشيد لمعلم ابنه محمد الأمين، فقد قال له: «إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه، وثمرة قلبه، فصير يدك عليه مبسوطة، وطاعته لك واجبة، فكُنْ له بحيث وضعك أمير المؤمنين. أقرئه القرآن، وعرفه الأخبار، وروهِ الأشعار، وعلمه السنن، وبصره بمواقع الكلام وبدنه، وامنعه عن الضحك إلا فى أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشم إذا دخلوا عليه، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه، ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه، ولا تمنع فى مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه، وقوِّمه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإن أباهما فعليك بالشدَّة والغلظة».

وكان الطالب فى هذا التعليم يظل يتلقى العلم حتى يجاوز عهد الصبا، فينتقل به من مستوى تلميذ الكتاب الى مستوى الطالب فى حلقات المساجد أو المدارس.

والمعلم هنا لا يسمى معلم الصبيان أو معلم كتاب، وإنما يطلق عليه لفظ «مؤدِّب» وقد أطلقوا كلمة مؤدِّب على معلمى أولاد الملوك، اذ كانوا يتولون الناحيتين معاً، وكان المؤدِّب كثيراً ما يخصص له جناح فى القصر يعيش فيه، ليكون إشرافه على الأمير أحكم وأشمل.

ولدينا أسماء لبعض المعلمين الخصوصيين، فيذكر لنا التتوخى أن ابراهيم ابن المدبر قد أرسل الى أبى العباس المبرِّد ليرسل له جليسا يجمع مع

مجالسته تعليم ولده، فأرسل اليه على بن سليمان بن الفضل الأخفش الصغير (ت ٣١٥هـ / ٩٢٧م). فكان قدومه الى مصر فى عام ٢٨٧هـ / ٩٠٠م، وخرج منها عام ٣٠٠هـ / ٩١٢م.

ويذكر الذهبى أن أمير مصر صالح بن على قد جعل عمرو بن الحارث بن يعقوب الأنصارى، الامام أبا أمية المصرى الفقيه (ت ١٤٨هـ / ٧٦٥م) - مؤدبا لولده الفضل.

ويذكر السيوطى أن محمد أبن عبد الله بن محمد بن سلم، أبا بكر المعروف بالملطى (ت ٣٠٢هـ / ٩١٥م) كان نحويا يعلم أولاد الملوك النحو.

أنواع الدراسات:

ذكرت سابقا أن الحركة العلمية فى مصر مرت بمرحلتين بعد الفتح العربى، المرحلة الأولى: وتمتد من بداية الفتح حتى بداية حركة الترجمة، وقد عُنيت بالعلوم الاسلامية. والمرحلة الثانية: وهى ما بعد حركة الترجمة، وقد عُنيت بالعلوم الفلسفية.

وستتناول فى الصفحات القادمة أنواع الدراسات فى كل من المرحلتين، والقوى الاجتماعية التى أسهمت واشتركت فيها، أو بمعنى آخر من كان لهم الفضل فى الاسهام فيها.

وبالنسبة للمرحلة الأولى، والتى عُنيت بالدراسات الدينية، فقد قام بهذه الدراسات الدينية فى مصر فى بادئ الأمر الصحابة الذين اشتركوا فى فتح مصر أو الذين وفدوا اليها بعد الفتح، فكان العالمون منهم بأمور الدين يقومون بمهمة تعليم الشعب المصرى أصول الدين الاسلامى، وهؤلاء الصحابة العلماء كانوا أساس مدرسة مصر الدينية. وكان ممن حضر فتح مصر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، غير عمرو بن العاص قائد جيش الفتح: عبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن سعد بن أبى سرح، والزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، و عبد

الله بن عمر بن الخطاب، وخارجة بن حذافة العدوي، ومسلمة بن مخلد، وأبو رافع مولى رسول الله، وشريك بن سمي الغطيفي المرادي، وعبد الله بن الحارث بن حزم بن عبد الله بن معدى كرب الزبيدي المنحجي وكان آخر صحابي فقد توفي بمصر سنة ست أو سبع أو ثمان وثمانين من الهجرة، وغيرهم كثير.

وقد كان أكثر حملة العلم في عصر الصحابة من العرب، لأن أكثر الصحابة عرب. فلما قام علماء الصحابة بالتعليم في الأمصار المفتوحة، اشترك العرب وغيرهم في تلقي العلم عنهم، حتى إذا كان عصر التابعين وتابعيهم انعكست الآية فأصبح بعض حملة العلم عربيا وأكثرهم من الموالى وأبنائهم، ويدلنا على ذلك أن الخليفة عمر بن عبد العزيز جعل الفتيا بمصر إلى ثلاثة رجال: رجلان من الموالى ورجل من العرب، فأما العربي فجعفر بن ربيعة، وأما المولىان فيزيد بن أبي حبيب وعبد الله بن أبي جعفر، مما دفع العرب إلى إظهار استنكارهم من هذا الوضع، فقال عمر بن عبد العزيز: ما ذنبى إن كانت الموالى تسمو بأنفسها صعداء، وأنتم لا تسمون!

وهكذا كان علماء الدين في مصر - كما يقول أحمد أمين - إما من أصل عربي يرجع نسبه إلى القبائل العربية الفاتحة أو الوافدة، أو من أصل مصري أصله قبطى وأسلم هو أو أسلم أجداده.

ولم يكن علماء الدين متخصصين في علم بذاته، فقل أن نجد في هذا العصر من نسميه الآن تخصصيا، فليس هناك عالم بالتفسير فقط، أو بالحديث فقط، لأن هذا الدور إنما يكون بعد تنظيم البحث، وهو دور لم يصلوا إليه في هذا العصر. كذلك كانت الدروس فيها تفسير، وفيها حديث، وفيها فقه، وفيها لغة، وفيها جدال ديني.

وقد اهتم الخلفاء اهتماما خاصا بالدراسات الدينية، لذلك فقد حرصوا على إرسال علماء الدين إلى الأمصار المختلفة ليفقهوا أهلها، وليكونوا

مرجعا لهم فى أحكامه وكافة أموره. وبالنسبة لمصر، فنرى عمر بن الخطاب يبعث الى أهل مصر حبان بن أبى جبلة ليفقههم. ويبعث الخليفة عمر بن عبد العزيز نافعا مولى ابن عمر، فقيه أهل المدينة، إلى مصر ليعلمهم السنن. وبالعكس فقد أمر عمر بن عبد العزيز جُعْثَلُ بن هاعان بن سعيد الرُعَيْنى القُتُبَانى المصرى، أحد القراء والفقهاء، بالخروج من مصر الى المغرب ليقْرَنُهم القرآن، وقد ذهب الى هناك وولى القضاء فى عهد هشام بن عبد الملك الخليفة الأموى، وتوفى حوالى ١١٥هـ / ٧٣٣م.

الدراسات الدينية:

قامت هذه الدراسات - كما يقول أحمد أمين - على تفهم معانى القرآن ورواية الحديث، وأقوال الأئمة، واستنباط الأحكام، كل على أصول مذهبه، وكانت على نمط الدراسة فى العراق موضوعا ومنهجيا. وقد انقسمت الى : علوم القرآن، وعلوم الحديث، وعلوم الفقه، والدراسات اللغوية والنحوية، والتاريخ.

أولا: علوم القرآن وتشتمل على علم القراءات، وعلم تفسير القرآن.

وبالنسبة لعلم القراءات فقد كان يدور حول كيفية قراءة ألفاظ القرآن. وقد نشأ بسبب خاصية الخط العربى، إذ أن الرسم الواحد للكلمة الواحدة يُقرأ بأشكال مختلفة تبعا للنقط فوق الحروف أو تحتها. كما أن تباين لهجات العرب والمسلمين من الشعوب المفتوحة أوجد اختلافا فى النطق بحروف القرآن، ثم إن القرآن يشتمل أصلا على ألفاظ القبائل العربية المختلفة بما فيها من عدنانية وقحطانية، وإن كانت ألفاظ قريش هى الغالبة، تليها هذيل وكنانة وحمير وغيرهم من قبائل الجزيرة. ولذلك اتفق، بعد البحث والاستقصاء، على قراءات معينة، أو ما سُمى أيضا بالتجويد، أيدت بأحاديث نبوية، وروايات الصحابة والتابعين، وقصد من تنوعها التسهيل. وقد يكون أساس التنوع أيضا، بسبب اختلاف القراء فى قراءة القرآن من مصاحف الصحابة قبل أن يصلهم مصحف عثمان، الذى كان خاليا من النقط

والشكل، حتى إن عثمان أطلق للناس القراءات على أى حرف وأية لهجة. وقد أصبحت هذه القراءات علما مدونا توضع فيه المصنفات، التى ربما صاحبها الرسم لأوضاع الحروف، واعتبرت المعرفة بها فرضا. كذلك تناول علماء كثيرون فى جميع أرجاء البلاد الإسلامية هذه القراءات بالشرح، وإبراز قواعدها وأحكامها، اذ كانت كل بلد تأخذ من القراءات ما يلائم طبع أهلها، مثل المذاهب تماما وقد اختلف فى عدد القراءات، فبعضهم جعلها سبع قراءات، وبعضهم جعلها خمسا وعشرين قراءة، وإن رجحت سبع قراءات، وأصبح يعرف أصحابها بأصحاب القراءات، وهى: قراءة نافع من المدينة، وابن كثير من مكة، وابن عامر من الشام، وأبى عمر من البصرة، وعاصم وحمة و الكسائى من الكوفة.

وقد كانت أول شخصية علمت القرآن بمصر هو عبيد بن محمد، أبو أمية المعافرى، وهو أحد الصحابة الذين شاهدوا فتح مصر.

وقد أخذ أهل مصر قراءة القرآن الكريم عن قراءة نافع. (٧)

ومن قراء مصر:

سَقْلَاب بن شُنَيْئَة، أبو سعيد المصرى (ت عام ١٩١هـ / ٨٠٦م) قرأ القرآن على نافع. وقرأ عليه يونس بن عبد الأعلى، وأبو يعقوب الأزرق وغيرهما، وكان يقرئ فى أيام ورش.

عثمان بن سعيد، أبو سعيد المصرى الملقب بَوْرش (ت عام ١٩٧هـ / ٨١٢م) وهو أحد القراء المشهورين، أصله قبلى. وقد انتهت اليه رئاسة الاقراء بالديار المصرية فى زمانه، قرأ القرآن وجوده على نافع، ونافع

(٧) نافع: هو أبو عبد الله المدنى حدث عن مولاة ابن عمر وعن عائشة وأبى هريرة وطائفة، وعنه الأوزاعى ومالك وعقيل بن خالد والليث وخلق. وقال البخارى وغيره: أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر. قال عبيد الله بن عمر: بعث عمر بن عبد العزيز نافعا الى أهل مصر يعلمهم السنن. توفى عام ١١٧هـ / ٧٣٥م.

هو الذى لقبه بورش لشدة بياضه. والورش يصنع من اللبن. وكان ثقة، حجة فى القراءة.

مُعَلَّى بن دحية المصرى، أبو دحية المقرئ. قرأ القرآن وجودة على نافع.

داود بن أبى طيبة المصرى، أبو سليمان بن هارون بن يزيد، مولى آل عمر بن الخطاب (ت سنة ٢٢٣هـ / ٨٣٧م) قرأ على ورش وذكره ابن يونس فى تاريخه.

عبد الصمد بن عبد الرحمن بن القاسم العتقى، أبو الأزهر المصرى (ت سنة ٢٣١هـ / ٨٤٥م) قرأ القرآن وجودة على ورش. وهو أخو الفقيه موسى بن عبد الرحمن.

يحيى بن سليمان الجعفى الكوفى، أبو سعيد المقرئ الحافظ نزيل مصر (ت ٢٣٨هـ / ٨٥٢م).

أبو يعقوب الأزرق، يوسف بن عمرو بن يسار المدنى ثم المصرى (ت سنة ٢٤٠هـ / ٨٥٤م). كان مقرئ ديار مصر فى زمانه، لزم ورشا مدة طويلة، وأتقن عنه الأداء، وجلس للاقراء وانفرد عن ورش بتغليظ اللامات، وترقيق الراءات.

محمد بن سعيد، أبو عبد الله الأنماطى المصرى المقرئ. قرأ على أبى يعقوب الأزرق وغيره، وهو من جلة المصريين.

أحمد بن صالح، أبو جعفر المصرى الحافظ المقرئ (١٧٠ - ٢٤٨هـ / ٧٨٦ - ٨٦٢م) أخذ القراءة عرضا وسماعا عن ورش. وقال صالح بن محمد الحافظ عنه: لم يكن أحد يحسن القراءة غير أحمد بن صالح، كان رجلا جامعا يعرف الفقه والحديث والنحو.

سليمان بن داود بن حماد بن سعد، أبو الربيع المصرى المقرئ (١٧٨ - ٢٥٣هـ / ٧٩٤ - ٨٦٧م) كان من جلة القراء. قرأ على ورش، وروى عن ابن

وهب، وأشهب، وجماعة، قال ابن يونس: كان فقيها على مذهب مالك، وكان رجلاً زاهداً.

اسماعيل بن عبد الله بن عمرو بن سعيد بن عبد الله، أبو الحسن النحاس مقرئ الديار المصرية. جود القرآن على أبي يعقوب الأزرق صاحب ورش، وتصدر للاقراء مدة، وكان يقرأ بجامع عمرو بن العاص توفي سنة بضع وثمانين ومائتين.

أبو بكر بن عبد الله بن مالك بن عبد الله بن سيف التجيبي المقرئ المصري شيخ الاقليم في القراءات في زمانه (ت سنة ٣٠٧ هـ / ٩١٩ م) قرأ القرآن على أبي يعقوب الأزرق، وعمر دهرًا طويلاً، وحدث عن محمد بن رُمح صاحب الليث بن سعد وغيره. ذكره ابن يونس في تاريخه.

أحمد بن عبد الله بن محمد بن هلال، أبو جعفر الأزدي المصري (ت سنة ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م) أحد أئمة القراء بمصر.

أحمد بن محمد بن عثمان، أبو بكر الرازي نزيل مصر. شيخ القراء، توفي بمصر (سنة ٣١٢ هـ / ٩٢٤ م).

محمد بن محمد بن عبد الله بن النُّفَّاح بن بدر الباهلي البغدادي المقرئ نزيل مصر (ت سنة ٣١٤ هـ / ٩٢٦ م) كان ثقة ثباتاً، صاحب حديث.

إبراهيم بن حمدان بن عبد الله. أندلسي سكن مصر (ت عام ٣١٨ هـ / ٩٣٠ م) روى القراءة عرضاً وسماعاً عن اسماعيل بن عبد الله النحاس وذكره ابن يونس.

مظفر بن أحمد بن أحمد بن أبي غانم المصري النحوي المقرئ (ت سنة ٣٣٣ هـ / ٩٤٤ م) وكان من جلة المقرئين بمصر. وله مصنف في اختلاف السبعة.

عبد المنعم بن عبد الله بن عليون (ت سنة ٣٣٩ هـ / ٩٥٠ م) وهو مؤلف كتاب «الإرشاد في القراءات».

محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن منير، أبو بكر الامام، ويعرف بابن أبي الأصمى الحراني (ت سنة ٣٣٩هـ / ٩٥٠م)، وهو نزيل مصر، وكان بصيرا بمذهب مالك.

حمّدان بن عَوْن، أبو جعفر الخولاني المصري المقرئ (ت سنة ٣٤٠هـ / ٩٥١م)، قرأ على أحمد بن هلال و على اسماعيل بن عبد الله النحاس.

أحمد بن أسامة، أبو جعفر بن الشيخ أبي سلمة التجيبي مولا هم المصري المقرئ توفي عام ٣٤٢هـ / ٩٥٣م وقيل عام ٣٥٦هـ / ٩٦٦م. ألف كتاب «اختلاف القراءات السبعة».

محمد بن عبد الله المعافري، أبو بكر المصري المقرئ. توفي بمصر عام ٣٥٧هـ / ٩٦٧م.

محمد بن عبد الله بن محمد بن أشته اللوذريّ، أبو بكر. توفي بمصر عام ٣٦٠هـ / ٩٧٠م. وهو أصبهاني سكن مصر، أخذ القراءة عن ابن مجاهد والنقاش وجماعة، له كتاب المصاحف.

عبد العزيز بن علي بن محمد بن اسحاق بن الفرّج، أبو عدى المصري الفقيه ويعرف بابن الامام (ت عام ٣٨١هـ / ٩٩١م) عاش تسعين سنة، وكان مسند القراء في زمانه بمصر.

علم تفسير القرآن الكريم:

لم يكن العرب في أول الأمر بحاجة الى تفسير القرآن، ذلك لأنه نزل بلغتهم وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه، وكانوا على علم بمناسبات نزول آياته ومقاصدها. ثم إنهم في أول الأمر لم يكونوا يسمحون بتفسير القرآن، اعتمادا على قول النبي عليه الصلاة والسلام: «من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار». غير أن العلماء المسلمين تخلصوا من هذا الحرج في أواخر القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، خاصة أنهم بعدوا عن وقت ظهور القرآن مما

جعل مقاصد ألفاظ القرآن مبهمة وغير مفهومة، وخصوصا على الذين أسلموا من الشعوب غير العربية، بحيث كانوا فى حاجة ملحة الى تفسير نص القرآن.

وقد اتجه المفسرون فى تفسير القرآن الكريم الى اتجاهين:
الاتجاه الأول، ويعرف باسم التفسير بالمأثور، أو التفسير النقلى، ويُعتمد فيه على النقل عن النبى عليه الصلاة والسلام والصحابة والتابعين وتابعى التابعين.

والاتجاه الثانى ويعرف باسم التفسير بالرأى، ويعتمد على العقل أكثر من اعتماده على النقل. وهذه الطريقة للتفسير تعتمد على اللغة ومعانى الألفاظ، فكان يُبحث عن أحوال الألفاظ ومفردات الآيات وما ورد فيها من معان، وشرح غوامض الاعراب، والتعرض للآية وسبب نزولها وغير ذلك. وكان للمصريين نصيب فى تفسير القرآن الكريم، وقد نقل البخارى^(٨) والطبرى^(٩) فى تفسيرهما كثيرا من الصحيفة المصرية فى التفسير. والصحيفة المصرية تعتبر من أقدم الروايات التى رويت عن ابن عباس^(١٠)، ومن أصح الطرق عنه، فهى رواية على بن أبى طلحة عن مجاهد^(١١) أحيانا وعن عكرمة^(١٢) أحيانا أخرى عن ابن عباس.

(٨) وهو أبو عبد الله محمد بن أبى الحسن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة البخارى الحافظ الامام فى علم الحديث، صاحب الجامع الصحيح والتاريخ، رحل فى طلب الحديث الى أكثر محدثى الامصار ولد عام ١٩٤هـ / ٨٠٩م وتوفى عام ٢٥٦هـ / ٨٦٩م

(٩) وهو أبو جعفر بن جرير بن يزيد بن خالد الطبرى صاحب التفسير الكبير والتاريخ الشهير، كان إماما فى فنون كثيرة منها التفسير والحديث والفقه والتاريخ وغير ذلك. وكان من الأئمة المجتهدين ولد عام ٢٤٤هـ / ٨٢٨م وتوفى ببغداد عام ٣١٠هـ / ٩٢٢م.

(١٠) وهو أبو العباس عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم كان الرسول قد دعا له فقال: اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل. وقد أخذ الفقه عن ابن عباس جماعة منهم: عطاء بن رباح ومجاهد وعكرمة وغيرهم. توفى بالطائف عام ٢٧٨هـ / ٦٩٧م.

(١١) مجاهد ويكنى أبا الحجاج مولى قيس بن السائب المخزومى وقد قيل عنه إنه كان فقيها عالما ثقة كثير الحديث. توفى عام ١٠٣هـ / ٧٢١م وقيل عام ١٠٢هـ / ٧٢٠م وقيل عام ١٠٤هـ / ٧٢٢م

(١٢) وهو أبو عبد الله عكرمة بن عبد الله مولى ابن عباس. وقيل عنه: كان عكرمة أعلم الناس بالتفسير. وكان قول: كان ابن عباس يضع فى رجلى الكيل ويعلمنى القرآن والسنة. توفى عام ١٠٧هـ / ٧٢٥م وقيل عام ١٠٦هـ / ٧٢٤م وقيل عام ١٠٤هـ / ٧٢٢م وقيل عام ١٠٥هـ / ٧٢٣م وقيل عام ١١٥هـ / ٧٣٣م.

ولهذا عُرِفَت هذه الصحيفة بصحيفة على بن أبى طلحة، ونقلها عنه معاوية بن صالح قاضى قرطبة. وفى سنة ١٥٤ هـ / ٧٧٠ م مر معاوية بمصر فى طريقه الى الحج، فروى بمصر هذا التفسير، فنقله عنه عبد الله بن صالح المعروف بكاتب الليث بن سعد واحتفظ بها. وقد عرفت الصحيفة المصرية فى سائر الأقطار الاسلامية.

وكان من العلماء المفسرين فى مصر:

عبيد بن سَوِيَّة الأنصارى مولاهم المصرى (ت سنة ١٣٥ هـ / ٧٥٢ م) وهو رجل صالح مفسر قلما روى. أخذ عنه حيوة بن شريح وابن لهيعة وعمرو بن الحارث وغيرهم.

محمد بن موسى الواسطى، أبو على (ت سنة ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م) وقد قدم الى مصر، وكان من أهل العلم باللغة وتفسير القرآن. وقد مات بمصر.

أبو جعفر النحاس، أحمد بن محمد بن اسماعيل بن يونس المرادى المصرى (ت ٣٣٨ هـ / ٩٤٩ م) وله كتب كثيرة فى التفسير منها: كتاب «تفسير القرآن الكريم»، وكتاب «أعراب القرآن»، وكتاب «الناسخ والمنسوخ».

ثانيا : علوم الحديث:

كانت دراسة الحديث فى العالم الاسلامى كله تقوم فى البداية على روايته عن الصحابة والتابعين، ثم لما كثر الوضع فى الحديث بدأ العلماء يُعَنُون بنقد الرجال، فوضعت أصول نقد السند، كما وضعت أصول نقد المتن واستخلاص السنن من الأحاديث التى صحت.

وقد كان من المحدثين المصريين:

عبد الله بن عمرو بن العاص وكان أكثر الصحابة فى مصر رواية للحديث النبوى الشريف، فلاهل مصر عنه أكثر من مائة حديث، وكان يعترف له أبو هريرة بالاكثار من العلم، وقد قال عنه: فإنه كان يكتب عن

النبي صلى الله عليه وسلم وكنت لا أكتب. وقد كتب الأحاديث التي أخذها عن النبي صلى الله عليه وسلم في صحيفته الصادقة. حمل عنه المصريون علما عظيما وتوفى بمصر عام ٦٥هـ / ٦٨٤م.

الأعرج عبد الرحمن بن داود المدني صاحب أبي هريرة. توفى بالأسكندرية عام ١١٧هـ / ٧٣٥م، وقد أشـ عليه البخاري، فقال أصح أسانيد أبي هريرة ما كان عن طريق أبي عن الأعرج عن أبي هريرة. وقال عنه الذهبي: كان الأعرج أول من برز في القرآن والسنن.

أبو عُسْائَةَ المَعَاقرِي (ت عام ١١٨هـ / ٧٣٦ م) روى عن عقبة بن عامر وجماعة.

القاسم بن عبد الله المَعَاقرِي المصري. عن سعيد بن المسيب وعنه يحيى بن أيوب وابن لهيعة، توفى في حدود العشرين ومائة.

شراحيل بن يزيد المَعَاقرِي المصري. توفى بعد العشرين ومائة من الهجرة، وقد روى عنه عبد الرحمن بن شريح وابن لهيعة وجماعة.

سُلَيْم بن جبير أبو يونس مولى أبي هريرة (ت سنة ١٢٣ هـ / ٧٤٠ م) سكن مصر وروى عن ابن هريرة وعنه حيوة بن شريح والليث بن سعد وابن لهيعة وغيرهم. وثقه النسائي.

سليمان بن حميد المزني (ت سنة ١٢٥ هـ / ٧٤٢ م) روى عن أبيه عن أبي هريرة وعنه الليث بن سعد وضمام بن اسماعيل وجماعة.

عطاء بن دينار الهذلي مولاهم المصري، يكنى أبا طلحة (ت سنة ١٢٦ هـ / ٧٤٣ م) روى عنه حيوة بن شريح، ويحيى بن أيوب، وابن لهيعة وآخرون.

عبد الرحمن بن خالد بن مسافر القهمي (ت سنة ١٢٧ هـ / ٧٤٤ م)، أمير الديار المصرية لهشام بن عبد الملك. له نسخة عن الزهري نحو مائتي حديث، وعن يحيى بن أيوب، والليث بن سعد والليث فمولاه، ويسببه نال الليث دنيا عريضة. قال ابن يونس: كان ثبتا في الحديث.

حفص بن الوليد بن سيف، أبو بكر الحضرمي (ت سنة ١٢٨ هـ/ ٧٤٥ م) أمير الديار المصرية من جهة هشام بن عبد الملك. روى عن الزهري. وعنه الليث وابن لهيعة.

أبو قبيل المعافري المصري، حيي بن هاني بن ناصر (ت سنة ١٢٨ هـ/ ٧٤٥ م) قدم من اليمن فسكن مصر، وروى عن عقبة بن عامر وعبد الله ابن عمرو بن العاص وعنه يحيى بن أيوب والليث وآخرون، وثقه أحمد بن حنبل.

قيس بن الحجاج بن خلى الكلاعي ثم السكفي المصري وقيل دمشقي (ت سنة ١٢٩ هـ/ ٧٤٦ م) روى عنه الليث وابن لهيعة وغيرهما. وكان رجلا صالحا صدوقا ما جرحه أحد.

الحسين بن شفي بن ماتع الأصبحي المصري (ت سنة ١٢٩ هـ/ ٧٤٦ م) عنه نافع بن يزيد وحيوة بن شريح وآخرون.

كعب بن علقمه التَّنُوخي المصري (ت سنة ١٣٠ هـ/ ٧٤٧ م) روى عن أبي تميم الجيشاني وطائفة، وعنه حيوة بن شريح والليث وابن لهيعة وغيرهم. وكان أحد الثقات العلماء.

الحارث بن يعقوب الأنصاري المصري مولى قيس بن عبادة (ت سنة ١٣٠ هـ/ ٧٤٧ م) روى عنه يزيد بن أبي حبيب والليث بن سعد وآخرون.

عبيد الله بن المغيرة المصري (ت سنة ١٣١ هـ/ ٧٤٨ م) روى عن عبد الله بن الحارث بن جزء، وعبيد الله بن عدى وغيرهم، وعنه عمرو بن الحارث وابن اسحاق وابن لهيعة. قال ابن حاتم: صدوق.

سعيد بن أبي هلال الليثي مولاهم المصري أبو العلاء (ت عام ٣٣١ هـ/ ٧٥٠ م أو عام ١٣٥ هـ/ ٧٥٢ م أو عام ١٤٩ هـ/ ٧٦٦ م)، روى عن زيد بن أسلم ونافع والزهري وغيرهم. وعنه الليث بن سعد وآخرون.

جعفر بن ربيعة بن شَرْحُبِيل بن حَسَنَة الكندي، أبو شرحبيل
المصرى (ت عام ١٣٣ هـ / ٧٥٠ م أو عام ١٣٤ هـ / ٧٥١ م أو عام ١٣٦ هـ
٧٥٣ م) عنه الليث وابن لهيعة وآخرون. وثقه النسائي وغيره.

زُهْرَة بن معبد بن عبد الله، أبو عقيل المدني نزيل الاسكندرية (ت عام
١٣٥ هـ / ٧٥٢ م أو قيل عام ١٣٧ هـ / ٧٥٤ م). روى عنه الليث وابن لهيعة
وغيرهما. وثقه النسائي.

حُمَيْد بن هانئ، أبو هانئ الخولاني (ت سنة ١٤٢ هـ / ٧٥٩ م) مصرى
صدوق. روى عن علي بن رياح وعنه حيوة بن شريح والليث وابن لهيعة وابن
وهب. قال أبو حاتم: صالح الحديث.

السكن بن أبي كريمة بن زيد أبو عثمان التجيبي المصرى (ت سنة
١٤٢ هـ / ٧٥٩ م) روى عنه حيوة بن شريح وابن لهيعة وغيرهم.

حُيى بن عبد الله المعافرى، أبو عبد الله المصرى صالح الحديث (ت
١٤٣ هـ / ٧٦٠ م) عنه الليث وابن لهيعة وابن وهب. قال النسائي: ليس بقوى.

قُرَّة بن عبد الرحمن بن حَبِوَيْل بن ناشرة المعافرى المصرى (ت
سنة ١٤٧ هـ / ٧٦٤ م) عن يزيد بن أبي حبيب وعنه الأوزاعي والليث بن سعد
وابن وهب وآخرون. ضعفه ابن معين. قال أبو حاتم: ليس بالقوى.

عمار بن سعد المرادى وقيل التُّجَيْبى المصرى (ت سنة ١٤٨ هـ /
٧٦٥ م) عن أبي صالح الغفارى عن علي وعنه حيوة بن شريح ويحيى بن
أيوب وابن لهيعة. وكان من العلماء بمصر فى زمانه.

عبد الجليل بن حُمَيْد أبو مالك اليعصبى المصرى (ت سنة ١٤٨ هـ /
٧٦٥ م) عن الزُّهْرَى وآخرين، وعنه نافع بن يزيد وابن وهب قال
النسائي: ليس به بأس.

عبد الواحد بن أبى موسى، أبو معن الاسكندراني (ت سنة
١٥٠ هـ / ٧٦٧ م) عن زهرة بن معبد، وعنه ضمام بن اسماعيل وابن المبارك
وجماعة.

سالم بن غيلان التُّجَيْبِي المِصْرِي (ت سنة ١٥١ هـ / ٧٦٨ م) عن يزيد ابن أبي حبيب وغيره، وعنه حيوة بن شريح وابن لهيعة وابن وهب وغيرهم. قال النسائي: ليس به بأس.

محمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج (ت سنة ١٥٥ هـ / ٧٧١ م) ولى الديار المصرية لأبى جعفر المنصور، وحدث عن أبيه.

قُبَاث بن رُزَيْن بن حميد، أبوهشام المِصْرِي (ت سنة ١٥٦ هـ / ٧٧٢ م) عن عكرمة وعلى بن رياح، وعنه ابن المبارك وابن وهب وعبد الله بن صالح. قال أبو حاتم: لا بأس به. وكان إمام جامع مصر.

عياش بن عقبة بن كُليب الحَضْرَمِي، أبو عقبة المِصْرِي (ت سنة ١٦٠ هـ / ٧٧٦ م). قرابة ابن لهيعة. روى عن جبر بن نعيم، ويحيى بن ميمون وغيرهما، وروى عنه بكر بن مضر، وابن وهب وغيرهما. وقد ولى إمرة الاسكندرية. قال النسائي: ليس به بأس. وقال المقرئ: كان شيخ صدق.

سعيد بن أبي أيوب المِصْرِي (ت سنة ١٦١ هـ / ٧٧٧ م) روى عن أبي زهرة بن معبد وجماعه.

موسى بن على بن رباح اللخمي المِصْرِي (ت سنة ١٦٣ هـ / ٧٧٩ م) روى عن أبيه وطائفة. ولى مصر للمنصور ستة أعوام.

نافع بن يزيد المِصْرِي (ت سنة ١٦٨ هـ / ٧٨٤ م) عن جعفر بن ربيعة وطبقته، وكان أحد الثقات.

بكر بن مَضر بن محمد بن سَلْمَان، أبو محمد المِصْرِي (ت عام ١٧٤ هـ / ٧٩٠ م) حدث عن أبي قبيل المعافري وجعفر بن ربيعة وآخرون، وعنه ابنه اسحاق وابن وهب وآخرون. وكان ثقة حجة.

عبد الله بن لهيعة بن عقبة الحضرمي، أبو عبد الرحمن المصري (ولد عام ٩٧ هـ / ٧١٥ م وقيل عام ٩٦ هـ / ٧١٤ م وتوفي عام ١٧٤ هـ / ٧٩٠ م وقيل عام ١٧٠ هـ / ٧٨٦ م وقيل عام ١٦٤ هـ / ٧٨٠ م). كان من الكتّابين للحديث والجماعين للعلم والرحالين فيه. قيل إنه كان يكنى أبو خريطة، وذلك لأنه كانت له خريطة معلقة في عنقه، فكان يدور بمصر، فكلما قدم قوم كان يدور عليهم، فإذا رأى شيخاً سألته: من لقيت وعمن كتبت؟

وتعتبر صحيفة ابن لهيعة في الحديث من أقدم الصحائف، وهي ضمن مجموعة أوراق البردي بمدينة هيدلبرج. وقد تولى قضاء مصر (وأُنظر في ذلك الموضوع الخاص بالقضاة). وقد دفن بالقرافة وقبره معروف في مصر يقصد للزيارة.

وقال عنه أحمد بن حنبل: لم يكن بمصر مثل ابن لهيعة في كثرة حديثه وضبطه واتقانه.

المفضل بن فضالة، أبو معاوية القتباني المصري الامام الحجة قاضي مصر (ت سنة ١٨١ هـ / ٧٩٧ م) حدث عن يزيد بن أبي حبيب وغيره وعنه أبو صالح كاتب الليث وآخرون. قال عنه يحيى بن معين: ثقة.

ضمام بن اسماعيل المصري (٩٧ - ١٨٥ هـ / ٧١٥ - ٨٠١ م) توفي بالأسكندرية وقد روى عن أبي قبيل المعافري وطبقته. وهو من مشاهير المحدثين.

عبد الله بن وهب (ت عام ١٩٧ هـ / ٨١٢ م) وهو من أوائل مدوني الحديث في العالم الاسلامي، وكتابه «الجامع في الحديث» هو أقدم كتاب مصري وصلنا في الحديث، وقد عثر على جزء مخطوط من هذا الكتاب في مدينة ادفو، ويعد هذا المخطوط من أقدم المخطوطات العربية في جميع

مكتبات ومتاحف العالم، اذ يرجع تاريخ كتابته الى القرن الثالث للهجرة، رواه عن الليث، وابن لهيعة، وعن مالك بن أنس وغيرهم. وعبد الله بن وهب صاحب هذا الكتاب مصرى قرشى بالولاء، ولد بمصر سنة ١٢٥ هـ/٧٤٢ م وفيها تلقى علومه الدينية ثم رحل الى الحجاز فى طلب العلم سنة ١٤٨ هـ/٧٦٥ م، وفى المدينة المنورة اتصل بالامام مالك بن أنس، وأخذ عنه العلم وروى الحديث، وكان الامام مالك يعترف بفضل ابن وهب ويقدره حق التقدير، فكان اذا غاب عنه ابن وهب يكتب اليه إلى «عبد الله بن وهب المفتى» ولم يكن يفعل هذا مع أحد غير ابن وهب، بل كثيرا ما كان مالك يفتى بآراء سمعها من ابن وهب، فاذا رأينا قول مالك «حدثنى من أرضى» فهو يقصد ابن وهب. ويقال إن ابن وهب أخذ عن أربعمئة شيخ، وأكثر من رواية الحديث، ولم يجد العلماء فى الأحاديث التى رواها حديثا منكرا. وقد طلب منه الخليفة العباسى أن يكون قاضى مصر فاعتذر واختبأ فى منزله، ورفض أن يقابل أحدا إلا خاصة تلاميذه، وظل ملازما داره خوفا من أن يحمل للقضاء، الى أن توفى سنة ١٩٧ هـ/٨١٢ م. وترجع شهرة عبد الله بن وهب من ناحية أخرى الى أنه أحد رواة «الموطأ» وقد صنف «الموطأ الكبير» و«الموطأ الصغير».

أسد بن موسى بن ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموى نزيل مصر (١٣٢ - ٢١٢ هـ/٧٤٩ - ٨٢٧ م)، ويقال له «أسد السنة» صنف التصانيف، ورحل فى طلب الحديث. وثقه ابن يونس، وقال البخارى: هو مشهور الحديث.

بلال بن يحيى بن هارون الأسوانى (ت سنة ٢١٧ هـ/٨٣٢ م) حدث عن مالك بن أنس، والليث بن سعد، وابن لهيعة، وحدث عنه يحيى بن بكير، وذكره ابن يونس فى تاريخ مصر.

معاوية بن هبة الله الأسواني، ابن أبي يحيى، مولى بنى أمية، يكنى بأبى سفيان (ت سنة ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م)، روى عن مالك بن أنس ، والليث بن سعد، وعبد الله بن لهيعة. ذكره ابن يونس فى تاريخه.

عبد الله بن صالح بن محمد بن مُسلم الامام المحدث أبو صالح الجهنى مولاهم المصرى، كاتب الليث بن سعد. ولد عام ١٣٧ هـ / ٧٥٤ م وسمع من موسى بن على، ومعاوية بن صالح، وعبد العزيز بن الماجشون وسعيد بن عبد العزيز الدمشقى، والليث بن سعد، ونافع بن يزيد وطبقته. حدث عنه البخارى وأبو حاتم وابن معين وسمويه ومحمد بن اسماعيل الترمذى وغيرهم. مات يوم عاشوراء سنة ٢٢٣ هـ / ٨٣٧ م. قال عنه النسائى: ليس بثقه. وقال ابن عدى: هو عندى مستقيم الحديث لا يتعمد الكذب.

سعيد بن الحكم بن أبى مريم، أبو عبد الله مولاهم المصرى (ت عام ٢٢٤ هـ / ٨٣٨ م) وهو أحد أركان الحديث، وقد ذكره ابن النديم فى كتابه وله من الكتب: «كتاب النسب»، وكتاب «المآثر»، وكتاب «نوافل العرب».

نعيم بن حماد، أبو عبد الله الخزاعى المروزى نزيل مصر (ت سنة ٢٢٨ هـ / ٨٤٢ م وقيل سنة ٢٢٩ هـ / ٨٤٣ م). قال عنه أحمد بن حنبل: ثقه. وقال النسائى: ضعيف. وقد حمل من مصر مع الفقيه أبى يعقوب البويطى الى بغداد فى محنة القرآن مقيدىن، فحبسا بسامراء.

محمد بن رُمح التُّجيبى أبو عبد الله المصرى (ت سنة ٢٤٢ هـ / ٨٥٦ م) سمع الليث وابن لهيعة. قال النسائى: ما أخطأ فى حديث واحد. وقال ابن يونس: ثقه ثبت.

وليد بن بلال بن يحيى الأسواني، يكنى أبا الحسن (ت سنة ٢٤٣ هـ / ٨٥٧ م) سمع الحديث، ذكره ابن يونس. وكان أبوه بلال يحدث عن مالك بن أنس، والليث بن سعد، وعبد الله بن لهيعة.

أبو بكر، محمد بن عبد الله بن عبد الرحيم البرقي (ت سنة ٢٤٩هـ/٨٦٣ م) أخذ الحديث عن أسد السنة، ثم أخذ عنه أبو داود والنسائي، وله تصانيف في الحديث.

ومن المحدثين الذين توفوا في عصر الولاة ولم تذكر تاريخ وفاتهم بالتحديد:

محمد بن عبد الرحمن أبو عيسى المؤذن. وهو شيخ مصرى روى عن أبي مرزوق التجيبي والضحاك بن شرحبيل عنه سعيد بن أبي أيوب والليث بن سعد وابن لهيعة.

شرحبيل بن عمرو بن شريك المعافري المصرى. روى عن على بن رياح وغيره وعنه حيوة بن شريح، والليث بن سعد وابن لهيعة وجماعة. وثقه ابن حبان.

عيسى بن موسى بن حميد بن أبي الجهم بن حذيفة العدوى المصرى. عن صفوان بن سليم ومالك بن أنس. وعنه يحيى بن أيوب وابن لهيعة.

سنان بن سعد الكندى المصرى. ويقال سعد بن سنان ويرى الذهبى أن الأول أصح. وقد روى عن أبيه وأنس بن مالك، وعنه يزيد بن أبي حبيب وحيوة بن شريح والليث وآخرون. وثقه ابن معين وغيره.

يزيد بن عمرو المعافري المصرى، روى عنه عمرو بن الحارث والليث ابن سعد وابن لهيعة، وهو ثقة مقل.

معاوية بن سعيد التجيبي مولاهم المصرى عن أبي قبيل المعافري ويزيد بن أبي حبيب وعنه يحيى بن أيوب وآخرون.

النعمان بن عمرو اللخمي المصرى. عن على بن رياح وحسين بن شفى، وعنه سعيد بن أبي أيوب وابن لهيعة.

حنين بن أبى حكيم المصرى مولى سهل بن عبد العزيز بن مروان، عن
على بن رياح وعطاء، وعنه ابن لهيعة والليث. له حديث واحد فى السنن.

سَيَّار بن عبد الرحمن الصدقى المصرى. روى عنه نافع بن يزيد،
وسعيد بن أبى أيوب والليث، وابن لهيعة وجماعة.

عمرو بن جابر، أبو زرة الحضرمى المصرى. عن جابر بن عبد الله
وسهل بن سعد وغيرهم، وعنه ابن لهيعة وضمام بن اسماعيل وبكر بن
مضر. قال أبو حاتم: صالح الحديث. وقال ابن لهيعة: كان شيخا أحق،
كان يجلس معنا فيبصر سحابة فيقول: هذا على.

مالك بن الخير الزبائدى المصرى، روى عن مالك بن سعد والحارث بن
يزيد، وعنه ابن وهب وآخرون.

معروف بن سويد، أبو سلمة الجذامى المصرى. عن على بن رياح وأبى
قبيلى المعافى، وعنه ابن لهيعة وابن وهب وآخرون، وثقه ابن حبان.

المفضل بن لاحق أبو بشر المصرى. وثقه ابن معين.

ومن المحدثين الذين توفوا فى الدولة الطولونية:

قبيطة الحافظ، أبو على الحسن بن سليمان البصرى نزيل مصر. (ت
عام ٢٦١ هـ / ٨٧٤ م) بمصر. حدث عنه أبو بكر بن خزيمة وجماعة. وصفه
ابن يونس بالحفظ.

محمد بن على البغدادى، أبو بكر الامام الحافظ نزيل مصر (ت عام
٢٦٤ هـ / ٨٧٧ م) بمصر. حدث عن أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وآخرين،
وعنه أبو جعفر الطحاوى وطائفة. قال عنه أبو سعيد بن يونس: كان يحفظ
الحديث ويفهم.

ومن المحدثين الذين توفوا بعد الدولة الطولونية:

محمد بن عبد الوارث بن حريز بن عيسى الأسوانى، يكنى أبا عبد
الله (ت عام ٢٩٧ هـ / ٩٠٩ م) سمع منه ابن يونس وذكره فى تاريخه.

على بن سعيد بن بشير بن مهران، أبو الحسن الرازي. نزيل مصر ومحدثها. توفي عام ٢٩٧ هـ / ٩٠٩ م.

النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر الخراساني (٢٢٥ هـ - ٣٠٣ هـ / ٨٣٩ - ٩١٥ م) استوطن مصر فأقام بزقاق القناديل. كان إمام أهل عصره في الحديث. وله كتاب «السنن» وكان يسميه الصحيح، وكتاب «الخصائص» في فضل علي بن أبي طالب وأهل البيت، وعن سبب تأليفه هذا الكتاب قال: دخلت دمشق والمنحرف عن علي رضي الله عنه كثير، فأردت أن يهديهم الله تعالى بهذا الكتاب (١٣).

قاسم بن عبد الله بن مهدي بن يونس البليثاني (ت سنة ٣٠٤ هـ / ٩١٦ م) ذكره ابن يونس وقال: يروى عن أبي مُصْعَب أحمد بن أبي بكر، قال: وقدم علينا الفسطاط فسمعت منه، ولم يحصل لي عنه غير حديث واحد. ذكره ابن عدي قال: وكان بعض شيوخ أهل مصر يضعفه. قال: وهو عندي لا بأس به.

محمد بن إبراهيم بن خالد الأسواني، أبو بكر (ت عام ٣١٥ هـ / ٩٢٧ م)، حدث عن يونس بن عبد الأعلى وغيره.

الأرغيفاني، أبو عبد الله محمد بن المسيب بن اسحاق (ت سنة ٣١٥ هـ / ٩٢٧ م) وله ٩٢ سنة. كان يقول: كنت أمشي في مصر وفي كمي مائة جزء في كل جزء ألف حديث.

الحسن بن يوسف بن يعقوب، أبو علي الفحام الأسواني (ت سنة ٣١٨ هـ / ٩٣٠ م) ذكره ابن يونس في تاريخ مصر وقال: سمع من يونس بن عبد الأعلى وغيره، وكان ثقة.

أحمد بن عبد الوارث الأسواني، أبو بكر (ت سنة ٣١٨ هـ / ٩٣٠ م). ذكره ابن يونس وقال: كان ثقة. حدث عن عيسى بن حماد زغبة وغيره.

(١٣) ونسبته إلى نَسَا - بفتح النون وفتح السين المهملة وي بعدها همزة - وهي مدينة بخrsan.

فقيير بن موسى بن فقيير بن عيسى بن عبد الله ، أبو الحسن
الأسواني (ت سنة ٣٢١هـ / ٩٣٣م) ذكره ابن يونس وقال : رأيتاه وقد قدم
علينا الفسطاط، وقد حدث بمصر عن محمد بن سليمان بن أبي فاطمة
وأخرون .

محمد بن جميع الأسواني ، حدث بأسوان عن أبي عمران محمد بن
موسى ، وروى عنه العقيلي المتوفى سنة ٣٢٢ هـ / ٩٣٣م .
ومن المحدثين الذين توفوا في الدولة الأخشيديّة :

عياش بن عباس ، أبو عبد الرحيم القتباني الحميري المصري (ت ٣٣٠
هـ / ٩٤١م) روى عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، والهيثم بن شفي وغيرهما .
وعنه حيوة بن شريح ، والليث ، وابن لهيعة ، والمفضل بن فضالة . وثقه ابن
معين وغيره .

هارون بن يوسف بن هارون بن ناصح الأسواني (ت سنة ٣٣١ هـ /
٩٤٢م) وقد ذكره ابن يونس في تاريخ مصر .

أبو بكر، أحمد بن عمر الطحان (ت سنة ٣٣٣ هـ / ٩٤٤م) .

على بن محمد بن أحمد بن الحسن أقام بمصر فعرف بالمصري (ت
سنة ٣٣٨ هـ / ٩٤٩م) جمع حديث الليث وابن لهيعة ، وله كتب كثيرة في
الزهد. قال عنه الخطيب : كان ثقة أمينا عارفا .

ابن أبي الأصمغ ، محمد بن أحمد بن أبي الأصمغ عبد العزيز بن منير،
يكنى أبا بكر (ت عام ٣٣٩ هـ / ٩٥٠م) سكن مصر ، وأم بالجامع . وكان
فقيها ، مشهورا ، ثقة، راوية للحديث ، وحدث بمصر وأملى .

سعيد بن عثمان بن سعيد بن السكن ، أبو على البغدادى نزىل
مصر (٢٩٤ - ٣٥٣ هـ / ٩٠٦ - ٩٦٤م) ، وله كتاب الصحيح المنتقى .

حمزة بن محمد بن علي بن العباس، أبو القاسم الكنانى
المصرى (٢٧٥ - ٣٥٧ هـ / ٨٨٨ - ٩٦٧ م)، وهو من حفاظ الحديث . سمع
النسائى وغيره . وكان من الزهاد .

محمد بن أحمد بن عبد الله ، أبو طاهر الذهلى البغدادى المالكى (ت
سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م) تولى قضاء مصر . وقال عنه ابن زولاق : كان أبو
الطاهر كثير الحديث والأخبار ، وقد نزل مصر فحدث بها ، وأكثر وكتب عنه
عامة أهلها ، وكان يذهب إلى قول مالك بن أنس . وله كتاب فى الفقه أجاب
فيه عن مسائل مختصر المزنى على قول مالك بن أنس واختصر تفسير
البلخى . ومما استحسّن من كلامه أنه تلقى الخليفة المعز لدين الله
بالاسكندرية ، فلما جلس أبو طاهر عنده سأله الخليفة عن أشياء منها : أنه
قال له : كم رأيت من خليفة ؟ فقال : واحدا . فقال : ومن هو ؟ فقال : أنت ،
والباقى ملوك . ثم قال له : حججت ؟ قال : نعم . قال : وزرت ؟ قال : نعم . قال
: سلمت على الشيخين ؟ قال : شغلنى عنهما النبى صلى الله عليه وسلم كما
شغلنى أمير المؤمنين عن ولى عهده . فأرضى الخليفة ، وتخلص من ولى
عهده وكان لم يسلم عليه بحضرة الخليفة، فإزداد الخليفة به عجباً وخلع
عليه ، وأبقاه على ولايته وأجازه بعشرة آلاف درهم . ومولده سنة ٢٧٩ هـ /
٨٩٢ م.

النقاش، أبو بكر محمد بن علي بن حسن المصرى نزيل تنيس (٢٨٢ -
٣٦٩ هـ / ٨٩٥ - ٩٧٩ م) كان من علماء الحديث، وقد ارتحل اليه الدارقطنى
الى تنيس وكان منزويا بها، فلهذا لم ينتشر حديثه.

الحسن بن رشيق (٢٨٣ - ٣٧٠ هـ / ٨٩٦ - ٩٨٠ م) حدث عن أبى عبد
الرحمن النسائى وآخرون، روى عنه الدارقطنى وأبو محمد بن النحاس
وآخرون، قال أبو القاسم بن الطحان فى تاريخه: روى عن خلق لا أستطيع
ذكرهم، فما رأيت عالما أكثر حديثا منه.

أبو العباس، أحمد بن عيسى بن الجراح بن الفحاس المصري
(ت سنة ٣٧٦هـ / ٩٨٦ م) عن ٨٥ سنة وكانت كتبه ذهبت فحدث من حفظه
وأملى سنين طويلة.

ابن مسرور الحافظ، أبو الفتح عبد الواحد بن محمد بن أحمد مسرور
البلخي (ت سنة ٣٧٨ هـ / ٩٨٨ م) استوطن مصر.

أحمد بن أبي الليث نصر بن محمد الحافظ، أبو العباس النّصيبى
المصرى (ت سنة ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م).

أبو الفضل، جعفر بن الفضل بن جعفر بن الفرات المعروف بابن
حَنْزَلَة (٣٠٨ - ٣٩١ هـ / ٩٢٠ - ١٠٠٠ م). وكان محدثاً يملئ الحديث بمصر،
وقد سبق ذكره.

عبد الغنى بن سعيد بن على بن سعيد بن بشر بن مروان بن
عبد العزيز، أبو محمد الأزدي الحافظ للمصرى (٣٣٢ - ٤٠٩ هـ / ٩٤٣ -
١٠١٨ م). كان حافظ مصر فى عصره. ومن كتبه: كتاب «مشتبه النسبة»،
وكتاب «المؤتلف والمختلف» وهو أول كتاب ألفه وقد قرأه على الدارقطنى.
ويقال إنه بدأ السمع من العلماء وعنده عشر سنوات. وقيل إنه لما خرج
الدارقطنى من مصر جاءه المودعون وتحزنوا على مفارقتهم وبكوا، فقال: لقد
تركت عنديكم خلفاً - يعنى عبد الغنى.

ثالثاً: علوم الفقه وفقهاء المذاهب الأربعة:

الفقه هو معرفة أحكام الله تعالى، وهى متلقاه من الكتاب والسنة، فإذا
استخرجت الأحكام من تلك الأدلة الشرعية قيل لها فقه.

وقد جد الفقه فى مصر منذ دخلها المسلمون، وعرف بين العرب فى مصر
عدد من المجتهدين الذين أفتوا الناس بما فى القرآن والحديث الشريف أو
بما رأوه.

وقد كان من الفقهاء فى مصر:

عقبة بن عامر الجهنى (ت عام ٥٨ هـ / ٦٧٧ م). كان فقيها علامة من فقهاء الصحابة، قارنا لكتاب الله، بصيرا بالفرائض. ولى إمرة مصر لمعاوية.

عبد الرحمن بن حجية الخولانى (ت عام ٨٣ هـ / ٧٠٢ م). الذى عرف فى العالم الاسلامى بزهد وعلمه حتى قيل إن رجلا من أهل مصر قابل ابن عباس وسأله عن مسألة فقال له ابن عباس: تسألنى وفيكم ابن حجية؟ وقد تولى قضاء مصر (٦٩ - ٨٣ هـ / ٦٨٨ - ٧٠٢ م).

أبو الخير، مَرْتَد بن عبد الله اليزنى الحميرى المصرى (ت عام ٩٠ هـ / ٧٠٨ م). كان مفتى أهل مصر فى زمانه، وكان والى مصر فى ذلك الوقت عبد العزيز بن مروان يحضره فيجلسه للفتيا.

عمر بن عبد العزيز بن مروان (٦١ وقيل ٦٣ - ١٠١ هـ / ٦٨٠ أو ٦٨٢ - ٧١٩ م) نشأ بمصر فى ولاية أبيه عليها. حدث عن عبد الله بن جعفر، وأنس بن مالك، وأبى بكر بن عبد الرحمن وغيرهم، وحدث عنه ابنه عبد الله وعبد العزيز والزهرى وغيرهم. كان إماما، فقيها، مجتهدا، عارفا بالسنة ثبتا حجة حافظا.

يزيد بن أبى حبيب، أبو رجاء الأزدى مولاهم المصرى (٥٣ - ١٢٨ هـ / ٦٧٢ - ٧٤٥ م). كان مفتى أهل مصر، وهو أول من أظهر العلم بمصر والمسائل فى الحلال والحرام. كان حجة، حافظا للحديث، وقيل إنه أحد ثلاثة جعل لهم الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز الفتيا فى مصر. وكان الليث بن سعد يقول عنه «هو عالمنا وسيدنا».

بكر بن سَوَادَة الجُدَامى المصرى (ت سنة ١٢٨ هـ / ٧٤٥ م) مفتى مصر، وقد روى عن عبد الله بن عمرو، وسهل بن سعد، وعنه الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة. وثقه النسائى.

حسان بن عتاهية بن عبد الرحمن بن حسان التجيبي (ت سنة ١٣٣ هـ / ٧٥٠ م) كان فقيها، وهو أمير مصر لهشام بن عبد الملك ثم لروان ابن محمد.

عمر بن السائب، أبو عمر المصري الفقيه (ت سنة ١٣٤ هـ / ٧٥١ م) روى عن القاسم بن القزمان وغيره وهو مقل. روى عنه الليث وابن لهيعة، ويكر بن مضر.

خَيْرُ بْنُ نُجَيْمٍ الحَضْرَمِيُّ قاضى مصر (ت سنة ١٣٧ هـ / ٧٥٤ م) عنه عمرو بن الحارث والليث وضمام بن اسماعيل وابن لهيعة. قال يزيد بن أبى حبيب: ما أدركت فى قضاة مصر أفقه منه.

خالد بن يزيد، أبو عبد الرحيم الاسكندراني المصري الفقيه (ت سنة ١٣٩ هـ / ٧٥٦ م). عنه الليث والمفضل بن فضالة وآخرون. وثقه النسائي. وقال يحيى بن أيوب: كان أفقه جندنا.

عمرو بن الحارث بن يعقوب الأنصارى، أبو أمية المصري (ت سنة ١٤٨ هـ / ٧٦٥ م) الفقيه المقرئ أحد الأئمة، مولى قيس بن سعد بن عبادة. حدث عن ابن يونس مولى أبى هريرة، ويزيد بن أبى حبيب وغيرهم. وعنه مالك والليث ويكر بن مضر وابن وهب وآخرون. روى سعيد بن أبى مريم عن خاله قال: كان عمرو بن الحارث المصري يخرج فيجد الناس صفوفًا يسألونه عن القرآن والحديث والفقه والشعر والعربية والحساب. قال أبو حاتم: كان عمرو بن الحارث أحفظ الناس فى زمانه، لم يكن له نظير فى الحفظ، قال ابن وهب: اقتدينا بمصر به وباليث. قال أحمد بن صالح: لم يكن بعد عمرو بن الحارث مثل الليث بمصر. ومولده فى سنة ٩٢ هـ / ٧١٠ م، وقيل ٩٤ هـ / ٧١٢ م.

موسى بن أيوب بن عامر الغافقى المصري الفقيه (ت سنة ١٥٣ هـ / ٧٧٠ م). روى عنه الليث وابن المبارك وابن وهب وآخرون. وثقه ابن معين. وهو مقل.

حَيَّوَة بن شَرِيح بن صفوان التجيبي، أبو زرعة المصري الفقيه (ت سنة ١٥٨ هـ / ٧٧٤ م وقيل عام ١٥٩ هـ / ٧٧٥ م) روى عن عقبة بن مسلم ويزيد بن أبي حبيب، وحدث عنه الليث وابن المبارك وابن وهب وآخرون. وثقه أحمد بن حنبل وغيره. قال ابن وهب: كان حيوة يأخذ عطاء في السنة ستين ديناراً، فلا يطلع إلى منزله حتى يتصدق بها، ثم يجرى إلى منزله فيجدها تحت فراشه، وبلغ ذلك ابن عم له فأخذ عطاءه فتصدق به كله وجاء إلى تحت فراشه فلم يجد شيئاً، فشكا إلى حيوة فقال: أنا أعطيت ربي بيقين وأنت أعطيته تجربة.

يحيى بن أيوب، أبو العباس الغافقي المصري (ت عام ١٦٨ هـ / ٧٨٤ م وقيل عام ١٦٣ هـ / ٧٧٩ م) فقيه أهل مصر ومفتيهم، حدث عن يزيد بن أبي حبيب وعنه ابن وهب وآخرون.

الليث بن سعد بن عبد الرحمن، أبو الحارث الفهمي المصري. ولد بقرية قلقشندة عام ٩٤ هـ / ٧١٢ م وتوفي عام ١٧٥ هـ / ٧٩١ م. كان أكبر عالم فقيه شاهده مصر في القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي، اشتغل بالفتوى في زمانه بمصر. أخذ العلم عن فقهاء مصر ومحدثيها أمثال: يزيد ابن أبي حبيب، وجعفر بن ربيعة، وخير بن نعيم وغيرهم. ورحل إلى الحجاز والمقدس وبغداد في طلب العلم ورواية الحديث. وقد نبغ الليث في الناحية الفقهية، وعُرف بها حتى إن الإمام الشافعي كان يقول: «الليث بن سعد أفقه من مالك بن أنس، إلا أن أصحابه لم يقوموا به». وقال عنه يحيى بن بكير: ما رأيت أفقه من الليث بن سعد، كان ثقة في الحديث، نحوى اللسان، يحسن القرآن والنحو، ويحفظ الأحاديث الكثيرة، إلا أن أصحابه ضيعوه، لم يكتبوا عنه شيئاً.

قال الذهبي في كتابه «العبر»: كان أمراء مصر لا يقضوا أمراً دونه، وإذا خالفه أحد في شيء، كاتب فيه الخليفة، فيعزله. وقد أراد الخليفة المنصور أن يوليه مصر إلا أنه رفض.

وتُعد آراء الليث بن سعد فى الفقه مذهباً من المذاهب الفقهية عند أهل السنة، ولكن المصريين لم يحافظوا على مذهبه وآرائه، واهتموا بمذهب مالك، فانتشر بينهم فقه مالك، وفقد فقه الليث.

ومن كتبه كتاب التاريخ، وكتاب مسائل الفقه. (١٤)

الhezil بن مسلم التميمى (ت عام ١٨٩هـ / ٨٠٤م) كان فقيها سكن مصر.

شعيب بن الليث بن سعد المصرى الفقيه (ت سنة ١٩٩ هـ / ٨١٤م). قال ابن يونس عنه: كان فقيها مفتيا.

يحيى بن حسان التنيسى، أبو زكريا (ت سنة ٢٠٨هـ / ٨٢٣م) كان اماما حجة من جلة المصريين.

اسحاق بن بكر بن مضر الفقيه (ت سنة ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م) وهو من طلبة الليث بن سعد، وكان يجلس فى حلقة الليث فيفتى ويحدث.

عيسى بن حماد زُغَبَة التجيبى مولاهم المصرى راوى الليث بن سعد (ت سنة ٢٤٨ هـ / ٨٦٢ م).

عبد الملك بن شُعَيْب بن الليث بن سعد المصرى (ت سنة ٢٤٨ هـ / ٨٦٢ م). سمع أباه، وابن وهب. وكان أحد الفقهاء.

أحمد بن موسى بن عيسى بن صدقه الصدفى مولاهم (ت عام ٣٠٦هـ / ٩١٨م) من أهل مصر، وهو فقيه مشهور بها.

على بن عبد الله بن أبى مطر المعافرى الاسكندرى، الفقيه، العالم قاضى الاسكندرية (ت سنة ٣٣٠ هـ / ٩٤١ م) روى عن محمد بن عبد الله بن ميمون صاحب الوليد بن مسلم.

(١٤) قلقشندة - وهى بفتح القاف وسكون اللام وفتح القاف الثانية والشين المعجمة وسكون النون وفتح الدال المهملة وبعدها هاء ساكنة - وهى قرية من الوجه البحرى من القاهرة.

مؤمل بن يحيى بن مهدى بن أبى الحسن الأسوانى الفقيه (٢٧٠ - ٣٥٩ هـ / ٨٨٣ - ٩٦٩ م).

المذاهب الفقهية فى مصر:

لم يظهر الفقه كعلم فى أول الأمر، لوجود الصحابة والتابعين، ولكن لما تعددت مشاكل الاسلام، تطلب الأمر ضبط الشرع، فظهرت عدة طرق فقهية، وهى ليست فرقا، وانما دراسات دينية، لذلك أطلق عليها مذاهب، وهى تسير فى دائرة الاسلام، بحيث يمكن لأتباع إحداها أن ينتقلوا إلى أخرى.

وستتناول فى الصفحات القادمة المذاهب الفقهية فى مصر مرتبة تبعا لانتشارها فى مصر، مع ذكر أصحاب كل مذهب.

١- مذهب مالك:

وهو نسبة إلى مالك بن أنس بن أبى عامر بن عمرو بن الحارث ، أبو عبد الله المدنى الفقيه . ولد عام ٩٥ هـ / ٧١٣ م وقيل عام ٩٦ هـ / ٧١٤ م وقيل عام ٩٢ هـ / ٧١٠ م وقيل عام ٩٣ هـ / ٧١١ م، وتوفى عام ١٧٩ هـ / ٧٩٥ م.

حدث عن نافع والزهرى وآخرون ، وحدث عنه أم لا يكادون يحصون منهم: ابن المبارك، وابن وهب، وابن القاسم. قال الشافعى : اذا ذكر العلماء فمالك النجم. وقال أيضا : لولا مالك وابن عيينة لذهب علم الحجاز. كما قال : ما فى الأرض كتاب فى العلم أكثر صوابا من موطأ مالك. وقال آخر : إمام أهل الحديث مالك. وكان له من الكتب : كتاب الموطأ، وكتاب رسالته إلى الرشيد رواها أبو بكر بن عبد العزيز من ولد عمر بن الخطاب.

وقد كان المذهب المالكى أكثر مذاهب أهل السنة والجماعة انتشارا فى مصر ، وكان أكثر علماء مصر من فقهاء المالكية .

ويرجع السبب فى انتشار مذهب مالك فى مصر - كما يقول الدكتور محمد كامل حسين - إلى أن مالكا كان فقيه المدينة المنورة، والمصريون كانوا

يفضلون علماء أهل المدينة أكثر من تفضيلهم علماء الأمصار الإسلامية الأخرى .

وقد كان أساس دراسة فقه مالك بن أنس هو رواية «الموطأ» وشرحه، واستخراج آراء مالك منه. وقد كان للموطأ أربع عشرة رواية، منها خمس روايات للمصريين ، والسادسة وهي الرواية المنتشرة الآن هي رواية يحيى بن يحيى الأندلسي^(١٥) أخذ الشطر الأكبر منها عن مالك نفسه ، ولكن الرواية كلها تكاد تكون عن رواية عبد الله بن وهب المصري ، وهذا يدل على شدة إقبال علماء مصر على فقه مالك الذي حواه الموطأ.

وأول من قدم بعلم مالك إلى مصر عبد الرحيم بن خالد بن يزيد بن يحيى، وكان فقيهاً، روى عنه الليث وابن وهب ورشيد بن سعد ، وتوفي بالإسكندرية عام ١٦٣هـ / ٧٧٩م. وفي رواية أخرى أن عثمان بن الحكم الجذامي هو أول من أدخل علم مالك بمصر، وتوفي عام ١٦٣هـ / ٧٧٩م.

وترى الدكتورة سيدة كاشف أن كلا القولين صحيح، وذلك لأنه في ترجمة عثمان الجذامي من «تهذيب التهذيب» لابن حجر العسقلاني ما نصه : «وقال ابن وهب : أول من قدم مصر بمسائل مالك عثمان بن الحكم وعبد الرحيم بن خالد بن يزيد» . فيظهر أنهما بعد أن تفقها عن الامام مالك عادا معا إلى مصر ونشرا مذهبه .

ومن أصحاب مالك في مصر :

هارون بن عبد الله بن الزهري المالكي (ت عام ١٣٢ هـ / ٧٤٩م) تولى قضاء مصر. وقيل: إنه أعلم من صنف الكتب في مختلف قول مالك. وقال الخطيب: إنه سمع من مالك.

(١٥) وهو يحيى بن كثير الليثي، أبو محمد. رحل إلى المشرق وسمع من مالك بن أنس الموطأ كما رحل إلى مصر وسمع من أكابر أصحاب مالك فيها، وعندما عاد إلى الأندلس انتهت إليه الرياسة بها، وبه انتشر مذهب مالك في تلك البلاد، وتفقه به جماعة لا يحصون عدداً، وروى عنه خلق كثير. وأشهر روايات الموطأ وأحسنها روايته. توفي عام ٢٣٤هـ / ٨٤٨م وقيل ٢٣٣هـ / ٨٤٧م.

طليب بن كامل اللخمي . وكان من كبار أصحاب مالك، وأصله أندلسي سكن الإسكندرية ، وروى عنه ابن القاسم وابن وهب، وبه تفقه ابن القاسم قبل رحلته الى مالك. وقد مات طليب في حياة مالك بالاسكندرية سنة ١٧٣هـ / ٧٨٩م .

عبد الرحمن بن القاسم ، أبو عبد الله العتقي مولاهم المصري (ت عام ١٩١هـ / ٨٠٦م) فقيه الديار المصرية، سمع مالك بن أنس وتفقه به وصحبه عشرين سنة. وهو صاحب «المدونة» في مذهبهم وهي من أجل كتبهم، وعنه أخذها سحنون. ويذكر أنه أنفق أموالا عظيمة في طلب العلم (١٦) .

عبدالله بن وهب بن مسلم ، أبو محمد (١٩٧هـ / ٨١٢م) . كان أحد أئمة عصره وصاحب الامام مالك عشرين سنة . (أنظر عن ترجمته في الطبقات الخاصة بالمحدثين) .

أشهب بن عبد العزيز بن داود القيسي (١٤٠ - ٢٠٤ هـ / ٧٥٧ - ٨١٩م) وقد تولى رئاسة المالكية في مصر بعد ابن القاسم ، وكان من أكثر الناس علما. تلقى عن مالك. والليث بن سعد، والفضيل بن عياض وغيرهم. ويقول ابن وهب عنه : «كان أشهب فقيها في علوم شتى، ما سئل عن شيء إلا أجاب» ، ووصفه الامام الشافعي بقوله : «ما رأيت أفقه من أشهب لولا طيش فيه» .

اسحق بن الفرات (ت عام ٢٠٤هـ / ٨١٩م) صاحب مالك، روى عن الليث بن سعد وغيره، وقال عنه الشافعي : ما رأيت بمصر أعلم باختلاف الناس من اسحق بن الفرات.

(١٦) العتقي: يضم العين وفتح التاء المثناة من فوقها ويعدها قاف، هذه النسبة إلى العتقاء - كما يقول ابن خلكان - وهم ليسوا من قبيلة واحدة بل هم من قبائلشتي، وسموا بذلك لأنهم كانوا يقطعون على من أراد النبي صلى الله عليه وسلم، فبعث إليهم، فأتى بهم أسرى فاعتقهم، وقيل لهم: العتقاء. كما عرفوا بأهل الظاهر في مصر وذلك لأنهم عندما تم فتح الإسكندرية ورجعوا إلى القسطنطينية لم يجدوا موضعا يختطون فيه عند أهل الراية، فشكوا ذلك إلى عمرو، فقال لهم معاوية بن حديج وكان يتولى أمر الخطط: أرى لكم أن تظهروا على هذه القبائل فتتخذونه منزلا وتسمونه الظاهر، ففعلوا ذلك، فقيل لهم أهل الظاهر. وعن خطتهم أنظر، الموضوع الخاص بالقبائل العربية.

عبد الله بن عبد الحكم (ت عام ٢١٤هـ / ٨٢٩م) . كان من جلة أصحاب مالك، وقد أفضت إليه رئاسة المالكية بعد أشهب، وله مصنفات فى الفقه وغيره.

أَصْبَغُ بن الفرَج ، أبو عبد الله المصرى (ت سنة ٢٢٥هـ / ٨٣٩م) مفتى أهل مصر . قال ابن معين: كان من أعلم خلق الله كلهم برأى مالك، يعرفها مسألة مسألة، متى قالها مالك ومن خالفه فيها، وله تصانيف، وعندما كتب المعتصم ليحمل إليه أصبغ فى المحنة هرب واختفى بخلوان .

عبد الرحمن بن أبى جعفر الدمياطى (ت عام ٢٢٦هـ / ٨٤٠م) روى عن مالك . وسمع من كبار أصحابه كابن وهب، وابن القاسم وأشهب .

يحيى بن عبد الله بن بكير، أبو زكريا المصرى (ت سنة ٢٣١هـ / ٨٤٥م) صاحب مالك والليث. وروى أنه سمع الموطأ من مالك سبعة عشر مرة، روى عنه البخارى وأبو زرعة وخلق كثير.

يوسف بن عدى الكوفى نزيل مصر (ت سنة ٢٣٢هـ / ٨٤٦م) حدث عن مالك ، وكان محدثا تاجرا .

عبد الحكم بن عبد الله بن عبد الحكم (ت سنة ٢٣٧هـ / ٨٥١م) . وهو أكبر بنى عبد الله بن عبد الحكم وهم : عبد الحكم هذا ، وعبد الرحمن ، وسعد، ومحمد، ولم يكن فيهم أفقه من عبد الحكم كما يقول ابن فرحون . وله سماع كثير من أبيه وابن وهب وغيرهما من رواة مالك ، وكان من أكابر أصحاب ابن وهب . وقيل إن موته إنما كان بسبب المحنة فى القرآن ، وإنه دخن عليه بالكبريت ولم يرجع، فضرب نحو ثلاثين سوطا فى غلالة.

الحارث بن مسكين ، أبو عمرو المصرى مولى محمد بن زياد بن عبد العزيز بن مروان (١٥٤ - ٢٥٠هـ / ٧٧٠ - ٨٦٤م) . كان فقيها على مذهب الامام مالك، وكان ثقة فى الحديث، وله تصانيف، حمله المأمون إلى بغداد فى أيام المحنة وسجنه لأنه لم يجب إلى القول بخلق القرآن، وظل محبوسا

بيغداد إلى أن ولى المتوكل فأطلقه. وقد تولى القضاء بمصر (أنظر فى ذلك الموضوع الخاص بالقضاة) .

أبو طاهر ، أحمد بن عمرو بن عبد الله بن السرح الأموى مولاهم المصرى (ت سنة ٢٥٠ هـ / ٨٦٤م) مصنف شرح الموطأ . وكان من كبار العلماء .

ومن فقهاء المالكية الذين توفوا فى العصر الطولونى :

عبد الغنى أبو محمد بن عبد العزيز بن سلام المعروف بالعسال (ت سنة ٢٥٤ هـ / ٨٦٨م) . كان حافظا ، فقيها ، مفتيا من فقهاء المالكية . روى عن ابن وهب وابن عيينة .

محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، أبو عبد الله المصرى (١٨٢ - ٢٦٨ هـ / ٧٩٨ - ٨٨١م) . أحد فقهاء مصر من أصحاب مالك، أخذ مذهب مالك من ابن وهب وأشهب ، وتفقه بأبيه وبالشافعى، وانتهت إليه الرئاسة بمصر . قال عنه ابن يونس: كان المفتى بمصر فى أيامه . وقال عنه النسائى: ثقة. وله كتب كثيرة منها : الرد على الشافعى، وكتاب أحكام القرآن ، وكتاب الرد على فقهاء العراق.

ابن المؤاز ، أبو عبد الله ، محمد بن ابراهيم الإسكندراني (ت عام ٢٨١ هـ / ٨٩٤م) . انتهت إليه الرئاسة فى مذهب مالك. أخذ عن أصبغ بن الفرغ وعبد الله بن عبد الحكم.

محمد بن أصبغ بن الفرغ (ت ٢٧٥ هـ / ٨٨٨م) كان فقيها مفتيا بمصر.

ومن فقهاء المالكية الذين توفوا قبل العصر الاخشيدى:

محمد بن أحمد بن أبى يوسف، أبو بكر بن الخلال (ت سنة ٣٢٢ هـ / ٩٣٣م) وهو من فقهاء مصر، درس بجامعة وأخذ عنه الناس ،

وَأَلَّفَ أَرْبَعِينَ جُزْأً مِنْ مُنْتَقَى قَوْلِ مَالِكٍ، وَرَوَى عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَصْبَغٍ، عَنْ أَبِيهِ
عَنْ ابْنِ الْقَاسِمِ : كِتَابُ السَّرِّ لِمَالِكٍ .

وَمِنْ فَهَاءِ الْمَالِكِيَّةِ فِي الْعَصْرِ الْآخِشِيِّ :

هَارُونَ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ هَارُونَ الْأَسْوَانِي (ت سنة ٣٢٧ هـ / ٩٣٨ م) .
ذَكَرَهُ ابْنُ يُونُسَ وَقَالَ : كَانَ أَحَدَ أَصْحَابِنَا الَّذِينَ كَتَبُوا مَعَنَا الْحَدِيثَ، وَكَانَ
فَقِيهًا عَلَى مَذْهَبِ مَالِكٍ.

أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ هَارُونَ الْأَسْوَانِي ، أَبُو جَعْفَرٍ الْفَقِيهَ الْمَالِكِي (ت
عام ٣٦٤ هـ / ٩٧٤ م وقيل عام ٣٧٤ هـ / ٩٨٤ م) .

مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ بْنِ شُعْبَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ ، أَبُو اسْحَقَ وَيَعْرِفُ
بِالْقُرْطُبِيِّ (ت عام ٣٥٥ هـ / ٩٦٥ م) مِنْ أَعْيَانِ الْعُلَمَاءِ الْمَالِكِيَّةِ. وَقَدْ انْتَهَتْ إِلَيْهِ
رِيَاسَةُ الْمَالِكِيَّةِ بِمِصْرَ . وَمِنْ كُتُبِهِ : كِتَابُ الزَّاهِي الشَّعْبَانِي الْمَشْهُورُ فِي
الْفِقْهِ، وَكِتَابُ فِي أَحْكَامِ الْقُرْآنِ ، وَكِتَابُ فِي مَنَاقِبِ مَالِكٍ ، وَكِتَابُ الرِّوَاةِ عَنْ
مَالِكٍ ، وَكِتَابُ مَوَاعِظِ ذُو النُّونِ الْآخِمْي .

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْغَافِقِيُّ الْجَوْهَرِيُّ ، أَبُو
الْقَاسِمِ (ت عام ٣٨٥ هـ / ٩٩٥ م) مِنْ شُيُوخِ الْفُسْطَاطِ ، وَكَبَارِ فَهَاءِ الْمَالِكِيَّةِ ،
كَثِيرُ الْحَدِيثِ. أَلَّفَ كِتَابَ « مُسْنَدُ الْمُوطَأِ » ، وَكِتَابَ « مُسْنَدُ مَا لَيْسَ فِي
الْمُوطَأِ ».

(١٧) وَهُوَ مُسْلِمُ بْنُ خَالِدِ بْنِ سَعْدٍ الْمَعْرُوفُ بِالزَّنْجِيِّ. كَانَ فَقِيهًا عَابِدًا يَصُومُ الدَّهْرَ.
تُوفِيَ بِمَكَّةَ عَامَ ١٨٠ هـ / ٧٩٦ م فِي خِلَافَةِ هَارُونَ.

٢ - المذهب الشافعى :

والمذهب الشافعى نسبة إلى محمد بن إدريس الشافعى ، أبو عبد الله . ولد بغزة سنة ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م وتوفى سنة ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م بمصر . وحفظ الموطأ وعرضه على مالك ، وأذن له مسلم بن خالد (١٧) بالفتوى وهو ابن عشرين سنة أو دونها .

جاء محمد بن إدريس الشافعى إلى مصر سنة ١٩٩ هـ / ٨١٤ م ونزل ضيفا على عبد الله بن عبد الحكم رئيس المالكية الذى أكرم الشافعى، ووهبه أموالا من عنده ، كما جمع له بعض المال من وجوه المصريين ليستعين به فى حياته. وبدأ الشافعى يلقى بتعاليمه وفقهه فى المسجد الجامع بالفسطاط وأقبل عليه بعض علماء المصريين يأخذون عنه، وكان أكثرهم اقبالا عليه وأخذا منه محمد بن عبد الله بن عبد الحكم الذى كان أبوه رئيسا للمذهب المالكى فى مصر، وكان أبوه يشجعه على الأخذ عن الشافعى، وكان علماء المالكية يلومونه على ذلك، فكان يجيبهم: اننا يجب أن نعرف مختلف الآراء! فكان هذا القول حافزا على الاستماع لفقه الشافعى، حتى كثر تلاميذ الشافعى .

ويقال إن الشافعى عندما دخل مصر صنف بها نحو مائتى جزء فى العلم . ولما أشرف على الموت، أوصى أن لا يغسله إلا أمير البلد، فلما مات ، أحضر الأمير إبراهيم بن محمد السرى فقبل له: « إن الامام أوصى أن لا يغسله إلا أنت » قال : «هل توفى الامام وعليه دين» ؟ قالوا : «نعم » قال : «أحسبوا ما عليه من الدين» فحسبوا، فاذا هو سبعون ألف درهم فقضاها عنه الأمير إبراهيم، وقال : «هذا غسلى آياه، وانما عنى عن الدين الذى عليه لأقضيه عنه».

وله من الكتب : كتاب المبسوط فى الفقه، رواه عنه الربيع بن سليمان، ويحتوى هذا الكتاب على كتاب الطهارة، كتاب الصلاة، كتاب الزكاة، كتاب الصيام، كتاب الحج، كتاب الاعتكاف.

ومن كتبه التي صنفها في مصر: كتاب الأم، وكتاب الأمالي الكبرى، وكتاب الاملاء الصغير، ومختصر البويطى، ومختصر المزنى والرسالة والسنن .

ومن فقهاء الشافعية في مصر :

يوسف بن يحيى البُويطى، أبو يعقوب (ت عام ٢٣١هـ / ٨٤٥م) كان خليفة الشافعى فى حلقاته بعده. وقال عنه الشافعى: «ليس أحد أحق بمجلسى من يوسف بن يحيى، وليس أحد من أصحابى أعلم منه» . وقد ألف البويطى كتباً كثيرة فى فقه الشافعى منها: المختصر الكبير، والمختصر الصغير، وكتاب الفرائض . وقد توفى البويطى معذباً فى سجن بغداد بسبب محنة خلق القرآن، فانه لم يُقر بخلقه (١٨) .

عبد العزيز بن عمران بن أيوب الخزاعى المصرى، أبو على (ت عام ٢٣٤هـ / ٨٤٨م) كان من أكابر العلماء المالكية. فلما قدم الشافعى مصر، لزمه، وتفقّه على مذهبه.

حرملة بن يحيى التُّجيبى، أبو حفص المصرى الحافظ (١٦٦ - ٢٤٣هـ / ٧٨٢ - ٨٥٧م) صاحب الامام الشافعى، تفقّه به . روى عن ابن وهب مائة ألف حديث . وصنف «المختصر»، و«المبسوط» .

محمد بن عبد الله بن محمد بن العباس (ت عام ٢٤٨هـ / ٨٦٢م) . وهو من فقهاء الشافعية، وله مناظرات مع المُزنى . وهو ابن عم الشافعى وقد تزوج بزینب ابنة الشافعى .

أحمد بن يحيى الوزير بن سليمان أبو عبد الله المصرى الحافظ النحوى (ت عام ٢٥٠هـ / ٨٦٤م) أحد الائمة وقد صحب الشافعى وتفقّه به.

(١٨) البويطى نسبة إلى بُويطَه وهى قرية من أعمال الصعيد الأدنى من ديار مصر.

فقهاء الشافعية الذين توفروا فى العصر الطولونى :

الربيع بن سليمان بن داود بن الأعرج ، أبو محمد ، الأزدي بالولاء،
المصرى الجيزى ، توفى عام (٢٥٦ هـ / ٨٦٩م) بالجيزة. وهو صاحب
الشافعى، ولكنه كان قليل الرواية عنه ، وإنما روى عن عبد الله بن الحكم
كثيرا . وكان ثقة ، روى عنه النسائى .

إسماعيل بن يحيى المزنى ، أبو إبراهيم المصرى (١٧٥ -
٢٦٤ هـ / ٧٩١ - ٨٧٧م) وهو إمام الشافعيين، وأعرفهم بطرق الشافعى وفتاويه،
صنف كتباً كثيرة فى مذهب الإمام الشافعى منها : «الجامع الكبير» ،
«والجامع الصغير» ، و«مختصر المختصر» وغير ذلك . قال فيه الشافعى : لو
ناظر الشيطان لغلبه (١٩).

يونس بن عبد الأعلى ، أبو موسى الصدفى المصرى، المقرئ ، الفقيه
(ت سنة ٢٦٤ هـ / ٨٧٧م) ولد سنة ١٧٠ هـ / ٧٨٦م - قرأ القرآن على ورش.
وحدث عن ابن وهب والشافعى وتفقه عليه وانتتهت إليه رئاسة العلم وعلو
الاسناد فى الكتاب والسنة - وكان أحد الشهود بمصر - أقام شاهداً ستين
عاماً - وقال النسائى : ثقة - وكان يروى للشافعى قوله :

فتقول انت جميع أمرك
فأقصد لمعترف بقدرك

ماحك جلدك مثل ظفرك
وإذا قصدت لماجة

الربيع بن سليمان بن عبد الجبار بن كامل ، المرادى بالولاء ، أبو
محمد المصرى (ت سنة ٢٧٠ هـ / ٨٨٣م) صاحب الإمام الشافعى ، وروى
أكثر كتبه - وكان مؤثراً بجامع القسطاط - وكان يدرس فيه، ثم استدعاه
أحمد بن طولون إلى التدريس فى مسجده لما بناه ، وكان أول من ألقى
الحديث بجامع ابن طولون -

(١٩) والمزنى - بضم الميم وفتح الزاى وبعدها نون - هذه النسبة إلى مزينة بنت كلب،
وهى قبيلة كبيرة مشهورة.

قَحْزَمُ بن عبد الله ، أبو حنيفة الأسواني (ت عام ٢٧١ هـ / ٨٨٤ م) وهو من أصل قبلى . وكان من جلة أصحاب الشافعى ، وكان مقيما بأسوان ، يفتى بها ويدرس .

ومن الفقهاء الشافعية الذين توفوا قبل العصر الاخشيدى :

محمد بن عثمان بن إبراهيم الدمشقى ، أبو زرعة (ت عام ٣٠٢ هـ / ٩١٤ م) . ولى قضاء مصر عن أحمد بن طولون عام ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م وكان أول قاض يتولى القضاء فى مصر على مذهب الامام الشافعى .

عبد الله بن محمد بن جعفر القزوينى ، أبو القاسم (ت عام ٣١٥ هـ / ٩٢٧ م) . سكن مصر ، وأخذ عن يونس بن عبد الأعلى والربيع بن سليمان المرادى ، وكانت له حلقة للفتوى بمصر .

محمد بن على المصرى . أبو بكر المعروف بالعسكرى (ت عام ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م) . والعسكرى نسبة إلى العسكر . فكان مفتى أهل العسكر . روى عن يونس بن عبد الأعلى والربيع بن سليمان .

ومن فقهاء الشافعية الذين توفوا فى العصر الاخشيدى :

الحسين بن أبى زرعة الدمشقى ، أبو عبد الله (ت عام ٣٢٧ هـ / ٩٣٨ م) وهو ابن القاضى الشافعى محمد بن عثمان ، أبو زرعة . وقد تولى قضاء مصر والشام .

محمد بن بشر بن عبد الله الزبيرى ، أبو بكر (ت عام ٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م) .

محمد بن أحمد بن الربيع الأسوانى ، أبو رجاء (ت عام ٣٣٥ هـ / ٩٤٦ م) .

عبد الرحمن بن سلمويه الرازى (ت عام ٣٣٩ هـ / ٩٥٠ م) . وكان قد قدم إلى مصر وتفقّه بها وأفتى ودرس فى جامعها العتيق .

إبراهيم بن أحمد بن إسحاق المروزي . أبو إسحاق الفقيه الشافعي
(ت عام ٣٤٠ هـ / ٩٥١ م) بمصر ، وكان إمام عصره في الفتوى والتدريس
وانتهت إليه الرياسة بالعراق ، وقد انتقل إلى مصر في أواخر عمره ، وكان
يجلس في مجلس الشافعي .

محمد بن إبراهيم بن الحسين، أبو الفرج البغدادي المعروف بابن
سكره (ت عام ٣٤٢ هـ / ٩٥٣ م) سكن مصر ، وحدث بها .

محمد بن أحمد بن محمد ، أبو بكر بن الحداد (٢٦٤ - ٣٤٤ أو ٣٤٥ هـ /
٨٧٧ - ٩٥٥ أو ٩٥٦ م) أحد أئمة الشافعية ، تولى القضاء والتدريس
بمصر ، ومن كتبه : كتاب « الفروع » في المذهب، وكتاب الباهر في الفقه، في
مائه جزء، وكتاب جامع الفقه، وكتاب أدب القضاء في أربعين جزءا (٢٠).

عبد الله بن محمد بن الحسين، أبو بكر الخصيبي الأصبهاني (ت عام
٣٤٨ هـ / ٩٥٩ م). له كتاب في الفقه يسمى «المجالسة» وكان قد تولى قضاء
مصر عام ٣٤٠ هـ / ٩٥١ م.

٣- مذهب أبي حنيفة :

نسبة الى أبي حنيفة، النعمان بن ثابت (٨٠-١٥٠ هـ / ٦٩٩-٧٦٧ م)، وكانت
له مؤلفات كثيرة منها :كتاب الفقه الأكبر - كتاب الرد على القدرية - كتاب
العالم والمتعلم.

ولم ينتشر مذهب أبي حنيفة في مصر كما انتشر مذهب مالك، فتقول
الدكتورة سيدة كاشف: أما المذهب الحنفي فيظهر أن احدا من أهل مصر لم
يذهب اليه اذ ذاك إلا من كان من قضاتها الذين ولتهم الخلافة، وخاصة منذ
عهد الخليفة هارون الرشيد الذي ولى قضاء بغداد بعد (سنة ١٧٠ هـ /
٧٨٦ م) أبا يوسف يعقوب بن إبراهيم أحد أصحاب أبي حنيفة، ولم يقلد

(٢٠) والحداد نسبة الى أحد اجداده الذي كان يعمل الحديد ويبيعه. ،انظر عنه في
الموضوع الخاص بالقضاة.

ال خليفة القضاء ببلاد العراق وخراسان والشام ومصر إلا من أشار به
القاضى أبو يوسف، وطبيعى ألا يولى أبو يوسف أحدا إلا من كان من
أصحابه أى ممن يذهب مذهب أبى حنيفة.

وتقول الدكتورة سيدة كاشف أيضا : إنه اذا كان ولى القضاء بمصر فى
العصر العباسى قضاة على مذهب أبى حنيفة، إلا أن عامة أهلها لم يتبعوا
ذلك المذهب، وانما كان مذهب مالك هو المنتشر بها.

فقهاء الحنفية:

اسماعيل بن اليسع الكندى، الذى ولى القضاء عام (١٦٤هـ/ ٧٨٠م)
من قبل المهدي وكان مكروها من المصريين بسبب مذهبه، ولم يكن أهل مصر
يعرفون هذا المذهب، حتى إن فقيه مصر الليث بن سعد اضطر إلى أن يكتب
إلى الخليفة العباسى، يطلب عزل هذا القاضى فاضطر الخليفة إلى عزل هذا
القاضى الحنفى المذهب.

بكار بن قتيبة (١٨٢ - ٢٧٠هـ / ٧٩٨ - ٨٨٣م)، تولى القضاء بمصر
عام ٢٤٦هـ/ ٨٦٠م من قبل المتوكل، كان يحدث فى المسجد الجامع
بالفسطاط فى فقه أبى حنيفة.

أحمد بن أبى عمران، أبو جعفر الفقيه قاضى الديار المصرية (ت عام
٢٨٥هـ/ ٨٩٨م) من اكابر الحنفية، وهو شيخ الطحاوى

أحمد بن محمد بن سلامة، أبو جعفر الطحاوى الفقيه الحنفى (ت عام
٣٢١هـ/ ٩٣٣م) وهو ابن أخت المزنى، وكان شافعى المذهب، وذكر ابن
خلكان أن سبب انتقاله الى مذهب أبى حنيفة ورجوعه عن المذهب الشافعى،
أن خاله المزنى قال له يوما : « والله لا جاء منك شيء » فغضب وتركه،
وتحول الى المذهب الحنفى حتى برع فيه، وانتتهت اليه رئاسة أصحاب أبى
حنيفة بمصر. صنف كتباً كثيرة منها : «أحكام القرآن» ، «اختلاف العلماء» ،
و « معانى الآثار» و «الشروط الكبير» و «كتاب الفرائض» وغير ذلك.

وهكذا أصبح بمصر فى ذلك العهد مذهبان يتعادلان هما : المالكي والشافعى، ومذهب أقل شأنًا تؤيده الخلافة وهو المذهب الحنفى، أما المذهب الحنبلى^(٢١) أو المذاهب الأخرى السنية، فلم يكن لها ذكر بمصر اذ ذاك. وكذلك المذاهب التى لا تعد من مذهب أهل السنة مثل : الشيعة والخوارج، فلم يكن لها أثر إلا فى ظروف سياسية معينة، ولكنها لم تعمر طويلا اذ لم يقبل المصريون على مثل تلك المذاهب .

وانقسم المصريون بين فقه الشافعى وفقه مالك انقسامًا أدى الى أن قاضى مصر عيسى بن المنكر الذى تولى القضاء (٢١٢ - ٢١٤ هـ / ٨٢٧ - ٨٢٩م) كان يصيح بالشافعى ويقول له : «يا كذا، دخلت هذه البلدة وأمرنا واحد، ورأينا واحد، ففرقت بيننا، وألقيت الشر، فرّق الله بين روحك وجسدك». وقد قال القاضى هذا للشافعى للخلاف الشديد الذى كان بين آراء الشافعى وآراء مالك، وتعصب المالكية لأرائهم، وتعصب الشافعية لتعاليمهم، فقد كثرت المناظرات بين علماء المذهبين، وكثيرا ما كادت تؤدى هذه المناظرات الى فتن بين المسلمين والى قتال أحيانا ! فقد حدث فى عام ٣٢٦ هـ / ٩٣٧م أن عاد أصحاب مالك والشافعى الى القتال فى المسجد الجامع العتيق، فلما زاد قتالهم أرسل الاخشيدي، ونزع حصرهم ومساندهم، وأغلق الجامع، وكان يفتح فى أوقات الصلوات، ثم سئل الاخشيدي فيهم فردهم ، ويبىدو - كما تقول الدكتورة سيدة كاشف - أن الأمراء الاخشيديين وأتباعهم كانوا يكرهون الشافعية.

(٢١) المذهب الحنبلى نسبة الى أحمد بن حنبل، أبو عبد الله (١٦٤ - ٢٤١ هـ / ٧٨٠ - ٨٥٥م). كان إمام المحدثين، قال عنه الشافعى: خرجت من بغداد فما خلفت بها رجلا أفضل ولا أعلم ولا أفقه من أحمد بن حنبل. روى عنه البخارى ومسلم وأبو داود وأبو زرعة وخلق عظيم. وله من الكتب : كتاب المسند ويحتوى على نيف وأربعين ألف حديث، وكتاب الطل، وكتاب التفسير، وكتاب النسخ والمنسوخ، وكتاب الفرائض، وكتاب طاعة الرسول وغير ذلك.

التصوف والمتصوفون : (٢٢)

ظهر التصوف فى مصر منذ القرن الأول للهجرة. والتصوف - كما يقول ابن خلدون - هو «العكوف على العبادة، والانقطاع الى الله تعالى، والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق فى الخلوة للعبادة».

وترجع نشأة التصوف فى الاسلام إلى حركة الزهد العظيمة التى ظهرت تحت تأثير المسيحية فى القرن السابع الميلادى / الأول الهجرى - كما هو واضح من كتب تراجم الصوفية التى تفيض بأخبارهم وأقوالهم، والزهد كما قيل أول مراحل التصوف.

على أننا يجب أن نفرق بين الزهاد الذين ظهروا فى القرنين الأول والثانى للهجرة، وبين المتصوفين الذين ظهروا بعد ذى النون المصرى (ت عام ٢٤٥هـ / ٨٥٩م) رائد الصوفية فى مصر، فقد كان له فضل كبير فى وضع كثير من التعاليم الصوفية التى نعرفها الآن، والتى تختلف عن صوفية مصر من قبل.

(٢٢) وعن معنى كلمة المتصوفون يقول المقرئى:

«واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة قال: وهذه التسمية غلبت على هذه الطائفة فيقال: رجل صوفى والجماعة الصوفية، ومن يتوصل الى ذلك يقال له متصوفاً والجماعة المتصوفة، وليس يشهد لهذا الاسم من العربية قياس ولا اشتقاق ولاظهر فيه، انه كاللقب. فأما قول من قال إنه من الصوف، وتصوف اذا لبس الصوف، كما يقال تقمص اذا لبس القميص فذلك وجه، ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف. ومن قال إنهم يشربون الى صفة مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم فالنسبة الى الصفة لاتجئ على نحو الصوفى، ومن قال إنه من الصفاء بعيد فى مقتضى اللغة. وقول من قال إنه مشتق من الصف، فكانهم فى الصف الأول من حيث المحاضرة مع الله تعالى، فالمعنى صحيح لكن اللغة لا تقتضى هذه النسبة من الصف، ثم ان هذه الطائفة أشهر من أن يحتاج فى تعيينهم الى قياس لفظ واستحقاق اشتقاق والله أعلم».

ويقول ابن خلدون: «والأظهر إن قيل بالاشتقاق انه من الصوف، وهم فى الغلب مختصوب بلبسه، لما عليه من مخالفة الناس فى لبس فاخر الثياب الى لبس الصوف».

ومن الزهاد والمتصوفين فى مصر :

سليمان بن أبى زينب، أبو الربيع السبأى مولاهم المصرى الزاهد(ت عام ١٣٤هـ / ٧٥١م).

المحب بن حذلم، أبو خيرة الرعينى مولاهم المصرى (ت عام ١٣٥هـ / ٧٥٢م) قال عنه ابن لهيعة : كان أبو خيرة يقرأ القرآن فى كل يوم وليلة مرتين.

عبد الكريم بن الحارث بن يزيد الحضرمى المصرى، أبو الحارث الزاهد، أحد الأولياء، كان ثقة، وتوفى ببرقة عام ١٣٦هـ / ٧٥٣م.

عبد الرحمن بن ميمون الزاهد، من موالى أهل المدينة وسكن مصر (ت عام ١٤٣هـ / ٧٦٠م).

العلاء بن كثير القرشى، مولاهم الاسكندرانى المصرى الزاهد (ت عام ١٤٤هـ / ٧٦١م).

سهيل بن حسان، أبو السحماء الكلابى المصرى الزاهد (ت عام ١٤٧هـ / ٧٦٤م).

عميرة بن أبى ناجية، أبو يحيى الرعينى مولاهم المصرى الزاهد (ت عام ١٥٣هـ / ٧٧٠م).

النضر بن عبد الجبار، أبو الأسود المرادى المصرى الزاهد (ت عام ٢١٩هـ / ٨٣٤م).

ذو النون المصرى، أبو الفيض، ثوبان بن إبراهيم الاخميمى (ت عام ٢٤٥هـ / ٨٥٩م).

ثوبان بن محمد بن حمدان الحمال، أبو الحسن الزاهد (ت عام ٣١٦هـ / ٩٢٨م).

محمد بن أحمد بن القاسم، أبو علي الروذباري البغدادي الزاهد.
توفي بمصر عام ٣٢٢هـ/٩٣٣م.

علي بن محمد بن سهل ، أبو الحسن الدينوري الزاهد (ت عام
٣٣١هـ/٩٤٢م).

أبو الخير الأقطع (ت عام ٣٤٣هـ/ ٩٥٤م).

الحسن بن أحمد، أبو علي الكاتب المصري (ت عام ٣٤٣هـ/٩٥٤م).

علي بن جعفر البغدادي المتصوف.

محمد بن أحمد بن سهل، أبو بكر الرملي النابلسي وكان يكره
الفاطميين حتى يروى أنه قال :لو كان معي عشرة أسهم، رميت الروم بسهم،
ورميت بني عبيد بتسعة! فلما سمع بذلك المعز صاحب مصر في ذلك الوقت
قتله، وكان ذلك في عام ٣٦٣هـ/٩٧٣م.

رابعاً : الدراسات اللغوية والنحوية :

وقد ازدهرت الدراسات النحوية واللغوية والعربية لما لها من صلة وثيقة بعلوم القرآن والحديث، فهي مفتاح لفهم القرآن والسنة، وأداة لفهم الاحكام. ومن نحاة مصر:

عبد الرحيم بن على - وقيل ابن فخر - بن هبة الله النحوى الأديب (ت عام ٧٩٩هـ/٦٩٨م) بإسنا . كان نحويًا شاعرا، نظم كتابا فى النحو سماه «المفيد».

عبد الرحمن بن داود المدنى الملقب بالأعرج صاحب أبى هريرة، قيل إنه أول من وضع العربية بالمدينة. وقد جاء الى مصر، وتوفى بالاسكندرية عام ١١٧هـ/٧٣٥م.

سرج الغول. وهو رجل من أهل مصر، عالم باللغة، يعرف بلقبه، قال عنه الربيع بن سليمان: كان لا يقول أحد شيئا من الشعر إلا عرضه عليه. وكان الشافعى يقول : ياربيع ادع لى سرجا ، فيأتى به، فيذكره وينظره. وعندما يقوم سرج الغول يقول الشافعى : ياربيع نحتاج أن نستأنف طلب العلم.

عبد الملك بن هشام، أبو محمد المعافى (ت عام ٢١٨هـ/٨٢٣م) كان إماما فى اللغة والنحو متقدما فى علم النسب، وهو صاحب السيرة النبوية.

أبو الحسن الأعزّ عدّه الزبيدى من الطبقة الأولى من النحويين واللغويين المصريين، أخذ عن على بن حمزة الكسائى (٣)، ولقيه قوم من أهل الاندلس وحملوا عنه وذلك فى عام ٢٢٧هـ/٨٤١م.

(٣) وهو أبو الحسن على بن حمزة بن عبد الله بن عثمان، أحد الأئمة فى القراءة والنحو واللغة، وهو من أهل الكوفة، واستوطن بغداد، وروى الحديث وصنف الكتب. وتوفى عام ١٨٢هـ/٧٩٨م وقيل عام ١٨٣هـ/٧٩٩م وقيل عام ١٨٩هـ/٨٠٤م وقيل عام ١٩٢هـ/٨٠٧م.

الوليد بن محمد التميمي الشهير بولاد . توفي بمصر عام ٢٦٣هـ / ٨٧٦م،
أصله من البصرة ونشأ بمصر، ثم رحل الى العراق في طلب العلم وعاد الى
مصر، ومعه كتب أهل العراق في النحو واللغة، ويقال إنه هو الذي أدخل إليها
كتب النحو واللغة، وكان تلميذا للخليل بن أحمد (٢٤)

القاسم بن عيسى، أبو الفضل النحوي (ت عام ٢٧٠هـ / ٨٨٣ م) قال
عنه ابن يونس : إنه كان عالما بالنحو واللغة.

محمود بن حسان، أبو عبد الله النحوي (ت عام ٢٧٢هـ / ٨٨٥م) قال
عنه ابن يونس في تاريخ مصر : كان نحويا مجوداً، روى عن أبي زرعة
المؤذن وعبد الملك بن هشام مغازي ابن اسحاق.

عبد الله بن قزارة، النحوي، أبو زهرة (ت عام ٢٨٢هـ / ٨٩٥م).

داود بن محمد بن صالح النحوي المروزي، أبو الفوارس (ت عام
٢٨٣هـ / ٨٩٦م)، ذكره ابن يونس في تاريخ مصر وقال : قدم مصر ومات بها.
وذكره الزبيدي في الطبقة الرابعة من النحويين الكوفيين .

أحمد بن جعفر الدينوري، أبو علي (ت عام ٢٨٩هـ / ٩٠١م) وهو أحد
النحاة المبرزين والمصنفين في نحاة مصر، وقد ألف بمصر كتاباً في النحو
سماه «المهذب»، وله كتاب «اصلاح المنطق»، وكتاب «مختصر في ضمائر
القرآن» وغير ذلك.

عبد الله بن عبد العزيز، أبو موسى الضرير النحوي البغدادي. كان
يؤدب ولد المهدي، وسكن مصر، وحدث بها عن أحمد بن جعفر الدينوري،
وله كتاب في الفرق، وآخر في الكتابة والكتاب.

(٢٤) وهو أبو عبد الرحمن، الخليل بن أحمد يقول عنه ابن النديم: «وكان غاية في
استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس». وكان من الزهاد في الدنيا، المقطعين
الى العلم، ومن كتبه: كتاب «العين» توفي بالبصرة عام ١٧٠هـ / ٧٨٦م.

محمد بن الوليد بن محمد بن ولاد التميمي (ت عام ٢٩٨هـ / ٩١٠م) وكان قد رحل الى العراق وأقام بها ثمانية أعوام، وأخذ عن المبرد^(٢٥) وثلعب^(٣٦) وعاد الى مصر يعلم الناس علوم العربية، ووضع كتابا في النحو سماه «المنق».

محمد بن زيد بن يضرختويه بن الهيثم البردعي من أذربيجان، نزل مصر واستوطنها، كان كثير العلم، متفنا في الأدب واللغة والشعر، سمع منه أبو القاسم الطبراني^(٣٧) بمصر وذلك في شهر رمضان عام ٣٠٠هـ / ٩١٢م.

أحمد بن اسحاق، أبو طاهر (ت عام ٣٠١هـ / ٩١٣م).

يموت بن المزرع، أبو بكر (ت عام ٣٠٣هـ / ٩١٥م وقيل عام ٣٠٤هـ / ٩١٦م) عدّة الزبيدي من الطبقة الثانية من النحويين واللغويين المصريين، وكان قد قدم الى مصر مرارا وآخر قدومه اليها في عام ٣٠٣هـ وخرج منها في عام ٣٠٤هـ.

على بن الحسن الهنائي الدؤس، أبو الحسن المعروف بكراع النمل، لقب بذلك لقصره، وكان أحد الأئمة في اللغة والنحو، وكان معدودا في أهل

(٢٥) وهو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر بن عمير كان إمام العربية ببغداد. ومن كتبه: كتاب «الروضة» وكتاب «المقصود والممدود»، وكتاب «المذكر والمؤنث» وغير ذلك. والمبرد لقبه به المازني ومعناه المثبت للحق. ولد عام ٢١٠هـ / ٨٢٥م وتوفي عام ٢٨٥هـ / ٨٩٨م.

(٣٦) وهو أحمد بن يحيى، أبو العباس ثعلب. إمام الكوفيين في النحو واللغة والفقه والديانة. ومن كتبه: كتاب «اختلاف النحويين» وكتاب «معاني القرآن» وكتاب «المصنوع» في النحو وغير ذلك. ولد عام ٢٠٠هـ / ٨١٥م وتوفي عام ٢٩١هـ / ٩٠٣م.

(٣٧) وهو سليمان بن أحمد بن أيوب، أبو القاسم الطبراني، كان حافظ عصره، رحل في طلب الحديث من الشام الى العراق والحجاز واليمن ومصر، وأقام في الرحلة ثلاثا وثلاثين سنة. ومن أشهر كتبه المعاجم الثلاثة «الكبير» و«الأوسط» و«الصغير». والطبراني - بفتح الطاء المهملة والباء الموحدة والراء وبعد الألف نون - نسبة الى طبرية. ولد عام ٢٦٠هـ / ٨٧٣م وتوفي ٣٦٠هـ / ٩٧٠م.

مصر لاقامته بها، أخذ عن البصريين والكوفيين معا، وصنف مصنفات على وزن واحد فى التسمية منها: المُجَرَّد، المنظم، المُتَّجِد، المُتَّصِد وكان حيا فى عام ٣٠٩ هـ / ٩٢١ م فى خلافة المقتدر

محمد بن عبد الله بن محمد بن مسلم، أبو بكر النحوى المعروف بالملطى (ت عام ٣٣٠ هـ / ٩٤١ م) كان نحويا يعلم اولاد الملوك النحو، كما أنه أم بالجامع العتيق بمصر

احمد بن محمد بن الوليد بن محمد بن ولّاد التميمى، أبو العباس (ت عام ٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م) كان بصيرا بالنحو، أستاذًا فيه، رحل الى العراق كما رحل إليها والده وجده، وأخذ عن الزجّاج (٢٨) الذى كان يثنى عليه عند كل من قدم اليه من مصر، ويقول لهم: «لى عندكم تلميذ من حاله وشأنه فيقال له: أبو جعفر بن النحاس فيقول: لا، هو أبو العباس بن ولاد» ومن كتبه التى ألفها فى مصر كتاب «المقصود والممدود»

عبد الله بن محمد بن الوليد، أبو القاسم بن ولّاد وهو أخ لأبى العباس أحمد بن ولاد، الا أنه كان دون أخيه فى العلم

على بن الحسن بن محمد بن يحيى يعرف بعلّان المصرى (ت عام ٣٣٧ هـ / ٩٤٨ م)

احمد بن محمد بن اسماعيل بن يونس، يعرف بابن النّحاس، أبو جعفر النحوى المصرى (ت عام ٣٣٨ هـ / ٩٤٩ م) رحل إلى بغداد وأخذ عن الأخفش الأصغر (٢٩)، والمبرد والزجاج، وعاد الى مصر وسمع بها من

(٢٨) وهو أبو اسحاق، ابراهيم بن محمد بن السرى بن سهل الزجاج النحوى. ومن كتبه: كتاب الاشتقاق. وكتاب «القوافى» وكتاب «مختصر فى النحو»، وكتاب «شرح أبيات سيبويه» وغير ذلك. توفى ببغداد عام ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م وقيل عام ٣١١ هـ / ٩٢٣ م وقيل عام ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م.

(٢٩) وهو أبو الحسن، على بن سليمان بن الفضل المعروف بالأخفش الأصغر النحوى. ومن كتبه: كتاب «الأنوار» وكتاب «التثنيه والجمع». وكان قد دخل مصر عام ٢٨٧ هـ / ٩٠٠ م وخرج منها عام ٣٠٦ هـ / ٩١٨ م. وتوفى عام ٣١٥ هـ / ٩٢٧ م وقيل عام ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م. والأخفش - بفتح الهمزة وسكون الخاء المعجمة وفتح الفاء و بعدها شين معجمة - وهو الصغير العين مع سوء بصرها.

النسائي والف كتباً كثيرة منها: «إعراب القرآن» «معاني القرآن»، وكتاب «الناسخ والمنسوخ»، وكتاب «شرح أبيات سيبويه»، وكتاب في اختلاف البصريين والكوفيين في النحو سماه «المقنع»، وكتاب لقبه «بالكافي» في علم العربية

محمد بن أحمد بن علي بن إبراهيم بن يزيد بن حاتم (ت عام ٣٤٩هـ/٩٦٠م)، كان عالماً لغوياً نحوياً ثقة

محمد بن موسى بن أبي محمد بن مؤمن الكندي النحوي، أبو بكر (ت عام ٣٥١هـ/٩٦٢م) كتب الحديث والنحو، وكان رجلاً فاضلاً صالحاً

العباس بن أحمد بن مطروح بن سراح بن محمد بن عبد الله الأزدي النحوي، أبو عيسى (ت عام ٣٥٣هـ/٩٦٤م) وهو من أهل مصر

إبراهيم بن عبد الله بن محمد النجيري، أبو إسحاق النحوي اللغوي، وكان شاعراً أيضاً وذلك في زمن كافور الإخشيدي (٣٥٥-٣٥٧هـ/٩٦٥-٩٦٧م).

محمد بن إسحاق بن أسباط الكندي، أبو النضر المصري النحوي، أخذ عن الزجاج، وله كتاب في النحو سماه «العيون والنكت» وكان شيخ أهل الأدب، ومن كتبه أيضاً: كتاب «المغنى في النحو»، وكتاب «الموقف»، وكتاب «التلقين».

محمد بن علي بن محمد، أبو بكر الاديبي المقرئ النحوي المفسر، (توفي عام ٣٨٨هـ/٩٩٨م) أخذ النحو عن أبي جعفر النحاس، انفرد بالامامة في قراءة نافع ورواية ورش، وكان يبيع الخشب بمصر، وصنف كتباً كثيرة منها: كتاب في التفسير يدعى «الاستغناء في علوم القرآن».

خامسا : التاريخ .

وكان بجانب الحركة الدينية حركة تعنى بتدوين لأحداث التاريخ، وتسلك فى منهجها مسلك المحدثين، فقد كان علم التاريخ عند المسلمين يهدف فى البداية الى دراسة سيرة النبی صلى الله عليه وسلم وأعمال الصحابة والجماعة الاسلامية الناشئة وأخبار الغزوات والجهاد. وهكذا نرى أن طبيعة علم التاريخ لم تكن تختلف أولا عن طبيعة علم الحديث، اللهم إلا فى هدف كل منهما، ونوع الروايات التى يعنى بها، فالمحدثون يعنون بالروايات التى تقرّر مبادئ، فقهية أو خلقية، بينما يعنى المؤرخون بالروايات التى تتجه الى سرد الحوادث. وحسبنا دليلا على اشتراك العلمين فى المصادر والمنهج أن كل جيل كان يأخذ الروايات عن الجيل الذى سبقه، وأن المتن فى كل رواية كان مسبوqa بالسند أو الاسناد، ولذلك نرى من تخصص فى التاريخ أيضا ممن كانت دراستهم أساسها الحديث والفقه

ونلاحظ أن رواة التاريخ - كما يقول الدكتور عبد المجيد عابدين - كانوا على مر الزمن أقل تشددا من رواة الحديث فى نقد أسانيدهم وأخبارهم، فتقبلوا أخبارا لا تخلو من خيال وأساطير فى وصف عجائب مصر وأخبار أهلها فى عصور ما قبل الفتح، ولذلك يجد الناظر فى المصادر العربية لتاريخ مصر، والتى تناولت ما قبل الفتح وما بعده، صنفين من الأخبار قد يمتزجان، ولكن يختلف أحدهما عن الآخر فى الطبيعة والمنهج، الأول : يدخل فى باب العجائب والاساطير، ومعظمه حكايات عن أحوال مصر وأخبار ملوكها وأهلها فى أزمنة ما قبل الفتح

والثانى : أحداث ووقائع ومشاهدات، وأكثرها يتناول تاريخ مصر منذ دخول العرب الفاتحين

وبالمقارنة يتبين أن الصنف الأخير الذى يمثل جانبا واقعيا تجريبيا فى الفكر العربى الاسلامى، إنما يعبر فى الحقيقة عن مقدرة أصيلة مبتكرة لهذا

الفكر، ومقدرة على الملاحظة والوصف والجمع والافادة مما تعلمه العلماء من التجربة أو أخذوه من الرواية والتقليد، ويفضل هذه المقدرة تبوأ التاريخ وسائر العلوم التي تعتمد عليه مكانا مرموقا فى مؤلفاتهم، وأظهروا فى ميادينها تفوقا ظاهرا وأعمالا رائعة

ومن مؤرخى مصر :

يحيى النقيوسى، أو يوحنا النقيوسى الذى كان أسقفا مصريا لابرشية نقيوس^(٣٠) فى النصف الثانى من القرن السابع الميلادى. ومن أهم مآثره : المؤلف الذى وضعه فى تاريخ مصر باللغة القبطية، ويعد من أفضل كتب التواريخ، نظرا لاحتوائه آلاف الحوادث التى جرت أيام الفتح العربى، ومنها ما وقع فى أيامه وشاهده بعينه، وقد ترجم هذا الكتاب من القبطية الى اليونانية فالحبشية، ولكن لم تبق من تراجمه سوى النسخة الحبشية التى نقلها الى العربية الشماس غبريال المصرى الراهب

هافىء بن المنذر الكلاعى المصرى (ت عام ١٤٧هـ/ ٧٦٤م). يقول عنه الذهبى : إنه كان إخباريا، علامة بالأنساب وأيام العرب

سعيد بن عفير، أبو عثمان المصرى المؤرخ (ت عام ٢٢٦هـ/ ٨٤٠م). كان فقيها، نسابة، إخباريا، شاعرا، صحيح النقل. قال عنه ابن يونس : كان من أعلم الناس بالأنساب، والأخبار الماضية، وأيام العرب والتواريخ.

عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم، أبو القاسم المصرى، ولد بفسطاط مصر حوالى عام ١٨٧هـ/ ٨٠٢م وتوفى عام ٢٥٧هـ/ ٨٧٠م. وضع

(٣٠) ذكر محمد رمزى فى قاموسه أن الافرنج قالوا: إن نقيوس هى البلدة التى تعرف اليوم باسم أبشادى إحدى قرى مركز تلا بمدينة المنوفية اعتمادا على أن اسمها ورد فى كشف الاسقفيات هكذا بشاتى = نقيوس وأن الاسمين لمدينة واحدة كانت قاعدة قسم بروزويس. غير أن محمد رمزى يرى بعد البحث أن مدينة نقيوس هى مدينة أخرى غير أبشادى، وأنها قد زالت ومحلها اليوم الكوم الأثرى الكائن بالجبهة البحرية من سكن زاوية رزين بمركز منوف المعروف عند الأهالى باسم كوم مانوس أو دقيانوس المحرفين عن نقيوس التى اختفى اسمها من القديم.

كتابا باسم «فتوح مصر» يعد من أقدم الكتب التاريخية التي وصلتنا عن مصر الإسلامية

عمارة بن وثيمة بن موسى الفارسي، أبو رفاعة، ولد بمصر وتوفي بها عام ٢٨٩هـ/٩٠١م. صاحب التاريخ على السنين، ولا نعرف عن مصنفه هذا الا ما ذكره المؤرخون من أنه كان مرتبا على السنين، وقد حدث عن أبي صالح كاتب الليث بن سعد وعن أبيه وثيمة بن موسى بن الفرات المتوفى عام ٢٣٧هـ/٨٥١م

الحسن بن القاسم بن جعفر بن دحية، أبو على الدمشقي، من أبناء المحدثين، كان إخباريا، له في ذلك مصنفات توفي بمصر عام ٣٢٧هـ/٩٢٨م

سعيد بن البطريق (ت عام ٣٢٨هـ/٩٣٩م) وهو البطريق الرومي الملكاني أفثيشيوس، نصب بطريقا على الاسكندرية عام ٣٢١هـ/٩٣٣م. وقد عني بالتاريخ، وكتب فيه مؤلفا مشهورا هو «نظم الجواهر» أو التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، تحدث فيه عن التاريخ منذ الخليفة إلى العصر الذي عاش فيه.

أحمد بن يوسف بن إبراهيم المعروف بابن الداية، توفي حوالي عام ٣٤٠هـ/٩٥١م، ومن كتبه التي وصلت إلينا: كتاب المكافأة، وكتاب سيرة أحمد بن طولون، وكتاب سيرة أبي الجيش خمارويه

على بن الحسين بن على المسعودي المؤرخ، نشأ في بغداد وتوفي في الفسطاط عام ٣٤٦هـ/٩٥٧م. وقد استن في تأليف التاريخ سعة جديدة - كما تقول الدكتورة سيدة كاشف - فصار لا يرتب الحوادث حسب السنين الهجرية، بل جمعها تحت رؤوس موضوعات من الشعوب والملوك والأسرات، وقد تبعه في هذه الطريقة بعض المؤرخين ولا سيما ابن خلدون. ومن كتبه: كتاب «مروج الذهب ومعادن الجواهر» وكتاب «التنبيه والاشراف».

أبو سعيد، عبد الرحمن بن أحمد بن يونس بن عبد الأعلى الصدفى المؤرخ المصرى (٢٨١ - ٣٤٧هـ/٨٩٤ - ٩٥٨م) وهو الذى يعرف اسمه اختصارا بابن يونس صاحب تاريخ مصر، وقد جمع لمصر تاريخين أحدهما، وهو الأكبر، يختص بالمصريين، والآخر وهو صغير يشتمل على ذكر الغريباء الواردين على مصر.

محمد يوسف بن يعقوب، أبو عمر الكندى (٢٨٣ - ٣٥٠هـ/٨٩٦ - ٩٦١م) ومن أعظم مؤلفاته «كتاب الولاة» و«كتاب القضاة» ولعل الكندى أول من أرخ لمصر حسب الولاة، فوضع هذا الفن للمؤرخين بعده. وللكندى كتب أخرى منها: «كتاب الخطط»، و«كتاب أخبار مسجد أهل الراية الأعظم»، و«كتاب الموالى» إلانها فقدت.

عمر بن محمد بن يوسف بن يعقوب. وهو صاحب كتاب «فضائل مصر»، ومن الأخطاء الشائعة أن هذا الكتاب ينسب الى والده الكندى، غير أنه كتب فى مقدمته أن الذى أمره بتأليفه هو كافور الاخشيدى، وأشار الى والده الكندى بين العلماء الذين جمع من كتبهم ما أمره به كافور، ثم ذكره ثانية بين علماء مصر.

الحسن بن ابراهيم بن الحسين المصرى المؤرخ المعروف بابن زولاق - ولد بفسطاط مصر عام ٣٠٦هـ/٩١٨م وتوفى عام ٣٨٧هـ/٩٩٧م عنى بتاريخ مصر، ووضع ذيلًا لكتاب أمراء مصر وقضاتها للكندى، كما ألف كتابا فى «فضائل مصر» وفى «خطط مصر» وفى تاريخ مصر على السنين. وكان ابن زولاق مصدرا هاما من المصادر التى اعتمد عليها المؤرخون من بعده، لذلك أطلقوا عليه لقب «مؤرخ مصر» مما يدل على قيمة كتبه وأخباره الصادقة المتعلقة بمصر.

ومن المؤرخين الذين زاروا مصر :

محمد بن جرير بن يزيد، أبو جعفر الطبرى المحدث الفقيه المرقى، المؤرخ (٢٢٤ - ٣١٠هـ/٨٣٨ - ٩٢٢م). جمع من العلوم مالم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، فكان حافظا لكتاب الله، عارفا بالقراءات كلها، بصيرا بالمعانى، فقيها فى الأحكام، عالما بالسنن وطرقها، وصحيحها وسقيمها،

وناسخها ومنسوخها، عارفا بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم، عارفا
بأيام الناس وأخبارهم. وله الكتاب المشهور فى تاريخ الأمم والملوك، وله
أيضا كتاب فى تفسير القرآن لم يصنف أحد مثله، وكتاب سماه تهذيب
الآثار، إلا أنه لم يتمه، وله فى أصول الفقه وفروعه كتب كثيرة. وهو أحد
المحدثين الذين اجتمعوا فى أيام أحمد بن طولون وهم :

محمد بن اسحاق بن خزيمة^(٣١) ومحمد بن نصر المروزي^(٣٢) ومحمد
بن هارون الرويانى^(٣٣) ومحمد بن جرير الطبرى، ولم يبق عندهم ما يقوتهم،
فاجتمعوا فى بيت، واقتنعوا على أن من خرجت عليه القرعة يسأل ! فخرجت
على ابن خزيمة، فقال لهم : أمهلونى حتى أصلى، فدى الباب، فإذا بغلام من
عند أحمد بن طولون يعطى لكل واحد منهم خمسين دينارا بالاسم، ثم حدثهم
فقال : إن الأمير كان نائما بالأمس، فرأى فى النوم أن المحامد جياع، فأنفذ
اليك هذه الصرر، وأقسم عليكم إذا نفدت فعرفونى.

ويعتبر كتابه «أخبار الرسل والملوك» أول كتب التاريخ الشاملة فى اللغة
العربية، وقد بدأه بالخلقة، ووقف فيه عند سنة ٣٠٢هـ / ٩١٤م. والمعروف أنه
رتبه على السنين الهجرية، واتبع فيه طريقة الاسناد الى رواة الحوادث
بالتسلسل. ويظهر فى تاريخ الطبرى الصلة الوثيقة بين علمى الحديث
والتاريخ. والمعروف أن الطبرى محدث قبل أن يكون مؤرخا، وأن تاريخه
مكمل فى كثير من النواحي لكتابه الكبير فى تفسير القرآن الكريم.

وقد ارتبط بعلم التاريخ نوعان من العلوم : النوع الأول، وهو فن السير،
والنوع الثانى وهو فن القصص.

(٣١) وهو محمد اسحاق بن خزيمة بن المغيرة الشافعى. كتب الكثير وصنف وجمع، وكتابه
الصحيح من أنفع الكتب وأجلها، توفى عام ٣١١هـ / ٩٢٣م.

(٣٢) وهو محمد بن نصر، أبو عبد الله المروزي. رحل الى الآفاق، وسمع من المشايخ
الكثير النافع، وصنف الكتب المفيدة منها كتابا عظيما فى الصلاة، توفى عام
٢٩٤هـ / ٩٠٦م.

(٣٣) وهو محمد بن هارون الرويانى، أبو بكر صاحب المسند المشهور، ذكر أن له
تصانيف فى الفقه. توفى عام ٣٠٧هـ / ٩١٩م.

وبالنسبة للنوع الأول، وهو فن السير، فيقوم على رواية حوادث حصلت لصاحب السيرة لإبراز شخصيته، أو ناحية من نواحي شخصيته، فسيرة الشخص هنا ليست ترجمة تامة لحياته منذ ولادته الى وفاته، بل هي رواية شئ من أفعاله أو أقواله أو عن علاقته بمعاصريه دون ترتيب زمنى، ولكنها كافية لأن تعطينا صورة صادقة عن هذا الشخص. ولذلك ففن السير يعتبر فرعاً من علم التاريخ.

ولقد استأثرت سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ومغازيه باهتمام المؤرخين منذ صدر الاسلام، فكانت الكتب التاريخية الأولى تبحث فى سيرة النبى صلى الله عليه وسلم وغزواته، وتجمع أخبار هجرة المسلمين الى الحبشة وإلى المدينة، وأخبار غزوات النبى صلى الله عليه وسلم والذين اشتركوا فيها.

ومن مؤلفى السيرة النبوية:

محمد بن اسحق (ت عام ١٥١هـ/٧٦٨م) صاحب المغازى والسير، وقد وفد على مصر، وروى فيها سيرته.

عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميرى (ت عام ٢١٨هـ/٨٢٣م وقيل عام ٢١٣هـ/٨٢٨م). نزيل مصر، مهذب السيرة النبوية، فقد سمعها من زياد البكائى^(٣٤) صاحب ابن اسحق، ونقحها، وحذف من اشعارها جملة. وقد وثقه ابن يونس. ومن كتبه : السيرة - شرح ما وقع فى أشعار السيرة من الغريب - أنساب حمير وملوكها.

محمد بن عبد الله بن عبد الرحيم بن سعيد الزهرى المصرى، أبو عبد الله، ابن البرقى (ت عام ٢٤٩هـ/٨٦٣م). كان يحدث بالمغازى، قال عنه النسائى : لا بأس به . وقال ابن يونس : ثقه.

(٣٤) - وهو زياد بن عبد الله بن الطفيل البكائى ويكنى أبا محمد. سمع المغازى من محمد بن اسحاق، وقدم بغداد فحدثهم بها وبالفرائض وغير ذلك، ثم رحل إلى الكوفة فمات بها عام ١٨٣هـ/٧٩٩م.

ولم يقتصر التأليف فى السير على سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم والمغازى، وإنما تعددت إلى سير الملوك والوزراء.

ومن المؤرخين الذين ألفوا فى سير الملوك والوزراء والأمراء :

عبد الله بن عبد الحكم (ت عام ٢١٤هـ/٨٢٩م) فقد كتب «سيرة عمر ابن عبد العزيز» ثم رواها عنه ابنه محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، أبو عبد الله (المتوفى عام ٢٦٨هـ/٨٨١م).

أحمد بن يوسف بن إبراهيم المعروف بابن الداية (توفى حوالى عام ٣٤٠هـ/٩٥١م) فقد كتب «سيرة أحمد بن طولون»، و«سيرة أبى الجيش خمارويه»، و«سيرة هارون بن أبى الجيش»، و«أخبار إبراهيم بن المهدي» .

الحسن بن إبراهيم بن الحسين المصرى المعروف بابن زولاق (٣٠٦ - ٣٨٧هـ/٩١٨ - ٩٩٧م) فقد كتب «سيرة محمد بن طنج الاخشيدى»، وكتاب «سيرة كافور» وكتاب «سيرة المانرائيين»، وكتاب «سيرة جوهر»، وكتاب «سيرة المعز»، وكتاب «سيرة العزيز»، وكتاب «سيرة سيوييه المصرى».

ومن مؤلفى السير الأقباط ساويرس بن المقفع الذى كان أسقفا للأشمونين التى تقع بين المنيا وأسيوط فى الوجه القبلى، وكان من العلماء العاملين، قضى حياته فى التأليف والترجمة.

وبالنسبة لتاريخ وفاته تقول الدكتورة سيدة كاشف: «نحن لا نعرف وفاة ساويرس، ولكن يتضح لنا مما كتبه فى سير الآباء البطارقة أنه عاش حتى زمن الخليفة الفاطمى المعز لدين الله ، أى فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى وفى أواخر القرن العاشر الميلادى».

وأشهر الكتب التى تركها كتاب «تاريخ البطارقة» أو «سير الآباء البطارقة»، وكان قد جمعه باللغة القبطية من السجلات التى بيدى أبى مقار بيرية شيهات، وبدير نهيا بالجيزة، وبدير وادى هبيب (وادى النطرون)، وغيرها من الأديرة.

ويتضح مما كتبه ساويرس أن اللغة العربية كانت هي اللغة السائدة في ديار مصر في عصره، وأن غالبية المسيحيين في مصر أصبحوا يجهلون اللغة القبطية، فيذكر ساويرس أنه لاقى مشقة كبيرة في ترجمة الوثائق القبطية واليونانية الى العربية، وأنه استعان ببعض المسيحيين ممن كان لهم دراية باللسان القبطي أو اليوناني. وقد أتم كتاب ساويرس من أتى بعده من الكتاب والأساقفة، ولكن الكتاب ينسب الى ساويرس، ولعل ذلك - كما ترى الدكتور سيدة كاشف - يرجع الى أن ساويرس كان أول من تكبد جمع السير والوقوف عليها وترجمتها. ويعتبر كتاب ساويرس من نوع كتب التراجم المعروفة في التاريخ الاسلامي، ولكنه خاص بتراجم البطارقة في مصر من أيام ظهور المسيحية فيها زمن الامبراطور الروماني أغسطس قيصر الى بداية حكم الخليفة الفاطمي الأمر بأحكام الله عام ٤٩٦هـ/١١٠٢م.

وبالنسبة للنوع الثاني من العلوم المرتبطة بالتاريخ فهو فن القصص :

وقد استحدث القصص في صدر الاسلام، وصورة هذا القصص أن يجلس القاص في مسجد، وحوله الناس، فيذكروهم بالله ويقص عليهم حكايات وأحاديث وقصصا عن الأمم الأخرى وأساطير ونحو ذلك، لا يعتمد فيها على الصدق بقدر ما يعتمد على الترغيب والترهيب.

قال الليث بن سعد : هما قصصان : قصص العامة وقصص الخاصة، فأما قصص العامة فهو الذي يجتمع اليه النفر من الناس يعظهم ويذكروهم، فذلك مكروه لمن فعله ولمن سمعه، وأما قصص الخاصة فهو الذي جعله معاوية حين ولى رجلا على القصص فاذا سلم من صلاة الصبح جلس وذكر الله عز وجل، وحمده ومجّده، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ودعا للخليفة ولأهل ولايته ولحشمه ولجنوده، ودعا على أهل حربه وعلى المشركين كافة.

ولقد ارتفع شأن القصص حتى أصبح عملا رسميا، يعهد به الى رجال
رسميين، يعطون عليه أجرا.

وكان بمصر من القصاص:

سليم بن عتر التجيبي وكان أول من قص بمصر عام (٢٣٩هـ/٦٥٩م)،
وعندما ولاه معاوية القضاء عام (٤٠هـ/٦٦٠م) جمع بين القضاء والقص

عبد الرحمن بن حجية الذي جمع مع القضاء القصص (٦٩ -
١٨٣هـ/٦٨٨ - ٧٠٢م)، وكان رزقه من القصص مائتي دينار.

عقبة بن مسلم التميمي، أبو محمد المصري (ت عام ١٢٠هـ/٧٣٧م)
إمام جامع عمرو، وكان يتولى القصص.

توبة بن نمر بن حرملة الحضرمي. تولى القصص بالجامع بعد عقبة
وذلك في عام (١١٨هـ/٧٣٦م) وهكذا جمع له القضاء والقصص، لأنه تولى
القضاء عام ١١٥هـ/٧٣٣م.

خير بن نعيم بن مرة الحضرمي المصري. جمع له القضاء
والقصص (١٢٠ - ١٢٨هـ/٧٣٧ - ٧٤٥م).

الجلّاح أبو كثير الأموي المصري (ت عام ١٢٠هـ/٧٣٧م) وهو مولى
عبد العزيز بن مروان، وقد جعله عمر بن عبد العزيز على القصص
بالاسكندرية.

نّراج بن سمعان، أبو السّمح المصري القاص (ت عام ١٢٦هـ/٧٤٣م)
وهو مولى عبد الله بن عمرو بن العاص.

عبد الرحمن بن سالم بن أبي سالم الجيشاني (ت عام
١٤٣هـ/٧٦٠م) ولي قضاء مصر والقصص، ثم عزل وولى ديوان الجند.

أبو رجب العلا بن عاصم الخولاني، تولى القصص في عام
١٨٢هـ/٧٩٨م.

حسن بن ربيع بن سليمان تولى القصص فى جامع عمرو عام ٢٤٠هـ/٨٥٤م فى زمن المتوكل من قبل عتبسة بن اسحاق والى مصر.

حمزة بن ابراهيم بن أيوب الهاشمى. تولى القصص من قبل الخليفة العباسى المكتفى (٢٨٩- ٢٩٥هـ / ٩٠١- ٩٠٧م) وذلك فى عام ٢٩٢هـ/٩٠٤م.

أبو الحسن، على بن محمد بن أحمد بن الحسن البغدادى ثم المصرى (ت عام ٣٣٨هـ/٩٤٩م) كان له مجلس وعظ، وله مصنفات كثيرة فى الحديث والوعظ والزهد.

٢ - الدراسات الأدبية :

والمقصود بها الشعر والنثر.

أولا : الشعر :

وبالنسبة لظهور الشعر العربى فى مصر يقول الدكتور محمد كامل حسين : من البديهي أن لا نتقظر ظهور الشعر العربى فى مصر بمجرد دخول العرب فيها، فاللغة العربية لم تكن لغة المصريين قبل الفتح، والذين أسلموا من المصريين وعرفوا اللغة العربية كان من الصعب عليهم أن يُعبروا بهذه اللغة عن مشاعرهم وأهوائهم فى قالب شعري عربى، هذا الى جانب أن اتجاه المسلمين فى مصر الى الدراسات الدينية الاسلامية قد صرفهم عن الشعر.

وقد مر الشعر فى مصر بمرحلتين :

المرحلة الاولى : فترة العصر الأموى، وينتهى بالقرن الثانى للهجرة.

المرحلة الثانية : فترة العصر العباسى، ويضم القرنين الثانى والثالث للهجرة.

وبالنسبة للمرحلة الاولى وهى فترة العصر الأموى فيقول الدكتور محمد كامل حسين : إننا لا نجد فى مصر شعرا له قيمته إلا بعض المقطوعات التى

تسجل الحوادث التي كانت جارية في البلاد مثل : تنازل عبد الرحمن بن قيسبة عن داره لتكون مسجد الفسطاط، أو هجاء رؤساء القبائل العربية، أو مدح وال لموقف فعله، أو هجاء وال، أو رثاء وغير ذلك. على أننا - كما يقول الدكتور محمد كامل حسين - لا نجد شاعراً في مصر يقف في صف واحد مع فحول الشعر العربي بالعراق. . .

وهكذا اقتصر شعر هذه المرحلة على وصف الحوادث الجارية في قالب شعري، سواء كانت حوادث سياسية أو اقتصادية، فهو شعر تقريرى لا غناء فيه من الناحية الفنية، عدا الشعر الذى أنشده الشعراء الوافدون.

وبالنسبة للمرحلة الثانية وهى فترة العصر العباسى، فقد أدى تطور الحياة الأدبية المصرية، لظهور عدد كبير من الموالى ومن العرب الذين حاولوا محاكاة الشعر العربى، الى جانب قيام الثورات - فقد أدى ذلك الى إيقاظ روح الشعر فى مصر، فظهر الشعر ذو القيمة الفنية.

ويرى الدكتور محمد كامل حسين أنه منذ النصف الثانى من القرن الثانى للهجرة ظهر الشعر المصرى^(٣٥) الذى تظهر فيه بعض نواحي الشخصية المصرية، فلم يعد شعراء مصر ينشدون فى الحوادث التى وقعت بمصر، أو يفخرون برجال قبائلهم أو هجاء أعدائهم، إنما تنوعت أغراض الشعر وتعددت مقاصده، وأسهم شعراء مصر فى كل الأغراض التى عرفها الشعر المصرى.

ومن شعراء مصر فى عصرالولة :

الشاعر ابن ميادة المُرّى، وكذلك الشاعر أبو عثمان السكرى الذى ورد لنا من شعره :

(٣٥) لانجد شخصية مصر فى الشعر فى الأوزان، ولا فى القوافى، ولا فى الأسلوب، لأن الشعراء جميعاً خضعوا لتقاليد الشعر العربى وخصائصه، بل نجدهما فى الأخيلة الشعرية وفى المعانى، فالشعر المصرى صور الحياة المصرية أصدق تمثيل بحث أنك اذا قرأت هذا الشعر المصرى لا تستطيع أن تنسبه الى قطر عربى آخر غير مصر.

يَاقَيْسَ عَيْلَانِ إِنِّي نَاصِحٌ لَكُمْ أَدُوا الْخَرَاجَ وَخَافُوا الْقَتْلَ وَالْحَرِيًّا
 إِنِّي أَحْذَرُكُمْ يَحْيَى وَصَوْلَتَهُ فَمَا رَأَيْتُ لَهُ تَقِيًّا إِذَا غَضِبَا (٣٦)
 والشاعر أبو نجاد الحارثي ، والشاعر أحمد الحمراوى.

الشاعر أبو تمام حبيب بن أوس الطائى . (توفى بالموصل عام ٢٢٨هـ/٨٤٢م وقيل عام ٢٢٩هـ/٨٤٣م وقيل عام ٢٣١هـ/٨٤٥م وقيل عام ٢٣٢هـ/٨٤٦م). وقد على مصر وهو حدث السن، وأقام بالفسطاط يسقى العلماء والمتعلمين الماء فى حلقات الدرس بجامع عمرو، ويقال إن أول شعر أنشده كان فى مصر، لذلك عدّه مؤرخو مصر مصرى النشأة والتعليم والشعر، ومع ذلك فحياة أبى تمام فى مصر غامضة كل الغموض، فنحن لا نعلم شيئاً عن أساتذته المصريين الذين أخذ عنهم، ولكننا نستطيع أن نقول إنه كان فى مصر فى الوقت الذى نبغ فيه عدد من الشعراء، أمثال : سعيد بن عفير، والمعلّى الطائى، ويحيى الخولانى، ويوسف السراج وغيرهم. ومن كتبه : «فحول الشعراء» جمع فيه بين طائفة كبيرة من شعراء الجاهلية والاسلامية، وكتاب «الاختيارات من شعر الشعراء» وغير ذلك.

وخرج أبو تمام من مصر، ولكنه كان يحن إليها من حين لآخر، فكان يذكرها فى شعره، فهو يقول مرة :

بالشام أهلى ويغداد الهوى وأنا بالرقمتين، وبالفسطاط إخوانى
 وما أظن النوى ترضى بما صنعت حتى تشافه بى أقصى خراسان
 خلفت بالافق الغريى لى سكنا قد كان عيشى به حلوا بطوان

الشاعر زرعة بن سعد الله بن أبى زَمَمة.
 الشاعر زياد بن قائد اللَّخْمى .

(٣٦) والمناسبة التى قيل فيها هذا الشعر هى امتناع أهل الحوف عن أداء الخراج فى ولاية الحسين بن جميل من قبل الرشيد (١٩٠ - ١٩٢هـ / ٨٠٥ - ٨٠٧م) فأرسل الرشيد جيشاً لمحاربتهم بقيادة يحيى بن معاذ.

الشاعر الشمر بن نمير، أبو عبد الله. رحل من قرطبة الى المشرق،
واستوطن مصر، روى عنه عبد الله بن وهب (المتوفى عام ١٩٧هـ / ٨١٢م)
وغيره، وتوفى بها .

سرج الغول، وهو رجل من أهل مصر عالم باللغة والشعر .

الشاعر سعيد بن عفير. رثى والى مصر عمير بن الوليد
(٢١٤هـ / ٨٢٩م) بقوله :

سَاقَتْ عُمَيْرٌ إِلَى مِصْرَ مَنِيئُهُ بِإِمْرَةٍ لَمْ يَكُنْ فِيهَا بِمَسْعُودٍ
حَتَّى أَتَتْهُ الْمَنَآيَا وَهُوَ مُلْتَحِفٌ ثَوِيَيْنِ مِنْ حَبِرَاتِ الْبَاسِ وَالْجُودِ

الشاعر سليمان بن أبان بن أبي حدير الأنصاري ، كان من شعره
فى رثاء عبد العزيز بن مروان وابنه الأصبح :

فَمَنْ ذَا الَّذِي يَبْنِي الْمَكَارِمَ وَالْعُلَى وَمَنْ ذَا الَّذِي يَهْدِي لهُ بَعْدَكَ السُّفْرُ
فَكُنْتُ حَلِيفَ الْعُرْفِ وَالْخَيْرِ وَالنَّدَى فَمِثْنُ جَمِيعاً حِينَ غَيْبِكَ الْقَبْرِ

الشاعر عبد الرحمن بن الحكم، والشاعر عيسى بن شافع ،
والشاعر الخطريف الحميري، والشاعر محمد بن عمرو بن الوليد بن
عقبة، ذو الشامة الذى رثى عبد العزيز وابنه الأصبح أيضا .

الشاعر محمد بن القاسم، أبو الحسن المعروف بمانى الموسوس. من
أهل مصر، ورحل الى بغداد أيام المتوكل (٢٣٢- ٢٤٧هـ / ٨٤٦- ٨٦١م)،
وصفه ابن زولاق بأنه كان من أظرف الناس وأطفهم. ويقول عنه الأصفهاني
: شاعر لين الشعر رقيقه، لم يقل شيئا إلا فى الغزل. ومن شعره :

وَقُيِّمْتُ أَنَا جَى الْقَلْبِ وَالنَّمْعِ جَانِرُ بِمُقَلَّةٍ مَوْقُوفٍ عَلَى الْخُرِّ وَالْجَهْدِ
وَلَمْ يُغْدِنِي هَذَا الْأَمِيرُ بَعْدَلَهُ عَلَى ظَالِمٍ قَدْ لَجَّ فِي الْهَجْرِ وَالصُّدِّ

وقال أيضا :

فَتَنَفَّسْتُ ثُمَّ قُلْتُ لَطِيفِي وَبِكَ إِنْ زِدْتَ طِيفَهَا إِمَاماً
حَايَهَا بِالسَّلَامِ سِرّاً وَإِلَا مَنَعُوهَا لَشَقْوَتِي أَنْ تَنَاماً

ومن الشعراء كذلك في عصر الولاة : الشاعر مرسل بن حمير الذي
رثى والى مصر حفص بن الوليد، والشاعر مسرور الخولاني الذي رثى
كذلك حفص بن الوليد وأصحابه بقوله .

قَلَا خَيْرَ فِي الدُّنْيَا وَلَا الْعَيْشَ بَعْدَهُمْ

فَكَيْفَ وَقَدْ أَضْحَوْا بِسَفْحِ الْمَقْطَمِ

الشاعر مُعَلَّى الطائى.

الشاعر معلى بن المعلى الطائى. كان في مدة هارون الرشيد، ممن
عاصر أبا نواس من شعراء المائة الثانية.

شاعر يحيى بن الفضل وقد ورد لنا من شعره:

بُنْسَ وَاللهَ مَا صَنَعْتَ إِلَيْنَا حِينَ وَلَّيْتَنَا أَمِيرًا مُصَنَّبًا
خَارِجِيًّا يَدِينُ بِالسَّيْفِ فِينَا وَيُرَى قَتْلَنَا جَمِيعًا صَوَابًا (٣٧)

ومن الشعراء الوافدين في عصر الولاة :

الشاعر أيمن بن خُرَيْم الأسدي، دخل مصر أيام عبد العزيز بن
مروان (٦٦٥-٨٦٤هـ / ٦٨٤-٧٠٥م).

الشاعر جميل بن عبد الله بن مَعْمَر، أبو عمرو (صاحب بئينة). قدم
مصر على عبد العزيز بن مروان مائحا، فأنن له وسمع مدائحه، وأحسن
جائزته. وعندما سأله عن بئينة وسمع حكايته وعده بابتناء منزل له ولها،
وأمر له بالمنزل وما يصلحه، فما أقام إلا قليلا حتى مات بمصر في عام
٨٢٢هـ / ٧٠١م ومن شعره :

لَقَدْ خِفْتُ أَنْ يَغْتَالَنِي الْمَوْتُ عَنُودًا	وفى النفس حاجاتُ إليك كما هيا
وَأَنْى لَتَشْتَنِى الْحَفِيظَةُ كُلَّمَا	لَقِيْتُكَ يَوْمَا أَنْ أَبْثُكَ مَايِيَا
أَلَمْ تَعْلَمْ يَا عَذْبَةَ الرِّيقِ أَنْنى	أُظِلُّ إِذَا لَمْ أَسْقِ رَيْقَكَ مَآيِيَا

(٣٧) وقد قيل هذا الشعر بمناسية تولية عنبسة بن اسحاق ولاية مصر من قبل المنتصر
(٢٣٨ - ٢٤٢هـ / ٨٥٢ - ٨٥٦م) وكان مشهورا بمذهب الخوارج.

الشاعر عبد الله بن قيس الرقيات. وفد على عبد العزيز بن مروان في مصر، وله شعر في مدحه، ومن شعره الذي ورد اليينا :

رُقِيَ بِعَيْشِكُمْ لَا تَهْجُرِينَا وَمَنْحَيْنَا الْمُنَى ثُمَّ امْطَلِينَا
عِدِينَا فِي غَدٍ مَا شِئْتِ إِنَّا نَحِبُّ وَإِنْ مَطَلَتْ الْوَاءُ عِدِينَا

الشاعر كُثَيْرُ بن عبد الرحمن، أبو صخر المعروف بكثير عزة. من فحول شعراء الاسلام، من الطبقة الاولى، وفد على عبد العزيز بن مروان، وكان يأتى الى مصر في زيارات متكررة لرؤية عزة. توفى عام ١٠٥هـ / ٧٢٣م. ومن شعره :

قضى كل ذي دين فوفى غريمه وعزة ممطولُ معنى غريمها

وقال :

لعزة نارُ ما تبوخ كأنها اذا ما رمقناها من البعد كوكبُ

وقال أيضا :

يُكَلِّفُهَا الْخَزِيرُ شَتْمِي وَمَا بَهَا هَوَانِي وَلَكِنْ لِلْمَلِكِ اسْتَنْذَلْتُ

الشاعر نُصَيْبُ بن رباح، أبو محجن ملى عبد العزيز بن مروان (ت عام ١٨٠هـ / ٧٩٦م) من الطبقة السادسة من شعراء الاسلام، كان بمصر أيام عبد العزيز بن مروان، وعندما توفى عبد العزيز رثاه بقوله

أصبتُ يومَ الصَّعِيدِ مِنْ سَكَّرٍ مَصِيبَةٍ لَيْسَ لِي بِهَا قَبْلُ
تَاللَّهِ أَنْسَى مَصِيبَتِي أَبَدًا مَا أَسْمَعْتَنِي حَنِينَهَا الْإِبْلُ

الشاعر عمرو بن عبيد المعروف بالحزين الكنانى. وفد على مصر في ولاية عبد الله بن عبد الملك (٨٦ - ٩٠هـ / ٧٠٥ - ٧٠٨م).

الشاعر ربيعة بن ثابت الرقي (ت عام ١٩٨هـ / ٨١٣ م) وله قصيدة مدح بها يزيد بن حاتم والى مصر عندما جاء اليه فى أثناء ولايته (١٤٤-١٥٢هـ/ ٧٦١-٧٦٩م)، يقول فيها :

لشئان مابين اليزيديين فى الندى يزيد سليم والأغر ابن حاتم
ومن شعره الذى ورد الينا :

اعتاد قلبك من حبيب، عيده شوق عراك فانت عنه تدو
والشوق قد غلب الفؤاد فقاد والشوق يغلب ذا الهوى فيقوده

الشاعر محمد بن عبد الله بن مسلم، ابن المولى كان مداحا ليزيد بن حاتم، وقد قدم مصر وأنشده بها قصيدة مدح يقول فيها :

يا واحد العرب الذى اضحى وليس له نظير
لو كان مثلك آخر ما كان فى الدنيا فقير

الشاعر الحسن بن هانىء، أبو على المعروف بأبى نواس (ت عام ١٩٥هـ/ ٨١٠ م وقيل عام ١٩٦هـ/ ٨١١ م وقيل عام ١٩٨هـ/ ٨١٣ م) ببغداد، وقد قدم أبو نواس مصر على الخصيب صاحب ديوان خراج مصر عام ١٩٠هـ/ ٨٠٥م، وقد اتصل هذا الشاعر بالمصريين أكثر من اتصال الشعراء الواقدين، فالمؤرخون يجمعون على أن المصريين عندما علموا بوجوده فى مصر تسابقوا لمصاحبته، وتدوين شعره، لذلك فقد تأثر المصريون به. وقد أقام أبو نواس فى مصر قرابة عام. ومن شعره الذى ورد الينا :

الكل حى مالك وابن مالك وذو نسب فى الهالكين عريق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشف له عن غدو فى ثياب صديق

ومن شعره أيضا :

يارب ان عظمت نذوبى كثرة	فلقد علمت بان عفوك أعظم
ان كان لا يدعوك إلا محسن	فمن الذى يرجو ويدعو المجرم
أدعوك رب كما أمرت تضرعا	فاذا رددت يدى فمن ذا يرحم
مالى إليك وسيلة إلا الرجا	وجميل عفوك ثم انى مسلم

وقال أيضا يخاطب الخليفة محمد الأمين :

بك استجير من الردى	متعوذا من سطوباسك
وحياة رأسك لأعوذ	لمثلها، وحياة رأسك
من ذا يكون أبا نواسك	إن قتلت أبا نواسك

الشاعر دُعبل بن على الخزاعى، أبو عبد الله (ت عام ٢٤٦هـ / ٨٦٠م)، دخل مصر فى ولاية المطلب بن عبد الله الخزاعى، ولم توضح لنا المصادر هل كان دخوله مصر فى ولاية المطلب بن عبد الله الأولى (عام ١٩٨هـ / ٨١٣م) وكانت لمدة سبعة أشهر ونصف، أو فى ولايته الثانية (عام ١٩٩- ٢٠٠هـ / ٨١٤ - ٨١٥م). على أية حال فقد ولاه المطلب بن عبد الله على أسوان، غير أن دُعبل هجاه بعد ذلك، لأنه - كما يقول الأصفهاني - لم يرض ما كان منه إليه فأنفذ إليه المطلب كتاب العزل مع مولى له وقال : انتظره حتى يصعد المنبر يوم الجمعة، فاذا علاه فأوصل الكتاب اليه، وامنعه من الخطبة، وأنزله عن المنبر، واصعد مكانه

فلما أن علا المنبر، وتَنَحَّج ليخطب، ناوله الكتاب، فقال له دُعبل : دعنى اخطب، فاذا نزلت قرأته قال : لا، قد أمرنى أن أمنعك الخطبة حتى تقرأه، فقرأه، وأنزله عن المنبر معزولا

الشعر فى الدولة الطولونية :

وقد استمر تيار الشعر يقوى فى مصر - كما يقول الدكتور محمد كامل حسين - حتى كان النصف الثانى من القرن الثالث، أى فى عصر الطولونيين

والأخشيديين، فنرى عددا كبيرا من الشعراء المصريين ويزعم أحد المؤرخين أنه رأى كتابا قدرُ اثنتى عشرة كراسة، مضمونة فهرست شعراء الميدان الذى لأحمد بن طولون، فإذا كانت أسماء الشعراء فى اثنتى عشرة كراسة، فكم يكون شعرهم، وبالرغم مما فى هذا القول من مبالغة، فلا نغالى إذا قلنا إن عددا كبيرا من الشعراء تجمعوا فى بلاط الطولونيين الذين كانوا أهل بذخ وكرم، وأرادوا أن يجعلوا من مدينتهم التى بنوها (القطائع) مركزا أدبيا شبيها ببغداد، فكثرت حولهم الشعراء المتكسبون الذين سجلوا فى أشعارهم مآثر الطولونيين وما شيدوه من مباني وغير ذلك.

وقد تطورت فنون الشعر وأغراضه فى الدولة الطولونية، إذ ظهر فن جديد فى مصر لم يسبق إليه أحد وهو فن رثاء الدول. وذلك بعد سقوط الدولة الطولونية وهدم الميدان، فقام جماعة من الشعراء المصريين ببيكون الدولة الطولونية ويتحدثون عن أيامها السعيدة والمباني التى أنشأتها، وكيف أصبحت بعد هدمها.

ومن الشعراء فى الدولة الطولونية :

الشاعر أحمد بن أبى يعقوب ، والشاعر أحمد بن اسحق الذى قال
بيكى الدولة الطولونية والميدان :

وإذا ما أردت أعجوبة الدهر	تراها فانظر إلى الميدان
تنظر البث والهموم وأنوا	عاً توألت به من الأشجان
يعلم العالم المبصر أن الدهر	فيما نراه ذو ألوان
أين ما فيه من نعيم ومن عي	شر رضى ونضرة وحسان

والشاعر أحمد بن محمد الحبشى ، والشاعر اسماعيل بن أبى هاشم ، والشاعر جعفر ابن جدار (أو ابن حذار كما يذكره ياقوت) الذى كان وزيرا للعباس بن أحمد بن طولون عندما ثار على أبيه، وعندما قبض على العباس، انتقم أحمد بن طولون من ابن جدار، فضرب ثلاثمائة سوط،

وقطع يديه ورجليه من خلاف، ويقال إنه لم تمض أيام حتى مات. وكانت له قصيدة يحرض فيها العباس منها :

اِذَا مَمَتَّ فَلَا تَرْجِعْ وَقُمْ وَثَبْ فإنت أرفع من يسمو الى الرُّتَبِ
الشاعر الحسين بن عبد السلام، أبو عبد الله المصري المعروف بالجمل الأكبر (ت عام ٢٥٩هـ / ٨٧٢م وقيل عام ٢٥٨هـ / ٨٧١م). من شعراء الفسطاط في الدولة الطولونية.
يذكر ابن اياس أنه في أيام أحمد بن طولون تطايرت النجوم، فأحضر أرباب الفلك وسألهم فلم يجيبوا، فدخل عليه «الجمل» وأنشده هذه الأبيات:

قالوا تساقطت النجومُ	لصادقاً بدا عسير
فأجبت عند مقالهم	بجواب محنتك خبير
هذي النجومُ الساقطاتُ	رجومُ أعداءِ الأمير

فتفاعل أحمد بن طولون بذلك، وأخلع عليه خلعة سنية.
كما مدح أحمد بن المدبر صاحب خراج مصر، وكانت من عادته أن الشاعر إذا مدحه إن ارتضى شعره وصله، وإن لم يرتضه أمر من يحمله الى المسجد حتى يصلى عددا معلوما يفرضه عليه، فرفع له هذه الأبيات المشهورة :

قَصَدْنَا فِي أَبِي حَسَنٍ مَدِيحاً	كما بالمدح تُنَجِّجُ (٣٨) الوُلاةُ
فقالوا يقبل المدحيات لكن	جوائزه عليهن الصلاةُ
فقلت لهم وما تغني صلاتي	عياي إنما الشأن الزكاةُ
فيأمر لي بكسر الصناد منها	فتصبح لي الصلاة هي الصلاتُ

فاستطرف مقصده، وأمر له بإحسان واشتهرت الحكاية.
الشاعر سعيد القاص ومن شعره في رثاء الدولة الطولونية والميدان :
وَكأنَّ المِيدانَ كُلِّيَّ أصيَّبَتْ بحبيب صباح ليلة عُرس

(٣٨) أنتجع فلانا: اتاه طالبا معروفا.

العباس بن أحمد بن طولون. يقول عنه ابن سعيد : إنه كان له شعر يدخل به فى شعراء الملوك والأمراء.

عبد الله بن محمد، أبو العباس الناشئ (ت عام ٢٩٣هـ / ٩٠٥م) أقام ببغداد مدة، ثم رحل عنها ودخل مصر، وأقام بها حتى مات، وكان شاعرا ماهرا، وله شعر جيد.

القاسم بن يحيى بن معاوية المريمى المصرى. من شعراء مصر المشهورين الذين دونت أشعارهم، وكان مختصا بخدمة أبى الجيش خمارويه ابن أحمد بن طولون.

الشاعر قعدان بن عمرو. من شعراء أحمد بن طولون، وله قصائد يمدحه فيها.

الشاعر محمد بن داوود. من الشعراء الذين كانوا ينقمون على أحمد بن طولون ويسبونه، ومن قصيدته التى قالها بعد وفاة أحمد بن طولون :

وَكَمْ تَبَكَهُ الْأَرْضُونَ لَكِنْ تَبَسُّمْتُ	سُرُورًا وَلَوْلَا مَوْتُهُ لَمْ تَبَسُّمُ
يُبَشِّرُهُ إِبْلِيسُ عِنْدَ قُدُومِهِ	عَلَيْهِ بِأَحْمَى بَقْعَةٍ فِي جَهَنَّمَ
لَقَدْ طَهَرَتِ الْأَرْضُ مِنْ سُوءِ فِعْلِهِ	وَمِنْ وَجْهِ ذَاكَ الْكَرْبَةِ الْمُورِمِ

الشاعر محمد بن طشويه ومن شعره فى رثاء الدولة الطولونية والميدان :

مَنْ لَمْ يَرَ الْهَدْمَ لِلْمَيْدَانِ لَمْ يَرَهُ	تَبَارَكَ اللَّهُ مَا أَعْلَاهُ وَأَقْدَرُهُ
لَوْ أَنَّ عَيْنَ الذِّى أَنْشَأَهُ تُبْصِرُهُ	وَالْحَادِثَاتُ تَعْلَاهُ لِأَكْبَرِهِ

ويقول فى نفس القصيدة أيضا :

دُكَّتْ مَنَاطِرُهُ وَاجْتَثَّتْ جَوَائِزُهُ	كَأَنَّمَا الْخَسْفُ فَاجَأَهُ قَدْمُهُ
أَوْ هَبَّ إِعْصَارُ نَارٍ فِي جَوَانِبِهِ	فَعَادَ مَعْرُوفُهُ لِلْعَيْنِ مُنْكَرُهُ

ثم يقول :

أَيَّنَ أَبْنُ طُولُونَ بِأَنِيهِ وَسَاكُنُهُ أَمَاتَهُ الْمَلِكُ الْأَعْلَى فَأَقْبَرُهُ

الشاعر منصف بن خليفة الهذلي، من شعراء أحمد بن طولون، وكانت له قصائد يمدحه فيها، منها :

يَا غُرَّةَ الدُّنْيَا الَّذِي أَفْعَالُهُ غُرَّرَ بِهَا كُلُّ الْوَرَى تَتَعَلَّقُ
أَنْتَ الْأَمِيرُ عَلَى الشَّامِ وَتَغْرِيهَا وَالرُّقَّتَيْنِ وَمَا حَوْلَاهُ الْمَشْرِقُ
وَالِيكَ مِصْرُ وَبِرَّقَةُ وَحِجَازُهَا كُلُّ إِلَيْكَ قُوَادُهُ مُسَقَّشَوُقُ

ومن الشعراء الذين توفوا قبل العصر الاخشيدى :

منصور بن اسماعيل، أبو الحسن الفقيه (٣٠٤هـ / ٩١٦م وقيل عام ٣٠٦هـ / ٩١٨م) بمصر، كان من علماء الفسطاط، دخل بغداد ومدح بها الخليفة المعتز، كان فقيها ولزمه التعريف بالفقيه، وله مقطعات كثيرة في الزهد والحكم والامثال، منها قوله:

قَالُوا الْعَمَى مَنْظَرٌ قَبِيحٌ قُلْتُ لَفَقْدَى لَكُمْ يَهُونُ
تَاللهِ مَا فِي الْأَنَامِ خَسِيرٌ تَأْسَى عَلَى فَقْدِهِ الْعَيُونُ

الشعر في الدولة الاخشيدية :

وفي العصر الاخشيدى ظهر نوع جديد من فنون الشعر، وهو فن شعر الديارات، فقد كان الشعراء يخرجون الى هذه الأديرة الكثيرة المنتشرة في مصر، حيث أقيمت هذه الأديرة في أماكن هادئة عرفت بجمال طبيعتها، فيصفونها ويصفون بعض مظاهر الطبيعة حولها، كما يصقون لهوهم فيها (٣٩).

(٣٩) ومن الديارات التي كانت تقصد للشرب وللتنزه فيها: دير القصير (بالقرب من حلوان)، ودير مرجنا (على شاطئ بركة الحبش)، ودير نهيا (بالجيزة)، ودير طمويه (في الغرب بازاء حلوان).

ومن شعراء الدولة الاخشيدية :

أحمد بن أبى عاصم، أبو هريرة المصرى من شعراء الاخشيد. من أصحاب النوادر والمجون والادمان على شرب الخمر، وله شعر فى وصف مجالس الشرب

أحمد بن صدقة الكاتب.

أحمد بن محمد بن اسماعيل بن القاسم بن ابراهيم بن طباطبا، أبو القاسم (ت عام ٣٤٥هـ / ٩٥٦م وقيل عام ٣٥٢هـ / ٩٦٣م). كان شاعرا ماهرا، وله شعر جيد فى الزهد والغزل. ومن شعره الذى ورد الينا :

عَيَّرْتَنِي بِالنَّوْمِ جَوْرًا وَظَلَمًا	قلت: زدت الفؤاد همًّا وغمًّا
اسمع حُجَّتِي وَإِنْ كُنْتُ أَدْرِي	أَنْ عَذْرَى يَكُونُ عِنْدَكَ جُرْمًا
لَمْ أَتُمْ لَذَّةً وَلَا تَمَتُّ إِلَّا	طَمَعًا فِي خِيَالِكُمْ أَنْ يُلْمَا

ومن شعره أيضا :

ما اخترتُ تبديلَ المودة ساعة	بعد الذى هجر الحمى وجفانى
أنا ذاك لا عهدى يُغَيِّرُ بالنوى	أبدا ولا وجهى يميلُ لثانى
وَإِذَا وَثِقْتُ بُوْدُ مِنْ أَحْبَبْتُهُ	فبِعَادُهُ وَدَثْوُهُ سَيِّئَانِ

أبو القاسم سعيد المعروف بقاضى البقر كان من شعراء أبى الجيش بن طولون، وكان يبيت عند الاخشيد يحادثه ويسامره.

صالح بن رشدين.

القاسم بن أحمد الرسى، أبو محمد ابن الشاعر ابن طباطبا. كان حسن الشعر، وقد أدرك الدولة الفاطمية.

محمد بن أحمد بن الربيع بن سليمان، أبو رجاء الأسوانى (ت عام ٣٣٥هـ / ٩٤٦م) يقول عند الانفوى : إنه كان أدبيا فصيح اللسان، وله نظم، ومن نظمه قصيدة ذكر فيها أخبار العالم، وذكر فيها قصص الانبياء نبيا نبيا.

محمد بن عاصم. يذكر ابن اياس أنه فى زمن كافور وقعت زلزلة عظيمة بمصر، فخاف الناس من ذلك وهربوا الى الصحارى، وظنوا أنها القيامة، فدخل محمد بن عاصم الشاعر على كافور وأنشده قصيدة عظيمة من جملتها هذا البيت :

ما زلزلت مصر من خوف يراد بها لكنها رقصت من عدله طريا

فتفاعل كافور بذلك، وأجاز محمد بن عاصم بألف دينار.

ومن الشعراء الوافدين فى الدولة الاخشيدية :

محمود بن محمد بن الحسين، أبو الفتح المعروف بكشاجم (ت عام ٣٥١هـ / ٩٦٢م) أقام بمصر، ثم رحل عنها، فكان يتشوق اليها، ثم عاد اليها فقال :

قد كان شوقى الى مصر يُؤرِّقنى فالآن عُدْتُ وعادت مصرُلى دارا

ومن كتبه : كتاب أدب النديم، كتاب الرسائل، كتاب ديوان شعره.

أحمد بن الحسين، أبو الطيب المعروف بالمتنبى (٣٠٣- ٣٥٤هـ / ٩١٥- ٩٦٥م). كان المتنبى قد وفد على مصر عام ٣٤٦هـ / ٩٥٧م مانحا أميرها كافور الاخشيدى، وأقام بمصر مدة أربع سنوات، اتصل فيها بعدد كبير من شعراء مصر وأدبائها.

ومن أشهر الأدباء الذين اتصل بهم ونقدوه سيبويه، فقد نقد سيبويه بيتا له من الشعر قال فيه :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوا له ما من صداقته به

فقال : الصداقة ضد العداوة، والصداقة مأخوذة من الصدق، ولو كان قال :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوا له ما من مداراته بد

لكان أحسن وأجود

ثانيا : النثر :

والمقصود بالنثر - كما يقول الدكتور محمد كامل حسين - الكتابة الفنية التى يتعمد فيها الكاتب الأناقة فى التعبير، ومحاولة السمو بالأسلوب الى مستوى رفيع هو مستوى كتابة الطبقة التى نالت حظا كبيرا من الثقافات المختلفة، وظهر أثر خيالهم وعاطفتهم فى كتاباتهم، فإذا بنا نرى فى هذه الكتابة صورا فنية لا تختلف عن الصور التى فى الشعر فى شىء.

وقد مر النثر فى مصر (خاصة فى فترة دراستنا من الفتح حتى بداية العصر الفاطمى) بمرحلتين:

المرحلة الأولى : وتمتد من الفتح حتى قيام الدولة الطولونية ٢٥٤هـ / ٨٦٨م. **والمرحلة الثانية :** وتبدأ مع قيام الدولة الطولونية على يد مؤسسها أحمد ابن طولون.

وبالنسبة للمرحلة الأولى فلم يكن لهم عناية بديوان الانشاء، ويرجع السبب فى ذلك الى أن الولاة لم يكن لهم سلطة تامة فى شئون البلاد إلا بعد مراجعة مركز الخلافة، هذا بالإضافة الى أن اللغة العربية كانت فى محيط ضيق لا يتحدث بها إلا قبائل العرب وبعض الموالى، وأن اللغة الرسمية فى مصر كانت اليونانية حتى أمر عبد الملك بن مروان بتعريبها عام ٨٧هـ / ٧٠٥م. لذلك فلا يوجد لتاريخ النثر الفنى ما يكفى للحديث عنه فى عصر الولاة.

أما بالنسبة للمرحلة الثانية للنثر فى مصر والتى تبدأ مع قيام الدولة الطولونية ، فقد ترتب ديوان الانشاء بها، مع اهتمام أحمد بن طولون به، بحيث نافس به ديوان الانشاء فى بغداد.

وكان من شدة رغبة أحمد بن طولون أن تصدر الرسائل على درجة كبيرة من الاتقان، أنه أنشأ ديوان «التصفح» لمراجعة ما يكتبه كتاب الانشاء.

وأول من تولى ديوان الانشاء الذى رتبهُ أحمد بن طولون هو :

محمد بن أحمد بن مؤدود، أبو جعفر المعروف بابن عبد كان. كان كاتباً لأحمد بن طولون ثم لخمارويه من بعده، وهو أول الكتاب المشهورين بمصر، وقد اشتهر بالبلاغة وحسن الكتابة.

وقد تولى ديوان الانشاء بعد ابن عبد كان :

اسحق بن نصير، أبو يعقوب الكاتب البغدادى (ت عام ٢٩٧هـ / ٩٠٩م). وكان قد وفد على مصر، فاتصل بابن عبد كان رئيس « ديوان إنشاء مصر، والتمس التصرف، فقال له ابن عبد كان : فيماذا تتصرف؟ فقال اسحق : فى المكاتبات والأجوبة والترسل. وكان بين يدي ابن عبد كان كتب قد وردت فقال لاسحق : خذ هذه وأجب عليها. فأخذها ومضى الى ناحية من الدار فأجاب عنها، ثم وضع خفه تحت رأسه ونام، وقام ابن عبد كان إلى الحجرة التى له، فاجتاز بأبى اسحق والكتب بين يديه، فأخذها وقراها، فلما تأملها جعل يروح اسحق بن نصير حتى انتبه، فقال له : عمن أخذت الكتبة؟ وعينه فى الديوان، وأجرى عليه أربعين ديناراً فى كل شهر، فلم يزل يعمل معه حتى توفى ابن عبد كان، فال أمر ديوان الانشاء الى على بن أحمد الماذرائى فقال لاسحق : ألزم منزلك، فانصرف. فوردت كتب، فأجاب عنها الماذرائى، ودخل بها على أبى الجيش خمارويه، فعرض الأجوبة عليه، فقال له خمارويه: ما هذه الألفاظ التى كانت تخرج منى وعنى! فمضى الماذرائى وعاد اليه مرة أخرى، فلم يقبل خمارويه الأجوبة، فاضطر الماذرائى الى استدعاء اسحق بن نصير، وطلب منه أن يجيب عن الرسائل ففعل، ودخل بها الماذرائى على خمارويه، فقرأ الأجوبة التى كتبها اسحق فقال: نعم، هذا الذى أعرف، ايش الخبر؟ فقال له : كاتب كان مع ابن عبد كان فاعتزل. وأحضرته الساعة، فقال : هاته! فأحضره، فجعل له خمارويه مرتباً شهرياً قدره أربعمائة دينار، وأمره أن يلازمه. فمكث اسحق بن نصير فى عمله، ورفع رزقه الى ألف دينار فى الشهر.

ومن كتاب العصر الطولوني أيضا :

محبوب بن رجاء، أبو الضحاك. وقد استكتبه أحمد بن طولون عام ٢٦٤هـ / ٨٧٧ م. وقال عنه ابن عبد كان : «لم يكن بالكامل، إلا أنه كان حاضر الذهن، حلو الألفاظ».

وقد حبسه أحمد بن طولون وصادر أمواله، حتى مرض مرضه الذي توفي فيه، فأخرجه من السجن، ورد إليه جميع ما كان أخذ منه.

أحمد بن محمد الواسطي الكاتب. دخل مصر مع أحمد بن طولون، وكان كاتبه وموضع سره.

حسن بن مهاجر. أصله من الرقة، وقد استكتبه أحمد بن طولون، وأمره بمائة ألف دينار، وقد وصفه ابن عبد كان بقوله : «وأما ابن مهاجر، فوقور النفس، مستصغر لنصيحة من ينصحه، بعيد الغور، لا يؤثر على توفير مال صاحبه».

جعفر بن جدار. كان من الكتاب، وقد سبق ذكره في الشعراء.

أحمد بن أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم الكاتب المعروف بابن الداية توفي حوالى عام ٣٤٠هـ / ٩٥١م، كان من جلة الكتاب بمصر، وممن له دراية بعلوم كثيرة فى الأدب والطب والنجامة والحساب وغير ذلك.

جعفر بن عبد الغفار المصرى ويذكر البلوى أنه لم يكن كفتا فى عمله إلا أن أحمد بن طولون كان يحتمله لأنه مصرى.

يعقوب بن اسحق، أبو يوسف. دخل مصر مع أحمد بن طولون، إلا أن ابن طولون سجنه بعد ذلك .

أحمد بن أيمن. وقد ذكر البلوى أن أحمد بن طولون قد سجنه لعدم أمانته، وظل فى سجنه حتى مات أحمد بن طولون.

النثر فى العصر الاخشيدى :

وعن النثر فى العصر الاخشيدى تقول الدكتورة سيدة كاشف : « كان حظ النثر الفنى أعظم من حظ الشعر فى العصر الاخشيدى. وكان فى هذا النثر المسحة العراقية، والميل الى السجع، والمزاوجة مع إطناب فى اللفظ، وتكرار المعنى، واقبال على الجمل القصيرة ».

ومن كتاب العصر الاخشيدى :

ابراهيم بن عبد الله النجيرمى، أبو اسحاق. وكان زعيم الكتاب فى هذا العصر، يقول عنه ابن سعيد : « كان عالما بوجوه الكتابة ».

على بن محمد بن كلا الذى كان كاتباً للأخشيد ورسوله الى العراق وثقته، وقد قبض عليه الاخشيد فى آخر عام ٣٢٢هـ / ٩٣٣م وصادر أمواله هو وأهله.

ومن أدباء العصر الاخشيدى :

سيبويه المصرى، محمد بن موسى بن عبد العزيز الكندى المصرى، أبو بكر. ولد عام ٢٨٤هـ / ٨٩٧م وتوفى عام ٣٥٨هـ / ٩٦٨م. يقول عنه ياقوت : كان عارفاً بالنحو والمعانى والقراءة والاعراب والاحكام وعلوم الحديث والرواية، وله معرفة بأخبار الناس والنوادر والاشعار والفقه على مذهب الشافعى، جالس ابن الحداد الفقيه الشافعى، وسمع من أبى عبد الرحمن النسائى، وأبى جعفر الطحاوى، وكان يتكلم فى الزهد وأحوال الصالحين، اجتمعت فيه أدوات الأدباء والفقهاء والصلحاء، وبلغ ذلك مبلغاً جالس به الملوك، وكان يظهر الكلام فى الأسواق فى الاعتزال، ومرض بمرض السوداء حتى توفى.

وهذا بالنسبة لأنواع الدراسات فى المرحلة الأولى من تاريخ الحركة الثقافية فى مصر، وهى الفترة الممتدة من بداية الفتح العربى حتى بداية حركة الترجمة، وكانت الدراسة فيها - كما ذكرنا - مقتصرة على نوعين

من الدراسات :

النوع الأول : الدراسات الدينية.

النوع الثانى : الدراسات الأدبية.

وستتناول فى الصفحات القادمة حركة الترجمة وأثرها فى إضافة نوع جديد من الدراسات - وهى العلوم الفلسفية - الى الدراسات السابقة، مما دفعنا الى اعتبارها بداية مرحلة جديدة فى تاريخ الحركة الثقافية فى مصر.

حركة الترجمة :

وقد بدأت المحاولات الأولى للترجمة خلال العصر الأموى، إلا أنها كانت فى الغالب جهودا فردية، وعلى نطاق ضيق، واقتصرت على العلوم العملية كالطب والفلك، والعلوم العقلية (كالمنطق والفلسفة والهندسة).

وكان خالد بن يزيد بن معاوية ويسمى حكيم آل مروان، أول من عنى بنقل علوم الطب والكيمياء الى العربية. فقد أمر باحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين الذين كانوا يقيمون بمصر، ولهم إلمام بالعربية، وطلب منهم نقل كتب الصنعة (الكيمياء) من اليونانية والقبطية الى العربية، فكان هذا أول نقل الى العربية فى الاسلام. كما طلب منهم أن يترجموا له كتب جالينوس فى الطب، فوضع بذلك أساس التعاليم الطبية.

أما عمر بن عبد العزيز فقد اهتم بالدراسات اليونانية أثناء وجوده فى مصر أثناء خلافة سليمان بن عبد الملك، وفى مصر تعرف بابن أبجر مدرس الفلسفة اليونانية فى الاسكندرية، وكان موجودا فى الاسكندرية منذ زمن الفتح.

وقد شجع عمر بن عبد العزيز تعريب كتب الطب، فأمر بنشر كتاب الطب الشرعى الذى نقله الى العربية طبيب البصرة ماسرجويه (٤٠) فى عهد الخليفة مروان بن الحكم وقد وجده فى خزائن الكتب بالشام.

(٤٠) ذكره ابن أبى أصيبعة باسم (ماسرجيس) وقال : كان ناقلا من السريانى الى العربى، ومشهورا بالطب، وله من الكتب : كتاب قوى الأطعمة ومنافعها ومضارها - كتاب قوى العقاقير ومنافعها ومضارها.

وما لبثت حركة الترجمة أن اتسعت في العصر العباسي الأول في خلافة المنصور (١٣٦- ١٥٨هـ / ٧٥٣- ٧٧٤م) الذي كان شغوفا بالطب والهندسة ويعتقد بالنجوم. وقد راسل ملك الروم يطلب منه كتب الحكمة، فبعث اليه كتاب اقليدس (٤١)، وبعض كتب الطبيعيات، وجمع حوله العلماء، وشجعهم على ترجمة العلوم من اللغات الأخرى. فهو أول خليفة ترجمت له الكتب السريانية والأعجمية بالعربية، ككتاب كلية ودمنة واقليدس.

وقد زادت العناية بترجمة الكتب في عهد هارون الرشيد (١٧٠- ١٩٣هـ / ٧٨٦- ٨٠٨م) بعد أن وقع في حوزته بعض المدن الرومية الكبرى، فأمر بترجمة ما عثر عليه من كتب اليونان. كما نشطت حركة الترجمة في عهده بفضل تشجيع البرامكة للمترجمين، وإدراك الأرزاق عليهم.

وفي عهد المأمون (١٩٨- ٢١٨هـ / ٨١٣- ٨٣٣م) قويت حركة النقل والترجمة من اللغات الأجنبية، وخاصة من اليونانية والفارسية الى العربية. ولكي يتم هذا النقل على أكمل وجه أنشأ في بغداد ما عرف بدار الحكمة أو دار العلم في عام ٢١٥هـ / ٨٣٠م، جمع فيها عددا كبيرا من النساخ والمترجمين، الذين اتقنوا عدة لغات، وألحق بها مكتبة. ومن أغرب ما وصل إلينا عن هذا الخليفة أنه ترك الجهاد، وتداخل مع ملوك الروم، وأتحفهم بالهدايا لقاء أن يرسلوا اليه بالمخطوطات، مما يدل على اهتمامه بنشر الثقافة. كما أخذ يضمن شروط الصلح مع ملوك الروم إرسال كتب الحكمة، فكان أحد شروط الصلح بينه وبين ميخائيل الثالث أن ينزل للمأمون عن إحدى المكتبات الشهيرة في القسطنطينية، وكان من بين ذخائرها الثمينة كتاب بطليموس في الفلك، فأمر المأمون بتعريبه وسماه المجسطى (٤٢).

كما روى ابن النديم أن المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات، فكتب اليه يسأله الاذن في انفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة ببلد الروم.

(٤١) وهو اقليدس بن نوقطرس بن برنيقس. كان من أبرز المهندسين، وهو أقدم من أرشميدس وغيره من الفلاسفة الرياضيين.

(٤٢) المجسطى : ومعناه الترتيب الكبير في علم الفلك وكان المرجع المهم في الفلك عند المسلمين وعند الأوروبيين في القرون الوسطى.

فأجاب الى ذلك بعد امتناع. فأرسل المأمون لذلك جماعة، منهم : الحجاج بن مطر(٤٣) و ابن البطريق (٤٤) وسلماصاحب بيت الحكمة وغيرهم. فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا، فلما حملوه اليه، أمرهم بنقله، فنقل.

وكان قسطا بن لوقا(٤٥) يشرف على الترجمة من اللغات اليونانية والسريانية والكلدانية الى العربية، كما كان يحيى بن هارون يشرف على الترجمة من الفارسية القديمة.

ولم تقتصر العناية بالترجمة على المأمون، بل عنى جماعة من ذوى اليسار فى عهده بنقل كثير من الكتب الى العربية، عرف منهم : محمد وأحمد والحسن بنو شاكر المنجم (٤٦)، فقد أنفدوا حنين بن اسحق(٤٧) وغيره الى بلد الروم ، فجاءوهم بطرائف الكتب، وغرائب المصنفات فى الفلسفة والهندسة والموسيقى والطب، ويذكر ابن النديم أن بنى المنجم كانوا يرزقون جماعة من النقلة، منهم حنين بن اسحق، وحبيش بن الحسن(٤٨) وثابت بن قرّة(٤٩) وغيرهم - فى الشهر نحو خمسمائة دينار للنقل والملازمة.

-
- (٤٣) الحجاج بن مطر واسمه عبد المسيح بن عبد الله الحمصى. يقول عنه ابن أبى أصيبعة : كان متوسط النقل، وهو الى الجودة اميل.
- (٤٤) وهو يحيى بن البطريق وكان لا يعرف العربية حق معرفتها، ولا اليونانية، وانما كان يعرف لغة الروم، وكتابتها، وهى الحروف المتصلة لا المنفصلة اليونانية القديمة.
- (٤٥) قسطا بن لوقا البعلبكي، كان فى أيام المقتدر بالله، ويقول عنه ابن النديم : كان بارعا فى علوم كثيرة منها الطب والفلسفة والهندسة والأعداد والموسيقى. وكان جيد النقل، فصيحاً باللسان اليونانى والسريانى والعربى. توفى بأرمينية، وله كتب كثيرة.
- (٤٦) بنو شاكر. كان لهم الكثير من الكتب.
- (٤٧) حنين بن اسحق، أبو زيد(ت عام ٢٦٠هـ / ٨٧٣م) كان ماهرا فى صناعة الطب، فصيحاً باللغة اليونانية والسريانية والعربية، وله كتب كثيرة.
- (٤٨) حبيش بن الحسن الأعسم. كان نصرانيا، وهو ابن أخت حنين بن اسحق وأحد تلامذته، ومنه تعلم صنعة الطب. وكان حنين يقدمه ويعظمه ويرضى نقله.
- (٤٩) ثابت بن قرّة بن مروان، أبو الحسن ولد عام ٢٢١هـ / ٨٣٦م وتوفى عام ٢٨٨هـ / ٩٠٠م.

وقد كان من أثر حركة النقل والترجمة، أن ظهر الى جانب العلماء المتخصصين فى العلوم الاسلامية والأدبية علماء آخرون متخصصون فى العلوم العقلية عن طريق اشتغالهم بدراسة الكتب التى ترجمت الى العربية.

ومن هؤلاء : ابن الداية الذى يقول عنه ياقوت : إنه كان أحد وجوه الكتاب الفصحاء، والحساب والمنجمين، مجسطى أوقليدسى، حسن المجالسة، حسن الشعر». وهو يشير فى كتابه الى انتفاعه بالثقافة اليونانية، وافادته منها، ويبين أنه مغرم بافلاطون بصفة خاصة ويقتبس من حكمه.

وسنعرض فيما يلى العلوم الفلسفية التى جرى الاهتمام بها فى مصر، وأهم علمائها واسهاماتهم فيها.

أولا : الطب :

كان الطب من العلوم الفلسفية التى إشتغل بها رجال مدرسة الاسكندرية، الا أن الذين عرفوا بمهارتهم فى هذا الفن قبيل الفتح هم جماعة السريان الذين نشطوا فى الاسكندرية وفى الأديرة الخاصة بهم، وكان لهم نشاط علمى ملحوظ، فقد كتب أهرن القس كتاب «الكناش» فى الطب، الذى ترجم الى اللغة العربية بأمر الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز. وهذا الكتاب من أقوى الكتب الطبية التى اعتمد عليها المسلمون فى دراساتهم الطبية.

وقد استمرت دراسة الطب فى مصر بعد الفتح العربى، خاصة عند اليهود والنصارى، وذلك بتشجيع الخلفاء لهم، حتى إننا نلاحظ أنه فى الوقت الذى كانت تصدر فيه أوامر الخلفاء بعدم استخدام أهل الذمة فى الأعمال التى تخص الدولة، كان يستثنى منها ممارسة الطب، فيذكر أبو المحاسن أن الخليفة المقتدر وخاصة فى عام ٢٩٦هـ / ٩٠٨م أثناء ولاية عيسى النوشرى على مصر - أمر ألا يستخدم أحد من اليهود والنصارى الا فى الطب والجهيزة.

ومن الأطباء فى مصر :

الطبيب يحيى النحوى (يوحنا) : كان أسقفا فى بعض كنائس مصر، وقد شاهد فتح مصر وأكرمه عمرو بن العاص. يقول عنه ابن أبى أصيبعة فى كتابه : إنه كان طبيبا حكيما، وله مصنفات كثيرة فى الطب وغيره. وقد عرف بيحيى النحوى لأنه بدأ بدراسة علم النحو فنسب اليه واشتهر به، كما درس علم اللغة والمنطق.

الطبيب السريانى أريباسيوس : شاهد فتح العرب لمصر، وترك عدة أبحاث طبية، وعرفه الباحثون المسلمون باسم «صاحب الكنانيش»، وترجم له الى اللغة العربية سبع مقالات عن علل النساء.

الطبيب عبد الملك بن أبجر الكنانى : كان طبيبا عالما ماهرا، وكان فى أول أمره مقيما فى الاسكندرية لأنه كان المتولى فى التدريس بها، وقد أسلم ابن أبجر على يد عمر بن عبد العزيز عندما كان أميرا، فلما أفضت اليه الخلافة، نقل تدريس الطب الى انطاكية وحران وتفرق فى البلاد. وكان عمر بن عبد العزيز يعتمد على ابن أبجر فى صناعة الطب.

الطبيب بليطيان : كان طبيبا مشهورا بديار مصر، نصرانيا، وفى خلافة المنصور (١٣٦ - ١٥٨هـ / ٧٥٣ - ٧٧٤م) صير بطريركا على الاسكندرية. وفى أيام الخليفة الرشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ / ٧٨٦ - ٨٠٨م) اعتلت جاريته بعلة عظيمة، فعالجها الأطباء فلم تشف، فبعث الرشيد الى عبيد الله بن المهدي ليختار له من أحذق أطباء مصر، فأرسل اليه بليطيان فعالجها وشفيت. وتوفى بليطيان فى عام ١٨٦هـ / ٨٠٢م.

الطب فى الدولة الطولونية :

عرف فى الدولة الطولونية نظام «الكونسلتو» الموجود فى الوقت الحاضر، والمقصود به - كما تقول الدكتورة سيدة كاشف عن البلوى - أن الطبيب اذا رأى حالة مستعصية كان يرى من الأفضل أن يجتمع عدد من الأطباء

للوصول الى رأى، كما نفعل نحن اليوم. ويذكر البلوى أن كل طبيب كان له أعوان ومساعدون كان اسمهم (الشاكزية)، وكان وظيفتهم بق العقاقير وعجن الأدوية حسب أمر الأطباء، أو نفخ النار تحت الأدوية المطبوخة. وكان الأطباء يقومون بتركيب الأدوية اللازمة للمريض، كذلك كانت لهم وسائلهم فى الفحص والعلاج، كما كانوا يحددون للمريض أنواع الأطعمة التى يتناولها أثناء مرضه.

ومن الأطباء فى الدولة الطولونية :

الطبيب سعيد بن توفيل :

وقد اختلفت المصادر فى اسمه، فمذهب من قال سعيد بن نوفل، ومنهم من قال سعيد بن توفيل. على كل حال فقد كان طبيباً نصرانياً، وكان فى خدمة أحمد بن طولون من أطباء الخاص يصحبه فى السفر، وقد تغير عليه قبل موته، فدعا بالسياسة فضربه مائتى سوطاً وطاف به على جمل، ونودى عليه : هذا جزاء من ائتمنُ فخان، ومات بعد يومين، وذلك فى سنة ٢٦٩هـ / ٨٨٢م بمصر. وقيل فى عام ٢٧٩هـ / ٨٩٢م.

الطبيب هاشم بن سعيد بن توفيل :

وهو ابن الطبيب سعيد بن توفيل ويقول عنه ابن أبى أصيبعة: إنه كان «حسن الصورة، زكى الروح، حسن المعرفة بالطب فتقدم أحمد بن طولون الى سعيد أول ما صحبه أن يرتاد متطببا يكون لحرمة، ويكون مقيماً بالحضرة فى غيبته، فقال له سعيد : لى ولد علمته وخرجته، قال : أرنه . فأحضره، فرأى شاباً رائقاً، حسن الأسباب كلها، فقال له أحمد بن طولون: ليس يصلح هذا لخدمة الحرم، احتاج لهن حسن المعرفة، قبيح الصورة. فأشفق سعيد أن ينصب لهم غريباً فينبو عنه^(٥٠) ويخالف عليه، فأخذ

(٥٠) ينبو عليه الأمر أو الصاحب .لم ينقد له.

هاشما وألبسه دراعة (وهى جبة مشقوقة المقدم) وخفين ونصبه للحرم». وقد تمكن هاشم من الحرم باصلاحه لهم ما يوافقهم من عمل أدوية الشحم والحب، وما يحسن اللون ويغزر الشعر، حتى قدمه النساء على سعيد (٥١).

الطبيب سعيد بن البطريق :

وكان طبيبا نصرانيا من أطباء فسطاط مصر، وكانت له دراية بعلوم النصراني ومذاهبهم. وقد عين بطريقا على الاسكندرية سنة ٣٢١هـ / ٩٣٣م وتوفي عام ٣٢٨هـ / ٩٣٩م وله كتب فى الطب.

الطبيب عيسى بن البطريق :

وكان عيسى أخا لسعيد بن البطريق، وكان طبيبا نصرانيا عالما بصناعة الطب علمها وعملها، وكان مقامه بمدينة مصر القديمة، وظل بها الى أن توفي.

الطبيب على المطيب المعروف بالديدان :

ويذكر ابن الداية فى كتاب المكافاة أنه صحب رجلا من المسلمين الذين اشتغلوا بالطب، واسمه على المطيب المعروف بالديدان وأن هذا الطبيب «كان حسن المعرفة بكتب افلاطون ورموزه، مبرزاً فى الطب».

الطبيب الحسن بن زيرك :

وكان طبيبا فى مصر أيام أحمد بن طولون يصحبه فى الإقامة، وتوفى حوالى سنة ٢٦٩هـ / ٨٨٢م. يذكر البلوى أنه اشترك فى علاج ابن طولون، وأنه كان يعتمد فى تطيبه، فضلا عن الدواء، الى اراحته وعلاجه نفسيا.

(٥١) يذكر البلوى أنه لم يكن طبيبا ماهرا، وأنه كان أحد أسباب موت أحمد بن طولون عندما عالجه خطأ.

الطبيب ابراهيم بن عيسى :

كان طبيبا فاضلا معروفا فى زمانه من أطباء بغداد، وقد خدم بصناعة الطب الأمير أحمد بن طولون، وتقدم عنده، وسافر معه الى الديار المصرية، واستمر فى خدمته، وقد أقام فى الفسطاط حتى توفى سنة ٢٦٠هـ / ٨٧٣م.

الأطباء فى الدولة الاخشيدية :

الطبيب نسطاس بن جريج :

كان نصرانيا عالما بصناعة الطب. وكان فى دولة الاخشيد بن طفج.

الطبيب أبو الفرج البالىسى :

كان طبيبا فاضلا متميزا فى صناعة الأدوية المفردة وأفعالها، وله من الكتب كتاب «التكميل فى الأدوية المفردة» ألفه لكافور الاخشيدى. وقد ذكر ابن سعيد فى كتابه طبيبا يسمى «ابن البالىسى» وان لم يذكر ترجمة له، فهل كان هو البالىسى هذا أم كان ابنا له؟

ومن الأطباء الذين مروا على مصر :

الطبيب محمد بن عبدون الجبلى العذرى من الاندلس، وقد رحل الى المشرق سنة ٣٤٧هـ / ٩٥٨م وبخل البصرة ولم يدخل بغداد، وأتى مدينة فسطاط مصر ودبر مارستانها، ومهر بالطب وأحكم كثيرا من أصوله، ورجع الى الاندلس سنة ٣٦٠هـ / ٩٧٠م.

ثانيا : علم النجوم :

كانت الاسكندرية مشهورة بخدمتها لعلم الفلك، وكان فيها من لا يزال يمارس التنجيم، وكان الملوك وحكام البلاد يرسلون من كل أقطار العالم الى رهبان الصحارى لينبئوهم بما فى ضمير الغيب لهم، وكانوا فى ذلك يعتمدون على علم الرهبان بالكواكب أكثر من اعتمادهم على ريانيتهم. وقد ذكرت فى الفصل التمهيدى أن من أكبر علماء الفلك كان اسطفن الاسكندرى، ولا يزال كتابه فى الفلك باقيا.

وبعد الفتح العربى لمصر ظل التنجيم موجودا بها وكان له رجاله ويظهر ذلك بوضوح فى المصادر العربية خاصة عند تولية أمير البلاد.

فيذكر ابن سعيد عن الحسن بن رافع الكاتب أنه عند دخول أحمد بن طولون مصر كانت الناس مجتمعة، وكان من ضمنهم شاب مكفوف فسأله رجل عما يجده فى كتبهم له، فقال : هذا رجل صفته كذا وكذا وهو يتقلد هو وأولاده أربعين سنة. فقال الحسن بن رافع : «فوالله ما تم كلامه حتى مر بنا أحمد بن طولون، فوالله لقد كانت صفته وخلقه وقده وشمائله على ما حكى المكفوف ولم يغادر شيئا منه».

ويذكر ابن سعيد ذلك أيضا عند تولية الاخشيدي، فيقول : «وسمعت بعض الشيوخ المصريين من أهل التنجيم يقولون إن الاخشيدي دخل إلى مصر بالطالع الذى دخل به أحمد بن طولون».

ويقول الأبشيهى عن كافور إنه فى يوم عندما انتبه من نومه طلب جماعة، وقال : «امضوا الساعة الى عقبة النجارين، واسألوا عن شيخ منجم أعور كان يقعد هناك، فان كان حيا، فاحضروه، وان كان قد توفى فسألوا عن أولاده». فوجدوه قد مات، وترك بنتين، احدهما متزوجة والأخرى غير متزوجة. فعندما علم كافور بذلك، اشترى لكل واحدة منهما دارا، وأعطاهما مالا جزيلا، وكسوة فاخرة، وزوج الغير متزوجة. فلما فعل ذلك وبالغ فيه

ضحك وقال : «أتعلمون سبب هذا؟ قلنا : لا . فقال : اعلّموا أنى مررت يوما بوالدهما المنجم، وأنا فى ملك ابن عباس الكاتب، وأنا بحالة رثة، فوقفت عليه، فنظر إلى واستجلبنى. وقال : أنت تصير الى رجل جليل القدر، وتبلغ منه مبلغا كبيرا وتنال خيرا، ثم طلب منى شيئا، فأعطيته درهمين كانا معى، ولم يكن معى غيرهما فرمى بهما إلى وقال : أبشرك بهذه البشارة وتعطينى درهمين، ثم قال : وأزيدك، أنت والله تملك هذا البلد وأكثر منه، فاذا كرنى اذا صرت إلى الذى وعدتك به ولا تنسى. فقلت له : نعم، فقال : عاهدنى أنك تفى لى، ولا يشغلك ذلك عن افتقادى، فعاهدته، ولم يأخذ منى الدرهمين.

ثم إنى شغلت عنه بما تجدد لى من الأمور والأحوال وصرت الى هذه المنزلة، ونسيت ذلك. فلما أكلنا اليوم ونمت رأيت فى المنام، وقد دخل على. وقال لى : أين الوفاء بالعهد الذى بينى وبينك، وإتمام وعدك؟ لا تغدر، فيُغدر بك. فاستيقظت، وفعلت ما رأيت، ثم زاد فى إحسانه الى بنات المنجم وفاء لوالدهما بما وعده .»

وقد ذكرت المصادر العربية إسمين من المنجمين كانوا فى مصر وهما :

أبو الحسن على :

وهو إبننا لأبى سعيد بن يونس صاحب تاريخ مصر، ويذكر عنه ابن كثير أنه كان منجما يرجع اليه أصحاب هذا الفن، كما يرجع أصحاب الحديث إلى أقوال أبيه.

محمد بن إدريس الشافعى :

(ت عام ٢٠٤هـ / ٨١٩م) يذكر ابن الوردى فى تاريخه^١ أن الشافعى درس علم النجوم وتفوق فيه وكان يحسبه، إلا أنه بعد حادثته ذكرها، أخذ عهدا على نفسه أن لا ينظر فى هذا العلم، ودفن الكتب التى كانت عنده فى النجوم، وأنكر بعد ذلك على أهل الكلام وعلى من يشتغل فيه.

ثالثا : علم تعبير (تفسير) الرؤيا :

يقول عنه ابن خلدون : «هذا العلم من العلوم الشرعية، وهو حادث فى الملة عندما صارت العلوم صنائع، وكتب الناس فيها. وأما الرؤيا والتعبير لها فقد كان موجودا فى السلف كما هو فى الخلف، وربما كان فى الملوك والأمم من قبل، إلا أنه لم يصل إلينا للاكتفاء فيه بكلام المعبرين من أهل الاسلام، وإلا فالرؤيا موجودة فى صنف البشر على الإطلاق ولا بد من تعبيرها. فلقد كان يوسف الصديق، صلوات الله عليه، يعبر الرؤيا - كما وقع فى القرآن - (سورة يوسف) وكذلك ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن أبى بكر رضى الله عنه. والرؤيا مُدْرَكٌ فى مدارك الغيب وقال صلى الله عليه وسلم : «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة» وقال : «لم يبق من المُبَشِّرَاتِ إلا الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو تُرى له»

وقد وُجد فى مصر المعبرون. فتذكر المصادر العربية أن أحمد بن طولون رأى فى منامه كأن الله تعالى قد تجلى ووقع نوره على المدينة التى حول الجامع، إلا الجامع فإنه لم يقع عليه من النور شئ، فتألم وقال : والله ما بنيته إلا لله خالصا، ومن المال الحلال الذى لا شبهة فيه. فقال له معبر حاذق: هذا الجامع يبقى ويخرب كل ما حوله، لأن الله تعالى قال : فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا (٥٢) وقد صح تعبير هذه الرؤيا، فان جميع ما حول الجامع خرب دهرًا طويلا وبقي الجامع عامرا.

كما تذكر المصادر حلما آخر لأحمد بن طولون، فقد قيل إنه لما فرغ من بناء الجامع رأى فى منامه كأن نارا أنزلت من السماء فأخذت الجامع دون ما حوله. فلما أصبح، قص رؤياه. فقيل له : أبشر بقبول الجامع، لأن النار كانت فى الزمان الماضى اذا قبل الله قريانا نزلت نار من السماء أخذته، وبليله قصة قابيل وهابيل.

(٥٢) سورة الاعراف آية رقم ١٤٢ .

وقد ذكر ابن سعيد اسما لأحد هؤلاء المعبرين فى الدولة الاخشيديية وهو محمد بن الحسين المكفوف المفسر، فيقول عنه إنه قال : قال لى الاخشيد: رأيت فى المنام كأتى سلمت الى غلام من غلمانى الكبار شيئا فلم يقم به، ثم نقلته إلى غيره فلم يقم به ، حتى سلمته الى جماعة منهم، ثم سلمته الى كافور، وانتبهت وهو فى يده، فقلت له : هذا الملك يعود الى كافور ويقوم به. فضحك وعجب. فلما نهضت أخذ بيدي غلام، فلما خرجت قال لى الغلام : رأيت مولاي يخاطبك، وينظر إلى ويضحك؟! فقلت له : من أنت؟ فقال: أنا كافور. فقلت له : أبقي الله عزك، إن هذا الملك ستملكه واذكرنى.

رابعا : علوم السحر :

وعنها يقول ابن خلدون: «هى علوم بكيفية استعدادات تقدر النفوس البشرية بها على التأثيرات فى عالم العناصر، إما بغير معين أو بمعين من الأمور السماوية : والأول هو السحر، والثانى هو الطلسمات. ولما كانت هذه العلوم مهجورة عند الشرائع لما فيها من الضرر، ولما يشترط فيها من الوجهة الى غير الله من كوكب أو غيره، كانت كتبها كالمفقود بين الناس وكانت هذه العلوم فى أهل بابل من السريانيين والكلدانيين، وفى أهل مصر من القبط وغيرهم».

ويذكر ابن النديم أن السحر كان موجودا فى مصر، وأن الكتب المؤلفة فيه كثيرة.

ويقول المقريزى : «وبالصعيد بقايا سحر قديم».

وتذكر المصادر العربية، وخاصة الجغرافية منها، المدن المصرية فى الصعيد التى كان بها سحر من قديم الزمن وهى :

أنصنا : بلدة بالصعيد الأوسط وهى المدينة المشهورة بمدينة السحرة ومنها جلبهم فرعون. ويقال إنها مطلسمه وأن بها بقية من السحر .

دلاص : وهى بصعيد مصر من كورة البهنسا على غربى النيل، وهى كانت مجتمع سحرة مصر.

خامسا : علم الصنعة (الكيمياء) :

وصناعة الكيمياء فى هذا العصر كما يقول ابن النديم هى : صنعة الذهب والفضة من غير معادنها.

ويبدو أن صناعة الكيمياء كانت رائجة فى الاسكندرية، فقد ذكرت أنفا أن خالد بن يزيد دعا جماعة من اليونانيين المقيمين بالاسكندرية لينقلوا له كتب الصنعة من اليونانية والقبطية الى العربية.

ومن العلماء المصريين الذين تخصصوا فى علم الصنعة :

ذو النون المصرى :

وهو أبو الفيض ذو النون بن ابراهيم. وكان متصوفا، وله أثر فى الصنعة وكتب مصنفة، فمن كتبه : كتاب الركن الأكبر، وكتاب الثقة فى الصنعة.

عثمان بن سويد أبو حرى الاخميمى :

من اخميم قرية من قرى مصر. وكان مقدما فى صناعة الكيمياء ورأسا فيها. وله مع ابن وحشية الكلدانى مناظرات، وبينه مكاتبات. ومن كتبه : كتاب الكبريت الأحمر - كتاب الابانة - كتاب التصحيحات - كتاب صرف التوهم عن ذى النون المصرى - كتاب التعليقات - كتاب آلات القدماء - كتاب الحل والعقد - كتاب التدبير - كتاب التصعيد والتقطير - كتاب مناظرات العلماء ومفاوضاتهم.

أبو العباس، أحمد بن محمد بن سليمان :

وقيل إنه من أهل مصر. ولم يتأتى إلينا أنه صح له الصنعة .

سادسا : علم الهندسة :

ابو كامل شجاع بن أسلم بن محمد بن شجاع الحاسب :

من أهل مصر ، وكان فاضلا حاسبا عالما ، وله من الكتب : كتاب الفلاح - كتاب مفتاح الفلاح - كتاب الجبر والمقابلة - كتاب العصير - كتاب الطير - كتاب الجمع والتفريق - كتاب الخطائين - كتاب المساحة والهندسة - كتاب الكفاية.

سعيد بن كاتب الفرغانى المهندس :

وهو الذى تولى فى عهد أحمد بن طولون بناء العين التى بالمعافر، وبناء مقياس النيل، وجامع ابن طولون - كما ذكرت فى موضع سابق.

وقد وصفه البلوى بأنه «رجل نصرانى، حسن الهندسة، حاذق فيها»، ويرى الدكتور زكى محمد حسن أن هذا المهندس كان مسيحيا من العراق، لأنه لو كان من مصر لما أغفل البلوى أو المقرئ أن ينص على أنه قبطى، ولو كان بيزنطى الأصل لقل إنه رومى. ولا يبعد أن يكون مهندس الجامع قد جاء الى مصر فى ركاب أحمد بن طولون، أو أن ابن طولون أرسل فى استدعائه عندما عقد العزم على تشييد الجامع وغيره من الأبنية.

ولاشك أن هندسة بناء الجامع وزخارفه الجصية تدل على أن المهندس الطولونى أتى من سامرا، أو كان خبيرا بما ازدهر فيها من العمارة والفنون.

الرحلات العلمية والتبادل الثقافى :

وقد كانت هناك حركة دائمة للعلماء، فمصرى يرحل الى المدينة، ومدنى الى الكوفة، وكوفى الى الشام، وشامى الى هنا وهناك وهكذا.

وكان السبب فى هذه الرحلات العلمية أن الصحابة العلماء الذين أخذ عنهم أهل الأمصار المختلفة كان بعضهم يزيد على الآخرين فى أشياء

وينقص فى أشياء أخرى، اذ كان بعض الصحابة يغيبون عن مجلس النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض الاوقات التى يحضر فيها الآخرون وبالعكس، فيفوت كل واحد منهم ما غاب عنه. فلما فتحت البلدان وتفرق الصحابة فى الاقاليم، أصبح كل اقليم متأثراً بالصحابة الذين علّموا فيه، فلما جاء عهد التابعين وتابعيهم شعر كثير منهم بالحاجة الى التفقه على علماء الاقاليم الاسلامية الأخرى، فكثرت الرحلة الى الأمصار المختلفة وتقابل العلماء فى مختلف الجهات. فالرحلة - كما يقول ابن خلدون - لا بد منها فى طلب العلم، لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال.

وهكذا عملت هذه الرحلات العلمية على التبادل الثقافى وبالتالى توحيد الوطن العلمى .

ويرى الدكتور محمد كامل حسين أن هذه الرحلات العلمية كانت من أسباب عدم ظهور شخصية مصر فى كتب العلماء المصريين فى العلوم العربية، وبمعنى آخر أن هذه الرحلات الكثيرة كانت سبباً فى ألا تتمايز العلوم العربية بتمايز الأقطار حتى أصبحنا لا نفرق بين كتب المشاركة وكتب المغاربة إلا عن طريق تاريخ المؤلفين أنفسهم.

ومن علماء مصر الذين رحلوا لطلب العلم :

أبو سعيد عثمان بن عتيق مولى غافق :

ويقال إنه أول من رحل من أهل مصر الى العراق فى طلب الحديث، وقد توفى سنة ١٨٤هـ / ٨٠٠م.

زكريا أبو يحيى الوقار المصرى :

كان من موالى قريش، وقيل من موالى عبد الدار وروى عن ابن القاسم وابن وهب وأشهب وغيرهم وكان مختصاً بابن وهب. وقد ذهب الى افريقية سنة ٢٠٥هـ / ٨٢٠م علّم فيها، ثم عاد الى مصر، وتوفى بها سنة ٢٥٤هـ / ٨٦٨م وقيل ٢٦٣هـ / ٨٧٦م.

أحمد بن حازم المعافري المصري. توفي بالأندلس.

الحارث بن يزيد الحضرمي المصري :

(ت عام ١٣٠هـ / ٧٤٧م) نزيل برقة. وثقه أبو حاتم وغيره، قال الليث :
كان يصلى كل يوم ستمائة ركعة.

محمد بن بشير بن محمد المعافري :

(ت عام ١٩٨هـ / ٨١٣م) أصله من جند باجه من عرب مصر، واستوطن
قرطبة، فقد ولّاه الحكم بن هشام (١٨٠ - ٢٠٦هـ / ٧٩٦ - ٨٢١م) القضاء
بقرطبة، وقد خرج حاجا فلقى مالك بن أنس فجالسه وسمع منه، وطلب العلم
أيضا بمصر.

يزيد بن أحمد بن أبي عبد الرحمن :

من أهل مصر، كان فقيها فيها، وفد على عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ -
٣٥٠هـ / ٩١٢ - ٩٦١م) بقرطبة، فاکرم مثواه.

ومن علماء افريقية الذين تلقوا علمهم بمصر :

البهلول بن راشد :

(ت عام ١٨٣هـ / ٧٩٩م وقيل عام ١٨٢هـ / ٧٩٨م) وقد أخذ عنه الليث بن
سعد.

محمد بن نظيف البرازي الإفريقي :

(ت عام ٣٥٥هـ / ٩٦٥م)، فقد أقام بمصر في طلب الحديث، ومذاكرة
العلماء مثل أبي اسحق بن شعبان وغيره وتوفي بمصر.

ومن علماء الأندلس :

عيسى بن دينار :

وقد درس في مصر وكان لا يتقدمه أحد من قرطبة في الفتيا، وقد نشر
مذهب مالك في الأندلس وتوفي سنة ٢١٢هـ / ٨٢٧م.

قاسم بن محمد بن قاسم الأموي :

بالولاء القرطبي الفقيه المحدث. وقد قيل إنه زار مصر مرتين وتفقه على الحارث بن مسكين وعبد الله بن الحكم.

عباس بن ناصح، أبو المعلى الجزيري الاندلسي الثقفي :

(توفي بعد سنة ٢٣٠هـ / ٨٤٤م) كان من أهل العلم بالعربية واللغة والشعر المجونين. وكان قد رحل مع أبيه إلى مصر.

محمد بن موسى بن هاشم بن يزيد المعروف بالأفشين القرطبي :

(ت سنة ٣٠٩هـ / ٩٢١م) كان متصرفاً في علم الأدب والخبر، رحل إلى المشرق، ولقي بمصر أبا جعفر الدينوري، وأخذ عنه كتاب سيبويه رواية. وله كتب مؤلفة.

ومن علماء المشرق :

عبدان أبو محمد بن محمد بن عيسى المروزي :

الفقيه الحافظ مفتي مرو، وعالمها وزاهدها، وكان قد ارتحل إلى مصر وأقام بها سنين، وقرأ على المزني والربيع وبرع في المذهب، ثم رحل إلى خراسان ونشر بها مذهب الشافعي وتوفي سنة ٢٩٣هـ / ٩٠٥م.

محمد بن نصر المروزي الإمام أبو عبد الله :

أحد أئمة الشيعة، ولد ببغداد ونشأ بنيسابور، وأقام بمصر مدة من الزمن، وأخذ الفقه فيها عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم الذي قال عنه: «كان محمد بن نصر عندنا إماماً».

وقد قال فيه العلماء: «لم يكن للشافعية في وقته مثله». وقد رجع من مصر واستوطن سمرقند وتوفي سنة ٢٩٤هـ / ٩٠٦م.

محمد بن عبد الله بن إبراهيم، أبو بكر الشافعي محدث العراق :

(ت سنة ٣٥٤هـ / ٩٦٥م) وقد ارتحل إلى مصر للحديث.

الدار قطنى، أبو الحسن على بن عمر بن أحمد بن مهدي البغدادي :

وقد ارتحل الى مصر وصنف التصانيف، توفى عام ٣٨٥هـ / ٩٩٥م.

ونلاحظ أن التبادل الثقافى بين الدول فى تلك الفترة لم يكن يقتصر على الرحلات العلمية التى كان يقوم بها العلماء للاستزادة، وإنما كانت للتجارة أيضا دور فى هذا التبادل الثقافى ويظهر ذلك بوضوح من كتاب ابن الداية «المكافأة» فقد ورد فيه قصة تاجر عربى، سافر إلى الهند للتجارة فغرقت سفينته وسائر من معه، ووجد نفسه فى جزيرة من جزائر الهند، فوجده قوم الجزيرة وأحضره إلى ملكهم الذى قال له: «لقد نفذت الموهبة الخارجة عنك، فما معك من الموهبة الثابتة عليك». فقال له: «معى الكتاب والحساب». فقال الملك: «ما بقى لك، أفضّل من الذى ذهب منك، والصواب أن تعلم ابنى الكتاب بالعربية والحساب، فأرجو أن نعوضك أكثر مما فقدته». وبالفعل علم ابنه العربية والحساب.

الفصل الثانى

الفنون

. التغيير الذى طرأ على الفنون فى مصر بعد الفتح العربى.

مراحل الفن فى مصر :

. المرحلة الأولى من الفتح العربى الى العصر الطولونى.

. المرحلة الثانية من العصر الطولونى الى العصر الفاطمى.

. التغييرات التى طرأت على فنون بعض الصناعات :

. زخارف النسيج.

. زخارف الخشب.

. النحت والتصوير.

. عمارة المساجد.

الفصل الثانى

الفنون

كان تغير الفن فى مصر ضرورة تحتمها طبيعة النظام العربى الجديد الذى يدين بالديانة الاسلامية، فظهر ما يعرف بالفن الاسلامى فيها.

غير أن هذا الفن الجديد لم يكن فنا عربيا، بقدر ما كان فنا مصبوغا بالصبغة الاسلامية، فالعرب لم يكن لهم - كما يقول الدكتور زكى محمد حسن - قبل الاسلام أساليب فنية ناضجة، اللهم إلا فى أطراف شبه الجزيرة حيث قامت الممالك والامارات التى اتصلت بالأمم الأجنبية، وتأثرت بأساليبها الفنية تأثرا كبيرا، كما حدث فى اليمن والحيرة وبلاد النبط والغساسنة، فكان طبيعيا ان أن يكون نصيب العرب فى قيام الفنون الاسلامية روحيا فحسب، وأن يصبح من العسير أن ننسب اليهم أى عنصر فنى فى العمائر والتحف فى بداية العصر الاسلامى، سواء أكان ذلك فى الشكل أم فى الزخرفة أم فى الأساليب الصناعية، وإنما تنسب هذه العناصر إلى الشعوب الأخرى التى تألفت منها الامبراطورية الاسلامية عندما فتح بلادها العرب، والتى كانت لها قبل الاسلام أساليب فنية زاهرة، فكانت هذه الأمم أكبر عون للعرب على خلق فن اسلامى طبعه العرب بطابع دينهم، وظهرت فيه شخصيتهم البارزة، ولكن أساسه مدينيات فارس وبيزنطة وأشور ومصر.

والفن الاسلامى يدين بازدهاره للدولة، فالمثالون والمصورون والمهندسون وغيرهم من رجال الفن إنما كانوا يشتغلون بطلب الأمير وتحقيقا لرغبته، واشباعا لشهواته. ونحن - كما يقول الدكتور زكى محمد حسن - اذا استثنينا الحاكم فلن نجد للفنون الجميلة رعاة إلا من بلاطه وحاشيته، أو فى الأسر القليلة التى تسكن العاصمة وتعتمد فى معيشتها على الحاكم وبيت ماله، لذلك تنسب فنون المراحل المختلفة فى التاريخ الاسلامى الى الأسرات الحاكمة فيقال : فن أموى، وفن عباسى، وفن طولونى، وفن فاطمى، وغير ذلك.

وعندما فتح العرب مصر كان الفن القبطى بها مزدهرا بما فيه من تقاليد بيزنطية وفرعونية وأشورية وفارسية، فنما الفن الاسلامى وتطور فى مصر من التقاليد القديمة، وياشترك العمال المصريين، واستمر هذا التعاون بين الفاتحين والمحكومين نحو ثلاثة قرون، ولم يقلل من أهميته قدوم أحمد بن طولون ومعه فريق من الصناع والفنانين العراقيين، فان أثر هؤلاء لم يظهر جليا إلا فى نواح خاصة كالعمارة وزخرفة المباني، ولم يستطع العرب الاستغناء عن معونة الأقباط إلا حوالى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى حين عم الاسلام مصر، وبعد أن تتلمذ المسلمون مدة طويلة فى مدرسة الصناع الوطنيين، تلقوا عنهم فيها أسرار الصناعة وأصول المهنة.

ويمكن تقسيم الفن فى مصر منذ الفتح العربى حتى مجىء الفاطميين إلى مرحلتين :

المرحلة الأولى : من الفتح العربى إلى العصر الطولونى. والمرحلة الثانية : من العصر الطولونى إلى العصر الفاطمى.

وتعتبر المرحلة الأولى هى مرحلة تطور الفن فى مصر من الفن القبطى الى الفن الاسلامى، ويطلق عليها مرحلة الانتقال، ويتصف انتاجها بالجمع بين العناصر الفنية القديمة، والميول الاسلامية. ويرى الدكتور زكى محمد حسن أن مصر فى هذه المرحلة كانت تابعة للخلافة الاسلامية فى الفن، بقدر ما كانت تتبعها فى السياسة. إلا أن نشأة الفن الاسلامى فى هذه المرحلة كان يحيط بها شىء من الغموض.

أما المرحلة الثانية وهى التى تشمل فترة الدولة الطولونية، فقد ظهر فيها ما عرف بالفن الطولونى، الذى يعتبر أول مرحلة واضحة فى تاريخ الفن الاسلامى بمصر.

والفن الطولونى لم يكن مستقلا كل الاستقلال عن فن الخلافة العباسية فى ذلك العهد، ولكنه - على تبعيته له واشتقاقه منه - كان منافسا له، فقد

استطاع بنو طولون أن يتخذوا لأنفسهم بلاطا كبلاط الخليفة فى سامرا
وبغداد إن لم يفقه أبهة وعظمة.

والفن الطولونى فن له صفاته ومميزاته المستقلة فى التاريخ الفنى لمصر،
فقد أخذ أصوله عن الفن العراقى الذى ترعرع فى سامرا عاصمة الخلافة.

والزخارف الطولونية كبقية الزخارف الاسلامية تستمد أكثر عناصرها
من الأشكال الهندسية، ومن الرسوم النباتية التقليدية حيناً، أو التى تقرب من
الطبيعة حيناً آخر. أما تصوير المخلوقات الحية فقليل الظهور، أما الكتابة فلا
تلعب فى الزخرفة الطولونية دوراً يستحق الذكر، كما وجدت فى الزخرفة
الطولونية عناصر قديمة أو قبطية، إذ لا شك فى أن الفنون القديمة والبيزنطية
هى المصدر الذى نقل عنه القبط كثيراً من أصول زخرفتهم.

على أية حال، سنحاول أن نعرض فى الصفحات القادمة التغييرات التى
طرأت على الفنون وزخارف بعض الصناعات كنتيجة لطبيعية لطبيعة الحكم
العربى الذى يدين بالديانة الاسلامية.

بالنسبة لزخارف النسيج:

فقد حذفت منها الشارات والرموز المسيحية مثل الصليب وغيره، وإن
ظلت الزخارف القبطية غالبية على المنسوجات المصرية فى القرون الثلاثة
الأولى بعد الهجرة - أى من القرن السابع الى القرن العاشر الميلادى -
وخير دليل على ذلك قطع المنسوجات التى عثر عليها فى بعض المدن بالوجه
القبلى وفى القسطنطينية وهى من الصوف أو الكتان، وزخارفها متعددة الألوان،
وأكثرها رسوم طيور أو حيوان أو أشكال آدمية صغيرة، وفيها أشكال
هندسية وخطوط متقاطعة ودوائر متماسة. فلم تطبع صناعة النسيج فى مصر
بطابع اسلامى ظاهر إلا فى العصر الفاطمى (أى ابتداء من أواخر القرن
العاشر الميلادى).

وكان العرب منذ الفتح يميلون فى الزخرفة الى العناصر الهندسية والنباتية لكرههم تصوير الانسان والحيوان، وكان هذا الميل نفسه قد بدأ فى الفنون القبطية منذ منتصف القرن الخامس الميلادى، فلم يجد المصريون صعوبة كبيرة فى إرضاء الفاتحين، وانتاج التحف الفنية التى تتفق ومزاجهم.

على أن النساجين القبط احتفظوا مدة طويلة فى العصر الاسلامى ببعض الموضوعات الزخرفية التى كان الروم قد نقلوها عن الفرس، كالدوائر المتماصة، أو المنعزلة، وكالحيوانين المتقابلين، أو اللذين يولى كل منهما الآخر ظهره، وتفصلهما شجرة الحياة المقدسة أو شجرة الخلد (Homa)، التى نجدها فى كثير من الزخارف الايرانية.

وقد كان لحركة التعريب (التي تناولتها فى موضع سابق) دور هام فى تمييز النسيج الاسلامى عن القبطى، عندما ظهرت الكتابة العربية على المنسوجات منذ القرن الأول الهجرى / السابع الميلادى.

وقد كانت الكتابة على النسيج بلحمة من الذهب أو الفضة أو الخطوط المتعددة الألوان، وكان الغرض من هذه الكتابات على الأقمشة الملكية بيان الأمير الذى عملت باسمه، أو الشخص الذى خلعت عليه، اظهارا لرضاء الأمير، أو علامة على تولى احدى الوظائف الكبرى فى الدولة. وقد كانت الكتابات على الطراز تشمل اسم الخليفة وألقابه، وبعض عبارات الادعية، وكثيرا ما كان يذكر فيها اسم المدينة التى فيها الطراز، واسم الوزير، وصاحب الخراج، وناظر الطراز.

ومن أمثلة ذلك قطعة من النسيج - فى مجموعة الأقمشة النفيسة بدار الآثار العربية - وجدت فى القسطنطينية باسم الخليفة الأمين وعليها الكتابة الآتية: « بسم الله بركة من الله لعبد الله الأمين محمد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه مما أمر بصنعه فى طراز العامة بمصر على يد الفضل بن ربيع مولى أمير المؤمنين ».

وفى دار الآثار العربية أيضا قطعة من الكتان الأبيض تشبه كثيرا الأقمشة القبطية، وعليها شريط من زخارف به جامات فيها طيور تقليدية ومنسوج على هذه القطعة بالخط الكوفى البسيط سطر بالحريز الأحمر نصه: « هذه العمامة لسمويل بن موسى عملت فى شهر رجب من الشهور المحمدية من سنة ثمان وثمانين ».

ومن العلامات كذلك التى ميزت النسيج الاسلامى عن القبطى، ظهور الشريط الزخرفى فى وضع أفقى بدلا من الوضع الرأسى.

ومن الملاحظ بوجه عام أن قوام التصميم فى الزخرفة كان شريطا أفقيا أو أشرطة أفقية من الرسوم، توازيه أو توازيها أشرطة من الكتابة فى بعض الأحيان.

والخلاصة أن العرب فى هذه المرحلة، لم يغيروا شيئا فى الموضوعات الزخرفية التى كانت تزدان بها الأقمشة، إلا فيما يتعلق بالموضوعات الدينية المسيحية، فقد منعوها، كما أنهم حرصوا على أن يضيفوا الكتابة العربية الى العناصر الزخرفية القديمة. فزخرفة المنسوجات التى ترجع الى هذا العصر قبطية بحتة لا يفرقها شئ عن تلك التى نسجت قبل الاسلام، ولولا وجود الكتابة العربية عليها، لما تردد الانسان فى نسبتها الى العصر القبطى.

وفى العصر الطولونى كانت التقاليد الزخرفية القديمة والقبطية لاتزال تسود صناعة النسيج، على أن هناك بعض قطع من النسيج عليها زخارف طولونية أو عراقية ظاهرة. وفى دار الآثار العربية قطع عديدة أغلبها سميك ومنسوج فيه رسوم طولونية المسحة. ويوجد فى المتاحف الكبيرة والمجموعات الأثرية فى مصر وفى البلدان الأجنبية قطع عديدة ترجع زخرفتها الى عصر الانتقال من الطراز القبطى الى الطراز الفاطمى، ويصعب فى بعض الأحيان تمييزها من القطع القبطية، بينما يندر وجود القطع التى عليها زخارف طولونية بحتة تجعل من اليقين نسبتها الى العصر الطولونى.

أما صناعة الخشب، فقد ورث الفن القبطى مهارة قدماء المصريين فى صناعة الخشب، ونقش الزخارف عليه. وتطورت هذه الصناعة على يد النجارين القبط الذين تأثروا بالفن البيزنطى، فزادت الزخارف فى مصنوعاتهم الخشبية زيادة أكسبتها رونقا وجمالا. على أن التقاليد القبطية فى صناعة الخشب أخذت تتطور شيئا فشيئا بعد الفتح الاسلامى حتى أصبحت فى العصر الفاطمى صناعة اسلامية حقة.

وقد وصلت الينا قطع خشبية ترجع الى عصر الانتقال بين الصناعة القبطية البحتة فى القرن السابع والصناعة الاسلامية فى القرن التاسع الميلادى، ونقوش هذه القطع مكونة من أوراق وعناقيد عنب وزخارف نباتية، وغير ذلك من النقوش التى امتاز بها الشرق الأدنى فى العصر المسيحى، وبعض القطع المذكورة لا تكاد تميزه عن القطع القبطية إلا بما عليه من كتابات عربية.

وفضلا عن ذلك، فلا يبعد أن يكون العرب فى مصر قد اتخذوا لأنفسهم شكل كثير من قطع الأثاث القبطية كالدواليب والموائد، ولعلهم أخذوا عنهم أيضا الكرسي الذى يحمل عليه المصحف، والذى يعرفه القبط باسم منجليه (أى محل الانجيل).

أما بالنسبة للتصوير، فقد أجمع المسلمون من سنيين وشيعيين على كراهية النحت وتصوير الأحياء، لما فيهما من تقليد الخالق عز وجل، ولما ورد فى الحديث من أن الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب ولا تصوير، ومن أن أشد الناس عذابا عند الله يوم القيامة المصورون، ومن أن الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة ويقال لهم : أحيوا ما خلقتم.

ويذكر الدكتور زكى محمد حسن أن القرآن الكريم لم يأت فيه ما يحرم تصوير المخلوقات الحية أو عمل التماثيل لها، والآية التى كان يفهم منها خطأ أن التصوير محرم فى الاسلام هى قوله تعالى فى سورة المائدة: «يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ». ولكن الواقع أن المقصود بكلمة «أنصاب» فى رأى المفسرين هو الأحجار الكبيرة أو الأصنام التى كان العرب يعبدونها ويقدمون لها القرابين، فليس فى هذه الآية إذن أى تحريم للتصوير أو عمل التماثيل.

أما بالنسبة للأحاديث التى نسبت الى النبى صلى الله عليه وسلم تحريم تصوير المخلوقات الحية أو عمل تماثيل لها، فإن بعض العلماء فى العصر الحديث يعتقدون أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يفكر فى النهى عن التصوير، وأن التصوير كان مباحا فى فجر الاسلام، وأن الاحاديث المنسوبة اليه فى هذا الشأن غير صحيحة، وأنها فى الحق لا تمثل إلا رأى الذى كان سائدا بين علماء الدين فى بداية القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى)، وهو العصر الذى كتب فيه صفوة العلماء الذين اشتغلوا بجمع الحديث.

ويرى الدكتور زكى محمد حسن أن النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده، ثم المتمسكين بالدين من الأمويين والعباسيين، نهوا عن تصوير الكائنات الحية ليحموا المسلمين من الأصنام والتماثيل والصور التى قد تقود البسطاء الى نسيان الخالق، أو الى اتخاذها وساطة يتوسل بها الى الله، أو الى عبادتها لذاتها. فقد أبعدوهم عن كل ما من شأنه أن يقربهم الى عبادة الأوثان، فضلا عن أن الفقهاء كانوا يعتبرون عمل الصور والتماثيل محاولة غير لائقة لتقليد الخالق عز وجل. ولكن بعد أن بَعُدَ عهد العرب بالوثنية وزوال خطرهما، فقد أفتى كثير من العلماء المحدثين - كالشيخ محمد عبده والشيخ عبد العزيز جاويش - بأن التصوير العلمى والفنى لايتعارض مع تعاليم الدين الحنيف. وعلى كل حال، فإن الاحاديث المنسوبة الى النبى صلى الله عليه وسلم فى تحريم التصوير كان لها أثر لا سبيل الى انكاره، سواء أكانت صحيحة أم غير صحيحة.

وهكذا فإن الفن الاسلامى، بسبب خضوعه لتحريم التصوير، تخلص عن ميدانين عظيمين من ميادين العبقرية الفنية التى امتازت بها الفنون الأخرى،

لاسيما فنون الغرب التى ورثت الأساليب الفنية الاغريقية، وهذان الميدانان هما : النحت، وتصوير اللوحات الفنية على النحوى الذى نعرفه فى الفنون الأوربية وفنون الشرق الأقصى.

ومن هنا فان المساجد والأضرحة والعمائر الدينية عموما، وكل مايتصل بها من أثاث، وكذلك المصاحف، خلت فى زخارفها من رسوم الكائنات الحية، ولم تكن فيها صور أو تماثيل يستعان بها فى توضيح تاريخ الاسلام وشرح العقائد الدينية وسيرة أبطال الملة، كما كان الحال فى الدين المسيحى.

على أن الأمر لم يخل من ظهور بعض الصور الاسلامية التى ترجع الى القرن التاسع والعاشر والحادى عشر الميلادى (الثالث والرابع والخامس الهجرى)، وهى محفوظة الآن فى المكتبة الأهلية بفيينا، وهى متأثرة بفن التصوير القبطى، وقد كتب عنها الدكتور جرومان وعلق عليها تعليقا علميا وافيا، وذكر ما فيها من شبه بالتصوير القبطى والحبشى.

كما لم يخل من ظهور بعض التماثيل التى اتخذت للزينة فى القصور والبرك وتفننوا فى عملها من الحجر والجص والذهب والفضة وغيرها.

ففى ترجمة عبد الله بن عبد السلام الشهير بابن أبى الرداد - المتولى مقياس النيل بمصر - أن الخليفة المتوكل على الله أمر أحمد بن محمد الحاسب بعمارة المقياس بالجزيرة، فحكى ما عمله فى ذلك، وما كتبه من الآيات الكريمة واسم الخليفة على مواضع من المقياس، وكان مما عمله تمثال سَبْعُ أقامه على أحد الحيطان فيقول : « واتخذت مثال سَبْع من رخام ركبته فى وجه الحائط، فويقة القناة المطل على النيل، على المقدار الذى اذا بلغ الماء ست عشرة ذراعا دخل الماء فى فيه » .

وقد ذكر المقرئى أن باب الصلاة الذى كان يخرج منه أحمد بن طولون من قصره الى مسجده، كان يسمى أيضا باب السباع، لوجود أسدين من جبس عليه.

وبالنسبة لعمارة المساجد :

فقد كانت المساجد الأولى فى الاسلام بسيطة فى تخطيطها، تناسب شعائر الدين الجديد، فكانت قطعة الأرض تحاط بجدران أربعة، وكان السقف يقام على أعمدة مصنوعة من جذوع النخل، أو مأخوذة من الأعمدة الحجرية فى المعابد والكنائس القديمة والمهجورة فى الأقطار التى فتحها العرب.

على أن عمارة المساجد لم تلبث أن دخلتها زيادات ثانوية قد يكون حدوثها تأثيرا مسيحيا. فكثيرون من العلماء يظنون أن المحراب مأخوذ عن الحنية التى توجد فى صدر الكنيسة، وغالبا الى جهة الشرق.

ويؤيد هذا رأى الدكتور زكى محمد حسن، على اعتبار أن مؤلفى العرب أنفسهم فطنوا الى أن المحراب متخذ من حنية الكنيسة. وكتب بعض علمائهم فى ذلك، فقد ألف السيوطى رسالة سماها «إعلام الأريب بحدوث بدعة المحارب».

كذلك يظن بعض العلماء أن مآذن الجوامع الاسلامية مأخوذة عن أبراج الكنائس. وليس هذا الظن غريبا فى شىء - كما يقول الدكتور زكى محمد حسن - وإن كان الواقع أن المؤرخين وعلماء الآثار اختلفوا فى تحديد التاريخ الذى أدخلت فيه المنارات أو المآذن فى المساجد الاسلامية.

الباب الخامس

حركة البناء والتشييد فى المجتمع المصرى

– طبقة البنائين.

الفصل الأول : العمائر المدنية .

الفصل الثانى : العمائر الدينية.

الفصل الثالث : العمائر التجارية

طريقة البنائين

كان كل الذين يقومون ببناء العمارة الاسلامية فى مصر من معماريين وبنائين من اهل البلاد، وهم الاقباط، فلم يشغل العرب بالعمل بالبناء بعد فتحهم لمصر.

ولقد اشتهرت مهارة المصريين فى صناعة البناء حتى ان العرب لم يقتصروا على استخدامهم فى بناء ابنيتهم فى مصر، بل كثيرا - كما تقول الدكتورة سيدة كاشف - ما استخدموهم فى الابنية التى اُنشئت فى خارج مصر. وفى كتاب قرة بن شريك الى صاحب كورة أشقوة نراه يحدد أجر أحد العمال الذى سيرسل للعمل بجامعة دمشق لمدة ستة أشهر. وفى كتاب آخر منه نراه يطلب عدة رجال من أماكن مختلفة للعمل فى بناء قصر الخليفة الوليد بن عبد الملك. وفى كتاب ثالث يطلب أحد العمال، ويحدد أجره للعمل لمدة ستة أشهر فى جامع بيت المقدس. ونجد كتابا آخر من قرة يختص بالنفقة على أربعين من مهرة العمال الذين استخدموا فى بناء جامع دمشق. ونجد كتابا آخر يختص بالنفقة على الفعلة والعمال المهرة الذين يعملون فى جامع بيت المقدس وفى قصر أمير المؤمنين . وهناك كتب أخرى تختص بالصرف على العمال الذين يعملون فى بيت المقدس أو دمشق أو قصر أمير المؤمنين.

ويذكر البلاذرى أن الخليفة الوليد بن عبد الملك كتب إلى عمر بن عبد العزيز، عامله على المدينة، يأمره بهدم المسجد وبنائه، ويعث إليه بمال وفسيفساء ورخام وثمانين صانعا من الروم والقبط من أهل الشام ومصر، فبناه عمر بن عبد العزيز وزاد فيه، وكان ذلك فى سنة ٨٧ هـ / ٧٠٥ م، ويقال فى سنة ٨٨ هـ / ٧٠٦ م.

ويبدو أنه كان من العرف أن يعمل الصانع فى البناء طوال اليوم بلا انقطاع، وقد استمر هذا النظام سائدا حتى زمن أحمد بن طولون الذى حدد

ساعة انتهاء عمل صانع البناء بوقت العصر. واستمر هذا النظام، فيقول
المقرئى : «ورأى أحمد بن طولون الصناع يبنون فى الجامع عند العشاء،
وكان فى شهر رمضان، فقال : متى يشتري هؤلاء الضعفاء إفطارا لعيالهم
وأولادهم؟ اصرفوهم العصر. فصارت سنة الى اليوم بمصر. فلما فرغ شهر
رمضان قيل له : قد انقضى شهر رمضان، فيعودون الى رسمهم، فقال : قد
بلغنى دعاؤهم، وقد تبركت به، وليس هذا مما يوفر العمل علينا».

الفصل الأول

العمائر المدنية

- . العواصم والمدن .
- . الجواسق (القصور) .
- . المدارس - مساجد .
- . الحمامات .
- . مصانع الماء - الفسقيات - العيون - القناطر .

الفصل الأول :

العمائر المدنية

العواصم والمدن

كان من الطبيعي بعد فتح العرب لمصر أن يصطبغ كل شىء فيها بالصبغة العربية، وأن تتحول مصر من ولاية بيزنطية الى ولاية اسلامية فى مظهرها وجوهرها، وتتغير تبعاً لذلك أهمية الحواضر والمدن، مع انتقال السيطرة من القسطنطينية فى أوروبا الى المدينة فى شبه جزيرة العرب، فبعد أن كانت عاصمة مصر هى الاسكندرية، أصبحت هى الفسطاط.

وقد كان من أهم مظاهر هذا التغيير، هو الذى طرأ على بناء وتشيد المدن، وهو تغيير كان يواكب التغيير الذى طرأ على المجتمع المصرى، وتحول فيه تدريجياً من مجتمع يسكن فى مدن قبطية ويتعبد فى كنائس، إلى مجتمع اسلامى عربى يسكن فى مدن عربية، ويتعبد فى مساجد.

كان أول تغيير فى هذا الشأن هو الذى حدث ببناء الفسطاط على يد عمرو بن العاص فى سنة ٢١هـ / ٦٤١م، وانتقل به كرسى الحكم من مدينة الاسكندرية التى كانت حاضرة مصر لمدة تزيد على تسعمائة عام، ودار إمارة ينزل بها الأمراء والحكام، الى الفسطاط التى احتلت هذا المركز. ولم تنزل على ذلك حتى بنى العسكر بظاهر الفسطاط فنزل فيه أمراء مصر وسكنوه، وربما سكن بعضهم الفسطاط، فلما أنشأ أحمد بن طولون القطائع بجانب العسكر سكن فيها، واتخذها الأمراء من بعده منزلاً، إلى أن انقرضت دولة بنى طولون فصار أمراء مصر بعد ذلك ينزلون بالعسكر خارج الفسطاط، واستمر ذلك حتى بنيت القاهرة فى عهد الدولة الفاطمية.

على أن الفسطاط ظلت المركز الأعظم للحياة المصرية، ولم تكن القطائع والعسكر فى الحقيقة سوى ضاحيتين أو امتدادا لها، مع أن الناس حينئذ كانوا يعتبرون العسكر مدينة قائمة بذاتها، كما اعتبروا القطائع بعد ذلك.

وستتناول في الصفحات القادمة اختطاط كل من الفسطاط والعسكر والقطائع، ثم الجيزة وحلوان والعباسة.

أولا : الفسطاط :

عن سبب بناء الفسطاط يقول ابن عبد الحكم عن يزيد بن أبي حبيب : إن عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية ورأى بيوتها وبناءها مفروغا منها، همّ أن يسكنها، وقال : مساكن قد كُفيناها. فكتب إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في ذلك، فسأل عمر الرسول : هل يحول بيني وبين المسلمين ماء. قال : نعم ياأمير المؤمنين إذا جرى النيل. فكتب عمر الى عمرو بن العاص : إنى لا أحب ان تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف. فتحول عمرو من الاسكندرية الى الفسطاط.

وفي رواية أخرى يقول ابن عبد الحكم إن عمر بن الخطاب كتب الى سعد ابن أبي وقاص وهو نازل بمداين كسرى، والى عامله بالبصرة، والى عمرو بن العاص وهو نازل بالاسكندرية - أن لا تجعلوا بيني وبينكم ماء، متى أردت أن أركب اليكم راحلتى حتى أقدم عليكم قدمتم. فتحول سعد من مداين كسرى إلى الكوفة، وتحول صاحب البصرة من المكان الذي كان فيه فنزل البصرة، وتحول عمرو بن العاص من الاسكندرية الى الفسطاط.

ويرى الدكتور حسن ابراهيم حسن أن تغير عاصمة مصر تحت الحكم العربى كان أمرا طبيعيا، لأن مدينة الاسكندرية لم تعد صالحة لأن تكون حاضرة مصر كما كانت منذ أيام الاسكندر، فلم يكن بد من أن تكون الحاضرة - على أثر انتقال مركز السيادة على مصر إلى بلاد العرب - إما على البحر الأحمر، وإما على نقطة تسهل منها المواصلات البرية، ولما لم تكن العرب أمة بحرية، لم يكن بد من أن يتخذوا حاضرتهم الجديدة فى نقطة برية سهلة الاتصال ببلاد العرب، أضف الى ذلك حكمة عمرو فى اختيار موقع الفسطاط، لأنه كان يستطيع من هذا الموقع أن يشرف على قسمى الديار المصرية شمالا وجنوبا، ثم لقرية من الطريق الى بلاد العرب.

هذا بالاضافة - كما يقول ستانلى لينبول - الى أن الخليفة عمر بن الخطاب - الذى لم يكن يحلم فى ذلك الوقت بتأسيس امبراطورية إسلامية شاسعة الأرجاء - كان مولعا بأن يكون على اتصال دائم بجيشه فى مصر، إذ كان ينظر إلى البلد التى تم له فتحها على أنها بمثابة ثكنات للجيش أكثر مما كان ينظر إليها على أنها مستعمرة.

وعن اختيار موقع الفسطاط وسبب تسميتها بالفسطاط يقول ابن عبد الحكم: إن عمرو بن العاص عندما أراد التوجه الى الاسكندرية لقتال من بها من الروم، أمر بنزع فسطاطه (خيمته)، فاذا فيه يمام قد فرّخ، فقال : لقد تحرم منا بمتحرم، فأمر به، فأقره كما هو، وأوصى به صاحب القصر، فلما قفل المسلمون من الاسكندرية، وقالوا : أين ننزل؟ قال : الفسطاط - لفسطاطه الذى كان خلفه بدار الحصى (الحصار كما يقول المقرئى)، عند دار عمرو الصغيرة اليوم.

وعن سبب تسميتها بالفسطاط يقول السيوطى عن ابن قتيبة : إن العرب تقول لكل مدينة : فسطاط ! ولذلك قيل لمصر : فسطاط. وذكر حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : عليكم بالجماعة، فان يد الله على الفسطاط. قال ابن قتيبة : الفسطاط المدينة.

أما بتلر فيرى أن الفسطاط مشتقة من لفظ «فساط»، وهو لفظ روماني «fossatum» كان شائعا فى وقت الفتح على العسكر، وكان الرومانيون فى حصن بابلليون اذا ذكروا موضع عسكر العرب سموه الفساطوم، فأخذ عنهم العرب ذلك اللفظ .

وعن موقع الفسطاط يقول المقرئى : إعلم أن موضع الفسطاط الذى يقال له اليوم مدينة مصر، كان فضاء ومزارع فيما بين النيل والجبل الشرقى الذى يعرف بالجبل المقطم، ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن يعرف اليوم بقصر الشمع وبالمعلقة، ينزل به المتولى على مصر من قبل القياصرة

ملوك الروم، عند مسيره من مدينة الاسكندرية، ويقيم فيه ما شاء ثم يعود الى دار الامارة ومنزل الملك من الاسكندرية.

ويقول ابن دقماق عن الفسطاط : هى مدينة مستطيلة على ضفة النيل الشرقية، تحط فى ساحلها المراكب، والفسطاط فى الاقليم الثالث، وبينها وبين مدينة القاهرة قدر ميلين.

وتدل أوصاف الخطط وتقدير الأبعاد - كما يقول عبد الله عنان - على أن موقع الفسطاط القديمة، كان يشغل مسطحا طوله نحو خمسة آلاف متر، حده من الشمال جبل يَشْكُر الذى يقع عليه جامع ابن طولون الآن، ومن الجنوب دير الطين (أو دير مار يوحنا)، وفى وسطه جامع عمرو، ممتدا على ضفة النيل مقابل الجزيرة التى تعرف الآن بجزيرة الروضة، وأن عرض هذا المسطح لم يكن يزيد على ألف متر لأن النيل حده الغربى. وكان مجرى النيل يومئذ على ما يظهر أقرب الى الفسطاط من موضعه الحالى.

وعن اختطاط الفسطاط تذكر المصادر العربية أن عمرو بن العاص قد اختط موضع الفسطاط داره وأمر المسلمين أن يحيطوا حول فسطاطه، ففعلوا، واتصلت العمارة بعضها ببعض. وعندما تنافست القبائل بعضها الى بعض فى المواضع، ولى عمرو بن العاص على الخطط - كما ذكرت فى فصل سابق - معاوية بن حديج التجيبى، وشريك بن سمي الغطيفى بن مراد، وعمرو بن قحزم الخولانى وحيويل بن ناشرة المعافرى، فكانوا هم الذين أنزلوا الناس، وفصلوا بين القبائل، وذلك فى سنة ٢١هـ / ٦٤١م.

ويرى محمد عبد الله عنان أنه بتوزيع «الخطط» بين قبائل العرب يبدأ قيام الفسطاط كقاعدة ومدينة اسلامية. وقد نسبت المدينة الى عمرو بن العاص، فقيل : فسطاط عمرو، وتداولت عليها بعد ذلك ولاية مصر، فاتخذوها سرير السلطنة.

ويرى محمد عبد الله عنان أنه لم يتج للفسطاط فى عصورها الأولى، ما أتيح لغيرها من قواعد الاسلام من الضخامة والبهاء، لأنها لبثت خلال القرنين الأولين للهجرة، عاصمة لاقليم فقط من أقاليم الخلافة، ومنزلا للحكام المحليين، وقاعدة عسكرية لفتوح أخرى فى الغرب والجنوب. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن السبب يرجع أيضا - كما تقول د. سيدة كاشف - الى عيشة الخشونة التى كانت تغلب عليهم فى أول الأمر، ثم مالبث الرخاء أن طغا عليهم، وتدفقت الثروة إليهم من كل جانب فبدأوا ينزعون عنهم عيشة البساطة، وينعمون فى حياتهم ومساكنهم.

وسنعرض الآن وصف الرحالة والمؤرخون العرب للفسطاط لنتبين مدى عظمتها. يقول ابن حوقل: «والفسطاط مدينة كبيرة نحو ثلث بغداد، ومقدارها نحو فرسخ، على غاية العمارة والخصب والطيبة واللذة، ذات رحاب فى محالها، وأسواق عظام ومتاجر فخام، وممالك جسام الى ظاهر أنيق، وهواء رقيق وبساتين نضرة ومقننات على مر الأيام خضرة».

ويقول أيضا : «والدار تكون بها طبقات سبعا وستا وخمس طبقات، وربما سكن فى الدار الواحد المائتان من الناس».

وقبل أن نعرض لأسماء بعض الدور فى الفسطاط وموقعها وأسماء الأزقة والشوارع، نقول :إن معظم الدور فى الفسطاط فى بادىء الأمر، كانت ذات طابق واحد، اذ لم يكن هناك داع للارتفاع بالسكن رأسيا، لتوافر المساحة الأفقية، كما أن عدم موافقة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب على بناء غرفة، أرادها خارجة بن حذافة فوق داره، تؤكد لنا هذا الأمر.

كانت أول دار بنيت فى الفسطاط هى دار عمرو بن العاص : مكان فسطاطه، وهى اليوم عند باب المسجد.

دار عبد الله بن عمرو بن العاص : عند المسجد الجامع، وهى دار كبيرة بناها بنفسه وبنى فيها قصرا على تربيعة الكعبة الأولى. وهذا الوصف

يدل على مدى اتساعها بحيث كان يسمح ببناء قصر بداخلها، كما يدل على بساطة تخطيطها على نسق الكعبة في بداية أمر بنائها.

دار القُند : وهي خطة خارجة بن حذافة بن غانم العدوي من الصحابة، وتقع في غربي دار البركة مع زقاق الأقفال. وكان خارجة أول من ابتنى غرفة بالفسطاط، فكتب بذلك إلى عمر، فكتب إلى عمرو أن أدخل غرفة خارجة، وأنصب سريرًا، وأقم عليه رجال ليس بالطويل ولا بالقصير، فإن أطلع من كُوَاهَا فاهدمها، ففعل ذلك عمرو، فلم يبلغ الكوى، فأنقروها.

وفي رواية ابن عبد الحكم أن عمر بن الخطاب كتب إلى عمرو بن العاص: «سلام، أما بعد، فإنه بلغني أن خارجة بن حذافة بنى غرفة، ولقد أراد خارجة أن يطلع على عورات جيرانه فإذا أتاك كتابي هذا فاهدمها إن شاء الله. والسلام».

دار البركة : وهي دار بناها عمرو بن العاص لعمر بن الخطاب عند المسجد الجامع، إلا أن عمر بن الخطاب رفض وأرسل إليه يقول : «أني لرجل بالحجاز تكون له دار بمصر؟ وأمره أن يجعلها سوقا للمسلمين». فجعلت سوقا يباع فيها الرقيق - كما ذكرت في موضوع الأسواق.

دار العُمْد : التي اختطها أبو ذرّ الغفاري^(١)، وكان لها بابان : في زقاق القناديل، والباب الآخر مما يلي دار بركة.

دار النُخلة : وهي كانت لكعب بن يسار بن ضينة العبسي.

دار السلسلة : في غربي المسجد، وقد بناها عمرو بن العاص حين قدم عليه من بني سهم من لم يكن شهد الفتح.

(١) أبو ذر الغفاري واسمه جندب بن جنادة. أسلم قديما بمكة، وكان من فضلاء الصحابة ونبلائهم وقرائهم. شهد فتح مصر، واختط بها، ولهم عنه عشرون حديثا، وقد سكن مصر مدة، ثم خرج منها. توفي بالريذة عام ٣٢هـ / ٦٥٢م.

دار بنى جُمح : وكان مكانها بركة يجتمع فيها الماء، فقال عمرو بن العاص، خطوا لابن عمى الى جانبى يُريد وهب بن عُمير الجمحى، وهو ممن شهد الفتح فردمت وخطت له.

دار الحَنِيَّة وَدار الموز: وهما لعبد الله بن سعد بن أبى سرح، أما قصره الكبير المعروف بقصر الجن فقد بناه بعد ذلك فى خلافة عثمان بن عفان(٢٤ - ٣٥هـ / ٦٤٤ - ٦٥٥م) وقد أمر ببناؤه حين خرج إلى المغرب لغزو إفريقية.

دار الفلفل : وهى فى قبلة المسجد الجامع، وقد اختلف المؤرخون فى مالكةا، فمنهم من قال : إنه قيس بن سعد بن عبادة عندما ولى البلد من قبل على بن أبى طالب، ومنهم من قال : إنها لنافع بن عبد القيس، ومنهم من قال : إنها لعقبة بن نافع فأخذها قيس بن سعد منه، ومنهم من قال : إنها لسعد ابن أبى وقاص.

على أية حال، فقد سميت بدار الفلفل، لأن أسامة بن زيد التنوخى عندما كان على خراج مصر، إبتاع من موسى بن وردان قلفلابعشرين ألف دينار بأمر من الخليفة الوليد بن عبد الملك، ليهديه الى صاحب الروم، فخرّنه فى هذه الدار.

دار الرمل : ويقول عنها ابن عبد الحكم إن عقبة بن عامر قد بناها لرُملة بنت معاوية،فكتب اليه معاوية يقول : لا حاجة لنا بها، فاجعلها للمسلمين. وبرملة سميت دار الرمل، لأنهم كانوا يقولون : دار رُملة فحرفت العامة ذلك، وقالوا دار الرمل. وهناك رأى آخر يقول : إنما سميت دار الرمل لما ينقل إليها من الرمل لدار الضرب.

الدار البيضاء : وقد اختطها عبد الرحمن بن عُدَيْس البلوى، ويقال : بل كانت الدار البيضاء صَحْنًا بين يدى المسجد ودار عمرو بن العاص، موقفا لخیل المسلمين على باب المسجد، حتى قدم مروان بن الحكم مصر فى سنة

٦٥هـ / ٦٨٤م، فبناها لنفسه داراً، وقال : «ما ينبغي للخليفة أن يكون ببلا
ليس له بها دار». فبنيت له في شهرين.

الدار المذهبية : وهي غربي المسجد الجامع بسوق الحمام، وقد أمر
ببنائها عبد العزيز بن مروان سنة ٦٧هـ / ٦٨٦م عندما كان والياً على مصر،
ويبدو أنها عرفت بدار الذهب لأنه جعل لها قبة مذهب، يقول عنها القلقشندي
: إذا طلعت عليها الشمس لا يستطيع الناظر التأمل فيها خوفاً على بصره.
كما كانت تعرف «بالمدينة»، لسعتها وعظمتها، فقد كان يصب لمن فيها في كل
يوم أربعمئة راوية ماء، وكان فيها خمسة مساجد وحمامان وعدة أفران
يخبز بها عجين أهلها.

دار ابن رمانة : وقد بناها عبد العزيز بن مروان لابن رمانة، فيقول ابن
عبد الحكم : كان ابن رمانة مع عبد العزيز بن مروان في الكتاب، وكان عبد
العزيز قد وهب لابن رمانة خاتماً كان له، فلما صار عبد العزيز إلى ما صار
إليه قدم عليه ابن رمانة من الحجاز، وأخرج له الخاتم فعرفه، وبنى له هذه
الدار.

دار بدر الخفيفي : غلام ابن طولون وكانت بالفسطاط، ويقال إن أحمد
ابن طولون هو الذي بناها، وقيل اشتراها له، ثم سخط عليه واتهمه بمكاتبة
الموفق فقتله بالسياط.

دار المرصدي : وهي التي عند البزازين، وتعرف بدار تحرير الخاصة،
كان كافور أمير مصر يسكنها قبل انتقاله إلى دار الحرم. ويقال إن بانيها
هو محمد بن أحمد الأعور المانرائي المتوفى سنة ٣٠٧هـ / ٩١٩م.

دار الفيل : هي الدار التي على بركة قارون، وكان كافور أمير مصر قد
اشتراها، وبنى فيها داراً، ذكر أنه أنفق فيها مائة ألف دينار، وقد سكنها في
رجب عام ٣٤٦هـ / ٩٥٧م إلى أن مات ودفن بها. وقيل إنه لم يسكن فيها إلا
عدة أيام، حتى عمروا له دار خمارويه المعروفة بدار الحرم فانتقل إليها

وسكنها عام ٣٤٧هـ / ٩٥٨م وأقام فيها عشر سنين الى أن توفي عام ٣٥٧هـ / ٩٦٧م. وقيل إن سبب انتقاله من دار الفيل بخار البركة، وقيل وباء وقع فى غلمانه، وقيل ظهر له بها جان.

دار الضيافة : يذكر المقرئى أن أول من بنى دارا للضيافة بمصر للناس عثمان بن قيس بن أبى العاص السهمى أحد من شهد فتح مصر من الصحابة. وكان ميدان القصر الغربى الذى هو الآن الخرشف، دار الضيافة بحارة برجوان. وكان أول من اتخذ دار ضيافة فى الاسلام عمر بن الخطاب سنة ١٧هـ وأعد فيها الدقيق والسمن والعسل وغيره.

هذه أسماء بعض الدور التى بناها العرب بالفسطاط، ومنها يتضح أن الفسطاط كانت مدينة عربية يسكنها العرب فقط.

يقول المقرئى فى كتابه : إن الفسطاط كان به ثمانية آلاف شارع مسلوكة، وعند وصف أزقة الفسطاط وشوارعها يقول: «وأزقة الفسطاط وشوارعها ضيقة».

وعن الدروب التى بالفسطاط يذكر ابن دقماق أنه كان بالفسطاط درب يعرف «بدرب المعاصر»، وموقعه بالمصاصة على يسرة من سلك من سوقية اليهود الى «درب محرس بنانه»، وكان هذا الدرب (أى درب المعاصر) يسكن به «أكابر أعيان المصريين»، مما يشير الى أنه كان من الأحياء الراقية. ومن الدروب أيضا «درب السراجين»، و«درب دار حوى» و«درب الزجاج».

ومن الأزقة التى كانت بالفسطاط «زقاق القناديل»^(٢)، ويذكر ابن عبد الحكم أن زقاق القناديل كان يقال له «زقاق الأشراف» لأن عمرا بن العاص كان على طرفه مما يلى المسجد الجامع. وكان يوجد بالفسطاط أيضا «زقاق

(٢) عرف بهذا الاسم لأنه كان به منازل الأشراف، وعلى أبوابهم قناديل، وقيل: إنما قيل له زقاق القناديل، لأنه كان برسمه قنديل يوقد على باب عمرو بن العاص .

البلاط، و«زقاق عبد الملك بن مَسْلَمَة» و«زقاق السمي»، و«زقاق المكي»، و
«زقاق ابن رفاعه»، و«زقاق أبي حكيم»، و«زقاق وردان»، و«زقاق أشهب»، و
«زقاق حَمْد بن غافق»، و«زقاق الموزة»، و«زقاق الأقفال»، و«زقاق ابن لؤلؤ»
وكان لؤلؤ من قواد الاخشيدي، وكان هذا الزقاق يقابل «زقاق الكلبى»، و«زقاق
الرواسين».

ثانيا : العسكر :

لما سقطت الدولة الأموية وجاءت دولة بنى العباس، اختط العباسيون مدينة
العسكر ففقد فر بنو أمية الى مصر وعلى رأسهم مروان بن محمد آخر
خلفائهم، فتتبعتهم جيوش بنى العباس الى مصر بقيادة صالح بن على بن
عبد الله عباس، وأبى عون عبد الملك بن يزيد، فظفرت به. وقد بنوا فى
الموضع الذى عسكروا فيه مدينة، فسميت لذلك بالعسكر، وكان ذلك عام
١٣٣هـ / ٧٥٠م. ويذكر المقرئى أن هذا الموضع كان فى صدر الاسلام
يعرف بعد الفتح بالحمراء القصوى، وهى كما تقدم : خطة بنى الأزرق،
وخطة روبييل، وخطة بنى يشكر بن جزيلة من لخم، ثم دثرت هذه الحمراء
وصارت صحراء، وعندما جاءت جيوش العباسيين عسكروا فيها، وبنوا فيها
مدينة سميت بالعسكر.

وكان اختاط العسكر - كما تقول الدكتورة سيدة كاشف - إما لرغبة
العباسيين فى أن يتخذوا لأنفسهم مقرا لم يسبق اليه غيرهم، وإما لأن مروان
ابن محمد كان قد أضرم حريقا خرب جانبا كبيرا من الفسطاط، كما يقال
فى بعض الروايات.

وقد بنى أبو عون فيها دارا للامارة، كما بنى مسجدا عرف بجامع
العسكر، كما كانت مقرا للشرطة، وقيل لها الشرطة العليا.

وكانت العسكر مدينة ذات أسواق ودور عظيمة، وفيها بنى أحمد بن
طولون بيمار ستانه، كما بنى الجامع المعروف باسمه على جبل يشكر. ولما

بنى أحمد بن طولون القطائع اتصلت مبانيها بالعسكر، وكانت عمارة عظيمة كما يقول المقرئ.

وكان من أهم الدور التي بنيت بالعسكر الى جانب دار الامارة :

دار كافور الأخشيدي : يذكر المقرئ أنه بناها بالعسكر على بركة قارون، وقد أنفق عليها مائة ألف دينار، وسكنها في سنة ٣٤٦هـ / ٩٥٧م، ثم انتقل منها بعد أيام لوباء وقع في غلمانه من بخار البركة.

قبة الهواء : وهي دار شيدها حاتم بن هرثمة أحد ولاة مصر (١٩٤ - ١٩٥هـ / ٨٠٩ - ٨١٠م) من قبل الخليفة الأمين محمد - على جبل المقطم، وقد استمرت قائمة حتى عصر الطولونيين. وقد شيدها من الحجارة وغيرها من مواد البناء.

ثالثا : القطائع :

استمر أحمد بن طولون بدار الامارة التي بالعسكر حتى كثرت عساكره وعبيده، وضافت بهم مدينة الفسطاط، فأمر بحرث قبور اليهود والنصارى التي كانت في سفح جبل يشكر، وبنى مدينة شرقي مدينة الفسطاط وسماها «القطائع» وذلك في عام ٢٥٦هـ / ٨٦٩م. وقد سميت كل قطيعة باسم من سكنها، سواء ممن تجمعهم رابطة الجنسية أو رابطة العمل. «فكانت للنوبة قطيعة مفردة تعرف بهم، وللروم قطيعة مفردة تعرف بهم، وللغلمان قطيعة مفردة تعرف بهم، وبنى القواد مواضع متفرقة».

وترى الدكتورة سيدة كاشف أن أحمد بن طولون كان حكيما في إنشاء القطائع، فقد أمكنه بذلك ابعاد جيشه غير المتجانس عن الأحياء العربية المصرية، وتجنب بذلك ما كان ممكنا حدوثه من الشغب بسبب اختلاط جنده بالتجار وغيرهم من سواد الشعب، على نحو ما حدث لجند الخليفة المعتمد في بغداد، وكان سببا في انشاء سامرا.

كما يرى الدكتور زكى محمد حسن أن تخطيط مدينة القطائع أو اسمها لم يكن غريباً، إذ كان يشبه إلى حد كبير تخطيط سامرا، كما كان يطلق اسم القطائع على مدينة سامرا التي بناها المعتصم، اللهم إلا القصور الملكية.

وعن موقع القطائع ومساحتها يقول أبو المحاسن : وكان موضعها من قبة الهواء، التي صار مكانها الآن قلعة الجبل، إلى جامع ابن طولون وهذا طول القطائع، وأما عرضها فانه كان من أول الرُميلة من تحت القلعة إلى الموضع الذى يعرف الآن (أى فى زمان أبى المحاسن) بالأرض الصفراء عند مشهد الرأس الذى يقال له الآن زين العابدين، وكانت مساحة القطائع ميلاً فى ميل. وكان تحت قبة الهواء قصر ابن طولون، وموضع هذا القصر الميدان السلطانى الآن تحت قلعة الجبل بالرميلة. وكان موضع سوق الخيل والحمير والبغال والجمال بستاناً . ويجاورها الميدان الذى يُعرف اليوم بالقببَّينان، فيصير الميدان فيما بين القصر والجامع الذى أنشأه أحمد بن طولون المعروف به، ويجوار الجامع دار الامارة فى جهته القبلىة، ولها باب من جدار الجامع يخرج منه إلى المقصورة المحيطة بمُصلّى الأمير إلى جوار المحراب. وهناك دار الحرم.

وقد عمرت القطائع «عمارة حسنة» كما يقول البلوى، وتفرقت فيها السكك والأزقة، وبنيت فيها المساجد الحسان، والطواحين. والحمامات والأفران، وسميت أسواقها، فسمى منها : سوق العيارين، يجمع فيه البزازين والعطارين، وسوق الفاميين، يجمع فيه الجزارين والبقالين والشوائين. وكان فى دكاكين الفاميين جميع ما فى دكاكين نظرائهم فى المدينة وأكثر وأحسن، وسوق الطباخين، يجمع فيه الصيارفة والخبازين وأصحاب الطواء. ثم لكل صنف من جميع الصنائع أفرد له سوق حسن عامر. «فكانت هذه المدينة أعمر من مدينة كبيرة من مدن الشام وأكبر وأحسن».

وكانت أهم الدور التي بنيت فى القطائع فى الدولة الطولونية على النحو الآتى :

قصر أحمد بن طولون :

وعن وصف قصر أحمد بن طولون تقول المصادر العربية : وبنى أحمد بن طولون قصره ووسعه وحسنه، وجعل له ميدانا كبيرا يضرب فيه بالصوالة، فسمى القصر كله الميدان من أجل الميدان، فكان كل من أراد الخروج من صغيراً أو كبير إذا سئل عن ذهابه يقول: الى الميدان، وقد عمل للميدان أبواباً وسمى كل باب منها باسم وهي: باب الميدان، ومنه كان يدخل ويخرج معظم الجيش ، وقد ذكر البلوى في كتابه أن باب الميدان كان يسمى أيضاً باب الصوالة، في حين أن المقرئى عد باب الصوالة من ضمن أبواب القصر، على أية حال فقد كان يوجد أيضاً باب الخاصة، لا يدخل منه إلا خاصته. وباب الجبل لأنه كان مما يلي المقطم. وباب الحرم لا يدخل منه إلا خادم خصى أو حرمه. و باب الدرmon سمي باسم حاجب كان يجلس عليه يقال له الدرmon لأنه كان رجلاً أسود، عظيم الخلقة، يتقلد النظر في جنائيات الغلمان السودان الرجالة فقط .

وباب دعناج سمي باسم حاجب كان عليه يقال له دعناج. وباب الساج عرف بذلك لأنه كان مصنوعاً من خشب الساج. وباب الصلاة في الشارع الأعظم، كان يخرج منه الى الجامع الذي بناه، وهو يعرف أيضاً بباب السباع لأنه صور عليه سبعين من جبس. وكان الطريق الذي يخرج منه أحمد بن طولون، وهو الذي يعرج منه الى القصر، طريقاً طويلاً، فقطعه بحائط وعمل فيه ثلاثة أبواب كأكبر ما يكون من الأبواب، وكانت متصلة بعضها ببعض، واحد بجانب الآخر. وكان أحمد بن طولون إذا ركب لعيد أو لغيره يخرج معه عسكر متكاثف الخروج على ترتيب حسن بغير زحمة، ويخرج ابن طولون من الباب الأوسط من الأبواب الثلاثة، لا يختلط به أحد، فتلك السكة الى اليوم تسمى ثلاثة أبواب، ومن هذه الأبواب واحد قائم الى اليوم، ودخل البابان الاخران في بناء الناس لما خربت القطائع.

وكانت أبواب قصره التى ذكرناها، تفتح يوم عرض الجيش، أو يوم عيد، أو يوم صدقة، أما سائر الأيام فانها تفتح فى وقت وتغلق فى وقت .

وكان لأحمد بن طولون فى قصره مجلس يشرف منه يوم العرض ويوم الصدقة، لينظر من أعلاه من يدخل ويخرج، وكان الناس يدخلون من باب الصوالجة ويخرجون من باب السباع .

وقد بنى على باب السباع مجلسا يشرف منه ليلة العيد على القطن، ليرى حركات الغلمان وتأهيبهم وتصرفهم فى حوائجهم، فإذا رأى فى حال أحد منهم نقصا أو خللا أمر له فى الوقت بما يتسع له ويزيد فى جملة، وكان يشرف منه أيضا على البحر وعلى باب مدينة القسطة.

بيت الذهب

بنى فى زمن خمارويه بن أحمد بن طولون، ويحدثنا المقرئ عن جدرانه أنها كانت مطلية بطبقة من الذهب، فيها نقوش اللازود، وجعل فيه، على مقدار قامة ونصف، صورا فى حيطانه بارزة من خشب معمول على صورته وصور حظايا والمغنيات اللاتى تغنيه بأحسن تصوير، وأبهج تزويق، وجعل على رؤسهن الأكاليل من الذهب الخالص، والكواند^(٣) المرصعة بأصناف الجواهر، وفى أذانها الأجراس الثقال الوزن، المحكمة الصنعة، وهى مسمرة فى الحيطان ولونت أجسامها بأصناف أشباه الثياب من الاصباغ العجيبة. فكان هذا البيت من أعجب مباني الدنيا.

(٣) الكودن جمع كواند: البرنون الهجين .

بركة الزئبق:

وجاءت فى وسط بيت الذهب، وكان خماريه قد شكا الى طبيبه كثرة السهر، فقال له تأمر بعمل بركة من الزئبق! فعملت بركة - كما يقول المقرئى - يقال إنها خمسون زراعا طولاً فى خمسين زراعا عرضاً، وملأها من الزئبق! فأنفق فى ذلك أموالاً عظيمة، وجعل فى أركان البركة سككا من الفضة الخالصة، وجعل فى السكك زنابير من حرير محكمة الصنعة فى حلق من الفضة، وعمل فرشاً من آدم يحشى بالهواء حتى ينتفخ فيحكم حينئذ شدّه، ويلقى على تلك البركة الزئبق، وتشد زنابير الحرير التى فى حلق الفضة بسكك الفضة، وينام على هذا الفرش، فلا يزال الفرش يتحرك بحركة الزئبق مادام عليه، وكانت هذه البركة من أعظم ما سمع به، فكان يرى لها فى الليالى المقمرة منظر عجيب اذا تألف نور القمر بنور الزئبق، وقد أقام الناس بعد خراب القصر مدة يحفرون لآخذ الزئبق من شقوق البركة.

الدكة:

وقد بنى خماريه فى القصر أيضاً قبة تضاهى قبة الهواء سماها «الدكة» فكانت أحسن شئء بنى كما يقول المقرئى - وجعل لها الستر التى تقى الحرو البرد، فتسبل اذا شاء وترفع اذا أحب، وفرش أرضها بالفرش، وعمل لكل فصل فرشاً يليق به، وكان كثيراً ما يجلس فى هذه القبة ليشرف منها على جميع ما فى داره من البستان وغيره، ويرى الصحراء والجبل وجميع المدينة .

دار الحرم:

وبنى خماريه أيضاً دار الحرم، ونقل إليها أمهات أولاد أبيه مع أولادهن، وجعل معهن المعزولات من أمهات أولاده، وأفراد لكل واحدة حجرة واسعة، وقد تكلف بناؤها وأجرة الصنائع سبعمائة ألف دينار.

وقد خربت القطائع على يد محمد بن سليمان الكاتب، فى أيام الخليفة المكتفى بالله (٢٨٩ - ٢٩٥هـ / ٩٠١ - ٩٠٧م)، حنقا على بنى طولون عام ٢٩٢هـ / ٩٠٤م، وأبقى الجامع .

وستتناول الآن بناء كل من مدينة الجيزة وحلوان والعباسة.

أولا: الجيزة.

وهى مدينة اسلامية بنيت فى سنة ٢١هـ / ٦٤١م، وقيل فرغ من بنائها سنة ٢٢هـ / ٦٤١م، وعن سبب بنائها والقبائل التى سكنتها أنظر الموضوع الخاص بالقبائل العربية .

ثانيا : حلوان (٤).

وعن سبب بنائها تذكر المصادر العربية أنه عندما وقع بمصر طاعون فى سنة ٧٠هـ / ٦٨٩م خرج والى مصر عبد العزيز بن مروان من مصر، ونزل بحلوان، فأعجبته، فاتخذها سكنا ، وجعل بها الحرس والأعوان والشرط، وبنى بها الدور والمساجد، وعمرها أحسن عمارة، وبنى بها دارا للامارة وكان عبد العزيز بن مروان قد اشتراها من القبط بعشرة آلاف دينار.

ثالثا: العباسية .

وهى تقع شمالى بلييس على نحو مرحلة منها، وهى محدثة سميت باسم عباسية بنت أحمد بن طولون، عندما خرجت مودعة بنت أخيها قطر الندى بنت خمارويه بن أحمد بن طولون لتتزوج المعتضد، فضربت عباسية فساطيطها بهذا الموضع، ثم بنيت به قرية وسميت عباسية باسمها.

(٤) تعرف الان باسم حلوان البلد، وهى تابعة لمركز الجيزة بمديرية الجيزة. وهى من أقدم القرى التى أنشأها العرب فى مصر، واقعة على الشاطئ الشرقى للنيل، غربى مدينة حلوان الحمامات بمقدار ثلاثة كيلو مترات وجنوبى القاهرة على بعد عشرين كيلو مترا من مصر القديمة.

دار الإمارة:

يجدر بنا بعدما تعرضنا لنشأة المدن الإسلامية الجديدة فى مصر الإسلامية تحت الحكم العربى، أن نشير الى دار الإمارة التى كانت مقرا للأمراء ينزلونها فى هذه المدن، سواء كانت بالفسطاط أو العسكر أو القطائع أو حلوان.

تذكر المصادر العربية أن الأمراء لم يكن لهم فى بادئ الأمر بالفسطاط مقر معين، أو دار للإمارة مخصوصة، فنزل عمرو بن العاص، أول أمراء مصر، بداره التى بالقرب من الجامع، وظل الأمراء من بعده ينزلون بداره الى آخر الدولة الأموية عندما تولى عبد العزيز بن مروان ولاية مصر فى خلافة أخيه عبد الملك بن مروان، فقد بنى دارا عظيمة بالفسطاط عام ٧٧هـ / ٦٩٦م وسماها دار الذهب - كما ذكرنا- فكان عبد العزيز ينزلها، ثم نزلها بنوه بعده. غير أن المصادر العربية تشير الى أنه فى ولاية عبد العزيز بن مروان تعرضت مصر لطاعون وقع بها سنة ٧٠هـ / ٦٨٩م - كما ذكرت سابقا- كان من أثره أن رحل الى حلوان وبنى فيها دار للإمارة سكنها. على أية حال فيبدو لنا أن هذه الدار كانت مؤقتة حتى انتهاء الطاعون أو انتهاء مدة ولايته.

وعندما بنيت العسكر فى ولاية على بن صالح بن على الهاشمى فى خلافة السفاح أول خلفاء بنى العباس، ابنتى فيها دارا للإمارة ونزلها. وكان لهذه الدار بابان - كما يذكر البلوى - أحدهما بالحارة المعروفة بحوض أبى قديرة (أو ابن قديد كما يقول ابن دقماق) والمعروف الى اليوم بباب الخاصة، وبابها الآخر الملاصق للشرطة الفوقانية، وكان باب الشرطة أيضا أحد أبوابها، وكانت كلها دارا واحدة، ولها باب الى المسجد الملاصق للشرطة .

وقد صارت هذه الدار منزلة للأمراء بعده حتى ولاية يزيد بن حاتم لمصر، فقد كتب اليه الخليفة أبو جعفر المنصور يأمره بأن يتحول من العسكر الى الفسطاط، وكان ذلك فى عام ١٤٦هـ / ٧٦٣م، وقد استمر هذا الوضع حتى قدم أحمد بن طولون أميرا على مصر، فنزل بدار الإمارة التى بالعسكر،

والتي بناها صالح بن على بعد هزيمة مروان بن محمد وقتله، ثم تحول منها الى قصره بالقطنان عندما بنى وذلك فى عام ٢٥٦هـ / ٨٦٩م.

وكانت دار الامارة التي بناها أحمد بن طولون بجوار جامع - كما يقول المقرئى - فى الجهة القبلىة منه، وكان لها باب من جدار الجامع يخرج منه الى المقصورة بجوار المحراب والمنبر. وقد جعل فى هذه الدار جميع ما يحتاج اليه من الفرش والستور والالات ، فكان ينزل بها اذا ذهب الى صلاة الجمعة، فانها كانت تجاه القصر والميدان، فيجلس فيها ويجدد وضوءه ويغير ثيابه .

وترى الدكتورة سيدة كاشف أن تفكير أحمد بن طولون فى ترك دار الامارة التى بمدينة العسكر، أو التى فى الفسطاط، يمثل اتجاهه الجديد فى الاستقلال بمصر، وفى رغبته فى منافسة بلاط العباسيين.

وعندما تولى خمارويه بن أحمد بن طولون مصر بعد أبيه، حول دار الامارة التى بالعسكر - كما تذكر المصادر العربية - ديوانا للخراج.

وقد ظل أمراء الدولة الطولونية ينزلون بالقصر الذى بناه أحمد بن طولون، حتى سقطت الدولة الطولونية على يد محمد بن سليمان الكاتب، الذى هدم القصر، كما هدم أيضا دار الامارة التى بالعسكر - أو كما تقول المصادر العربية فرقت «حجرا حجرا» .

لذلك عندما تولى مصر محمد بن سليمان (٢٩٢ هـ / ٩٠٤م)، سكن دار بدر الخفيفى غلام أحمد بن طولون ، وكانت بالفسطاط - كما ذكرت سابقا - ثم سكنها عيسى النوشرى أمير مصر بعده (٢٩٢ - ٢٩٧ هـ / ٩٠٤ - ٩٠٩م)، فأصبحت منزلة للأمراء، إلى أن ولى الاخشيد مصر، فزاد فيها وعظمتها، وعمل لها ميدانا، وجعل لها بابا من حديد وذلك فى عام ٣٣١ هـ / ٩٤٢م. وقد ظلت منزلة للأمراء إلى أن جاءت الدولة الفاطمية وبنيت القاهرة .

الجواسق^(٥)

ومن الجواسق التى بالقرافة :

جوسق بنى عبد الحكم : كان جوسقا كبيرا له حوش ، وكان فى وسط القرافة بحضرة مسجد بنى سريع الذى يقال له الجامع العتيق، وهو أحد الجواسق الثلاثة. وهو جوسق عبد الله بن عبد الرحمن الفقيه الامام.

جوسق المانرائى : هذا الجوسق - كما يقول المقرئى - لم يبق من جواسق القرافة غيره، وهو جوسق كبير جدا على هيئة الكعبة بالقرب من مصلى خولان فى بحريه، على جانبه الممر من مقطع الحجارة. بناءه أبو بكر محمد بن على المانرائى فى وسط قبورهم من الجبانة، وكان الناس يجتمعون عند هذا الجوسق فى الأعياد، ويوقد جميعه فى ليلة النصف من شعبان كل سنة وقودا عظيما ، ويتحلق القراء حوله لقراءة القرآن . فيمر للناس هنالك أوقات فى تلك الليلة وفى الأعياد بديعة حسنة .

(٥) الجَوْسَقُ جمع جواسق وجواسيق : وهى كلمة فارسية ، بمعنى القصر . قال ابن سيده: الجوسق الحصن، وقيل هو شبيه بالحصن، معرب. وقال الشريف محمد بن أسعد الجوانى النسابة فى كتاب النقط على الخطط: الجواسق بالقرافة والجبانة كانت تسمى القصور.

المارستان (بيت المرضى)

تميزت المدن العربية في مصر ببناء المارستانات، فلم تكن موجودة قبل الفتح العربي، وإنما استحدثت بناؤها بعد الفتح، وهذا يدل على عناية الدولة الإسلامية بصحة رعاياها. وكان الوليد بن عبد الملك هو أول من بنى المارستان في الإسلام في عام ٨٨هـ/٧٠٦م - كما يقول المقرئ - وجعل فيه الأطباء، وأجرى لهم الأرزاق، وأمر بحبس المجذمين لئلا يخرجوا، وأجرى عليهم وعلى العميان الأرزاق.

وقد بُنى في مصر عدد من المارستانات، وهذه المارستانات هي:

البيمارستان أو المارستان العتيق :

المارستان العتيق بمصر ويعرف بالأعلى، أنشأه أحمد بن طولون في سنة ٢٥٩هـ/٨٧٢م وقيل في سنة ٢٦١هـ/٨٧٤م، وهو أول مارستان أنشئ بمصر. وعن موقعه يقول المقرئ: «وهذا المارستان موضعه الآن في أرض العسكر، وهي الكيمان والصحراء التي فيما بين جامع ابن طولون وكوم الجارح، وفيما بين قنطرة السد التي على الخليج ظاهر مدينة مصر، وبين السور الذي يفصل بين القرافة وبين مصر، وقد دُثر هذا المارستان».

ويقول البلوى إن مبلغ ما أنفق عليه وعلى مستغله ستون ألف دينار.

وقد كان لهذا المارستان أوقاف كثيرة، فقد حبس عليه دار الديوان والقيسارية وسوق الرقيق، حتى قيل كان له في كل يوم من المصروف ألف دينار.

وقد شرط في المارستان أن لا يعالج فيه جندي ولا مملوك.

وقد أدخل أحمد بن طولون في هذا المارستان ضروباً من النظام جعلته في مستوى أرقى المستشفيات في الوقت الحاضر - كما تقول الدكتورة سيدة كاشف. فقد اشترط على أنه « إذا جئ بالعليل تنزع ثيابه ونفقتة،

وتحفظ عند أمين المارستان، ثم يلبس ثيابا ويفرش له، ويغدى عليه ويراح بالأدوية والأغذية والأطباء حتى يبرأ، فإذا أكل فروجا ورغيفا أمر بالانصراف، وأعطى ماله وثيابه»، كما عمل بالمارستان حمامين أحدهما للرجال والآخر للنساء.

ويبدو أنه كان لهذا المارستان عيادة خارجية (كما فى الوقت الحاضر)، إلا أنها كانت فى يوم معين من الأسبوع، ومخصصة للفقراء فقط، فيقول ابن أياس: «وكان يجلس على باب المارستان فى كل يوم جمعة طبيببان برسم الفقراء».

وعن خزائن الأدوية يقول البلوى: ان المارستان كان يضم فى «خزائنه من العقاقير النفيسة الخطيرة، والدرياقات المعروفة التى ليست إلا فى خزائن الملوك والخلفاء، فلم يكن يُعدم فى مارستانه شىء من الأدوية ولا العقاقير الرئيسية، مثل : دواء المسك وغيره مما لا يوجد مثله، واشترى له المستغلات النفيسة التى يفى بعضها بجميع حوائجه». وقد أقام أحمد بن طولون على هذه الخزائن خادما أسود خصيا.

وقد بلغ من عناية أحمد بن طولون بهذا المارستان وحرصه على راحة المرضى أنه كان يقوم بالإشراف عليه بنفسه، فيمر كل يوم جمعة عليه، يتفقد خزائنه وما فيها والأطباء، وينظر إلى المرضى والمحبوسين من المجانين. ويقال إنه لم يعاود الإشراف عليه مرة أخرى بعد تعرضه للموت على يد أحد المجانين، عندما أخبره أنه ليس مجنونا، وأنه يتمنى أن يأكل رمانة عريشية، فأمر له بها، فعندما أخذها غافله ورمى بها فى صدره، فنضحت على ثيابه، ولو كانت قد تمكنت منه لأتت عليه.

مارستان كافور :

ويعرف بالمارستان الأسفل، وقد بناه الخازن بأمر من كافور القائم بتدبير دولة الأمير أبى القاسم أنوجور بن محمد الاخشيذ بمدينة مصر فى سنة

٣٤٦هـ/٩٥٧م. وقال القضاعى إن أمير مصر حبس جميع ما بناه من قيسارية ودور وجوانيت على هذا المارستان والميضاتين والسقايتين وأكفان الموتى.

ونذكر شيوخ المصريين المؤرخين أن هذا المارستان كان فيه من الأزار الصينى الكبار، والبرانى، والقصور النحاس، والهواوين، والطشوت وغير ذلك ما يساوى ثلاثة آلاف دينار. وقد نقل إليه من المارستان الأعلى الذى بناه ابن طولون أضعاف ذلك.

مارستان فى زقاق القناديل :

وقيل أنه كان فى عصر الولاة مارستان فى زقاق القناديل دار أبى زبيد.

مارستان المغافر :

وهذا المارستان كان فى خطة المغافر التى موضعها ما بين العامر من مدينة مصر، وبين مصلى خولان التى بالقرافة. بناه الفتح بن خاقان فى أيام المتوكل على الله (٢٣٢ - ٢٤٧هـ/٨٤٦ - ٨٦١م) وقد باد أثره.

الحمامات

كانت المدن الإسلامية تزود بحمامات - مفردا حمام - وهى فى معناها اللغوى تعنى الماء الحار. وهى ليست من ابتكار المسلمين - كما يقول الدكتور عبد المنعم ماجد - ولكنها أخذت من الشعوب التى كانت قبلهم وبخاصة اليونان، فحينما دخل العرب الاسكندرية، وجدوا فيها آلاف الحمامات. وقد دخل الحمام ضمن نظام الإسلام منذ عهد مبكر لارتباطه على الخصوص بفريضة الوضوء، بحيث أن الفقهاء اعتبروه من الأماكن الدينية، فنص الإسلام على النظافة، واعتبرها من جوهر العقيدة.

وتذكر المصادر العربية أن عمرو بن العاص عندما فتح الاسكندرية وجد بها أربعة آلاف حمام. وكان بالفسطاط كما يذكر المقرئى ألف ومائة وسبعون حماما. ويقول ابن اياس: إن مدينة تنيس كان بها ثلاثون حماما.

وقد كان يقوم بالخدمة فى هذه الحمامات عمال أو (بلان) كما يقول ابن دقماق، ويورد لنا ابن دقماق قصة عن دخول أحد الأشخاص أحد الحمامات فى زمن خمارويه بن أحمد بن طولون، يظهر منها أن عدد العمال المشغلين فى أحد الحمامات فى مصر فى تلك الفترة، قد بلغ سبعين عاملا، كما يظهر لنا نظام الخدمة فى الحمامات والتى توضح ضغط العمل حتى إن العامل يضطر إلى خدمة اثنين أو ثلاثة معا فيقول:

كان بالفسطاط فى جهته الشرقية حمام من بناء الروم، أدركتها عاملة زمن أحمد بن طولون، وكانت ملكا لنجح الطولونى أحد قواد خمارويه، ثم توفى سنة ٣١٧هـ/٩٢٩م فانتقلت لديوان خمارويه. قال: فدخلتها فى زمن خماروية سنة ٣١٧هـ/٩٢٩م، وطلبت بها صانعا يخدمنى، أى بلانا، فلم أجد فيها صانعا متفرغا لخدمتى، وقيل لى إن كل صانع معه اثنين يخدمهم وثلاثة، فسألت: كم فيها من صانع؟ فأخبرت أن بها سبعين، أقل من معه ثلاثة. سوى من قضى حاجته وخرج، قال: فخرجت، ولم أدخلها لعدم من

يخدمنى بها، ثم طفت غيرها، فلم أقدر على من أجده فارغا إلا بعد أربعة حمامات، وكان الذى خدمنى معه ثان، وإنها ألف ومائة وسبعون حماما.

كما كان يقوم بالخدمة فى الحمامات إلى جانب هؤلاء العمال حراس للملابس، ويذكر الكندى أن أبا صالح يحيى بن داؤود الشهير بابن ممدود عندما تولى مصر من قبل المهدي (١٦٢ - ١٦٤ هـ / ٧٧٨ - ٧٨٠ م) «منع حراس الحمامات أن يجلسوا فيها وقال: من ضاع له شيء فعلى أدائه. فكان الرجل يدخل الحمام فيضع ثيابه، ويقول: يا أبا صالح احفظها. فكانت الأمور على هذا مدة ولايته».

وقد انقسمت أنواع الحمامات فى مصر إلى:

حمامات عامة - حمامات خاصة - حمامات للسيدات.

وبالنسبة للحمامات العامة :

فقد كان أول حمام بنى فى مصر بعد الفتح العربى هو حمام الفار، وقد اختطه عمرو بن العاص وهو بسوق المغاربة، وقيل إنه سمي حمام الفار لأن حمامات الروم كان حجمها كبيرا، فلما بنى هذا الحمام، ورأوا صغر حجمه، قالوا: من يدخل هذا؟ هذا حمام الفار.

حمام بُسر:

وهو بسر بن أبى أرطاة القرشى^(٦)، وهذه الحمام من خطته، ولم يبق له أثر.

(٦) بسر بن أرطاة: كان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، شهد فتح مصر، واختط بها، وكان من شيعة معاوية، شهد صفين معه، وولى البحرين له. وقد أرسله معاوية والى الشام على رأس أسطول للاشتراك مع الأسطول المصرى فى صد الروم، وكان ذلك فى موقعة ذى الصوارى عام ٣٤ هـ / ٦٥٤ م. ويقال إن بسر كان اذا ركب البحر قال: انت بحر وأنا بسر، على وعليك الطاعة لله، سيروا على بركة الله. وقد اختلفت الآراء فى تاريخ وفاته وفاته.

حمام ابن نصر السراج:

عند حبس بئانة، هي من خطة زياد بن ذهل من بنى سامد بن لؤي، ثم صارت إلى حويت بن جناد مولى بنى سمح، وقيل هو مولى عتبة بن أبي سفيان، بناها حمامين، ثم اشتراها عاصم بن أبي بكر بن عبدالعزيز. ثم بيعتا في الصوافى سنة ٣٠٨هـ/٩٢٠م وانتقلتا إلى أبي نصر السراج فبناها حمامين: إحداهما تعرف الآن - كما يقول ابن دقماق - بحمام الكعكى، والثانية تعرف بحمام التكاررة.

حمام السوق الكبير:

وهي من خطة خولان الذى حازه الوليد بن عبد الملك، وتعرف الآن - كما يقول ابن دقماق - بحمام الصافى.

حمام القبو:

هو من فضاء الراية، وكان بشر بن مروان قد حازه فيما حازه، ثم أقطع ذلك كله المهدي لمارة مولى أبي جعفر المنصور، ثم اشتراه الحكم، ثم تنقلت، وهي الآن فى حبس السرى، وتعرف بالكنيسة لقربها من كنائس أبى شنودة.

حماما الزيتين:

من الفضاء لابن الجصاص ابتاعهما من الصوافى، وهما اليوم من جملة الاحباس.

حمام أبى مرقة:

كان خطة لرجل من تنوخ هو جدّ ابن علقمة، فسأله إياه عبدالعزيز بن مروان، فوهبه له فبناه حماما لزيان بن عبدالعزيز. وأبو مرقة هو اسم الصنم الذى على بابيه، وكان هذا الصنم من رخام على خليفة المرأة، وقد كسر فى سنة ١٠٢هـ/٧٢٠م عندما أمر يزيد بن عبد الملك بكسر الأصنام. وهو يعرف الآن - كما يقول ابن دقماق - بحمام بثينة.

حمام نقاشى البلاط:

هذا الحمام يعرف بحمام أبى الفرج بن الكاتب، حبسه على أئمة الجامع العتيق.

حمام سوق وردان:

هو من الفضاء، وكان من إقطاع مسلمة بن مخلد الأنصارى من الصحابة، ثم صار هذا الحمام إلى بنى أبى بكر بن عبدالعزيز بن مروان من قبل أمهم، ثم قبض عنهم، فاشتراه ابن أبى خلف، ثم تنقل. وهو الآن - كما يقول ابن دقماق - جار فى ديوان أحباس الجامع العتيق بمصر.

حمام الخشابين:

وتعرف بحمام الجزى، هى حمام عمر بن على بن أبى عبد الرحمن الفهرى، وقد خربت.

حمام جنادة:

بالقرافة. قال القاضى إنه ما كان يتوصل إليه إلا بعد عناء من الزحام، وإن قبالة فى كل يوم جمعة خمسمائة درهم.

حمام الكبش:

وهو الحمام الذى يعرف اليوم - كما يقول ابن عبدالحكم - بحمام السوق.

أما بالنسبة للحمامات الخاصة: ويقصد بها حمامات البيوت:

فقد ذكرت سابقا عند الحديث على الدار المذهبة وهى الدار التى أمر بينائها عبدالعزيز بن مروان أنه كان بها حمامان.

ومن الدور أيضا التى امتازت بوجود حمام بها:

دار مسلمة بن مخلد:

يقول ابن عبدالحكم: «فلما ولي مسلمة بن مخلد سائله معاوية داره (دار الرمل وهي خطة مسلمة مع أبو رافع مولى رسول الله (ص) مع عقبة بن عامر) فأعطاه إياه، وخط له في الفضاء داره ذات الحمام».

دار العُمْد:

يقول ابن عبد الحكم: «واختط أبو ذر الغفاري دار العُمْد ذات الحمام».

دار عبدالأعلى بن أبي عَمْرَة:

وهو مولى لبنى شيبان، وكانت داره ذات حمام، يقال له حمام التبن.

دار السلسلة:

«قال عبدالملك بن مسلمة: أقطعها عبدالعزيز الفهري مولى ابن رمانة حين قدم عليه، وبنائها له يزيد بن رمانة، وهي الدار التي تعرف اليوم: بدار السلسلة».

أما بالنسبة للحمامات الخاصة بالسيدات:

فلم تذكر المصادر العربية منها - في حدود علمي - سوى حمام سهل. وكان بعض الولاة يمنعون النساء من الخروج من بيوتهن، والتوجه إلى الحمامات، كما حدث في ولاية أيوب بن شرحبيل (٩٩ - ١٠١هـ/٧١٧ - ٧١٩م) من قبل عمر بن عبدالعزيز، فقد منع النساء من دخول الحمامات. أيضا في ولاية مزاحم بن خاقان من قبل المعتز (٢٥٣ - ٢٥٤هـ/٨٦٧ - ٨٦٨م) الذي منع النساء من الخروج من بيوتهن والتوجه إلى الحمامات.

مصانع الماء - الفسقيات - العيون - القناطر

أولا : بناء مصانع الماء:

المقصود بالمصانع حياض الماء، وهى أشبه بالأحواض التى تبنى فى الأرض لتخزين المياه وحفظها، ولجمع مياه المطر.

ومن البلاد التى بنيت بها المصانع وذكرتها المصادر:

الفسطاط:

وكان بها الكثير من المصانع منها:

المَصْنُوعَة المعروفة بدكيلة (أو بدليلة كما يقول المقرئى): وكانت بحضرة العقبة التى يصار منها إلى يحصب.

المَصْنُوعَة المعروفة بسمينة: وكانت فى وسط يحصب، وهى ذات عمد رخام.

المَصْنُوعَة ريا: وكانت بحضرة المسجد المعروف بمسجد القبة.

كما كان بالفسطاط مَصْنُوعَة مقابلة للميدان من دار الامارة فى طريق المصلى القديم، ومَصْنُوعَة تحت مسجد عمرو بن العاص المقابل لدار عبدالعزيز، ومَصْنُوعَة مقابلة لمسجد التربة المجاورة للمسجد الأخضر.

تنيس:

ذكر ابن بسام أنه كان بتنيس - على أيامه - مصنعان عظيمان من مصانع المياه ينسبان إلى عمرو بن حفص، أحد من تولى أمرها، كذلك أشار إلى وجود مصنع فى وسط المدينة بناه عبدالعزيز الجروى، وكان يسع ثلاثة آلاف وستمائة جرة من الماء.

وكان أحمد بن طولون قد بنى بتنيس صهاريج لحفظ المياه، وذلك عندما دخلها عام ٢٦٩هـ/٨٨٢م.

ثانيا : بناء الفسقيات:

فسقية المعافر :

وقد بناها يزيد بن حاتم فى أثناء ولايته على مصر من قبل أبى جعفر المنصور (١٤٤ - ١٥٢هـ/ ٧٦١ - ٧٦٩م) وأجرى إليها الماء من ساقية أبى عون، وذلك بعد شكوى قبيلة المعافر إليه من بُعد الماء عنهم.

وقد أنفق على بنائها «مالا عظيما». فقال له أبو جعفر المنصور: «لم أنفقت مالى على قومك؟».

الفسقية المعروفة بزوف :

وهم بنو زوف بن زاهر بن عامر من مراد. وقد بناها أبو بكر محمد بن على الماذرائى فى سنتى ثلاث وأربع وثلاثمائة، على يد عمه الحسين بن أحمد ويعرف بأبى زنبور. وقد اشتهرت بزوف لأنها فى خطتهم.

ثالثا : بناء العيون :

العين التى بالمعافر :

بناها أحمد بن طولون. وقد تولى بناءها المهندس النصرانى الذى بنى جامع أحمد بن طولون بعد ذلك، وهو سعيد بن كاتب الفرغانى. ويقال إنه عندما انتهى من بنائها، ركب أحمد بن طولون ليراها، فاستحسن جميع ما شاهده فيها، إلا أن قدم فرسه غاصت فى موضع، لرتوية الجير، فوقع أحمد ابن طولون، وتصور أن النصرانى أراد به سوءا، فأمر بضربه خمسمائة سوط، ثم وُضع بالسجن، واستمر به حتى عرض على أحمد بن طولون بناء الجامع بلا عمد إلا عمودى القبلة. كما ذكرت عند الكلام على جامع ابن طولون.

ويذكر البلوى أنه أنفق على العين التى بالمعافر مائة ألف وأربعون ألف دينار.

وقد كانت هذه العين مفتوحة طول النهار - كما يقول البلوى - لمن كشف وجهه للأخذ منها، ولمن كان له غلام أو جارية، والليل كله للضعفاء والمستورين والمستورات، فهى لهم حياة ومعونة، واتخذ لها المستغل الذى فيه فضل عن الكفاية. وقد حاول المانرانيون تقليدها وعمل مثلها، فأنفقوا الأموال الضخمة فى ذلك لكنهم فشلوا.

رابعاً : بناء القناطر :

قنطرة عبدالعزيز بن مروان :

كانت فى طرف الفسطاط بالحمراء القصوى. وقد بناها عبدالعزيز بن مروان بن الحكم فى سنة ٦٩هـ / ٦٨٨م، وابتنى قناطر عليها. وقد كتب عليها: «هذه القنطرة أمر بها عبدالعزيز بن مروان الأمير، اللهم بارك له فى أمره كله، وثبت سلطانه على ما ترضى، وأقر عينه فى نفسه وحشمه. أمين. وقام بينائها سعد أبو عثمان، وكتب عبدالرحمن فى صفر سنة تسع وستين».

ثم زاد فيها تكين أمير مصر فى سنة ٣١٨هـ / ٩٣٠م ورفع سمكها، ثم زاد عليها الاخشيد فى سنة ٣٣١هـ / ٩٤٢م، وموضعها الان - كما يقول المقرئى - خلف خط السبع سقايات.

قناطر أحمد بن طولون :

قال القضاعى: قناطر أحمد بن طولون بظاهر المعافر. وكان السبب فى بناء هذه القناطر أن أحمد بن طولون ركب فمر بمسجد الأقدام وحده، وتقدم عسكره، وقد كدّه العطش، وكان فى المسجد خياط. فقال: يا خياط أعنك ماء؟ فقال: نعم. فأخرج له كوزاً فيه ماء، وقال: اشرب ولا تمد! يعنى لا تشرب كثيراً. فتبسم أحمد بن طولون، وشرب فمد فيه حتى شرب أكثره، ثم ناوله

إياه، وقال: يا فتى سقيتنا وقلت لا تمدا! فقال: نعم أعزك الله، موضعنا ها هنا منقطع، وإنما أخيط جمعتي حتى أجمع ثمن راوية. فقال له: والماء عندكم ها هنا معوز. فقال: نعم. فمضى أحمد بن طولون فلما وصل داره. قال: جيئوني بخياط فى مسجد الأقدام، فجاءوا به. فلما رآه قال: سر مع المهندسين حتى يخطوا عندك موضع سقاية، ويجروا الماء، وهذه ألف دينار خذها. وابتدأ فى الاتفاق، وأجرى على الخياط فى كل شهر عشرة دنانير، وقال له: بشرنى ساعة يجرى الماء فيها. فجدوا فى العمل، فلما جرى الماء أتاه مبشرا، فخلع عليه وحمله، واشترى له دارا يسكنها، وأجرى عليه الرزق السنى الدار. وكان قد أشير عليه بأن يجرى الماء من عين أبى خلود المعروفة بالنعش. فقال: هذه العين لا تعرف أبدا إلا بأبى خلود، وإنى أريد أن استنبط بئرا. فبنى عينه التى بالمعافر، وبنى عليها القناطر.

ولما بنى أحمد بن طولون هذه السقاية - كما يقول المقرئى - بلغه أن قوما لا يستحلون شرب مائها، فدعا إليه محمد بن عبدالله بن عبدالحكم الفقيه الذى يقول: «كنت ليلة فى دارى اذ طرقت بخادم من خدام أحمد بن طولون، فقال لى: الأمير يدعوك. فركبت مذكورا مرعوبا، فعدل بى عن الطريق.

فقلت: أين تذهب بى؟ فقال: إلى الصحراء، والأمير فيها. فأيقنت بالهلاك، وقلت للخادم: الله الله فى، فانى شيخ كبير ضعيف مسن، فتدرى ما يراد منى، فارحمنى. فقال لى: احذر أن يكون لك فى السقاية قول! وسرت معه، وإذا بالمشاعل فى الصحراء، وأحمد بن طولون راكب على باب السقاية، وبين يديه الشمع. فنزلت وسلمت عليه، فلم يرد على. فقلت: أيها الأمير إن الرسول أعنتنى وكندنى، وقد عطشت فيأذن لى الأمير فى الشرب! فأراد الغلمان أن يسقونى. فقلت: انا أخذ لنفسى. فاستقيت وهو يرانى، وشربت، وازددت فى الشرب حتى كدت انشق، ثم قلت: أيها الأمير سقاك الله من أنهار الجنة، فلقد أرويت وأغنيت ولا أدرى ما أصف: أطيب الماء فى حلالوته وبرده؟ أم صفاته أم طيب ربح السقاية؟ قال: فنظر إلى وقال: أريدك لأمر، وليس هذا

وقته، فأصرفوه! فصُرُفت. فقال لى الخادم: أصبت. فقلت:: أحسن الله جزاك، فلولاك لهلك!

ويذكر المقرئ أن «مبلغ النفقة على هذه العين ومستغلها أربعين ألف دينار». ويبدو أن المقصود بالعين هذه القناطر، خاصة وأننى ذكرت سابقا عن البلوى أنه أنفق على العين مبلغ مائة ألف وأربعين ألف دينار. فهل المائة ألف وأربعون ألف دينار - التى ذكرها البلوى - هى مجموع الانفاق على العين والقناطر؟ أم كل له مصروفه؟

الفصل الثانى

العمائر الدينية

- . الجوامع والمساجد
- . الكنائس.
- . المصليات.
- . الرباطات.

الفصل الثانى العمائر الدينية

تمشيا مع السياسة الدينية للدولة الحاكمة، كان بناء أى عاصمة يقتضى بناء جامع أو مسجد لها، فانتشرت الجوامع والمساجد فى مصر تبعا لديانة العرب المسيطرين على الحكم وهى الديانة الاسلامية، وفى المقابل تعرضت الكنائس التى بنيت فى العهود السابقة للهدم، غير أننا نرى أن عملية هدم الكنائس أو بنائها كانت ترجع إلى سياسة كل من الوالى أو الخليفة، ولم تكن تبعا لعرف سائد.

وسنتناول فى الصفحات القادمة أهم الجوامع والمساجد التى بنيت، وفى الوقت نفسه القرارات التى اتخذت بشأن بناء أو هدم الكنائس، ثم آراء الفقهاء فى ذلك.

ولكن قبل الخوض فى موضوع بناء الجوامع والمساجد، يجدر بنا أولا أن نبين الفرق بين الجامع والمسجد فى ذلك العصر.

فالجامع - كما تقول المصادر العربية - هو الذى يقام فيه صلاة الجمعة، وذلك بعكس المسجد. يقول المقرئى : إن صلاة الجمعة كانت تقام فى جامع عمرو بن العاص، إلى أن بنى جامع العسكر بالعسكر، فصارت الجمعة تقام فى جامع عمرو بن العاص وجامع العسكر، واستمر ذلك الوضع حتى بنى جامع أحمد بن طولون، فصارت الجمعة تقام فى جامع عمرو وفى جامع ابن طولون، وتلاشى أمر جامع العسكر إلى أن قامت الدولة الطولونية.

ثم يقول فى موضع آخر : « لما افتتح عمر البلدان، كتب إلى أبى موسى وهو على البصرة يأمره أن يتخذ مسجدا للجماعة، ويتخذ للقبائل مساجد، فإذا كان يوم الجمعة، انضموا إلى مسجد الجماعة، وكتب إلى سعد بن أبى وقاص وهو على الكوفة بمثل ذلك، وكتب إلى عمرو بن العاص وهو على مصر بمثل ذلك. » كما يقول فى موضع آخر نقلا عن القضاعى : « ولم تكن الجمعة تقام فى زمن عمرو بن العاص بشئ من أرض مصر إلا فى هذا

الجامع، قال أبو سعيد عبد الرحمن بن يونس : جاء نفر من غافق (١) إلى عمرو بن العاص فقالوا : إنا نكون فى الريف، أفنجمع فى العيدين الفطر والأضحى ويؤمنا رجل منا ؟ قال : نعم.
قالوا : فالجمعة؟ قال : لا، ولا يصلى الجمعة بالناس إلا من أقام الحدود، وأخذ بالذنوب، وأعطى الحقوق». وستناول الآن أهم الجوامع والمساجد بمصر:

أولا : الجوامع

١ - جامع عمرو بن العاص - المسجد الجامع - الجامع العتيق:
وهو أول جامع بنى فى مصر تحت الحكم العربى، وقد شرع عمرو بن العاص فى بنائه بعدما فرغ من بناء مدينة القسطنطين، وكان ذلك فى سنة ٢١هـ / ٦٤١م.

ويذكر ابن دقماق أن مكان الجامع كان جنازا ملك قيسية بن كلثوم التجيبى، ويكنى أبا عبد الرحمن، أحد بنى سؤم، وأن عمرو بن العاص قد طلب منه أن يجعله مسجدا، فوافق قيسية وتصدق به على المسلمين.
تذكر المصادر العربية أن عمرو بن العاص عندما وضع قبلة هذا الجامع، كان واقفا عليه نحو ثمانين رجلا من الصحابة، منهم : الزبير بن العوام، والمقداد بن الاسود، وعبد الله بن الصامت، وأبو الدرداء، وأبو ذر الغفارى، وأبو بصرة الغفارى ومحمية بن جزء الزبيدى، ونبيه بن صواب وغيرهم.

وعندما بنى عمرو بن العاص الجامع اتخذ فيه منبرا، وهو أول من اتخذ المنبر، فكتب إليه عمر بن الخطاب يقول : أما بعد، فإنه بلغنى أنك اتخذت منبرا ترقى به على رقاب المسلمين، أما بحسبك أن تقوم قائما والمسلمون تحت عقيبك؟ فعزمت عليك لما كسرتة! فكسره عمرو.

(١) فى الاصل : (بحافق)، وليس لها معنى فى القاموس اللغوى، كما أنه لا يوجد قبيلة دخلت مصر باسم بحافق، وإنما توجد قبيلة باسم غافق، ولذلك أوردها بالمتن.

وعن وصف جامع عمرو بن العاص عندما بنى يقول المقرئى : «قال أبو سعيد الحميرى : أدركت مسجد عمرو بن العاص، طوله خمسون ذراعا فى عرض ثلاثين ذراعا، وجعل الطريق يطيف به من كل جهه، وجعل له بابان يقابلان دار عمرو بن العاص (فى شرقيه) وجعل له بابان فى بحريه وبابان فى غربيه، وكان الخارج اذا خرج إلى زقاق القناديل وجد ركن المسجد الشرقى محاذيا لركن دار عمرو بن العاص الغربى، وذلك قبل أن أخذ من دار عمرو بن العاص ما أخذ، وكان طوله من القبلة إلى البحرى مثل طول دار عمرو بن العاص، وكان سقفه مطاطا جدا، ولا صحن له، فاذا كان الصيف جلس الناس بفنائه من كل ناحية، وبينه وبين دار عمرو سبع أذرع.» وكان سقفه من جريد، وأعمدته من جذوع النخل.

الزيادات فى جامع عمرو بن العاص:

زيادة مسلمة بن مخلد :

وأول من زاد فى جامع عمرو بن العاص مسلمة بن مخلد سنة ٥٣هـ / ٦٧٢م وهو يومئذ أمير مصر من قبل معاوية. وكان سبب الزيادة أن الأهالى شكو إليه ضيق المسجد، فكتب إلى معاوية فى ذلك، فأرسل اليه يأمره بالزيادة فيه، فزاد فيه من الجهة الشرقية مما يلى دار عمرو بن العاص، كما زاد فيه من الجهة البحرية، وجعل له رحبة فى الجهة البحرية منه، ويخضعه وزخرف جدرانته وسقفه.

وقد أمر ببناء منار المسجد الذى بالفسطاط وهو أول من أحدث المنار بالمساجد. وقيل إن معاوية أمره ببناء الصوامع (٢) للأذان، فجعل مسلمة للمسجد الجامع أربع صوامع فى أركانه الأربعة وهو أول من جعلها فيه.

(٢) عرف المسلمون المكان الذى يلقي منه الأذان باسم المنارة أو الصومعة أو المئذنة. وكلمة منارة تعنى مئذنة مهما كان شكلها، أما الصومعة فتتفق والمنارة فى نفس هذا المعنى، ولكنها مئذنة يعلب عليها الشكل المربع، ولا تختلفان إلا فى درجة الارتفاع، وفى أن الصومعة يمكن أن تطلق على مئذنة المسجد كما يمكن أن تطلق على برج الكنيسة. أما اسم مئذنة فقد أطلق على برج المسجد فى وقت متأخر عندما أخذ شكل الصومعة الأولى فى التطور إلى الشكل المألوف للمئذنة.

كما فرش به بالحصر وهو أول من فعل ذلك أيضا، وكان قبل ذلك مفروشا بالحصباء.

زيادة عبد العزيز بن مروان :

وفى أثناء ولاية عبد العزيز بن مروان (٦٥ - ٨٦هـ / ٦٨٤ - ٧٠٥م) من قبل أخيه عبد الملك، زاد فى المسجد الجامع سنة ٧٩هـ / ٦٩٨م من ناحيته الغربية، وأدخل فيه الرحبة التى كانت فى جهته البحرية، ولم يجد فى جهته الشرقية موضعا يوسع به، وذكر الكندى : أنه زاد فيه من جوانبه كلها، وأن ذلك كان فى سنة ٧٧هـ / ٦٩٦م.

زيادة عبد الله بن عبد الملك:

وفى ولاية عبد الله بن عبد الملك من قبل أخيه الوليد، أمر برفع سقف المسجد الجامع، وكان مطلطا وذلك فى سنة ٨٩هـ / ٧٠٧م.

زيادة قرة بن شريك :

وقد ولى مصر من قبل الوليد بن عبد الملك فى سنة ٩٠هـ / ٧٠٨م، فلم يزل بها إلى أن مات فى سنة ٩٦هـ / ٧١٤م، وقد هدم المسجد فى مستهل سنة ٩٢هـ / ٧١٠م بأمر الوليد بن عبد الملك، وأبتدأ فى بنائه فى شعبان من السنة المذكورة، وقد جعل على بنائه يحيى بن حنظلة مولى بنى عامر بن لؤى، فكانوا يجمعون الجمعة فى قيسارية العسل حتى فرغ من بنائه وذلك فى شهر رمضان سنة ٩٣هـ / ٧١١م.

وزيادة قرة كانت فى الجهة القبلىة وفى الجهة الشرقىة، فقد أخذ دار عمرو بن العاص وعبد الله بن عمرو، فأدخله فى المسجد، وأخذ منهما الطريق الذى بين المسجد وبينهما، وعوضهما بما هو فى أيديهم اليوم من الرياح التى فى زقاق مليح فى النحاسين والعداسين وغير ذلك.

وصار للجامع أربعة أبواب فى الجهة الشرقىة آخرها باب إسرائيل وهو باب النحاسيين، وأربعة أبواب فى الجهة الغربىة شارة فى زقاق كان يعرف بزقاق البلاط وثلاثة أبواب فى الجهة البحرىة.

كما أنه نصب المنبر الجديد فى سنة ٩٤هـ / ٧١٢م، ونزع المنبر الذى كان فى المسجد، وذكر أن عمرو بن العاص كان قد جعله فيه، فلعله بعد وفاة عمر بن الخطاب، وقيل هو منبر عبد العزيز بن مروان، وذكر أنه حمل اليه من بعض كنائس مصر، وقيل إن زكريا بن مرقنى (أو برقنى) ملك النوبة أهدها إلى عبد الله بن سعد بن أبى سرح، وبعث معه نجاره حتى ركبته، واسم هذا النجار بقطر من أهل دندرة، فلم يزل هذا المنبر فى المسجد حتى زاد فيه قرة ابن شريك، فنصب منبره الجديد كما ذكرت سابقا. ولم يكن يخطب فى القرى إلا على العصى، إلى أن ولى عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير اللخمى مصر من قبل مروان بن محمد، فأمر باتخاذ المنابر فى القرى وذلك فى سنة ١٣٢هـ / ٧٤٩م، وذكر أنه لا يعرف منبرا أقدم من منبر قرة بن شريك بعد منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم. وفى سنة ١٦١هـ / ٧٧٧م أمر المهدي محمد بن أبى جعفر المنصور بتقصير المنابر، فجعلت على مقدار منبر النبي صلى الله عليه وسلم، ثم أعيدت بعد ذلك.

وأمر قرة أيضا بعمل المحراب بعمل المجوف (٣)، وقيل إنه لم يكن للمسجد الذى بناه عمرو بن العاص محراب مجوف، فقد كان قرة بن شريك هو أول من جعل المحراب المجوف، وكان أول من أحدث ذلك عمر بن عبد العزيز وهو يومئذ عامل الوليد بن عبد الملك.

كما أحدث فيه المقصورة، ويقول ابن دقماق: وأول ما علمت المقاصير بالجامع بمصر فى زمن معاوية (٤٠ - ٦٠هـ / ٦٦٠ - ٦٧٩م)، ولعل قرة بن شريك لما بنى الجامع بمصر عمل المقصورة، وفى سنة ١٦١هـ / ٧٧٧م أمر المهدي بنزع المقاصير من مساجد الأمصار.

وعندما تولى موسى بن أبى العباس مصر من قبل أشناس (٢١٩ - ٢٢٤هـ / ٨٣٤ - ٨٣٨م) أخرج المؤذنين خارج المقصورة، وهو أول من أخرجهم، وكانوا قبل ذلك يؤذنون بين يدي الإمام يوم الجمعة من داخل المقصورة.

(٣) المحراب هو عادة ما يتوسط جدار القبلة، ويشير إلى اتجاه القبلة جهة الكعبة المشرفة، وقد تميز بتجويفه فى جدار القبلة.

زيادة صالح بن على بن عبد الله بن عباس :

ثم زاد فيه صالح بن على بن عبد الله بن عباس، وهو يومئذ أمير مصر من قبل أبي العباس السفاح - أربعة أساطين . ويقال إنه أدخل في الجامع دار الزبير بن العوام وكانت غربي دار النحاس، وكان الزبير قد تولى عنها ووهبها لمواليه، فأدخلها في المسجد، وقد أدت هذه الزيادة إلى فتح باب خامس من الجهة الشرقية للجامع عرف باسم باب الكحل، كما عمر صالح ابن على أيضا مقدم المسجد الجامع عند الباب الأول موضع البلاطة الحمراء.

زيادة موسى بن عيسى الهاشمي :

ثم زاد فيه موسى بن عيسى الهاشمي عندما تولى مصر سنة ١٧٥هـ / ٧٩١م من قبل الرشيد، فقد زاد في المسجد الجامع الرحبة التي في المؤخرة من حدّ شبّاك النحاسين إلى نهاية ثلاثة أبواب من الأبواب الشارعة من الشارع إلى هذه الزيادة وهي نصف الرحبة المعروفة برحبة أبي أيوب، ولما ضاق الطريق بهذه الزيادة أخذ موسى بن عيسى دار الربيع بن سليمان الزهري ووسع بها الطريق.

زيادة عبد الله بن طاهر بن الحسين :

وقد تولى مصر من قبل المأمون سنة ٢١١هـ / ٨٢٦م، وقد أمر بالزيادة في المسجد الجامع في نهاية عام ٢١٢هـ / ٨٢٧م، فزيد فيه من الجهة الغربية، وكانت زيادة ابن طاهر المحراب الكبير، وما في الجهة الغربية إلى حد زيادة الخازن، فأدخل فيه الزقاق المعروف بزقاق البلاط، وقطعة كبيرة من دار الرمل، ورحبة كانت بين يدي دار الرمل ودور أخرى. وبهذه الزيادة أصبح مساحة طول الجامع ١٩٠ ذراعا بذراع العمل، وعرضه ١٥٠ ذراعا. كما نصب فيه اللوح الأخضر وهو أول من نصبه، فلما احترق الجامع احترق ذلك اللوح، فوضع أحمد بن محمد العجيفي لوحا أخضر بدلا منه في نفس المكان، وذلك في ولاية خمارويه بن أحمد بن طولون.

زيادة أبى أيوب، أحمد بن محمد بن شجاع :

وهو أحد عمال الخراج زمن أحمد بن طولون، وكانت زيادته فى بقية الرحبة المعروفة برحبة أبى أيوب والمحراب المنسوب اليه هو الغربى من هذه الزيادة عند شبك الحذائين، وكان بناؤها فى سنة ٢٥٨هـ / ٨٧١م. وقد أدخل أبو أيوب فى هذه الزيادة بعض دار خارجة بن حذافة، وبعض دار أبان بنت الحارث بن مسكين. ويذكر ابن دقماق أن هذه الزيادة كانت بسبب حريق وقع فى مؤخر المسجد الجامع «فعمر وزيدت هذه الزيادة فى أيام أحمد بن طولون».

زيادة خمارويه بن أحمد بن طولون :

وكان قد وقع حريق فى الجامع فى صفر سنة ٢٧٥هـ / ٨٨٨م، أخذ من بعد ثلاث حنايا من باب إسرائيل إلى رحبة الحارث بن مسكين، فهلك فيه أكثر زيادة عبد الله بن طاهر، والرواق الذى عليه اللوح الأخضر، فأمر خمارويه بعمارته على يد أحمد بن محمد العجيفى، فأعيد على ما كان، وكتب اسم خمارويه فى دائرة الرواق الذى عليه اللوح الأخضر، وكانت عمارته فى السنة المذكورة، وقد أنفق فى إصلاحه ستة آلاف وأربعمائة دينار.

زيادة أبى حفص عمر بن الحسن القاضى العباسى :

وكانت ولايته للقضاء فى سنة ٣٣٦هـ / ٩٤٧م، وكان إمام مصر والحرمين، واليه إمامة الحج، وقد ظل قاضيا بمصر خلافة عن أخيه إلى أن صرف الخصيبى وذلك فى ذى الحجة سنة ٣٣٩هـ / ٩٥٠م، وقد زاد الغرفة التى يؤذن فيها المؤذنون فى السطح.

زيادة أبى بكر محمد بن عبد الله الخازن :

ثم زاد فيه أبو بكر محمد بن عبد الله الخازن رواقا واحدا من دار الضرب، وهو الرواق ذو المحراب، والشباكين المتصل برحبة الحارث، ومقداره تسعة أذرع، وكان قد بدأ فى بنائه سنة ٣٥٧هـ / ٩٦٧م، وتم الانتهاء منه سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٨م على يد ابنه على بن محمد.

٢ - جامع العسكر :

وهذا الجامع كان يقع بين جامع أحمد بن طولون وكوم الجارح بظاهر مصر، وكان إلى جانب شرطة العسكر التي كان يقال لها الشرطة العليا، كما كان إلى جانب دار إمارة العسكر، وكان يصل هذه الدار بالجامع باب. وكان يجمع فيه الجمعة، وفيه منبر ومقصورة. وقد بناه الفضل بن صالح بن علي ابن عبد الله بن عباس في ولايته على مصر عام (١٦٩هـ / ٧٨٥م) من قبل المهدي. وقد زاد في عمارته عبد الله بن طاهر في أثناء ولايته على مصر من قبل المأمون عام ٢١١هـ / ٨٢٦ م. وقد ظل هذا الجامع يقام فيه شعائر الجمعة حتى بنى جامع أحمد بن طولون، كما استمر وجود هذا الجامع إلى ما بعد الخمسمائة من سني الهجرة.

٣ - جامع أحمد بن طولون :

كان سبب بنائه أن أهل مصر شكوا إلى أحمد بن طولون ضيق المسجد الجامع يوم الجمعة من جنده وسودانه، فأمر ببناء هذا الجامع بجبل يشكر وهو يشكر بن جزيلة من لخم. وكان يشكر، المنسوب إليه هذا الجبل، رجلاً صالحاً، وكان الصالحون يصلون على القطعة البارزة منه، الخالية من البناء، التي في الحد القبلي منه، والمجاورة للباب، ويقال إن في هذه البقعة قبر هارون عليه السلام، كما كان يقال إن موسى عليه السلام ناجى ربه عليه بكلمات. لذلك فعندما أراد أحمد بن طولون بناء هذا الجامع أشار عليه جماعة من الصالحين بأن يبنيه على هذا الجبل، وذكروا له فضائله، فقبله منهم وبناه، وأدخل بيت يشكر العبد الصالح فيه.

وقد اختلف المؤرخين في تاريخ بناء هذا الجامع فيذكر الكندي أنه بدأ في بنائه سنة ٢٦٤هـ / ٨٧٧ م وانتهى بناؤه سنة ٢٦٦هـ / ٨٧٩ م، أما ابن دقماق فيقول إنه بدأ في بنائه سنة ٢٥٩هـ / ٨٧٢ م، ويذكر المقرئ أنه بدأ في بنائه سنة ٢٦٣هـ / ٨٧٦ م، وفرغ منه سنة ٢٦٥هـ / ٨٧٨ م. وترى الدكتورة سيدة كاشف أن السنين التي ذكرها المؤرخون متقاربة، ولكنها تؤكد أن أحمد بن طولون لم يبدأ في منشأته العامة ومشاريعه العمرانية، إلا بعد أن

أصبحت مصر كلها تحت سلطانه. ومع ذلك فإن الصواب - كما يقول الدكتور زكى محمد حسن - أن الفراغ من بناء هذا الجامع كان فى سنة ٢٦٥هـ / ٨٧٨م، وهذا التاريخ وارد فى الكتابة التاريخية التى وجدت فى الجامع منقوشة بالخط الكوفى على لوح من الرخام.

وقد طلب أحمد بن طولون أن يبنى هذا البناء إن احترقت مصر بقى، وإن غرقت بقى - كما تقول المصادر العربية - فقليل له يبنى بالجير والرماد والأجر الأحمر القوي النار إلى السقف ولا يجعل فيه أساطين رخام فانه لا صبر لها على النار، فبناه هذا البناء.

ويعتقد بعض علماء الآثار أن سبب ذلك أن المهندس عراقى الأصل، وأن اللبن (الطوب النيئ) والأجر خاصة من خواص العمارة فى العراق لقلة الحجارة. وعلى أية حال فإن اللبن والأجر كانا معروفين فى العمارة منذ عهد الفراعنة.

وتذكر المصادر العربية أنه عندما أراد بناء الجامع قدر له ثلاثمائة عمود، فقليل له ماتجدها، أو تنفذ إلى الكنائس فى الأرياف والضياح الخراب، فتحمل منها، فانكر ذلك. وبلغ ذلك (سعيد بن كاتب الفرغانى) المهندس النصرانى الذى تولى بناء العين له وكان بالسجن، فكتب إليه يقول : أنا أبنيه لك كما تحب وتخار بلا عمد، إلا عمودى القبلة. وعندما حضر بين يديه، قال له : أنا أصوره للأمير حتى يراه عيانا بلا عمودى القبلة، فأمر بأن تحضر له الجلود، فأحضرت، فصوره له، فأعجبه، وأطلق له للنفقة عليه مائة ألف دينار وقال له : أنفق، وما احتجت إليه بعد ذلك أطلقناه لك. فوضع النصرانى يده فى البناء فى الموضع الذى فيه وهو جبل يشكر، فكان ينشر منه، ويعمل الجير، ويبنى، إلى أن فرغ من بنائه، فبيّضه، وعلق فيه القناديل بالسلاسل الحسان الطوال، وفرش فيه الحصر، وحمل إليه صناديق المصاحف ونقل إليه القراء والفقهاء.

وتذكر المصادر العربية أن هذا الجامع كان من المال الذى عثر عليه أحمد بن طولون فوق الجبل فى الموضع المعروف بتنور فرعون. وقد قدرت نفقات بنائه - كما يذكر البلوى - بمائة وعشرين ألف دينار.

ويتكون جامع أحمد بن طولون من صحن مربع مكشوف طول كل ضلع فيه نحو اثنين وتسعين مترا، أى أن مساحته تبلغ نحو ٨٤٨٧ مترا مربعا، وتحيط به أروقة من جوانبه الأربعة، وتقع القبلة فى أكبر هذه الأروقة. وبين جدران الجامع وسوره الخارجى ثلاثة أروقة خارجية تسمى الزيادات، وقد أمر أحمد بن طولون ببنائها عندما ضاق المسجد بالمصلين.

وقد بناه على بناء جامع سامرا وكذلك المنارة، كما عمل به منطقة بها عتبر معجون ليفوح ريحها على المصلين وفرشه بالحصر العبدانية والسامانية. ويقول ابن اياس : إنه علق بهذا الجامع عشرة آلاف قنديل من الزجاج المذهب، وكان فى صحنه قبة، على عشرة عمد من رخام أبيض، وهى مفروشة بالرخام الملون، كما كان على صحنه شبكة من جميع جوانبه لأجل العصافير. وكان تحت القبة التى فى الصحن قصعة رخام فسّحتُها أربعة أذرع، فى وسطها فوارة تفور بالماء ليلا ونهارا يرسم الضوء. كما عمل فى مؤخرة الجامع ميضأة^(٤) وخزانة شراب فيها جميع الأشربة والأدوية، وعليها خدم، وفيها طبيب جالس يوم الجمعة لحادث يحدث للمصلين.

ويذكر ابن دقماق أن المقصورة التى به، والتى تعرف بمقصورة فاطمة الزهراء، سميت بذلك لأن رجلا - على حسب قوله - رأى فى المنام كأن فاطمة الزهراء رضى الله عنها تصلى فى مكان من هذا الجامع، فأصبح، فأخبر الناس بذلك، فصلوا فيه، وعملوا عليه مقصورة عرفت بمقصورة فاطمة الزهراء.

(٤) الميضأة : من العناصر الضرورية للطهارة فى أداء شعائر الصلاة بالانشآت الدينية. والفقهاء آراء عديدة بشأنها من أهمها أنه يجوز بناء المطاهر بالقرب من المساجد والتوضئة منها. وكانت الميضأة تبنى خارج المسجد، وكان يراعى فى وضع بنائها أن تكون خاضعة لظاهرة الرياح حسب الموقع الجغرافى، حتى لا يتأذى الناس داخل المساجد منها.

وتذكر المصادر العربية أنه عندما فرغ من بنائه، لم يصل فيه أحد من الناس، وقالوا : هذا بُنى من مال حرام، ولا يجوز فيه الصلاة! فلما بلغ الأمير أحمد بن طولون ذلك، جمعهم فى يوم جمعة وطلع المنبر، فخطب خطبة أقسم فيها بالله العظيم أنه ما بنى هذا الجامع من ماله، وإنما بناه من كنز ظفريه عند الأهرام، فلما سمع الناس ذلك اجتمع خلق كثير، وصلوا الجمعة فيه. كما قيل إنه عندما بنى عاب بعض الناس على قبلته، وقالوا إنها ضيقة، خاصة وأنها مخالفة للمحاريب المجاورة لها! وقال آخر : مافيه عمود! وقال آخر : ليست له ميضأه! فاجتمع أحمد بن طولون بهم وخطب يقول : إنه عندما شرع فى عمارتها، اختلف المهندسون فى تحريرها، فرأى النبی صلى الله عليه وسلم فى المنام تلك الليلة وهو يقول : «يا أحمد، ابن قبلة الجامع على هذا الوضع، وخط فى الأرض صورة ما يعمل». فلما كان الفجر صليت، ومضيت مسرعا إلى الموضع الذى أمر النبی صلى الله عليه وسلم بوضع القبلة فيه، فوجدت القبلة مصورة، وأن النمل قد طاف على ذلك الخط، فوضعت أساس المحراب عليه، لذلك فهو يسمى محراب النمل! وأما العمدة والسواري، فالسواري لا تكون إلا من مسجد خراب أو كنيسة، وأنا بنيت من حلال من كنز وجدته، فكرهت أن أدخل فيه شائبة. أما عدم وجود الميضأ به فقد أردت تنزيهه عن النجاسة فطهرته منها، وسأبنيها خلفه، فبناها عند دار الفيل.

ويقول ابن دقماق : إنهم عندما خرجوا من عنده، أشاعوا ذلك، فعظم شأن الجامع، وضاق على المصلين حتى زاد فيه أحمد بن طولون.

٤ - جامع الجيزة :

وقد بناه محمد بن عبد الله الخازن فى المحرم سنة ٣٥٠هـ / ٩٦١م بأمر الأمير على بن عبد الله بن الاخشيد، فتقدم كافور إلى الخازن ببناؤه - وكان الناس قبل ذلك بالجيزة يصلون الجمعة فى مسجد همدان - وقد أشرف على بناء هذا الجامع، مع أبى بكر الخازن، أبو الحسن بن أبى جعفر الطحاوى، ويقال : إنهم احتاجوا إلى عمد للجامع فمضى «الخازن» فى الليل إلى

كنيسة بأعمال الجيزة، فقلع عمدها، ونصب بدلها أركاناً، وحمل العمد إلى الجامع، مما دفع أبا الحسن بن الطحاوي إلى ترك الصلاة فيه بسبب ذلك.

٥ - جامع الفيوم :

بناه قرّة بن شريك عندما تولى مصر عام (٩٠ - ٩٦ هـ / ٧٠٨ - ٧١٤ م) من قبل الوليد بن عبد الملك.

ثانياً : المساجد

وهي التي بنتها القبائل العربية أو الأشخاص، ولا تقام بها صلاة الجمعة.

وستتناول في الصفحات القادمة أسماء المساجد التي بنيت في الفترة التي يتناولها البحث.

مسجد الرحمة : (٥)

بالاسكندرية، وقد بناه عمرو بن العاص بعد هزيمته للروم في الاسكندرية عندما نقضت الاسكندرية، فعندما أمر برفع السيف عنهم، بنى في ذلك الموضع الذي رفع فيه السيف مسجداً. وقد عرف بمسجد الرحمة، وذلك لرفع عمرو السيف هناك.

مسجد عبد الله :

بالفسطاط، وقد بناه عبد الله بن عبد الملك بن مروان في أثناء ولايته على مصر (٨٦ - ٩٠ هـ / ٧٠٥ - ٧٠٨ م).

ومن المساجد التي بنيت بالفسطاط وذكرها ابن عبد الحكم :

مسجد القرون، مسجد بنى عَوْف وهم من قبيلة بلى، مسجد العيثم وقد بناه الحكم بن أبي بكر بن عبد العزيز بن مروان. مسجد مهرة. مسجد حاء وكان عند دار اسحق بن متوكل وهو ذو منارة.

(٥) راجع مكانه الآن بحديقة الشلالات مكان ضريح سيدي عمرو بن يحيى .

مسجد العُتْقَاء. مسجد فَهْم. مسجد حُذْرَان وحُذْرَان بطن من غافق. مسجد أَحْدَب. مسجد الزمام. مسجد أبو موسى الغافقي وكان في زقاق حَمْد.

مسجد سيبان وسيبان من مهرة وهو المسجد ذو القبة الذي عند دار خالد بن عبد السلام الصدفى. مسجد الزنج. مسجد بادى. مسجد ابراهيم القراط. مسجد الزينة.

مسجد تجيب وخولان :

يقول ابن دقماق :

إنه فى ولاية موسى بن مخلد أمر ببناء المنار فى جميع المساجد، كان ذلك ما عدا مسجدين وهما : مسجد تجيب وخولان.

مسجد القلعة :

يقول ابن عبد الحكم عن سعيد بن عفير : إنه فى خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦هـ / ٧٠٥ - ٧١٤م) أرسل اليه عماله : «أن بيوت الأموال قد ضاقت من مال الخمس، فكتب اليهم أن ابنوا المساجد. فأول مسجد بنى بفسطاط مصر، المسجد الذى فى أصل حصن الروم عند باب الريحان، قبالة الموضع الذى يعرف بالقالوس، يعرف بمسجد القلعة».

مسجد الأقدام :

يقول المقرئى : هذا المسجد بالقرافة بخط المغافر، قال القضاعى : ذكر الكندى أن الجند بنوه وليس من الخطط.. وسمى بالأقدام لأن مروان بن الحكم لما دخل مصر، وصالح أهلها وباعوه امتنع من بيعته ثمانون رجلا من المغافر سوى غيرهم، وقالوا : لا ننكث بيعة ابن الزبير، فأمر مروان بقطع أيديهم وأرجلهم وقتلهم على بئر بالمغافر فى هذا الموضع. فسمى المسجد بهم لأنه بنى على أثارهم، والآثار الأقدام، يقال جنت على قدم فلان، أى على أثره. وقيل بل أمرهم بالبراءة من على بن أبى طالب فلم يتبرؤوا منه فقتلهم هناك. وقيل إنما سمي مسجد الأقدام لأن قبيلتين اختلفتا فيه، كل تدعى أنه من خطتها، فقيس ما بينه وبين كل قبيلة بالأقدام، وجعل لأقربهما منه!

والقديم من هذا المسجد هو محرابه والأروقة المحيطة به، وأما خارجه
فزيادة الاخشيد، والزيادة الجديدة التى فى جهته البحرية تمت فى فترة
متأخرة عن بحثنا .

جامع محمود بالقرافة :

وينسب لمحمود بن سالم بن مالك الطويل من أجناد السرى بن الحكم،
فهو الذى بنى هذا المسجد. وذلك - كما يقول المقرئى - أن السرى بن
الحكم ركب يوما فعارضه رجل فى طريقه فكلمه ووعظه بما غاظه، فالتفت عن
يمينه، فرأى محمودا فأمر بضرب عنق الرجل ففعل، فلما رجع محمود إلى
منزله تفكر وندم، وقال : رجل يتكلم بموعظة بحق فيقتل بيدي، وأنا طائع
غيره مكره على ذلك فهلا امتنعت. وكثر أسفه وبكاؤه، وألى على نفسه أن
يخرج من الجندية، ولا يعود فيها، ولم ينم ليلته من الغم والندم، فلما أصبح
غدا إلى السرى، فقال له : إنى لم أنم فى هذه الليلة على قتل الرجل، وأنا
أشهد الله عز وجل وأشهدك أنى لا أعود إلى الجندية، فأسقط اسمى منهم،
وخرج من بين يديه وحسنت توبته وأقبل على العبادة واتخذ المسجد المعروف
بمسجد محمود، وأقام فيه.

مسجد القبة :

وهو مسجد بنى عبد الله بن مانع بن مودع، وكان موضعه عند فتح
مصر بخطة المغافر.

مسجد الفارسيين بالجيزة.

مسجد التنور :

هذا المسجد فى أعلى جبل المقطم، بناه أحمد بن طولون فى صفر سنة
٢٥٩هـ / ٨٧٢م وبنى فيه المنارة كما جعل فيه صهريجاً فيه الماء، وجعل
الانفاق عليه مما وقفه على البيمارستان بمصر والعين التى بالمغافر. وقد هدم
هذا المسجد على يد قائد من قواد أحمد بن طولون يدعى وصيف قاطر ميز،
وحفر تحته، متصوراً أن تحته مالا فلم يجد فيه شيئاً.

مسجد فائق :

مولى خمارويه بن أحمد بن طولون، كان فى سفح جبل المقطم، مما يلى طريق مسجد موسى عليه السلام.

مسجد موسى : بناه الوزير أبو الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات فى سفح جبل المقطم.

مسجد الفقاعى : هو أبو الحسن على بن عبد الله، وهو مسجد كبير بناه كافور الاخشيدى، وكان فى وسط هذا المسجد محراب مبنى بطوب يقال إنه من بناء حاطب بن أبى بلتعة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس، ويقال إنه أول محراب اختط فى مصر. من المساجد أيضا مسجد الريح، ومسجد الزمام، ومسجد ابن عمروس.

المصليات

وكانت تبني المصليات لتقام بها صلاة العيد. يقول المقرئى : وفى هذه المصلى مشهد الاعياد. ويؤم الناس ويخطب بها فى يوم العيد خطيب جامع عمرو بن العاص.

وعندما فتح العرب مصر كان مصلى العيد، وهو مصلى عمرو بن العاص، مقابل اليعموم، وهو الجبل المطل على القاهرة، فلما ولى عبد الله بن سعد بن أبى سرح، أمر بتحويله فحوّل إلى موضعه المعروف بالمصلى القديم عند درب السباع، ثم زاد فيه عبد الله بن طاهر عام ٢١٠هـ / ٨٢٥م، ثم بناه أحمد بن طولون فى عام ٢٥٦هـ / ٨٦٩م.

وفى امارة عنبسة بن اسحاق على مصر فى أيام المتوكل (٢٢٨ - ٢٤٢هـ / ٨٥٢ - ٨٥٦م) ضاق المصلى القديم وهو مصلى عمرو بن العاص - بالناس، فأمر عنبسة بابتناء المصلى الجديد، فابتدئ فى بنائه فى العشر الاخير من شهر رمضان عام ٢٤٠هـ / ٨٥٤م، وصلى فيه صلاة عيد الاضحى من هذه السنة، وهو المصلى الذى بالصحراء عند الجارودى، ثم جدده الحاكم وزاد فيه، وجعل له قبة وذلك عام ٤٠٣هـ / ١٠١٢م.

وقد عرف المصلى الجديد بمصلى خولان، وهم من قبائل اليمن، وقد شهدوا فتح مصر.

تعرضنا فى الصفحات السابقة لأهم الجوامع والمساجد التى بنيت فى مصر كنتيجة طبيعية لانتشار الدين الإسلامى دين الدولة الحاكمة، وفى المقابل سنتناول سياسة الدولة الحاكمة بشأن بناء أو هدم الكنائس التابعة لديانة أهل البلد الأصليين وهم الاقباط وآراء الفقهاء فى مثل هذه القرارات.

بناء الكنائس فى مصر

تذكر المصادر العربية أن أول كنيسة بنيت بفسطاط مصر، كانت هى الكنيسة التى خلف القنطرة وذلك فى ولاية مسلمة بن مخلد مصر (٤٧ - ٦٢هـ / ٦٦٧ - ٦٨١م) من قبل الخليفة معاوية. ويذكر ابن عبد الحكم أن الجند أنكروا ذلك على مسلمة، وقالوا له : «أُنقِرْ لهم أن يبنوا الكنائس؟ حتى كاد أن يقع بينهم وبينه شر، فاحتج عليهم مسلمة يومئذ فقال : إنها ليست فى قىروانكم، وإنما هى خارجة فى أرضهم، فسكتوا عند ذلك».

وفى ولاية الوليد بن رفاعة (١٠٩ - ١١٧هـ / ٧٢٧ - ٧٣٥م) من قبل هشام بن عبد الملك، أذن للنصارى عام ١١٧هـ / ٧٣٥م فى بناء «كنيسة يومنا» أو «أبو مينا» - كما يقول الكندى - بالحمراء، وتعرف الحمراء اليوم - كما يقول المقرئى - بخط قناطر السباع فيما بين القاهرة ومصر. وقد كان السماح ببناء هذه الكنيسة سببا فى قيام ثورة يتزعمها «وهيب اليحصبى» ضد والى الوليد بن رفاعة، أدت إلى مقتل وهيب اليحصبى، ثم هدأت الثورة بعد ذلك.

وفى ولاية موسى بن عيسى الأولى (١٧١ - ١٧٢هـ / ٧٨٧ - ٧٨٨م) من قبل الخليفة هارون الرشيد أذن للنصارى فى ببناء الكنائس التى قد هدمها والى على بن سليمان، وتذكر المصادر العربية أن بناء هذه الكنائس كانت بعد مشورة الليث بن سعد، وعبد الله بن لهيعة اللذين اعتبرا هذه الكنائس

«هى عمارة البلاد»، وقد احتجا بأن الكنائس التى بمصر لم تُبنَ إلا فى الاسلام فى زمان الصحابة والتابعين. ويعلق أبو المحاسن على ذلك بقوله «وهذا كلام يتأول»، كما أنه يعتبر تصرف موسى بن عيسى بشأن هذه الكنائس من الأمور الغير معقولة.

ويذكر ساويرس أنه فى أثناء خلافة المعتز (٢٥٢ - ٢٥٥ هـ / ٨٦٦ - ٨٦٨ م) ذهب وفد من الأقباط اليه، ليسأله «فى أمر البيع، وشرحوا له ما فعله ابن المدير وما جرى منه». فكتب لهم سجلا يتضمن موافقته، والسماح لهم ببناء البيع « فى كل أرض مصر»، ثم يذكر ساويرس أن الخليفة المعتز توفى قبل أن يختم هذا السجل، فطلبوا من الخليفة الذى تولى بعده الاقرار بهذا السجل، فوافق وعندما وصل السجل إلى أرض مصر، طلب الأنبا شنودة من متولى أرض مصر فى ذلك الوقت، أن يتمم أمر الملك، فكتب له إلى جميع البلاد ببناء جميع البيع فى كل المواضع حسب ماورد به أمر الملك (٦).

أما الاسكندرية، التى كان بها أعظم كنائس الروم حتى إن ملك الروم كان يخشى من استيلاء العرب عليها كما يقول ابن عبد الحكم، فنلاحظ أن المصادر العربية - فى حدود علمى - قد أغفلت ذكر القرارات التى تتعلق ببناء أو هدم كنائسها، اللهم إلا ما ذكره المقرئ من بناء كنيسة مرقص بالاسكندرية فى ولاية عمرو بن العاص الثانية (٣٨ - ٤٣ هـ / ٦٥٨ - ٦٦٣ م)، وأنها ظلت قائمة حتى هدمت فى سلطنة الملك العادل أبى بكر بن أيوب (٥٩٦ - ٦١٥ هـ / ١١٩٩ - ١٢١٨).

وعندما أنشأ عبد العزيز بن مروان مدينة حلوان سمح لكتابه (أثناسيوس) ببناء كنيسة فى قصر الشمع، فلم يكتف اثناسيوس بواحدة بل شيد اثنتين هما : كنيسة مارجرجس، وكنيسة أبى قير.

(٦) أخطأ ساويرس فى ذكر اسم الخليفة الذى تولى الخلافة بعد المعتز فقد ذكر أنه المستعين بالله، ومن المعروف أن المستعين بالله تولى الخلافة عام (٢٤٨ - ٢٥٢ هـ / ٨٦٢ - ٨٦٦ م) وأنه قتل عام ٢٥٢ هـ، وأن الخليفة الذى تولى بعد المعتز هو المهتدى بالله وكان ذلك عام (٢٥٥ - ٢٥٦ هـ / ٨٦٨ - ٨٦٩ م).

أما بالنسبة لقرارات هدم الكنائس في مصر :

يذكر ابن النقاش أن عمر بن عبد العزيز أرسل إلى حيان بن سريج عامله على مصر يأمره بهدم بيع النصارى المستجدة. ويذكر أبو عبيد أن عمر بن عبد العزيز قد أرسل كتابا إلى عماله يقول فيه : «لا تهدموا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار، ولا تحدثوا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار».

وفى سنة ١٠٤هـ / ٧٢٢م هدم أسامة بن زيد التنوخى الكنائس، والخليفة يومئذ يزيد بن عبد الملك.

وعندما تولى هشام بن عبد الملك الخلافة كتب إلى والى مصر بأن يجرى النصارى على عوائدهم وما بأيديهم من العهد. فمضى البطريرك قزما kosmas إلى هشام، واستطاع بمعونة بعض العلماء أن يحمل الخليفة على أن يرد له الكنائس الملكانية بمصر، وهى الكنائس التى كان الأقباط قد استولوا عليها، فكتب هشام إلى واليه بمصر بأخذ هذه البيعة من اليعاقبة.

كما تذكر المصادر العربية أنه فى ولاية على بن سليمان على مصر (١٦٩ - ١٧١هـ / ٧٨٥ - ٧٨٧م) من قبل الهادى، أصدر قرارا بهدم الكنائس المحدثه بمصر، فهدم كنيسة مريم الملاصقة لكنيسة أبى شنودة، وهدم كنيسة مَحْرَس (محارس) قسطنطين، على الرغم من أن النصارى عرضوا عليه فى المقابل خمسين ألف دينار ليتركها، إلا أنه امتنع.

وفى عام ١٩١هـ / ٨٠٦م أمر الخليفة الرشيد بهدم الكنائس والديور.

وفى سنة ٢٣٥هـ / ٨٤٩م أمر الخليفة المتوكل أيضا بتخريب كنائس

النصارى المحدثه فى الاسلام، وأكد هذا الأمر فى عام ٢٣٨هـ / ٨٥٢م.

كما يذكر ابن سعيد أنه فى عام سنة ٣٢٦هـ / ٩٣٧م انهدمت قطعة من كنيسة أبى شنودة، فبذل النصارى للاخشيد مالا ليطلق عمارتها فقال لهم : خذوا فتيا الفقهاء. فأفتى ابن حداد بالآ تعمير، وبذلك أفتى اصحاب مالك، وأفتى محمد بن على بأن لهم أن يرموها ويعمروها، واشتهر ذلك عنه، فحملت الرعية إلى داره النار، وأرادوا قتله، فاستتر منهم وندم على فتياه، وشغبت الرعية وأغلقت الدروب وأحاطت بالكنيسة، فأرسل الاخشيدي

عساكره، ثم دعا بأبى بكر بن الحداد الفقيه وقال له : «أركب إلى الكنيسة فان كانت تبقى فاتركها على حالها، وان كانت مخوفة فاهدمها». فذهب اليها ودخلها ثم قال : «تبقى كذا خمسة عشر سنتم يسقط منها موضع، ثم تقيم إلى تمام أربعين سنة ويسقط جميعها». وعندما علم الاخشيذ بذلك تركها ولم يعمرها.

هذا بالنسبة لقرارات بناء أو هدم الكنائس فى مصر تحت الحكم العربى، والسؤال الآن : هل كانت هذه القرارات تتفق مع الدين الاسلامى ؟ اتفق كل من الماوردى وأبى يوسف وأبى عبيد على عدم استحداث كنائس فى دار الاسلام، فيقول الماوردى : « ولا يجوز أن يحدثوا فى دار الاسلام بيعة ولاكنيسة، فان أحدثوها هدمت عليهم، ويجوز أن يبنوا ما استهدم من بيعهم وكنائسهم العتيقة».

ويقول أبو يوسف : « ويمنعوا من أن يحدثوا بناء بيعة أو كنيسة فى المدينة، إلا ما كانوا صولحوا عليه، وصاروا ذمة، وهى بيعة لهم أو كنيسة، فما كان كذلك تركت لهم ولم تهدم».

ويقول أبو عبيدة عن توبة بن النمر الحضرمى قاضى مصر عن غيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «لاخصاء فى الاسلام ولاكنيسة». كما يقول هذا الحديث أيضا عن عمر بن الخطاب.

أما بالنسبة للمذاهب الأربعة، فيقول ترتون :

إن الأئمة يتفقون على عدم استحداث بيع أو كنائس فى دار الاسلام، ويرى مالك والشافعى وابن حنبل أنه لا يجوز إحداث كنيسة فيما قارب المدن والأمصار بدار الاسلام، أما أبو حنيفة فيقول بالمنع اذا كان المكان قريبا من المدينة ولا يبعد عنها بأكثر من ميل، فان زاد عن ذلك جاز للزميين البناء، أما اذا انهدم شئ من كنائسهم وبيعهم فى دار الاسلام وأرادوا ترميمه أو تجديده جاز لهم ذلك فى رأى ابن حنبل والشافعى ومالك، أما أبو حنيفة فيجيزه لهم اذا كانت الكنيسة أو البيعة فى أرض فتحت صلحا، أما اذا كانت قد فتحت عتوة فانه لا يجوز لهم ذلك، وقد ذهب بعض أصحاب أحمد

وجماعة من أعلام الشافعية كأبى سعيد الاصطخرى وأبى على بن أبى هريرة إلى أنه لا يجوز للذميين ترميم ما تشعث، ولا تجديد بناء على الإطلاق، ولأحمد رواية ثانية أنه يجوز ترميم ما تشعث دون ما استولى عليه الخراب، أما الرواية الثالثة فهي تجيز ذلك لهم على الإطلاق.

وإذا كان كتاب الأم للشافعى يورد آراء الشافعى وليس آراء تلاميذه - كما يقول تريتون - فقد كان المفهوم سنة ٢٠٠ هـ عدم استحداث كنائس فى أمصار مصرها المسلمون، أما إن كانوا فى قرية يملكونها منفردين، فلم يكن هناك ما يمنعهم من إحداث الكنائس.

وهكذا يظهر لنا أن قرارات بناء أو هدم الكنائس كانت تتوقف على طبيعة الفتح العربى للبلد لذلك يقول القلقشندى فى كتابه تحت عنوان :
(فى ذكر ما يحتاج الكاتب إلى معرفته فى عقد الذمة).

«ومنها - أنهم لأحدثون كنيسة ولا بيعة فيما أحدثه المسلمون من البلاد: كالبصرة، والكوفة، وبغداد، والقاهرة، ولا فى بلد أسهم أهلها عليها : كالمدينة واليمن. فإن أحدثوا فيها شيئا من ذلك نُقص، نعم يترك ما وجد منها ولم يعلم حاله لاحتمال اتصال العمارات به.

وكذلك لا يجوز إحداث الكنائس والبيع فيما فُتح عنوة، ولا إبقاء القديم منها لحصول الملك بالاستيلاء. أما ما فتح صلحا بخراج على أن الرقبه لهم، فيجوز فيها إحداث الكنائس وإبقاء القديمة منها، فإن الأرض لهم. وإن فتحت صلحا على أن تكون لنا : فإن شرط إبقاء القديمة بقيت وكأنهم استثنوها، ويجوز لهم إعادة المتهدمة منها، وتطيين خارجها دون توسيعها».

وبالنسبة لمصر فقد اختلف المؤرخون فى طبيعة الفتح العربى لمصر، وبعد دراستنا لطبيعة الفتح العربى لمصر - وذلك فى فصل سابق - وجدنا أن مصر فتحت صلحا إذا نظرنا إلى العلاقة بين العرب والأقباط أهل البلاد، كما أنها فتحت عنوة إذا نظرنا إلى العلاقة بين العرب والروم المسيطرين على الحكم. على أية حال، فقد نص الصلح الذى تم بين عمرو بن العاص والأقباط - كما ذكرنا سابقا - على الآتى : هذا ما أعطى عمرو بن العاص لأهل مصر

من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم ويحرمهم، لا يدخل عليهم شئ من ذلك ولا ينتقض».

كما ذكرت سابقا أيضا أن شروط صلحهم كانت ستة شروط كما أشارت إليها المصادر العربية : لا يخرجون من ديارهم، ولا تنزع نساؤهم ولا أبناؤهم، ولا كنوزهم، ولا ظاراضيهم، ولا يزايد عليهم، ويدفع عنهم موضع الخوف من عدوهم. وهكذا نستطيع أن نقول تبعا لنص الصلح والشروط الستة أن الأقباط في مصر كان لهم الحق في بناء كنائس جديدة لأن الأرض ملكهم. وقد ذكرنا سابقا أن الأقباط كانوا يملكون الأراضي، وقد ضربنا المثل بالمرأة القبطية التي كانت تملك أراضى شاسعة في قرية طاء النمل، لذلك فعندما أنكر الجند على مسلمة موافقته على بناء كنيسة لهم، أخبرهم أنها في أرضهم.

كما كان لهم الحق بالتالي في الإبقاء على الكنائس القديمة وترميمها، لأنهم أعطوا الأمان عليها.

وهكذا لم يكن هدم أو بناء الكنائس في مصر تبعا للصلح الذي تم في وقت الفتح بين عمرو بن العاص والأقباط، وإنما يتوقف على سياسة الحاكم واليا كان أم خليفة، وهو ما يفسر لنا التناقض في قرارات الولاة في هذا الشأن، حيث كان بعضهم يبيع وبعضهم يمنع.

وفي ختام هذا الموضوع يجدر بنا أن نشير إلى أن بناء المساجد، كان يستلزم نقل كثير من الأعمدة والتيجان من الكنائس، لاستخدامها في بناء المساجد، وترى الدكتورة سيدة كاشف أنه لا يجب أن يتطرق إلى أذهاننا أن الكنائس خربت عمدا لتسد حاجة البناء في المساجد، وخاصة في العهد الأول للإسلام، وإنما كان من السهل أن يأخذ العرب بقايا ما خربه الفرس أثناء غزوهم لمصر قبيل الفتح العربى.

على أننا نلاحظ أنه على الرغم من أن نقل الأعمدة من الكنائس إلى المساجد كان أمرا شائعا، إلا أنه لم يكن موضع ترحيب دائما، فقد ذكرنا

سابقا أن أحمد بن طولون عندما أخبروه أن جامعہ يحتاج إلى حوالي ٣٠٠ عمود لبنائه، وبالتالي يستلزم أخذها من الكنائس التي في الأرياف والضياح الخراب، لم يتحمس للفكرة، حتى عرض عليه المهندس النصراني بنائه بلا عمد إلا عمودى القبلة، وقد ذكر بعد ذلك في خطبة له أنه رفض استخدام أعمدة الكنائس لأنه لم يكن يحب أن يدخل فيه شائبة.

كما ذكرنا أن أبا الحسن بن الطحان ترك الصلاة في جامع الجيزة، لأن محمد بن عبد الله الخازن أخذ عمده من كنيسة، وذلك على الرغم من أنه كان يصلى في جامع عمرو بن العاص والذي كانت أكثر أعمدته من كنائس الاسكندرية وأرياف مصر كما ذكر المقرئى .

الرباطات

يقصد بالرباطات بيوت المسنين فى العصر الحاضر، وهى خاصة بالسيدات المسنات، ويقول المقرئى: كان بالقرافة الكبيرة عدة دور يقال للدار منها رباط، على هيئة ما كانت عليه بيوت أزواج النبى صلى الله عليه وسلم يكون فيها العجائز والأرامل العابدات، وكانت لها الجرايات والفتوحات، وكان لها المقامات المشهورة من مجالس الوعظ.

ومن الرباطات التى كانت بالقرافة:

رباط الأشراف:

كان برحبة جامع القرافة يعرف بالقراء، ويبنى عبد الله، ومسجد القبة، وهو شرقى بستان ابن نصر. بناء أبو بكر محمد بن على المازرائى ووقفه على نساء الأشراف

الفصل الثالث

العمائر التجارية

. القيساريات .

. الفنادق .

الفصل الثالث

العمائر التجارية

اقتضى النشاط التجارى فى مصر، بناء العمائر التجارية التى كانت - فى فترة بحثنا - تنقسم إلى القيساريات والفنادق.

أولا : القيساريات:

وكانت القيساريات تتكون عادة من مجموعة من المباني العامة بها حوانيت ومصانع ومخازن وأحيانا مساكن وبها كذلك أروقة. والكلمة مشتقة من لفظ يونانى معناه السوق الامبراطورية، مما يدل بوضوح على أنها كانت من إنشاء الدولة، أما فى مصر الإسلامية فيبدو أنها كانت من إنشاء التجار وكبار رجال الدولة .

ومن القيساريات التى بنيت فى مصر فى فترة بحثنا، يذكر ابن عبد الحكم أن عبد العزيز بن مروان بنى قيسارية العسل، وقيسارية الحبال، وقيسارية الكباش، كما بنى قيسارية عبد العزيز التى كانت تختص ببيع البن، وقد سماها العامة قيسارية أبى مرة وهى خطة كعب بن عدى العبادى فاشتراها عبد العزيز منه وبنى بها حماما لابنه زيان كما ذكرت سابقا ، ويبدو أنه أطلق عليها قيسارية عبد العزيز نسبة له. كذلك يذكر ابن عبد الحكم أن هشام بن عبد الملك قد بنى قيسارية تعرف بقيسارية هشام، وكان يباع فيها البَزَّ الفسطاطى، وكانت تقع فى القضاء بين القصر وبين البحر. وعن سبب بناء هذه القيسارية يقول الكندى : « كتب الحر (أى الحرين يوسف) إلى هشام يعلمه أن النيل قد انكشف عن أرض ليست لمسلم ولا لمعاهد، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن بالبناء فيها، فإن الناس مضطرون إليها. فأنن له فى بنائها قيسارية، فابتدأ فى بنائها فى رجب سنة سبع ومائة، وفرغ منها فى سنة ثمان ومائة، وهى قيسارية هشام التى عند الجسر ».

قيسارية نكا . وربما كانت نسبة الى نكا الأعور الذى تولى مصر من قبل
المقتدر بالله عام ٣٠٣ - ٣٠٧ هـ / ٩١٥ - ٩١٩ م.

قيسارية ابن أبى الثريا . ويقول عنها ابن دقماق إنها كانت من خطة
النضر بُشَيْر بن عمرو المزنى، ثم إلى ابنه بشير، وكان قاضيا بمصر زمن
عبد العزيز بن مروان عام (٦٨ - ٦٩ هـ / ٦٨٧ - ٦٨٨ م)، ثم صارت فى أيدي
جماعة من مزينة، ثم صار بعضها لأبى الثريا أحد غلمان محمد بن تكين
أمير مصر (٣٢٢ هـ / ٩٣٣ م)، وتوفى أبو الثريا فى عام ٣٦٩ هـ / ٩٧٩ م.

قيسارية الأنماط القديمة . وهى خطة عمرو بن أبى سحابة اليحصبى،
وقد صارت إلى الشريف أبى عبد الله الحسن بن محمد طباطبا الحسينى
فبنائها، وسكنها أصحاب الأنماط فى عام ٣٤٧ هـ / ٩٥٨ م.

قيسارية نحير . بعقبة بنى فليج وهى منسوبة إلى نحير الأزغلى.
القيسارية المقابلة لمسجد جبر بن القاسم . كانت قديما لعلى بن محمد
الأسدى الكاتب، من أصحاب خمارويه بن أحمد بن طولون، وقد توفى عام
٣٢٠ هـ / ٣٣٢ م.

قيسارية بدر الخفيفى.

ثانيا: الفنادق :

أما الفنادق، فيقصد بها العمائر التى أنشئت لاقامة التجار الأجانب،
تسهيلا لاقامتهم فى البلاد، وقيامهم بالصفقات التجارية، وكانت إدارة
الجمارك بالموانئ (الديوان) هى الهيئة التى تشرف على هذه الفنادق،
وتكلف بالسهر على سلامتها ودفع إيجارها واصلاحها . وكان كل فندق
يشرف عليه موظف يعرف بالفندقى تختاره الجالية التى يتبع لها الفندق
وهو الذى يمثلهم أمام السلطات.

وكان يسمح لبعض الفنادق أحيانا بايواء الأجانب المارين بمصر أو
الاسكندرية والشام، أو لحجاج بيت المقدس وسيناء لبعض ليال نظير دفع
نفس الأجر الذى يدفعه التاجر عن كل ليلة يقضيها .

والفندق هو بناء ضخم مربع على شكل الحصن، امتدت خارجه حدائق غرست بها بعض الأشجار. وكان الفندق يتألف من عدة طوابق، وفي الدور الأرضي منها كانت توجد المخازن والحوانيت التي تطل على فناء داخلي فسيح يسمح بتعبئة البضائع وتفريغها، بينما تضم أدواره العليا مساكن التجار الذين كانوا ينامون فيها، ويغلقون غرفهم بأقفال رومية. وكلمة فندق كلمة يونانية الأصل.

ومن الفنادق التي ظهرت بفسطاط مصرفى فترة بحثنا (من الفتح العربى الى بداية الدولة الفاطمية):

فندق حوى بن حوى العذرى : وكان يوجد بعقبة النجارين، وكان نافذا الى دار العنقود، فسد الباب، وهو الباب الحجر المقابل لدار العنقود. وحوى هذا من أهل وادى القرى، ذكره ابن يونس، وقد توفى بمصر سنة ٢٠٠هـ / ٨١٥م.

فندق ابن حرمه : وهو بأول سوق العداسين، وكان أمراء مصر ينزلون فى المسجد الذى على بابه من زمن الفتح الى أيام يزيد بن معاوية (٦٠ - ٦٤هـ / ٦٧٩ - ٦٨٣م).

الخاتمة

بعد أن تتبعنا فى الأبواب والفصول السابقة التحول الذى طرأ على المجتمع المصرى بعد الفتح العربى، يجدر بنا هنا أن نوجز مظاهر هذا التحول كما أسفرت عنها هذه الدراسة.

لقد أبقى العرب بعد دخولهم مصر على جميع الأنظمة التى كانت سائدة فيها فى العصر البيزنطى، نظرا لأنه لم يكن لديهم أنظمة أفضل منها يطبقونها من ناحية، ولأن هذه الأنظمة كانت تخدم مصالحهم من ناحية أخرى.

وبالنسبة للملكية العقارية فى مصر، فقد اختلف المؤرخون فى طبيعة الفتح العربى لمصر وانقسموا الى ثلاث فرق: الفريق الأول : يرى أن مصر قد فتحت صلحا.

الفريق الثانى : يرى أن مصر قد فتحت صلحا ما عدا الاسكندرية وثلاث قرى هى : سَلْطَيْس، وَمِصِيل، وَيَلْهَيْب. الفريق الثالث : يرى أن مصر قد فتحت عُنْوة.

وقد تبين لى من بحث هذه الآراء أن فتح العرب لمصر كان عنوة وصلحا فى نفس الوقت، فهو عنوة من زاوية العلاقة بين العرب والبيزنطيين، وهو صلح اذا نظر اليه من زاوية العلاقة بين العرب والأقباط. وكان السؤال الذى طرحته كيف انعكست طبيعة الفتح العربى على الملكية العقارية فى مصر؟

لقد كانت الاراضى فى مصر قبل الفتح العربى تنقسم الى ثلاثة أنواع: النوع الأول : أراضى التاج البيزنطى، وأراضى الاقطاعات العسكرية وأراضى الاقطاعات التى منحت للشخصيات الكبيرة المنتمية للحكم السابق. النوع الثانى : الاراضى المقدسة سواء التى خصصت للكنائس أو التى خصصت للأبيرة.

النوع الثالث : الاراضى التى كانت مع الأقباط.

وبالنسبة للنوع الأول فقد استولت عليها الخلافة العربية، أما النوع الثانى فلم تتخذ حكومة العرب أى موقف تجاهها إلا فى إمارة عبد العزيز على مصر (٦٥ - ٨٦هـ / ٦٨٤ - ٧٠٥م) الذى فرض الخراج على الأراضى التى تمتلكها الكنائس والأديرة.

أما بالنسبة للنوع الثالث وهى الأراضى التى كانت مع الأقباط فقد اختلف المؤرخون المحدثون فى شكل الملكية العقارية فيها، هل كان للمصريين حق الملكية التامة أو كان لهم حق الانتفاع فقط وقد وجدت أن هذا الخلاف لم يكن فقط يرجع الى الاختلاف حول شكل الملكية العقارية فى مصر قبل الفتح، بل يرجع أيضا الى الاختلاف حول طبيعة الفتح العربى لمصر.

على أية حال فقد اتفق المؤرخون على أن أراضى مصر سواء فتحت صلحا أم عنوة هى أراضى خراجية. على أن هذا لم يمنع فى رأى من وجود الأراضى العشرية نتيجة لاستيلاء الدولة الحاكمة على أراضى البيزنطيين والأراضى التى تركها أهلها أو أراضى من قتل منهم فى الحرب، وجميع الأراضى التى ليس لها صاحب .

وقد تمثلت أشكال الحياة العقارية فى مصر بعد الفتح العربى فى ثلاثة أشكال :

الشكل الأول : الاقطاع، وكانت هناك الى جانب اقطاعات العرب، اقطاعات أخرى للأقباط .

الشكل الثانى : الأقباس أو الأوقاف، وكانت توقف على المشروعات الخيرية، ويشرف عليها القضاة .

الشكل الثالث : نظام القَبَالَات، وهو منح حق جباية الضرائب، وخاصة خراج الأرض، فى مزايدات علنية .

أما بالنسبة للنظام المالى المتمثل فى جباية الخراج والجزية، فقد كان استمرارا للنظام البيزنطى وذلك من نص أورده ابن عبد الحكم يقول فيه: «كان عمرو بن العاص، لما استوثق له الأمر، أقر قبطلها على جباية الروم».

وبالنسبة للجزية فكان يدفعها أهل الذمة، وإن كان بعض عمال الخراج عمدوا الى تحصيلها ممن أسلم منهم، على اعتبار أن الاسلام أضر بالجزية. وبالنسبة لطبقة الفلاحين، فقد كانت عند الفتح العربى من الأقباط، وظلت كذلك بعد الفتح العربى حوالى قرن من الزمان خاصة مع تحريم عمر بن الخطاب على الجند فى مصر العمل بالزراعة، ثم دخل العرب فى هذه الطبقة مع مجيء قبيلة قيس إلى مصر عام ١٠٩ هـ / ٧٢٧م، ونزولها بلييس فقد كان مجيئونها مشروطا بعملها بالزراعة، وبعد مرور حوالى قرن آخر على مجيء قبيلة قيس أسقط المعتصم العربى من الديوان، فلم يكن أمامهم سوى الاشتغال بالحرف المختلفة التى كان من ضمنها الزراعة.

أما بالنسبة لطبقة الصناع التى كانت تتكون من الأقباط فقد استمرت فى عملها بالصناعة بعد الفتح العربى لمصر، وحتى بعد سقوط العرب من الديوان وعلمهم فى شتى مجالات الحياة المختلفة.

وبالنسبة لطبقة التجار التى كانت تتركز فى الاسكندرية وتتكون من اليهود خاصة ومن الروم والأقباط والسوريين وعناصر أخرى، فبعد الفتح العربى لمصر أضيفت إليها طبقة من التجار العرب الذين استوطنوا مصر.

كما أضيفت إليها طبقة من تجار فارس فى الدولة الطولونية، وفى الدولة الاخشيدية أضيفت إليها أيضا طبقة من اليهود من سوريا.

وقد استطاعت طبقة التجار أن تكون ثروات طائلة من عملها بالتجارة، انعكس بالتالى على نفوذها السياسى، اذ استطاعت أن تتولى أعلى المناصب فى الدولة.

وبالنسبة للنظام الادارى فقد أبقى العرب على الموظفين فى وظائفهم، وكان هؤلاء الموظفون إما عمال من القبط أو عمال من الروم، واحتفظوا لأنفسهم بالمناصب الرئيسية مثل : والى وصاحب الخراج وصاحب الشرطة وغيرها - التى تمكنهم من تأكيد سيطرتهم، كما تضمن لهم خدمة مصالحهم.

ثم ما لبث أن تغير هذا الوضع - بعد فترة من الفتح - تحت عاملين أساسيين هما :

١ - تعريب الدواوين.

٢ - تحريم الخلفاء استخدام أهل الذمة فى وظائف الدولة.

وكان الدافع وراء هذين العاملين - كما أثبتنا - هو توافر طبقة من العرب يستطيعون أن يتولوا الوظائف بدلا من أهل الذمة. على أن الحاجة الى استخدام الأقباط فى الوظائف الحكومية ظلت قائمة، والدليل على ذلك ما ذكرته المصادر من أسماء لموظفين أقباط طوال الحكم العربى.

وقد اختلف الأمر بالنسبة للنظام الحربى، فقد حل الجيش العربى محل الحاميات العسكرية الرومانية، وحرّم على جنوده العمل بأى مهنة أخرى غير الجهاد حتى يظل على أهبة الاستعداد للحرب. ولكن الى جانب هذا الجيش النظامى، كان هناك جيش من المتطوعة كانوا أحرارا فى العودة الى ديارهم وأعمالهم بعد انتهاء الحرب. ولم يشترك المصريون الأقباط فى الجيش، بل كانوا يدفعون الجزية لقاء اعفائهم من الجندية.

على أن هذا الجيش العربى قد أصابه الكثير من التغير على مر الزمن وفقا للتطورات التى حدثت فى الخلافة نفسها من حيث سيطرة العرب أو الفرس أو الترك، فعندما كانت هذه السيطرة فى يد العرب، كان الجنس العربى هو المكون للجيش، وقد استمر ذلك حتى نهاية الدولة الأموية، فلما سقطت هذه السيطرة فى يد الفرس مع الدولة العباسية، لم يعد الجنس العربى وحده هو المكون للجيش، حتى اذا ما وصلنا الى زمن المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧هـ / ٨٣٣ - ٨٤١م) الذى استكثر من الترك، وانتقلت السيطرة اليهم، وجدنا المعتصم يأمر واليه على مصر كيدر نصر بن عبد الله (٢١٧ - ٢١٩هـ / ٨٣٢ - ٨٣٤م) باسقاط العرب من الديوان وقطع أعطياتهم وكان ذلك عام ٢١٨هـ / ٨٣٣م، وكان من نتيجة ذلك تحول العرب من طبقة عسكرية الى طبقة مدنية، فاحترفوا الزراعة والصناعة والتجارة وغيرها من المهن والحرف التى كانت حتى ذلك الوقت وقفا على أهالى البلاد .

هذا فيما يتعلق بالجيش أما فيما يتعلق بالأسطول، فلم يختلف الوضع عما كان عليه في مصر البيزنطية، فقد اعتمد العرب اعتمادا كليا على الأقباط في العمل على الأسطول كملاحين وعمال وليسوا كمقاتلين، كما استمروا على سياسة الدولة البيزنطية في الاستعانة بخبرة الأقباط في تصنيع السفن .

وبالنسبة للنظام القضائي فقد تغير في مصر بعد الفتح العربي وفقا لشرعية الفاتحين الجدد وهي الشريعة الإسلامية، ولكنه اجتفط بالهيكل القديم مع تغيير مسمياته ووظائفه.

لقد كان النظام القضائي البيزنطي يقوم على أربعة أنواع من المحاكم:

النوع الأول : وهو المحاكم العادية.

النوع الثاني : وهو محكمة الامبراطور.

النوع الثالث : وهو القضاء الكنسي أو المحاكم الكنسية.

النوع الرابع : وهو المحاكم العسكرية .

وقد أبقى العرب على هذا الهيكل مع تغيير مسمياته ووظائفه كما ذكرنا، وهو ما أثبتناه في الرسالة، فكان في العصر الإسلامي أربعة أنواع من المحاكم:

النوع الأول : وهو المحاكم العادية، وكانت هذه المحاكم تتبع الشريعة الإسلامية سواء في اختيار قضاتها أو في أحكامها أو غير ذلك.

النوع الثاني : وهو محكمة الخليفة أو كما تسميه المصادر العربية النظر في المظالم، وكانت تقابل محكمة الامبراطور في العصر البيزنطي .

أما النوع الثالث : فهو محاكم أهل الذمة، وقد أثبتنا أن هذه المحاكم تقابل المحاكم الكنسية في العصر البيزنطي، وكان يتولى القضاة فيها رجال الدين من أهل الذمة، الذين ترك لهم العرب أمر قضائهم.

وقد تقلصت سلطة هؤلاء القضاة الذميين لأن العقوبات التي كانوا يحكمون بها كانت عقوبات دينية فقط، وأصبح من مصلحة الذمى اللجوء الى القضاء الإسلامي لأنه أنفذ والزم.

أما النوع الرابع والأخير وهو قضاء الجند، فقد اختلف عن المحاكم العسكرية فى الدولة البيزنطية، ففى حين كانت هذه المحاكم دائمة، فإن محاكم قضاء الجند فى الدولة الإسلامية اقتصرَت على وقت الحرب فقط. أما بالنسبة لتعريب المجتمع المصرى، فقد جرى هذا التعريب من خلال العوامل الآتية:

١- هجرة القبائل العربية.

٢- انتشار اللغة العربية.

٣- انتشار الإسلام.

وقد ارتبطت هذه العوامل ببعضها البعض، فقد أدى نزوح القبائل العربية الى مصر ونزولها فى الريف الى اختلاطها بالأهالى، وهذا أدى الى انتشار اللغة العربية. كما أدى الى انتشار الإسلام .

وقد اختلف الأمر بذلك عما كان عليه قبل الفتح العربى، فلم يختلط الرومان أو البيزنطيون بالمصريين، وإنما عاشوا فى مصر كطبقة حاكمة، ولذلك لم يكن لهم تأثير على المصريين سواء من حيث العادات والتقاليد أو اللغة .

وقد تبع التحول فى المجتمع المصرى من مجتمع قبطى - بيزنطى الى مجتمع عربى تحول فى العادات والتقاليد، وفى الأعياد والمواسم، وفى الطعام والشراب وغير ذلك .

وفى الوقت نفسه حدث تحول كبير فى الحركة الفكرية فى مصر. فقد كانت مركز الحركة الفكرية قبل الفتح العربى الاسكندرية، وعندما فتح العرب مصر انتقل هذا المركز من الاسكندرية الى الفسطاط العاصمة الجديدة للعرب، وإن لم يتأثر مركز الاسكندرية كثيرا بهذا الانتقال خصوصا فيما يتعلق بالعلوم الفلسفية.

وقد مرت الحركة الفكرية فى مصر بعد الفتح العربى بمرحلتين:

المرحلة الأولى : من بداية الفتح حتى بداية حركة الترجمة، وقد عنيت بالعلوم الاسلامية والأدبية.

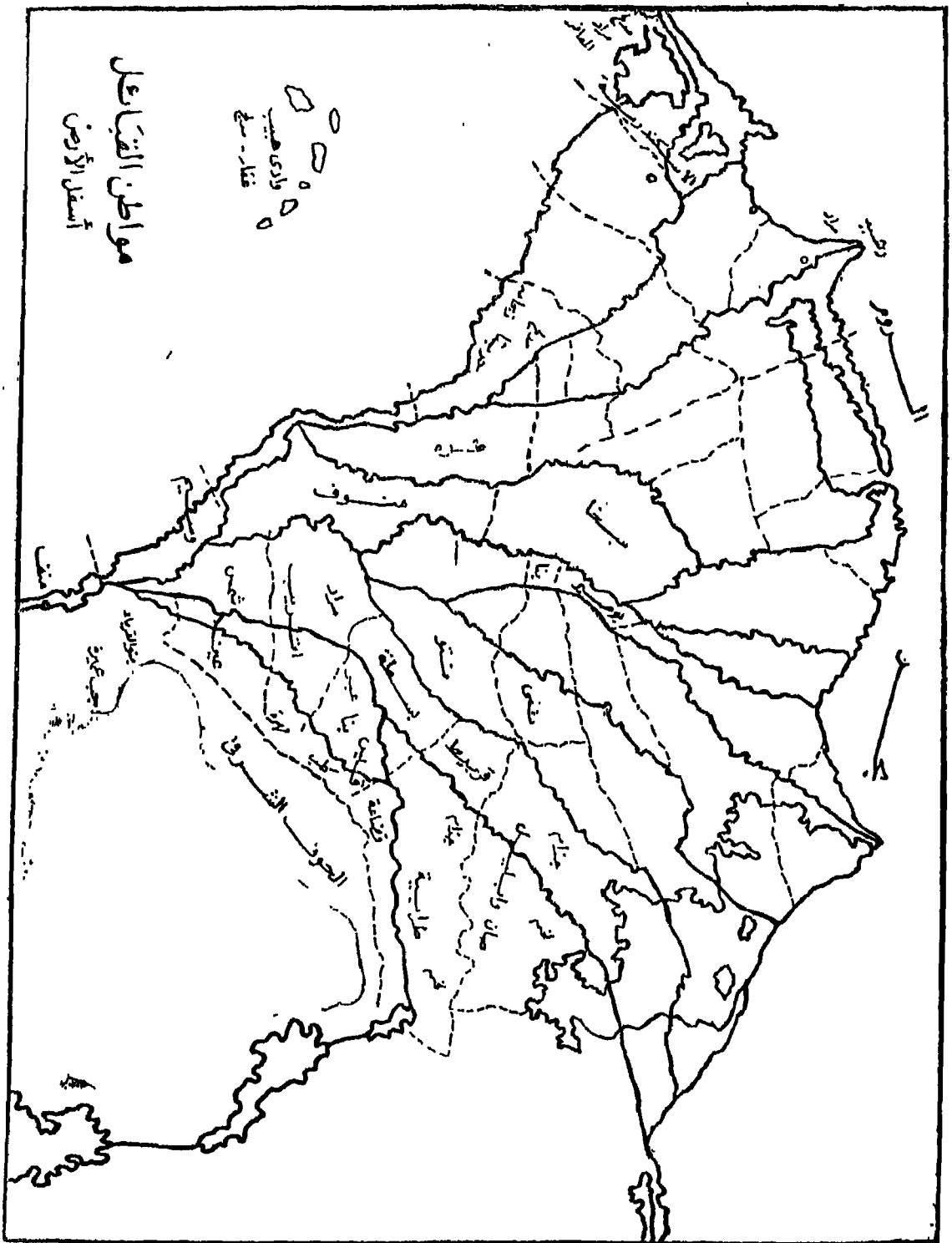
والمرحلة الثانية: ما بعد حركة الترجمة، وقد عنيت بالعلوم الفلسفية.

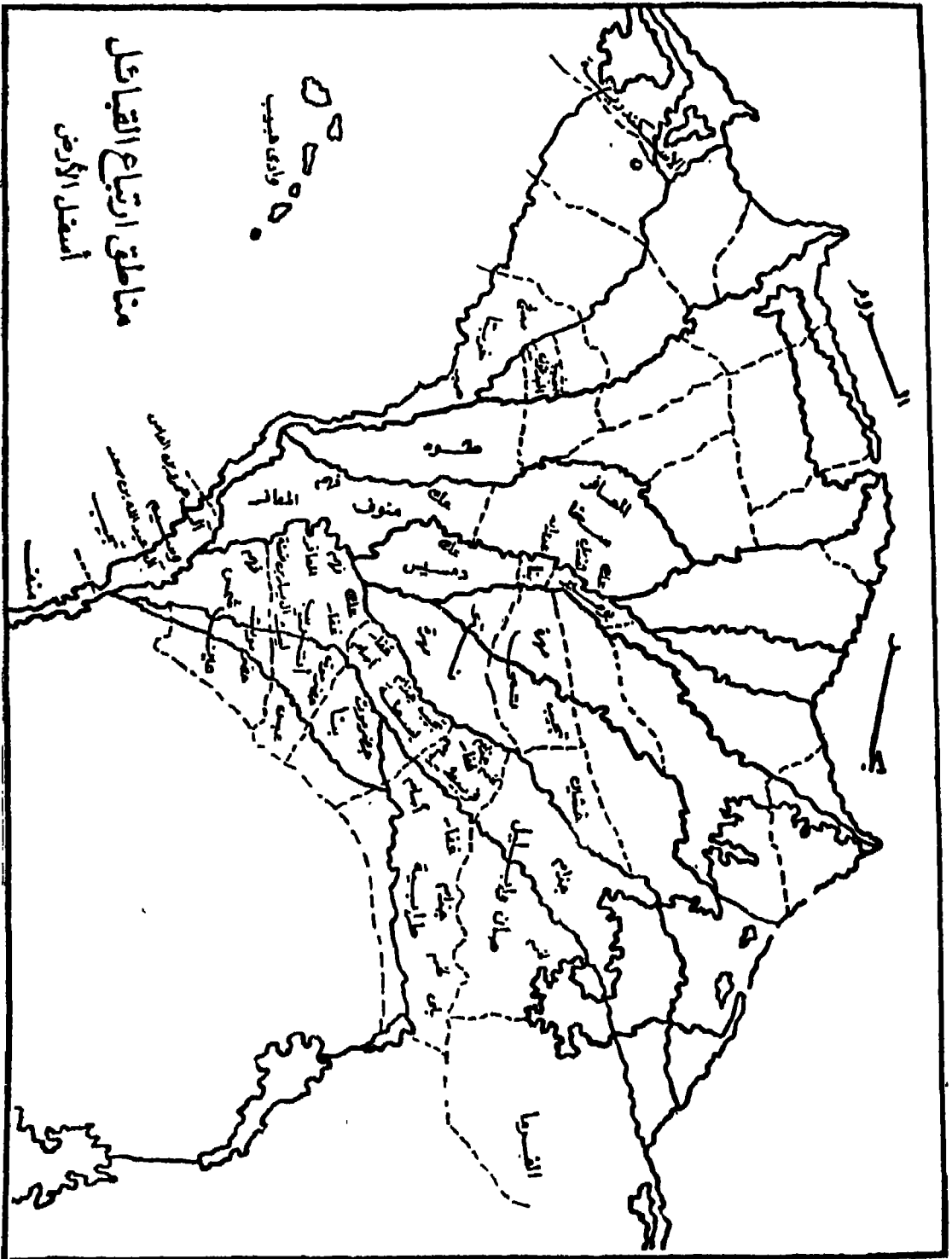
كذلك كان من أهم الميادين التى حدث فيها تحول كبير ميدان الفنون. فقد كان تغير الفن فى مصر ضرورة فرضتها طبيعة النظام العربى الجديد الذى يدين بالديانة الاسلامية، فظهر ما يعرف بالفن الاسلامى، ولم يكن فنا عربيا بحقا وإنما هو فن مصرى اسلامى، طبعه العرب بطابع دينهم.

وقد تأثرت بهذا التحول أيضا حركة البناء والتشييد فى المجتمع المصرى، وإن ظل يقوم بها البنّاءون الأقباط. وقد كان من نتيجة التحول العربى للمجتمع المصرى أن تغيرت أهمية الحواضر والمدن مع انتقال السيطرة من القسطنطينية إلى أوربا إلى المدينة فى شبه جزيرة العرب، فبعد أن كانت عاصمة مصر هى الاسكندرية أصبحت هى الفسطاط. فتناولت بناء كل من العواصم والمدن الجديدة فى المجتمع المصرى العربى الجديد.

وقد ظهرت فى هذا المدن المساجد والجوامع تبعا لديانة العرب المسيطرين على الحكم، وفى المقابل تعرضت الكنائس التى فى العهود السابقة للهدم، ولكن عملية الهدم هذه لم تكن سياسة ثابتة، وإنما خضعت لسياسة كل من الوالى أو الخليفة.

ومن هذا العرض يتضح حجم التحول الهائل الذى طرأ على المجتمع المصرى بعد الفتح العربى .





عقد الزواج رقم ١٥٩ مؤرخ في شهر ربيع الأول سنة ٢٥٩ هـ.
[جرومان: أوراق البرى العرييه، السفر الأول]

- ١ بسم الله الرحمن الرحيم
- ٢ [هـ] هذا أنا أصدق [س] اسمعيل مولى أحمد بن مروان القصر [ش] بى بمدينة أشمون عايشة
- ٣ [إب] بنت يوسف السال كنة عند ما خطبها [با] الى نفسها وهى [ا] امرأة أتم بالغ بعد أن فؤ [ضبت]
- ٤ [ام] لها الى جدها يعقوب بن اسحق [الـ] [أشهدت له شهود
- ٥ [بت] بأكملها إياه فقبل وك [الـ] [با] وانفذ [نكاحها وأص] بدقها لاسمعيل مولى
- ٦ [أ] أحمد بن مروان القرشى أربعة دنائير مثاقيل طرا جياذ وازنة يعجل لها
- ٧ [أ] اسمعيل دينرين مثقالين نقدا حالا معجلا ويبقى لها [يش] ابنت يوسف
- ٨ على زوجها اسمعيل مولى أحمد بن مروان دينرين مؤخرين الى
نح [حسة] سنين
- ٩ أولهم شهر ربيع الأول [الـ] سنة تسع وخمسين ومائتين وشرط اسمعيل مولى
- ١٠ أحمد بن مروان لامرأته عايشة تقوى الله العظيم بحسن الصحبة والمعاشرة
- ١١ كما أمر الله عز وجل وسنة محمد صلى الله عليه وسلم على
- ١٢ الإمساك بالمعروف أو التسريح بالاحسان وشرط اسمعيل
- ١٣ مولى أحمد أن كل امرأة يتزوجها على إمرأته عايشة ابنت يوسف
- ١٤ [تق] [ام] تلك المرأة بيد عايشة تطلق كيف [ش] [ات] من الطلاق
- ١٥ وولى عقدة هذا النكاح يعقوب بن اسحق فقبل الوكالة وأنفذ
- ١٦ النكاح ورضى اسمعيل بالمهر المعجل والمؤخر والشروط المسماة
- ١٧ فى هذا الكتاب وألزم ذلك نفسه فى صحة عقله وبدنه وجواز
- ١٨ أمره لا علة به من مرض ولا عرة فى شهر ربيع الأول سنة تسع
- ١٩ وخمسين ومائتين وشهد [ب] على ذلك

ملحق رقم (٧)

عقد الزواج المرموز له برقمى ١٤٠ + ٨٦ مؤرخ فى العشر الأواخر من شهر شعبان
سنة ٢٧١ هـ . [جرمان : أوراق البردى العربية - السفر الأول]

- ١ [بسم الله الرحمن الرحيم]
- ٢ هذا ما أصدق يـ [حنس بن شنوده الساكن مـ] مدينة أشمون دروا ابنت
- ٣ شنوده [السائكة مدينة كذا عند ما خطبها الى نفسها] وهى امرأة أتم
بالغ تلى
- ٤ نفسها [فلان بن فلان البقـ] وأشهدت له شهودا
- ٥ بتوكيلها إياه فى [إنـ] كاحها [ن فأصدقها أـ] ربعة دنانير
- ٦ عينا ذهباً لمرأته فى [ل اصابتها بها] ودخوله عليها دينرين نقدا جياد
- ٧ معجلا وأنكرت . . . [صادقها على زوجها يحنس بن شنوده
- ٨ خمسة سنين متواليات أـ] ولهن شعبان من سنة [لدى وسبعين ومائتين
وعليه تقوا
- ٩ الله وحده لا شريك له و[احسان صحبتها] وقد أوصل يحنس بن
شنوده الدينرين
- ١٠ المعجلين الى امراته دروا [ابنت شنوده] لله وأقرت بوصولها
اليها وذلك
- ١١ فى العشر الأوائل من شعبان سنة [لدى] [و] سبعين ومائتين شهد
على ذلك
- ١٢ [بر] هـ [يم]

تابع ملحق رقم (٨)

١٢ [أن يـ] تنق الله وحده لا شريك له ويحسن صحبتها وعشرتها ولا يضار بها ويفعل ما أمره الله [لله]

١٣ [وسنة مـ] حمد صلى الله عليه وسلم على ما أمر الله به من الامساك بالمعروف أو التسريح باحس [ان]

١٤ [] [اسحق بن سري] بانفاذه هذا النكاح على ما ذ[كروا] فسر
[] بعد ان قرى

١٥ [عليهم] حرفا حرفا عرفوا ما فيه فاقروا بفهمه [ومعر] فة ما فيه من تعرفهم بأ[سمائهم وأنسابهم]

١٦ [وذلك في] العشر الأواخر من جمادى الآخرة من سنة تسع وسبعين ومائتين شهد فلان بن فلان على

١٧ [اقرار اسـ] اسحق بن سري وعلى اقرار يعقوب بن اسحق بن يحيى بجميع ما في هذا الكتاب النكاح [وذلك في جمادى الآخرة سنة ٥٥٥]

١٨ [] [] . . . على اقرار هنيذة ابنت اسحق بن سري وعلى اقرار [] . . . []

١٩ [] [] بجميع ما في هذا الكتاب وذلك في جمادى الآخرة [من سنة تسع وسبعين ومائتين شهد فلان بن فلان على قرار يعقوب]

٢٠ [بن اسحق النساء] ج وعلى اقرار اسحق بن سري الطراف الأب [وذلك في جمادى الآخرة من سنة تسع وسبعين ومائتين]

٢١ [شهد] بن العباس على اقرار [اسحق بن سري] . . . وعلى اقرار يعقوب بن

٢٢ [اسحق و] كتب شهادته في جمادى الآخرة من سنة [تسع وسبعين ومائتين]

٢٣ [] [] على اقرار اسحق [بن سري]

ملحق رقم (٨)

عقد الزواج رقم ١٢١ مؤرخ في العشرة الأيام الأخيرة من شهر جمادى
الآخرة سنة ٢٧٩ هـ. [جرومان: أوراق البرقي العربية، مسر الأطل]

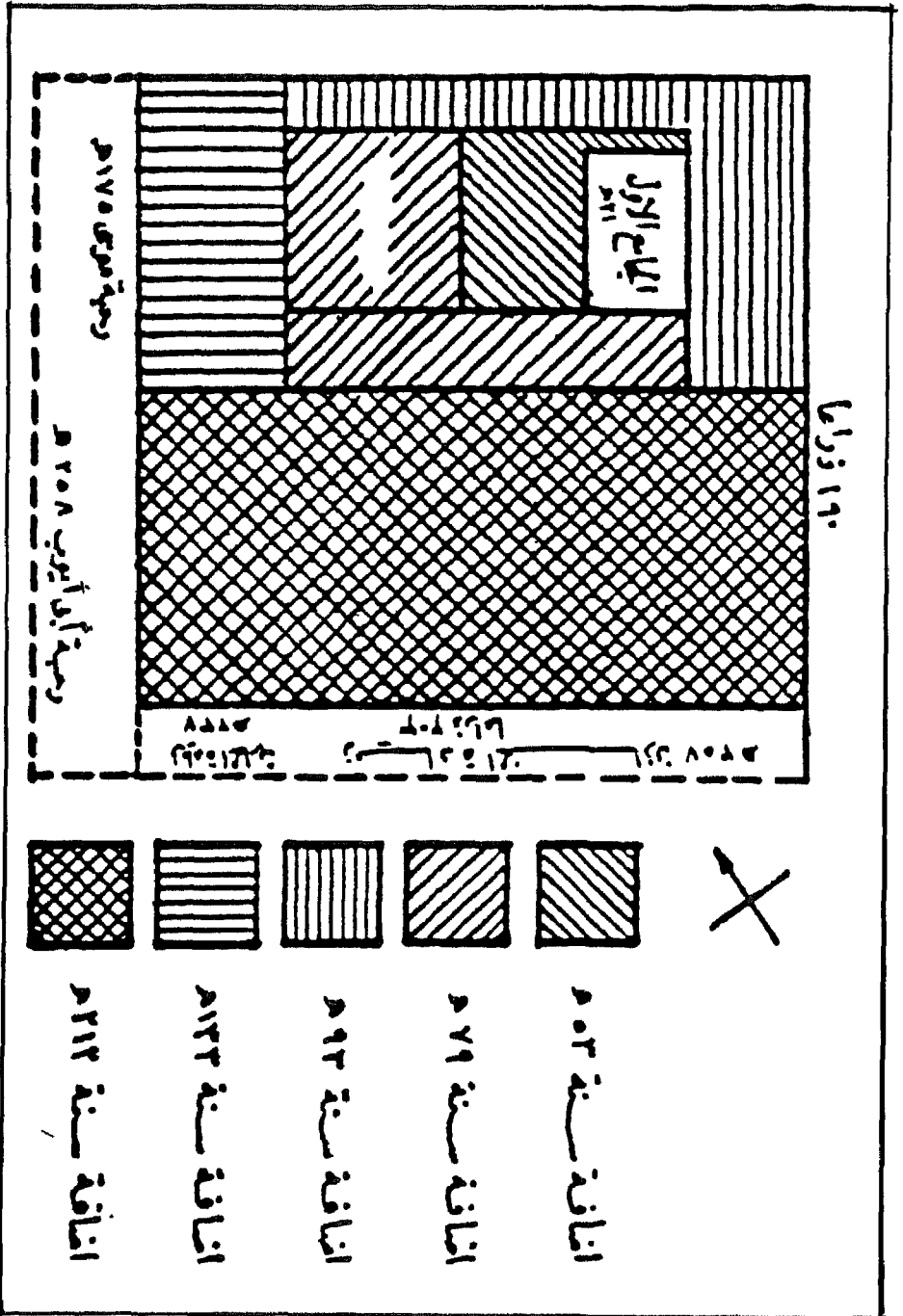
- ١ [بسم الله الرحمن الرحيم]
- ٢ [هذا ما أصدق يعقوب بن [اسم] حق بن [يحيى] النساج الساكن
مدينة أشمون هنيدة ابنت [اسم] حق بن [سرى]
- ٣ [عندم] خطبها الى نفسها وهي يومئذ امرأة أيم بك [ر] با لغ بعد أن
فوّضت أمرها الى ٠٠٠ []
- ٤ [وتوكيلها] إياه في إنكاحها م [ن] يعقوب بن اسمق بن يحيى
بالإصداق العاجل والآجل [له] [عليه]
- ٥ [عجل] [له] من ذلك قبل اصابته بها ودخوله عليها دينين نقدا حالا
معجلا ٠٠٠ هنيدة ابنت اسمق بن سرى]
- ٦ [بعدا] ن خلين خمسة سنين متواليات أولهن جمادى الآخرة من سنة
تسع وسبعين وما يتين]
- ٧ [وشرط اسمق بن سرى شروطا أوجبها على نفسه بعد أن عقد عقدة
نكاحها ٠٠ []
- ٨ [او] ذمية فأمرها بيد امرأته هنيدة ابنت اسمق تطلقها عليه ما شات
من [الطلاق]
- ٩ [جائز] عليه ولازم له وكل جارية يتخذها عليها ٠٠٠ [يكون] بيعها بيد
امرأته هـ [هنيدة] ان شاءت عتقت]
- ١٠ [وان شاءت بيعت] فعتقها وبيعها جائز عليه ولازم له ولا يمنعها
من أهلها ولا يمنع أهلها [منها]
- ١١ [اسمق بن سرى] بأمرها ورضاها بعد أن أشهدت له شهودا
بتوكيلها إياه [وعليه]

ملحق رقم (٩)

عقد الزواج رقم ١٤٤ يرجع تاريخه إلى القرن الثالث الهجري .

[جرومان : أوراق البردي العربية ، السفر الأول]

- ١ بسم الله الرحمن الرحيم [ترجم]
- ٢ هذا ما أصدق حميد بن شهران أصـ[دق من العين]
- ٣ الجليد [المصري عـ] شرين ديناراً ٠ [تاماً]
- ٤ [وافياً] وأبراته من ذلك براءة قبض واستيفى ويبقى لما [كذا ديناً] أرا مؤنـ
لها عليه إلى انقضى ثمانية حجج متواليات
- ٥ أولمن تاريخ هذا الكتاب وعليه أن يتقى الله عز وجل فيها ويحسن
صحتها بها المعروف كما أمره الله تبارك وتعالى
- ٦ به في كتابه وسنة محمد رسوله صلى الله عليه وعلى آله فيـ[ما عليه
من ذلك ودرجة زائدة كقول
- ٧ الله تعالى وللرجال عليهن درجة والـ[له] عزيز حكيم وتولى تزويجها
وبأمرها
- ٨ ورضائها وتوكيلها إياه بذلك وإشهادها لها [وعليها] وهي يومئذ بنت
بكر بالغ صحيحة العقل
- ٩ والبدن جائزة الأمر لها وعليها فـ[رضى حميد بن شهران بهذا] الصداق
المذكور عاجله وآجله
- ١٠ وعلى الشرايط المذكورة فيه وقبل [لزواج المذكور هذا النكاح] المقر
بما شرط له وعليه
- ١١ بزواج ٠٠ [في صحة عقولهم وابدانهم وجواز أمورهم طاعين غير
مكرهين] ولا [مجبـ]يرين ولا [مضـ]طهدين
- ١٢ [.....]



المصادر والمراجع العربية والعربية

أولاً: المصادر العربية:

- ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكرت عام ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م) :
١ - التكملة لكتاب الصلة ٢٠ جزء. مكتبة الخانجي بمصر
والمتنى ببيروت - ج ١ ١٩٥٥م، ج ٢ ١٩٥٦م.
- ابن أبي أصيبعة (موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن
يونس السعدي الخزرجي ت عام ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م):
٢ - عيون الأنباء في طبقات الأطباء . تحقيق الدكتور نزار
رضا .
دار مكتبة الحياة - بيروت ١٩٦٥م.
- ابن الأثير (عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد الشيباني
ت عام ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م):
٣ - أسد الغابة في معرفة الصحابة . دار إحياء التراث
العربي - بيروت - لبنان (بدون تاريخ).
٤ - الكامل في التاريخ . ١٢ جزء. دار صادر - بيروت ١٤٠٢هـ
١٩٨٢م.
- ابن الأخوة (محمد بن محمد بن أحمد القرشي ت ٧٢٩هـ/ ١٣٢٨م):
٥ - معالم القرية في أحكام الحسبة . تحقيق الدكتور محمد
محمود شعبان والأستاذ صديق أحمد عيسى المطيعي .
الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٧٦م.

ابن إياس . (محمد بن أحمد بن إياس الحنفى ت عام ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م):
٦- بدائع الزهور فى وقائع الدهور. الجزء الأول من القسم الأول.
تحقيق الأستاذ محمد مصطفى.
الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - الطبعة الثانية
١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

ابن بسام (محمد بن أحمد بن بسام المحتسب عاش قبل عام ٨٤٤هـ /
١٤٤٠م):
٧- نهاية الرتبة فى طلب الحسبة. تحقيق الأستاذ حسام الدين
السامرائى. مكتبة المعارف - بغداد ١٩٦٨م.

ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتى ت عام ٧٧٩هـ /
١٣٧٧م):
٨ - رحلة ابن بطوطة. دار بيروت للطباعة والنشر - بيروت
١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

ابن البيطار (ضياء الدين عبد الله بن أحمد الأندلسى الملقى ت عام
٦٤٦هـ / ١٢٤٨م):
٩- الجامع لمفردات الأدوية والأغذية. مكتبة المثنى ببغداد (بدون
تاريخ).

ابن تيمية (تقى الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله
ابن أبى القاسم ت عام ٧٢٨هـ / ١٣٢٧م):
١٠- الحسبة فى الاسلام. مطبعة المؤيد ١٣١٨هـ / ١٩٠٠م.

ابن جبیر

(أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبیر الكنانی الأندلسی ت
عام ٦١٤هـ / ١٢١٧م):

١١- رحلة ابن جبیر. دار بیروت للطباعة والنشر - بیروت
١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

ابن جزى

(عبد الله بن محمد بن جزى الكلبى الغرناطى عاش الى
أواخر القرن الثامن الهجرى وربما أدرك أوائل التاسع /
الرابع عشر- الخامس عشر الميلاديين):

١٢- الخيل. تحقيق الأستاذ محمد العربى الخطابى . دار
الغرب الاسلامى - بیروت - لبنان ١٩٨٦م.

ابن الجوزى

(أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد بن الجوزى ت
عام ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م):

١٣- سيرة عمر بن الخطاب . تحقيق طاهر النعسان الحموى
وأحمد قدرى كيلانى .

المكتبة التجارية الكبرى (المطبعة المصرية) - القاهرة (بدون
تاريخ).

ابن حوقل

(أبو القاسم بن حوقل النصيبى ت عام ٣٨٠هـ / ٩٩٠م):

١٤- صورة الأرض. دار مكتبة الحياة - بیروت ١٩٧٩م.

ابن خرداذبة

(أبو القاسم عبید الله بن عبد الله ت فى حدود عام ٣٠٠هـ /
٩١٢م):

١٥- المسالك والممالك. مكتبة المثنى - بغداد ١٨٨٩م.

ابن خلدون

(عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ت عام ٨٠٨هـ /
١٤٠٥م):

- ١٦- العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ٧ أجزاء .
مؤسسة الأعلمی للمطبوعات - بيروت - لبنان ١٣٩١هـ /
١٩٧١م.
١٧- المقدمة. ٣ أجزاء. تحقيق الدكتور على عبد الواحد وافي .
دار نهضة مصر للطبع والنشر - القاهرة - الطبعة الثالثة
(بدون تاريخ).

ابن خلکان

(أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن
خلکان ت عام ٦٨١هـ / ١٢٨٢ م):
١٨- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان . ٨ أجزاء .
تحقيق الدكتور إحسان عباس . دار الفكر ودار صادر -
بيروت ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م.

ابن الداية

(أحمد بن يوسف الكاتب المعروف بابن الداية ت عام
٣٤٠هـ / ٩٥١م):
١٩- المكافأة وحسن العقبى . تحقيق محمود محمد شاكر .
دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان (بدون تاريخ).

ابن دقماق

(أبرهيم بن محمد بن أيدير العلاني ت عام ٨٠٩هـ /
١٤٠٦م):
٢٠- الانتصار لواسطة عقد الأمصار، في تاريخ مصر
وجغرافيتها، وبآخرة فهرس كتاب الانتصار. الجزء الرابع
والخامس.
تحقيق لجنة إحياء التراث العربي - دار الأفاق الجديدة -
بيروت (بدون تاريخ).

- ابن الراهب (أبو شاكر بطرس بن أبى الكرم المهذب المعروف بابن الراهب):
٢١- تاريخ ابن الراهب. مطبعة الآباء اليسوعيين بيروت ١٩٠٣م.
- ابن رسته (أبو على أحمد بن عمر بن رسته ت عام ٢٩٥هـ/٩٠٧م):
٢٢- الأعلاق النفيسة. المجلد السابع. طبعة ليدن ١٨٩١م.
- ابن زولاق (الحسن بن زولاق ت عام ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م)
٢٣- أخبار سيديويه المصرى . تحقيق محمد إبراهيم سعد وحسين الديب. مكتبة الآداب - القاهرة - الطبعة الأولى ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م.
- ابن الساعى (تاج الدين أبى طالب على بن أنجب المعروف بابن الساعى ت عام ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م):
٢٤- نساء الخلفاء المسمى جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء .
تحقيق الدكتور مصطفى جواد. سلسلة ذخائر العرب العدد (٢٨) - دار المعارف القاهرة ١٩٦٨م.
ابن سعد (محمد بن سعد ت عام ٢٣٠هـ/ ٨٤٤م):
٢٥- الطبقات الكبرى . ٨ أجزاء ، دار صادر - بيروت (بدون تاريخ).
ابن سعيد (على بن موسى بن سعيد المغربي ت عام ٦٧٣هـ/ ١٢٧٤م):
٢٦- المغرب فى حلى المغرب. الجزء الأول القسم الخاص بمصر. تحقيق الدكتور زكى محمد حسن - الدكتورة سيدة كاشف - الدكتور شوقى ضيف. مطبعة جامعة القاهرة ١٩٥٣م.

ابن سعيد

(على بن سعيد المغربي عام ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م):
٢٧- النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة. القسم الخاص
بالقاهرة من كتاب المغرب فى حلى المغرب. تحقيق الدكتور
حسين نصار. دار الكتب - القاهرة ١٩٧٠م.

ابن طباطبا

(محمد بن على بن طباطبا المعروف بابن الطقطقى ت عام
٧٠٩هـ / ١٣٠٩م):
٢٨- الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية. مطبعة
محمد على صبيح وأولاده - ميدان الأزهر - القاهرة (بدون
تاريخ).

ابن عبد الحكم

(أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم ت عام ٢١٤هـ / ٨٢٩م):
٢٩- سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الامام مالك بن
أنس وأصحابه رواية ابنه أبى عبد الله محمد (ت ٢٦٨هـ /
٨٨١م).
تصحيح وتعليق أحمد عبيد. مكتبة وهبة - القاهرة - الطبعة
الثانية ١٩٨٣م.

ابن عبد الحكم

(أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم ت عام
٢٥٧هـ / ٨٧٠م):
٣٠- فتوح مصر وأخبارها . مكتبة المثنى - بغداد (بدون
تاريخ).

ابن العبرى

(غريغوريوس أبو الفرج بن أهرن المعروف بابن العبرى ت
عام ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م):
٣١- تاريخ مختصر الدول. المطبعة الكاثوليكية - بيروت - لبنان
الطبعة الثانية ١٩٥٨م.

- ابن العماد** (أبو الفلاح عبد الحى بن أحمد بن محمد الحنبلى ت عام ١٠٨٩هـ / ١٦٧٨م):
٣٢. شذرات الذهب فى أخبار من ذهب . ٨ أجزاء . مكتبة القدسى - القاهرة ١٣٥٠هـ / ١٩٣١م.
- ابن فرحون** (القاضى برهان الدين بن فرحون المالكى ت عام ٧٩٩هـ / ١٣٩٦م):
٣٣. الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب . ٢ جزء تحقيق الدكتور محمد الأحمدي أبو النور . دار التراث للطبع والنشر - القاهرة ج١ ١٩٧٢م، ج٢ ١٩٧٦م .
- ابن فضل الله العمرى** (شهاب الدين أبى العباس أحمد بن يحيى ت عام ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م):
٣٤. مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار . تحقيق دوروتيا كرافولسكى . المركز الإسلامى للبحوث - بيروت - الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م.
- ابن الفقيه** (أبو بكر أحمد بن محمد الهمذانى المعروف بابن الفقيه ت أو آخر القرن الثالث الهجرى / أوائل العاشر الميلادى):
٣٥. مختصر كتاب البلدان . طبعة ليدن ١٣٠٢هـ / ١٨٨٤م.
- ابن قتيبة** (أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى ت عام ٢٧٦هـ / ٨٨٩م):
٣٦. عيون الأخبار . ٢ مجلد . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر - القاهرة ١٩٦٣م.

ابن قيم الجوزية

(شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أبى بكرت عام
١٣٥٠هـ / ١٧٥١م):

٣٧. أحكام أهل النمة . ٢ جزء. تحقيق الدكتور صبحى
الصالح .

دار العلم للملايين - بيروت - لبنان - الطبعة الثالثة ١٩٨٣م.

ابن كثير

(عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن عمر بن كثير ت عام
٧٧٤هـ / ١٣٧٢م):

٣٨. البداية والنهاية . ١٤ جزء . مكتبة المعارف - بيروت -
الطبعة السادسة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، من الجزء الثالث إلى
الجزء الثامن الطبعة الخامسة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م.

ابن ممتى

(الأسعد بن ممتى ت عام ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م):
٣٩. قوانين الدواوين. تحقيق عزيز سوريال عطية. سلسلة
صفحات من تاريخ مصر العدد (١٢) - مكتبة مدبولى -
القاهرة - الطبعة الأولى ١٤١١هـ / ١٩٩١م.

ابن النقاش

(أبو امامة محمد بن على بن النقاش ت عام ٧٦٣هـ /
١٣٦١م):

٤٠. المنمة فى استعمال أهل النمة. تحقيق الدكتور سعد بن
حسين عثمان. أبها - المملكة العربية السعودية - الطبعة
الأولى ١٩٨٩م.

ابن الوردى

(زين الدين عمر بن مظفر الشهير بابن الوردى ت عام
٧٤٩هـ / ١٣٤٨م):

٤١. تاريخ ابن الوردى. الجزء الأول . الطبعة الحيدرية -
النجف - الطبعة الثانية ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م.

أبو عبيد

(القاسم بن سلام ت عام ٢٢٤هـ / ٨٣٨م):
٤٢- الأموال. تحقيق محمد خليل هراس. دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان ١٩٨٦م.

أبو الفداء

(عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر المعروف بأبى
الفداء ت عام ٧٣٢هـ / ١٣٣١م):
٤٣- تقويم البلدان. دار الطباعة السلطانية - باريس ١٨٤٠م.
٤٤- المختصر فى أخبار البشر . ٤ أجزاء. المطبعة
الحسينية المصرية - القاهرة - الطبعة الأولى ١٩٠٧م.

أبو المحاسن

(جمال الدين يوسف بن تفرى بردى الأتابكى ت عام
٨٧٤هـ / ١٤٦٩م):
٤٥- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . ١٢ جزء. وزارة
الثقافة والارشاد القومى - المؤسسة المصرية العامة للتأليف
والترجمة والطباعة والنشر - القاهرة ١٩٦٣م.
(القاضى يعقوب بن ابراهيم ت عام ١٨٢هـ / ٧٩٨م):
٤٦- الخراج. المطبعة السلفية ومكتبتها. القاهرة - الطبعة الرابعة
١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م والطبعة الثانية ١٣٥٢هـ / ١٩٣٣م.

الأبشيهى

(شهاب الدين محمد بن أحمد بن أبى الفتح ت عام ٨٥٠هـ /
١٤٤٦م):
٤٧- المستطرف فى كل فن مستظرف . ٢ جزء. تحقيق الدكتور
مفيد محمد قمحة. دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان -
الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

الإدقوى

(أبو الفضل كمال الدين جعفر بن ثعلب الشافعى ت عام
٧٤٨هـ / ١٣٤٧م):

٤٨- الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد. تحقيق سعد
محمد حسن، مراجعة الدكتور طه الحاجرى. الدار المصرية
للتأليف والترجمة - القاهرة ١٩٦٦م.

الأصطخرى

(ابن اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسى الأصطخرى
المعروف بالكركى ت فى النصف الأول من القرن الرابع
الهجرى / العاشر الميلادى) :
٤٩- المسالك والممالك - تحقيق الدكتور محمد جابر عبد العال،
مراجعة محمد شفيق غريال.
وزارة الثقافة والارشاد القومى - القاهرة ١٣٨١هـ / ١٩٦١م.

الأصفهانى

(أبو الفرج على بن الحسين بن محمد القرشى ت عام
٣٥٦هـ / ٩٦٦م):
٥٠- الاغانى. ٣٠ جزء. تحقيق ابراهيم الأبيارى.
دار الشعب - القاهرة ١٣٨٩هـ / ١٩٧٠م.

البلاذرى

(أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البغدادى ت
عام ٢٧٩هـ / ٨٩٢م):
٥١- فتوح البلدان. مراجعة وتعليق رضوان محمد رضوان. دار
الكتب العلمية - بيروت - لبنان ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

البلوى

(أبو محمد عبد الله بن محمد المدينى ت فى النصف الأول
من القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى):
٥٢- سيرة أحمد بن طولون. تحقيق محمد كرد على. مكتبة
الثقافة الدينية - القاهرة (بدون تاريخ).

التميمي

(أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد ت عام ٣٥٤هـ /
٩٦٥م):

٥٣- مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار . تحقيق
مرزوق على إبراهيم . دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع -
المنصورة - القاهرة - الطبعة الأولى ١٤١١هـ / ١٩٩١م.

التنوخى

(القاضى أبو المحاسن المفضل بن محمد ت عام ٤٤٢هـ /
١٠٥٠م):

٥٤- تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين
وغيرهم تحقيق الدكتور عبد الفتاح محمد الحلو. جامعة
الامام محمد بن سعود الاسلامية - المجلس العلمى رقم
(١٥) - طباعة إدارة الثقافة والنشر بالجامعة - الرياض
١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

جرومان

(أدولف جرومان):

٥٥- أوراق البردى العربية . ٦ أسفار. دار الكتب المصرية -
القاهرة. السفر الأول ترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن،
مراجعة الأستاذ عبد الحميد حسن ١٩٣٤م.
السفر الثالث ترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن، مراجعة
الأستاذ عبد الحميد حسن ١٩٥٥م.
السفر الرابع ترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن، مراجعة
الأستاذ عبد الحميد حسن ١٩٦٧م.
السفر الخامس ترجمة الأستاذ عبد الحميد حسن، مراجعة
الدكتور محمد مهدى علام ١٩٦٨م.
السفر السادس ترجمة ومراجعة وتعليق الدكتور عبد
العزیز الدالى ١٩٧٤م.

الجهشياري

(أبو عبد الله محمد بن عبدوس ت عام ٣٣١هـ / ٩٤٢م):
٥٦- الوزراء والكتاب. تحقيق مصطفى السقا - ابراهيم
الايياري - عبد الحفيظ شلبي . مطبعة مصطفى البابي
الحلبي وأولاده - القاهرة - الطبعة الثانية ١٤٠١هـ / ١٩٨٠م.

الحافظ ابن رجب

(ت عام ٧٩٥هـ / ١٣٩٢م):
٥٧- الاستخراج لأحكام الخراج. تحقيق جندى محمود شلاش
الهيثي. مكتبة الرشد للنشر والتوزيع - الرياض - الطبعة
الأولى ١٩٨٩م.

الحميري

(محمد عبد المنعم الحميري من أبناء القرن الثامن
الهجري/ الرابع عشر الميلادي):
٥٨- الروض المعطار في خبر الأقطار . تحقيق الدكتور إحسان
عباس. مكتبة لبنان - بيروت ١٩٧٥م.

الخزرجي

(الحافظ صفى الدين أحمد بن عبد الله بن أبى الخير بن
عبد العليم بن عبد الله بن على بن حسن الأنصارى صنف
هذا الكتاب عام ٩٢٣هـ / ١٥١٧م):
٥٩- خلاصة تذهيب الكمال فى أسماء الرجال . المطبعة
الخيرية - القاهرة - الطبعة الأولى ١٣٢٢هـ / ١٨٩٤م.

الذهبي

(شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان ت
عام ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م):
٦٠- تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والأعيان. تحقيق الدكتور
عمر عبد السلام تدمرى. دار الكاتب العربى - بيروت -
الطبعة الأولى ١٩٨٧ - ١٩٨٨م.
٦١- تذكرة الحفاظ. ٤ أجزاء. دار إحياء التراث العربى - بيروت
- لبنان (بدون تاريخ).

٦٢- العبر في خبر من غير ٢ جزء . تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد. التراث العربي - سلسلة تصدرها دائرة المطبوعات والنشر العدد (٤) - الكويت ١٩٦٠م.
٦٣- معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار . ٢ جزء. تحقيق بشار عواد معروف - شعيب الأرنؤوط - صالح مهدي عباس. مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

الرازي

(محمد بن أبي بكر بن عبد القادر ت عام ٦٦٠هـ / ١٢٦١م):
٦٤- مختار الصحاح. دار القلم - بيروت - لبنان (بدون تاريخ).

الزبيدي

(أبو بكر محمد بن الحسن الأندلسي ت عام ٣٧٩هـ / ٩٨٩م):
٦٥- طبقات النحويين واللغويين. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. سلسلة نخائر العرب العدد (٥٠) - دار المعارف - القاهرة ١٩٧٣م.

ساويرس

(ساويرس بن المقفع عاش حتى النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/ أواخر العاشر الميلادي):
٦٦- تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية أو سير الآباء البطاركة. المجلد الثاني (٣ أجزاء). مطبوعات جمعية الآثار القبطية - مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية - القاهرة ج١ ١٩٤٣م، ج٢ ١٩٤٨م، ج٣ ١٩٥٩م.

السخاوي

(شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت عام ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م):
٦٧- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع . ١٢ جزء. مكتبة القدسي القاهرة ١٣٥٣هـ / ١٩٣٤م.

السيوطى

(جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر ت عام ٩١١هـ /
١٥٠٥م):

٦٨- بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة. ٢ جزء تحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم. مكتبة عيسى البابى الحلبي
وشركاه - القاهرة الطبعة الأولى ج١ ١٩٦٤م، ج٢
١٩٦٥م.

٦٩- تاريخ الخلفاء. المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة - الطبعة
الرابعة ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م.

٧٠- حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة . ٢ جزء.
تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . دار إحياء الكتب العربية
- عيسى البابى الحلبي وشركاه - القاهرة - الطبعة الأولى
ج١ ١٩٦٧م، ج٢ ١٩٦٨م.

الشابشتى

(أبو الحسن على بن محمد ت عام ٣٨٨هـ / ٩٩٨م):

٧١- الديارات. تحقيق كوركيس عواد. مطبعة المعارف - بغداد -
الطبعة الثانية ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م.

الشعرانى

(أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن على الأنصارى
الشافعى المصرى من أعيان علماء القرن العاشر الهجرى/
السادس عشر الميلادى):

٧٢- الطبقات الكبرى . ٢ جزء . مطبعة مصطفى البابى الحلبي
وأولاده مصر - القاهرة - الطبعة الأولى ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م.

الشيرازى

(مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادى ت عام ٨١٧هـ / ١٤١٤م):

٧٣- القاموس المحيط . ٤ أجزاء . الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م.

الشيزى

(عبد الرحمن بن نصرت عام ٥٨٩هـ / ١١٩٣م):
٧٤- نهاية الرتبة فى طلب الحسبة. نشره الدكتور السيد الباز العرينى، واشراف الدكتور محمد مصطفى زيادة.
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٣٦٥هـ / ١٩٤٦م.

الصولى

(أبو بكر محمد بن يحيى ت عام ٣٣٦هـ / ٩٤٧م وقيل عام ٣٣٥هـ / ٩٤٦م):
٧٥- أدب الكتاب. تعليق محمد بهجه الأثرى ومراجعة محمود شكرى الألوسى. دار الباز للطباعة والنشر - بغداد ١٣٤١هـ / ١٨٩٦م.

الطبرى

(أبو جعفر محمد بن جرير ت عام ٣١٠هـ / ٩٢٢م):
٧٦- تاريخ الرسل والملوك. ١٠ أجزاء. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. سلسلة نخائر العرب العدد (٣٠) - دار المعارف - القاهرة - الطبعة الرابعة (بدون تاريخ).

عبد اللطيف البغدادى

(ابن يوسف بن محمد بن على موفق الدين ت عام ٦٢٩هـ / ١٢٣١م):
٧٧- الافادة والإعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر. تحقيق أحمد غسان سبانو.
دار قتيبة - دمشق - الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

الفيومي

(أحمد بن محمد بن علي ت عام ٧٧٠هـ / ١٣٦٨م):
٧٨- المصباح المنير. مكتبة لبنان ١٩٨٧م.

القرماني

(أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقي الشهير
بالقرماني):
٧٩- أخبار الدول وأثار الأول في التاريخ. عالم الكتب - بيروت
(بدون تاريخ).

القلقشندي

(أبو العباس أحمد بن علي ت عام ٨٢١هـ / ١٤١٨م):
٨٠- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء . ١٤ جزء. الهيئة
المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
٨١- قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان. تحقيق
إبراهيم الأبياري. دار الكتب الحديثة - القاهرة - الطبعة
الأولى ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م.
٨٢- مآثر الأنافة في عالم الخلافة. ٣ أجزاء. تحقيق عبد
الستار أحمد فراج . عالم الكتب - بيروت (بدون تاريخ).
٨٣- نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب. تحقيق إبراهيم
الأبياري .
الشركة العربية للطباعة والنشر - تراثنا العربي (١) -
القاهرة - الطبعة الأولى ١٩٥٩م.

الكندي

(أبو عمر محمد بن يوسف الكندي المصري ت عام
٣٥٠هـ / ٩٦١م):
٨٤- الولاة وكتاب القضاة. دار الكتاب الإسلامي - القاهرة
(بدون تاريخ) عن طبعة دار الآباء اليسوعيين - بيروت
١٩٠٨م.

الكندى

(عمر بن محمد بن يوسف الكندى المصرى ت بعد عام
٣٥٠هـ / ٩٦١م):

٨٥ - فضائل مصر . تحقيق إبراهيم أحمد العدوى - على
محمد عمر .
دار الفكر - بيروت، ومكتبة وهبة - القاهرة - الطبعة الاولى
١٩٧١م.

الماوردى

(أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى البغدادى ت
عام ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م):
٨٦ - الأحكام السلطانية والولايات الدينية. دار الكتب العلمية -
بيروت لبنان (بدون تاريخ).

المبرد

(محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثماتى الأزدي البصرى أبو
العباس المبرد ت عام ٢٨٥هـ / ٨٩٨م وقيل عام ٢٨٦هـ /
٨٩٩م):
٨٧ - الكامل فى اللغة والأدب. ٢ جزء. المكتبة التجارية الكبرى -
القاهرة ١٣٦٥هـ / ١٩٤٥ - ١٩٤٦م.

محمد بن طلحة

(أبو سالم ت عام ٦٥٢هـ / ١٢٥٤م):
٨٨ - العقد الفريد للملك السعيد. المطبعة الوهبية ١٢٨٣هـ /
١٨٦٧م.

المسعودى

(أبو الحسن على بن الحسين بن على ت عام ٣٤٦هـ /
٩٥٧م):
٨٩ - التنبيه والاشراف. مراجعة عبد الله اسماعيل الصاوى.
مكتبة الشرق الإسلامية ومطبعتها - القاهرة ١٣٥٧هـ /
١٩٣٨م.

٩٠- مروج الذهب ومعادن الجوهر. ٤ أجزاء . تحقيق محمد
محيى الدين عبد الحميد. المكتبة العصرية - صيدا - بيروت
١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

المفضل بن سلمة

(أبو طالب المفضل بن سلمة بن عاصم ت عام ٣٩٠هـ /
٩٩٩م):

٩١- الملاحى وأسمائها من قبل الموسيقى. تحقيق غطاس عبد
الملك خشبة. الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة
١٩٨٥م.

المقدسى

(محمد بن أحمد المقدسى ت عام ٣٩٠هـ / ٩٩٩ م) :
٩٢- أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم . اختار النصوص
وعلق عليها وقدم لها غازى طليمات. المختار من التراث
العربى رقم (١٣) - منشورات وزارة الثقافة والارشاد
القومى - دمشق ١٩٨٠ م.

المقرئزى

(تقى الدين أبو العباس أحمد بن على ت عام ٨٤٥ هـ /
١٤٤١ م)
٩٣- إغاثة الأمة بكشف الغمة أو تاريخ المجاعات فى مصر .
دار ابن الوليد - حمص (بدون تاريخ) .
٩٤- البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب. تحقيق
الدكتور عبد المجيد عابدين. عالم الكتب - القاهرة - الطبعة
الأولى ١٩٦١م.
٩٥ - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط
المقرئزية . دار صادر - بيروت (بدون تاريخ).

مؤلف مجهول

(كاتب مراكشي من كتاب القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي):

٩٦ - الاستبصار في عجائب الأمصار، وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب. نشر وتعليق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد. دار الشؤون الثقافية العامة (آفاق عربية) - بغداد ١٩٨٦م.

النديم

(أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحق المعروف بالوراق ت عام ٣٨٣هـ / ٩٩٣م):

٩٧ - الفهرست. تحقيق رضا - تجدد ابن علي بن زين العابدين. طهران ١٩٧١م.

الوطواط

(محمد بن إبراهيم بن يحيى الكتبي ت عام ٧١٨هـ / ١٣١٨م):

٩٨ - مباهج الفكر ومناهج العبر، صفحات من جغرافية مصر. تحقيق الدكتور عبد العال عبد المنعم الشامى . المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب - قسم التراث العربى - السلسلة التراثية - الكويت - الطبعة الاولى ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

ياقوت

(شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى البغدادى ت عام ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م):

٩٩ - معجم الأدياء ٢٠٠ جزء دار الفكر - القاهرة - الطبعة الثالثة ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

١٠٠ - معجم البلدان . ٥ أجزاء. دار صادر- بيروت (بدون تاريخ).

يحيى بن آدم

(القرشى ت عام ٢٠٣هـ / ٨١٨م):

١٠١- الخراج. صححه وشرحه ووضع فهارسه الشيخ أحمد محمد شاكر المطبعة السلفية ومكتبتها - القاهرة ١٣٤٧هـ / ١٩٢٨م، والطبعة الثانية ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م.

اليقوبى

(أحمد بن أبى يعقوب بن واضح الكاتب ت عام ٢٨٤هـ / ٨٩٧م):

١٠٢ - البلدان. طبعة ليدن ١٨٩١م.

اليمانى

. (عبد الباقي بن عبد المجيد ت عام ٧٤٣هـ / ١٣٤٢م):

١٠٣- إشارة التعيين فى تراجم النحاة واللغويين.
تحقيق الدكتور عبد المجيد دياب. مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الاسلامية - السعودية - الطبعة الاولى ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

ثانيا: المراجع:

- أبو صالح الألفى (الدكتور):
١- الفن الاسلامى. أصوله - فلسفته - مدارسه.
دار المعارف - القاهرة (بدون تاريخ).
- أحمد أمين
٢- ظهر الاسلام. ٤ أجزاء . مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة
(بدون تاريخ) ٤،٣،١ الطبعة السادسة، ج٢ الطبعة
الخامسة.
٣- فجر الاسلام . مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - الطبعة
الرابعة عشر ١٩٨٧م.
- أحمد تيمور باشا
٤- التصوير عند العرب . أخرجه وزاد عليه الدراسات الفنية
والتعليقات الدكتور زكى محمد حسن .
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٤٢م.
- أحمد جاب الله شلبى
٥- الحضارة الاسلامية خلال الأربعة عشر قرنا الماضية:
التعليم والتربية عند المسلمين.
دراسات فى الحضارة الاسلامية بمناسبة القرن ١٥م -
المجلد الاول - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة
١٩٨٥م.
- أحمد الشرباصى
٦- الأئمة الأربعة. سلسلة كتاب الهلال العدد (١٦٢) - دار
الهلال - القاهرة سبتمبر ١٩٦٤م.

- أحمد عبد الرازق
أحمد
(الدكتور):
٧- وسائل التسليية عند المسلمين.
درسات فى الحضارة الإسلامية بمناسبة القرن ١٥م -
المجلد الأول - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة
١٩٨٥م.
- أحمد عبد السلام
ناصر
(الدكتور):
٨- الشرطة فى مصر الإسلامية.
الزهرام للإعلام العربى - القاهرة - الطبعة الأولى
١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.
- أحمد صادق سعد
٩- تاريخ مصر الإجتماعى - الإقتصادى.
دار ابن خلدون - بيروت - الطبعة الأولى ١٩٧٩م.
- أدم متز
١٠- الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى - ٢ جزء.
ترجمة الأستاذ الدكتور محمد عبد الهادى أبورية.
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - الطبعة
الثالثة ١٣٧٧هـ / ١٩٥٧م.
- اسماعيل باشا
البغدادى
١١- هدية العارفين - أسماء المؤلفين وأثار المصنفين .
٦ أجزاء .
مكتبة المثنى - بغداد عن طبعة استانبول ١٩٥١م.
- أمينة أحمد إمام
الشوربجى
(الدكتورة):
١٢- رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية لمصر
فى العصر الفاطمى (٣٥٨ - ٥٦٧هـ / ٩٦٩ - ١١٧١م).
رسالة دكتوراة غير منشورة.
كلية البنات - جامعة عين شمس ١٩٩٢م.

الأب انستاس الكرملى ١٣ - النقود العربية والإسلامية وعلم النميات.
مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة - الطبعة الثانية ١٩٨٧م.

أيدرس بل (هـ . أيدرس بل) :
١٤ - مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى.
ترجمة الدكتور عبداللطيف أحمد على - والدكتور محمد
عواد حسين.
مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ١٩٥٤م.

بتلر (الدكتور الفريد . ج . بتلر) :
١٥ - فتح العرب لمصر . ٢ جزء.
ترجمة محمد فريد أبوحديد.
سلسلة تاريخ المصريين العديدين ٢٧ و ٢٨ - الهيئة المصرية
العامة للكتاب - القاهرة ١٩٨٩م.

تريتون (الدكتور أ. س. تريتون) :
١٦ - أهل الذمة فى الإسلام.
ترجمة الدكتور حسن حبشى.
دار المعارف - القاهرة - الطبعة الثانية ١٩٦٧م.

توفيق سلطان (الدكتور):
١٧- التعريب فى العصرين الأموى والعباسى - المجلة المصرية
للدراسات التاريخية - المجلد الرابع والعشرون - القاهرة
١٩٧٧م.

- جاستون فييت ١٨ - المواصلات فى مصر فى العصور الوسطى.
ترجمة محمد وهبى.
بحث فى كتاب (فى مصر الإسلامية) مقالات متنوعة لطائفة
من الاساتذة - مطبعة المقتطف والمقطع - القاهرة ١٩٣٧م.
- جرجى زيدان ١٩ - تاريخ التمدن الإسلامى . ٥ أجزاء:
مراجعة وتعليق الدكتور حسين مؤنس.
دار الهلال - القاهرة ١٩٦٨م.
- جون مارلو ٢٠ - تاريخ الذهب الاستعمارى لمصر ١٧٩٨ - ١٨٨٢م.
ترجمة الدكتور عبدالعظيم رمضان.
الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٧٦م.
- (الدكتور):
- حسن إبراهيم حسن ٢١ - تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى.
٤ أجزاء.
مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - الطبعة الثالثة ١٩٥٣م.
- ٢٢ - المجلد فى التاريخ المصرى (حسن إبراهيم حسن
وأخرون).
مطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده - القاهرة - الطبعة
الأولى ١٣٦١هـ / ١٩٤٢م.
- ٢٣ - النظم الإسلامية (حسن إبراهيم حسن - محمد عبد
الرحيم مصطفى - على إبراهيم حسن).
دار السعد - القاهرة - الطبعة الثالثة ١٩٥٠م.

حسن محمود

(الدكتور) :

٢٤ - العالم الإسلامى فى العصر العباسى (د. حسن محمود
- د. أحمد إبراهيم الشريف).
دار الفكر العربى - القاهرة - الطبعة الخامسة (بدون
تاريخ).

حسن محمود

٢٥ - العملة وتاريخها .

الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٨٠م.

الشافعى

حسينى

(س. أ. ق حسينى) :

٢٦ - الإدارة العربية .

ترجمة الدكتور إبراهيم أحمد العدوى، ومراجعة عبدالعزيز
عبدالحق.
سلسلة الألف كتاب العدد (١٨٦) - مكتبة الآداب - القاهرة
(بدون تاريخ).

خير الدين

٢٧ - الاعلام . قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من

العرب والمستعربين والمستشرقين.

الجزء الخامس.

مطبعة كوستاتسوماس وشركاه - الطبعة الثانية ١٣٧٤هـ/

١٩٥٥م.

الزركلى

درويش النخيلى

(الدكتور):

٢٨ - السفن الاسلامية على حروف المعجم.

دار المعارف - القاهرة - الطبعة الثانية ١٩٧٩م.

رافقت عبد الحميد

(الدكتور):

٢٩- الدولة والكنيسة، الجزء الأول (قسطنطين) مطبعة أطلس -
القاهرة ١٩٧٥ م.

٣٠ - الدولة والكنيسة، الجزء الثاني (أثناسيوس) مطبعة سعيد
رافت - جامعة عين شمس - القاهرة ١٩٨٠ م.

٣١ - ملامح الشخصية المصرية فى العصر المسيحى.
كتاب روزاليوسف - العدد الحادى عشر ١٩٧٣ - ١٩٧٤ م.

زكى محمد حسن

(الدكتور) :

٣٢ - بعض التأثيرات القبطية فى الفنون الإسلامية.
مجلة جمعية محبى الفن القبطى - المجلد الثالث ١٩٣٧ م -
مطبعة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة.

٣٣ - الفن الإسلامى فى مصر .
مطبوعات دار الآثار العربية - القاهرة ١٩٣٥ م.
٣٤ - فنون الإسلام .
مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - الطبعة الأولى ١٩٤٨ م.
٣٥ - فى الفنون الإسلامية .
مطبعة الاعتماد - القاهرة ١٩٣٨ م.
٣٦ - كنوز الفاطميين .
دار الكتب المصرية - القاهرة ١٣٥٦ هـ / ١٩٣٧ م.

ستانلى لينبول

٣٧ - سيرة القاهرة .

ترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن، والدكتور على إبراهيم
حسن، وإدوار حليم.
مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - الطبعة الرابعة ١٩٢٤ م.

سعاد ماهر محمد

(الدكتورة) :

- ٢٨ - البحرية فى مصر الإسلامية وأثارها الباقية .
دار الكاتب العربى للطباعة والنشر - وزارة الثقافة -
القاهرة ١٩٦٧م .
٣٩ - تطور العماثر الإسلامية الدينية بتطور وظائفها .
المجلة التاريخية المصرية - المجلد الثامن عشر - القاهرة
١٩٧١م .
٤٠ - الفنون الإسلامية - الهيئة المصرية العامة للكتاب -
القاهرة ١٩٨٦م .

٤١ - النسيج الإسلامى .

الجهاز المركزى للكتب الجامعية والمدرسية والوسائل
التعليمية - مطابع دار الشعب - القاهرة ١٩٧٧م .

سعيد اسماعيل
على

(الدكتور) :

- ٤٢ - تاريخ التربية والتعليم فى مصر .
عالم الكتب - القاهرة ١٩٨٥م .

سعيد عبد الفتاح
عاشور

(الدكتور) :

- ٤٣ - العلم بين المسجد والمدرسة .
بحث فى كتاب تاريخ المدارس فى مصر الإسلامية .
سلسلة تاريخ المصريين العدد (٥١) - الهيئة المصرية العامة
للكتاب - القاهرة ١٩٩٢م .

- ٤٤ - الفلاح والإقطاع فى عصر الأيوبيين والمماليك .
بحث فى كتاب الأرض والفلاح فى مصر على مر العصور .
الجمعية المصرية للدراسات التاريخية - القاهرة ١٩٧٤م .

سليم حسن

(الدكتور) :

٤٥ - مصر القديمة، ٢ جزء.

الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٩٢م.

سليمان نسيم

(الدكتور) :

٤٦ - الأقباط والتعليم في مصر الحديثة .

تقديم ومراجعة الأنبا غريغوريوس، والدكتور عزيز سوريال عطية.

منشورات أسقفية الدراسات العليا اللاهوتية والثقافة القبطية والبحث العلمي (بدون تاريخ).

سهام مصطفى

(الدكتورة) :

٤٧ - الحسبة في مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى نهاية العصر المملوكي.

الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٨٦م.

أبو زيد

السيد الباز

(الدكتور) :

٤٨ - الحسبة والمحاسبون في مصر .

المجلة التاريخية - المجلد الثالث - العدد الثاني - أكتوبر ١٩٥٠م.

٤٩ - مصر البيزنطية .

دار النهضة المصرية - القاهرة (بدون تاريخ).

العريني

السيد طه السيد

(الدكتور) :

٥٠ - الحرف والصناعات في مصر الإسلامية منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمي.

(٢٠ - ٥٦٧ هـ / ٦٤١ - ١١٧١ م).

سلسلة الألف كتاب الثاني العدد (٩٥) - الهيئة المصرية

العامة للكتاب - القاهرة ١٩٩١م.

أبو سديرة

السيد محمود
عبد العزيز سالم

(الدكتور):

٥١- المآذن المصرية. نظرة عامة عن أصلها وتطورها منذ الفتح
العربي حتى الفتح العثماني.
مطبوعات وزارة الثقافة والإرشاد القومي - الهيئة العامة
لشئون المطابع الأميرية - القاهرة ١٣٧٨هـ / ١٩٥٩م.

سيدة اسماعيل
كاشف

(الدكتورة) :

٥٢ - أحمد بن طولون .

أعلام العرب العدد (٤٨) - المؤسسة المصرية العامة للتأليف
والأنباء والنشر - الدار المصرية للتأليف والترجمة -
القاهرة ١٩٦٥م.

٥٣ - الأرض والفلاح في مصر الإسلامية .

بحث في كتاب (الأرض والفلاح في مصر على مر
العصور) - الجمعية المصرية للدراسات التاريخية - القاهرة
١٩٧٤م.

٥٤ - تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية لساويرس بن المقفع
وأهميته لدراسة التاريخ القومي.
المجلة التاريخية المصرية - المجلدان التاسع والعاشر -
القاهرة ١٩٦٠ - ١٩٦٢م.

٥٥ - تعريب مجتمع الاسكندرية .

بحث في كتاب (مجتمع الاسكندرية عبر العصور) - مطبعة
جامعة الاسكندرية عام ١٩٧٥م.

٥٦ - دراسات فى المجتمع المصرى الإسلامى قبل العصر
الفاطمى. مستخرج من (دراسات أثرية إسلامية) - المجلد
الثانى - القاهرة ١٩٨٠م.

٥٧ - دراسات فى النقود الإسلامية .
المجلة التاريخية المصرية - المجلد الثانى عشر - القاهرة
١٩٦٤ - ١٩٦٥م.

٥٨ - عبدالعزيز بن مروان .
أعلام العرب العدد (٧٠) - المؤسسة المصرية العامة للتأليف
والنشر - دار الكاتب العربى للطباعة والنشر - القاهرة
أكتوبر ١٩٦٧م.

٥٩ - العرب والبحار .
حولية كلية البنات - جامعة عين شمس - العدد الرابع -
يولية ١٩٦٤م.

٦٠ - مصادر التاريخ الإسلامى ومناهج البحث فيه .
مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة ١٩٦٠م.

٦١ - مصر الإسلامية وأهل الذمة .
سلسلة تاريخ المصريين العدد (٥٧) - الهيئة المصرية العامة
للكتاب - القاهرة ١٩٩٣م.

٦٢ - مصر فى عصر الاخشيديين .
سلسلة تاريخ المصريين العدد (٢٩) - الهيئة المصرية العامة
للكتاب - القاهرة ١٩٨٩م.

- ٦٣ - مصر فى عصر الولاة .
سلسلة تاريخ المصريين العدد (١٤) - الهيئة المصرية العامة
للكتاب - القاهرة ١٩٨٨م.
- ٦٤ - مصر فى فجر الإسلام من الفتح العربى إلى قيام الدولة
الطولونية.
دار النهضة العربية - القاهرة - الطبعة الثانية ١٩٧٠م.
- عبد الحفيظ محمد على ٦٥ - الحركة الديرية فى مصر وأثرها على بلدان البحر
المتوسط فى القرنين الخامس والسادس الميلاديين.
بحث فى كتاب (مصر وعالم البحر المتوسط) إعداد وتقديم
الدكتور رؤوف عباس - دار الفكر للدراسات والتوزيع -
القاهرة ١٩٨٦م.
- عبد الخالق سيد أبو رابية ٦٦ - عمرو بن العاص .
الزهراء للإعلام العربى - القاهرة - الطبعة الأولى
١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.
- عبد الرحمن زكى : (الدكتور)
٦٧ - الفسطاط وضاحيتها العسكر والقطائع.
المكتبة الثقافية العدد (١٥٨) - الدار المصرية للتأليف
والترجمة - مكتبة مصر - القاهرة أول يونية ١٩٦٦م.
- عبد الله خورشيد : (الدكتور)
٦٨ - القبائل العربية فى مصر فى القرون الثلاثة الأولى
للهجرة.
دار الكاتب العربى للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٦٧م.

**عبد المجيد
هابدين**

(الدكتور) :

٦٩ - لمحات من تاريخ الحياة الفكرية المصرية قبل الفتح
العربى وبعده،
مطبعة الشبكشى بالازهر - القاهرة - الطبعة الاولى
١٩٦٤م.

عبد المنعم سلطان

(الدكتور) :

٧٠ - تاريخ الشرطة فى مصر الإسلامية فى عصر الولاة، من
الفتح حتى قيام الدولة الطولونية ٢٥٤هـ / ٨٦٨م.
القاهرة ١٩٨٥م (بدون مكان للطبع).
٧١ - المجتمع المصرى فى العصر الفاطمى، دراسة تاريخية
وثائقية.
دار المعارف - القاهرة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

عبد المنعم ماجد

(الدكتور) :

٧٢ - تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى.
مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - الطبعة الثالثة ١٩٧٣م
والطبعة الخامسة ١٩٨٦م.

عطية القوصى

(الدكتور) :

٧٣ - أضواء جديدة على تجارة الكارم من واقع وثائق الجنيزة.
المجلة التاريخية المصرية - المجلد الثانى والعشرون -
القاهرة ١٩٧٥م.
٧٤ - تجارة مصر فى البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى
سقوط الخلافة العباسية.

دار النهضة العربية - القاهرة ١٩٧٦م.
٧٥ - من أخبار المدن الإسلامية المنشورة «تنييس».
قبلت للنشر في العدد الأول من (المجلة العربية للعلوم
الإنسانية) مجلة كلية الآداب والتربية - جامعة الكويت.

عطية مصطفى
مشرفة
(الدكتور) :
٧٦ - القضاء في الإسلام بوجه عام وفي العهد الإسلامي في
مصر بوجه خاص إلى سنة ٢٥٨هـ.
مطبعة الاعتماد - القاهرة - الطبعة الأولى ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م

على إبراهيم
حسن
(الدكتور) :
٧٧ - مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي إلى الفتح
العثماني.
مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - الطبعة الرابعة - يناير
١٩٥٤م.

على حسنى
الخربوطلى
(الدكتور) :
٧٨ - البحر المتوسط بحيرة عربية.
سلسلة إقرأ العدد (٢٤٧) - القاهرة (بدون تاريخ).

٧٩ - الحضارة العربية الإسلامية.
مكتبة الخانجي - القاهرة - الطبعة الثانية ١٩٧٥م.

عمر رضا كحالة
٨٠ - أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام ٥ أجزاء.
المطبعة الهاشمية - دمشق - الطبعة الثانية ١٩٥٩م.

فاطمة مصطفى

(الدكتورة) :

عامر

٨١ - استضافة الجيوش الإسلامية أثناء الفتوحات الإسلامية.
دار العلوم للطباعة - القاهرة - الطبعة الأولى ١٣٩٨ هـ /
١٩٧٨ م.

كوبلاند

(ج . و . كوبلاند) :

٨٢ - الإقطاع والعصور الوسطى بغرب أوروبا.
ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة.
مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - الطبعة الثانية ١٩٥٥ م.

لجنة التاريخ

القبطى

محمد رمزى

٨٣ - خلاصة تاريخ المسيحية فى مصر .
مطبعة المقتطف والمقطم - القاهرة - الطبعة الثالثة ١٩٢٥ م.
٨٤ - القاموس الجغرافى للبلاد المصرية من عهد قدماء
المصريين إلى سنة ١٩٤٥ م. قسمين وفهرس.
دار الكتب المصرية - القاهرة.
القسم الأول خاص بالبلاد المندرسه ١٩٥٣ - ١٩٥٤ م.
القسم الثانى أربعة أجزاء (ج ١ ١٩٥٤ - ١٩٥٥ م، ج ٢
١٩٥٨ م، ج ٣ ١٩٦٠ م، ج ٤ ١٩٦٣ م).

محمد ضياء الدين

(الدكتور) :

الرئيس

٨٥ - الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية.
مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - الطبعة الثانية ١٩٦١ م.

محمد عبد الرحمن البكر
(الدكتور) :
٨٦ - السلطة القضائية وشخصية القاضى فى النظام
الإسلامى.
الزهراء للإعلام العربى - القاهرة - الطبعة الأولى
١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

محمد عبد العزيز
مرزوق
(الدكتور) :
٨٧ - الفن المصرى الإسلامى .
سلسلة إقرأ العدد (١١٤) - دار المعارف - القاهرة ١٩٥٢م.

محمد عبد الله
عنان
٨٨ - مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية.
دار الكتب المصرية - القاهرة - الطبعة الأولى ١٣٥٠هـ/
١٩٣١م.

٨٩ - مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصرى.
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - الطبعة
الأولى ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م.

محمد عبد المنعم
خفاجى
٩٠ - شعراء مصر من الفتح الإسلامى إلى قيام الدولة
الفاطمية (٢٠ - ٣٥٨هـ).
(محمد عبد المنعم خفاجى - محمد مصطفى الماحى).
الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٨٠م.

٩١ - مواكب الحرية فى مصر الإسلامية.
الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٨٧م.

- محمد عزة سروزة ٩٢ - عروبة مصر فى ظل العروبة الصريحة والإسلام.
الجزء الثانى.
سلسلة كتب قومية العدد (٨٩) - مطابع الدار القومية -
القاهرة ١٧ يناير ١٩٦١م.
- محمد قنديل ٩٣ - التعريف بمصطلحات صبح الأعشى.
مراجعة الدكتور عبدالرحمن زكى.
الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٨٣م.
- محمد كامل حسين (الدكتور) :
٩٤ - الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربى حتى
آخر الدولة الفاطمية.
سلسلة الألف كتاب العدد (٢٤٤) - مكتبة النهضة المصرية
- القاهرة ١٩٥٩م.
- محمد كامل مرسى (الدكتور) :
٩٥ - الملكية العقارية فى مصر وتطورها التاريخى من عهد
الفراعنة حتى الآن.
مطبعة نورى - القاهرة ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م.
- محمد محمد ٩٦ - التقاويم .
سلسلة الألف كتاب العدد (١٦٣) - مطبعة نهضة مصر -
القاهرة ١٩٥٨م.
- محمود بن محمد ٩٧ - تاريخ القضاء فى الإسلام .
المطبعة المصرية الأهلية الحديثة - القاهرة ١٩٣٤م.
- بن عرنوس ٩٨ - سيدات البلاط العباسى.
مصطفى جواد دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع - بيروت - لبنان
١٩٥٠م.

مصطفى طه بدر

(الدكتور) :

٩٩ - مصر الإسلامية . الجزء الأول (من الفتح الإسلامى حتى زوال الدولة الاخشيدية).
مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ١٩٥٤م.

مصطفى العبادى

(الدكتور) :

١٠٠ - الأرض والفلاح فى مصر الرومانية.
بحث فى كتاب (الأرض والفلاح على مر العصور) -
الجمعية المصرية للدراسات التاريخية - القاهرة ١٩٧٤م.

١٠١ - مصر من الاسكندر الاكبر إلى الفتح العربى.
مكتبة الانجلو المصرية - القاهرة ١٩٨٥م.

**مصطفى عبد الله
شيحة**

(الدكتور) :

١٠٢ - الآثار الإسلامية فى مصر من الفتح العربى حتى نهاية
العصر الايوبي (٢٠ - ٦٤٨هـ / ٦٤١ - ١٢٥٠م).
مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - الطبعة الاولى ١٩٩٢م.

المعجم الوجيز

١٠٣ - طبعة وزارة التربية والتعليم - القاهرة ١٤١٠هـ/
١٩٩٠م.

مليحة رحمة الله

(الدكتورة) :

١٠٤ - الملابس فى العراق خلال العصور العباسية.
المجلة التاريخية المصرية - المجلد الثالث عشر - القاهرة
١٩٦٧م.

المنجد فى اللغة ١٠٥ - دار المشرق - بيروت - الطبعة الحادية والعشرون
والاعلام ١٩٧٣م.

المورد ١٠٦ - دار العلم للملايين - بيروت - الطبعة الحادية عشرة
١٩٧٧م.

الموسوعة المصرية ١٠٧ - الموسوعة المصرية تاريخ مصر القديمة وآثارها.
المجلد الأول، الجزء الثالث تاريخ وآثار مصر الإسلامية.
مطبوعات الهيئة العامة للاستعلامات (بدون تاريخ).

القس منسى ١٠٨ - تاريخ الكنيسة القبطية.
يوحنا مكتبة المحبة - القاهرة ١٩٨٣م.

نقولا يوسف ١٠٩ تاريخ دمياط منذ أقدم العصور.
مطبعة التحرير - القاهرة ١٩٥٩م.

نيكولسون (رينولد ١٠. نيكولسون) :
١١٠ - فى التصوف الإسلامى وتاريخه.
ترجمة أبو العلا عفيفى.
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٣٨٨هـ /
١٩٦٩م.

يونان لبیب رزق (الدكتور) :
١١١ - أوروبا فى عصر الرأسمالية . (د. يونان لبیب رزق - د.
رؤوف عباس - د. عبد العظيم رمضان).
دار الثقافة العربية - القاهرة ١٩٨٣م.

الكشافات

- ١- كشاف الاعلام
- ٢- كشاف البلاد والاماكن
- ٣- كشاف المصطلحات والمعاني

* قام بعمل الكشافات هويدا عبدالعظيم رمضان.

١ - كشف الأعلام

٢٧٩، ٢٨٨، ٣٢٦، ٣٤٥/ج ٢، ١٥	- ١ -
أبو بكر «النقاش» : ج ٢، ١١٩، ١٣٤	إبن إسحاق : ج ٢، ١٣٨
أبو بكر بن أيوب : ج ٢، ٢٨٩	إبن أندونة «الكاتب» : ج ١، ٢٣٥
أبو بكر بن خزيمة : ج ٢، ١٤٥	إبن بلال «القاضي» : ج ١، ٣١٨
أبو بكر بن عبدالرحمن : ج ٢، ١٥٠	إبن حبان : ج ٢، ١٤٤
أبو بكر بن عبدالعزيز : ج ٢، ٥٠، ٥١	إبن رمانة : ج ٢، ٢٤٦
أبو بكر بن عبدالله : ج ٢، ١٣٣	إبن سنبر : ج ١، ١٠٦، ١٠٧
أبو بكر المحلى : ج ٢، ٦٠	إبن شهاب : ج ١، ٨١
أبو تميم الجيشانى : ج ٢، ١٣٨	إبن الشيخ : ج ١، ٢٧٨
أبو الثريا : ج ٢، ٢٠٠	إبن عباس : ج ٢، ١٣٥، ١٥٠
أبو جعفر الدينورى : ج ٢، ٢١٨	إبن عدى : ج ٢، ١٤٣
أبو حاتم : ج ٢، ١٤٣، ١٤٥، ٢١٧	إبن القاسم : ج ٢، ١٥٤، ١٥٦، ١٥٧
أبو الحسن الأعز : ج ٢، ١٧٠	١٥٨، ٢١٦
أبو الحسن بن أبى جعفر	إبن المبارك : ج ٢، ١٣٩، ١٤٠، ١٥١
«الطحاوى» : ج ٢، ٢٨٣، ٢٩٤	١٥٤، ١٥٢
أبو الحسن بن عيسى : ج ١، ٢٣٦	إبن معين : ج ٢، ١٤٣، ١٤٧، ١٥١
أبو الحسن على : ج ٢، ٢١١	١٥٧
أبو حنيفة : ج ١، ٧٤، ٧٥، ٩٧، ٩٩	إبن ميادة المرى : ج ٢، ١٨٥
١٠٠، ١٠١، ١٢٧، ١٣٥، ٣٠٧، ٣١٨	إبن يونس «المؤرخ» : ج ٢، ١٤٢
٣٢٣، ٣٢٤	١٤٥
أبو حيان أيوب بن أبى العالية : ج ١	أبو إدريس الخولانى : ج ١، ٣٢٨
٨٠	أبو إسحق بن شعبان : ج ٢، ٢١٧
أبو الخير الأقطع : ج ٢، ١٦٩	أبو بصرة الففارى : ج ٢، ١٠٥
أبو الدرداء : ج ١، ٣٠٣ / ج ٢، ٢٧٤	٢٧٤
أبو نر الففارى : ج ٢، ٢٦٥، ٢٧٤	أبو بكر «الصديق» : ج ١، ٢٦٩

- أبو الذكر محمد «القاضي» : جـ ٢ ١٦٤
 ١١٩ إبراهيم بن إسحاق : جـ ١ ٣١١
 ٣١٥ أبو رافع «مولى رسول الله صلى
 الله عليه وسلم» : جـ ٢ ١٢٩
 ٣٣٩ أبو رجب العلا : جـ ٢ ١٨٣
 إبراهيم بن حمدان : جـ ٢ ١٣٣
 أبو سلمة بن عبد الرحمن : جـ ١ ٨١
 إبراهيم بن ساويرس : جـ ١ ٢٣٤
 إبراهيم بن صالح : جـ ١ ٢٤٣ /
 ١٠٦ جـ ٢
 أبو العباس «المبرد» : جـ ٢ ١٢٧
 إبراهيم بن عبد الله «أبو اسحاق» :
 ١٨٥ أبو عثمان السكري : جـ ٢
 جـ ٢ ١٧٤ ، ٢٠١
 أبو العشائر : جـ ٢ ٥٣
 إبراهيم بن عيسى : جـ ٢ ٢٠٩
 إبراهيم بن محمد «الزجاج» : جـ ٢
 ١٧٣ ، ١٧٤
 أبو عشانة المعافري : جـ ٢ ١٣٧
 إبراهيم بن المدبر : جـ ٢ ١٢٧
 أبو علي بن أبي هريرة : جـ ٢ ٢٩٢
 إبراهيم بن مروان : جـ ١ ٢٣٦
 أبو الفرج البالسي : جـ ٢ ٢٠٩
 إبراهيم بن المهدي : جـ ٢ ١٨١
 أبو القاسم سعيد «قاضي البقر» :
 جـ ٢ ١٩٦
 إبراهيم بن يزيد «أبو خزيمة» : جـ ١
 ١٤٠ ، ١٣٨ ، ١٤٠
 ١٤١ ، ١٤٤ ، ١٤٥
 أبو مرزوق التجيبي : جـ ٢ ١٤٤
 إبراهيم بن يزنيد : جـ ١ ٣٠٨ ، ٣١٢ ، ٣١٤ ، ٣١٨ ، ٣٤٤
 جـ ٢ ٧٥ /
 أبو نجاد الحارثي : جـ ٢ ١٨٦
 أثناسيوس : جـ ١ ٥٢ ، ٥٣ ، ٦٠ /
 جـ ٢ ٢٨٩
 أحمد بن أبي بكر «أبو مصعب» :
 جـ ٢ ١٤٦
 أحمد بن أبي دواد : جـ ١ ١٠٨ ، ٣٢٨
 جـ ٢ ٨٠ /
 أحمد بن أبي عاصم : جـ ٢ ١٩٦
 أحمد بن أبي عمران : جـ ٢ ١٦٥
 أبو قبيل المعافري : جـ ٢ ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤١
 أبو موسى الأشعري : جـ ١ ٣٠٣
 أبو هريرة : جـ ١ ٢٤٢ ، ٢٧٩ ، ٣٠٧ /
 جـ ٢ ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٥١ ، ١٧٠
 أبو يربوع الفزاري : جـ ١ ٢٣٧
 أبو يعقوب «البلخي» : جـ ٢ ١٢٢
 أبان بنت الحارث : جـ ٢ ٢٧٩
 إبراهيم «الكاتب» : جـ ١ ٢٣٥
 إبراهيم بن أحمد «أبو إسحاق» :

أحمد بن أبي الليث : ج ٢ ١٤٩	١٠٨، ١١٨، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٥، ١٢٦،
أحمد بن أبي يعقوب : ج ٢ ١٩٢	١٦٢، ١٧٧، ١٨١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤،
أحمد بن أسامة «أبو جعفر» : ج ٢ ١٣٤	١٩٥، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٧، ٢٠٨،
أحمد بن اسحق : ج ٢ ١٧٢، ١٩٢	٢٠٩، ٢١٠، ٢١٢، ٢١٥، ٢٣٥، ٢٣٦،
أحمد بن أيمن : ج ٢ ٢٠٠	٢٣٩، ٢٤٢، ٢٤٦، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠،
أحمد بن جعفر الدينوري : ج ٢ ١٧٠	٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٨، ٢٥٩،
أحمد بن حازم : ج ٢ ٢١٧	٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٣، ٢٧٩،
أحمد بن الحسين «المتنبى» : ج ٢ ٢٩٤	٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٦، ٢٨٧،
أحمد بن عبد الله «أبو جعفر» : ج ١ ١٩٧	
أحمد الحمراوى : ج ٢ ١٨٦	٣٢٤ / ج ٢ ١٣٣
أحمد بن حنبل : ج ٢ ١٣٨، ١٤١،	أحمد بن عبد الله بن مسلم : ج ٢ ١١٨
أحمد بن خالد : ج ١ ٢٤١	١٤٣، ١٤٥، ١٥٢، ١٥٦، ٢٩١،
أحمد بن شعيب «النسائي» : ج ٢ ١١٨، ١٢٠، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٣، ١٤٤،	أحمد بن عبد الوارث : ج ٢ ١٤٦
أحمد بن صالح : ج ١ ٢٦٩ / ج ٢ ١٥١، ١٣٢	أحمد بن علي بن الأخشيد : ج ٢ ١٢٣، ١٢٤
أحمد بن صدقة : ج ٢ ١٩٦	أحمد بن عمر «الطحان» : ج ٢ ١٤٧
أحمد بن طولون : ج ١ ١١٢، ١٢١،	أحمد بن عمرو «أبو طاهر» : ج ٢ ١٥٨
أحمد بن كيغلغ : ج ١ ٢٨٥	أحمد بن عيسى بن النحاس «أبو العباس» : ج ٢ ١٤٩
أحمد بن المانزرائى : ج ١ ٢٣٥	أحمد بن محمد «ابن طباطبا» : ج ٢ ١٩٦
أحمد بن محمد «أبو بكر» : ج ٢ ١٣٣	أحمد بن محمد «أبو بكر» : ج ٢ ١٣٣
أحمد بن محمد «أبو العباس» : ج ٢ ١٠٧، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٥، ١٠٧،	

٢١٤	١٥٣
أحمد بن محمد «الحاسب» : ج٢	أحمد بن هلال : ج٢ ١٣٤
٢٣٠	أحمد بن يحيى «أبو عبد الله» : ج١
أحمد بن محمد «الحبيشي» : ج٢	١١٠
١٩٢	أحمد بن يحيى «ثعلب» : ج٢ ١٧٢
أحمد بن محمد «العجيفي» : ج٢	أحمد بن يحيى «الوزير» : ج٢ ١٦١
٢٧٨، ٢٧٩	أحمد بن يوسف «ابن الداية» : ج٢
أحمد بن محمد «الواسطي» : ج١	١٧٧، ١٨١، ٢٠٠، ٢٠٥
٢٦٠ / ج٢ ٢٠٠	أدريانوس : ج١ ٦٠
أحمد بن محمد بن إسماعيل «أبو	أرمانوسة : ج٢ ٥٠
جعفر، ابن النحاس» : ج٢ ١١٩،	أريباسيوس : ج٢ ٢٠٦
١٢٠، ١٧٣، ١٧٤	أريوس : ج١ ٥٢، ٥٣
أحمد بن محمد بن سلامة «أبو	أسامة بن زيد التتوخي : ج١ ١٢٢،
جعفر الطحاوي» : ج٢ ١١٨، ١٤٥،	١٥٠، ٢٤٠، ٢٥٠، ٢٥١ / ج٢ ٢٤٥،
١٦٥، ٢٠١	٢٩٠
أحمد بن محمد بن شجاع «أبو	إسحاق بن إبراهيم : ج١ ٣٤٣
أيوب» : ج١ ٣٤٧ / ج٢ ٢٧٩	إسحاق بن بكر : ج٢ ١٤٠، ١٥٣
أحمد بن محمد بن هارون : ج٢	إسحاق بن جعفر : ج٢ ٥٣، ١٠٧
١٥٩	إسحاق بن سليمان : ج٢ ٢٥
أحمد بن محمد بن الوليد «ولاد» :	إسحاق بن الفرات : ج١ ٣٢٤ /
ج٢ ١٧٣	ج٢ ١٥٦
أحمد بن المدبر : ج١ ١١١، ١٢١،	إسحق بن متوكل : ج٢ ٢٨٤
١٥٤، ١٥٥، ١٥٧، ١٩١، ١٩٩،	إسحق بن معاذ : ج١ ٣٣٧
٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥، ٣٤٧ /	إسحق بن نصير : ج٢ ١٩٩
ج٢ ٤٢، ١٩٣	أسد بن موسى : ج٢ ١٤٢
أحمد بن المؤمل «أبو معشر» : ج٢	اسطفن الإسكندري : ج١ ٦٣
١٢٣	إسكندر : ج١ ٥٣، ٢١٧
أحمد بن موسى بن صدقة : ج٢	إسكندروس : ج١ ٢٣٨

اسماء «ابنة أبي بكر بن عبدالعزيز» جـ ٢: ٥١، ٥٠	أم موسى بنت يزيد بن منصور : جـ ١: ٣١٩
اسماء «زوجة أحمد بن طولون» : جـ ٢: ٥٢	أمونيوس الصقاس : جـ ١: ٢٦٠ الامين : جـ ١: ٣١٢، ٣٢١، ٣٢٤ /
إسماعيل بن عبدالله «أبو الحسن النحاس» : جـ ٢: ١٣٣، ١٣٤	جـ ٢: ١٢٧، ١٩١، ٢٢٦، ٢٤٩ أنس بن مالك : جـ ٢: ١٥٠ أنطونيوس : جـ ١: ٥٧
إسماعيل بن عبد الواحد : جـ ١: ٣٢٤ إسماعيل بن يحيى «المزني» : جـ ٢: ١٦١، ١٦٢، ١٦٥، ٢١٨	الأوزاعي : جـ ٢: ١٣٩ أونجود بن الأخشيد : جـ ١: ٢٠٤، جـ ٢: ٣٣٦ / جـ ٢: ١٣٣
إسماعيل بن اليسع الكندي : جـ ١: ٣١٨، ٣٣٣ / جـ ٢: ٩٠، ١٦٥	إيتاخ التركي : جـ ١: ٢٤٧، ٢٤٨ أيمن بن خريم : جـ ٢: ١٨٨ أيوب بن شرحبيل : جـ ١: ٢٥٨، ٢٨٢ جـ ٢: ٨٧، ٢٦٥ /
أسية بنت مزاحم : جـ ٢: ٥٥ أشفاق «أفناسيوس الرهاوي» : جـ ١: ٢٣٧، ٢٣١	- ب - باخوم : جـ ١: ٥٧ باقوم : جـ ١: ١٨٤
أشفاق التركي : جـ ١: ٢٤٧، ٢٧٧ أشهب : جـ ٢: ١٣٣، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ٢١٦	بحير بن ذاخر المعافري : جـ ١: ٢٦٢ البخاري : جـ ٢: ١٣٥، ١٤٣ بسر بن أبي أرطاة : جـ ٢: ٢٦٢ بشر بن صفوان : جـ ١: ٢٥٨، ٢٨٠، ٢٨٢
أشهب بن عبدالعزيز : جـ ١: ٣٣٧ / جـ ٢: ١٣٣، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨ الاصمغ بن عبدالعزيز : جـ ١: ١٠٧ / جـ ٢: ١٨٧	بشر بن مروان : جـ ٢: ٢٦٣ بطليموس : جـ ٢: ٢٠٣ بقطر بن شفا «بولس» : جـ ١: ٢٣٦ بكار بن قتيبة : جـ ١: ٣١٥ - ٣١٦، ٣٢٤، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٤٥، ٣٤٧ / جـ ٢: ١١٨، ١٦٥
أصبغ بن الفرج : جـ ٢: ١٥٧، ١٥٨ أغسطس : جـ ١: ٣٥، ٢٨، ٤٧ أقليدس : جـ ٢: ٢٠٣ أم سهل : جـ ٢: ٥٠ أم عبدالله : جـ ٢: ٥١ أم كلثوم : جـ ٢: ٥٠ أم مروان : جـ ٢: ٤٩	

بكام : جا ٢٣٤، ٢٣٦

بكر بن سودة : جا ١٥٠

بكر بن مضر : جا ١٤٠، ١٤٥، ١٥١

بلال : جا ١٣٠

بلال بن يحيى : جا ١٤٢

بليطيان : جا ٢٠٦

بنان بن محمد : جا ١٦٨

بنانة : جا ٥٥

بنتينوس : جا ٦١

بنيامين : جا ٨٣، ٥٥

البهلول بن راشد : جا ٢١٧

بودان : جا ٥٣

البيد بن عقبة : جا ١٠٢

- ق -

تكين : جا ٢٦٥، ٢٤٠ / جا ٦٠، ٢٦٨

توبة بن نمر : جا ٣١١، ٣١٧، ٣٣٦ / جا ١٨٣، ٢٩١

تنبيروس : جا ٢٨

تيموتئوس : جا ٢٣٢

تيودور بن خايل : جا ٢٣٦، ٢٣٨

- ث -

ثابت بن قرة : جا ٢٠٤

ثويان بن إبراهيم «ذو الفنون

المصري» : جا ١٦٧، ١٦٨، ٢١٤

ثيودوسيوس الاول : جا ٥٢

- ج -

جابر بن عبدالله : جا ١٤٥

جرير بن الحصان : جا ٢٣٦

جستنيان : جا ٣٧، ٦٥، ١٩٤، ٢٢٥، ٣٠١

جعتل بن هاعان : جا ١٣٠

جعفر بن جدار : جا ١٢٣، ١٩٢، ٢٠٠

جعفر بن ربيعة : جا ١٢٩، ١٣٩، ١٤٠، ١٥٢

جعفر بن عبدالغفار : جا ٢٠٠

جعفر بن الفضل «أبو الفضل» : جا ٢٦٦، ٢٧٨

جعفر بن الفضل بن الفرات «ابن هنزابة» : جا ٩٧، ٩٩، ١٠٠، ١١٩

١٢٤، ١٢٤، ١٤٩، ٢٨٧

الجلاح أبو كثير : جا ١٨٣

جميل بن عبدالله : جا ١٨٨

جناب بن مرثد : جا ١٠٧، ١٠٨

جندب بن جنادة «أبو نر» : جا ٢٤٤

جوهر الصقلي : جا ٢٣٩

جيوش بن خمارويه : جا ١٩٧، ٢٧٨

- ح -

حاتم بن مرثمة : جا ٢٦، ٢٤٩

الحارث بن ثابتة : جا ١٢٤

الحارث بن مسكين : جا ١٩٨

- ٣٠٩، ٣٢٢، ٣٣٣ / ج٢ ١٥٧، ٢١٨ الحارث بن يزيد : ج٢ ١٤٥، ٢١٧
الحارث بن يعقوب : ج٢ ١٣٨
حاطب بن أبي بلتعة : ج٢ ٢٨٧
الحاكم بالله : ج١ ٢٩٨ / ج٢ ٢٨٧
حبان بن أبي جبلة : ج٢ ١٣٠
حبیب بن أوس «أبو تمام» : ج٢ ١٨٦
حبیش بن الحسن : ج٢ ٢٠٤
الحجاج بن مطر : ج٢ ٢٠٤
الحجاج بن يوسف : ج١ ١٣٣، ٢٨٦، ٢٨٧، ٣٤٤
حذيفة بن اليمان : ج١ ١٧٤
الحر بن يوسف : ج١ ٢٥١، ٢٥٢ / ج٢ ٢٤
حرمة بن يحيى : ج٢ ١٦١
حريم بن أوس : ج١ ١٠٠
حسان بن عثامية : ج١ ٢٨٥ / ج٢ ١٥١
حسان بن النعمان : ج١ ٢٤١، ٢٩١
الحسن بن إبراهيم «ابن زولاق» : ج٢ ١٧٨، ١٨١
الحسن بن أحمد «الكاتب» : ج٢ ١٦٩
الحسن بن بويه : ج٢ ١١٩
الحسن بن التختاخ : ج١ ١٧١، ٢٨٥
الحسن بن رافع : ج٢ ٢١٠
الحسن بن ربيع : ج٢ ١٨٤
الحسن بن رشيق : ج٢ ١٤٨
الحسن بن زيرك : ج٢ ٢٠٨
الحسن بن سليمان : ج٢ ١٤٥
الحسن بن صالح : ج١ ٩٤
الحسن بن عبدالرحمن : ج١ ٣٢٤
الحسن بن عبدالله «ابن الجصاص» : ج١ ١٩١ - ١٩٢ / ج٢ ٧٣، ٢٦٣
الحسن بن القاسم «أبو علي» : ج٢ ١٧٧
الحسن بن محمد بن طباطبا : ج٢ ٣٠٠
الحسن بن مهاجر : ج١ ٢٦٠، ٢٦١ / ج٢ ٢٠٠
الحسن بن هانيء «أبو نواس» : ج٢ ١٨٨، ١٩٠
الحسن بن يوسف «أبو علي الفحام» : ج٢ ١٤٦
الحسين بن أبي زرعة : ج١ ٣١٢ / ج٢ ٩٦، ١٦٣
الحسين بن أحمد «أبو زنبور» : ج٢ ٢٦٧
الحسين بن أحمد الماذرائي : ج٢ ٧٤
الحسين بن جميل : ج٢ ٢٦
حسين بن شفي : ج١ ٧٧ / ج٢ ١٢٨، ١٤٤
الحسين بن عبدالسلام «الجمال

الأكبر: ج ١٩٣

- خ -

حفص بن الوليد : ج ١، ٢٤٠، ٢٥١، ٢٥٩، ٢٨٢، ٣٣٤ / ج ٢، ٤٢، ١٣٨، ٢٨٨
خارجة بن حذافة : ج ١، ٢٧٢، ٢٨٢ / ج ٢، ١٢٩، ٢٤٤، ٢٧٩
خالد بن ثابت : ج ١، ٢٢٢

الحكم بن أبي بكر بن عبدالعزيز : ج ٢، ٢٨٥
ج ٢، ٢٨٤
الحكم بن هشام : ج ٢، ٢١٧

حمدان بن عون : ج ٢، ١٣٤
حمزة بن إبراهيم : ج ٢، ١٨٤
حمزة بن محمد «الحافظ» : ج ٢، ١١٩، ١٤٨

حميد بن قحطبة : ج ١، ٢٧٢
حميد بن هاشم الرعيني : ج ١، ٣٣٨
حميد بن هانيء : ج ٢، ١٣٩

حمير بن وائل : ج ٢، ١٠٣
حنظلة بن صفوان : ج ١، ٣١٣
حنين بن أبي حكيم : ج ٢، ١٤٥

حنين بن اسحق : ج ٢، ٢٠٤
حوثرة بن سهيل : ج ١، ٣٤٤ / ج ٢، ٢٣
خماروية : ج ١، ١٧٠، ١٨٨، ١٩١، ٢٠٠، ٢٠٣، ٢٦٥، ٢٧٨، ٣١١، ٣٢٤، ٣٢٨، ٣٤٠، ٣٤٥ / ج ٢، ٥٣، ٧٢، ٧٣، ٧٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٢، ١٠٧، ١٠٨، ١٢٣، ١٧٧، ١٨١، ١٩٤، ١٩٦، ١٩٩، ٢٤٦، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٦، ٢٦١، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٧، ٣٠٠

حيان بن سريح : ج ١، ٨٠، ٨١، ١٣٢، ١٣٤، ٢١٧ / ج ٢، ٢٩٠
حيوة بن شريح : ج ١، ٣٠٨ / ج ٢، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٤، ١٥٢، ١٤٧، ١٥٢

حيويل بن ناشرة : ج ٢، ١٠، ٢٤٢
حيى بن عبدالله : ج ٢، ١٣٩

- د -

داود بن أبي طيبة : ج ٢، ١٣٢

داود بن عبدالله : جـ ١ ٨٠

داود بن محمد بن صالح «أبو

الفوارس» : جـ ٢ ١٧١

داود بن يزيد المهلبى : جـ ١ ٢٨٥

٣٠٦

دحية بن المصعب : جـ ١ ٢٤٣

دراج بن سمعان : جـ ٢ ١٨٣

دعبل بن عبدالله الخزاعى : جـ ٢

١٩١

دقلديانوس : جـ ١ ٣٦، ٥٢، ٥٩

ديكيوس : جـ ١ ٥٧

ديوسقورس : جـ ١ ٥٤، ٦٠

ديونيسيوس : جـ ١ ٥٧، ٦٠، ٢٣٤

٢٣٨

- ذ -

ذكا الاعور : جـ ٢ ٣٠٠

- ر -

رابعة بنت إسماعيل : جـ ٢ ٥٥

الراضى بالله : جـ ١ ٢٤٩ / جـ ٢ ٩٩

الربيع بن سليمان : جـ ٢ ١٦٢، ١٦٣

١٧٠، ٢١٨، ٢٧٨

ربيعة بن أحمد بن طولون : جـ ١

١٨٣

ربيعة بن ثابت الرقى : جـ ٢ ١٩٠

رشيد بن سعيد : جـ ٢ ١٥٥

رملة بنت معاوية : جـ ٢ ٢٤٥

روح بن زنباع : جـ ١ ٢٨٧

٣٧٠

- ز -

زيان بن عبدالعزيز : جـ ٢ ٢٦٣، ٢٩٩

الزبير بن العوام : جـ ١ ٧٩، ٨٠

٨٧، ٢٧١ / جـ ٢ ١٢٨، ٢٨٤، ٢٧٨

زرعة بن سعد الله «ابن أبى زمزمة»

: جـ ١ ٣١٤، ٣٤٠ / جـ ٢ ١٨٦

زرعة بن سهيل : جـ ٢ ٥١

زكريا أبو يحيى الوقار : جـ ٢ ٢١٦

زكريا بن جهم العبدي : جـ ١ ١٤١

زهرة بن معبد «أبو عقيل» : جـ ٢

١٣٩، ١٤٠

الزهرى : جـ ٢ ١٣٧، ١٣٨، ١٥٠

١٥٤

زياد بن أمية : جـ ١ ١٩٨ / جـ ٢ ١٢

زياد بن جرير : جـ ١ ٢٢١

زياد بن قائد : جـ ٢ ١٨٦

زيد بن أسلم : جـ ١ ٨٠ / جـ ٢ ١٣٨

- س -

سالم بن غيلان : جـ ٢ ١٤٠

ساويرس : جـ ٢ ٤٠، ٤٢، ١٨١

١٨٢

سحنون : جـ ٢ ١٥٦

سرج الغول : جـ ٢ ١٧٠، ١٨٧

السرى بن الحكم : جـ ١ ١٧٣، ٢٧٧

٣١١، ٣١٥، ٣٢٤ / جـ ٢ ٢٨٦

سعيد القاص : جـ ٢ ١٩٣

سعد بن أبى وقاص : جـ ١ ٢٨٨ /

جـ ٢ ٢٤٠

- سعيد بن أبي أيوب : ج ٢ ، ١٤٠ ، ١٤٤ ، ١٤٥
- سعيد بن أبي مريم : ج ١ / ٣٢١ ، ١٤٣ ، ١٥١
- سعيد بن أبي هلال : ج ٢ ، ١٣٨
- سعيد بن بطريق : ج ٢ ، ٤٠ ، ١٧٧ ، ٢٠٨
- سعيد بن تليد : ج ١ ، ٣٣٨
- سعيد بن توفيل : ج ٢ ، ٢٠٧
- سعيد بن عبدالعزيز : ج ٢ ، ١٤٣
- سعيد بن عثمان : ج ٢ ، ١١٠ ، ١٤٧
- سعيد بن عفير : ج ١ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ٣٢١ / ج ٢ ، ١٨٧ ، ١٨٦ ، ١٧٦
- سعيد بن كاتب الفرغاني : ج ١ ، ٢٣٥ - ج ٢ ، ٢١٥ ، ٢٦٧ ، ٢٨١
- سعيد بن المسيب : ج ٢ ، ١٣٧
- السفاح «أبو العباس» : ج ١ / ٢٥٨ ، ٤٢ ، ٤٩ ، ٢٥٥ ، ٢٧٨
- سفيان بن عيينة : ج ١ / ٢٦٩ ، ١٥٤ ، ١٥٨
- سفيان بن وهب : ج ١ ، ٧٩
- سقلاب بن شنيعة : ج ٢ ، ١٣١
- السكن بن أبي كريمة : ج ٢ ، ١٣٩
- سلما : ج ٢ ، ٢٠٤
- سليم بن جبير «أبيونس» : ج ٢ ، ١٣٧
- سليم بن عتر التجيبي : ج ١ ، ٣٠٩ ، ٣١١ ، ٣١٧ ، ٣٤٠ / ج ٢ ، ١٨٣
- سليمان بن أبان : ج ٢ ، ١٨٧
- سليمان بن أبي زينب : ج ٢ ، ١٦٨
- سليمان بن أحمد «أبو القاسم الطبراني» : ج ١ ، ١٧٢
- سليمان بن حميد المزني : ج ٢ ، ١٣٧
- سليمان بن داود «أبو الربيع» : ج ٢ ، ١٣٢
- سليمان بن سعيد : ج ١ ، ٢٣١
- سليمان بن عبد الملك : ج ١ ، ١٢٢ ، ١٥٠ ، ٢٤٥ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٣٠٩ / ج ٢ ، ٨٤ ، ٨٨
- سليمان بن غالب : ج ١ ، ٢٧٧
- سليمان بن وهب : ج ١ ، ٢٥٢
- سمويه : ج ٢ ، ١٤٣
- سنان بن سعد : ج ٢ ، ١٤٤
- سهل بن سعد : ج ٢ ، ١٤٥ ، ١٥٠
- سهل بن عبدالعزيز : ج ٢ ، ١٤٥
- سهيل بن حسان : ج ٢ ، ١٦٨
- سيار بن عبد الرحمن : ج ٢ ، ١٤٥
- سيفروس : ج ١ ، ١٨٢
- ش -
- الشافعي : ج ١ ، ٧٣ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١١١ ، ١٢٨ ، ٣٢٤ / ج ٢ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ١٠٦ ، ١١٧ ، ١٢٤ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٧٠ ، ٢٠١ ، ٢١١ ، ٢١٨ ، ٢٩١ ، ٢٩٢
- شجاع بن أسلم «أبو كامل» : ج ١

٢٩٧ / ج ٢ ٢١٥	١٢٨، ١٤١، ١٤٥، ١٥١
شرحيل بن يزيد : ج ٢ ١٣٧	- ط -
شرحيل بن عمرو : ج ٢ ١٤٤	ظاهر بن الحسين : ج ١ ٢٤٧
شريح بن الحارث : ج ١ ٣٠٣	طلما : ج ١ ٧٦
شريك بن سمي الغطيفي : ج ١	طليب بن كامل : ج ٢ ١٥٦
٢٧٢، ٢٧٣ / ج ٢ ١٠، ١٢٩، ٢٤٢	- ع -
شعيب بن الليث بن سعد : ج ٢ ١٥٣	عائشة بنت جعفر الصادق : ج ٢
شقيير الخادم : ج ١ ٢٦٠، ٢٥٤	٥٤
الشمر بن نمير : ج ٢ ١٨٧	عابس بن سعيد : ج ١ ٢٦٢، ٢٨٢،
شنودة : ج ١ ٢٣٧	٣١٠
شيبان بن أحمد بن طولون : ج ٢ ٧٣	عامر بن إسماعيل : ج ٢ ٤٩
- ص -	عباد بن محمد : ج ١ ٣٢٠
صاعد : ج ١ ٢٩٨ / ج ٢ ٧٣، ٧٤	عبادة بن الصامت : ج ١ ٢٧٠، ٢٧١
صالح بن رشدين : ج ٢ ١٩٦	/ ج ٢ ١٢٨، ٢٧٤
صالح بن شيرازاد : ج ٢ ٢٦	عبادة بن صمل المعافري : ج ١ ٢٤٩
صالح بن علي : ج ١ ١٨٨، ٢٥٨	العباس «عم الرسول صلى الله عليه
٢٦٣، ٣٣٥ / ج ٢ ١٢٨، ٢٤٨، ٢٥٦	وسلم» : ج ١ ٢٧٩
٢٧٨	العباس بن أحمد «أبو عيسى» : ج ٢
صالح بن محمد «أبو مقاتل» : ج ١	١٧٤
٢٦٥	العباس بن أحمد بن طولون : ج ٢
صدقة بن الحسن الصدفى : ج ١	١٢٣، ١٩٢، ١٩٤
٢٦٦	العباس بن المعتصم : ج ١ ١٠٨
صفوان بن سليم : ج ٢ ١٤٤	العباس بن موسى : ج ٢ ٢٦
الصلت بن أبي عاصم : ج ١ ٨٠	عباس بن ناصح : ج ٢ ٢١٨
- ض -	عباسة : ج ٢ ٥١، ٧٣، ٢٥٤
الضحاك بن شرحبيل : ج ٢ ١٤٤	عبد الأعلى بن أبي عمرة : ج ٢ ٢٦٥
الضحاك بن عبد الرحمن : ج ١ ٢٤٣	عبد الأعلى بن سعيد الجيشانى :
ضمام بن إسماعيل : ج ٢ ١٣٧	ج ١ ٣١٥ / ج ٢ ٧٥

- عبدالجليل بن حميد : ج ٢ ١٣٩
عبدالحكم بن عبدالله : ج ٢ ١٥٧
عبدالرحمن «الناصر» : ج ٢ ١٢٣ ، ٢١٧
عبدالرحمن بن أبي جعفر : ج ٢ ١٥٧
عبدالرحمن بن أحمد «ابن يونس» : ج ٢ ١٧٨
عبدالرحمن بن إسحاق : ج ١ ٣١٤
عبدالرحمن بن حجيرة : ج ١ ١٣٤ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١١ ، ٣١٧ ، ٣٤٣
/ ج ٢ ٨٦ ، ١٥٠ ، ١٨٣
عبدالرحمن بن الحكم : ج ٢ ١٨٧
عبدالرحمن بن حيويل : ج ١ ٢٢٤
عبدالرحمن بن خالد : ج ٢ ١٣٧
عبدالرحمن بن داود «الأعرج» : ج ٢ ١٣٧ ، ١٧٠
عبدالرحمن بن سالم : ج ١ ٣٤٤ / ج ٢ ١٨٣
عبدالرحمن بن سلمويه : ج ٢ ١٦٣
عبدالرحمن بن شريح : ج ٢ ١٣٧
عبدالرحمن بن عبدالله : ج ١ ٣٢١ ، ٣٣٧ / ج ٢ ١٥٩ ، ١٧٦
عبدالرحمن بن عديس : ج ٢ ٢٤٥
عبدالرحمن بن القاسم : ج ٢ ٥٥ ، ١٥٦
عبدالرحمن بن معاوية بن حديج : ج ١ ٢٦٢ ، ٣٠٦ ، ٣١٠ - ٣١١ ، ٣١٨
عبدالرحمن بن ملجم : ج ٢ ١١٧ ، ١١٨
عبدالرحمن بن ميمون : ج ٢ ١٦٨
عبدالرحيم بن خالد : ج ٢ ١٥٥
عبدالرحيم بن علي : ج ٢ ١٧٠
عبدالصمد بن عبد الرحمن : ج ٢ ١٣٢
عبدالعزیز «الجرى» : ج ٢ ٢٦٦
عبدالعزیز «الفهرى» : ج ٢ ٢٦٥
عبدالعزیز بن علی «أبو عدى» : ج ٢ ١٣٤
عبدالعزیز بن عمران : ج ٢ ١٦١
عبدالعزیز بن الماجشون : ج ٢ ١٤٣
عبدالعزیز بن مروان : ج ١ ٨٩ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٥٠ ، ٢٣٧ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٦٢ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٩١ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٧ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤
/ ج ٢ ١٣ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٧٧ ، ٨١ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٢٤ ، ١٥٠ ، ١٨٣ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ٢٤٦ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠
عبدالعزیز بن الوزير الجری : ج ١ ١٧٣
عبدالغنى «أبو محمد» : ج ٢ ١٥٨
عبدالغنى بن سعيد : ج ٢ ١٤٩
عبدالكريم بن الحارث : ج ٢ ١٦٨
عبدالله بن أبي جعفر : ج ٢ ١٢٩

- عبدالله بن أحمد «أبو محمد» : ج ٢ / ج ٢٠، ٤٠، ٨٩، ١٨٩، ٢٧٦، ٢٨٤
٧٩
عبدالله بن أحمد بن زير : ج ١ ٣٢٤،
٣٤٠
عبدالله بن الحارث بن جزء : ج ٢
١٠٥، ١٢٩، ١٣٨
عبدالله بن حذافة : ج ٢ ١٠٥
عبدالله بن الزبير : ج ١ ١٩٢ / ج ٢
٢٨٥
عبدالله بن سعد : ج ١ ١٢٢، ١٢٨،
١٣٦، ١٣٨، ١٣٩، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢٤٩،
٢٧٦، ٢٩١ / ج ٢ ١٨، ١٩، ١٢٨،
٢٤٥، ٢٧٧، ٢٨٧
عبدالله بن صالح : ج ٢ ٤٩
عبدالله بن صالح «أبو صالح كاتب
الليث» : ج ٢ ١٣٦، ١٤٠، ١٤١،
١٤٣، ١٧٧
عبدالله بن طاهر : ج ١ ١٦١، ٢٤٦،
٣٣٨، ٣٤١، ٣٤٥ / ج ٢ ٢٧٨، ٢٨٠،
٢٨٧
عبدالله بن عبدالحكم : ج ١ ٣٣٨ /
ج ٢ ٥٣، ١٥٧، ١٥٨، ١٨١، ٢١٨
عبدالله بن عبد الرحمن : ج ٢ ٢٥٧
عبدالله بن عبد السلام «ابن أبي
الرداد» : ج ١ ١٥٤ / ج ٢ ٢٣٠
عبدالله بن عبدالعزيز : ج ٢ ١٧١
عبدالله بن عبد الملك : ج ١ ٢٠٣،
٢٣٠، ٢٣١، ٢٤٣، ٢٦٢، ٣١١، ٣١٤
عبدالله بن عمر بن الخطاب : ج ٢
١٢٨
عبدالله بن عمرو بن العاص : ج ١
١٤١، ١٤٩ / ج ٢ ٥١، ١٢٨، ١٣٦،
١٣٨، ١٥٠، ١٨٣، ٢٤٣، ٢٧٦
عبدالله بن فزارة «أبو زهرة» : ج ٢
١٧١
عبدالله بن قيس الرقيات : ج ٢ ١٨٩
عبدالله بن لهيعة : ج ١ ٢٧٠، ٣٠٩،
٣١٢، ٣١٨، ٣٤٤ / ج ٢ ١٣٦، ١٣٧،
١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣،
١٤٤، ١٤٥، ١٤٧، ١٥٠، ١٥١، ١٦٨،
٢٨٨
عبدالله بن محمد «أبو بكر» : ج ٢
١٦٤
عبدالله بن محمد «أبو العباس» :
ج ٢ ١٩٤
عبدالله بن محمد «أبو القاسم» :
ج ٢ ١٦٣
عبدالله بن محمد بن الخصيب : ج ١
٣١٣، ٣٢٥
عبدالله بن محمد بن الوليد «ولاد» :
ج ٢ ١٧٣
عبدالله بن مرزوق الصدفى : ج ١
٢٧٠
عبدالله بن المسيب : ج ١ ٣١٦
عبدالله بن مطيع : ج ٢ ٢٧٦

عبدالله بن الوليد «القاضي» : جـ ٢	عبدالمنعم بن عبدالله : جـ ٢ ١٣٣
١١٩	عبدالواحد بن أبي موسى : جـ ٢
عبدالله بن وهب : جـ ١ ٣٢١ / جـ ٢	١٣٩
١٣٢ - ١٣٣ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢	عبدالواحد بن محمد «ابن مسرور» : جـ ٢ ١٤٩
١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨	عبدالواحد بن يحيى : جـ ١ ٢٣٤
٢١٦ ، ١٨٧	عبدان أبو محمد بن محمد : جـ ٢
عبدالمك بن أبجر : جـ ٢ ٢٠٢ ، ٢٠٦	٢١٨
عبدالمك بن رقاعة : جـ ١ ٢٣٩ -	عبيد بن سويه : جـ ٢ ١٣٦
٢٤٠ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٣١١	عبيد بن محمد «أبو أمية المعافري» : جـ ٢ ١٣١
عبدالمك بن شعيب : جـ ٢ ١٥٣	عبيد الله بن أبي جعفر : جـ ١ ٧٦ ، ٧٧ ، ٨١
عبدالمك بن صالح : جـ ١ ٧٧ ، ٧٨	عبيد الله بن الحبحاب : جـ ١ ١٥٧ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ / جـ ٢ ٢٢ ، ٢٤ ، ٤١
٢٤٧	عبيد الله بن السري : جـ ١ ٢٤٦ ، ٢٧٧
عبدالمك بن محمد «أبو الطاهر» : جـ ١ ٣١٩ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٩	عبيد الله بن سليمان : جـ ٢ ٩١
عبد الملك بن مروان : جـ ١ ١٣٣ -	عبيد الله بن عدى : جـ ٢ ١٣٨
١٣٤ ، ١٥٠ ، ١٩٣ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٥٦	عبيد الله بن المغيرة : جـ ٢ ١٢٨
٢٨٢ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٩١ ، ٣٢٧ /	عبيد الله بن المهدي : جـ ٢ ٢٠٦
جـ ٢ ٤٠ ، ٤٧ ، ١٢١ ، ١٩٨ ، ٢٥٥	عتبة بن أبي سفيان : جـ ١ ٢٤٠ ، ٢٤٩ ، ٢٧٦ ، ٣٠٩
٢٧٦ ، ٢٧٧	عبدالمك بن هشام : جـ ٢ ١٧٠ ، ١٨٠ ، ١٧١
عبدالمك بن مسلمة : جـ ١ ٧٦ ، ٨٠	عثمان بن سعيد «أبو سعيد» : جـ ٢
١٢٨	٢١٦
عبدالمك بن هشام : جـ ٢ ١٧٠ ، ١٨٠ ، ١٧١	عثمان بن سعيد «ورش» : جـ ٢ ١٣١ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ /
عبدالمك بن يزيد «أبو عون» : جـ ١	
٢٥٨ ، ٣١٠ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٨ ، ٣٣٥	

- ١٣٣، ١٣٤، ١٧٤
 عثمان بن سويد : ج٢ ٢١٤
 عثمان بن عفان : ج١ ١٠١، ١٠٢، ١٢٢، ١٤٠، ١٤١، ١٧٢، ١٩٢، ٢٠٩، ٢٤٩، ٢٨٧، ٢٩٠، ٢٩١ / ج٢ ١٣، ٢٤٥، ١٣١، ١٣٠
 عثمان بن قيس : ج١ ٢٨٢، ٣٠٦ / ج٢ ٢٤٧
 عراك بن مالك : ج١ ٨٠، ١٣٢
 عزة بنت حميل : ج٢ ٤٧، ١٨٩
 العزيز بالله نزار : ج١ ١١٢، ١٧٧، ٣٣٤
 عطاء بن دينار : ج٢ ١٣٧
 عفان بن سليمان بن أيوب : ج١ ١٩٦
 عفيرة : ج١ ٣١٧
 عقبة بن عامر : ج١ ٩١، ٣٠٩ / ج٢ ٥٠، ١٠٥، ١٣٧، ١٣٨، ١٥٠
 عقبة بن كليب : ج٢ ١٠٣
 عقبة بن مسلم : ج٢ ١٥٢، ١٨٣
 عقبة بن نافع : ج٢ ٢٤٥
 عكرمة : ج٢ ١٣٥، ١٤٠
 العلاء بن الحضرمي : ج١ ٢٨٨
 العلاء بن كثير : ج٢ ١٦٨
 علقمة بن زيد : ج١ ٢٧٦
 علي بن أبي طالب : ج١ ١٥٠، ٢٤٤، ٢٨٥، ٢٤٥ / ج٢ ١٤٦، ٢٨٥
 علي بن أبي طلحة : ج٢ ١٣٦
 علي بن أحمد الماذرائي : ج٢ ١٩٩
 علي بن الأخشيد : ج١ ٢٠٤
 علي بن جعفر : ج٢ ١٦٩
 علي بن الحسن «علان» : ج٢ ١٧٣
 علي بن الحسن «كراع النمل» : ج٢ ١٧٢
 علي بن الحسين بن حرب «أبو عبدة» : ج١ ٣٢٤، ٣٤٥
 علي بن الحسين «المسعودي» : ج٢ ١٧٧
 علي بن حمزة «الكسائي» : ج٢ ١٧٠
 علي بن رباح : ج٢ ١٤٠، ١٤٤، ١٤٥
 علي بن سعيد : ج٢ ١٤٦
 علي بن سليمان : ج١ ٢٤٦، ٣٣٣ / ج٢ ٢٨٨، ٢٩٠
 علي بن سليمان «الأخفش الصغير» : ج٢ ١٢٨، ١٧٣
 علي بن صالح : ج٢ ٢٥٥
 علي بن عبدالله «أبو الحسن» : ج٢ ٢٨٧
 علي بن عبدالله بن أبي مطر : ج٢ ١٥٣
 علي بن عبدالله بن الأخشيد : ج٢ ٢٨٣
 علي بن عمر «أبو الحسن الدارقطني» : ج٢ ١١٩، ١٢٤، ١٤٨

٢٩١، ٢٧٧، ٢٧٤، ٢٤٧، ٢٤٤، ٢٤١	٢١٩
عمر بن السائب : ج٢ ١٥١	على بن عيسى بن الجراح : ج١
عمر بن عبدالعزيز : ج١ ٨٠، ٨١، ٩٤، ٩٥، ١٢٢، ١٣١، ١٣٢، ١٣٤، ١٥٢، ٢٠٧، ٢١٧، ٢٢٢، ٢٣٢، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٨، ٢٨٢، ٣٠٥، ٣٠٩، ٣١١، ٣٢٥، ٣٢٨، ٣٤٢، ٣٤٥ / ج٢ ٤٢ - ٤٣، ٤٦، ٧٥، ٨٦، ٩٣، ٩٤، ١٠٢، ١٠٩، ١٢١، ١٢٩، ١٣٠، ١٥٠، ١٨١، ١٨٣، ٢٠٢، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٣٥، ٢٦٥، ٢٧٧، ٢٩٠.	١٣٣
عمر بن علي : ج٢ ٢٦٤	على بن محمد «الأسدي» : ج٢ ٣٠٠
عمر بن غيلان : ج١ ٢٨٥	على بن محمد بن أحمد «أبو الحسن» : ج٢ ١١٩، ١٤٧، ١٨٤
عمر بن محمد بن يوسف : ج٢ ١٧٨	على بن محمد بن سهل : ج٢ ١٦٩
عمر بن مهران : ج١ ١٤٢، ٢٤٧	على بن محمد بن كلا : ج٢ ٢٠١
عمران بن عبدالرحمن : ج١ ٢٦٢، ٣١١، ٣١٤	على بن معبد بن شداد : ج١ ٣٠٨
عمرو بن أبي سحابة : ج٢ ٣٠٠	على الطبيب «الديدان» : ج٢ ٢٠٨
عمرو بن جابر : ج٢ ١٤٥	عليه بنت المهدي : ج٢ ٩٣
عمرو بن الحارث : ج١ ٣٣٥ / ج٢ ١٥١، ١٤٤، ١٣٨، ١٣٦، ١٢٨	عمار بن سعد : ج٢ ١٣٩
عمرو بن حفص : ج٢ ٢٦٦	عمارة بن وثيمة : ج٢ ١٧٧
عمرو بن خالد : ج١ ٣٤١	عمر بن الحسن : ج١ ٣١٠، ٣١٣، ٣٢٤، ٣٤٠ / ج٢ ٦٠، ٢٧٩
عمرو بن شعيب : ج١ ٨٠	عمر بن الخطاب : ج١ ٧١، ٧٦، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٧، ٩٥، ١٠١، ١٠٦، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٨، ١٣٠، ١٣٦، ١٣٧، ١٤٠، ١٤١، ١٤٩، ١٥٤، ١٧٢، ١٩٢، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٢١، ٢٢٩، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٤٢، ٢٦٩، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٦، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨٢، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٣٠٣، ٣٠٦، ٣٢١، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٤٥، ٣٤٦ / ج٢ ١١، ١٣، ١٥، ٢٢، ٦٩، ٩٤، ١٠١، ١٠٤، ١١٧، ١٢٥، ١٣٠، ١٣٢، ٢٤٠.

عياض بن عبید الله : ج ١/ ٣٠٩،	١٣٣، ١٢٤، ١٢٩، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨،
٣٢٥	١٣٩، ١٤١، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٤، ١٩١،
عيسى بن أبي عطاء : ج ١/ ٣٤٤	١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٥، ٢٠٧، ٢٠٨،
عيسى بن البطريق : ج ٢/ ٢٠٨	٢٠٩، ٢١٤، ٢١٧، ٢٢٢، ٢٢٩، ٢٣٩،
عيسى بن حماد زغبة : ج ٢/ ١٤٦،	٢٤٢، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٩، ٢٦٣، ٢٧٠،
١٥٣	٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٦، ٢٨٠، ٢٨٢،
عيسى بن دينار : ج ٢/ ٢١٨	٢٨٨، ٢٨٩، ٣٠٦، ٣٠٩، ٣٢٦، ٣٢٧،
عيسى بن شافع : ج ٢/ ١٨٧	٣٣٩، ٣٤١ / ج ٢/ ٩، ١٠، ١١، ١٤،
عيسى بن منصور : ج ٢/ ٢٧	١٦، ١٨، ١٩، ٣٠، ٣٢، ٣٤، ٣٨،
عيسى بن المنكر : ج ١/ ٣٣٨، ٣٤١،	٥٠، ٦٩، ٧٠، ٩٧، ١٠١، ١٠٤،
٣٤٥ / ج ٢/ ١٦٦	١٠٥، ١١٠، ١١٦، ١١٧، ١٢٦، ١٣٣،
عيسى بن موسى : ج ٢/ ١٤٤	٢٣٩ - ٢٤٠، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٤،
عيسى بن يزيد : ج ٢/ ٢٦، ٢٧	٢٤٥، ٢٤٧، ٢٥٥، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٦،
عيسى النوشري : ج ١/ ٢٦٢، ٣٤٥	٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٨٤،
٢٥٦، ٢٠٥، ١١٠ / ج ٢/	٢٨٧، ٢٨٩، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤،
- غ -	عمرو بن عبدالله الشيباني : ج ١
الغطريف الحميري : ج ٢/ ١٨٧	٢٣٣
غوث بن سليمان : ج ١/ ٣١٠، ٣١٨،	عمرو بن عبید «الحزين الكنانى» :
٣٣٦، ٣٣٥، ٣١٩	ج ٢/ ١٨٩
- ف -	عمرو بن قحزم الخولاني : ج ٢/ ١٠،
فابيوس : ج ١/ ٥٧	٢٤٢
فاتك «جائك» : ج ٢/ ٩٢	عمير بن الوليد : ج ٢/ ١٨٧
فاطمة بنت عبدالرحمن : ج ٢/ ٥٥	عميرة بن أبي ناجية : ج ٢/ ١٦٨
فاليريان : ج ١/ ٥٧	عنيسة بن اسحاق : ج ١/ ٢٣٩،
الفتح بن خاقان : ج ٢/ ٢٦٠	٢٤١، ٢٩٣، ٢٩٤ / ج ٢/ ١٨٤، ٢٨٧،
الفضل بن ربيع : ج ١/ ١٧٣ / ج ٢	العوام بن حبيب : ج ٢/ ١٠٢
٢٢٦	عياش بن عباس : ج ٢/ ١٤٧
الفضل بن سهل : ج ١/ ١٧٣	عياش بن عقبة : ج ٢/ ١٤٠

- الفضل بن صالح : ج ٢، ٤٩، ٢٨٠
الفضل بن غانم : ج ١، ٣٤٣، ٣٤٤
الفضيل بن عياض : ج ٢، ١٥٦
فقيير بن موسى : ج ٢، ١٤٧
فليح بن القمري : ج ١، ٣٣٧
- ق -
القاسم بن أحمد : ج ٢، ١٩٦
القاسم بن عبدالله : ج ٢، ١٣٧، ١٤٦
القاسم بن عيسى : ج ٢، ١٧١
القاسم بن القزمان : ج ٢، ١٥١
قاسم بن محمد : ج ٢، ٢١٨
القاسم بن يحيى المريمي : ج ٢، ١٩٤
القاهر بالله : ج ١، ٢٨٥
قياث بن رزين : ج ٢، ١٤٠
قحزم بن عبدالله : ج ٢، ١٦٣
قرة بن شريك : ج ١، ١٢٩، ١٨٣،
٢٥٨، ٢٨٠، ٢٩٣ / ج ٢، ٢٣٥، ٢٧٦
٢٨٤، ٢٧٧
قرة بن عبدالرحمن : ج ٢، ١٣٩
قرزما : ج ٢، ٢٩٠
قزمان : ج ١، ٧٦، ٢٣٦
قسطا بن لوقا : ج ٢، ٢٠٤
قسطنطين الأول : ج ١، ٥٢، ٥٣، ٦٥،
٣٣١ / ج ٢، ٦٦
قطر الندى : ج ١، ١٨٨، ١٩١، ٢٠٠
/ ج ٢، ٤٨، ٤٩، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٢٥٤
قعدان بن عمرو : ج ٢، ١٩٤
قمبيز : ج ١، ٢١٧
- قيس بن أبي العاص : ج ١، ٣٠٦ /
ج ٢، ٥٠
قيس بن الحجاج : ج ٢، ١٣٨
قيس بن سعد : ج ٢، ٢٤٥
قيس بن عبادة : ج ٢، ١٣٨، ٢٥١
قيسبة بن كلثوم : ج ٢، ٢٧٤
- ك -
كافور : ج ١، ١٩٦، ١٩٧، ٢٠٤،
٢٣٦، ٢٧٨، ٣٢٤، ٣٢٩، ٣٤٨ / ج
٦٠، ٦١، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ١١٩،
١٢٣، ١٢٤، ١٧٤، ١٧٨، ١٨٨، ١٩٧،
٢٠٩، ٢١٠، ٢١٣، ٢٤٦، ٢٤٩، ٢٥٩،
٢٨٣، ٢٨٧
كثير بن عبدالرحمن «الشاعر» : ج ٢
٤٧، ٤٨، ١٨٩
كزماس : ج ١، ٦٢، ٦٣
كعب الأحبار : ج ١، ١٤٨، ١٤٩
كعب بن علقمة : ج ٢، ١٣٨
كعب بن يسار : ج ١، ٣٠٦، ٣٠٧ /
ج ٢، ٢٤٤
كلثوم بنت أبي القاسم : ج ٢، ٥٤،
٦١، ١٠٧
كيدر نصر بن عبدالله : ج ١، ٢٧٣،
٢٨٥ / ج ٢، ٢٣
كيرلس : ج ١، ٦٠
- ل -
لهيعة بن عيسى : ج ١، ٣٠٨، ٣٢٠،
٣٣٧

الليث بن سعد : ج ١ ٧٨ ، ٩١ ، ٢٧٠ ،	مالك : ج ٢ ١١٨
٣١٨ / ج ٢ ١٣٣ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ،	المتوكل : ج ١ ١٠٨ ، ١٥٠ ، ١٥٤ ،
١٣٩ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ،	٢٣٣ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٩٤ ، ٣٠٩ ، ٣١٦ ،
١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ،	٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٣٣ ، ٣٤٥ / ج ٢ ٣٦
١٥٧ ، ١٦٥ ، ١٧٧ ، ١٨٢ ، ٢٢٧ ، ٢٨٨	٤٣ ، ٨٠ ، ٨٩ ، ٩١ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٦٥ ،
الليث بن الفضل : ج ١ ١١١ / ج ٢	١٨٤ ، ١٨٧ ، ٢٣٠ ، ٢٦٠ ، ٢٨٧ ، ٢٩٠ ،
٢٦ ، ٢٧	مجاهد : ج ٢ ١٣٥
- م -	المحب بن حنبل : ج ٢ ١٦٨
مائة ألف : ج ٢ ٥٣	محبوب بن رجاء : ج ٢ ٢٠٠
الأمون : ج ١ ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٤٥ ،	محفوظ بن سليمان : ج ١ ١١١
١٧٣ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ،	١١٨
٢٦١ ، ٢٧٧ ، ٣٠٨ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٨ ،	محمد «النفوس الزكية» : ج ١ ٢٠٧
٣٣٩ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ / ج ٢ ٢٦ ، ٢٧ ،	محمد بن إبراهيم : ج ٢ ١٤٦
٤٢ ، ٤٣ ، ٧٩ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٧٨	محمد بن إبراهيم «ابن سكره» : ج ٢
مارية «زوجة عبدالعزيز بن مروان» :	١٦٤
ج ٢ ٥١	محمد بن إبراهيم «ابن المواز» : ج ٢
مارية القبطية : ج ١ ١٠٧ / ج ٢ ٧٩	١٥٨
ماسرجويه : ج ٢ ٢٠٢	محمد بن أبي الليث : ج ١ ٣١٢
مالك بن أنس : ج ١ ٧٣ ، ٧٤ ، ٩١ ،	٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ / ج ٢ ٩٠
٩٦ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٢٨ ، ٣٢٤ /	محمد بن أحمد «ابن أبي الأصمغ» :
ج ٢ ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ،	ج ٢ ١٣٤ ، ١٤٧
١٤٨ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ،	محمد بن أحمد «ابن عبدكان» : ج ٢
١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٦ ، ٢١٨ ، ٢٩٠ ،	١٩٩ ، ٢٠٠
٢٩١	محمد بن أحمد «أبو بكر الرملي» :
مالك بن الخير : ج ٢ ١٤٥	ج ٢ ١٦٩
مالك بن نلهم : ج ٢ ٢٦	محمد بن أحمد «أبو بكر بن الخلال»
مالك بن سعد : ج ٢ ١٤٥	ج ٢ ١٥٨
مالك بن شراحبيل : ج ١ ٣٤٤	محمد بن أحمد «أبو رجاء» : ج ٢

- ١٩٦ . محمد بن أحمد «أبو طاهر الذهلي» : ١٣٥، ١٧٨، ١٧٩
 محمد بن جرير «الطبري» : ج٢
 ج٢ ١٤٨ محمد بن جعفر «ابن سلام» : ج١
 محمد بن أحمد «الأزهري» : ج١ ٢٦٥
 محمد بن جعفر «القرطبي» : ج١ ١٣٨
 محمد بن أحمد «الأعور» : ج٢ ٢٤٦ ٢٦٥
 محمد بن أحمد بن الحداد : ج١ محمد بن جميع الأسواني : ج٢
 ٣٢٤، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٤٠ / ج٢ ١١٩٢، ١٤٧
 ١٢٠، ١٦٤، ٢٠١، ٢٩٠، ٢٩١ محمد بن الحسين : ج٢ ٢١٣
 محمد بن أحمد بن الربيع : ج٢ محمد بن داؤود : ج٢ ١٩٤
 ١٦٣ محمد بن رمح : ج٢ ١٣٣، ١٤٣
 محمد بن أحمد بن علي : ج٢ ١٧٤ محمد بن زهير : ج١ ٢٨٥
 محمد بن أحمد بن القاسم : ج٢ محمد بن زيد : ج٢ ١٧٢
 ١٦٩ محمد بن سعيد «أبو عبدالله الأنماطي» : ج٢ ١٣٢
 محمد بن اسحاق : ج٢ ١٨٠ محمد بن سليمان : ج١ ١٧٢، ٣١١
 محمد بن اسحاق «أبو النضر» : ج٢ محمد بن سليمان «الكاتب» : ج٢
 ١٧٤ محمد بن اسحاق بن خزيمة : ج٢ ٢٥٤، ٢٥٦
 ١٧٩ محمد بن سهل : ج٢ ١٢٣
 محمد بن اسماعيل الترمذي : ج٢ محمد بن طشوبه : ج٢ ١٩٤
 ١٤٣ محمد بن الأشعث : ج١ ١١١
 محمد بن أصبغ بن الفرغ : ج٢ محمد بن طغج «الأخشيد» : ج١
 ١٥٨، ١٥٩ / ج٢ ٦٤، ٨٤، ٩٢، ٩٦، ٩٩، ١٠٠، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ٢١٠، ٢٤٩، ٢٧٨
 محمد بن بشر «أبو بكر» : ج٢ ١٦٣ ٢٩٨، ٣٢٤، ٣٢٩، ٣٣٣، ٣٤٠، ٣٤٧
 محمد بن بشير : ج٢ ٢١٧ محمد بن بشير : ج٢ ٢١٧
 محمد بن تكين : ج١ ٢٨٦ / ج٢ ٢٩١
 محمد بن عاصم : ج٢ ١٩٧ ٣٠٠

محمد بن عبد الرحمن : ج ٢ ١٤٠	٣٢٤، ٣٢٨، ٣٤٥
محمد بن عبد الرحمن «أبو عيسى» : ج ٢ ١٤٤	محمد بن عبدون : ج ٢ ٢٠٩
محمد بن عبد العزيز : ج ٢ ٥١	محمد بن عثمان «أبو زوعة» : ج ١
محمد بن عبدالله «ابن المولى» : ج ٢ ١٩٠	٣١٢، ٣٢٤ / ج ٢ ٩١، ١٦٣
محمد بن عبدالله «أبو بكر» : ج ٢ ٢١٩	محمد بن علي «ابن مقلّة» : ج ١ ٢٠١
محمد بن عبدالله «أبو بكر الملقى» : ج ٢ ١٧٣، ١٢٨	محمد بن علي «أبو بكر النقاش» : ج ٢ ١٤٨
محمد بن عبدالله «البرقي» : ج ٢ ١٨٠، ١٤٤، ١١٨	محمد بن علي «البغدادى» : ج ٢ ١٤٥
محمد بن عبدالله «الخان» : ج ٢ ٢٩٤، ٢٨٣، ٢٧٩	محمد بن علي «العسكري» : ج ١ ٣٣٣ / ج ٢ ١٦٣، ٢٩٠
محمد بن عبدالله «المعافى» : ج ٢ ١٣٤	محمد بن علي بن محمد : ج ٢ ١٧٤
محمد بن عبدالله بن أشته : ج ٢ ١٣٤	محمد بن علي المازرائى «أبو بكر» : ج ١ ١٧٠، ١٩٦، ٢٨٦، ٣٤٧، ٣٤٨ / ج ٢ ٥٣، ٨١، ٨٤، ١٠٦، ٢٥٧، ٢٦٧، ٢٩٥
محمد بن عبدالله بن عبد الحكم : ج ٢ ١٠٨، ١٦٠، ١٨١، ٢١٨، ٢٦٩	محمد بن عمرو «نو الشامة» : ج ٢ ١٨٧
محمد بن عبدالله بن محمد : ج ٢ ١٦١	محمد بن عمرو بن العاص : ج ٢ ١٠١
محمد بن عبدالله بن ميمون : ج ٢ ١٥٣	محمد بن عيسى النوشرى : ج ١ ٢٨٥
محمد بن عبدالله بن النفاح : ج ٢ ١٣٣	محمد بن القاسم «القرطبي» : ج ٢ ١٥٩
محمد بن عبد الوارث : ج ٢ ١٤٥	محمد بن القاسم «مانى الموسوس» : ج ٢ ١٨٧
محمد بن عبدة : ج ١ ٢٦٥، ٣١١	محمد بن قلاوون : ج ١ ١٨٩

محمد بن كثير الفرغاني «أو أحمد»	١٧٣
ج ١٥١ :	محمد بن يوسف «أبو عمر الكندي» :
محمد بن مسروق : ج ٣١٦ ،	ج ١٧٨
٣٣٢ ، ٣٣٧ ، ٣٤١	محمد الجوهري «التاجر» : ج ١
محمد بن مسلمة : ج ٢٤٢	١٩٦
محمد بن المسيب «الأرغواني» : ج ٢	محمود بن حسان : ج ٢ ١٧٠
١٤٦	محمود بن سالم : ج ٢ ٢٨٦
محمد بن موسى : ج ٣٣٨	محمود بن محمد «كشاجم» : ج ٢
محمد بن موسى «أبو بكر» : ج ٢	١٩٧
١٧٤	محمية بن جزء الزبيدي : ج ٢ ٢٧٤
محمد بن موسى «أبو عمران» : ج ٢	مرثد بن عبدالله اليزني : ج ٢ ١٥٠
١٤٧	مرسل بن حمير : ج ٢ ١٨٨
محمد بن موسى «الأفشين» : ج ٢	مرقس : ج ١ ٦٠
٢١٨	مرقيان : ج ١ ٥٤
محمد بن موسى «سيبويه المصري» :	مروان بن الحكم : ج ١ ١٨٠ ، ٢٤٥ ،
ج ٢٦٥ ، ٢٦٦ / ج ١٩٧ ، ١٨١ ،	٢٨٧ ، ٣١٠ / ج ١٣ ، ٢٨ ، ٢٠٢ ، ٢٤٥ ،
٢١٨ ، ٢٠١	٢٨٥
محمد بن موسى «الواسطي» : ج ٢	مروان بن محمد : ج ١ ١٨٠ ، ٢٤٠ ،
١٣٦	٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٣٤٤ / ج ٢٣ ، ٤٢ ، ٤٩ ،
محمد بن نصر : ج ١٧٩ ، ٢١٨	٥٠ ، ١٥١ ، ٢٤٨ ، ٢٥٦ ، ٢٧٧
محمد بن نظيف : ج ٢ ٤١٧	مزاخم بن خاقان : ج ١ ٢٥٣ / ج ٢
محمد بن هارون : ج ٢ ١٧٩	٢٧ ، ٩٢ ، ١١٠ ، ٢٦٥
محمد بن هلال : ج ١ ٢٥٤	المستعين : ج ١ ٢٠٨ / ج ٢ ٨٩
محمد بن الوليد بن محمد «ولاد» :	مسرور الخولاني : ج ٢ ١٨٨
ج ١٧٢	مسلم بن خالد : ج ٢ ١٦٠
محمد بن يحيى «أبو الذكر» : ج ١	مسلمة بن مخلد : ج ١ ١٩٨ ، ٢٤١ ،
٣٢٤	٢٦٢ ، ٢٧١ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ / ج ٢ ١٢ ،
محمد بن يزيد «المبرد» : ج ٢ ١٧٢ ،	٥٠ ، ١٠٥ ، ١٢٩ ، ٢٦٤ ، ٢٧٥ ،

٢٨٨	معلی بن نحیة : ج٢ ١٣٢
المطلب بن عبدالله : ج١ ٣٣٧، ٣٤٣، ٣٤٤	المعلی الطائی : ج٢ ١٨٦، ١٨٨
مظفر بن أحمد : ج٢ ١٣٣	معلی بن المعلی الطائی : ج٢ ١٨٨
معاویة «الثانی» : ج١ ٢٨٧	معن بن یزید : ج١ ٢٧٦
معاویة بن أبی سفیان : ج١ ٧٧، ٩٠، ٩١، ١٤٠، ١٤٨، ١٥٠، ١٧٢، ١٩٧، ١٩٨، ٢٤١، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٩، ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٧٦، ٢٨٠، ٢٨٦، ٢٨٨، ٢٩٠، ٢٩١، ٣١١، ٣١٧ / ج٢ ١٢، ١٥٠، ١٨٣، ٢٦٥، ٢٧٧، ٢٨٨	المفضل بن فضالة : ج١ ٣٠٦، ٣١٩، ٣٣٣، ٣٣٧، ٣٤٤ / ج٢ ٩٠، ١٤١، ١٤٧، ١٥١
معاویة بن حدیج : ج١ ٢٤٥ / ج٢ ٢٤٢، ١٠	المفضل بن لاحق : ج٢ ١٤٥
معاویة بن سعید : ج٢ ١٤٤	مقارة بن یوسف : ج١ ٢٣٤
معاویة بن صالح : ج٢ ١٣٦، ١٤٣	المقتدر بالله : ج١ ١٣٣، ٢٣٣، ٢٦٥، ٣٤٠ / ج٢ ٤٣، ٤٣، ٩٥، ٢٠٥، ٣٠٠
معاویة بن هبة الله : ج٢ ١٤٣	المقداد بن الأسود : ج١ ٢٧١ / ج٢ ١٢٨، ٢٧٤
المعتز : ج١ ١٣٣، ٢٠٨، ٢٤٩، ٢٦٠ / ج٢ ١١٠، ١٩٥، ٢٦٥، ٢٨٩	المقوقس : ج١ ٧٨، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٨٦، ١١٧، ١٢٠، ١٣٧، ١٣٩، ١٥٤، ١٦٨، ٢٠٨، ٢٧٠، ٢٧١ / ج٢ ٥٠، ٨٣، ١٠٤، ٢٨٧
المعتصم : ج١ ١٠٨، ١٦٦، ١٨١، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٧٣، ٢٨٥، ٣١٢، ٣٢١، ٣٢٨ / ج٢ ٢٣، ٢٧، ٧٩، ٨٩، ٩٠	المکتفی بالله : ج١ ١٧٠ / ج٢ ١١٠، ١٨٤، ٢٥٤
المعتضد : ج١ ١٧٠، ١٩٣ / ج٢ ٧٢	المنتصر : ج١ ٢٤٠، ٢٤٨ / ج٢ ٤٢، ١٠٢، ١١٠
معروف بن سويد : ج٢ ١٤٥	منصف بن خليفة : ج٢ ١٩٥
المعز لدين الله : ج٢ ٦١، ١٤٨، ١٦٩، ١٨١	النصور : ج١ ٩٥، ١١١، ٢٠٧، ٢٤١، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٧٢، ٣٠٩، ٣١٢، ٣١٨، ٣١٩، ٣٤٤ / ج٢ ٢٥، ٨١، ٨٩، ١٢١، ١٤٠، ١٥٢، ٢٠٣، ٢٠٦، ٢٥٥
المطلب بن عبدالله : ج٢ ١٩١	منصور بن إسماعيل «أبو الحسن» : ج٢ ٢٦٧

هارون بن خمارويه : جا ١٧٠،

٣١٢، ٣٢٤ / جا ٩١، ١٨١

هارون بن عبدالله : جا ٣٣٨، ٣٣٩،

٣٤٢

هارون بن محمد : جا ١٥٩

هارن بن يوسف : جا ١٤٧

هارون الرشيد : جا ١١١، ١١٨،

١٤١، ١٧٣، ٢٣٣، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٧٢،

٢٨٥، ٣٠٧، ٣١٦، ٣٢١، ٣٢٨، ٣٣٢،

٣٣٧، ٣٤٢ / جا ٢٥، ٢٦، ٤٣، ٩٠،

٩٣، ٩٤، ١٢٧، ١٦٤، ١٨٨، ٢٠٣،

٢٠٦، ٢٧٨، ٢٨٨، ٢٩٠

هاشم بن أبي بكر : جا ٣١٢،

٣٢٤، ٣٢١

هاشم بن سعيد : جا ٢٠٧

هانئ بن المنذر : جا ١٧٦

الhezil بن مسلم : جا ١٥٣

هرقل : جا ٧٨، ٥٤، ٦٥

هشام بن اسحاق العامري : جا

٧٦

هشام بن عبدالله : جا ١٢٧،

١٥٦، ٢٢٤، ٢٤٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٩،

٢٨٠، ٢٨٣، ٣٠٩، ٣١١، ٣٢٠، ٣٢١،

٣٣٤، ٣٣٥ / جا ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٨٩،

١٣٠، ١٣٧، ١٣٨، ١٥١، ٢٨٨، ٢٩٠،

٢٩٩

الهيثم بن شفي : جا ١٤٧

ميلانة : جا ٦٦

- و -

الواثق : جا ١٠٨، ٢٤٧، ٢٤٨ /

جا ٧٩

وثيمة بن الفرات : جا ١٧٧

وردان : جا ٧٧، ٨٦، ٩٠، ٩١، ١٠٧،

١٩٧، ٢٤٠، ٢٤٩

وصيف قاطرميز : جا ٢٨٦

وليد بن بلال : جا ١٤٣

الوليد بن رفاعة : جا ١٢٧، ١٣٦،

٢٢٤، ٣٠٦، ٣١٧، ٣٣٥، ٣٣٦ / جا

٢٢، ٣٥، ٢٨٨

الوليد بن عبدالله : جا ١٠٧، ٢٤٣،

٢٤٥، ٢٥٠، ٢٩٣ / جا ١٠٢، ٢٣٥،

٢٤٥، ٢٥٨، ٢٦٣، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٨٤،

٢٨٥

الوليد بن محمد «ولاد» : جا ١٧١

الوليد بن مسلم : جا ١٥٣

الوليد بن يزيد بن عبدالله : جا

٢٤٠، ٢٥٨

وهب بن عمير : جا ٢٤٥

وهيب اليحصبي : جا ٢٨٨

- ي -

يحنس : جا ٧٧

يحيى بن أكثم : جا ١٠٨، ٣٢٨ /

جا ٨٠

يحيى بن أيوب : جا ٧٩ / جا

١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٤، ١٥١، ١٥٢

يحيى بن البطريق : جا ٢٠٤

المجتمع في مصر ح ٢ ٣٨٥

ج ١٩٥	١٣١، ١٣٢، ١٣٨، ١٥٤، ١٧٤
المهتدي : ج ٢٢٨ / ج ١٧١	نافع بن عبد القيس : ج ٢٤٥
المهتدي : ج ٢٣٣، ٢٤٢، ٢٠٧،	نافع بن يزيد : ج ١٣٨، ١٣٩،
٢٠٩، ٣١٩، ٣٢٣، ٣٢٨، ٣٣٣،	١٤٠، ١٤٣، ١٤٥
٢٤٤ / ج ٢٥، ٤٣، ٩٠، ١٦٥، ٢٦٢،	نبيه بن صواب : ج ٢٧٤
٢٦٣، ٢٧٧، ٢٨٠	نجح الطولوني : ج ٢٦١
مؤمل بن يحيى : ج ١٥٤	نسطاس بن جريج : ج ٢٠٩
مؤنس الخاتم : ج ٢٦٥	نسطور : ج ٥٣
موسى بن أبى العباس : ج ٢٤١	نسيم الخاتم : ج ١٢٢، ١٢٣
/ ج ٢٧، ٢٧٧	نصيب بن رياح : ج ١٨٩
موسى بن أيوب : ج ١٥١	نصير بن أحمد بن الهيثم : ج ١٨٣
موسى بن عبد الرحمن : ج ١٣٢	النضر بشير بن عمرو المزني : ج ٢٠٠
موسى بن على : ج ١٤٢	النضر بن عبد الجبار : ج ١٦٨
موسى بن على بن رياح : ج ٢٧٠،	نعت : ج ٥٢
٣١٢ / ج ٢٥، ١٤٠	النعمان بن ثابت «أبو حنيفة» : ج ١٦٤، ١٦٥
موسى بن عيسى : ج ٢٨٨، ٢٨٩	النعمان بن عمرو اللخمي : ج ١٤٤
موسى بن كعب : ج ٨١	نعيم بن حماد : ج ١٤٣
موسى بن مخلد : ج ٢٨٥	السيدة نفيسة : ج ٥٢، ٥٤، ٦١،
موسى بن مصعب : ج ٣٢٢ /	١٠٥، ١٠٦
ج ٢٥	نوفل بن الفرات : ج ١١١
موسى بن مصلح : ج ٣٤٦	نيرون : ج ١٨٢
موسى بن نصير : ج ٢٤١	- ه -
موسى بن وردان : ج ٢٤٥	الهادي : ج ٢٠٩، ٢١٩، ٢٢٣،
موسى بن يحيى : ج ٢٧٢	٢٢٨ / ج ٢٩٠
الموفق : ج ٣١٦، ٣٤٧	
ميناك : ج ٢٣٦، ٢٣٧	- ن -
	نافع «مولى ابن عمر» : ج ١٣٠،
	٣٨٩

- يحيى بن بكير «أبو زكريا» : ج ١ ١٥٤، ٢٣٤، ٢٥٢، ٢٦٠، ٣٢٢ / ج ٢ ١١٠، ١٠٢
- يحيى بن حسان : ج ٢ ١٥٣
- يحيى الخولاني : ج ٢ ١٨٦
- يحيى بن داؤود «ابن معدود» : ج ٢ ٩٠، ٢٦٢
- يحيى بن سليمان : ج ٢ ١٣٢
- يحيى بن عبدالله بن حرمة : ج ١ ٣٣٧
- يحيى بن معاذ : ج ٢ ٢٦
- يحيى بن معين : ج ٢ ١٤١، ٢٤٥
- يحيى بن ميمون الحضرمي : ج ١ ١٤٠، ٣٠٦، ٣٢٠، ٣٣٥ / ج ٢ ١٤٠
- يحيى بن الوزير الجروي : ج ١ ٢٨٥
- يحيى بن يحيى الأندلسي : ج ٢ ١٥٥
- يحيى النحوي «يوحنا» : ج ٢ ٢٠٦
- يحيى النقيوسي : ج ٢ ١٧٦
- يزيد بن أبي حبيب : ج ١ ٧٨، ٩١، ١٤٨، ١٤٩، ٣١٧ / ج ٢ ١١، ١٢، ٧٥، ١٢٩، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٤، ١٥٠، ١٥١، ١٥٢، ٢٤٠
- يزيد بن أحمد : ج ٢ ٢١٧
- يزيد بن حاتم : ج ١ ٢٤١، ٢٥٧، ٢٥٨، ٣٠٨، ٣١٥، ٣١٨، ٣٤٤ / ج ٢ ٢٥، ٧٥، ١٩٠، ٢٥٥، ٢٦٧
- يزيد بن رمانة : ج ٢ ٢٦٥
- يزيد بن عبدالله التركي : ج ١ ١٥١، ٣١٠
- يزيد بن عبدالملك : ج ١ ٢٥١، ٢٥٨
- يزيد بن عمرو : ج ٢ ٢٨٠، ٢٨٢ / ج ٢ ٢٦٣، ٢٩٠
- يزيد بن عمرو المعافري : ج ٢ ١٤٤
- يزيد بن معاوية : ج ١ ٢٨٧ / ج ٢ ٣٠١
- يعقوب بن إبراهيم «أبي يوسف القاضي» : ج ١ ٣٠٧، ٣٤٢ / ج ٢ ٩٠، ١٦٤
- يعقوب بن إبراهيم «قوصرة» : ج ١ ٢٥٩، ٣٢١ - ٣٢٢
- يعقوب بن اسحق : ج ٢ ٢٠٠
- يعقوب بن كلس : ج ١ ١١٢، ١٧١، ١٩٦
- يموت بن المزرع : ج ٢ ١٧٢
- يناس بن خمايا : ج ١ ٢٤٣
- يوحنا : ج ١ ٢٣٥
- يوسف بن عدى : ج ٢ ١٥٧
- يوسف بن عمرو «أبو يعقوب الأزرق» : ج ٢ ١٣١، ١٣٢، ١٣٣
- يوسف بن يحيى البويطي : ج ٢ ١٦١
- يوسف السراج : ج ٢ ١٨٦
- يونس «الكاتب» : ج ١ ٢٣٥
- يونس بن عبدالأعلى : ج ٢ ١٣١، ١٤٦، ١٦٢، ١٦٣
- يونس بن عطية : ج ١ ٢٦٢، ٣٠٦
- المجتمع في مصر ج ٢ ٣٨٧

٢ - كشف البلاد والأماكن

أشقرة : جا ١٢٩ / ج ٢ ٢٣٥	- أ -
الأشمونين : جا ١٨٧ ، ٢٩٢	الأبلة : جا ١١٠
أقريطش : جا ٢١٢	إبليل : جا ١٧ ، ١٩
أم دنين : جا ٨٢ ، ٢٢٣	أبوتيج : جا ١٦١
أنصنا : جا ١٥٠ ، ٢١٣	أتريب : جا ١٧
أنطابلس : جا ٨٠	أحباس السبيل : جا ٢٧٤
أهناس : جا ١٨١ / ج ٢ ١٨	أخميم : جا ١٨٠ ، ١٨٥ ، ١٨٧
إيلياء : جا ٢٥٦	١٩٠ / ج ٢ ٩٢ ، ٢١٤
- ب -	إخنا : جا ٧٦ ، ١١٧ / ج ٢ ٢٠
بابلليون : جا ٨٢ ، ٨٤ / ج ٢ ١٠	الاسكندرية : جا ٣٦ ، ٤١ ، ٤٨ ، ٤٩
بجاجة : جا ٢٤٨	٥٠ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤
البجة : جا ٢٥٩	٧٥ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٥ ، ٨٦
البدقون : جا ١٨	٨٨ ، ١٢٩ ، ١٧٤ ، ١٧٨ ، ١٨١ ، ١٨٢
برقة : جا ٢٠٩	١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٩ ، ٢٠٨
البرلس : جا ٧٧ / ج ٢ ٢٠	٢١٢ ، ٢١٥ ، ٢١٨ ، ٢٢٣ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨
بسطة : جا ١٧	٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٩٣
البشرودات : جا ١٥٠	٣٠٩ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤ / ج ٢ ٩ ، ١٠
بشمور : جا ١٥٩	١١ ، ١٤ ، ٢٠ ، ٣٤ ، ٦٥ ، ٨٨ ، ١١٥
بلاق : جا ٣٦	١٤٨ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ٢٠٢ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨
بلبيس : جا ٨٢ ، ٢١٧ / ج ٢ ٢٣ ، ٣٥	٢١٠ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٨٤
	٢٨٩ ، ٢٩٤ ، ٣٠٠
بلهيب : جا ٧٩ ، ٧٥ / ج ٢ ٢٥	اسنا : جا ١٨٧ / ج ٢ ١٧٠
بنا : جا ١٧ ، ١٨	أسوان : جا ٢٢٠
البهنسا : جا ١٧٨ ، ١٩٠ ، ٢٩٢ /	أسيوط : جا ١٨٠ ، ١٨١
جا ١٨	الأشتوم : جا ٢٠

بورق : جـ ١٨١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥	خيس : جـ ٢٤٨
بوش : جـ ١٧٤	- د -
بوصير : جـ ١٨	دابق : جـ ٣٣٥
- ت -	دبيق : جـ ١٧٧
التبت : جـ ٢١١	درب المعاصر : جـ ١٨٦
تمى : جـ ٢٥٢ / جـ ١٧ ، ٢٦	دلاص : جـ ١٧٤ ، ١٨٥ / جـ ٢١٤
تندة : جـ ٢٨	دمنهور : جـ ١٨٠
تنيس : جـ ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٨٦ ، ١٩٩ ، ٢٠٧ ، ٢١٢ ، ٢١٦ ، ٢٢٣ / جـ ٨٥ ، ١٤٨ ، ٢٦٦	دمياط : جـ ١٧٦ ، ١٧٧ ، ٢١٢ / جـ ٢٠
تونة : جـ ١٧٣ ، ١٨١	دندرة : جـ ١٥٠
- ج -	دير القصير : جـ ٢٥٤
الجايية : جـ ٢١٣	- ذ -
الجار : جـ ٢١٣	ذات الحمام : جـ ٢١٧
جبل الحلال : جـ ١٠	ذنب التمساح : جـ ٢٠٧
الجزيرة : جـ ٨١	- ر -
الجنادل : جـ ٢٠٨	رشيد : جـ ٧٧ / جـ ٢٠
جنان ابن أبى حبيش : جـ ٢١٢	الرملة : جـ ٣١٣
جيحان : جـ ١٤٩	الرها : جـ ٢٣٧
- ح -	رودس : جـ ٢١٢
حلوان : جـ ٢٥٤	- ز -
حمص : جـ ٣١٢	زقاق صدقة : جـ ٢٦٦
الحوف : جـ ٢٥٢ / جـ ١٧ ، ١٩ ، ٤١	زقاق مليح : جـ ٢٦٦
- خ -	- س -
خريتا : جـ ١٨	سامراء : جـ ١٨٧
خير : جـ ٧٢ ، ٧٩	سخا : جـ ١٨ ، ٢٥
	سرنديب : جـ ٢١٠
	سقط ريشين : جـ ٢٩٢

الفسطاط : جا ١١١ ، ١٨١ ، ١٨٢ ،
١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩١ ، ١٩٧ ،
١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٩ ، ٢١٧ ، ٢٢٠ ،
الفسيوم : جا ١٧٤ ، ١٨١ ، ١٨٧ ،
١٩٤ ، ١٩٥

- ق -

قريبط : جا ٢٥٢ / جا ١٧
القس : جا ١٨٠
قصر الشمع : جا ١٥٠
ققط : جا ١٨٨
القلزم : جا ٢٠٧ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ،
٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٣ ، ٢٩٣
قنسرين : جا ٣١٢
قوص : جا ٢٢٠
قيس : جا ١٧٩ / جا ١٨

- ك -

الكريون : جا ١١
كنيسة أبي شنودة : جا ٣٣٣
كنيسة أم الاله : جا ٢٣٧
ل -
لويية : جا ٢٧٥

- م -

الماحوز : جا ٢٧٤
مراقية : جا ٢٧٥
مربوط : جا ٢٣٨
مصيل : جا ٧٥ ، ٧٩
ملوى : جا ١٨٦
منيج : جا ٢٢١

سلطيس : جا ٧٥ ، ٧٩
سمنود : جا ٢٥
سمهود : جا ١٨٦
السواد : جا ٧٣ ، ٨٣
سيحان : جا ١٤٩

- ش -

شحر عمان : جا ٢١١
شطا : جا ١٧٣ ، ١٧٩

- ص -

صان : جا ١٧ ، ١٩

- ط -

طاء النمل : جا ١٠٧
طبرية : جا ٣١٣
طرايية : جا ٢٥٢ / جا ١٧ ، ١٩
الطور : جا ٢٠٧

- ظ -

الظاهر : جا ١٩٨

- ع -

عقبة ابن فليح : جا ٢١٠
العواصم : جا ٣١٢
عيزاب : جا ١٨٩ ، ٢١٩ ، ٢٢٣
عين شمس : جا ١٧

- غ -

الغور : جا ٢٥٤

- ف -

فارس : جا ٢٨٨
الفرما : جا ٨٢ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢١٢ ،
٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٣

منف : جـ ١٥٠ / جـ ١٧ ، ١٨	نقيوس : جـ ١٧٦
منوف : جـ ١٧	- و -
منية الأصبع : جـ ١٠٦ ، ١٠٧	وادی علاقى : جـ ١٨٩
- ن -	وادی طميلات : جـ ٢١٥
نتو : جـ ١٧ ، ٢٦	وسيم : جـ ١٧ ، ١٨
نسترو : جـ ٨٥	

٣ - كشف المصطلحات والمعاني

البسر : جا ١٦٢	- ١ -
البطائح : جا ١٥٣	الأترج : جا ١٦٣
البقط : جا ٢٠٨	الأجلة : جا ١٧٨، ٢٤٨
البنائق : جا ١٧٥، ١٧٦	الإردب : جا ١٢٤، ٢٢٤
- ت -	الأردية : جا ٩٠
التجفاف : جا ٦٠	أرض خسراج : جا ٧٤، ٩٣، ١٠٤، ١٠٦
- ج -	أرض عشر : جا ٧٢، ٧٤، ٩٦، ٩٧، ١٠٤
الجاثليق : جا ٣٣٢	الأرض المستبحر : جا ١١٣
الجام : جا ٧٩	الإزار : جا ٩٢
الجبة : جا ٨٨	الأسفاط : جا ١٦٩
الجسطال : جا ١٤٨	الأكسية : جا ١٧٨
الجالاب : جا ٨٥	أكسية المرعز : جا ١٧٩، ١٨٠
الجلبان : جا ١٦٤	الأنطاخ : جا ١٨٥
الجهبذ : جا ١٤٨	أهراء : جا ١٢٥، ١٥٩
الجواش : جا ٦٠	أهل الخمس : جا ٧٢، ٨٠
- ح -	أهل الصدقات : جا ١٠٣
الحراقة : جا ٧٤	- ب -
الحمائم : جا ٢٩٧	الباق : جا ١٥٩
- خ -	البدنة : جا ١٧٥
الختق : جا ٧٦	البرابط : جا ٧٥
الخدمة : جا ٩٤	البرنس : جا ٨٨
الخرز : جا ١٨٠	البروبية : جا ١٦٤
خشب القسي : جا ٢١١	البز : جا ١٢٥، ٢٨٥
الخلق : جا ١١٠	

- الصوامع : ج ٢ ٢٧٥
الصير : ج ١ ١٠٨ / ج ٢ ٨٠
- ع -
عرجون : ج ١ ١٦٣
العريف : ج ١ ١٢٣
العشاريات : ج ١ ٢٩٧
العلايبات : ج ١ ٢٩٧
العلايا : ج ١ ٢٩٣
علم الفرائض : ج ٢ ٣٠٥
العوسج : ج ١ ١٦٥
العيار : ج ١ ١٩٩
العين : ج ١ ٢٨٥
- ف -
الفامى : ج ١ ١٩٩
الفرسخ : ج ١ ٢١٣
الفنك : ج ١ ١٩٥
الفى : ج ١ ٧٢، ٧٨، ٧٩، ٨٨،
١٠٣، ١٣٥، ٢٨٦
- ق -
القباء : ج ٢ ٨٨
القديدية : ج ١ ٢٨٥
القراطيس : ج ١ ١٨١، ١٨٢
القرط : ج ١ ١٢٤
القرمز : ج ١ ١٨٠
القمطر : ج ١ ٣٤١
القنود : ج ١ ١٨٥ / ج ٢ ٨٣
قوارب الخدمة : ج ١ ٢٩٧
القيراط : ج ١ ٧٧، ٩٠
- د -
الدبوس : ج ٢ ٦٠
الدبقي المثلث : ج ١ ١٨٠
الدراعة : ج ٢ ٦٠
الدقس : ج ١ ٢٩٣
الدكة : ج ٢ ٧٢
الدلينس : ج ٢ ٨٠
- ر -
الراوند : ج ١ ٢١١
- ز -
الزئار : ج ٢ ٩٣، ٩٤
- س -
سداة : ج ١ ١٧٥
السفاتج : ج ١ ٢٠١
السلجم : ج ١ ١٨٧
السمور : ج ١ ٢١٢
السناديل : ج ١ ٢٩٧
السوار : ج ٢ ١١٠
- ش -
شجر اللبخ : ج ١ ٢٩٣
الشذا : ج ٢ ٧٤
الشراقى : ج ١ ١٥٩، ٢٠٣
الشرب : ج ١ ١٧٨، ٢٤٨
الشمار : ج ١ ١٦٥
الشوانى : ج ١ ٢٨٩، ٢٩٥
- ص -
الصحناء : ج ١ ١٠٨ / ج ٢ ٨٠
الصنديل : ج ١ ٢١١

- المسح والرماد : ج١ ٣٣٢
المضارب : ج١ ١٧٨
الموميا : ج١ ١٦٥
الميضأة : ج٢ ٢٨٢
- ن -
النذ : ج٢ ٧٤
النطع : ج١ ٣٠٨
النواتية : ج١ ٢٨٩
- ه -
الهجين : ج١ ١٣١
الهندبا : ج١ ١٦٥
- و -
الودك : ج١ ١٢٥
الوشى : ج١ ١٧٨ / ج٢ ٨٨ ، ٨٩
الويبة : ج١ ١٢٤ ، ٢٢٤
- ك -
الكافح : ج١ ١٠٨
كماجة : ج٢ ٧٨
الكور : ج١ ١٢٣
- ل -
اللبود : ج٢ ٩٨
لحمة : ج١ ١٧٥
- م -
مال خراجى : ج١ ٢٥٣
مال هلالى : ج١ ٢٥٣
المجسطى : ج٢ ٢٠٣
المحراب : ج٢ ٢٧٧
المد : ج١ ١٢٤
المراحل : ج١ ٢١٧
المرادى : ج١ ٢١٦
المستوفيات : ج٢ ٦٠

المحتويات

الباب الثالث :

التكوين الاجتماعى للمجتمع المصرى ٥

الفصل الأول :

تعريف المجتمع المصرى ٧

الفصل الثانى :

المرأة فى المجتمع المصرى ٤٥

الفصل الثالث :

العادات والتقاليد فى المجتمع المصرى ٥٧

الباب الرابع :

الحياة العقلية فى المجتمع المصرى ١١٣

الفصل الأول :

الحركة الفكرية فى مصر ١١٥

الفصل لثانى :

..... (الفنون) ٢٢١

٣٩٥

الباب الخامس :

- ٢٣٢ حركة البناء والتشييد فى المجتمع المصرى
٢٣٥ طبقة البنائين

الفصل الأول :

- ٢٣٧ العمائر المدنية

الفصل الثانى :

- ٢٧١ العمائر الدينية

الفصل الثالث :

- ٢٩٧ العمائر التجارية
٣١١ الملاحق
٣٢٢ المصادر والمراجع العربية والمعرية
١٩١ الكشافات

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

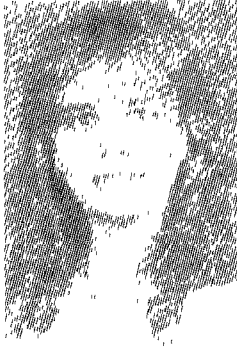


رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٤/٥٦٤٧

I.S.B.N 977-01-3999-8

General Organization of the Alexandria Library (GOAL)

المنظمة العامة لدار الكتب بـالـقـاهـرة



هذا الكتاب

فى الأصل رسالة ماجستير أعدتها الأستاذة هويدا عبدالعظيم رمضان المدرس المساعد بكلية بنات جامعة عين شمس، وهى تعالج مرحلة ربما كانت أهم مراحل التحول فى تاريخ مصر الطويل، وهى مرحلة التحول من الحكم البيزنطى إلى الحكم العربى، ومن الدين المسيحى إلى الدين الإسلامى، ومن اللغة القبطية - اليونانية إلى اللغة العربية، ومن الثقافة اليونانية إلى الثقافة العربية، ومن الشريعة والقوانين المسيحية إلى الشرائع والقوانين الإسلامية، ومن العادات والتقاليد القبطية إلى العادات والتقاليد العربية - الإسلامية، ومن الفنون القبطية إلى الفنون الإسلامية. وفى عبارة وجيزة من الحضارة القبطية - الاغريقية إلى الحضارة الإسلامية العربية.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

تصميم العلاف احمد عبد الغفار

